kitabweb-2013.forumsmaroc.com

منشورات جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث 9

النعيم المقيم

في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم

لمحمد بن محمد المَرير

تخريج: ذ. أحمد بن محمد المُرير
مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمي

الجزء الخامس

تطوان - 1428هـ - 2007م

منشـورات جمعيـة تطـاون أسميـر
سلسلة تراث 9

النعيـم المقيـم

في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم

لمحمد بن محمد المُرير

تخريـج: ذ. أحمـد بن محمـد المُـريـر
مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمِـي

الجـزء الخـامس
تطـوان - 1428 هـ - 2007 م

الكتاب : النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم
(الجزء الخامس)

المؤلف : ذ. أحمد بن محمد المرير

مراجعة : أ.د. جعفر ابن الحاج السلمي

الناشر : منشورات جمعية تطاون أسمير

الطبعة : 1428 هـ - 2007 م.

رقم الإيداع : 0794 / 2006

الطباعة : مطبعة الخليج العربي " 152, شارع الحسن الثاني - تطوان "

الهاتف : 25 02 71 039 / الفاكس: 37 05 71 039

الجزء الخامس من الفهرسة المسماة بـ :

النَّعيم المُقيم
في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم
لجامعها العُبيْد الفقير:

محمد بن محمد المُرير

وفقه مولاه
لما يحبه ويرضاه
وهو نعم المولى ونعم النَّصير

فهرسة:
علمية تفسيرية حديثية فقهية صوفية،
كلامية أدبية تاريخية، ذات أبحاث عصرية،
وحوادث وقتية، زيادة على موضوعاتها
الأصلية
(تطوان ـ المغرب)

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

[فاتحة المجلد الخامس من "النعيم المُقيم"]

الحمد لله الذي عليه، وهو الركن الشديد، في كل أعمالي وتوجهاتي أعتمد، ومن بحر جُوده المديد، الذي لا يحدّهُ حدّ ولا يمدّهُ بحرٌ أستسقي وأستمد؛ وهو الحق المبين، به أستعين وعليه أتوكّل، وهو حسبي وتعويلي وما لي على سواه المُعوّل؛ مُبدئ الخلق ووارثه، ومُبدع هذا الكون بما فيه ومدبره ورازقه، (بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). أعجز تدبيره كل تدبير، وأوقفت حكمته عقول ذوي المعارف والعرفان في الإحاطة بأسرار هذا الكون من صغير وكبير. سبحانه،(خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقا، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ) في هذه القبة الزرقاء، التي تُصبّحها وتُمسّيها أيها الناظر، وهي على حالتها المُحكمة البناء، البديعة النظام، لا يعيبها اختلال، ولا وهْي ولا انشقاق، ولا تخالف فيها ولا تنافر؛ فهي قبة شمّاء، يزينها تلك الكواكب الزهراء. فإنْ زاغ البصر وارتاب، وظهر لك في النظرة الأولى ما يُستقصر فيها أو يُعاب، فردّد النظر، وكرر التأمل، وحقق بالبصر أيها المعاند المرتاب، هل ترى في ذلك أي اختلال، أو تشاهد فيها أدنى انفطار أو انشقاق. ولهذا يقول الحق، جل جلاله: (فَارْجِعِ البَصَرَ) أيها الناظر في محيطها ودائرتها وآفاقها، وجمال نظامها ومحاسن اتساقها(هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ) أي كرر البصر، أي أعد النظر وكرره مرتين؛ (يَنقَلِبِ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا) أي ذليلا كليلا، منقطعًا عاجزًا حسيرًا في هذا التردد وإعادة النظر. قال ابن كثير:

" ومعنى الآية، أنك لو كرّرت البصر، مهما كرّرت، لانقلب إليك، أي لرجع إليك البصر، (خَاسِئًا) عن أن يرى عيبا أو خللا، (وَهُوَ حَسِيرٌ)، أي كليل، قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصًا" هـ.[396/4].

وهذا يقال لهؤلاء، الذين استكبرُوا في أنفسهم، وأرادوا أن يطاولوا ما لم يقدرُوا عليه ولا تصل إليه قدرتهم، وإن ظنوا في أنفسهم أنهم أحاطوا بما لم يُحط به أحد من البشر، واتخذوا بعض الأسباب التي أخذوها من بعض خواص الأرض التي أودعها الله فيها من المعادن وغيرها، حتى توصلوا بها إلى الطيران في الهواء، وهو شيء ليس بمحال عقلي ولا

عادي؛ إذ قد سبق إليه غيرهم من أهل القرون السابقة، ولكن رجعوا خائبين، وعن الوصول إلى ما أملوا عاجزين. وهؤلاء اليوم قد بدت لهم فيما زعموا بوادر، وتجلت لهم ظواهر وأسباب، وأطمعتهم خيالات وأوهام، حتى توصلوا فيما زعموا إلى تركيب آلات تسمح بالهواء، وسيصلون بها إلى احتلال القمر وتملك أراضيه، واتخاذ فيه منازل للسكنى، واستغلال ما في أرضه من الخيرات؛ ليتسع بها سكان الأرض التي زعموا أنها تضيق عن سكانها في المستقبل، وأن القوت فيها سيقل أو ينعدم؛ فإذا فتحوا هذه الأرض الجديدة، وهي أرض القمر، اتسع الحال، وارتفع عنهم ما يهددهم في الاستقبال.

ولكن هؤلاء القوم الذين تعدّوا طوْرهُم، وخرجوا عما تتحمله أقدارهم، وراموا تغيير نظام هذه الأكوان، وتكبدوا المشقات التي آلوا فيها بالخسران، ولم يعلموا أن الخالق المختار، كل شيء عنده بمقدار، لا يمكن[للإنسان] الخروج عما حدّ له، ولا يتعدى طوره الذي أعد له؛ إذ أسكنه أرضه، وقدّر لكل واحد رزقه، وحدّد له أجله وعمره.

فمن حاول شيئا خارجا عن هذا فقد أتعب نفسه، وتخبطه الشيطان وأذهب عنه إدراكه وحسه. وسوى الله في إلزام الثقلين - جنه وإنسه - ما حدد لهما، وأنهم لا ينفذون ولا يخرجون من أقطار الأرض ونواحيها، ولا من أطراف السماوات وأنحائها، وأن من ادعى الخروج عن ذلك فعليه الإتيان بالحجة الواضحة، والأدلة الصحيحة الراجحة؛ ولا قدرة لهم عليها، لا في خرق تلك الحدود ولا الوصول إليها، إذ قال تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِ والإنْسِ إن اسْتَطَعْتُمُوا أنْ تَنْفُذُوا مِنَ أقْطَارِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ فَانْفُذُوا، لاَ تَنْفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطَانٍ.) فقد تحداهم، جل جلاله، بهذا وأمرهم بذلك أمر تعجيز، وكلفهم في ذلك بما لا يقدرون عليه، بأن يقيموا على ذلك الحجة الصحيحة التي لا يقدر على ردها أحد، أي لا كهذه الحجة الواهية والسفاسف الفلسفية التي لا تقبلها العقول الراجحة، ولا تلتفت إليها الآراء الصائبة؛ من أنهم سيملكون هذه الكواكب السيارة، ويستولون عليها وعلى سكانها.

وكانت هذه الطائفة المدبرة لهذه الأعمال، والمشتغلة بإضاعة النفوس والأموال، كلما خاب مسعاها وأخطأ مرماها، وأرسلت فوجا وألقت به إلى التهلكة، ورجع من رجع ولم يأت بفائدة؛ أصبحت تذر الرماد في عيون من يؤمن بأعمالها، ويرى إصابتها في ضلالها، فتارة تزيد في الأجل، وتارة تبيّن أن هذه الرحلة وقع فيها بعض الخلل، وستعقبها رسالة أخرى تبلغ أقصى المراد، حين يتم الاستعداد.

ولكن هذا الفوج الأخير الذي أذيع عنه أنه لم يبق بينه وبين الوصول إلى أرض القمر إلا نحو مائة ميل أو نحوه، أقبر ذكره بعد القفول، وما سمعنا قط أنه يريد الرجوع، وهو مهد الطريق، وشاهد القمر عن كثب، لينال الوصول.

بل أحسن ما أذاعته الصحف عنه؛ أن هذا الفوج كان مؤلفا من أربعة أشخاص، وأن(البابا)، رئيس الديانة عندهم، استدعى أحدهم وسأله عن رحلته، وما لقي فيها وشاهد ببصره. فأجابه: بأنه لم ير شيئا إلا ما عرَّفهُ بعظمة الباري، جل جلاله، وما يظهر من آثار قدرته، أو كلاما هذا معناه.

وهذا الرجل أنصف وتكلم بالحق، وأعلن بالتوحيد، وجاء بمقتضى قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَق).

قلت: وقد وصلني عن بعض أهل الديانة المسيحية، ومنهم رئيسهم(البابا)، أنهم يقولون: إن الاهتمام والسعي في الاطلاع على ملكوت السماوات، من القمر والسيارات ونحوها، يزيدُ في المعرفة بالله.

قلت: وقد كنتُ نقلت عن الفخر الرازي ما يوافق هذا القول، لكن من دون الوصول إلى هذا التجرؤ والتضليل. والمُلك لله الواحد القهار، الذي إليه المرجع في الحقير من هذا الكون والجليل.

أما الفوج الأخير الذي نال، فيما زعموا، الوصول إلى القمر، ومشى على ظهره واستقر، وأخذ منه التراب والحجر، وكان مؤلفا من شخصين قويين انتخبا من الجيش: أما أحدهما، فيقال إنه لما قارب الوصول أو وصل، فيما زعموا، اضطرب قلبه اضطرابا خرج عن المعتاد، وكاد يموت جزعا وخوفا. ثم ذاع عنهما أن أرضه جحيم لا يمكن الإقامة فيه، بحيث حدّثا أنهما لم يقدر أحدهما على إخراج أي حاسة من حواسه، وهما على ظهره، بل بقيا داخل تلك الآلة الراكبين فيها، المعدة لإبعاد الحرارة، كذا قيل.

فكان هذا الفوج هو الفاتح لباب النجاح في زعمهم، ولكن كان هو الساد لباب هذه الفتن ولها خاتم.

وأصبحت هذه الفئة في توليد مشغلة أخرى، وأعرضت عن القمر، ووجهت الأنظار إلى ما هو أدهى وأمر، وأعظم وأكبر، وأبعد من أن يصل إليه واصل، وأين الثريا من يد المتناول؛ إذ أذاعت للعموم أن القمر ليس في احتلاله فائدة، لأنه غير صالح للسكنى، وأن غلبة الظن تقتضي أن يكون المريخ به سكان، وأنه صالح لذلك!. هذا ما عند هذه الفئة الأمريكية. أما

دولة الروسيا التي تنافس أمريكا في هذا الميدان، فإنها آثرت الهدوء والسكون، وآثرت السكوت، ولم تخاطر بإنسان أن تلقي به في هذه التهلكة،[إذ]تحققت أن الاستيلاء على أرض القمر لا يمكن ولا يكون.

وفي الختام يقال للأمركانيين: كرَّرتم تردد الأفواج، وخضتم في بحر تلك الأمواج، وأتعبتم نفسكم في مقدمات ما لها من إنتاج، فرجعتم لمقالة رئيسكم الهالك(إزنهاور) لرئيسكم المقتول: إن الاشتغال بمثل هذه الأعمال، من قبيل الحمق والخور، وآيب إلى الدولة في المال والأنفس بالضرر.

فارجع أيها المؤمن، المفتتن بهذه الأوهام، إلى المالك سبحانه، وتمسك بنص قرءانه:(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا)، وقوله: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ). وبيده سبحانه مقادير السماوات والأرض، وهو للكل مدبر أحسن تدبير، وعلى كل شيء قدير.

هذا، وقد أسلفنا الكلام سابقا، آخر المجلد الثاني من هذه "الفهرسة"، في هذا الموضوع، وما قاله في ذلك المتقدمون والمتأخرون من أهل الإسلام وغيرهم، بما فيه الكفاية؛ إلا أن الأمر فيه ازداد تقدما، وأبدت لهم تجاربهم ما أطمعهُم في الوصول إلى مرماهُم. ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وأبدت لهم القدرة الإلهية أنهم بهذه المحاولات إنما هم في العذاب الهون بما يصنعون.

وهذه الأطماع التي بدت اليوم في هذه الفئة التي استكبرت في أنفسها، وظنت لعتوها أنها وصلت إلى ما لم يصل إليه قبلها بشر، حسبما سبق؛ هو الذي دعانا لإدماج هذه النبذة في افتتاح هذا المجلد الخامس، جريا على ما قررناه في مقدمة"الفهرسة"، من أننا نأتي بما يمكن في شأن الحوادث الجديدة من الدينية والدنيوية. والله الهادي، وهو المعين على مرادي، لا رب سواه، ولا حمى يحتمي به العبد المؤمن إلا حماه.

* * *

ثم نرجع إلى إكمال استفتاح هذا المجلد فأقول:

والصلاة والسلام على النبي الكريم، الرسول الذي أتانا بالذكر الحكيم، الهادي به إلى الصراط المستقيم، الدّاعي به إلى دار السلام وجنة النعيم، الذي جاء بالنبإ العظيم، وأتى به عن الله وهو لسعادتنا رائد، وإلى نجاتنا من أهوال يوم القيامة والخلود في نار الجحيم عائد.

صلى الله عليه وسلم وعلى آله، القائمين معه على نصرة الحق، وتبليغ ما تلقوه منه من الدّين في أقواله وأفعاله.

أما بعد؛ فإن الله سبحانه وعد عباده المؤمنين، المتوجهين إليه بالدعاء والابتهال مخلصين، أنه يجيب دعاءهم، ويبلغهم آمالهم، بمحض الفضل والامتنان، فقال:(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ).

وقد كنتُ في أول المجلد الرابع، بعد ما قدَّمتُ حمدي وثنائي، الذي لا قدرة لي على إحصائه، لعظيم امتنانه وتواتر نعمائه؛ قدْ مَدَدْتُ يدي بالذل منكسرًا إليه، ووجهت وجهتي بالسؤال منه والدعاء لديه، أن يعين على إتمامه، وأنا في ذلك وجلٌ خائف من أن يحول بيني وبين إكماله حائل، أو يصرفني عن إتمامه صارفٌ حتى لا أحصل من مقصدي على طائل؛ ولكنه سبحانه أعطاني من القوة ما لم يكن يخطر لي ببال، وزوّدني من عونه وتوفيقه ما نلتُ به غاية الكمال. فجاء هذا المجلد أضخم من الأول، إذ كان لي في كل ابتدائي وانتهائي عليه، جل وعلا، المعوّل.

****

وهاأنا أشرع في افتتاح المجلد الخامس، مفوضا أمري إليه، ومحسنا ظني به، ومتيقنا نصرتي به. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وبه أستغيث، وبذكره أفتتح، وبه أختتم:

[متابعة الكلام على مراحل الحديث
بذكر المرحلة السادسة]

ولنتابع أعمالنا بذكر المرحلة السادسة، والمراحل التي اجتازها علم الحديث بحسب تقسيمنا، فأقول:

إن المرحلة التي خرجنا منها، وهي الخامسة، جعلنا مبدأها من أواسط القرن الرابع إلى منتهى السادس. وسنجعل مبدأ هذه المرحلة السادسة من أوائل القرن السابع إلى منتهى الثامن.

[الإمام ابن الصلاح،
مقدَّم هذه المرحلة، الذي وصف حال الحديث
في القرن السابع]

وينبغي أن يكون مقدّم هذه المرحلة وزعيمها؛ أبا عمرو، عثمان ابن الصلاح، أحد أئمة المسلمين علما ودينا، صاحب كتاب "علوم الحديث"، الذي صار بعده للراغب في

معرفة مُصطلح الحديث عُمدة، ولمن يريد أن يُناضل في أنواعه عُدَة، أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه، والمشاركة في فنون عدَّة. كما قاله ابن خلكان.

وقد وليَ دراسة العلوم في مدارس كثيرة، ومشيخة دار الحديث الأشرفية. وكانت وفاته في أواسط القرن السابع، أي سنة 643، وازدحم خلق كثير على جنازته. قال التاج السبكي: ودفن بطرف مقابر الصوفية. قال: وقبره يُزار ويتبرّك به. قيل: والدعاء عنده مستجاب. [طبقات الشافعية: 138/5].

وهذا الإمام الكبير، هو الذي يصف لنا حال هذه المرحلة السادسة في الحديث، إذ يقول، شارحا لحال الحديث في هذا القرن السابع، بعد أن كان حاله في القرون السالفة من العناية بشأنه، والإقبال على حفظه وضبطه، ما سبق لنا ذلك بوصفه بلفظه. ثم قال في وصف ما آل إليه أمره من الإدبار بعد الإقبال:

"فلم يزالوا ـ أي أهل الحديث ـ في انقراض، ولم يزل في اندراس، حتى آضت به الحال إلى أن صار أهله إنما هم شرذمة قليلة العدد، ضعيفة العُدد، لا تغني عن الأغلب في محمله بأكثر من سماعه غُفلا، ولا تعنى بأكثر من كتابته عُطلا، مطرحين علومه التي بها جل قدره، مباعدين معارفه التي بها فخُم أمره".

ثم بين أن هذا الإهمال هو الذي بعثه على تأليف كتابه "علوم الحديث". وقد كنتُ نقلت كلامه هذا في غير محله، ولكن محله هو هذا؛ إذ أبان لنا به أن هذه المرحلة ضعف أمر الاعتناء بالحديث فيها، وقصرت همم أهل العلم عن الاستظلال بظله الوارف. فقصرت في هذا العلم معارفهم، ورخصت عند حفاظ الحديث المتقدمين قيمتهم، وانحطت بسبب هذا الإهمال رفعتهم.

فلم يتخلف عن هزيمة هذه الكتيبة الخضراء، والفئة الغالبة الكبرى؛ إلا شرذمة قليلة، وسرية جليلة، لا يستطيع جلها الباقي رد ما ضاع، ولا إعادة هذه الكثرة إلى ما أضاعته من الأوضاع.

<u>ولكن مع هذا</u>؛ فإن ما قاله هذا الإمام لا يمكن حمله على إطلاقه. بل مراد الشيخ، رحمه الله، أن الأمر في هذا العلم اعتراه الكساد، ولم يبق كما كان على ما كان من الاغتباط به ونفاقه؛ وإلا فقد كان هو، رحمه الله، يتعاطى تداريس في دمشق، في جملة من المدارس، وكان بالخصوص يتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية، وهذا كاف في كون علم الحديث لم يزل مقامه محفوظا، والقائم بدراسته ملحوظا. ولو كان منحطا مرفوضا، لما

تولى مشيخة دار علومه هذا الإمام الجليل، الذي تتلقاه العامة والخاصة بكل تعظيم وتبجيل، وناهيك أن احترامه لدى الناس كان في حياته وبعد مماته، فقد قال التاج السبكي إن قبره الآن بدمشق يُزار، وإن الدعاء عنده مستجاب.

[مفـــاخرة هذه المرحلة لما قبلها، بما امتازت به من حفاظ كبار]

ومما يقال هنا: إن هذه المرحلة التي كانت في هذا القرن السابع، ربما جاءت لتفاخر ما قبلها وتسابقه، إذ كان فيها حفاظ كبار، خدموا هذا العلم خدمة صادقة، ووضعوا فيه أوضاعا فائقة، واستخرجوا منه نكتًا رائقة، وفوائد لهذا الفن لائقة. وسنذكر أسماء بعض مشاهيرهم؛ فمنهم:

[الحافظ المنـذري]

الحافظ المنذري، وهو الحافظ الورع الزاهد، ركن الدين، أبو محمد المصري، ولي الله الذي ترتجَى الرحمة بذكره، كما قاله التاج. ثم قال:

{كان، رحمه الله، قد أوتي بالمكيال الأوفى، من الورع والتقوى، والنصيب الوافر من الفقه. وأما الحديث، فلا مِراء في أنه كان أحفظ أهل زمانه، وفارس أقرانه، له القدم الراسخ في معرفة صحيح الحديث من سقيمه، وحفظ أسماء الرجال حفظ مفرط الذكاء عظيمه، والخبرة بأحكامه، والدراية بغريبه، وإعرابه واختلاف كلامه}.

ثم ذكر الشيوخ الذين روى عنهم ببلده، وغيرها من البلدان، في مكة ودمشق وحران والرها والإسكندرية، وغيرها. قال:

{وله "مختصر" سنن أبي داود وحواشيه؛ كتاب مفيد، و"مختصر صحيح مسلم"، وخرج لنفسه معجما كبيرا مفيدًا}.[الطبقات:108/5].

وناهيك أن الحافظين الدمياطي وابن دقيق العيد، به تخرجا، وببركته في سماء الحديث استنارا، وفيه قال الحافظ الذهبي إنه ما كان في زمانه أحفظ منه. وكان في آخر عمره ممن درس بدار الحديث الكاملية، وكان ملازما التدريس فيها، إلا لصلاة الجمعة. وكانت وفاته سنة 656.

***

[نكبة التتار وما فعلوه بالمسلمين، وما أعقب ذلك من نكبات]

وهي السَّنة المشئومة، [أي سنة656] التي أصاب أهل الإسلام تلك المصيبة، فأبكت العيون، وأسالت واكف الدموع، وكربت الجنوب عن مضاجع الهموم، وجرى على المسلمين وأقطارهم، من التقتيل والسلب والتخريب، والإهانة لمساجدهم ومحالّهم المقدسة، ما لم يكن يخطر ببال، ولا سيما في عاصمة بغداد، التي امتد فيها الحال، وتحكمت في سكانها النبال والمُدى، واستطال فيها عُتُوّ العِدا، حتى استنزلوا الأمراء من أسرّتهم، وعاثوا وعبثوا بأزواجهم وذرياتهم. ولم يقفوا هنا، بل تعدوا إلى أن صاروا يجبرون الناس على ترك الدين، والتمسك بدين الكافرين. ولقد أطال التاج في شرح هذه المصيبة السوداء، والداهية الدهياء التي صُبّ فيها على المسلمين وابل البلاء صبا.

ولكن كل ذلك كان بما جنته على نفسها هذه الأمة، من المخالفة والتفرق في الطرق، والنزاع بين الفرق، واتباع الأهواء الخارجة عن السواء، والإغارة على المحرمات، وإيثار قبيح الشهوات، وطرح الأخوة الإسلامية، والتكالب على هذه الأعراض الدنيوية الفانية، وتغيير الحدود، وإيثار الراحة واستحلاء التنعم بالفُرُش والأسرّة، وجعل ذلك هو أكبر فوز وأعظم مسرة. والعدو من ورائهم يترقب بهم الدوائر، ويكيد لهم المكائد، وهم عن ذلك غافلون، وفي خوضهم يلعبون، وبالقيل والقال الخالي عن الفائدة يتفكهون. لا يحزنهم احتلال الأطراف، ولا ما يشاهدون ما عليه حالة الديانة من الانصراف.

وهذه النوائب التي تصيب هذه الأقطار، لا زالت في استمرار، فمهما جرت داهية قاصمة، إلا وأعقبتها أختها أكبر منها.

فأين صقلية وفقهاؤها، وما قام بها من الدولة التي كان يحرسها رؤساؤها وقوادها، وتكيد بالعدو كيدا، حتى ينشق من الهزيمة أكبادها.

وأين الأندلس، وهي جنة الدنيا التي زهت برياضها ومنتزهاتها، وفاخرت أهل الحضارة بزخرفة قصورها، وبديع زهرانها، وسابقت عواصم الدنيا عاصمة قرطبتها، بعظمتها وكثرة سكانها، واتساع أرجائها، وتزاحم مارتها، مع كونها كانت المعهد العالي، والمنار المتلالئ، لما حوته من أكابر العلماء، وأساطين النبلاء الأذكياء، وأهل الاجتهاد الفقهاء، ومشاهير المحدثين أهل الرواية والإملاء؛ إلى ما كان فيها من الحكماء والأطباء،

وأهل الإجادة في سائر الفنون والاستنباط لدقائق الصنائع ورقائق الهندسة، مما يطول شرحه وذكر جزئياته؛ لأنه في التاريخ مسطر ومرسوم.

وهكذا وقع في سائر العواصم منها، إلى أن تماسكت بعض أطراف هذا القطر العزيز، وانحصرت بقاياها، بعد أن بلغت النفس التراقي، وعظم داء الاختلال، ولم ينفع في معالجته طبيب ولا راقي، في مدينة غرناطة، حيث أقامت بها بنو نصر دولتهم، وحاولوا فيها استرجاع بعض نفوذ هذه النبذة الباقية، والاستمساك بهذه القطعة المتخلفة عن استيلاء الطاغية، عن أخواتها التي كانت لها المكانة العالية، فاستقلت فيها بعض الأحوال، واستقلت دولتها في ظاهر الحال، وأصلحت ما وهى من أبنية آثارها، واعتنى أمراؤها ورؤساؤها بتشييد دورها وقصورها، وزخرفة مساكنها، والتباهي في ذلك بين أمراء البلاد ونظرائها. وناهيك بقصر الحمراء، الذي لا زال من الآثار، التي تقصد للاعتبار.

ثم دبّ بين رؤسائها ذاك السم القاتل، والداء الذي أصيب به أهل الإسلام، وأذهب ريحهم في الآجل والعاجل، حتى أحيط بالكل، واستحوذ على الجزيرة كلها العدو الصائل، وطرد الكل منها طرد الذليل الحقير. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير.

وهذا كله بسبب التغيير، والخروج عن الصراط المستقيم، والله (لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ). [الرعد:11].

وهذا شيء يعرفه الخصوص والعموم، ولكنه كلام يُتلى على المسامع، ويُذكر ذكر الخرافات في المجامع، وربما يُجعل تأنيسًا في الأسمار، دون تأمل ولا اعتبار.

وهكذا كان شأن سائر الممالك والأقطار، التي تعد في الجغرافية من أهل الإسلام، وهو في كل يوم في ازدياد، وشريطه في امتداد، وطوامّ حوادثه في اشتداد، واستيفاء عدد مصائبه لا يمكن أن يسطر، وتفسير أحوال هذا العصر العصيب يتعسَّر أو يتعذَّر.

[حرق اليهود للمسجد الأقصى في الوقت الحاضر]

وأكبر حادث جلل وقع في هذه الأيام؛ تحريق اليهود لبيت المقدس، أحد المساجد الثلاثة المقدسة في الإسلام، التي لا تشد الرحال للصلاة فيها إلا هذا المسجد، والمسجد الحرام، ومسجد النبي، صلى الله عليه وسلم، بالمدينة. ولكنّي هنا أكسِّر معزل قلمي، وأقف ولا أزيد في الموضوع، لأنه يضاعف ألمي، وأرجع إلى الهدوء والسكون، وأقول: ما قدَّر الله لا بد أن يكون.

[مواصلة ذكر مشاهير هذه المرحلة بترجمة الحافظ ابن النجار البغدادي]

ثم أرجع لموضوعي، فأقول: وممّن يُعد في هذه المرحلة من أهل الحديث، الحافظ الثقة، أبو عبد الله، ابن النجار البغدادي، مؤلف "ذيل تاريخ بغداد" للخطيب، وتصانيف أخرى في السنن والأحكام. سمع من شيوخ عدة بالشام ومصر والحجاز وإصبهان ونيسابور، وغير ذلك، حتى اشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ، كما قاله التاج في "طبقاته". وكانت وفاته ببغداد سنة 643.

[الحافظ محب الدين الطبري]

ومما يعد فيها أيضا: الحافظ محب الدين الطبري، وهو أبو العباس، أحمد بن عبد الله ابن محمد الطبري، ثم المكي، شيخ الحرم، وحافظ الحجاز بلا مدافعة، وهو من شيوخ الحافظ البرزلي. قال التاج السبكي: وصنف التصانيف الجيّدة، منها في الحديث:"الأحكام"، الكتاب المشهور المبسوط، دلّ على فضل كبير. وله "مختصر" في الحديث أيضا، رتبه على أبواب التنبيه. قال: استدعاه المظفر، صاحب اليمن، ليسمع عليه الحديث، فتوجه إليه من مكة، وأقام عنده مدة، وفي تلك المدة نظم قصيدة يتشوف إلى مكة، منها:

مريضك من صدُودك لا يعادُ   به ألم لغيـرك لا يُـعـادُ

وقد ألِف التداوي بالتّدانـي   فهـل أيام وصلكم تُـعـادُ

إلى أن قال: أريـد وصاله ويريد بُعـدي   فما أشقى مريدًا لا يُـرادُ

كان مولده سنة عشر وستمائة. ولم يذكر التاج وفاته. [الطبقات:9/5].

[أبو العباس اللخمي الأندلسي]

وممن يُعد منها أيضا: أبو العباس اللخمي، الأندلسي الإشبيلي، المشهور بابن فرْح، نزيل دمشق. قال في حقه الحافظ الذهبي - وهو قول كاف في التعريف به - : وأقبل فيها، يعني في دمشق، على تحرير المتون وفهمها، فتقدم في ذلك، وكانت له حلقة إملاء في جامع دمشق يقرأ فيها في فنون الحديث. حضرت مجالسه وأخذت عنه، ونعم الشيخ كان، سكينة ووقارًا، وديانة واستحضارًا. مات بتربة أم الصالح في جمادى الآخرة، سنة 699، أي أواخر المائة السابعة، وهو صاحب القصيدة اللطيفة في مصطلح الحديث، التي أولها:

غرامي صحيح والرَّجا فيك مُعضَلُ   وحزني ودمعــــي مرسل ومسلسلُ

[12/5]

[عز الدين ابن الأثير]

وممّن يلحق بهذه المرحلة: عز الدين ابن الأثير، صاحب "الكامل" في التاريخ المشهور، وهو أحد الإخوة الثلاثة الذين كلهم من العلماء الأماثل؛ أحدهم عز الدين هذا. وثانيهم المحدث اللغوي، مجد الدين، صاحب "جامع الأصول"، وتقدم ذكره في المرحلة السابقة حيث عددناه ممن دخل في مرحلة التكميل والتفسير، وذكر طرق الحديث وجمعه لأصوله الستة. وثالثهم الوزير ضياء الدين، صاحب "المثل السائر"، الشهير.

أما عز الدين هذا، الذي ألحقناه بهذه المرحلة السادسة، فهو المؤرخ الشهير، وشهرته إنما هي بـ"التاريخ" لشهرة كتاب"الكامل" بذلك. ولكن أقبل في آخر عمره على الحديث، وسمع العالي والنازل، كما قاله التاج السبكي، ولهذا صار يعد من المحدثين الحفاظ. وله من المؤلفات، ما عدا "الكامل": "مختصر الأنساب" لابن السمعاني، وكتاب في معرفة الصحابة اسمه"أسد الغابة". قال ابن خلكان، حسبما نقله عنه التاج السبكي: كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء. اجتمعت به بحلب، فوجدته مكملا في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق. توفي في رمضان سنة 630 هـ [الطبقات:127/5].

أما مجد الدين، الذي ذكرناه هنا باقي الثلاثة، وأحلنا على ما ذكرناه في شأنه في المرحلة السابقة؛ فإن ذكره هنا أليق، وإدماجه فيها أحق، لدخوله بحسب ما قسمناه في القرن السابع، لكن يرجح ذكره فيما سبق كون عامة عمره كان داخل القرن السادس، لأنه توفي سنة 606؛ فمؤلفاته التي أوجبت إدخاله في تلك المرحلة، إنما كانت داخل القرن السادس، بحسب العادة، لأن فيها كان معظم حياته التي يمكن له فيها تأليف معلوماته. والعلم كله لله.

[الإمام محيي الدِّين النووي]

وممّن يلحق بهذه المرحلة، الإمام المتبرك بمؤلفاته وآثاره، وإلى رياضه يأزر الصالحون، ويتوسل أهل الذكر بأذكاره: الشيخ محيي الدين النووي. قال التاج فيه: له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة. هذا مع التفنن في أصناف العلوم، فقها ومتون أحاديث

وأسماء رجال، ولغة وصرفا وغير ذلك. ثم قال: وإذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله، إلخ. وذكر ما قاله فيه والده تقي الدين، لما ولي تدريس دار الحديث الأشرفية بعده:

وفي دار الحديث لطيف معنى على بُسْـطٍ أصبُـو وآوي
لعلي أن أمس بحُرّ وجهي مكاناً مسّهُ قَدَم النَّوَاوي

هـ [166/5].

نعم؛ قد أجحف التاج في ترجمة هذا الإمام، ولم يؤد الواجبات التي يستحقها برفعة المقام، مع أن عادة التاج أن يبسط المقال ويطيل مد القلم، فيمن هو أقل شهرة من أهل المذهب الأعلام، حتى إنه لم يذكر ما خلفه من المؤلفات الفقهية التي هي عند الشافعية من كتب المذهب المعتمدة؛ وإنما أشار إلى ذلك إشارة خفيفة، إذ قال: لا يخفى على ذي بصيرة أن الله، تبارك وتعالى، عناية بالنووي وبمصنفاته. ثم ذكر مسألة له في "مختصر" كتاب الرافعي.

ولكن ذلك غير كاف، ولا في نشر ما لهذا الإمام من المؤلفات والآثار مقنع ولا شاف.

أما في الحديث؛ فإن له "شرح صحيح مسلم"، الذي تلقاه الأئمة بالقبول، وطلع في أفق شراحه نجما ساطعا ما له أفول، وأحرز التقدم بتحرير الشرح وتحقيق النقول. قال العلامة ابن خلدون، في تعداد شروح مسلم، بعد ما ذكر "شرح" المازري و"إكمال" القاضي عياض، حسبما سبق، قال: وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما، فجاء شرحا وافيًا. هـ [المقدمة:391].

ومن مؤلفاته الحديثية كتاب"رياض الصالحين"، وهو كتاب مفيد لمن أراد اتباع سنة سيد المرسلين. وكتاب"الأذكار" التي وردت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في صحيح الأخبار، التي تذكر عند حصول أسبابها وأوقاتها، مما هو كنز من الكنوز التي يدخرها الذاكرون والذاكرات، الذين أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما.

وله:"الأربعون النووية" الشهيرة، التي اعتنى العلماء بها وشرحها، وناهيك أن الإمام المجمع في عصره على علمه وديانته وإمامته، تقي الدين ابن دقيق العيد، الذي سيذكر في هذه المرحلة بعدُ، [قام بشرحها].

وله غير ذلك من المؤلفات النفيسة، التي من محاسنها الاقتصار على الواضح البين، والصحيح من الأخبار. وكانت وفاته سنة 676 .

[ابن دقيق العيد - كراماته وأحواله وفوائده]

ومن هذه المرحلة، التي هو فخرها ونجمها الوقاد في سماء معارفها، بل هو بدرها: أبو الفتح، تقي الدين، ابن دقيق العيد، وهو كما قال التاج: "الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، الحافظ الزاهد، الورع الناسك، المجتهد المطلق، ذو الخبرة التامة بعلوم الشريعة، الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل السادة الأقدمين".

ثم أفاض في ذكر أوصافه الجميلة، وشيمه الفائقة النبيلة، ثم نقل عن الحافظ اليعمري ما أيد به ما حلاّه به من الفضائل، فقال بعد جملة قدمها:

"وكان للعلوم جامعا، وفي فنونها بارعا، مقدما في معرفة علل الحديث على أقرانه، منفردا بهذا الفن النفيس في زمانه".

وانطلق في هذا المضمار، وقال إنه لا يشق له غبار، إلخ. ثم أشار إلى أنه كان مبرزا في العلوم النقلية والعقلية، وأنشد:

وكان من العلوم بحيث يقضى   لـه مـــن كـل علـم بالجميـــع

ثم بعد أن نقل كلام هذا الحافظ الطويل الذيل، الصحيح في النقل، قال التاج: قلت: ولم ندرك أحدا من أشياخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة، المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي، صلى الله عليه وسلم، وأنه أستاذ زمانه علما ودينا.هـ [3/6].

<u>قلت</u>: وناهيك من علو مرتبته في الاطلاع، وله في كل علم، نقلي أو عقلي، طول الباع؛ أنه كان إمام مذهب الشافعي، كما كان إمام مذهب مالك، فكان مفتي المذهبين، ومؤلفا معتمدا في فروع الإمامين. وقد شرح من كتب المذهب المالكي "مختصر"ابن الحاجب، الشهير عند المالكية ومعتمدهم، ومنه استمد الشيخ خليل، ولكن، من الأسف أنه لم يكمله. كما أنه علق "مختصر" التبريزي في فقه الشافعية.

أما آثاره في الحديث؛ فقال التاج السبكي:

{ ومن مصنفاته كتاب"الإمام" في الحديث، وهو جليل حافل لم يصنف مثله. وكتاب "الإلمام" وشرحه، ولم يكمل شرحه. وأملى "شرحا" على"عمدة" عبد الغني المقدسي في الحديث}.[4/6].

قلتُ: وقد طبع طبعا جيدا، وهو شرح مختصر مفيد، وهو في خزانتنا، ولما وقع بيدي كنتُ معجبا به، ومدمنا لمطالعته. وله غير ذلك من المصنفات كشرحه لـ"الأربعين النووية"، وهو في نسق "شرح العمدة"، ولم يتعرض له التاج السبكي.

وفي كونه كان مبرزًا في المذهبين ولأزمتهما مالك، وأنه أحرز قصب السبق في تحقيق فروع الإمامين الشافعي ومالك؛ قال[فيه]التونسي - أحد العلماء الكبراء، النظار، ركن الدّين التونسي - من قصيدة:

صبا للعلم صبًا في صِباهُ   فأعـل بهمة الصَّبّ الصَّبيّ
وأتقن، والشباب له لباس   أدلـة مالـك والشـافعـيّ

وكانت وفاة هذا الإمام الجليل سنة 702. ولهذا الشيخ كرامات ومناقب جليلة، ذكر منها التاج في"الطبقات" ما وقع له مع العلماء الذين كانوا يقرءون صحيح البخاري بأمر السلطان لدفع التتار، وأنه أخبرهم بالفرج قبل وقوعه، حسبما تفيد القضية بتمامها عند المناسبة.

ولا غرو في صدور الكرامات من أمثال هذا العلامة الهمام، الذي هو في كل علم إمام، مع ما كان له من الزهد في الدنيا، والورع والنسك وقيام الليل وتلاوة القرآن، وعمارة الأوقات بما يرضي الرحمان؛ لأنه، إن لم يكن هذا العالم من أولياء الله الذين تنخرق لهم العوائد، ويبلغهم إليه فيما وجهوا إليه همتهم من المقاصد؛ فليس لله في هذا الكون من ولي، إذ هؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى: (ألاَ إنَّ أوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحزَنُونَ، الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدّنيَا وَفِي الآخِرَةِ).

اللهم اجعلنا يا مولانا من خدامهم، وأدخلنا في دائرة زهدهم وورعهم، والسير على أقدامهم، آمين.

هذا، ومما يلحق بما تقدم، من كون هذا الإمام من حاملي لواء هذه المرحلة في الحديث؛ ما صدّر به في خطبته في "شرحه للإلمام" في الحديث:

"أما بعد حمد الله، فإن الفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاها، ولا تحتجب عن العقول طوالعها وأضواها. وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل، البحث عن معاني حديث نبيه المرسل، إذ بذاك تثبت القواعد، ويستقر الأساس، وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس. وما تعين شرعا تعين تقديمه شروعا، وما يكون محمولا على الرأس لا يحسن أن يجعل

موضوعا. لكن شرط ذلك عندنا أن يحفظ هذا النظام، ويجعل الرأي هو المأموم والنص هو الإمام، وترد المذاهب إليه، وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه".[الطبقات: 12/6].

ثم صار يُجري قلمه البليغ الفصيح، بالتنويه بعلم الحديث، ويرد على من تنكّب عنه بالكناية والتصريح. وتلك العبارات الرائقة، وتلك الجمل الجميلة البديعة المتناسقة، تُعرفك أيها القارئ النبيل، المحصّل لقواعد العلوم من المنقول والمعقول، أن هذا الإمام بلغ أقصاها، واستوفى مباحثها وحصل أبوابها وفصولها واستحصاها. فرحم الله تلك الذات الجليلة لتلك الروح، التي لا يحصي محاسنها الكبرى الشروح.

قلت: ومن فوائد هذا الإمام، التي تدل على علو شأنه، وشرف مقامه ومكانه، ما وقع له مع أبي العباس المرسي. وذلك، حسبما ذكره التاج السبكي عن بعض الصالحين، أن أبا العباس مرّ بأناس يزدحمون على دكان خباز، في سنة الغلاء، فوقف عليهم، فوقع في نفسه: لو كان معي دراهم لآثرت هؤلاء بها، فأحس بثقل في جيبه، فأدخل يده، فوجد دراهم جملة، فدفعها إلى الخباز، وأخذ بها خبزا فرقه عليهم. فلما انصرف وجد الخباز الدراهم زيُوفا؛ فاستغاث به، فعاد ووقع في نفسه، أن ما وقع في نفسه أولا من الرقة اعتراض على الله، وأنا أستغفر الله منه. فلما عاد وجد الخباز الدراهم جيّدة، فانصرف أبو العباس، وجاء إلى الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، وحكى له الحكاية، فقال له ابن دقيق العيد: يا أستاذ: أنتم إذا رقيتم على أحد تزندقتم، ونحن إذا لم نرق على الناس تزندقنا. قال التاج السبكي عقب هذه الحكاية:

"قلت: تأمل أيها المسترشد ما تحت هذا الجواب من المعنى الحقيقي، فقد أشار الشيخ به، والله أعلم، إلى أن الفقيه يطلع على الأسرار، فكيف يرق!، ولا يقع شيء في الوجود إلا لحكمة اقتضته. ومن اطلع على الذنب لم يرق للعقوبة، وقد قال الله تعالى: (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ)؛ والفقيه لا اطلاع له على ذلك، فيرق ديانة ورأفة". هـ[5/6].

قلت: وهذا المعنى هو الذي أشار إليه صاحب"الفتوحات"، في باب الوصايا، إذ صدر هذه الوصية بقوله: إحذر أن ترجح نظرك على علم الله في خلقه. وختمها بقوله: وهذا باب قد أغفله الناس وأغلقوه على أنفسهم، فما يُرى أحد إلا وله في ذلك نصيب، ولا يعلم ما فيه عند الله. انظر تمام الوصية فيما سبق، فقد ذكرناها بتمامها.

هذا، وإني لأجد في نفسي ارتياحا كبيرًا، وانشراحًا في صدري عند ذكر أمثال هؤلاء العلماء العاملين، الذين هم ورثة الأنبياء في علمهم وعملهم، وزهدهم في الدنيا وعرضها

الفاني، فأود أن ألحق بهم في سيرهم، وأقتدي بهم في أعمالهم، فأدرك غاية الأماني، وأكون في زمرتهم وفي حمايتهم (يَوْمَ تَجِدُ كُل نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِن خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدّ لو أنَّ بينهَا وَبَينهُ أمَدًا بعِيدًا)، وممَن شملته محبة الله بزهده، ونال قربه، جل وعلا، بتخليه عن دنايا الدنيا وبعده، بمقتضى قوله، عليه الصلاة والسلام، وهو إمام الزاهدين الذي أتته الدنيا وعُرضت عليه بفضتها وذهبها؛ فكان بشيمه العالية عنها من المعرضين: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".

[كلام سيدنا عليّ
في احتقار الدنيا، والاقتداء بالأنبياء في ذلك]

وإني لأستحلي في هذا المقام أن أذكر ما حلاه به، صلى الله عليه وسلم، صهره وقريبه، وباب علمه المكنون وحبيبه، سيدنا علي بن أبي طالب، في بعض خطبه:

{وكذلك من عظمت الدنيا في عينه، وكبر موقعها في قلبه، آثرها على الله، فانقطع إليها وصار عبدًا لها، وقد كان رسول الله، صلى الله عليه وآله، كافٍ لك في الأسوة، ودليل ذلك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووُطِّئت لغيره أكنافها، وفُطم عن رضاعها، وزُويَ عن زخارفها. وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله، صلى الله عليه وآله، إذ يقول: (رَبّ إنّي لِمَا أنزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، واللهِ ما سأله إلا خبزًا يأكله، لأنه كان يأكل بَقلة الأرض. ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفيف صفاق بطنه لهُزاله وتشذّب لحمه. وإن شئت ثلثت بداوُد، صلى الله عليه وسلم، صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها. وإن شئت قلت في عيسى بن مريم، عليه السلام؛ فلقد كان يتوسَّد الحجر، ويلبَس الخشن، وكان إدامُه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يُذله. دابته رجلاه، وخادمه يداه. فتأسَّ بنبيك الأطيب الأطهر، صلى الله عليه وآله، فإن فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاءً لمن تعزَّى. وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتصّ لأثره. قضم الدنيا قضماً، ولم يُعرها طرفا، أهضم أهل الدنيا كشحًا، وأخمصهم من الدنيا بطنًا. عُرضت عليه الدنيا، فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغضَ شيئا فأبغضه، وحقر شيئا فحقره، وصغَّر شيئا فصغَّره.

ولو لم يكن فينا إلا حبّنا ما أبغض اللهُ ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر اللهُ ورسوله، لكفى به شقاقا لله، ومحادَّةً عن أمر الله. ولقد كان، صلى الله عليه وسلم وآله، يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاريَ، ويُردف خلفه، ويكون السِّترُ على باب بيته، فتكونُ فيه التصاويرُ، فيقول: يافلانة، لإحدَى أزواجه: "غيِّبيهِ عني، فإني إذا نظرت إليه، ذكرتُ الدنيا وزخارفها". فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحبَّ أن تغيبَ زينتُها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشًا، ولا يعتقدها قرارًا، ولا يرجو فيها مُقامًا، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر. وكذا من أبغض شيئا، أبغضَ من ينظر إليه وأن يُذكر عنده.}

أنظر تمام كلامه في هذا الموضوع، في "نهج البلاغة"[311/1]، الذي أبان فيه عن وصف الدنيا أكمل وصف، وكشف عن مكنون معايبها ومكامن غرورها أتمّ كشف، وأن خيرة الله من خلقه رفضوها، ورأوها ممرًّا لا مقرًّا، وأبعدوا زخارفها عن أنفسهم ولفظوها.

ما كنتُ قلته شعرًا
في حقارة الدنيا وأنها ظل زائل:

حيـاتنا كلهـا خيـالُ ... وحرصنا في البقا خبالُ
ومكثنـا إن يطـل فظـلٌّ ... والظل [من] شأنهِ النّقالُ
وكل مـا نقتنيـه فيهـا ... من نشبٍ فقده المـآلُ
وكثرة المـال والأهـالي ... فتنتها مـا لهـا انفصـالُ
وطلب العز في التولّـي ... في خطة عزلهـا و بـالُ
فليس في ذا الحيـاة خير ... سـوى من البر ما ينـالُ
مِن ذكرك الله كل حين ... في خلوة عزها اعتزالُ
وكَتْبِ علم، ودرْس آي ... وسُنّةٍ ما بها اعتـلالُ
وإن تصاحب فصاحب قوما ... لم تلههم ثروة ومـالُ
وآثـر الزهـدَ والتَّجـافي ... عن منـزل سِلمُـهُ نـزالُ
والنفس منـه إذا اطمـأنت ... في لحظة راعها ارتحـالُ
هذا وإن قلتُ قـولَ حـق ... قد خالفت قولي الفعـالُ
وقد تحمّلتُ من ذنـوب ... ما ليس تحمله الجبالُ
يا رب عفوًا فأنت أهـلٌ ... إذ وصفُك الجودُ والجمالُ

يا أوّل مـا لـه انتهــاء وآخـر مــا لـهُ زوالُ
وظــاهر حــاضر لدّينــا بعلمـه ما لــه مثــالُ
وبَــاطن لا تــراه عيْـن حجــابُه العز و الجــلالُ
آيــاته في الآفــاق تُتلــى يقرأهـا ذو حجـا وبـالُ
والغــافل الملحد الجهـول أعماه عن دركها الضلالُ
يا رب زدنــا بها يقينــا وثقة عنــها مـا نُخــالُ
ثم صــلاة على رســول قد زان أخــلاقه الكمالُ
والآل والصحب أهل نُبلٍ وفي قلوب العِدَا نبــالُ

وقلت فيما يخص العزلة والبعد عن الناس:

إذا خـلـوتُ بنفـسِــي وتهــتُ عن كـل إنـس
لاحَـت لـديَّ المعــاتــي وغبْتُ عن كـل حــسّ
وطاب عنــدي اتجاهـي لخـالقــي وهـو أنسِــي
وراحتــي و ابتـهـاجــي في كتْب عــلم ودرْس
وفي تــلـقــي علــوم من فئــة تحــت رَمْــس
خطـابهــم في سُكـــوتٍ يَعلو خطــابة قُـــسٍّ
لكــي أزاد في عــلـمــي في كل يــوم وأمْــس

****

[اختيار نهج الإطناب
في هذه "الفهرسة"، وتوقع الانتقاد]

هذا، ولا يتوجه عليّ انتقاد، ممن لا يروقه امتلاء هذا البياض بالسواد؛ لأن الإطناب في هذه "الفهرسة"، كما قدمنا غير ما مرة، هو المراد. ولا عليّ فيمن كرهه واستهجنه، أو أحبه واستجاده، لأني لا أسأل غير الباري على عملي هذا أجرا، ولا إعجابا به وشهرة وذكرى.

وفي هذا قلتُ، لمَّا كان يمر ببالي هذا الانتقاد، ويكاد يحجمني عن عملي هذا الاعتقاد:

أتعبتَ نفسك في عِلم تُردِّده وأنت لم تر قطُّ منكَ مستمِعا
إن كان ما قلتُه حقا كفى ونفــى عنّي الملاَم إذا ما كنتُ ممتنـعا

أقول حقا فمن ينقد له سَامِعا   ينل بـه حظـه إن كـــان متّبـعا
كتبتُ هذا وما قصدي بـه سمعة   ولا جزاء ولا شكر الذي له سمِعَا

هذا، وكل كاتب أو خطيبٍ أو مؤلف؛ فهو معرض للقال والقِيل، ومرمى للانتقاد ورميه بنبال التجهيل والتضليل، لا سيما من أهل زمانه وعصره، وجيرانه وأهله من سكان مصره، إلا في النزر اليسير ممّن يتجمّل بمحاسن الأوصاف، ويتخلى عن قاطعة الإخاء بين ذوي العلم، وهي قلة الإنصاف.

ومن العجب أن هذه الخُلة قد تتخلف في بعض الأحيان، التي بحكم العادة المطردة أنها تتجلى في أقوى معانيها، وتبالغ في الانتقاد لبلوغ أمانيها؛ وذلك لما كنتُ ألفت كتابي"الأبحاث السامية، في المحاكم الإسلامية"،أبقيته حينا من الزمان محجوبا تحت ستر الكتمان، ولا أميط عن وجهه الخمار إلا لبعض الأصحاب الأخيار، علما مني أنه إن ظهر للوجود قوبل بالجفاء، ورميه بالجمود والأخطاء، وإلقائه في الظهر عن وراء. ولكني ألزمت من قبل أهل الحكم والتصرف بإعطاء الأصل بقصد نشره بالطبع، ووقع طبعه بالفعل، وفرقت نسخه في داخل المغرب وخارجه. فبادر بطلبه من كنت أظنه إن وقع بيده يمزقه كلّ ممزق، ويودّ أن تُجمع أوراقه فتلفَ وتُحرق. فتّخلّفت العادة، ولا يكون في ملكه، جل وعلا، إلا ما قدّره وأراده. و(الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ).

[كلام لابن دقيق العيد
في موضوع الانتقاد والاعتراض]

ولقد أعرب صاحب هذه الترجمة عن هذا المجال، وأبان فيه الحق فيما قيل وما يقال، في خطبته لـ"شرح مختصر" ابن الحاجب المالكي، بعد أن ذكر كثرة المنتقدين، وجماعة من الطاعنين المتتبعين لخطواته في أخطائه، والمستخرجين لرقائق غلطاته، والناظرين بعين السخط إلى آرائه، وإن صحّت، ونسبته إلى الجهل واتباع أهوائه.

ثم أتى بعباراته الأدبية المونقة، وبسجعاته المنسجمة المتّسقة، مضمّنها الاعتذار، وإنكار المبادرة إلى التضليل والتجهيل أشد إنكار، ثم قال:

{والحكيم من يُقرّ الأمور في نصابها، ويعطي كل طبقة ما لا يليق إلا بها. وأما السهو والغلط؛ فما أمكن تأويله على شيء، يتأول، وما وُجدَ سبيل واضح إلى توجيهه، حمل على أحسن محمل. وما انسدت فيه الطرق الواضحة، وتُؤمّلت أسباب حسنه أو صحته، فلم تكن

لائحة؛ فلسنا ندعي لغير معصوم عصمة، ولا نتكلف تقدير ما نعتقده غلطا بأن ذلك أبهج وصمة، فالحق أولى ما رُفع علمه، ورُوعيت ذممُه.} ثم قال:

{ولو ذهبنا إلى ترك كل كتاب وقع فيه غلط، أو فرط من مصنفه سهو أو سقط؛ لضاق علينا المجال، وقصر السجال، وجحدنا فضائل الرجال، وفاتنا فوائد تُكاثر عديد الحصَا، وفقدنا عوائد هي أجدى علينا من تفاريق العصَا. ولقد نفع الله الأمة بكتب طارت كل المطار، وجازت أجواز الفلوات وأثباج البحار، وما فيها إلا ما وقع فيه عيب، وعُرف فيه غلط بغير شك ولا ريب، ولم يجعله الناس سببا لرفضها وهجرها، ولا توقفوا عن الاستضاءة بأنوار الهداية من أفق فجرها}.

ثم قال، مشيرا إلى أن هذا الكتاب الذي ابتلي أولا بنقض أقرانه، ورفض ما جمعه من الأمهات في مذهب إمامه، وجاء به في أوجز اختصاره، وأبهج نظامه. ولكن لما طال الزمان، واتضح الحق وبان، عاد ذلك الذم مدحا، وسواد ليل الإعراض عنه ببياض الإقبال عليه صبحا. وعبارة تقي الدين:

{على أنه لما طال الزمان قليلا،عاد جِدّ ذلك السَّغب قليلا، فحفظ هذا الكتابَ الحُفاظ، واعتُنِيَّ منه بالمعاني والألفاظ، وشُدَّت عليه يدُ الصَّبابة والحِفاظ، وقامت له سوق لا يدعها ذو المجاز ولا عكاظ، فوكلت به الأسماع والأبصار، وكثرت له الأعوان والأنصار، وسكنت الدهماء، فحمد ذلك النقع المثار، وأسس به الإنصاف على التقوى؛ فهُدم مسجد الضِّرار؛ فابيضَّت تلك الليالي السود، ومات الحسد أو مات المحسود، فكان كما قلت}:

إِدأب على جمع الفضائل جاهدا وأدم لها تعب القريحة والجسَـدْ
واقصد بها وجه الإله ونفع من بلغته ممن جدَّ فيهـا واجتهــدْ
واترك كلام الحاسدين وبغيهـم هَملا، فبعد الموت ينقطع الحَسدْ

هـ [طبقات الشافعية: 15/6].

****

[ومن هذه المرحلة السادسة أيضا:
الإمـــام الذهبي]

ومن هذه المرحلة يتجلى في سمائها كوكبها الوقاد، وسراجها الوهاج، الذي يبتهج بضياء إرشاده في سبيل معرفة الرواة ومراتبهم كل محدث نقاد، إذ كان إمام هذا الفن وخاتمة الحفاظ من المتأخرين، الذي إلى حضرته كانت تشد الرحال، وتقتحم في مهايع

البراري أخطار الأوحال، فيما يرجع لمعرفة التعديل والجرح وأحوال الرجال، وفيه يقول تلميذه التاج السبكي، في "طبقاته:

{وأما أستاذنا أبو عبد الله، فنظير لا نظير له، وكبير هو الملجأ إذا نزلت المعضلة أمام الوجود حفظا، وذهب العصر معنى ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل.} [216/5].

ثم بعد جملة أفاض بها في مدحه، وما نشره من طيب نفحه، وأنه يعدّ حجة في هذا الفن وعمدته، وبه هذا الفن أينعت روضته؛ ذكر ما له من المؤلفات ما يناهز الثلاثين، وكلها فيما يرجع لأسماء الرجال من الرواة، والتاريخ العام، وأسماء الصحابة، وذكر مسائد العلماء النبلاء، ومختصرات في الحديث. وأشهر كتاب نشر بالطبع كتاب"الميزان" في الرواة الضعفاء، وهو في خزانتنا في ثلاث مجلدات، وقال فيه التاج: إنه من أجل الكتب. وكان قبل هذا قال في صدر الترجمة:

"محدث العصر: اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ، بينهم عموم وخصوص؛ المزي، والبرزالي، والذهبي، والشيخ الإمام الوالد، لا خامس لهم في عصرهم." هـ [216/5].

قلت: أما الذهبي فلم يزل اسمه منشورًا، ومقالاته في الحديث وأهله وتصحيحه أو تضعيفه في هذا الشأن مشهورًا، وبيت الحديث بتحريراته وتحقيقاته في حفظه معمورًا، حتى إن الحافظ ابن حجر، المشهور بحفظه واطلاعه وإتقانه في هذا الفن، كان يتمنى أن يبلغ مرتبة الذهبي في الحديث، وقد شرب ماء زمزم راغبا من الله أن يدرك هذه الرتبة، كما سبق ذكر ذلك في الكلام على ماء زمزم. والله يؤتي فضله من يشاء. وقد توفي الحافظ الذهبي أواسط القرن الثامن، أي سنة 748.

[الحافظ المزي الدمشقي]

وممَّن يعد من سُبّاق هذه المرحلة؛ الرجل الواحد من أهل الحديث، في هذا القرن الثامن، الذي يمكن أن يُجمَع عالم الحديث فيه، الحافظ أبو الحجاج، يوسف بن عبد الرحمان المزّي الدمشقي. قال فيه تلميذه التاج السبكي:

"شيخنا وأستاذنا وقدوتنا، الشيخ جمال الدين، أبو الحجاج المزي، حافظ زماننا، حامل راية السنة والجماعة، والقائم بأعباء هذه الصناعة، والمتذرع جلباب الطاعة، إمام الحفاظ. كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يؤدونها." ثم قال:

"واحد عصره بالإجماع، وشيخ زمانه الذي تصغي لما يقوله الأسماع، والذي ما جاء بعد ابن عساكر مثله، وإن تكاثرت جيوش هذا العلم فملأت البقاع".

ثم ذكر تنويه الحافظ الذهبي، الذي هو من تلامذته، في كتابه" تذكرة الحفاظ"، وأطنب في مدحه، كما ذكره في"المعجم"، ونقل عنه أنه كان يقول: ما رأيت أحفظ منه، وأنه قال: ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد، والدمياطي، وابن تيمية، والمزي، وترتيبهم حسبما قدمناه. وبحث في هذا الترتيب التاج السبكي.[طبقات الشافعية:251/6].

قلت: وناهيك بعلو مقام المزي في علم الحديث؛ أن أشهر الحفاظ في عصره أخذوا عنه، وتلمذوا له، منهم ابن تيمية، والبرزالي، والذهبي، وتقي الدين السبكي، والد تاج الدين. وفي ذلك، لمعرفة قدر هذا الإمام الحافظ، كفاية، ولهذا [فإن] المرحلة المتأخرة استحقت التقديم، لكون هذا الحافظ منها، الذي حقته في الحديث من الله أكبر عناية.

ولهذا الحافظ في الفن مؤلفات، منها: "تهذيب الكمال"، المجمع على أنه لم يصنف مثله، قاله التاج السبكي. وكتاب"الأطراف"، وغير ذلك. توفي هذا الحافظ سنة742.

[الحافظ عبد المؤمن الدمياطي]

وممن يُعد في هذه المرحلة من الحفاظ المشهورين؛ شرف الدين الدمياطي، واسمه: عبد المؤمن. قال التاج: إنه كان حافظ زمانه، وأستاذ الأستاذين في معرفة الأنساب، وإمام أهل الحديث المجمعَ على جلالته، الجامع بين الدراية والرواية بالسند العالي القدر الكبير. قال التاج: وله مصنفات كثيرة حسنة[132/6]. ولكنه لم يذكرها، مما يمكن أن يعرب عن مقامه في الحديث. أخذ مشاهير الحفاظ في وقته عنه، كالحافظ المزي، المتقدم الذكر آنفا. وقال التاج: ما رأيت أحفظ منه، و[من]الذهبي، وابن سيد الناس، وابن شامة، والوالد، أي الإمام تقي الدين السبكي، وكان أخصهم بصحبته. توفي فجأة سنة 705.

[أخذ الفأل من كتاب "الفتوحات"، وذكر فائدة في اسم الكرم والجود الإلهي]

وهنا فائدة جليلة، أخذتها عن إمام أهل التصوف، والتوغل في بحار أهل التعرف، بطريق الإلهام؛ مُحيي الدين ابن عربي ، قدّس سره، وذلك أني كنت عشية يوم السبت، من شهر الله المحرم رجب الفرد، في الترجمة السابقة، وقد اعتراني بعض انقباض في نفسي، وكان بين يديّ المجلد الرابع من كتاب "الفتوحات" لهذا الإمام، فقلت في نفسي: إن صاحب هذا الكتاب أحبه، وهو بحسب العادة يُحبني، كما قيل: إن شككت فيّ، فسل قلبك

عن قلبي. وقلت: إني سأفتح هذا المجلد، وأقرأ أول صفحة أنظر إليها من سطرها الأول، أتخذ ما قرأته منها فالا حسنا؛ فقرأت هذه الصفحة التي تحت عدد:418، قرأت فيها ما لفظه:

"أصحاب الهمم يتنافسون في السباق إلى أسماء الكرَم والجود الإلهي، ليقاموا بها، فيدعون بها".

فزال بذلك الكرب، وانسحب القبض عن القلب، وصرت أقول: يا جواد يا كريم. وقرّرتُ في نفسي أن أجعل هذين الإسمين من جملة الأذكار التي أتخذها وردا، وأزداد بها فيه، جل وعلا، محبة وودًا، ويكونان لي عند الرحمان، بهذين الإسمين الجليلين، بابَيْن لواسع كرمه وجوده، الذي ليس للعبد الفقير الحقير، المذنب الوجل مما هو عليه من الإخلال بحقوق الباري وكثير التقصير، إلا باب كرمه وجوده، جل جلاله.

وفي وصف الكرم، قال الشيخ محيي الدين، مترجما بقوله: "حضرة الكرم". ثم قال:

"ويسمى صاحبه عبد الكريم، وهو يتبع الجليل ويلازمه، قال تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، وقال تعالى: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، وإنما تبعه من حيث ما يعطيه وضع الجلال. ولما كان يعطى النقيضين، جاء بالإكرام على الوجهين؛ فإن السامع إذا أخذ الجلال على العظمة، أدركه القنوط، لعدم الوصول إلى من له العظمة، لما يرى نفسه عليه من الاحتقار والبعد عن التفات ما يعطيه مقام العظمة إليه. فأزال الله عن وهمه ذلك الذي تخيّله بقوله:(والإكرام)، أي وإن كانت له العظمة، فإنه يكرم خلقه وينظر إليهم بجوده وكرمه". انظر تمامه. [الفتوحات:252/4].

وهو أخذ لطيف، واعتبار يعرِّفك بجوده تعالى وكرمه أيَّ تعريف.

[ما قاله المفسرون
في معنى آية: (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)]

ويقرب من هذا المعنى، ما قاله بعض أهل التفسير في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) من أنه من تلقين الحجة، وإزالة الدهشة في ذلك الموقف العظيم، الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، فيكون الأبرار في انتظار جنة النعيم، والفجار في نفحة الجحيم. قال الفضيل بن عياض: لو قال لي: ما غرَّكَ بي؟ لقلتُ: ستورُك المرخاة. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: مَا غرَّكَ بِرَبكَ الكَرِيم؟ لقلت: غرَّنِي كَرَمُ الكَريم. وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: بِرَبِّكَ الكَرِيم، دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقّنه الإجابة.

وبعد أن نقل ابن كثير ما ذكرناه، لم يرتضه، وجعل الآية من قبيل التهديد، إذ قال في أول تفسيرها: هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال(الكَريم)، حتى يقول قائلهم: غرَّهُ كرمه.هـ[481/4].

[إيثار باب الرجاء، والدخول من باب الكرم]

ولكن، نحن نؤثر باب الرجاء، الواسعة الأرجاء، ونقول ما قاله الفُضيل وأبو بكر الوراق وأهل الإشارة، ممَن يرى أن الفضل بيده تعالى يؤتيه من يشاء، إذ هو الواسع الجود والكرم، ولا يحدّ إعطاءَه إحصاء. ولكن يُخص هذا بالمؤمن الذي مات لا يشرك بالله شيئا. وأما الكافر المشرك، فإن الله يقول فيه: (إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ)، والله أعلم.

ولنرجع إلى الإسمين الَّذَيْن أخذتهما من الفأل،[و]هو عندي راجع إلى ما كنتُ ذكرته في تلك الأبيات التي مدحت بها الشيخ محيي الدين و"فتوحاته"، وأني لمَّا فقدْت شيخ التربية في هذا العصر، اتخذتُ "فتوحاته" شيخي. فهذان الإسمان اللذان أخذتهما منها؛ فهُما من قبيل تلقين هذا الشيخ المقصود بالاستمداد من إرشاداته. والله هو الموفق لصوب الصواب، وإليه المرجع والمآب.

****

[الرجوع لإتمام ذكر مشاهير المرحلة السادسة]

ولنرجع لإتمام ذكر مشاهير أهل الحديث في هذه المرحلة، فأقول:

منهم: الحافظ أبو الفتح، محمد بن أبي عمرو ابن الحافظ أبي بكر اليعمري، الأندلسي الإشبيلي ثم المصري، المشهور ذكره في كتب المغازي والسيَر. قال التاج: وصنف الشيخ فتح الدين كتابا في المغازي والسير سماه:"عيون الأثر"، أحسن فيه ما شاء.هـ[29/6].

وهذا الشيخ من أئمة الحديث، وقد قال فيه الحافظ الذهبي، كما نقله التاج: كان صدوقا في الحديث، حجة فيما ينقله، له بصر ناقد بالفن، وخبرة بالرجال وطبقاتهم، ومعرفة بالاختلاف.هـ وقال البرزالي: كان أحد الأعيان معرفة وإتقانا وحفظا وضبطا للحديث، وتفهما في علله وأسانيده، عالما بصحيحه وسقيمه، مستحضرا للسيرة، إلخ.

ثم نقل التاج عن ابن فضل الله نحوًا من هذا، وكذلك عن الصفدي وزيادة، وصفه بأنه كان أحد المبرزين في فن الأدب، عارفا متفننا بليغا في إنشائه، ناظما ناثرا مترسلا، مع جودة الحفظ. انظر كلامه في "الطبقات"[29/6].

وقد ذكر له، زيادة على ما ذكرناه من المصنفات، أنه شرح من الترمذي قطعة، وأن له تصانيف أخرى. وقد تولى الشيخ فتح الدين مشيخة دار الحديث الظاهرية بالقاهرة، بعد أن كانت ولايتها لتقي الدين السبكي، واستمر بها إلى أن مات سنة734، رحمه الله.

[الحافظ صلاح الدين العلائي]

ومن هذه المرحلة، الشيخ صلاح الدين العلائي. قال التاج في حقه: إنه كان حافظا ثبتا ثقة، عارفا بأسماء الرجال والعلل والمتون، فقيها متكلما، أديبا شاعرا ناظما ناثرا متفننا، أشعريا صحيح العقيدة سُنيا، لم يخلف بعده في الحديث مثله. قال: ثم ولي تدريس المدرسة الصلاحية بالقدس، فأقام بها إلى أن توفي، يصنف ويفيد وينشر العلم، ويحيي السنة. توفي بالقدس سنة761. وله من المؤلفات: كتاب"الأشباه والنظائر"، و"تنقيح الفهوم، في صيغ العموم"، وكتاب حسن في المراسيل، وكتاب في المدلسين، وغير ذلك، كما قاله التاج. [104/6].

[الشيخ تقي الدين السبكي، وما قاله فيه ولده التاج، ومسألة مدح النفس]

ومنها: إمامها ومن كان بيده مقاد عامة العلوم وزمامُها، وبباب معارفه تقف للاستفادة والرواية أعلامُها، الشيخ علي بن عبد الكافي السبكي، والد تاج الدين، مؤلف "طبقات الشافعية"، وصاحب "جمع الجوامع"، وغير ذلك.

وقد ترجم له ولده هذا ترجمة وافية، جامعة لكل ما تحلى به من المحامد، وتجلى في شيمه من [المكارم] والمقاصد، وأطنب في ذلك كل الإطناب. وكل ذلك لم يحد به عن منهج الصواب، إذ هذا الرجل عظيم، وكل من في قلبه محبة في العلم وأهله يتلقى ذلك بالقبول والتسليم، ولا ينكره إلا جاهل لفضائل أهل العلم جاحد، أو ذو غِلّ دعاه إلى إساءة الظن بالمحمود والحامد، معللا ذلك بأن هذا المدح يجر إليه نفعا، فهي شهادة مردودة راجعة إلى مدح النفس، ومدح النفس لا يجوز إلا لأسباب مشروعة محدودة، كتعريفه بعلمه ومعرفته وكفاءته وعدالته، ليقوم بمصلحة عامة؛ من ولاية وقضاء وإرشاد وتعليم، كما قال سيدنا يوسف الصديق لمن بيده الأمر في عصره:(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)، قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره":

مدح نفسه ـ أي سيدنا يوسف ـ ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة، وذكر أنه(حَفِيظٌ)،أي خازن أمين(عَلِيمٌ) ذو علم وبصيرة بما يتولاه هـ [2 /482].

أما التفاخر بالآباء والأجداد، وأنهم اتصفوا بأوصاف حميدة، وخصائل عديدة، حتى أصبحوا من الأفراد؛ فهذا منهيّ عنه على وجه الإجمال، ففي الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم، ونقله عنه الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال:

طاف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم فتح مكة على ناقته القصواء، يستلم الأركان بمِحْجَنٍ في يده، فما وجد لها مَناخا في المسجد، حتى نزل، صلى الله عليه وسلم، على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المَسِيل. ثم قال: "يا أيها الناس. إن الله تعالى قد أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية وتعظمها بآبائها؛ فالناس رجلان: رجل تقي كريم على الله تعالى. ورجل فاجر شقي هيّن على الله تعالى. إن الله تعالى عز وجل يقول: (يَا أَيّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائلَ لِتَعَارَفُوا. إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقَاكُم)" هـ [217/4].

ثم إنه لا يخفى أنه في هذا المقام مَادح وممدُوح. ثم إن التفاخر بالآباء والأجداد، والمباهاة بما كانوا عليه من المجد والشرف؛ من مساونه التكبر والإذلال، وإثبات المنزلة العالية لنفسه، واحتقار الناس. ولا يخفى ما ورد في شأن المتكبرين المتعالين على الناس، والمستحقرين لهم؛ من الوعيد في "القرآن" الكريم وأحاديث رسوله، عليه الصلاة والسلام، وآثار أصحابه الكرام، وأئمة الأمة الأعلام، قال تعالى: (سَأصْرِفُ عَن آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرْضِ بغَيرِ الحَق)، وقال: (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُل قَلب مُتَكَبّرٍ جَبَّارٍ)، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال، عليه الصلاة والسلام:" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ حبة خردل من كِبْر". ومن أدعيته، عليه الصلاة والسلام: "اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء".

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطرَ بأنعم الله، والفخرَ بإعطاء الله، والكِبْر على عباد الله، واتباعًا في غير ذات الله.

وهذا باب واسع يمتلئ من ذكر الآيات والأحاديث الواردة في التحذير من ورود موارده، والدخول في مسالك مداحضه. وقانا الله شره، وكفانا بفضله عن استحلاء النفس الأمَارة بالسوء ما فيه من سوء المآل وعظيم المضرة، آمين.

[العُجب والإدلال،
والآفات التي توجب النهي عن المدح]

ثم إن العجب الذي ينشأ عنه التكبر واستصغار الناس، من أسبابه أن يرى الكمال في نفسه؛ من علم وعمل، ومال وشرف نسبة، وانفراده بالجاه والظهور بين أقرانه، وهو أقسام:

أحدها أن يكون خائفا على زوال تلك النعمة التي تحلى بها، مشفقا على تكدره أو سلبه من أصله، فهذا ليس بعجب.

ثانيها أن لا يكون خائفا، بل فرحا بأنها نعمة من الله بمحض الفضل، ولا عجب في هذا.

ثالثها، وهو العُجب المذموم، أن يكون بها فرحًا مطمئنًا إليها، من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة، ولا يرى أن المنة من الله. وهو الذي أنعم الله عليه بذلك، ولو شاء سبحانه لسلبه منها، وجرده عنها. قال حجة الإسلام:

"فإذن؛ العجب هو استعظام النعمة والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المُنعم. فإن انضاف إلى ذلك أنْ غلب على نفسه أن له عند الله حقا، وأنه منه بمكان، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق؛ سُميّ هذا إدلالاً بالعمل؛ فكأنه يرى لنفسه على الله دالة." ثم قال حجة الإسلام:

"فهذا هو العُجب والإدلال، وهو من مقدمات الكِبْر وأسبابه."[الإحياء: 319/3].

وأما ذكر الأوصاف التي يُراد بها المدح، فهي، في الجملة، منهي عنها لما يدخلها من العلل في حق المادح والممدوح؛ ففي المادح أربعة، وفي الممدوح اثنان.

فأولها، في المادح، أنه قد يفرطُ فينتهي به إلى الكذب.

وثانيها: لما فيه من الرياء، بإظهار المحبة، وهو فيها كاذب.

وثالثها: أنه قد يقول ما لا يتحققه، فإن كان ولا بد فليقل: أحسبه متقيا، أو ورعا، أو زاهدا، أو خيّرًا أو ما يجري مجرى هذا، مما لا يشاهد بالحواس، كما ورد في الحديث:"إن كان أحدكم لا بد مادحا أخاه فليقل: أحسب فلانا، ولا أزكي على الله أحدًا، حسيبه الله" إلخ.
فأما إذا استند للمشاهدة كقوله: رأيته يقوم الليل ويتصدق ويحج؛ فهذه أمور متيقنة.

رابعها؛ أنه قد يُفرح الممدُوح، وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. وفي الحديث: "إن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق".

وأما الممدُوح : فأحدهما: أنه يُحدث فيه كبرا وإعجابا، وهُما مُهلكان.

وثانيهما: فرحه بذلك، ورضاه عن نفسه، وإن انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ما يرجوه. قال حجة الإسلام:

{فإن سلم المدح من هذه الآفات، في المادح والممدوح، لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوبا إليه. ولذلك أثنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على الصحابة فقال:"لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح". وقال في عمر:"لو لم أبعث، لبُعثت يا عمر". وأي ثناء يزيد على هذا!} [الإحياء:110/3].

قلت: ومن[هذا]الباب إطناب أهل التاريخ في طبقات العلماء، من المحدثين والفقهاء وغيرهم، من الثناء عليهم، والمبالغة في نشر فضائلهم ومناقبهم وسيرهم وأخلاقهم. والقصد بذلك معرفة أقدارهم، وعلو مكانتهم في الدين، لكي يُقتدى بهم ويُهتدى بهديهم، ويجرى على مناهجهم من الجد في العبادة، والاجتهاد في التحلي بالشيم المحمودة من العلم والمعرفة والعمل بذلك.

ومن هذا الباب؛ ما ذكره التاج السبكي في ترجمة أبيه هنا. وكل ما أوردناه سابقا بما يوجب الانتقاد، ويسيء الاعتقاد؛ فهو مدفوع، والإثم عن تاج الدين، في ذلك التنويه بوالده، مرفوع؛ لأنه ما قال إلا حقا، وما نطق به من أنواع الفضائل فيما شاهده وتيقنه إلا صدقا. ولهذا أقسم قسما بارا غير مشوب بافتراء، ورد به على من انتقد عليه وأورده موارد المينْ والاجتراء، فقال: أقسم بالله إنه لفوق ما وصفت، وإني لناطق بهذا وغالب ظني أني ما أنصفت؛

وما علي إذا ما قلت مُعتقدي دع الحسود يظن السوء عُدوانا

ثم إن التاج بعد أن وصف أباه مُصدرًا بقوله: الفقيه المحدث الحافظ، المقرئ الفقيه الأصولي المتكلم، النحوي اللغوي الأديب، الحكيم المنطقي الجدلي الخِلافي النّظار، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، تقي الدين أبو الحسن،[قال]:

إمــام الناس جـامع كل علم فريد الدهر أسمى من تسامى
له التفسـير للقرءان ألقـتْ إليه معــادن العـلم الزّمَـاما
وفي فن الحديث إليه تُنضَى ركائبُ من به طلب القياما

في أبيات أخرى. ثم أفاض في ذكر أوصافه نثرًا، ثم قال متمثلا:

وكان من العلوم بحيث يُقضى لهُ من كل علم بالجمــيع

.[146/6]

ثم أيد ما حلاّه به وأعلاه به، من شيمه ومحاسنه، بما وصفه به أعلام عصره، وأقطاب زمانه ومصره، ممّا رفع به عنه الملام، ودفع ما يقوله له الحاسد: مادح نفسه يقرئك السلام. فذكر ما وصفه به الحافظ الذهبي من الشيم الرفيعة، والشمائل السامية البديعة، وتقدمه في المعارف والعرفان، وتفوقه بالرواية والدراية وتبرّزه في ذلك الميدان، مما أنزله بذلك في المنزلة العليا، وأنصف في ذلك وما نطق عن الهوى.

ثم أتى بما أفاض به في ترجمته أديب زمانه، أبو العباس ابن فضل الله العمري، في كتابه"مسالك الأنصار"، وأطال في ذلك بعبارات أدبية أنيقة، وسجعات مُغْرِبة عن حال الشيخ تقي الدين بليغة رقيقة، استوعبت نحو أربع صفحات من القالب المتوسط. مُصدرًا ذلك من قوله:

{حجة المذاهب، مفتي الفرق، قدوة الحفاظ، آخر المجتهدين، قاضي القضاة، تقي الدين، أبو الحسن، صاحب التصانيف، التقيّ البرّ العليّ القدر}.

ثم أطال الجري في هذا الميدان، مما أفاد به أن هذا الشيخ في العلوم كلها من جياد الفرسان. كما أشار إلى ما كان له من العناية ودفع الأشرار، عن هجومهم على عقائد أهل السنة وتأييد ما لها من الأنصار، وأن هذا الإمام ممن سل سيف نصاله على من قال: لا تُشدّ الرحال لزيارة قبر سيد الأرسال، ونفى الفضيلة عن التعلق بسيد الوجود، وسد باب الذي ابتغى إلى الله به الوسيلة. ويعجبني في ذلك هذه العبارة التي أثارت في قلبي حب هذا الإمام أكبر إثارة، إذ قال ما لفظه:

"إمام ناصح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بنضاله، وجاهد بجداله، ولم يلطخ بالدماء حد نصاله، حمى جناب النبوة الشريف بقيامه في نصره، وتسديد سهامه للذب عنه من كنانة مصره، فلم[يُخطئ] على بعد الديار سهمه الراشق، ولم يخف مسام تلك الدسائس فهمه الناشق. ثم لم يزل حتى نقى الصدور من شبه دنسها، ووقى من الوقوع في ظُلم حِندِسِها. قام حين خُلِط على ابن تيمية الأمر، وسول له قرينه الخوض في ضحضاح ذلك الجمر؛ حين سدّ باب الوسيلة، يغفر الله له ولا حُرمَها، وأنكر شدّ الرحال لمجرد الزيارة، لا آخذه الله، وقطع رحمها، وما برح يدلج ويسير، حتى نصر صاحب ذلك الحمى، الذي لا ينتهك، نصرًا مُؤزرا." [طبقات الشافعية: 151/6].

ثم أطنب في هذا الموضوع. ومُراده الإشارة إلى ما ألفه تقي الدين في الرد على ابن تيمية في منعه الزيارة؛ وهو كتاب" شفاء السقام، في زيارة خير الأنام"، وهو كتاب أفاد

فيه وأجاد، وأصاب فيه المرمى وبلغ المراد، حتى لم يبق[فيما] قرره في الموضوع، أدنى تشكك ولا تردد. وكل ذلك شهادة صحيحة في علو مقام هذا الإمام الجليل، والعالم النبيل. كما أنه زاد آخر الترجمة ما لفظه:

"وانتهت إليه رئاسة العلم في القرآن والحديث والأصلين والفقه." قال ولدُه التَّاج آخر هذا الكلام:

"هذا كلام ابن فضل الله؛ ولا يخفى ما كان بينه وبين الوالد من الشحناء. هـ [الطبقات:154/6]. قلتُ: والحق ما شهدت به الأعداء.

ثم[ذكر]التاج ما ترجمه به العلامة الأديب، المؤلف صلاح الدين الصفدي، في تاريخه، كتاب"أعيان العصر"، وأتى في ترجمته بما يشهد لما حلاه به ولده، وأشاد بذكره وما امتاز به من العلوم في عصره. وصدّر الترجمة بقوله:

"العالم العامل، الزاهد العابد الورع الخاشع، البارع العلامة شيخ الإسلام، حبر الأمة، مفتي الفرق، المقرئ المحدث الرحلة، المفسر الفقيه الأصولي، البليغ الأديب المنطقي الجدلي النظار، جامع الفنون، علامة الزمان، قاضي القضاة، أوحد المجتهدين، تقي الدين أبو الحسن الأنصاري الخزرجي السبكي الشافعي الأشعري.":

يا سعد هذا الشافعي الذي بلغه اللهُ تعالى رضاهْ
يكفيه يوم الحشر إذ عد في أصحابه السبكي قاضي القضاةْ

[هـ الطبقات:154/6]. وأطال فيما اتصف به من المعارف والعلوم، من المنطوق والمفهوم.

وجئنا بهذا كله؛ إبانة لإنصاف ولده في ترجمته، وقوله فيها بالحق في تفصيله وجملته، ويعترف له به المُصافي والمُعادي، ويعرفه الحاضر والبادي. وعلى وجه الإجمال، فإن كتابة تراجم أمثال تقي الدين وأضرابه من علماء الدين، والأئمة المهتدين؛ هو من الأمر المتأكد والعمل المحمود، إذ بنشر فضائلهم وسيرهم السَّنية السُّنية يقتدي الآتي بعدهم، وعليهم يعتمد.

ولم يزل الأئمة، من صدر الإسلام إلى تاريخنا هذا، يكتبون المؤلفات في سير سلفهم الصالح، ويتلقاها عنهم بانشراح كل غادٍ في هذه الديانة الغرّاء ورائح.

ثم إني، وإن أظمأت قلمي، وغارت عين دواتي، وأتعبت نفسي في استخراج الاستنتاج، لرد الهجوم الذي توقعه التاج؛ وجدت أنني مسبوق، وأن ما أطنب به التاج في ترجمة والده لم يكن من المندوب إليه فقط، بل هو من واجب الحقوق.

[تأليف الشيخ سيدي العربي الفاسي في ترجمة والده]

فقد استشعر هذا الإيراد، وتفطن لهذا الانتقاد، العلامة المشارك، سيدي العربي الفاسي، إذ ألف في ترجمة والده سيدي يوسف تأليفا مُستقلا، وسماه:"مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ أبي المحاسن"، وصدَّر هذا المُؤلف بخطبة أودعها من إنشائه بدائع الأشجاع، ودبجها بروائع البلاغة ما يسر الخاطر براعة ويشنّف الأسماع. فقال، عند التمهيد للموضوع، ما لفظه:

{وبعد، فإن مما ينبغي أن يعتني به الأعلام والأكابر، وتتحرك له ألسنة الأقلام في أفواه المحابر؛ ما هدى إلى حق، ودلّ على إرث مستحق، وأرشد إلى ما هو أولى بالاقتفاء وأحقّ، وأبان تصحيح السلامة في الجموع وما به التحق}.

ثم أشار إلى ما كان اعترى المغرب، مما اعتراه من الاضطراب والفتن، وما نال أهله من ذلك من التفرق والاغتراب، نال المؤلف من ذلك حظه الأوفر، كما شرحه في كتابه. قال:

"فعرض ما يعرض للآباء من النظر للأبناء، والحدب عليهم وله تنقطع الأحشاء، وحداني أن أرسم لهم من طريقة آبائهم منهاجا، وأريهم من أنوار سلفهم سراجا وهاجا، يسلكون جادته متى اختلفت السبل والفجاج، ويهتدون به متى جن ليل داج، ويؤمون سمته متى تلاطمت بأهل الزمان الأمواج." ثم قال، بعد إطالة النفس في هذا النسق:

"ولأجل ما قصدته من البيان، وتنزيل المسموع منزلة العيان، ربما ذكرت ما هو في صنعة التأليف حشو لا يحتاج إليه". ثم قال:

"وإذا حكّمت العادة، ومن ذا الذي يُعطى مراده، فلعل المنصف لا يذمّه، ولا يعترضه فيما يؤمّه، ثم إذا استقلّ حسب مغزاه بالإحسان، فليدعه من لم يقع منه موقع الاستحسان. ولعل متهورا يرى ما نشر من الحُلى، وأثبت لمن يتصل به من المراتب العُلا، فيتسرع إلى الملام، ويقول: مادح نفسه يقرنك السلام. وعلى رسله؛ فإن المحاباة إذا كانت لا تحمد،

وليس بحسن في كل عين من تودّ، وشهادة الجار إلى نفسه تسقط في المرافعة وتردّ، ومادح نفسه هازلٌ في الحقيقة وإن جدّ؛ فإنه لا يُحمد العقوق، ولا إضاعة الحقوق، ولا الخروج عن العدل والمروق، ولا بخس الناس أشياءهم فإنه فسوق. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، والعدل هو القسطاس المستقيم، وهو مأمور به على العموم، والعامل بمقتضاه محمود غير مذموم، وقد قال تعالى: (وإذَا قُلتُمْ فاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذا قُرْبى). فمن قال بالعدل وصدق في القول لم يراع بُعدا ولا قُربا، ولم يخف في الجهتين لوما ولا عتبا، ولم يتحاش قولا في ذلك ولا كتبا".

وما علي إذا ما قلتُ معتقدي   دع الجهول يظن العدل عدوانا

" *وما قلتُ إلا بالذي علمتْ سعدُ*، وما نُسي العهد بعدُ، فما بالعهد من قدم، ولا نسخ وجودَ الأثر عدم. وإذا صحت النيَّة، ووضحت المقاصد السنيَّة، فلا حرج على من وصف نفسه أو غيره، إذا جعل على جادة الصدق سيره، وقد فعله الأئمة الجلة، وعضده العلماء بقواطع الأدلة، وقد وجب التسليم، لحجة:(إنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)".

ثم أشار إلى قاعدة عند أهل الفقه وأربابه؛ أن الإنسان مصدق في انتسابه. ثم اتسع في هذا قائلا: وكم من عالم عرّف برجاله، وأوسع الخطو في مجاله. ثم قال:

" ولم يكتفوا بما أدَّوْا من الواجب، وأبدَوْا من ذلك دُون حاجب، حتى أزرَوْا بمن أقصر عن أدائه، أو قصّر في إبدائه، ووسموا المغاربة بالإهمال، ودفنهم فضلاءهم في قبْرَيْ تراب وإخمال. فكم فيهم من فاضل نبيه طوَى ذكرَه عدمُ التنبيه، فصار اسمه مهجورا، كأن لم يكن شيئا مذكورا. وإذا كان التنبيه من الواجب؛ فمم يعجب العاجب؟". أنظر تمام كلامه، وذكر الشروع في مراميه.

وهذه الجملة الكبرى التي أعرب بها سيدي العربي، رضي الله عنه، ونمّقها وأحكم سبكها بالحجج المقبولة، والإشارة المنقولة، وأجاد سياقها، وأحسن رونقها؛ هي القول الفصل فيما أطلنا به من النقول، وأتعبنا الفكر في وصله الصلة بالموصول. ولو اطلعتُ أولا على هذا التحرير، ووقفتُ على ما لخصه في القضية هذا العالم النحرير، لأحجمت عن إطالة المقال، وتأخرت عن اعتقاد السبق في رد الانتقاد الوارد في هذا المجال.

***

[الاعتبار بقصص القرآن الكريم،
والردّ به على من ينكر ذكر مناقب العلماء والأولياء]

والقول الواضح هنا أن "القرءان" الكريم أتانا بكل ما فيه هدايتنا في ديننا ودنيانا، وتفصيل كل شيء فيهما، رحمة منه وإحسانا. فقص علينا قصص الأنبياء الكرام، وأبان لنا بخبره الصادق ما كابدوا مع أممهم من إقبال وإحجام، وإذاية واحترام. وهم في ذلك حامدون للنّعم شاكرون، وعلى مقاساة شدائدهم وإعراضهم صابرون، كما قال تعالى: (فصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ)، وقال تعالى لخاتم رسله الكرام، واللَّبنة الذهبية التي بها تمَّت دائرة هذا المقام: (وَكُلاًّ نَقُص عَلَيْكَ مِنَ أَنْبَاءِ الرسُل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ).

فما في "القرءان" من القصص والأخبار؛ لم يأتنا لنتلهَّى به في الأسمار، بل لِنتْلُوَه آناء الله وأطراف النهار، ونعتبر بما جاء به عن الأنبياء الأجلة الأخيار، ممّا كانوا عليه من الثبات والصبر على ما أوذُوا به في سبيل الانتصار، كما أمر به الملك الواحد القهّار، ونهتدي بهديهم، ونقتدي في السلوك إلى الله بالسلوك في طريقهم، كما يقول الله تعالى لنبيه، وهو النبي الأمين، وسيد العالمين، من النبيين والمرسلين، بعد أن ذكر بعض أخبار أنبيائه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِه).

فهذه الحجة البالغة هي التي يُردّ بها على من أنكر ذكر مناقب العلماء العاملين، وكَرامات أوليائه المتقين؛ إذ بذكرهم وأحوالهم وجدّهم في الدين واجتهادهم، تنشرح الصدور، ويقع الإقبال على اتباع أعمالهم التي هي التجارة التي لا تبور، والتي يجدها المرء عُدّة يوم النشور.

ولهذا ترى أهل الطريقة، والسالكين إلى الله في المجاز المنجي وهو حقيقة، يكثرون من الحكاية عن أهل البداية والنهاية. وما قصدهم بذلك إملاء المدائح، ولكن زرع أرض قلوب المريدين ببذر الهداية. ولهذا لما قيل لشيخ الطريقة الإمام الجنيد: ما للمريد في مجاراة الحكايات؟ فقال: الحكايات جند من جنود الله، يقوي بها قلوب المريدين، فسل على ذلك شاهدا بذكر قوله تعالى: (وَكُلاًّ نَقُصّ عَلَيْكَ) الآية.

وما ألفت المؤلفات العديدة، وجُمعت الأسفار المُسفرة عن النتائج المفيدة، في سيرة المصطفى وشمائله، وجُمعت أوصافه الكريمة، وأخلاقه العظيمة، في الدفاتر الكبيرة، والكتب الجليلة الشهيرة، من كل مرويّ ومأثور، ومسطور ومنشور؛ وكل ذلك إلا لتكون

لأمته عُمدة، ويتخذها المتمسكون بشريعته وسنته أسوة، ولما في ذلك من استنزال الرحمات، واستدفاع الأهوال الملمات، والتحلي بجميل أخلاقه التي هي أعظم الأخلاق، التي أثنى بها عليه المبدع الخلاق، مع ما في ذلك من إيقاظ الهمم، على شكر ذي الجود والكرم، على ما وصل إلينا بواسطته من عظائم الآلاء وجلائل النعم.

وفي هذا كله ما يبعث القلوب إلى استحضار هذا النبي المحبوب، وبه تنفتح أسرار الغيوب، ويحصل بمشاهدته الروحية الغرض المطلوب، فينال الخير الدائم الأبقى، ويتمسك بزيادة محبته ولذة القرب المعنوي منه بالعروة الوثقى، ويحظى بالسعادة التي من بعدها لا يشقى. وفي الحديث الذي ذكره الشيخ بنيس في "شرح الهمزية"، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:"إن لله عبادا من نظر في وجه أحدهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا". وقال: "هم القوم لا يشقى جليسهم". هـ [5/1]. هذا في حق أوليائه، فما بالك بمُمِدِّهم وحامل لوائهم.

قلت: وقد ذكر الشيخ الإفراني في كتابه"الصفوة"، صدر خطبته، أن في ذكر مناقب الصالحين فوائد كثيرة، وفي جمع كراماتهم أمورا أثيرة. قال بعض العارفين: إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة، ويخلق الله من هذه الرحمة سحابة لا تمطر إلا في أرض الكفار، وكل من شرب من مائها أسلم. ثم روى بسنده عن الشيخ زروق قال: حدثنا الشيخ أبو العباس، أحمد بن عقبة الحضرمي، أنه قال: إن بعض الصالحين رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا رسول الله، ما أدركناك حتى نسألك عن أفضل الأعمال. فقال له، عليه الصلاة والسلام: أفضل الأعمال وقوفك بين يدي ولي من أولياء الله قدر حلبة شاة، أو ساعة. قلت: يا رسول الله حيا كان أو ميتا؟ قال: حيا أو ميتا. هـ [ص:2].

وعليه، فيليق بكل من يعلم ما بيناه في هذا المقام، أن يقدر قدر كل إمام اعتنى بذكر مناقب الأئمة الأعلام، ونشر فضائلهم سواء كان من آبائه وأجداده، أو ممن له اتصال به من أحبائه أو أصدقائه، فضلا عمن لم يكن له به إلمام، من سائر صلحاء الأمة وعلماء الإسلام، وأن يجازيهم عن هذه الأعمال التي لا ينقطع ثوابها، ولا ينعدم انصبابها، ولا يقابل هذا الإحسان التام، بالانتقاد والملل.

[التعريف بالنفس،
من أجْل المصلحة العــامة]

ومما يلحق بهذا المقام، أن يمدح الإنسان نفسه عند الاقتضاء، كما قدمنا عن صدِّيق الأنبياء، سيدنا يوسف، عليه السلام، إذْ طلب الولاية، ووصف نفسه بأنه حفيظ عليم، حيث تعينت ولايته للمصلحة العامة، واجتمعت في مقامه الشريف الخصال الكاملة، والأوصاف التامة؛ من العلم والحفظ والأمانة، والمعرفة والعدل في مراعاة الحقوق أتمّ رعاية.

ومنه أخذ الفقهاء القول بجواز طلب الفقيه القضاء، ويُعرف بنفسه أنه عالم قد توفرت فيه الشروط التي تؤهله لذلك؛ من العلم والمعرفة، بل يستحب له ذلك ويندب في حقه، ليعرف الناس بعلمه. بل إذا انفرد بذلك، وجب عليه التقدم لعرض نفسه على هذه المهمات؛ من القضاء والتعليم ونحو ذلك. ففي باب القضاء من"مختصر" الشيخ خليل:

"ولزمَ المُتعينَ أو الخائفَ فتنةً، إن لم يتولَّ، أو ضياع الحق؛ القبولُ والطلبُ، وأُجْبرَ وإنْ بضربٍ". ثم قال: "ونُدِبَ لِيُشهرَ عِلمَهُ"هـ [ص:129].

كما يجب على العالم أن ينشر علمه. ونشره لا يكون إلا بعد التعريف بنفسه، أو شهرته بين الناس بذلك، وقد ورد عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما يفيد ذلك؛ فقد أخرج ابن عبد البر في "كتاب العلم"، عن أبي الطفيل أنه قال: شهدت عليًا، رضي الله عنه، وهو يخطب ويقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدّثتكم به. وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما منه آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم بسهل نزلت أم بجبل.هـ [جامع بيان العلم:114/1].

ثم ذكر قيام ابن الكواء، فسأله عن أشياء غامضة، مريدا التعجيز، وهو يجيب عنها حرفا حرفا. أنظرها فيه. وروَى عن ابن عباس أنه قال: سلوني، فاني قد أصبحت طيبة نفسي، أخبرت أن الكوكب ذا الذنب قد أطلع، فخشيت أن يكون الدخان والدجال قد طرق، وسلوني عن سورة البقرة وسورة يوسف. وروى عنه غير ذلك. [115/1].

وروَى عن التابعين ومن بعدهم من أئمة الإسلام، كثيرا في هذا المعنى؛ فروى عن سعيد بن جبير أنه قال: إن مما يهمني أني وددت أن الناس قد أخذوا ما معي من العلم. وقال لقمان الحكيم: إن العالم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار. [116/1].

وكان عروة يقول: ائتوني فتلقوا مني. وكان يستألف الناس على حديثه. وعن هشام بن عروة قال: كان أبي يقول لنا: إنا كنا أصاغر قوم، ثم نحن اليوم كبار قوم. وإنكم اليوم

أصاغر قوم، وستكونون كبارًا؛ فتعلموا العلم تسودوا. وعن سفيان الثوري أنه كان يقول: والله لو لم يأتوني لأتيتهم في بيوتهم، يعني أصحاب الحديث. وعن الربيع بن سليمان قال: قال لي الشافعي: يا ربيع لو قدرت أن أطعمك العلم، لأطعمتك إياه. قال أبو عمر: أخذه الخاقاني فقال:

ألا فاحفظوا وصفي لكم ما اختصرته ليدريه من لم يكن منكم يـدْري
ففي شربة لو كان علمي سقيتكـــم ولم أخفِ عنكم ذاك العلم بالذخر

[جامع بيان العلم:117/1].

وخلاصة ما قدمناه، فيما سبق، من احتمال النقد الوارد على ما وصف به التاج السبكي والده من المعالي، مما صدق به في لفظه ومعناه، وأطلع بتلك الحُلى في سماء المعارف نجوم تحقيقاته ونور سناه؛ ليقتبس الطالب من أنواره، ويستضيء القاصد للاستفادة في ليل جهله بضياء علومه وسديد آرائه. فرضي الله عن الجميع، وأثابهم على فتحهم المبين أبواب الدخول في زمرة هؤلاء الحفاظ، الذين أفنوا حياتهم في نصرة معالم هذا الدين، وإعلاء كلمته ونشر لوائه، آمين.

****

[عود لترجمة الشيخ تقي الدين السبكي، وذِكر سلسلة الحفـّاظ]

وهنا نرجع إلى إتمام الكلام على الشيخ الإمام، تقي الدين السبكي، تاج العلماء، وخاتمة الأئمة المجتهدين الألبّاء الأذكياء، الحافظ الذي توجنا به مفرق هذه المرحلة السادسة؛ وإن كان هذا الإمام لم يُحفظ عنه أثر في هذا الفن من رواية ودراية، ولم يُنقل عنه، في موضوعنا، مصنف في البداية والنهاية، مع اتفاق الأئمة الكبار، ممن عاصره أو قفاه إلى عصرنا، على أنه الحافظ المتقن، والحجة الجامع المتفنن؛ ولذلك ذكره ولده التاج في سلسلة الحفاظ، فقال:

"ذكر سلسلة الحفاظ: وقد كان شيخي الذهبي يوردها، وكتبها بخطه وقرأتُها عليه، وأنا أرى إيرادها هنا من قبلي، فأقول: لم تر عيناي أحفظ من أبي الحجاج المزي، وأبي عبد الله الذهبي، والوالد، رحمهم الله. وغالب ظني أن المزي يفوقهما في أسماء رجال الكتب الستة، والذهبي يفوقهما في أسماء الرجال من بعد الستة والتواريخ والوفيات، والوالد يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل، مع مشاركة كل منهم لصاحبه، فيما يتميز به عليه، المشاركة البالغة. سمعت شيخنا الذهبي يقول: ما رأيت أحدا في هذا الشأن أحفظ من الإمام

أبي الحجاج المزي. وبلغني عنه أنه قال: ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد، والدمياطي، وابن تيمية، والمزي؛ فالأول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث، والثاني بالأنساب، والثالث بالمتون، والرابع بأسماء الرجال". قال:

" وسمعته يقول في شيخنا أبي محمد الدمياطي: إنه ما رأى أحفظ منه. وكان الدمياطي يقول: ما رأى شيخا أحفظ من زكي الدين، عبد العظيم، وما رأى الزكي أحفظ من أبي الحسن، علي بن المفضل، ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغني، ولا رأى عبد الغني أحفظ من أبي موسى المديني، إلا أن يكون الحافظ أبا القاسم ابن عساكر، فقد رآه ولم يسمع منه. هذا كلام الذهبي".[طبقات الشافعية:179/6].

ثم تعقبه التاج بمناقشة في شأن ابن عساكر. ثم قال، أي الذهبي: " وسمعته منه. ولا رأى ابن عساكر والمديني أحفظ من أبي القاسم، إسماعيل بن محمد التيمي، ولا رأى إسماعيل أحفظ من أبي الفضل، محمد بن طاهر المقدسي، ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر ابن ماكولا، ولا رأى ابن ماكولا أحفظ من أبي بكر ابن الخطيب، ولا رأى ابن الخطيب أحفظ من أبي نعيم، وأبو نعيم ما رأى أحفظ من الدارقطني وأبي عبد الله بن مندة، ومعهما الحاكم، وكان ابن مندة يقول: ما رأيت أحفظ من أبي إسحاق بن حمزة الأصبهاني. وقال ابن حمزة: ما رأيت أحفظ من أبي جعفر، أحمد بن يحيى بن زهير القشيري، وقال: ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي. وأما الدارقطني، فما رأى أحفظ من نفسه، وأما الحاكم، فما رأى أحفظ من الدارقطني، بل وكان يقول الحاكم: ما رأيت أحفظ من أبي علي النيسابوري، ومن أبي بكر ابن الجعابي، وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس ابن عقدة، ولا رأى أبو علي النيسابوري مثل النسائي، ولا رأى النسائي مثل ابن إسحاق ابن راهُويه، ولا رأى أبو زرعة أحفظ من أبي بكر ابن أبي شيبة، وما رأى أبو علي النيسابوري مثل ابن خزيمة، وما رأى ابن خزيمة مثل أبي عبد الله البخاري، ولا رأى البخاري، فيما ذكر، مثل علي ابن المديني، ولا رأى أيضا أبو زرعة والبخاري وأبو حاتم وأبو داود مثل أحمد بن حنبل، ولا مثل يحيى بن معين، وابن راهويه، ولا رأى أحمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان، ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة، ولا رأوا مثل أيوب السختياني. نعم، ولا رأى مالك مثل الزهري، ولا رأى الزهري مثل ابن المسيب، ولا رأى ابن المسيّب أحفظ من أبي هريرة، رضي الله عنه، ولا رأى أيوب مثل ابن سيرين، ولا رأى مثل أبي هريرة. نعم، ولا رأى الثوري مثل منصور، ولا رأى

منصور مثل إبراهيم، ولا رأى إبراهيم مثل علقمة، ولا رأى علقمة كابن مسعود فيما زعم".
قال التاج: هذه السلسلة التي كان شيخنا الذهبي يذكرها.

ثم عقب ذلك بمناقشة خفيفة، ثم ذكر سلسلة بعض الفقهاء، وسلسلة بعض النحاة، ثم عقب ذلك بإخراج حديث مسلسلا بالفقهاء، أنظره فيه [طبقات الشافعية: 180/6].

وقد أتيناك بهذه النبذة من سلسلة الحفاظ، لما فيها من الفوائد، والتبرك بأسماء هؤلاء المحدثين الأفاضل. وفيه مع ذلك ثناء وفخر لما اشتملت عليه خاتمة هذه المرحلة من مشاهير الحفاظ؛ كالمزي والبرزالي، والدمياطي والذهبي، إذ هؤلاء الحفاظ في هذا القرن الثامن، كما سلف.

وبعد هذا، فإن أهل هذا العصر الذي اجتازته هذه المرحلة، وإن كان يشتمل على كثير من أهل الحديث وحفاظه، والقائمين ليلهم ونهارهم على النظر في رجاله، وتحصيل متونه وضبط ألفاظه، هذا مع النص عن أشياخهم في الحديث الذين استمدوا من روايتهم، وأخذوا من إقرانهم ومؤلفاتهم، وعن تلامذتهم من الجم الغفير، من صغير وكبير، وقريب وبعيد، الذين ملأوا الحقائب بأحاديثهم، وكتبوا عنهم الأسفار، من أهل بلدتهم وممن ارتحلوا للأخذ عنهم من بعيد الأقطار، وأنضوا المطايا إلى الوصول إليهم وأطالوا الأسفار؛ فإن[أهل]هذا الفن العزيز، كانوا يبدون أسفهم ويظهرُون تلهفهم، ويرثُون على موته وإيداعه في قبرالإهمال، [وعلى] الشرذمة القليلة الباقية[التي] لا ينظر إليها بحال، حتى يظن الجاهلون به، أنهم على شيء؛ ألا إنهم [هُم] التائهون في مهامِه الضلال. ولله درّ ابن عبد البر إذ يقول:

عليكم بآثار النبـي فإنـهـا　　　من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

وما نُسب لإمام الأمة، سيدنا أحمد بن حنبل:

دين النبي محمد أخبارُ　　　نعم المطيةُ للفتى آثارُ
لا ترغبن عن الحديث وآله　　　فالرأي ليل والحديث نهارُ
ولربما جهل الفتى أثر الهدى　　　والشمس بازغة لها أنوارُ

فلقد بكى على الإهمال الذي شاهده الحافظ ابن عبد البر في عصره، في القرن الرابع، فبكى واشتكى. ولكن الرجوع في ذلك إلى الله وإليه المشتكى. وقد نقلت عبارته بنصها فيما سبق، فراجعها.

ثم لنرجع، بعد هذه الجملة المعترضة، إلى ما وصفه أهل هذا الفن، في شأن إعراض أهل العلم عن اعتنائهم بعلوم الحديث؛ فمنهم الحافظ ابن الصلاح، الذي كان من أهل القرن السابع، وتقدمت عبارته، وهو الذي قال: لم تبق منه إلا شرذمة قليلة؛ فراجعها فيما سبق.

[كلام التاج السبكي عن كثرة الأسانيد التي أوردها في "طبقاته"]

وأما في آخر القرن الثامن، فقد أطال الكلام، ووجه على هذه الأمة الملام - إذ أعرضوا عن حديث رسولهم، وأضاعوا من الإسناد ما هو الوصلة إليه من أسانيدهم - الإمامُ المشارك في الفنون، المبرز في أسانيد الحديث، والعارف بالفقه والمتقن لأصوله، وألف فيه مؤلفات ممّا أقر به العيون؛ تاج الدين السبكي، في أول "طبقاته"، إذ قال:

{ وكذلك لا يستثقل حامل هذه "الطبقات" ما اشتملت عليه من كثرة الأسانيد، فهي لعمر الله بهجة هذا الكتاب، وزينة هذا الجامع لمحاسن الأصحاب، وواسطة هذا العقد الآخذ بعقول أولي الألباب. ولقد يعز على أبناء الزمان جمعُها، ويبعد منهم، وقد ركبوا الهوينا وركنوا إلى الدعة، وضعُها، ويتعذر عليهم، وهم الذين قنع الفاضل منهم بحاجة في نفسه من اسم التصنيف قضاها، صنعُها. فإنهم رفضوا طلب الحديث بالكلية، فضلا عن جمعه بالأسانيد، ونقضوا قواعد الأئمة الذين قال منهم سفيان الثوري، رضي الله عنه: الإسناد زين الحديث، فمن اعتنى به فهو السعيد. ودحضُوا قول عبد الله بن المبارك: الإسناد من الدين. وقول الثوري قبله: الإسناد سلاح المؤمن. وأحمد بن حنبل بعده: طلب علو الإسناد من الدين. فباءوا بإثم عظيم، وعذاب شديد. فالحق قول ابن المبارك: لولا الإسناد، لقال من شاء ما شاء. وطرق حفاظ هذا الحديث الذي قال منهم قائل: مثل الذي يطلب دينه بلا إسناد، مثل الذي يرتقي السطح بلا سُلم، فأنى يبلغ السماء. وقال منهم الأوزاعي: ما ذهاب العلم إلا ذهاب الإسناد. فرضي الله عنهم، هم القوم بهم كمل الله النعماء. فأين أهل عصرنا من حفاظ هذه الشريعة}. [167/1].

ثم صار[التاج] يذكرهم ويعُدهم طبقات، أوصلها إلى عشرين طبقة، ذكر في طليعتها الخلفاء الأربعة، وكمل هذه الطبقة بباقي العشرة المبشرين بالجنة، وبالمكثرين من الحديث.

ثم ذكر الطبقة الثانية. ذكر المشاهير منها من أهل الحديث، وهكذا في الثالثة إلى أن وصل إلى الطبقة التاسع عشرة، فذكر فيها الحارثي والمزي وابن تيمية، وابن سيد الناس

والحلبي والبرزالي، والذهبي ووالد تقي الدين، ثم ختم بالعشرين؛ وذكر فيها ابن المظفر وصلاح الدين العلائي، ثم قال:

"فهؤلاء مهرة هذا الفن، وقد أغفلنا كثيرا من الأئمة، وأهملنا عددا صالحا من المحدثين. وإنما ذكرنا من ذكرنا لننبه بهم على من عداهم. ثم أفضى الأمر إلى طي بساط الأسانيد رأسا، وعد الإكثار منها جهالة ووسواسا".هـ [169/1].

ولكن هذا المبحث قد تقدم لك الكلام في تحقيقه، وما قاله في ذلك أهل العلم من محدثين وفقهاء، وعلماء نبهاء؛ إذ اتفقت كلمتهم على أن أمر التخريج للأحاديث، والتباهي في إعمال الرحلات، وتقحم الأسفار في طلب علو الإسناد، مما لا فائدة فيه في هذه الأعصار الأخيرة، إذ الأصول المعتمدة في الحديث قد تقررت، والأمة قد تقبلتها وعليها اعتمدت، وأن[أصحابها]، مع قربهم من زمن الرسالة، وليس التلقي بالرواية، لتقارب الأزمنة، واتصالهم في المساكن والأمكنة، وسهولة الأخذ عن أهلها، والاطلاع على دقها وجلها؛ يبعد أن يكون فاتهم من الحديث ما يمكن لأهل القرن السابع أو الثامن الاستدراك عليهم في ذلك، فضلا عن أهل القرون بعدها.

[الإمام ابن خلدون، ومقالته في انقطاع التخريج في عصره]

وهذا هو قول العلامة المشارك، العمدة الاجتماعي العالم بالمسالك والمدارك، ولي الدين ابن خلدون، الشهير الذكر، البعيد الصيت، المعروف في المغارب والمشارق، من الموافق في الإسلام والمفارق. وقد ترجمه عصريه ابن الخطيب في "الإحاطة"، ووفاه بعض الحقوق في العلوم مما بها أناطه.

وقد ترجم لنفسه هو آخر كتابه "العبر"، فكشف بها عما له من الأشياخ، وما مارسه من العلوم والمعارف، وما ناله من المراتب في حال الإقامة والسفر. وقد جرد هذه الترجمة بعض نبغاء الطلبة من أهل طنجة، واستعان في ذلك بمن له اعتناء بالأدب من طلبة أهل مصر، فطبعُوا هذه الترجمة طبعا متقنا، مع بعض تعليقات، فكانت جزءا متوسطا لطيفا، يروق أهل الاعتناء بتواريخ نبغاء هذه الأمة، من النبلاء والأدباء. وقد أتحفني ذلك الطالب الطنجي بنسخة منها.

وقد قضى الإمام ابن خلدون زهرة شبابه، وخلاصة كهولته، ومعظم شيخوخته كلها، في اقتناء العلوم على اختلاف موضوعها، وجدّ واجتهد. ثم أكب على الجمع والتأليف،

والتحرير والتلخيص، حتى فاق الأقران، وبرّز في ذلك الميدان حتى سبق الأعيان، ولا سيما في التاريخ العام، الذي أقر له بالانفراد بدراسته واطلاعه على جليّه وخفيّه الخاصّ والعامّ، وبه اشتُهر، وبحمله لراية النصر في فتحه أبواب ذلك الفن التي كانت مغلقة دون غيره، بسيف قلم انتقانه وتحقيقه الذي انقاد له فيه خصمُه وانكسر، وسماه كتاب"العبَر، وديوان المُبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر"، وشهرته اليوم في الأقطار، تغني عن التعريف [به في]الأسطار.

وهو مع هذا، يجول في بحار السياسة، ويتقلب في مراتب الرياسة، في الغرب والشرق. وشهرة علومه شاعت في القطرين دون فرق، وكان معظم مساعيه وشهرة مقاليه، أثناء القرن الثامن، ولم تأخذ حياته من التاسع إلا ثماني سنوات، إذ كانت، رحمه الله، وفاته سنة ثمان وثمانمائة، عن ستة وسبعين سنة. رحمه الله تعالى.

أما ما قاله في شأن انقطاع تخريج الحديث، لأنه بتحرير الأصول الستة وما يلحق بها، قد حصل المراد، فصار كل صيد الآثار والأخبار، في جوف هذه المصنفات الكبار، فلا معنى للازدياد، مع بعد المسافة بين أهل العصر وبين الرواة في الإسناد، ولفظه:

{ولقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث، واستدراكها على المتقدمين، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم، وكفايتهم واجتهادهم؛ لم يكونوا ليغفلوا شيئا من السنة أو يتركوه، حتى يعثر عليه المتأخر: هذا بعيد عنهم}. هـ [المقدمة:390].

وقد قدمنا نقل هذا المقال سابقا، وأعدناه هنا لمناسبته لهذه المرحلة. ونحوه ما قدمناه عن أبي شامة والحافظ ابن الصلاح.

أما أبو الفرج ابن الجوزي؛ فإنه لم ينبه على هذا فقط بل أنكر، وهو في العصر السادس قبل هذا العصر، بل بالغ في الإنكار، واستهجن إضاعة الأوقات، في التنافس في هذه الروايات، وتكبد المشاق، في الإصباح والإشراق، للوصول إلى العلوّ في الإسناد، وكل ذلك من الحديث المعاد، وصُحف الحديث قد نُشرت، واصطلاحات الأخبار قد قرّرت، والصحيح منها قد اتضح وبان، حتى لا يختلف في بياض صبحه اثنان، وما يوجد في هذا الكتاب، يوجد مثله في فصل الخطاب. وانظر عبارته بلفظها فيما سبق، إذ كان يرى أن الاشتغال بغير هذا أحق.

وبعد هذا سنحرر الكلام في الموضوع، إن شاء الله، بالإعراب عن الكلام المخفوض من القول المرفوع.

****

[كلام المؤلف عن نهجه في هذه "الفهرسة"، ووصفه لحاله، وما طُبع عليه]

ثم إني أخاطب كل من رأى هذه "الفهرسة" - إن قدر الله أن يراها - واستثقل منحاها ومجراها، وأضناه مساقها في غدوها في المناهج المختلفة والمباحث غير المؤتلفة، ورواحُها ومسراها؛ فأقول له، كما قلنا غير ما مرة: إن تلك هي الضالة لكاتبه المنشودة، والتنقل من حال إلى حال هو الفائدة المقصودة، دافعًا بذلك غم الوحدة، وانقباض الوحشة، من فقد من يُلقي إليك بالمودة، وانعدام الشكل في الفكرة، وانقطاع من يذاكر في المعارف والعلوم التي هي للنفس أكبر مسرة.

مع ما طُبعتُ عليه، منذ ابتدائي في التعلم، من محبة الاطلاع على فنون العلوم، ورغبتي في التفهم فيما احتوت عليه من المنطوق والمفهوم، وشدة محبتي في العلم وأهله، واستقائي من مُزن علومهم ما يجودون به من طله ووبله.

ثم الآن انصرفت فكرتي إلى أن أنشر ما التقطته من بحورهم من الدرر، ونشر ما استفدته منهم من نفائس الفوائد التي هي كالطرر على محاسن الغرر، سواء كانت تصريحا أو تلويحا، وآخذ الحبة منهم، فأبني منها قبة واسعة الأرجاء وقصرًا فسيحا.

كل ذلك، محبة في العلم وذويه، واغتباطي بالتعظيم بذلك والتنويه، كما تراه في ترجمة هذا الشيخ - أي الكتاني - العظيم القدر، الجليل المقام، الذي منَّ الله على العبد بالجلوس بين يديه للاستفادة، فكانت من المنن الجسام، التي أرجو أن يكون بها داخلا فيما نقله الشيخ، فيما سبق، من قوله، عليه الصلاة والسلام:"إن لله عبادا من نظر في وجه أحدهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا". وفيما رواه الشيخ زروق، عن شيخه الحضرمي عن بعض الصالحين، فيما قاله النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام؛ إذ سأله عن أفضل الأعمال؟ فقال له: "وقوفك بين يدي ولي من أولياء الله قدر حلبة شاة أو ساعة". قال الرائي للنبي، صلى الله عليه وسلم: حيا أو ميتا؟ فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "حيا أو ميتا". وقد سبق ذلك كله قريبا.

* * *

[عود إلى ترجمة الشيخ الكتاني]

وشيخنا هذا، وهو صاحب الترجمة، سيدي محمد بن جعفر الكتاني، من العلماء العاملين، الذين هم أولياء الله، وهو العالم العامل الذي إن أخذ غيره بالأوصاف، فهو آخذ بالإنصاف. رحمه الله ورضي عنه.

وحاله التي كان عليها أخيرا، وعليها ألفيناه، أنه أعرض في دروسه بجامع القرويين ـ وكان أحد كبراء مدرسيه ـ عن دراسة الفقه ومتعلقاته، وأقبل على الحديث وعلومه، إلى أن لقي الله، جل وعلا، وهو ناشر لسنة نبيه ورسوله، سالكا سبيل السلف الصالح، ونشر العلم النافع، راجيا به رضى الله وحسن قبوله.

وهذه الحالة هي التي دعت كاتبه إلى تقسيم المراحل التي اجتازها علم الحديث، توطئة للمرحلة التي كان فيها شيخنا العلامة المترجم. وحالته، رضي الله عنه، هي التي زادتني غبطة في محبة الحديث وأهله. وأطنبت سابقا في مدحه وبيان فضله، وأزيد هنا في إسباغ ذيله، مع زيادة ذكر رفعة مقامات العلماء، وكونهم أهل عقد هذه الأمة وحله.

ويُعجبني أن أذكر ما قاله بعض أهل الصلاح، والإقبال على الله وذكره في كل مساء وصباح، في الحديث وفوائده، وهو بشر بن السري السقطي، ونقله عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر، ولفظه :

"قال بشر بن السري السقطي: نظرت في العلم، فإذا هُو الحديث والرأي. فوجدت في الحديث ذكر النبيّين والمرسلين، وذكر الموت، وذكر ربوبية الرب وجلاله وعظمته، وذكر الجنة والنار، وذكر الحلال والحرام، والحث على صلة الأرحام، وجمام الخير. ونظرت في الرأي فإذا فيه المكر والخديعة، والتشاحّ واستقصاء الحق، والمماكسة في الدين، واستعمال الحيل، والبعث على قطع الأرحام، والتجري على الحرام". هـ[جامع بيان العلم:35/2]. فتأمل هذا، وانظر إلى ذم هذا الرأي الذي له مستند في الجملة.

[إنكار آراء بعض أهل العصر المؤدية إلى الإلحاد والطعن في الشريعة]

أما هذه الآراء اليوم، فمبناها على الكفر الصراح، وإنكار الصانع الذي شرع للناس الدِّين (مَا وَصَّى بِهِ نوحًا والذِي أوحَينَا إليكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعيسَى أنْ أقِيمُوا الدِّينَ ولا تتفرَّقوا فِيهِ). الآية [الشورى:13].

هذا، ولقد سمعتُ بعض الناس يقولون إن هذا "القرآن" كان في وقت البداوة والجهالة، وإنه كان يناسب أهل ذلك العصر. وأما الآن، فهذا وقت الحضارة، أو كلاما هذا معناه. ومنه ما سمعت مشافهة من بعض وزراء العصر، كان يسمى وزير العدل، أنه قال بمحضر من القضاة: إن ذلك الشرع، المذكور في"التحفة" وغيرها من كتب الفقه، لا يناسب هذا العصر؛ إذ العصر الذي كان هذا الشرع فيه، كان المركُوب فيه الحمار والجمل، وأما عصرنا اليوم، فهو عصر السيارات والطائرات، فلا يناسب هذا الشرع!. أو نحو هذا الكلام. وهو كلام قادح في الشريعة وأصولها التي هي الكتاب والسنة. فإنا لله وإنا إليه راجعون، فنسألك يا مولانا أن(لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ).

كما أسألك يا مولانا أن توفق ولاتنا وأمراءنا لاتباع مناهج الشريعة الإسلامية وحفظ قواعدها، والعمل بقوانينها في جميع مصالحها ومناحيها، وأن تدافع عنها وتطهرها من كل من يعبث بأصولها وفروعها، إنك لا ترد سائلا، ولا تخيب راجيا.

[الحثّ على الدعاء للإمام]

وهنا أذكر ما قاله الإمام الورع الزاهد، الحافظ للسنة، إمام الحرم الشريف، الفُضيْل بن عياض، المتوفى سنة 187، عن ثمانين سنة، وفيه قال الخليفة هارون الرشيد: ما رأيت أورع منه. وهذا لفظه: لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها في الإمام. قال أبو عمر بن عبد البر: قال هذا الفضيْل في معنى الحديث الذي روي عن ابن عباس، من قوله، عليه الصلاة والسلام:"صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا، فسدت الأمة: السلطان والعلماء." وأنشد أبو عمر عن غيره:

نسألُ الله صلاحا … للولاة الرؤساء
فصلاح الدِّين والدُّنـ … ـيا صلاح الأمراء
فبهم يلتئم الشمْـ … ـل على بعد التنائي
وبهم قامت حدُود الله … في أهل العداء
وهم المُغنون عنا … في مواطن العناء
وذهاب العلم عنا … في ذهاب العلماء
فهم أركان دين الله … في الأرض الفضاء
فجزاهم ربهم عنا … بمحمود الجزاء

[هـ. جامع بيان العلم:184/1].

* * *

[الرجوع إلى تتميم الكلام على المرحلة السادسة]

ولنرجع إلى تتميم المرحلة السادسة، فأقول: هي قريبة من الخامسة، إلا أن هذه السادسة أربت عليها في النقصان، وأخذت في الإحجام عن الرواية وتجافت عن حفظ الأسانيد، وتباعدت عن الاعتناء بعلومها، وتحقيق فن اصطلاحها، وإن غرض الطالب للحديث فيها أن يراجع المتون عند الحاجة إليها في مؤلفاتها. وغاية المقتصد فيها أن يمارس ما فيها من الأبواب، ويراجع ما يحتاج إليه من الحديث. وقد أعرب عن هذا حجة الإسلام الغزالي، وهو من أهل القرن الخامس، كما اقتفاه في ذلك الإمام أبو شامة، وهو من أهل القرن السادس، حسبما قدمنا نصوصهما. ولا بأس بإعادة شيء من ذلك، نذكره لمن شاء أن يذكر، أو أراد أن يطلع على من أقدم في هذا الميدان أو أحجم وتأخر.

[كلام الغزالي في التدريج في تعلم العلم الكفائي]

وقد جعل الغزالي لطالب الحديث، كما قدمنا، مراحل ثلاثا، كما جعل ذلك لغيره من العلوم، بعد أن قدم مقدمة مفيدة، وفيها إرشاد لطالب العلم في التدريج في أخذه للعلوم، قائلا:

{فاشتغل بفروض الكفايات، وراع التدريج فيها. فابتدئ بكتاب الله تعالى، ثم بسنة نبيه ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ، والمفصول والموصول، والمحكم والمتشابه، وكذلك في السنة. ثم اشتغل بالفروع، وهو علم المذهب من علم الفقه، دُون الخلاف، ثم بأصول الفقه. وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له من العمر، ويساعد فيه الوقت. ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبا للاستقصاء؛ فإن العلم كثير، والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات، وليست مطلوبة لعينها.} ثم قال:

{فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء.} ثم أشار إلى هذه المراتب في الحديث والتفسير والفقه والكلام؛ فذكر أن الاقتصار في الحديث تحصيل ما في "الصحيحين"، بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث. وأما حفظ أسامي الرجال، فقد كُفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك، ولك أن تعول على كتبهم. وليس يلزمك حفظ متون الحديث، ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة.} [الإحياء: 35/1].

***

المنهج الذي أدركنا عليه
شيوخنا بفاس وتطوان في دراسة الحديث

قلت: وهذه المرتبة هي التي أدركنا عليها أئمة العلماء من أشياخنا في الحديث بفاس وتطوان، حسبما يأتي تفصيله فيما بعد، إلا أنهم يخالفون هذا المنهج في ابتداء الدراسة أولا. وسبق لنا ذلك في أول هذه "الفهرسة".

أما في الحديث؛ فإنهم يوافقون ما قاله حجة الإسلام في هذه المرتبة، مع اقتصارهم على "صحيح" البخاري في الدراسة، وإسقاط "صحيح" مسلم. ولكنهم يعتنون غالبا بـ"موطإ" الإمام مالك، وكل ذلك جرت العادة أن يُقرأ زمن العطلة، وهي الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، ويضيفون إلى ذلك، في خصوص شهر رمضان، "شمائل" الإمام الترمذي.

وأما سائر السنة فإن الدراسة تكون فيها ـ ويسمى بالأصل ـ منصرفة إلى الفقه، ومعظمها بكتاب الشيخ خليل، لأنهم يرونه الكتاب الجامع لأحكام العادات والعبادات، والمرجُوع إليه في المعاملات وفي المحاكمات، ويعتبره الأجانب بأنه، زيادة على ما تضمنه من الأحكام، فيه قواعد اجتماعية.

وبعد هذا، إن مدّ الله في العمر، نأتي بالتفصيل في محله.

[الرجوع إلى كلام الإمام الغزالي
بشأن علم الحديث]

قال الغزالي: وأما الاقتصاد فيه؛ فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة. وأما الاستقصاء؛ فما وراء ذلك، إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي والصحيح والسقيم، ومعرفة الطرق الكثيرة في النقل، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم.هـ [الإحياء:36/1].

وما قاله الغزالي؛ هو حكاية لما كان عليه الحال في عصره، وما كان عليه عامة الفقهاء في سائر المذاهب في قطره وغير قطره؛ وهو الإمساك عن تخريج الحديث بالأسانيد الجديدة بعد أن جمعت في أماكنها، وحررت في جوامعها ومصنفاتها، وكشف عن محاسن صحيحها، وأقرت في مكامنها، وأظهرت للناس مساوئ موضُوعاتها،[وتبين] لطالب الحق الصحيح أحوال المتهمين في كذبها واختلاقها. وما بقي للراغب في الحديث إلا

الوصول إلى تلك الأصول المعتمدة، والروايات المتصلة المسندة؛ إلا أنه يبقى بعد ذلك النظر لمن يحاول التحقيق، عند تعارض الروايات فيما يصل إليه من مثلى الطريق.

[مقالة أبي شامة فيما صار إليه الحديث على عهده، وفتح باب التصحيح]

وقد بين ذلك العلامة أبو شامة، فقد ذكر، بعد ما بين أن أمر الحديث قد أبينت طرقه، وأديت حقوقه، وتمّ مشروعه، وعُرف صحيحه وموضوعه، ونُشرت دواوينه، وعرفت أربابها، ووثقت الأمة بما أبانت فيها أصحابها، قائلا:

"ثم جمع الحفاظ الأحاديث المحتجّ بها في الكتب، ونوّعوها وقسّموها، وسهّلوا الطريق إليها فبوبوها وترجموها، وبينوا ضعف كثير منها وصحته، وتكلموا في عدالة الرجال وجرح المجروح منهم، وفي علل الأحاديث، ولم يدعوا للمشتغل شيئا يتعلل به، وفسروا القرآن والحديث، وتكلموا على غريبها وفقهها، وكل ما يتعلق بها من مصنفات عديدة جليلة؛ فالآلات متهيئة لطالب صادق، ولذي همة وذكاء وفطنة."هـ[مختصر المؤمل، مجموعة الرسائل المنيرية: 30/3].

ثم أشار إلى الطريق التي سلك فيها من يريد أخذ الحكم في الحديث،[فقال]:

"وأقرب ما يؤمر به في ذلك أنك متى رأيت حديثا خارجا عن دواوين الإسلام، كالموطإ ومسند أحمد والصحيحين وسنن أبي داود والترمذي والنسائي ونحوها، مما تقدم ذكره، ومما لم نذكره، فانظره فيه؛ فإن كان له نظير في الصحاح والحسان، قرب أمره، وإن رأيته يباين الأصول، وارتبت به، فتأمل رجال إسناده، واعتبر أحوالهم من الكتب المصنفة في ذلك".

هذا ما قاله هذا الإمام في فتح باب التصحيح في هذه المرحلة.

[مقالة ابن الصلاح في سد باب التصحيح والتحسين، وتعقب كلامه]

وأنت خبير بأن إمام هذا الفن، وحافظه والقائم على تحقيق علومه المقررة؛ صلاح الدين وصالحه، وحارس بابه وفاتحه، أبو عمرو ابن الصلاح، فإنه قال، كما تقدم، ما لفظه:

"إذا وجدنا فيما نرى من أجزاء الحديث وغيرها حديثا صحيح الإسناد، ولم نجده في أحد الصحيحين، ولا منصوصا على صحته في شيء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة

المشهورة؛ فإنا لا نتجاسر على جزم الحكم بصحته، فقد تعذر في هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد، لأنه ما من إسناد من ذلك إلا ونجد في رجاله من اعتمد في روايته على ما في كتابه عريا عما يشترط في الصحيح من الحفظ والضبط والإتقان؛ فآل الأمر إذًا في معرفة الصحيح والحسن إلى الاعتماد على ما نص عليه أئمة الحديث في تصانيفهم المعتمدة المشهورة، التي يؤمن فيها لشهرتها من التغيير والتحريف. وصار معظم المقصود بما يتداول من الأسانيد خارجا عن ذلك إبقاء سلسلة الإسناد التي خصت به هذه الأمة، زادها الله شرفا، آمين." هـ [علوم الحديث:ص7].

وكنتُ كتبت على هذا المبحث بهامش كتاب"علوم الحديث" للإمام ابن الصلاح ما لفظه: هذا متعقب عليه بأن الظاهر جواز تصحيحه لمن تمكنت معرفته، وقوي إدراكه، كما ذهب إليه ابن القطان والمنذري، والدمياطي وابن السبكي وغيرهم. قال العراقي: وهو الذي عليه عمل أهل الحديث. قالوا: وحيث جاز التصحيح، فالتحسين أولى. أما الحكم بالتضعيف كالوضع، فلا، إلا حيث لا يخفى. انظر "شرح مقدمة القسطلاني".

قلتُ: ولا يخفى ما بين كلامَي أبي شامة وابن الصلاح، من الوفاق والاختلاف؛ ففحوى كلامهما متفق أن التخريج تعذرت أسبابه، ولا داعي له مع هذا، إذ أصول الحديث قد أسست وتم بناؤها، والحديث قد فصلت فصوله، وفتحت للطالبين أبوابه، ومن حاول التخريج، أصبح منه في أمر مريج.

ولكن اختلفا فيما بعد ذلك؛ فكلام أبي شامة يعطي بظاهره أن للمتأخرين أن ينظروا في الإسناد، ويعتمدوا على ما أدى إليه نظرهم من الصحة أو غيرها ويكون لهم على ذلك الاعتماد.

وأما ابن الصلاح، فإنه سدَّ الباب في وجه ذلك، ولا يرى الحُكم بالصحة ونحوها لأهل هذه العصور المتأخرة، وما لهم إلا طلب النص على ذلك من كتب أهل الحديث المعتمدة المشهورة.

لكنه قد قارب، على ما يظهر من كلامه، ما قاله أبو شامة في الفائدة الرابعة، إذ ذكر أن البخاري ومسلما لم يستوعبا الحديث الصحيح، قائلا:

"ثم إن الزيادة في الصحيح على ما في الكتابين، يتلقاها طالبها مما اشتمل عليه أحد المصنفات المعتمدة المشهورة لأئمة الحديث، كأبي داود والسجستاني، وأبي عيسى الترمذي، وأبي عبد الرحمن النسائي، وأبي بكر ابن خزيمة، وأبي الحسن الدارقطني

وغيرهم، منصوصا على صحته فيها. ولا يكفي في ذلك مجرد كونه موجودا في كتاب أبي داود وكتاب الترمذي وكتاب النسائي، وسائر من جمع في كتابه بين الصحيح وغيره. ويكفي مجرد كونه موجودا في كتب من اشترط منهم الصحيح فيما جمعه، ككتاب ابن خزيمة، وكذلك ما يوجد في الكتب المخرجة على كتاب البخاري ومسلم".

ثم أشار إلى كتاب "المستدرك" على الصحيحين للحاكم، ثم قال فيه:

"وهو واسع الخطو في شرط الصحيح، متساهل في القضاء به. فالأولى أن نتوسط في أمره، فنقول: ما حكم بصحته، ولم نجد ذلك فيه لغيره من الأئمة، إن لم يكن من قبيل الصحيح، فهو من قبيل الحسن، يُحتج به ويُعمل به، إلا أن تظهر فيه علة توجب ضعفه. ويقاربه في حكمه صحيح أبي حاتم ابن حِبَّان البُستي. رحمهم الله أجمعين".هـ[علوم الحديث:9].

ففيه ما لا يخفى من كون المتأخر يمكن له أن يُعمل نظره في التصحيح والتحسين، بل والتضعيف كما ترى، والله أعلم.

أما "مستدرك" الحاكم، فقد تقدم عليه الكلام مطولا من حيثية أخرى، لا من هذه الحيثية. قلت: ومما أفاده الحافظ ابن الصلاح أن رواية الحديث وتخريجه تخريجا خارجا عن الأصول في هذا القرن الذي كان يعيش فيه، وهو القرن السادس، فما بالك بما بعده كالقرن الثامن الذي كان يعيش فيه ابن خلدون؛ فهو متعذر أو متعسر، وبعد ذلك لا فائدة فيه، كما قدمنا غير ما مرة، وأن الأصول قد استوعبت الموارد، واستقصت فيه الوسائل والمقاصد.

وعليه، كما يقول ابن خلدون: إنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة، وضبطها بالرواية عن مصنفيها، والنظر في أسانيدها إلى مؤلفيها، وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام، لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها. هـ[المقدمة: ص391].

أما الإمام الغزالي، الذي كان من أهل القرن الخامس، فقال: إنما يشترط في هذه الأصول أن تصحح نسخها على عالم عارف نبيل، دون شرط إسنادها.

قلتُ: وهذا هو الحال المستمر إلى وقتنا هذا. ثم إن الحافظ صلاح الدين أجاب عما كنتُ نقلته عن التاج السبكي؛ من أن الإسناد هو أمر لازب، وأكثرَ من الذم لمن أعرض عنه ونأى عنه بالجانب. وأكثرَ هُو، رحمه الله، من تكلف بعض التخريجات بالإسناد الطويل المديد، والتعب المضني، للمخرج والقارئ، الشديد،[فإن] من وضعه ويُسر له بتنسيقه وجمعه، إنما

هو إبقاء لسلسلة الإسناد، الذي خُصت به هذه الأمة، أي، وأما استدراك حديث جديد، أو إبداع رواية صحيحة يزيد الأصول، أو فيها يزيد، فهو في هذه العصور المتأخرة من الأمر البعيد، كما سبق عن محققي هذا الفن من الحفاظ وأهل النظر السديد.

نعم؛ لم تزل جماعة من الفقهاء وغيرهم، يعتنون بتمسكهم بحفظ أسانيد هذه الأصول، ويروُونه عن أشياخهم. فإذا وصل سندهم ـ مثلا ـ إلى البخاري، وصلوا سندهم بسند البخاري، واتخذوا سند البخاري طريقا إلى الوصول إلى الصحابي الراوي للحديث مثلا، فصار سندهم متصلا.

وقد أدركنا كثيرا من أشياخنا يسلكون هذه المسالك، وكذلك يفعلون في روايتهم "الموطأ" وباقي الكتب الستة.

وبعد هذا نبسط القول في هذا المبحث، ونبينه أوضح بيان، ونشرح فيه المقام أكمل شرح. ثم إن غاية مقصد هذه الأعصار بحفظ هذه الأسانيد، إنما هو لأجل التبرك، وطلب القرب بذكر سيد الأبرار، ونحن وهم ننشد:

يا واردًا من أهل الحي يخبرني … عن جيرتي شنّف الأسماع بالخبر

نشدتكَ الله يا راوي حديثهم … حدِّث، فقد ناب سمعي اليوم عن بصَري

وقول الشيخ أبي مدين:

ونحيا بذكراكم إذا لم نراكم … ألا إن تذكار الأحبة ينعشنا

* * *

هذا، وقد امتد بنا المقام في هذه المرحلة وطال، واستعذبنا موارد هذه المباحث ولم تسمح النفس بالارتحال، ولكن تأكد صرف العنان، إلى المرحلة السابعة الواسعة الأركان، لأنها دوحة ذات فروع وأغصان، تحتوي بحسب تقسيمنا على ستة قرون، مبدأها من القرن التاسع وانتهاؤها في القرن الرابع عشر. ومنها نخرج إلى المقصد الذي هذه المراحل وسائله، ومنازل يوصل منها لبلوغ الأمل المنشود ورائده. فأقول:

[المرحلة السابعة، وهي واسعة، وتزايد تقلص ظل الحديث وعلومه فيها]

وهذه المرحلة التي جعلنا مبدأها من أول [القرن] التاسع إلى الرابع عشر، وهي المرحلة التي زادت على سابقتها في تقلص ظل الحديث وأمحلت رباعُه، وضعف أنصاره

وأشياعُه، وأهملت أوضاعه، وكاد، لولا فضل الله، أن ينقطع إسناده بموت علمائه، ويسقط عماده وتزلزل أوتاده.

ولكن لابد، كما أخبر به الرسول، عليه الصلاة والسلام، أن تبقى طائفة من هذه الأمة قائمة بحقه، ظاهرة دافعة لمن يسعى في إعدامه ومحقه، حسبما تُشنّف سمعك بذكر نجومه الوقادة في سمائه، الباذلين مجهوداتهم في إظهار نوره وحفظ بهائه.

وقد قدمنا كلام ابن الصلاح، وهو من أهل[المائة] السابعة؛ ما صار إليه حال الحديث. كما أسلفنا ما قاله التاج السبكي في ذلك، وهو من أهل آخر المائة الثامنة، لأنه توفي سنة 771 . وقد وصف أهل هذا العصر بأنهم رفضُوا طلب الحديث بالكلية، فضلا عن جمعه بالأسانيد. فراجع عبارته في ذلك.

وقد رأيتُ في عبارة بعض المتأخرين، وهو مهذب "تاريخ ابن عساكر":

"وما فتنت العادات يتخيلها بعضهم من الدِّين، ويدسونها فيه. وللجهل الكلمة النافذة في الهيئة الاجتماعية، إلى أن كان القرن التاسع والعاشر من قرون الهجرة، وهما من العصور المظلمة في تاريخ الإسلام حقيقة، فقلَّ حينئذٍ المُميز والمُفكر".إلخ[15/2].

ونحن إنما نأخذ منه أن هذين القرنين، كانا من القرون التي أعرض فيهما أهلهما عن العلم، وبالأخص عن الحديث وأهله، وعدم استمطارهم لوبله ولا لطلّه، وزهدهم بالاستظلال بوارف ظله، وإقبالهم على اقتناء عرض هذه الدنيا الفانية، وتنعمهم بزهرتها من غير التفات إلى ما يجنون فيها من دِقّ الإثم وجِله.

أما الاشتغال بهذه العلوم الدينية[في عصرنا]؛ فهي تعد عندهم من الخطط الحقيرة الدنية، ويرون من يتصدى لها مختل المزاج، سالكا في مسالك ذات اعوجاج، وأعماله في مقدماته عديمة الانتاج.

بل شأن هذه العصور أنهم مهما ظهر فيهم عالم، وبرز بينهم مرشد يرشدهم إلى العلم الصحيح من الآثار وما اشتملت عليه من أمر الديانة ويُظهر ما لها من المعالم؛ نظروا إليه نظر الاحتقار، بل تصدوا له بالإذاية والقدح والإنكار.

فهذا حافظ هذا القرن، التاسع والعاشر، لأنه توفي سنة911، بالاتفاق، وعالمه الحافظ المؤلف، المشارك في كل العلوم الإسلامية بلا مخالف لمن لبس حُلّة الإنصاف، وقال بالحق دون مداهنة ولا نفاق، الإمام الذي استحق التقديم في حفلات أهل العلم بالجدارة والاستحقاق: جلال الدين السيوطي، فإنه كان هو الوحيد في هذا العصر المسْوَدّ بظلمات الجهالة، المُنسدّ

فيه على أهل الفضل والعلم مسالك الإرشاد، وفيه قد بين هذا الحافظ الطالع في أفقهم بدر التمام، وحق أن يقال فيه إنه كان في دائرة المعارف لبنة الختام؛ فقال، بعد أن ذكر ما وقع للحافظ أبي بكر ابن العربي مع أهل عصره، إذ رأى القوم عن سماع الحق معرضين، وعن سلوك طريق استفادة العلم الصحيح ناكبين؛ [فـ] طوى طريق الإفادة، وسدّ في وجوههم أبواب مصنفاته التي انطوت على دقائق التحقيق والإجادة. قال الجلال:

{وقد اقتديتُ به في ذلك، فختمت على أكثر ما عندي من العلم، بل على كله، إلا النقطة بعد النقطة، في الحين بعد الحين. والله المستعان. وقد ألَّفتُ في الاعتذار عن تركنا الإفتاء والتدريس كتابا سميته:"التنفيس"، ومقالة تسمى:"المقامة اللؤلؤية"، أوضحت فيها العذر في ذلك}. انتهى كلام الجلال، والحكم لله المتكبر المُتعال.

هذا ما قاله في حال القاهرة، التي كانت محط العلوم والمعارف الباطنة والظاهرة، وبأفقها تطلع كواكب العلم الزاهرة، وفي مدارسها ودور حديثها يتخرج نبغاء الطلبة من البادية والحاضرة، ترى، لرفع العلم وموت العلماء، يُهانُ بها مثل الجلال، ويُحط من مقامه، وهو العلم المفرد، يضرب، لمشاركته في الفنون، الأمثال. ومؤلفاته التي خدم بها هذه الأمة، تمتلئ بأسفارها الخزائن، وتشتكي من حمل أثقالها أحمال الجمال.

هذا في خصوص ما يرجع للمرحلة الحديثية على وجه الإجمال، وإن كان تدارك الله، جل وعلا، هذا الحال الذي كان ينذر بالانقطاع والاضمحلال، بجهابذة عظام، وحفاظ في الحديث كرام، مَحَوْا ما جنته هذه الأيام، من مُلِمَّات الآثام، بطلوع طوالع، أزالت منع الموانع، وأذاعت في نبوغها في الحديث أصول الشرائع، ومحت تلك الظلمات بنور علمها الساطع اللامع، ومساوئ هذه العصور، بركود أهلها بالفتور في علوم الحديث والقصور، بمحاسن شهاب الدين، أبي الضياء والنور:

أحمد بن حجر العسقلاني

المعروف بابن حجر، أوحد الحفاظ بلا مماثل ولا ثاني. قال تلميذه الحافظ السخاوي، الذي كان يُختص به، وإلى كنفه في أخذ الحديث يتردد ويأوي، ما لفظه:

"شيخي الأستاذ، حافظ العصر، علامة الدهر، شيخ مشايخ الإسلام، حامل سنة سيد الأنام، قاضي القضاة، أوحد الحفاظ والرواة". ثم ذكر نشأته ومولده، وأنه ولد سنة773 بمصر، وذكر ابتداءه لطلب العلم، وما حفظه من المتون، وتعلمه من الفنون، قال:

"ثم حبب إليه الحديث، فسمع الكثير بقراءته وقراءة غيره بالبلاد الشامية والمصرية والحجازية، وأكثر جدا من السماع والشيوخ، وأتقن علم الحديث عند العراقي".

ثم ذكر أخذه الفقه وغيره عن أئمة كبار في الأصلين واللغة والعربية، والأدب والعروض والكتابة، عن جماعة. وجدّ في الفنون حتى أدرك الغاية. قال:

"وتصدى لنشر الحديث، وعكف عليه مطالعة وقراءة وإقراءً وتصنيفا وإفتاءً. وباشر القضاء بمصر مدة تزيد على إحدى وعشرين سنة، والتدريس بعدة أماكن، في التفسير والحديث والفقه، والوعظ والخطابة بجامعي عمرو والأزهر وغيرهما. وأملى ما ينيف على ألف مجلس من حفظه. وزادت تصانيفه على مائة وخمسين، واشتهر ذكره وبعد صيته، وارتحل الأئمة إليه". ثم قال:

"ولو لم يكن له إلا (شرح البخاري) لكان كافيا في علو مقداره. ولو وقف عليه ابن خلدون، القائل بأن شرح البخاري إلى الآن دين على هذه الأمة، لقرّت عينه بالوفاء والاستيفاء" هـ.

قلت: ولقد سرتني جدا هذه الكلمة من تلميذه الحافظ هذا، وأيدتني فيما كنتُ كتبته على هامش نسخة ابن خلدون لما وقفت عليها في(مقدمته):

قد فتح الله الباب لابن حجر العسقلاني، فأدى هذا الدَّين، وسمّى كتاب شرحه: (فتح الباري). ففيه غاية ما يتمناه قارئه، ولهذا قيل فيه: لا هجرة بعد الفتح. هـ والحمد لله على موافقة هذا الحافظ في قوله، واقتفائه بشيخه في حفظه ونبله. والله الموفق لكاتبه في قوله وفعله، آمين.

ثم قال الحافظ السخاوي، بعد أن أفاض في ذكر محاسن أخلاقه وشمائله، وما كساه الله من الحلل الجميلة، من كرمه وتواضعه وجلالة فضائله، ثم قال: وقد شهد له القدماء بالحفظ والمعرفة التامة، والذهن الوقاد والذكاء المفرط، وسعة العلم في فنون شتى. وشهد له شيخه الحافظ العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث. وقال كل من التقي الفاسي والبرهان الحلبي: ما رأينا مثله. ثم قال: قال بعض العارفين: إن علم الولاية على رأسه. وقال بعضهم: من توسل إلى الله تعالى به في حوائجه قضيت. ثم ذكر الحافظ السخاوي أنه أفرد له ترجمة خاصة حافلة في مجلد ضخم. ثم ذكر ما كان له به من الاختصاص والسؤدد، وما أخذه عنه من الفتوى. وكانت ولادة هذا الحافظ سنة 773، ووفاته، كما قاله الحافظ السخاوي، سنة 853. قال:

وصلّي عليه في مشهد عظيم، لم ير من حضره مثله، حتى قيل إن الخضر، عليه السلام، ممن شهده.هـ [فتح الباري: 2/1].

قلتُ: وكفى فخرا هذه المرحلة السابعة، أن يكون هذا الحافظ الكبير، والمحدث المتقن الشهير، ممن اشتملت عليه دائرتها، واتسقت بذكر خاتمة الحفاظ فائدتها، وهو الإمام الذي نور هذه المرحلة بأنوار معارفه، وأفاض عليها من غيوث تحقيقه في هذا الفن وتحريره من مؤلفات نفيسة، ومصنفات أعربت على أنه كان في علم الحديث زعيمه ورئيسه؛ منها "شرح" البخاري الذي سارت بخبر إحسانه فيه الركبان، وتبين فيه صبح التحرير والتحقيق وبان. وقد قال في"كشف الظنون" فيه: إنه لما أكمله، طلبه ملوك الأطراف بالاستكتاب، واشتُرِيَ بنحو ثلاثمائة دينار، وانتشر في الآفاق. وقد تقدم لنا الكلام في هذا الكتاب الجليل. ومنها: "تعليق التعليق"، و"تهذيب التهذيب"، و"تقريب التهذيب"، و"لسان الميزان"، و"الإصابة، في تمييز الصحابة"، وهو كتاب جليل، كبير الحجم، طبع في أربع مجلدات كبار، وناهيك به من كتاب كشف به عن حجاب سير الصحابة الحجاب. و"نكت ابن الصلاح"، و"رجال الأربعة"، إلى غير ذلك مما يقف العقل في ما أمكن لهذا الفرد أن يجمع هذه الكتب الغزيرة، ذات المباحث المتعددة المناحي والأبواب الكثيرة. وما ذلك[إلا] من قبيل ما عُد من الكرامات التي ذكرها تاج الدين في "الطبقات". وأظن لو كان تأخر زمانه، واطلع على هذا لجعل هذه الكرامات في المقدمات. ولله في خلقه من هذه الأمة خوارق تشاهد بالاعتبارات. وقد تقدم أن مؤلفات هذا الحافظ أربت على مائة وخمسين. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

[الحافظ العراقي، شيخ ابن حجر]

قلت: ويمكن أن ألحق بهذه المرحلة شيخ هذا الحافظ، وهو الإمام العراقي، لعلو مقامه في هذا الفن، وجدّه واجتهاده في تمييز الحق فيه من الباطل، وتعريفه بالمجلّي منه والفاضل، وإن كان معظم عمره قضاه في الثامنة، لكنه شارك في التاسعة بست سنوات، لأنه توفي سنة806؛ فهو لهذا يعد من المائة التاسعة. قال الجلال السيوطي في حقه:

الحافظ الإمام الكبير، زين الدين، أبو الفضل، عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمان، حافظ العصر. ثم ذكر مولده سنة 725. قال: وعني بالفن فبرع فيه وتقدم، بحيث كان شيوخ عصره يبالغون بالثناء عليه بالمعرفة، كالسّبكي والعلائي وابن كثير وغيرهم. قال: وله

مؤلفات في الفن بديعة كالألفية. (قلت): أي في مصطلح الحديث؛ نظم فيها كتاب علوم الحديث لابن الصلاح. قال السيوطي: التي اشتهرت في الآفاق، وشرحها. (قلت): وهي مطبوعة مشهورة. ونظم "الاقتراح"، وتخريج أحاديث "الإحياء". (قلت): وأشار في أول خطبته أنه كان أطال في هذا الكتاب، قال: ولكني اختصرته في غاية الاختصار، ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار، فاقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه، وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه؛ فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة، وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول. ثم صار يبين بقية اصطلاحه في كتابه، ثم قال: وسميته "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" هـ. قال السيوطي في تعداد مؤلفاته:

" وتكملة شرح الترمذي لابن سيد الناس، وشرح في إملاء الحديث من سنة 96 ، فأحيا الله تعالى به سنة الإملاء، بعد أن كانت داثرة، فأملى أكثر من أربعمائة مجلس. وكان صالحا متواضعا، ضيق المعيشة، مات سنة 806".هـ [حسن المحاضرة:168/1].

قلت: وكفى هذا الإمام المحدث أن كان من تلامذته الحافظ ابن حجر. ولما مات، رثاه بقصيدة طويلة قافية، وفي بيان فضله وتعداد مؤلفاته وتقدمه في الفن كافية، منها:

مصـاب لم ينفس للخنـاق … أصـار الدمع جـارا للمآقي
فروض العلم بعد الزهو زاو … وروح الفضل قد بلغ التراقي

ومنها:

لقد عظمت مصيبتنا وجاءت … تسوق أولي العلوم إلى السباق
وأشراط القيامة قد تبـدت … وأذن بالنـوى داعي الفـراق
وكان بمصر والبيت البقايا … وكانوا بالفضائل في استبـاق
فلم تبق الملاحم والرزايا … بأرض الشام للفضلاء باقـي
وطاف بأرض مصر كل عام … بكأس الحين للعلمـاء ساقـي

ومنها:

فيا أهل الشام ومصر فابكوا … على عبـد الرحيم ابن العراقي
على الحبر الذي شهدت قروم … لـه بالإنـفـراد على اتفـاق
ومن فُتحت له قدمًا علـوم … غدت عن غيره ذات انغـلاق

ومنها إشارة إلى كتابه "المغني عن الأسفار"، وغير ذلك من مؤلفاته:

فسل "إحيا علوم الدين" عنه أما داواه مع ضيق النطاق
فصير ذكره يسمو وينمو بتخريج الأحاديث الرقاق
وشرح الترميذيّ لقد ترقى به قدما إلى أعلى المراقي
ونظم ابن الصلاح له صلاح وهذا شرحه في الأفق راقي
وفي نظم الأصول له وصول إلى منهاج حق باستباق
ونظم السيرة الغرا يجازى عليها الأجر من راقي البراق

ومنها:

ويقضي اليوم في تصنيف علم وطول تهجد في الليل راقي
فأصبح بالكرامة في اصطباح وبالتحف الكريمة في اغتباق

* * *

وبالجملة؛ فإن الحافظ ابن حجر، وشيخه هذا الزين العراقي، قد زَانا هذه المرحلة ورفعا بعوامل علوم الحديث مقامها المخفوض إلى أعلى المراقي، فرحمهما الله رحمة تكون لهما ولنا معهما يوم التلاقي، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله سالما من النفاق والشقاق، متبعا سنة من أسري به إلى المسجد الأقصى ثم إلى الملأ الأعلى وهو على البراق.

[الحافظ نور الدين الهيثمي]

وممن ذكره الجلال من أهل الحديث بمصر؛ الحافظ نور الدين الهيثمي، وكان ممن رافق الحافظ العراقي السابق الذكر ولازمه، وألف وجمع، ومات سنة سبع وثمانمائة. والهيثمي هذا هو غير شهاب الدين الهيثمي، شارح "الهمزية"، إذ هذا متأخر عنه، فقد توفي سنة973 فكان من أهل المائة العاشرة.

[الإقفهسي - البوصيري - أبُو زرعة العراقي]

وذكر الجلال السيوطي فيما ذكره من أهل الحديث بمصر من أهل القرن العاشر: صلاح الدين الإقفهسي، قال: وعني بالفن وخرج وصنف، ومات سنة821. وذكر شهاب الدين البوصيري أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، قال: وعُني بالفن وألف وخرّج، ومات سنة840. وذكر الحافظ أبا الفضل العراقي وقال فيه: الإمام العلامة الحافظ الأصولي، ذو الفنون. تخرج في الفن بوالده، أي الحافظ العراقي الشهير السابق الذكر، ولا زم البلقيني في

الفقه، وبرع في الفنون، وألف الكتب النافعة المشهورة. وذكر منها جملة، ثم قال: وأملى أكثر من ستمائة مجلس. مات سنة826.

[الإمام ابن الجَزَري، شيخ القراء]

ومما يتعين إدراجه في هذه المرحلة، الإمام الحافظ أبو الخير، محمد بن محمد الدمشقي، الشهير بابن الجزري، صاحب كتاب"الحصن الحصين". وهذا الإمام، وإن اشتهر في القراءات، وانتشر ذكره بين القراء في الروايات، وهو مقرئ الممالك الإسلامية، ويلقب بالإمام الأعظم، وخدم هذا الفن بمؤلفاته الثمينة، وأبان فيها مكانته المكينة، وناهيك بذلك كتابه:"النشر، في القراءات العشر"، فإنه كتاب أحرز فيه مؤلفه قصبات السبق بالفتح في هذا العلم، وأيِّد من مطالعيه بالنصر، وحاز رتبة الانفراد في موضوعه في كل مصر وعصر. كما له مؤلفات أخرى في هذا الفن عديدة، وكلها جامعة للخرائد الفريدة.

أما إلحاقه في مرحلتنا هذه؛ فإنه فيها ذو جدارة واستحقاق، بل هو من أكبر أهلها؛ إذ كان ركْبُ الرواية إليه في الحديث يُساق. وله في الفن مؤلفات جليلة تروي بعذب مواردها الطالب المتعطش، وتشفي غليله؛ فمن مؤلفاته في الحديث، وهو أشهرها: "الحصن الحصين، من كلام سيد المرسلين"، و"عدة الحصن الحصين"، و"جنة الحصن الحصين"، و"التعريف بالمولد الشريف"، و"التوضيح، في شرح المصابيح"، و"البداية في علوم الرواية"، و"الهداية، في فنون الحديث"، و"الأولوية، في الأحاديث الأولية"، و"عقد اللآلي، في الأحاديث المسلسة العوالي"، و"المسند الأحمد، فيما يتعلق بمسند أحمد"، و"القصد الأحمد، في رجال أحمد"، و"المصعد الأحمد، في ختم مسانيد أحمد"، و"الإجلال والتعظيم، في مقام إبراهيم"، إلى غير ذلك.

أخذ الحديث عن العماد ابن كثير، وابن المحب والعراقي، وأذن له. وسمع بالأسكندرية من أصحاب ابن عبد السلام. وأذن له بالإفتاء شيخ الإسلام، إسماعيل ابن كثير سنة774، وشيخ الإسلام/ ضياء الدين، سنة 778، والشيخ البلقيني، سنة 785. وأخذ بالإفتاء والتدريس، وتصدى للإقراء تحت قبة النسر من جامع بني أمية سنين. ثم ولي مشيخة الإقراء بالعادلية، ثم مشيخة دار الحديث الأشرفية، ثم مشيخة تربة أم الصالح بعد شيخه ابن السلار. وعمل فيها أجلاسا بحضور الأعلام، كالشهاب ابن حجر، وقال: كان درسا جليلا، وابتنى بدمشق مدرسة سماها (دار القرءان).

ثم طوحت به الطوائح، وصاح عليه غراب الاغتراب في أفق إقامته أي صائح، وسيم بالخسف والظلم من ولاة الجور بمصر، على عادتهم مع كل عليم متق لله صالح، فشدّ للرحيل مطاياه، واقتعد متن الاغتراب فارّا بنفسه، متوكفا من ربه أفضاله وعطاياه.

فركب البحر قاصدا بلاد الروم، فألفى فيه من ألطافه، جل وعلا، أكبر ما كان يؤمل ويروم. وكان سلطان بني عثمان إذ ذاك بهذه البلاد؛ أحمد با يزيد، فأكرمه وعظمه، وأنزله عنده بضع سنين، وهو في ذلك ضيف كريم، يتلقى التوقير والتعظيم، جميل الحال، ساكن الجأش مطمئن البال، حتى أمكنه صفاء فكره، وأمنه من عدوه ومكره، أن ينشر علمه في تلك الأقطار، التي كانت عيونها إلى مثله في انتظار، فنشر فيها علم القرءان، وأحيا به تلك الأماكن التي كانت تترقب نيل ذلك في كل وقت وآن.

كما أذاع بمجالسه العلمية الروائح العاطرة برواية الأحاديث والأخبار، وألاح في ذلك القطر الذي كان في ظلام من[فقد] هذه العلوم لولا إشراقه عليه إشراق الشموس والأقمار.

ثم بعد ذلك عرضت عوارض هذه الأسفار، بعبث تيمُور في جل الأقطار، فرمت به طوائح هذا الزمان، إلى انتقاله من مكان إلى مكان.

[الكلام على ظهور الملك تيمُور لنك]

وتيمُور هذا، ملك مغولي، يتصل نسبه بجنكيزخان. قال في تحفة الإمام:

كان ظهور تيمور لنك هذا، الذي أفسد البلاد وأهلك العباد، في حدود ستين وسبعمائة من قرية من قرى كيش، من مدن ما وراء النهر،[قريبة من] سمرقند. قال: واشتهر أمره في حروب أهلها؛ نشبت نارها في بخارى. ثم حصل بينه وبين السلطان، حين ملك هراة، مقابلات انتهت بغلبته وقتل السلطان وأولاده، وحكم بلاده سنة773. قال:

وكان من كبار الملوك الفاتحين، فتح في فتوحاته إلى بلاد الهند،[وقتل]من أهلها عددا كثيرا. ومن ذلك الحين أرسل ملك القسطنطينية يستنجده على السلطان با يزيد، لأنه كان يخشاه على ملكه، فأسرع إلى نجدته، وحارب العثمانيين، ثم حارب جيوش برقوق ملك مصر، وكسرها وفتح كثيرا من بلاد الشام. وبعد عودته من هذه البلاد التقى بالعثمانيين بجهة أنقرة سنة804. وكان جيشه 800 ألف، فلما التقى الجيشان انكسر الجيش التركي وأسر السلطان وسجن، ووضع في قفص من حديد. ثم قصد محاربة الصين، فمات في طريقه

بالحمى سنة807، قال: وكان جبارا عنيدا يُعزى له كثير من المظالم، وربما كان فيها شيء من المبالغة. هـ.

هذا، ولما حارب برقوق ملك مصر، خرج لدفعه هذا السلطان بنفسه، واستصحب معه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمُورلنك عن البلاد، فلم يستطع شيئا، وهزم برقوق هذا راجعا إلى مصر، وتفرقت العساكر، وأخذ تيمُورلنك القضاة والعلماء أسارى، وكان في جملتهم الإمام ابن خلدون، صاحب "التاريخ" المشهور. ولما اتصل به ابن خلدون، وهو من المسجونين، احتال في مخاطبته ولاطفه في انقاذ العلماء وانقاذ مهجته، حتى اتخذ حيلة أمكنه بها أن يأذن له بالتوجه إلى مصر ثم يعود إليه، فانطلق إلى مصر ولم يعد. قال العلامة المقري في "النفح"، لما ذكر هذه القضية في ترجمة يوسف المغامي، أحد الراحلين من الأندلس إلى المشرق، وأطال في الموضوع، قال بعض العلماء: انه لم ينجُ من يد ذلك الجبار أحد من العلماء، غير ابن خلدون ورجل آخر.هـ قال صاحب"النفح": إن فتنة جنكيزخان وأولاده من أعظم الفتن التي وهى بها المسلمون.[نفح الطيب: 582/1].

[عود إلى ترجمة ابن الجزري]

هذا ولنرجع إلى إكمال ترجمة شيخ القراء وإمامهم، وأحد الرجال المعتنين بالعلوم الحديثية؛ فأقول: أحسن ما يرسم في ترجمة هذا الإمام، هو ما ترجم به نفسه، وأبان فيه عما أنعم الله به عليه من العلوم القرءانية، ونقلها من خطه صاحب"الشقائق النعمانية"، والإنسان على نفسه بصيرة، وهو أعلم بما سلكه في أوليته وما ختم به ربه مصيره. وإني سآتي بالمهم مما في "الشقائق"، مما هو بموضوعنا لانق، لأن قضية تيمور، وشهرة إغارته على الأقطار الإسلامية، وبالأخص سعيه في القضاء على دولة العثمانيين وتقطيع أوصالها، وسلطانها إذ ذاك با يزيد الأول، الذي نزل هذا الإمام ضيفا لديه معظما محترما. وهذا السلطان، لولا هذه الإغارة الظالمة عليه، لكان استولى على القسم الأكبر من أوربا، إذ كان إذ ذاك محاصرا لعاصمة الروم، ولكن كان أمر الله قدرا مقدورا. فهجم على هذه الدولة هذا الظالم الغشوم بجيوشه الجرارة؛ فجدَّ هذا السلطان التركي في دفاعه ومقاتلته، ولكن لم تغن عنه قوته شيئا؛ إذ كان جيشه بالنسبة إلى جيش هذا الهاجم قليلا، مع وقوع الانقسام في الجيش، وانضمامهم لجيش الهاجم.

وبعد انفصال المعركة، وانكسار الجيش التركي، وقع بعض خلاف بين المؤرخين في شأن السلطان؛ ففي "دائرة" وجْدِي[558/2] أنه لما دارت رحى الحرب، انهزم العثمانيون هزيمة منكرة، ووقع السلطان وابنه في يد تيمُورلنك، فأكرمهما، وقيل: بل أهانهما. واتفق أن توفي السلطان با يزيد بعد قليل، فأذن تيمورلنك لابنه أن يأخذ جثته، فدفنها في مدفن آبائه السلاطين ببروسة، وكان ذلك سنة 805 .

فلما وقع هذا الاضطراب، واشتعلت نار الفتنة، وانتصر تيمورلنك، واشتدت شوكته، وعمت البلية، واتسع خرق المحنة؛ انضم ابن الجزري، صاحب الترجمة، إلى تيمُورلنك، لأسباب سوغت له ذلك. وفي هذا يقول صاحب"الشقائق": ولما كانت الفتنة العظيمة المشهورة من قبل تيمور خان، في أول سنة805، فأخذه الأمير تيمور معه إلى ما وراء النهر، وأنزله بمدينة كش، ثم إلى سمرقند، وقرأ عليه في كل منهما جماعة كثيرون. ولما توفي الأمير تيمور خان، في شعبان سنة807، خرج من بلاد ما وراء النهر، فوصل إلى خراسان، ودخل إلى هراة، ثم إلى مدينة يزد، ثم إلى أصبهان، ثم إلى شيراز؛ فقرأ عليه في كل منها جماعة، بعضهم السبعة، وبعضهم العشرة.

وألزمه صاحب شيراز، بيرمحمد، قضاء شيراز ونواحيها كرها، حتى فتح الله عليه، فخرج منها إلى البصرة. ثم فتح الله له المجاورة بمكة والمدينة سنة823. وحين إقامته بالمدينة قرأ عليه شيخ الحرم، وألف في القراءات كتاب"النشر، في القراءات العشر" في مجلدين، ومختصره"التقريب، وتحبير التيسير، في القراءات العشر"، و"طبقات القراء وتاريخهم"، كبرى وصغرى. قال صاحب "الشقائق": التي نقلت هذه الترجمة من صغراها. قال: ولما أخذه الأمير تيمُور خان إلى ما وراء النهر، ألف هنالك شرح "المصابيح" في ثلاثة أسفار، وألف في التفسير والحديث والفقه. ثم قال صاحب "الشقائق":

{هذا ما حكاه الجزري عن نفسه في "طبقاته الصغرى"، نقلته عن خطه. وقال بعض تلامذته: بخطه. قال الفقير المُغترف من بحاره: توفي شيخنا، رحمه الله، ضحوة يوم الجمعة، لخمس خلون من أول الربيعين، سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، بمدينة شيراز، ودفن بدار القراء التي أنشأها. وكانت جنازته مشهورة؛ تبادر الأشراف والخواص إلى حملها وتقبيلها ولمسها تبركا بها. ومن لم يمكنه الوصول إلى ذلك، كان يتبرك بمن تبرك بها. وقد اندرس بموته كثير من مهامّ الإسلام. رضي الله عنه وعن أسلافه وأخلافه}.هـ من الشقائق[بهامش وفيات الأعيان:40/1].

إذا علمت ما احتوت عليه ترجمة هذا المشتغل بكتاب الله العزيز، المشار إليه في علومه بالعلو والتبريز، وما أحرز فيها قلمه السيال من التأليف والتصنيف، وجمع من المؤلفات فيه، الجامعة في فنونه وقراءاته التي لشهرتها لا تحتاج إلى تعريف، مع جريان الأقدار عليه بالتغلب في الأقاليم المتباعدة المدن والأمصار، واشتعال الفتن وتأجج نيرانها آناء الليل وأطراف النهار، وسيوف الثورات مُصلتة على كل من لم يدخل تحت جورها، من كل ظالم جبار، وقلوب أهل العلم والإسلام تخفق، وجيوش الظلم في كل ناحية تحطم وتُمحق.

وانظر مع هذا كيف مثل هؤلاء الحافظ الجليل، والمعتني بكتاب الله (الَّذِي لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيدٍ)؛ تصفو لهم الأوقات، ولا تشغلهم هذه الملمات، ولا يصرفهم ما يتلقونه من هذه الأهوال التي من شأنها أن تشوش الأفكار، وتذهب العقل والبال.

وما هذا، بحسب العادة، إلا خروج عن طبيعة الإنسان، لأن طبيعته أنه لا تصفو له الأوقات، وتتجلى له المعاني الواضحة، فضلا عن خفايا المعضلات والأبحاث المهمات؛ إلا بهدوء البال وسكونه، وصفاء ذهنه وتمكنه، من إمعان النظر واستخراج نكته الواضحة والبحث عن مكنونه.

ولكن هؤلاء الأعلام صفت سرائرهم، وخلصت نياتهم، وأقبلوا على المعارف بقلوبهم، مخلصين في أعمالهم، ولثواب الله وأجره طالبين، ولهذه العوارض غير ناظرين، لأنهم بحبل الله متمسكون، وعلى فضله وأفضاله معتمدون. أقبلوا عليه، وقلوبهم مملوءة بحبه؛ فتقبلهم واختارهم لمناجاته وقربه، فهم يقولون: نحن بقوة الله معتصمون، ونذرُ هؤلاء في خوضهم يلعبون.

وهنا نختم ترجمة إمام القراء، وأحد المحدثين العلماء.

[ترجمة الحافظ السخاوي]

ولنبدأ في ترجمة أحد أفراد هذه المرحلة من أهل القرن التاسع، وهو الحافظ شمس الدين، أبو الحسن، محمد بن عبد الرحمان السخاوي، ونسبته إلى سخا، قرية من أعمال مصر، على غير قياس. وقد ذكر الشيخ مرتضى في "تاج العروس"، في الكلام على هذه المادة:

{ومن المتأخرين، الحافظ شمس الدين، أبو الخير، محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر السخاوي الشافعي، المعروف بابن البارد. ولد سنة831. ومسموعاته ومروياته وشيوخه في كثرة، وقد ترجم لنفسه في كتابه"الضوء اللامع"، وألف وأجاد. وهو أحد من انتفعت بمؤلفاته، رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيرا. توفي بالمدينة سنة903 عن واحد وثمانين سنة}.هـ [172/10].

فهو ممن شارك في القرن العاشر ثلاث سنين، وهو من أشياخ الإمام القسطلاني، صاحب"إرشاد الساري"، في شرح البخاري، و"المواهب اللدنية"، كما سيأتي في ترجمته بعد. وهو من أخص تلاميذ الحافظ ابن حجر، ومن الملازمين له والمنقطعين إليه. وقد عقد له ترجمة واسعة في كتابه"الضوء اللامع"، وقد نقلنا البعض منها بواسطة فيما سبق. وفي ذلك يقول: وكان رحمه الله يَودني كثيرا، وينوّه بذكري في غيبتي، حتى قال، كما بلغني: ليس الآن في جماعتي مثله. وكتب لي على بعض مجموعاتي: وقفت على هذا التخريج الفائق، وعرفت منن الله تعالى على عباده بأن ألحق الأخير بالسابق. ولولا ما أفرط من الإطراء فيَّ لما عاقني عن الثناء عليه عائق، والله سبحانه المسؤول، أن يعينه على الوصول إلى المحصول، حتى يتعجب السابق من اللاحق. قال: وكذا كتب لي على تصنيفين آخرين. قال: وسمعت عليه في الصغر مع الوالد أشياء. قال: وأول ما وقفت عليه من ذلك في سنة38، ثم لازمته بعد ذلك أتم ملازمة، حتى حملت عنه، ولله الحمد، علما جما، واختصصت بكثرة المثول بين يديه، بحيث كنت من أكثر الآخذين عنه، وأعان على ذلك قرب المنزل منه. فلذلك كان لا يفوتني مما يُقرأ عليه إلا النادر، مما أكون في غنية عنه. وانفردت عن سائر الجماعة بأشياء. وعلم شدة حرصي على ذلك؛ فكان يرسل خلفي أحيانا بعض خدامه يأمرني بالمجيء للقراءة. ثم قال الإمام السخاوي:

وقرأت عليه الاصطلاح بتمامه، وكذلك سمعت عليه جل كتب هذا الفن، كـ"الألفية" وشرحها مرارا، و"علوم الحديث" لابن الصلاح، إلا اليسير من أوله. وسمعت عليه أكثر تصانيفه من الرجال وغيرها. ثم صار يذكر ما سمعه عنه أو قرأه عليه من مصنفات الحديث وغيرها. ثم قال:

وأذن لي في الإقراء والإفادة والتصنيف. وصليت به إماما في التراويح في بعض ليالي رمضان. وتدربت به في طريق القوم، ومعرفة العالي والنازل، والكشف عن التراجم

والمتون، وأعانني بنفسه وكتبه. وبيضت من تصانيفه ما لم أسبق إليه. ثم صار يسرد أسماء مؤلفاته، ثم قال الحافظ السخاوي:

وأنشدنا شيخنا لنفسه من نظمه، مما سمعته منه وقرأته عليه، في العشرة المبشرين بالجنة، رضوان الله تعالى عليهم، ولم يسبق بكونهم في بيت واحد:

لقد بشر الهادي من الصحب زمرة بجنَّات عَدْن كلهم فضلــه اشتهــرْ
سعيد زبيــر سعد طلحة عامــر أبوبكرعثمان بن عوف علي عُمــرْ

[هـ فتح الباري:3/1]

وهذا القدر كاف في معرفة قدر هذا الحافظ السخاوي. وكفاه فخرا أنه كان يذكر بمصر بتلميذ الحافظ ابن حجر، وكذا كون تلميذه الحافظ المعتني بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتأليف في ذلك، كـ"إرشاد الساري، لشرح صحيح البخاري"، الذي أسلفنا الكلام عليه، و"المواهب اللدنية، في السيرة النبوية"، وهو أجل كتاب ألف في السيرة، حسبما بسط الكلام عليه في ترجمته. وقد نقل عنه في "المواهب" المذكورة وحلاه بأجمل الحلى، ومن جملة ذلك ما نقله عن كتابه"المقاصد الحسنة"، وهو كتاب جليل اختصره الشيخ الديبع، وهو تلميذه وسمى اختصاره"تمييز الطيب من الخبيث، فيما يجري على ألسنة الناس من الحديث"، وهو تحت أيدينا، وهو مفيد جدا في موضوعه. ومن مؤلفاته الشهيرة كتابه "الضوء اللامع"، الذي ترجم نفسه فيه. رحم الله الكل، ورضي عن سادتنا أئمة الدين، والهداة المرشدين.

[الحافظ السيوطي، وما أنكرُوه عليه في دعواه الاجتهاد، وما في ذلك]

ومن مفاخر هذه المرحلة، ومشاهير حفاظ الحديث المتأخرين، وأعظم المؤلفين فيه وفي غيره من علوم الدّين المُكثرين، وأكبر الأئمة المؤلفين في فنونه، تارة بالبسط، وتارة بالإيجاز، تسهيلا للطالبين في سلوكهم لإدراك هذه العلوم، وهو الإمام المتبحر الجامع الذي كان يشير إلى أنه المجدّد في رأس القرن التاسع، جلال الدين السيوطي المصري، أحد أفراد علماء الإسلام، والمقدم في جماعتها إذ هو فيها الإمام.

وقد ترجم نفسه في كتابه "حسن المحاضرة"، وذكر فيها نشأته ونشأة جدوده، ومبدأ طلبه للعلم وتصديه لتحصيل مقصوره وممدوده، فبدأ بالدراسة ببلده مصر، وأخذ عن أعلامها ومشاهير علمائها ومدرسيها، فقرأ عليهم النحو والفقه والأصول والتفسير

والحديث. ولزم في الحديث والعربية العلامة الشبلي الحنفي. ولازم العلامة - الذي حلاه بقوله، أستاذ الوجود، محيي الدين الكافيجي - أربع عشرة سنة، قال: فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعاني. قال: وكتب لي إجازة عظيمة. هـ [156/1].

وجلس مجالس كثيرة من العلماء في عصره، ثم أقبل على التأليف، وملأ أوقاته بنشر علومه بالتصنيف، حتى بلغت، كما قال هو عن نفسه، ثلاثمائة. ثم شدّ مطاياه، وهاجر إلى إدراك ما نواه، فأتى الشام والحجاز واليمن، والهند والمغرب والتكرور. قال: ولما حججتُ شربت ماء زمزم لأمور؛ منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر. قال: ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه، والنحو والمعاني والبيان والبديع. قال: وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله. أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرا، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر.هـ[حسن المحاضرة: 157/1].

قلت: وسيأتي ما أنكر به عليه أهل العلم من دعوى الاجتهاد، وما في ذلك.

ثم صار الجلال يذكر أسماء مؤلفاته في التفسير والحديث وغير ذلك، فقال في الحديث ومتعلقاته وما جمعه في ذلك من كنوزه ومكتوباته. وتأليفه في هذا الفن هو الذي أوجب إدماجه في هذه المرحلة؛ إذ أساسها على ذكر من روى هذا العلم أو اشتغل به وخدمه، فقال:

(فن الحديث وتعلقاته): "كشف المغطى، في شرح الموطأ"، و"إسعاف المبطأ، برجال الموطأ"، و"التوشيح، على الجامع الصحيح"، و"الديباج، على صحيح مسلم بن الحجاج"، و"مرقاة الصعود، إلى سنن أبي داود"، و"شرح ابن ماجه"، و" تدريب الراوي، في شرح تقريب النواوي"، و" شرح" ألفية العراقي المسماة،"نظم الدرر، في علم الأثر"، وشرحها يسمى:" قطر الدرر"، و"التهذيب، في الزوائد على التقريب"، و"عين الإصابة، في معرفة الصحابة"، و"كشف التلبيس، عن قلب أهل التدليس"، و"توضيح المدرك، في تصحيح المستدرك"، إلى غير ذلك مما ألفه في هذا الفن، وأجزاء في أحاديث خاصة، وتخريج للأحاديث في كتب خاصة، كتخريج أحاديث "الشفا" الذي سماه"منهاج الصَّبَا"، وتخريج أحاديث "الكفاية" وغير ذلك مما يطول ذكره.

وبالجملة، فلهذا الجلال السيوطي يد طولى في خدمة هذا الفن، يستحق بها أن ينزل في الدرجات العلا. وكانت ولادة هذا الإمام، حسبما ذكره عن نفسه في كتابه "حسن

المحاضرة"، مستهل رجب من سنة تسع وأربعين وثمانمائة، أما وفاته فكانت سنة 911؛ فعمره 62 سنة. قدس الله روحه، وسقى ضريحه.

هذا وقد تقدم عن الجلال أنه ادعى في ترجمته أنه أدرك مرتبة الاجتهاد المطلق، وأنه المجدد على رأس المائة التاسعة. قال الحافظ المناوي، صدر شرحه "للجامع الصغير":

وأومَا المصنف هنا، وصرح في عدة تآليفه، أنه المجدّد على رأس المائة التاسعة، قال في بعضها: وقد أقامنا الله في منصب الاجتهاد لنبين للناس ما أدى إليه اجتهادنا تجديدا للدين: هذه عبارته. وقال في موضع آخر: ما جاء بعد السبكي مثلي. وفي آخر: الناس يدعون اجتهادا واحدا وأنا أدعي ثلاثا. إلى غير ذلك. قال المناوي:

"وقد قامت عليه في زمانه بذلك القيامة، ولم تسلم له في عصره هامة، وطلبوا أن يناظروه، فامتنع وقال: لا أناظر إلا من هو مجتهد مثلي، وليس في العصر مجتهد إلا أنا؛ كما حكاه هو عن نفسه. وكتبوا له: حيث تدعي الاجتهاد، فعليك الإثبات، ليكون الجواب على قدر الدعوى، فتكون صاحب مذهب خامس؛ فلم يجبهم. قال العلامة الشهاب ابن حجر الهيتمي: لما ادعى الجلال ذلك، قام عليه معاصروه، ورموه عن قوس واحد، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الأصحاب فيها وجهين، وطلبوا منه إن كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد، وهو اجتهاد الفتوى؛ فليتكلم على الراجح من تلك الأوجه بدليل، على قواعد المجتهدين. فرد السؤال من غير كتابة عليه، واعتذر بأن له أشغالا يمنعه في النظر في ذلك. قال الشهاب الرملي: فتأمل صعوبة هذه المرتبة، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد؛ يظهر لك أن مدعيها، فضلا عن مدعي الاجتهاد المطلق، في حيرة من أمره، وفساد في فكره، وأنه ممن ركب متن عمياء، وخبط خبط عشواء. قال: ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق، استحيى من الله تعالى أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة. بل قال ابن الصلاح ومن تبعه: إنها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة. ولابن الصلاح نحو ثلاثمائة سنة، فيكون قد انقطعت من نحو ستمائة سنة. بل في نقل ابن الصلاح عن بعض الأصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل. إلى هنا كلام الشهاب". هـ [فيض القدير: 11/1].

ثم أطال الشيخ المناوي بنقل نصوص الأئمة في الموضوع، وإبطال مقالة الجلال ودعواه الاجتهاد المطلق. ثم تدارك ذلك بقوله:

" وليس حكايتي لذلك من قبيل الغضّ منه، ولا الطعن عليه، بل حذرًا أن يقلده بعض الأغبياء فيما اختاره وجعله مذهبه، سيما ما خالف فيه الأئمة الأربعة اغترارا بدعواه. هذا مع

اعتقادي مزيد جلالته، وفرط سعة اطلاعه، ورسوخ قدمه، وتمكنه في العلوم الشرعية وآلاتها. وأما الاجتهاد، فدونه خرط القتاد. وقد صرح حجة الإسلام بخلو عصره عن مجتهد، حيث قال في (الإحياء)، في تقسيم المناظرات، ما نصه":

"أما من ليس له رتبة الاجتهاد، وهو حكم كل العصر، فإنما يفتي فيه ناقلا عن مذهب صاحبه. فلو ظهر له ضعف مذهبه، لم يتركه".هـ وقال في "الوسيط": هذه الشروط، يعني شروط الاجتهاد المعتبرة في القاضي، قد تعذرت في عصرنا".هـ [فيض القدير:12/1].

[تشدد الإمام المناوي ومبالغته في رد مقالة الإمام السيوطي]

قلت: ولا يخفى أن الإمام المناوي قد شدّد في منع الاجتهاد، وبالغ في رد مقالة الجلال السيوطي. وفي ظني أنه خرج بذلك عما يقتضيه مقام هذا العالم وحاد، مع اعترافه بأنه كان متمكنا من العلوم الشرعية وآلاتها، وفرط سعة اطلاعه ورسوخ قدمه. وهذه هي الشروط المطلوبة في هذا المقام، وهي الطرق الموصلة لإدراك هذا المرام.

والذي يراه كاتبه، ألهمه الله طريق الصواب، وأنطقه بالحكمة وفصل الخطاب، أن دعوى الجلال لا ترد بحال، وأنه ما نطق إلا بعد تحققه بإحرازه الشروط المقررة عند الأصوليين في هذا المجال. كيف، وهو المحصل للعلوم التي تشترط في المجتهدين، والمبرز فيها بمؤلفاته في تلك الميادين؛ من التفسير والحديث والأصول والفقه، وكل فن قد يقال إنه لم يحصله بعض المتقدمين.

نعم؛ المشدِّدُون في هذا الباب، يرَوْن أن في فتحه على الناس فيه تشويش الأفكار، وتفريق الجماعة بإثارة الخلاف وعدم الاتفاق بتخالف الأنظار، وحصول المعارضات في الآراء المؤدية إلى فتنة ما لها من قرار.

ثم بعد هذا، يجد المدعُون فسحة للاندماج في زمرة المجتهدين، وهم أبعد شيء عن فهم قواعد الإسلام ومعالم الدين، كما نشاهده اليوم في عصرنا الحاضر، ونسمع في ذلك من المقالات ما تشمئز منه القلوب، وتضطرب منه الخواطر، من اختلاق أقوال باطلة، وعن حلي نصوص الشريعة عاطلة، وزعمهم أنهم أخذوها من الحديث والآثار، وأنها هي التي يجب التمسك بها والاعتبار، ويضمون إليهم دهماء العوام، ويحرضونهم على تضليل الأئمة المقتدى بهم من أهل الإسلام، ثم هم يجادلون أهل الحق بالباطل، ولا يسمعون في الرجوع إلى

الله قولة قائل، إذ هم يدعون أنهم مجتهدون حتى في فهم "القرءان" والسنة، ويفسرون ذلك للعامة بحسب آرائهم، وبمقتضى ما يقتضيه فساد تلك الأزمنة. وهم مع ذلك لا نرى فيهم من هو ساجد لله راكع، ولا مُطهر ذاته من الجنابة رافع، حتى لقد اتسع اليوم الخرق على الراقع، ولم يبق إلا التوجه إلى الله في رفع هذه الأمة من هوة هذا الضلال، إذ هو جل جلاله الخافض الرافع.

ثم إن مسألة الاجتهاد وما فيه، قد أفضتُ فيه القول في كتابي"الأبحاث السامية"، وحررت فيه القول عن أئمة الإسلام المحققين في هذا المقام، وقد وافق ذلك الأراء القديمة والجديدة، والحمد لله على ما منّ به علينا من أنعامه المتجددة العديدة، إذ الفضل بيده يؤتيه من يشاء، وهو العلي العظيم.

قلت: ومن تمام ترجمة هذا الإمام، ما ذكره شيخنا ابن الخياط، آخر "حاشيته" على شرح الشيخ الخرشي لـ"فرائض" الشيخ خليل، وهذا لفظه:

{السيوطي هو عبد الرحمان، بتثليث السين المهملة، ويقال أيضا الأسيوطي، بضم الهمزة وفتحها، المصري الشافعي. ولد بعد المغرب ليلة الحادي عشر من رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة بالقاهرة، ولقبه والده جلال الدين، رجاء أن يكون كذلك، وقد حقق الله رجاءه. وكان يرى النبي، صلى الله عليه وسلم، يقظة. ولقب بابن الكتب. وكانت أمه أم ولد، فسألها أبوه عن كتاب، فذهبت لتأتي به، فولدته ببيت الكتب، فلقب بذلك؛ ويكنى أبا الفضل. نفعنا الله به. صعيدي} هـ [ص 162مجلد582].

[مسألة تقوية الأحاديث الموضوعة بكثرة المخرجين لها]

هذا ومما يلحق بترجمة هذا الإمام، ما نسبه لهُ بعض المتأخرين من إشارته إلى أنه يتساهل في تقوية الموضوعات، بكثرة المخرجين لها من غير نظر إلى الإسناد، وهذه الطريقة لم يعرفها المتقدمون من أهل الحديث إلخ.

أما اتخاذ كثرة الطرق سببا لتقوية الضعيف وإلحاقه برتبة الحسن، وتقوية الحسن بها أيضا وإلحاقه بالصحيح؛ فهي طريقة متفق عليها عند أرباب اصطلاح الحديث اليوم، حتى نصوا عليها في كتبهم، ففي "اختصار نخبة الفكر"، ما لفظه: فإن خف الضبط، فحسن لذاته، وبكثرة طرقه يُصحّح.هـ ومن "شرح" العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي لنظم المصطلح، في شرح قوله:

والحسن الذي الشروط استوفى الإكمـــال الضبط فهو خفـــــــا

في التنبيه الثاني: إذا كثرت طرق الحسن صُحح، لأن للصورة المجموعة قوة تُجبُر القدر الذي قصّر به ضبط راوي الحسن عن راوي الصحيح.هـ[ص 46 مجلد:582].

أما إلحاق الضعيف بالحسن، فكثيرا ما نجده في كتب الحديث وغيرها مذكورا، وفي مؤلفات المحدثين، ولا سيما المتأخرين، مقررا مسطورا. وقد ذكر هذه المسألة الحافظ ابن الصلاح في الكلام على الحديث الحسن، في التنبيه الثاني، وأوردها على سبيل السؤال والجواب، فقال:

الثاني: لعل الباحث الفهم يقول: إنا نجد أحاديث محكوما بضعفها، مع كونها قد رُويت بأسانيد كثيرة من وجوه عديدة، مثل حديث:"الأذنان من الرأس" ونحوه، فهلا جعلتم ذلك وأمثاله من نوع الحسن، لأن بعض ذلك عضد بعضا، كما قلتم في نوع الحسن على ما سبق آنفا؟

وجواب ذلك أنه ليس كل ضعف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه، بل ذلك يتفاوت، فمنه ضعف يزيله ذلك، بأن يكون ضعفه ناشئا من ضعف حفظ راويه، مع كونه من أهل الصدق والديانة. فإذا رأينا ما رواه قد جاء من وجه آخر، عرفنا أنه مما قد حفظه ولم يختل فيه ضبطه له. وكذلك إذا كان ضعفه من حيث الإرسال، زال بنحو ذلك، كما في المرسل الذي يرسله إمام حافظ، إذ فيه ضعف قليل، يزول بروايته من وجه آخر. ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لقوة الضعف وتقاعد هذا الجابر عن جبره ومقاومته. وذلك، كالضعف، الذي ينشأ من كون الراوي متهما بالكذب، أو كون الحديث شاذا. وهذه جملة تفاصيلها تدرك بالمباشرة والبحث، فاعلم ذلك، فإنه من النفائس العزيزة. والله أعلم هـ[علوم الحديث: ص14].

وهذه الجملة من هذا الإمام، في هذا الفن، تعرفك أن كثرة الطرق تقوي الحديث الضعيف. وإذا كانت تقوي الضعيف، فإنها كذلك تجبر الحديث الذي ادّعي فيه أنه موضوع، بإلحاقه بالضعيف. وكم من حديث ادعي أنه موضوع مردود السند؛ فتتبع الحفاظ طرقه، فنفوا وضعه وألحقوه بالضعيف.

وتعقبوا على الحافظ أبي الفرج ابن الجوزي في كتابه"الموضوعات"، إذ أدخل فيه كثير من الأحاديث الضعيفة، وحكم عليها بالوضع، كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن الصلاح في كتابه"علوم الحديث"، إذ قال:

ولقد أكثر الذي جمع في هذا العصر الموضوعات في نحو مجلدين، فأودع فيها كثيرا مما لا دليل على وضعه، وإنما حقه أن يذكر في مطلق الأحاديث الضعيفة.هـ[ص38].

وقد نظم ناظمه العراقي في قوله:

وأكثر الجامع فيه إذ خرج لمطلق الضعف عنى أبا الفرج

والحافظ السيوطي الذي لمزه هذا المتعقب المتأخر بانفراده بهذه الطريق، لم يصب تعقبه المفصل؛ إذ الحافظ السيوطي وإن اعتمد في خبر ما ادّعِيَ من الحديث أنه موضوع، بكثرة الطرق وإنعاشها بها من هذا الوضع؛ فلم يخرج عما رسمه أهل الفن في قواعدهم، ولم ينفصل، حسبما أسلفناه وبنقولهم أيدناه. ومن زاول كتب أهل الحديث، وقرأ ما يقررونه في الأحاديث التي قيل بوضعها، ووجدوا حديثا ادّعَيَ فيه أنه موضوع، ونظروا في كتب الحديث، ووجدوا لهذا الحديث طرقا ضعيفة من غير هذه الطريق؛ حكموا بأنه ينجبر بها، ويخرج من حالة الوضع إلى حالة الضعف، ويقولون في تعليل ذلك: إن كثرة طرق هذا الحديث، وإن كانت ضعيفة، فهي تدل على أن لهذا الحديث أصلا، وهو كثير في كلامهم.

أما الحافظ السيوطي في هذا الأثر الذي خطأه فيه هذا المتعقب، فإنه خارج من هذا، لأن السيوطي إنما توقف في ذلك الحديث الذي رواه الخطيب البغدادي مختصرا، ورواه ابن عساكر مطولا في شأن أويس القرني، بسنده إلى الإمام مالك، من نزول جبريل على النبي، صلى الله عليه وسلم، وقوله:"يا محمد. إن الله سيخرج من أمتك رجلا يشفع، فيشفعه الله في عدد ربيعة ومضر"إلخ. فإن الحافظ السيوطي بعد أن نقل هذا الحديث، قال عقبه:

{ وعندي وقفة في الحكم عليه بالوضع، فإن له طرقا عديدة، فورد هكذا مطولا من حديث أبي هريرة؛ أخرجه الروياني في "مسنده"، وأبو نعيم في"الحلية" وابن عساكر، بسند لا بأس به، وقد سقته في"جمع الجوامع" في مسند أبي هريرة، ومن حديث ابن عباس بأخصر منه، أخرجه ابن عساكر، وفي سنده نهشل بن سعيد، وهو وَاهٍ ضعيف، ومن طريق علقمة بن مرثد وغيره مطولا ومختصرًا. وقد سقتُ جميعها في مسند عمر من"جمع الجوامع".}هـ [تاريخ ابن عساكر:171/3]

قلت: نرى أن السيوطي إنما توقف في الحكم بالوضع، لأنه أخرجه من الوضع لمكانة هؤلاء الأئمة الذين أسندوه، وتهيبا من أن يحكم بوضعه مع احتمال وجوده أو وجود أصله. وجزْم هذا المتعقب بالوضع، وأنه مكذوب من عند نفسه، لا يقبل، كما هو مقرر في كتب اصطلاح الفن أنه ليس للمتأخر أن يحكم في الحديث بالصحة أو الحسن أو الوضع، وحسبه أن

ينسب ذلك لأئمة الحديث المعتمد عليهم. وحسبه هنا أن لو تلا مقالة ابن حبان: هذا الحديث باطل، ومحمد بن أيوب كان يضع الحديث على مالك، والذي صحّ في أويس كلمات يسيرة مشهورة. هـ [تاريخ ابن عساكر:171/3].

هذا، ولأويس ترجمة لابن حجر في "الإصابة". وذكر ما ورد عنه في الأخبار، وذكرها كما وجدها نقلا، ولم يحكم في شيء منها بالوضع، وهو خاتمة الحفاظ المتأخرين، وجُهينة الأخبار عند المحققين من المحدثين، فانظره هناك.

قلت: وطريق معرفة الموضوع في كتب اصطلاح الفن مذكورة، وبين أهله معروفة مشهورة. وبالله التوفيق، لقصد السبيل وإدراك مواقع التحقيق.

هذا ومحبتي في الحديث والآثار، تقودني إلى الإطناب فيما عنّ من المباحث فيه واستحلاء الإكثار.

وهنا يتم الكلام على حافظ القرن التاسع ومجدده، الذي شارك بوجوده في عاشره؛ ونلحقه بمعاصره:

[شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري]

شيخ الإسلام وناصره، العلامة أبو يحيى زكرياء الأنصاري، الإمام الشهير بالتحقيق في مؤلفاته والتحرير، الذي شارك في هذه المرحلة بشرحه ألفية العراقي؛ "الشرح" الذي تلقاه المتأخرون من أهل الفن بأحسن القبول، والإقبال على دراسته، وأنزلوه في الدراسة به أعلى المراقي. فهو إلى عصرنا هذا في المقام الأول، وعليه في هذا العلم المعول. وقد قال العلامة ابن الحاج في "أزهاره"، لما ذكر الحافظ العراقي الذي لخص كتاب ابن الصلاح، ونظم فيه ألفيته الشهيرة، قال:

وعليها شروح؛ المعتمد منها"شرح" الشيخ شمس الدين، محمد بن زين الدين، عبد الرحمان السخاوي، المتوفى سنة، (وترك بياضا، وقد قدمنا أنه توفي سنة903) و"شرح" شيخ الإسلام، القاضي أبي يحيى، زكرياء بن محمد بن أحمد بن زكرياء الأنصاري، السُنيكي نسبة إلى سُنيك بالتصغير، قرية من أعمال مصر، القاهري الشافعي، المتوفى سنة خمس وتسعين وتسعمائة، وهو ابن مائة سنة. وعوّل على هذين الشرحين واعتمدَهما، فلا ترى نظيرا لهما في الإتقان والجمع بين التلخيص والتحقيق. هـ [ص198].

هذا؛ وقد كنت وجدتُ في نسختي من كتاب مقدمة هذا الشيخ الخطية التي ألفت في الكلام على البسملة والحمدلة والشكر والمدح لغة وعرفا، إلخ. في إسم مؤلفها ما لفظه:

"قال الشيخ الإمام، والحبر الهمام، قاضي القضاة وشيخ الإسلام، أبو يحيى، زكرياء الأنصاري الشافعي، رضي الله عنه ونفعنا به آمين."

وكنتُ إذ ذاك كتبت على ظهر النسخة ما لفظه: قد عمّر الشيخ زكرياء، رحمه الله، فوق المائة. ولشيخ الإسلام ولد اسمه يوسف، روى عن أبيه زكرياء، وعن الحافظ السخاوي، وعن السيوطي. وليوسف ولد اسمه محيي الدين، روى عن جده زكرياء. وشيخ الإسلام من تلامذته الشيخ الحطاب، شارح المختصر.هـ ما كنت كتبته قديما في ذلك.

أما الإمام الحطاب، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمان، المغربي الأصل، المكي المولد الرعيني؛ فإنه ولد سنة 902 وتوفي سنة 950، رحمة الله عليهما.

[الإمام القسطلاني]

هذا، وممّن يندرج في هذه المرحلة، وهو ممن شارك في القرن التاسع والعاشر، وهو الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد القسطلاني القتيبي، المصري الشافعي. ولد كما ذكر شيخه الحافظ السخاوي في "الضوء اللامع" بمصر ثاني عشر ذي القعدة سنة851، وأخذ عن الشهاب العبادي، والبرهان العجلوني، والفخر المقدسي، والشيخ خالد الأزهري النحوي، والسخاوي وغيرهم. وقرأ البخاري على السخاوي في خمسة مجالس. وحج مرارا، وجاور بمكة مرتين، وروى عن جمع منهم النجم ابن فهد. وكان يعظ بالغمري وغيره للجم الغفير، ولم يكن له في الوعظ نظير. انتهى. وتوفي ليلة الجمعة بالقاهرة سابع محرم سنة923، وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بالأزهر، ودفن بمدرسة العيني. وله عدة مؤلفات أعظمها هذه"المواهب اللدنية"، التي أشرقت من سطورها أنوار الأبهة والجلالة، وقطرت من أديمها ألفاظ النبوة والرسالة. أحسن فيها ترتيبا وصنعا، وأحكمها ترصيعا ووضعا، وكساه الله فيها رداء القبول، ففاقت على كثير مما سواها عند ذوي العقول.هـ من شرح العلامة الزرقاني [3/1].

هذا، وقد تقدم لنا ذكر هذا الشيخ القسطلاني في الكلام على شرح البخاري، وذكرنا هنالك شرح هذا الإمام، وأنه من الشروح التي أحرز بها عند المتأخرين أرفع مقام. وقد أسلفنا في ذلك ما امتاز به من المزايا والمحاسن، إذ جاء به بنسق رائق يشرب القارئ معانيه

ماء عذبا غير آسن. فجزاه الله على حسن عمله، وبلغه ما نواه بخدمة سيرة سيد العالمين ونشر شمائله منتهى أمله، آمين.

[الحافظ المناوي، شارح الجامع الصغير]

ومما يلحق بهذه المرحلة من المتأخرين الذين خدموا أحاديث الرسول، الشيخ الحافظ عبد الرؤوف المناوي، صاحب "فيض القدير، شرح الجامع الصغير"، للحافظ السيوطي.

وهذا الحافظ يعدّ في أهل القرن الحادي عشر، وذكره العلامة القادري في"نشر المثاني"، فقال: ومنهم الشيخ الإمام الكبير، الحافظ المحدث الشهير، العلامة الدراكة المطلع النقاد، عبد الرءوف المناوي، أحد أعلام الدين، وخاتمة الحفاظ المجتهدين. له شرحان على"الجامع الصغير"للإمام جلال الدين السيوطي، الأكبر منهما في أربعة أسفار، والأصغر في سفرين. وألف"طبقات العلماء"، وشرح "شرح نخبة" ابن حجر لمؤلفها، وله شرح جليل على" شمائل الترمذي"، وليس في شرح الشمائل من يشبهه. ووقفت على كلها عدا "الطبقات"، وكلها محررة محققة. وله أيضا كتاب "طبقات الصوفية"، والاستدراك عليه. قال الحافظ المقري في"فتح المتعَال": وقد لقيته بالقاهرة المحروسة، وزرته في بيته.هـ ثم بعد أن أوردته هنا، وقفت على تاريخ وفاته، فتوفي صاحب الترجمة عام ثلاثين وألف. رحم الله الجميع.هـ كلام القادري[107/2].

قلت: وفي هامش نسخة القادري ما لفظه: قوله عام ثلاثين. في "خلاصة الأثر"، أن وفاته يوم الخميس23 صفر سنة1031، ومولده سنة952. وذكرله من التآليف نحو المائة، وأطال في ترجمته. هـ مصححه.

[العلامة ابن سلطان القاري، شارح "الشفا"]

ومما يذكر في هذه المرحلة من أهل الحديث، العلامة ابن سلطان، شارح"الشفاء". وقد ذكره أيضا صاحب "نشر المثاني"، فقال في ذكر من لم يقف على وفاته:

فمنهم الشيخ الإمام، الحافظ المقرئ المحدث، أبو الحسن، علي ابن سلطان بن محمد الهروي، الحنفي صاحب"الشرح" الجليل على "الشمائل" للترمذي. وفي آخر "الشرح" المذكور: وقد فرغ مؤلفه من تسويده بعون الله وتأييده، منتصف شعبان المعظم، المحترم المكرم، عام ثمانية بعد الألف.هـ وله "شرح" جليل، وقفت عليه، على شرح"نخبة" ابن حجر لمؤلفها. وكفى في بيان علوّ قدره ما تضمنه "شرحاه" المذكوران.هـ [107/2].

هذا ما قاله القادري. قلت: ولهذا الإمام مؤلفات أخرى لم نقف عليها. وقد كنتُ كتبتُ على هامش نسخة"شرح الشفا" لهذا المؤلف، أيام إقرائي لهذا الكتاب، ما لفظه: مؤلف هذا "الشرح" هو الإمام العلامة، علي بن سلطان بن محمد القاري. وهو حسبما يؤخذ من هذا "الشرح" من الصوفية. وقد أتى في هذا"الشرح" بكثير من اصطلاحاتهم. له من التآليف المشهورة غير هذا"الشرح"، يعني شرح الشفا،"جمع الوسائل، شرح الشمائل"، و"شرح الأربعين النووية"، و"مرقاة المفاتيح". وله"المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح" للخطيب التبريزي، و"المنح الفكرية، شرح المقدمة الجزرية"، و"ضوء المعالي، على بدء الأمالي" توفي سنة1014، أي ألف وأربعة عشر. كذا وجدته في فهرسة دار الكتب العربية عن عام1328هـ.

* * *

[الرجوع للكلام على تقسيم مراحل الحديث]

ولنعد هنا لمغزى أقسام هذه المراحل التي اقتفيتها، ومن تلقاء ما تدريه نفسي قسمتها. وإن هذه المرحلة السابعة، وهي آخر المراحل، ابتداؤها من القرن التاسع إلى هذا القرن الرابع عشر الذي نحن فيه، لتقارب هذه القرون في قلة المقبلين على علم الحديث، لاشتغالهم بالفقه وغيره من العلوم التي تقتضيها أزمانهم، وتتطلبها عامتهم وخاصتهم. ولم يبق مشتغلا بهذا العلم إلا الشرذمة القليلة، كما أسلفنا ذلك.

ثم إنه لما كان موضوع التقسيم، هو ذكر المتخصصين في الرواية، والمقبلين عليه بالنشر والتصنيف، المشهورين في أعصارهم بذلك، والمنتشرة مؤلفاتهم بين أهل العلم؛ فلم نذكر في كل مرحلة إلا من اشتهر حفظه، وغزرت مادته في هذا الفن وزكاه حظه.

[الشيخ الإمام محمد الزرقاني]

ولم يشتهر في هذه القرون الأخيرة إلا الواحد بعد الواحد، متفرقين على انفرادهم في المدارس والمعاهد. ومن هؤلاء الأفراد المتأخرين، ذاك العالم العلامة، إمام القرن الحادي عشر في الحديث، أبو عبد الله، محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، ولدُ الشيخ عبد الباقي، شارح "مختصر خليل". وفيه يقول الإمام الجبرتي:

خاتمة المحدثين، مع كمال المشاركة وفصاحة العبارة في باقي العلوم. ولد بمصر سنة خمس وخمسين وألف، وأخذ عن النور الشبراملسي، وعن حافظ العصر البابلي، وعن والده.

وحدث عنه العلامة السيد محمد بن محمد بن محمد الأندلسي، وعبد الله الشبراوي، والملوي والجوهري، وغيرهم. قال: وله المؤلفات النافعة؛ كـ"شرح الموطإ"، و"شرح المواهب"، واختصر "المقاصد الحسنة" للسخاوي، ثم اختصر هذا المختصر في نحو كراسين بإشارة والده، وعم نفعها. وكان معيدا لدروس الشبراملسي، وكان يعتني بشأنه كثيرا. وكان إذا غاب سأل عنه، ولا يفتتح درسه إلا إذا حضر، مع أنه أصغر الطلبة، فكان محسودا لذلك في جماعته. وكان الشيخ يعتذر عن ذلك ويقول: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، أوصاني به. وتوفي سنة اثنين وعشرين ومائة وألف.[عجائب الآثار:148/1 بهامش تاريخ ابن الأثير]؛ فهو من أهل القرن الثاني عشر.

[الشيخ التاودي محمد بن الطالب ابن سودة]

ومما يندرج في هذه المرحلة، وهو من أهل القرن الثالث عشر، شيخ المغرب وإمامه، ومقدم أعلامه الذي ترنحت في أنحائه وغير أنحائه بالعلوم والمعارف راياته وأعلامه، أبو عبد الله، محمد بن الطالب ابن سودة المرِّي الفاسي؛ فإنه ممن شارك في الفن بمؤلفاته، وساهم أهله في اعتنائه بالإسناد في مقروءاته ومروياته، وروى ما استطاع من كتب الحديث عن أهله في إقامته ورحلاته، وجد واجتهد في اقتناء فنون العلوم في غدواته وروحاته، حتى اشتهر ذكره في بلده وأنحائه. وأم الحجاز لأداء فريضة الحج، فشاهد زمزم والحرم، وأدرك بذلك ما أمله في ذلك المقام. وفي هذه الوجهة الحجازية دخل مصر شاهرًا عَلَمَ علومه، ومبرزا في منظومه ومفهومه، حتى أصبح لديهم سراجا وهاجا، وغيثا بالعلوم ثجاجا. قال المؤرخ الجبرتي في كتابه"عجائب الآثار"، مترجما له، ما لفظه:

ومات الإمام الفقيه المحدث البارع المتبحر، علم المغرب، الشيخ أبو عبد الله إلخ. قال: ولد بفاس سنة ثمان وعشرين ومائة وألف، وأخذ عن أبي عبد الله، محمد بن عبد السلام بناني الناصري،" شارح الاكتفاء"، و"الشفاء"، و"لامية الزقاق"، وغيرها، والشهاب أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، قرأ عليهما "الموطأ" وغيره، والشهاب أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي، قرأ عليه المنطق والكلام، والبيان والأصول، والتفسير والحديث. وكان في أكثرها هو القارئ بين يديه مدة مديدة. وأذن له في إقراء الصحيح في حياته، فألقى دروسا بين يديه.

ثم ذكر ما وقع له مع شيخه سيدي عبد العزيز الدباغ في مسألة توجهه للحج، وذكر من مشاهير أشياخه عشرة، منهم ما تقدم، ومنهم العلامة جسوس، صاحب التصانيف، والقاضي الشدادي والقاضي التماق، وابن جلون والجندوز وابن علال الوجاري. وفي كل ذلك يذكر مقروءاته على كل شيخ من هؤلاء الشيوخ في الحديث وغيره.

ولما مر بالقاهرة في حجه، وهو الرجل علما، والإمام جلالة وإتقانا وفهما، عقد في الأزهر الشريف درسا حافلا برواق المغاربة، فقرأ "الموطأ" بتمامه، وحضر غالب العلماء الموجودين، وأجاد في تقريره وأفاد. قال:

وسمع عليه الكثير من أوائل الكتب الستة و"الشمائل" و"الحكَم"، وغيرها، وأجازه. ولقي بمكة أبا زيد، عبد الرحمان بن أسلم اليمني، وأبا محمد، حسين بن عبد الشكور. وصاحب الشيخ عبد الله الميرغني، والشيخ إبراهيم الزمزمي وغيرهم، وبالمدينة أبا عبد الله، محمد بن عبد الكريم السمان، وأبا الحسن السندي، وعبد الله جعفر الهندي وغيرهم. وأجازوه وأجازهم، وعاد إلى مصر واجتمع بأفاضلها، كالجوهري والصعيدي، وحسن الجبرتي والطحاوي، والسيد العيدروس، والشيخ محمود الكردي، وعيسى البراوي، والبيومي والعريان، وعطية الأجهوري. ثم قال الجبرتي، بعد أن ذكر أنه كان في صحبته ولداه سيدي محمد، وهو الأكبر، وسيدي أبو بكر، ثم قال:

ومن تآليف المترجم: "حاشيته"على البخاري وعلى الزرقاني شارح خليل، و"شرحان" على الأربعين النووية ومناسك حج، و"شرح الجامع" لسيدي خليل، و"شرح تحفة" ابن عاصم في القضاء و الأحكام، و"المنحة الثابتة في الصلاة الفائتة"، و"فتح المتعال، فيما ينتظم منه بيت المال"، و"حاشية" على ابن جزي المفسر، و"حاشية" على البيضاوي لم تكمل، و"شرح المشارق" للصاغاني، ومنظومة فيما يختص بالنساء؛ وذكر بعضها. ثم قال:

{وكلفه سلطان المغرب خطة القضاء في سنة ثلاث ومائتين وألف، فقبلها كرها، وكانت فتاويه مسددة، وأحكامه مؤيدة، مع غاية التحرز والصيانة والإتقان}.

{ وبالجملة؛ فكان عين الأعيان في عصره ومصره، شهير الذكر، وافر الحرمة، مهيب الصورة، يغلب جلاله على جماله، قليل التبسم. ولما توفي مولاي محمد، سلطان المغرب، ووقع الاختلاف والاضطراب بين أولاده، اجتمع الخاصة والعامة على رأي المترجم؛ فاختار المولى سليمان وبايعه على الأمر، بشرط السير على الخلافة الشرعية، والسنن المحمدية.

وبايعه الكافة على ذلك وعلى نصر الدين، وترك البدع والمظالم والمكوس والمحارم، وكان كذلك. ولم يزل المترجم على طريقته الحميدة، حتى توفي في هذه السنة}.هـ [194/5].

وقد انتخبت ترجمة هذا الإمام المغربي من تاريخ هذا الإمام المصري، لما فيها من تفصيل ترجمة هذا الشيخ، وتبيان ما كان له من العناية بمتون الحديث التي كانت متداولة في عصره من "الموطإ" و"صحيح البخاري"، وكتابته "حاشيته" على "صحيح البخاري" وإقراء "الموطإ" بالأزهر الشريف، وروايته عن علماء مصر، كما رووا هُم عنه، وكذلك علماء مكة والمدينة وما أجازهم به وأجازوه كذلك؛ مما هو شاهد لإدراجه في هذه المرحلة الحديثية، وهو العَلم المفرد، والإمام الأعظم، الذي جاء في هذه المرحلة من أهل المغرب كالغراب الأعصم.

وقد ترجمه من المغاربة تلميذه العلامة الرهوني، ولكن أجحف في ذلك، وأحال في ذكر الرواية عن شيوخه على "فهرسته". ومن الأسف أني كنت ملكتها أيام ابتدائي في الطلب، فأضعتها لعدم معرفتي إذ ذاك لقدرها.

ولكن العلامة الجبرتي المصريِ، وفى في ترجمة هذا الإمام حقه واستوعب؛ فقصدنا في إثباته بها في هذه المرحلة من أهل القرن الثالث عشر برقة ودقة، وأنصف في ذلك، وإن لم يكن من أهل قطره، وأشاد بذكره ونوه بمقامه وإعلاء قدره، وكل ذلك فيه إنصاف، والتجافي عن ناحية التعصب ومنهج الاعتساف. فرحم الله العلماء المنصفين القائلين بالحق الذين يقولون:(رَبَّنَا اغْفِرْ لنا ولإِخْوَانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بالإيمَان)، وعلمُوا بالله علم اليقين.

أما الشيخ الرهوني، تلميذ الشيخ، فإنه سلك في ترجمة شيخه مسلك الإيجاز، الذي كان يقتضيه المقام الذي كان بصدده من الشروع في كتابه "حاشيته" الشهيرة على الزرقاني، ولكن رغم ذلك فإنه أتى في شأنه بمقال، على اختصاره، أبان عن مقداره، وأنه كان في المغرب بمعارفه قطب مداره. قال:

وقد تمَّم الله عليه نعمته بطول العمر، فتخلف عمن كان معه في طبقته، وحاز رياسة فاس والمغرب كله، فلا أعلم الآن أحدا ممن ينتمي إلى العلم بالمغرب إلا وله عليه منة التعليم، إما بواسطة أو بغير واسطة. ثم قال:

وقد جمع مع ذلك الاجتهاد في العبادة، والسخاء وحسن الخلق، والمحبة العظيمة لأهل البيت والطلبة، والاعتناء بأمور الناس وخصوصا الضعفاء منهم. وحبب إليه الزيارة إلى قبر الشيخ العارف بالله، الشهير الصيت، مولانا عبد السلام بن مشيش. ثم ذكر صحبته في زيارته

مرات، ووصف حاله الأدبية في تلك الزيارات. انظر تمام ذلك في أوائل "حاشيته" على الزرقاني.

وأكبر شيء يدل على جلالة هذا الشيخ، ما ذكره الجبرتي في رجوع أهل الحل والعقد إليه عند موت السلطان مولاي محمد بن عبد الله، وتنازع أولاده، وكاد أن تعم الفوضى في البلاد، واستشاروا الشيخ فيمن يقدمونه للخلافة، فاختار لهم المولى سليمان، فانقاد العامة والخاصة لرأيه، وعملوا باختياره، وتمت البيعة على يده. وكانت وفاة الشيخ، رحمه الله، سنة تسع ومائتين وألف.

وإنما أطنبتُ في ترجمة هذا الإمام لما احتوت عليه من الفوائد:

منها أن أهل المغرب كان فيهم أئمة أجلة، شاركوا في سائر العلوم، ومنهم من أضاف إلى مشاركته؛ الاعتناء بأمر الحديث ورواية مصنفات فنونه، وحفظ الأسانيد، والرحلة إلى مشاهير الشيوخ.

وهذا هو الذي أوجب إدراج هذا الشيخ في هذه المرحلة. وأكبر حجة في ذلك، وهو يشهد له بالتقدم في الفن، دراسته كتاب "الموطإ" بالأزهر، وحضور غالب علماء القاهرة بهذا المجلس الحفيل، كما سبق عن العلامة الجبرتي.

فرضي الله عن هذا الشيخ المغربي، الذي أقر الله به أعين أهل المغرب إذ ذاك، مما يفرح به كل مغربي ويفخر، إذ يسمع أن هذا البحر المديد يفيض بمدد معارفه على الآفاق ويزخر، والعلوم إنما هي مواهب إلهية، وفتوحات ربانية، يفتح بها على من شاء من عباده، مدى الدهر وآماده، وفضله الواسع لا منتهى يحده، و(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ). هذا، ولنمسك عنان اليراع، عن الزيادة في هذه الأوضاع، والإطالة في الاتساع.

[الشيخ مُرتضى الزبيدي الحسيني، شارح القاموس]

وأقول: مما يستوجب الإدراج في هذا المنهاج، وإلحاقه بمرحلتنا لكونه يستحق فيها الإدماج، لمشاركته في الفن وشهرته بالاطلاع في مباحثه في كل المناحي والأوضاع، وإملائه في فنونه وكتابته في ذلك المُؤنة بالتحقيق وطول الباع، العلامة النحرير، المشارك تمام المشاركة في الحديث واللغة والأدب والفقه والتصوف وغيرها؛ أبو الفيض، السيد محمد بن

محمد بن عبد الرزاق، الشهير بمرتضى الحُسيني الزبيدي الحنفي. وفي "الأزهار" لابن الحاج، الحسني الواسطي المصري إلخ.

فإنه ممن أنار في أفق الجلالة والنباهة بدرُه، وعلا في القطر المصري وغيره لدى الخاصة والعامة قدرُه، ودرّ درور الشمس في الآفاق ذكرُه، واستدعاه في محفل أعيان العلماء وعيون أهل السيادة والرياسة صدرُه.

وقد ترجمه العلامة الجبرتي المصري في كتابه"عجائب الآثار" ترجمة واسعة، أبان فيها عن حال هذا العلامة الهمام، وأعرب فيها عما كان له من التقدم في الفنون والمعارف، مما فاق به أعيان الأقران من التَّليد والطريف، مما يصح أن يُجرَّد في تأليف خاص، لأنه استوعب فيها جميع مناحي حياته، في جميع تصرفاته وتوجهاته، من لدن ابتداء دراسته إلى خاتمة حياته.

وبما أنه كان من الملازمين له في مجالسه العلمية، ومحاضراته الحديثية والأدبية؛ أمكن له أن يحيط بشيمه وشمائله، وأن يكون هو جُهينة أخباره فيما كان عليه في مبدإ أمره ومآله. وصدر الترجمة بقوله:

مات شيخنا علم الأعلام، والساحر اللاعب بالأفهام، الذي جاب في اللغة والحديث كل فج، وخاض من العلم كل لج، المذلل له سبيلُ الكلام، الشاهدِ لهُ الورقُ والأقلام، ذو المعرفة والمعروف، وهو العلم الموصوف، العمدة الفهامة، والرُحلة النسابة، الفقيه المحدث اللغوي النحوي الأصولي، الناظم الناثر، الشيخ أبو الفيض إلخ. ثم قال: ولد سنة خمس وأربعين ومائة وألف. قال: ونشأ ببلده، وارتحل في طلب العلم وحج مرارا.

ثم ذكر ما لقيه في حجه من كبار الشيوخ، وأنه خرج إلى الطائف بعد ذهابه إلى اليمن، وأنه قرأ على الشيخ عبد الرحمان العيدروس "مختصر السعد"، وأجازه بمروياته ومسموعاته، قال: وهو الذي شوقني إلى دخول مصر بما وصفه لي من علمائها وأمرائها وأدبائها، وما فيها من المشاهد الكرام؛ فاشتاقت نفسي لرؤيتها، وحضرت مع الركب، وكان الذي كان. قال الجبرتي:

ثم ورد مصر في تاسع صفر، سنة سبع وستين ومائة وألف، وسكن بخان الصاغة. وأول من عاشره وأخذ عنه، السيد علي المقدسي الحنفي، من علماء مصر. وحضر دروس أشياخ الوقت، كالملوي والجوهري، والحنفي والبليدي، والصعيدي والمدابغي وغيرهم. تلقى منهم وأجازوه، وشهدوا بعلمه وفضله وجوده.

ثم ذكر أنه اتصل ببعض الرؤساء الذي اعتنى بشأنه ووالاه برّه، قال: حتى راج أمره، وترونق حاله، واشتهر ذكره عند الخاص والعام، قال: وسافر إلى الصعيد واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه. قال: وأكرمه شيخ العرب، وارتحل إلى الجهات البحرية واجتمع بأكابر النواحي وأرباب العلم، وأجازوه وأجازهم، وصنف عدة رحلات في انتقالاته تحتوي على لطائف ومحاورات ومدائح، نظما ونثرا. قال: وكنّاه أبو الأنوار ابن وَفا بأبي الفيض. قال:

وشرع في "شرح" القاموس حتى أتمه في عدة سنين، في نحو أربعة عشر مجلدا. ولما أكمله، أولَمَ وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم وأشياخ الوقت، سنة1181، وأطلعهم عليه، واغتبطوا به، وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه، ورسوخه في علم اللغة، وكتبوا عليه تقاريظهم نثرا ونظما. وذكر الجبرتي من ذلك جملة كبيرة، كلها صدرت من أكابر العلماء ونبغاء الشعراء. قال:

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف به، قرب الأزهر، وعمل فيه خزانة للكتب، واشترى جملة من الكتب ووضعها بها؛ أنهوا إليه "شرح القاموس" هذا، وعرفوه أنه إذا وضع بالخزانة كمل نظامها، وانفردت بذلك دون غيرها، ورغبوه في ذلك، فطلبه وعوّضه عنه مائة ألف درهم فضة، ووضعه فيها. قال:

ولم يزل المترجَم يخدم العلم ويرقى في درج المعالي، ويحرص على جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون، كعلم الأنساب، والأسانيد وتخارج الأحاديث، واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين. وألف في ذلك كتبا ورسائل ومنظومات وأراجيز جمة. ثم انتقل إلى ناحية أخرى، وكانت هذه الناحية عامرة بالأكابر والأعيان، وتحبب إليهم وواسوه، وهو يظهر لهم الغنى والتعفف، ويعظهم ويفيدهم وغيرهم بقراءة أوراد وأحزاب؛ فأقبلوا عليه. وكان عارفا باللغة التركية والفارسية، فانجذبت إليه القلوب. قال:

ثم شرع في إملاء الحديث، على طريق السلف في ذكر الأسانيد والرواة والمخرجين من حفظه. وكل من قدم عليه يملي عليه الحديث المسلسل بالأوليَّة، وهو حديث الرحمة. ثم استجازه بعض علماء الأزهر، فقال لهم: لابد من قراءة أوائل الكتب، فشرعوا في "صحيح البخاري"، وتناقل الناس ذلك، فازداد شأنه، وعظم قدره. ثم اجتمع عليه العامة والأكابر والأعيان، والتمسوا منه تبيين المعاني؛ فانتقل من الرواية إلى الدراية، وصار درسا عظيما. ثم افتتح دروسا أخرى، حتى في منازل بعض الأعيان الذين كانوا يعملون من أجله ولائم في بيوتهم، فيملي ويقرأ لهم شيئا من الأجزاء الحديثية، كثلاثيات البخاري أو الدارمي، أو بعض

المسلسلات، بحضور الجماعة وصاحب المنزل، وعائلته من خلف الساتر، ويكتب الكاتب محضرا بذلك، ويوقع عليه الشيخ. قال تلميذه الشيخ الجبرتي: وهذه طريقة المحدثين في الزمن السابق كما رأيناه في الكتب القديمة. قال الجبرتي:

يقول الحقير: إني كنت مشاهدا وحاضرا في غالب هذه المجالس والدروس ومجالس أخر، خاصة بمنزله ومنزلنا، وأماكن أخر كنا نذهب إليها للنزهة، فكنا نشغل غالب الأوقات بسرد الأجزاء الحديثية وغيرها. هـ [عجائب الآثار: 100/5 باختصار].

ولم يزل هذا العلامة في صعود وارتقاء، وبعد الذكر والصيت، حتى انجذبت إليه الأمراء وواصلوه بالهدايا الجزيلة، وانثالت عليه الدنيا، وأنهي إلى الدولة شأنه، فصدر له منها مرسوم بمرتب جزيل معظم أمره. وطلب إلى الدولة، فأجاب ثم امتنع. ثم ترادفت عليه المراسلات والهدايا من رؤساء الدولة، وكاتبه ملوك النواحي من الترك والحجاز، والهند واليمن، والعراق والغرب. وكثرت الوفود من كل ناحية إليه بالهدايا والصلات، وانثالت إليه الدنيا. قال الجبرتي:

وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة، ومنزلة كبيرة، واعتقاد زائد. وربما اعتقدوا فيه القطبانية العظمى، حتى إن أحدهم إذا ورد إلى مصر حاجا ولم يزره، ولم يصله بشيء، لا يكون حجه كاملا.

ثم بعد كلام في شأن اعتقاد أهل المغرب في هذا الشيخ، والخروج في ذلك عن حد الاعتدال، قال:

وشرع في شرح كتاب"إحياء علوم الدين" للغزالي، وبيض منه أجزاء وأرسل منها إلى الروم والشام والمغرب ليشتهر، مثل "شرح القاموس"، ويرغب في طلبه واستنساخه. ثم قال بعد كلام في شأن أحواله الخاصة:

ولما بلغ ما لا مزيد عليه من الشهرة وبعد الصيت، وعظم القدر والجاه عند الخاص والعام، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار، وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها من كل ناحية؛ لزم داره، واحتجب عن أصحابه الذين كان يُلِمّ بهم قبل ذلك، إلا في النادر لغرض من الأغراض، وترك الدروس والإقراء، واعتكف بداخل الحريم، وأغلق الباب ورد الهدايا.

وزاره الرؤساء في بيته، وخلعوا عليه الخلع الرفيعة، وقبلوا شفاعته، وتلقوا مكاتبته بالقبول والإجلال.

ثم إن الشيخ في هذه الحالة، كما قال الجبرتي، أرسل مرة إلى أحمد باشا الجزار مكتوبا وذكر له فيه أنه المهدي المنتظر، وسيكون له شأن عظيم؛ فوقع له بموقع الصدق، لميل النفوس إلى الأماني.

[انتقاد سلطان المغرب للشيخ في رده لصلته، وشرحه لكتاب"الإحياء"]

ثم ذكر الجبرتي أنه اتفق أن مولاي محمد، سلطان المغرب، رحمه الله، وصله بصلات، قبل انجماعه الأخير وتزهده، وهو يقبلها ويقابلها بالحمد والثناء والدعاء. فأرسل له في سنة1201 صلة لها قدر، فردها وتورع عن قبولها، وضاعت ولم ترجع إلى السلطان. وعلم السلطان ذلك من جوابه. قال الجبرتي:

فأرسل إليه مكتوبا، قرأته وكان عندي ثم ضاع، قال: ومضمونه التوبيخ في رد الصلة، ويقول له إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين، وليتك، حيث تورعت عنها، كنت فرقتها على الفقراء والمحتاجين، فيكون لنا ولك أجر ذلك، إلا أنك رددتها وضاعت. ويلومه أيضا على شرحه"الإحياء"، ويقول له: ينبغي أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك. ويذكر وجه لومه له في ذلك، وما قاله العلماء، وكلاما مفحما مختصرا مفيدا. رحمه الله تعالى هـ [عجائب الآثار:100/5 باختصار].

قلت: وما نقله هنا الجبرتي عن سلطان المغرب في شأن شرح "الإحياء"، على وجه يظهر منه أنه استحسنه، كما أن ما ذكره في شأن ما كتب به إلى الجزار، يذكر له فيه أنه المهدي المنتظر، يشعر ذلك بأنه انحرف أخيرا عن هذا الشيخ، وصار من المنتقدين، لا من المعتقدين كما كان أولا، ميلا منه فيما يظهر إلى علماء الأزهر، أهل بلده وموطنه، والشيخ مرتضى هو غريب في مصر، طارئ عليها، فهو معدود من الغرباء، والغريب يكون لدى أهل كل بلد غرضا للنقد والطعن بأدنى فلتة تصدر منه. والله أعلم.

أما ما قاله السلطان في شأن "الإحياء"، فكأنه[كان] اتباعا وتقليدا لما قاله فيه علماء المغرب والأندلس، حتى أحرق. وأصل ذلك مقالة إمام المالكية المازري، والطرطوشي، وسيأتي الكلام على ذلك.

***

[مسألة أحمد باشا الجَزَّار،
وشهادة الشيخ له بأنه المهدي المُنتظر]

أما مسألة الجزار، وكون الشيخ مُرتضَى كتب له يقول له إنه المهدي المنتظر، وأنه سيكون له شأن عظيم، إلخ ما ذكره الجبرتي فيما سبق.

وذكَره الجبرتي، فيما يظهر، على وجه إنكار هذه المقالة على الشيخ مُرتضَى. وذلك أن شأن الجزَّار في ذلك العصر كان معروفا في الشام بسفك الدماء، وقتل النفوس البريئة، وظلمه الذي لا يسلم منه في دمشق الشام صغير ولا كبير، فكيف يكتب له[بذلك] هذا الشيخ العظيم ذو المكانة المكينة في الدين، والولاية عند عامة المسلمين؟.

أما المؤرخ الجبرتي، فإنه نقل ذلك ولم يتعقبه، وألقى الحبل على الغارب. لكن فحواه الإنكار، وعدم قبول هذه الدعوى، وتحليته بها هذا الظالم الجبار.

ولكن يمكن أن يلتمس [العذر] لهذا الإمام، الذي قضى أوقاته في خدمة معارف الإسلام، وامتلأ صدره برقائق أهل الإيمان، وتنور فؤاده بحقائق ذوي العرفان؛[و] هو أن مسألة المهدي المنتظر هي مسألة استولت على اعتقاد العامة، وعلى الخاصة من أهل الاطلاع وذوي الفكر؛ وسندهم في ذلك ما ورد في بعض الأحاديث التي خرجها الترمذي وأبو داود، وابن ماجه والطبراني، ولفظ الترمذي: "لا تقوم الساعة حتى يملك العربَ رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي". وقال حديث صحيح. زاد أبو داود: "المهدي من أمتي، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا، يملك سبع سنين". قال الأبِّي عن القرطبي في "شرح" مسلم:

{ فهذه أخبار صحيحة مشهورة، تدل على خروج هذا الخليفة الصالح في آخر الزمان، (قلت): قال ابن العربي: ولا خلاف أنه سيكون، وليس المهدي المتقدم}.هـ [الإكمال:253/7].

[دعوى المهْدوية بلْوَى قديمة،
وحال الأقطار الإسلامية في عصر الشيخ]

نعم؛ اعتقاد المهدوية قد اتخذه الكذابُون وسيلة لِلفِّ العامة عليهم، وترويج دعاويهم الباطلة بينهم شرقا وغربا، كي يتوصلوا إلى الاستيلاء على الممالك والتغلب على الأقطار، حتى قال الشيخ اليوسي: إن هذه الدعوى بلوى قديمة.

ولا يخفى أن هذا العصر الذي قال فيه الشيخ مُرتضَى هذه المقالة في هذا الرجل، الذي كان له في أعماله ما يُستحسن، لولا مزجه بمظالم لا تجري على شرع ولا قانون، كما يأتي؛ وحال الأقطار الإسلامية كانت كلها ملأى بالجور والظلم وقتل النفوس، ونهب الأمتعة والأموال، والفوضى والاضطراب مستول على كل الأقاليم، وسائد في كل المدن والأقطار.

ولا يوجد خليفة إسلامي توفرت فيه شروط الخلافة، ولا وال يحكم بالعدل، ولا قائم بأمر الأمة كما يجب؛ زيادة على ما كان من إغارة العدو وفتح أفواه مدافعه على المدن والحصون، وسلب ما بيد هؤلاء الأمراء الذين لا يحافظون على بلادهم، ولا يقومون بالقسط في رعاياهم.

فالشام تتلاعب بها ولاة الأتراك، ومصر يقاسي أهلها ظلم الأمراء والولاة الجائرين، وسيوف فرنسا مسلولة عليهم في كل حين؛ والشيخ مُرتضى، رحمه الله، يرى تأجُّج هذه النيران عين اليقين،[مع] ما كان يعانيه من التعليم والتلقين، ويفتح مجالس الوعظ لتذكير السامعين، ولكن لسان الحال يقول:(سوَاءٌ عَلَيْنا أوَعَظْتَ أمْ لمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ)، حتى أصبح من كان يستأنس بهم من أهل العلم عن مودته من المعرضين، وأصبح عن الكل من المعتزلين، ولازم منزله وأعرض عن الإرشاد والتعليم والتبيين.

أفلا يتطلب هذا الشيخ، الذي أفنى عمره، وصرف حياته، وأذهب قوّته في بث العلوم والمعارف، ولا يصرفه عن نشرها بالإملاء والكتابة أي صارف؛[أن] يرجو تفريج هذه الكرب التي أحاطت بهذه الأمة من كل جانب، وأحدقت بأقاليم الإسلام في المشارق والمغارب، ويود أن لو أدرك هذا الإمام العادل، الذي يُحق الحق ويبطل الباطل.

وكان في هذا العصر تبلغه من الأخبار عن هذا الوزير التركي الجزّار ما يسرّه، من سيرته في ولايته على الشام، من إظهاره بعض الإصلاحات، وإيقاف الاعتداءات، وإن كان هو لم يخلُ عن عداء وظلم، لكنه أزال ظلما كثيرا، وجورا مُبيرا، وأوقف تعنت أمراء البلاد الذين كانوا يحكمون الرعية بفنون من الظلم والجور، ويسُومُونهم سوء العذاب بالذل والهوان.

وقد جاء صاحب كتاب"خطط الشام" ببعض أوصافه، التي كانت تسرّ الأهالي، وتطمعهم في محق هؤلاء العتاة، إذ قال عن بعض الأجانب إنه وصف الجزار وصفا معقولا، فقال:

إنه كان داهية، ذا بأس وحنكة واسعة، سلمت إليه الدولة إدارة شؤون إيالتها، وعولت عليه في إخضاع الشام وضمه تحت جناحها، على طريقة الغدر والخداع، وإلقاء الفتن والحروب الأهلية بين أمراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف،

ويسومونهم الذل أنواعا، والظلم أشكالا، وشريعة الرجل منهم إرادته السخية، والحاكم يشنق ويقتل، ويشوه أخلاق الشعب.

وكان الحال قيَّضت لهم رجلا كالجزّار ينتقم منهم، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية، والحروب الأهلية، يكرهون العدل ويعشقون الظلم، لا يرحمن ضعيفا ولا قريبا. قال:

إن الجزّار ظلم، ولكنه خدم الدولة والشعب، وعادت خدماته على الدولة بالنفع، فأخضع البلاد لشوكتها. قال: وأفاد الرعية بأن أزال عنهم ضغط المشايخ والأمراء المستبدين، فكان جوره بالنسبة لجور الأمراء والمشايخ قبله أقل وطأة. ولما جاءهم وضع حدا لظلمهم وزعزع سلطتهم، وأرغم أنوفهم، وأطلق الفلاح من عقالهم إلخ. [23/3] .

ومثل هذا كان يسر الأهالي ويفتح لهم باب الرجاء في تحسين الحالة، وظهور ضياء العدالة، وكان يصل مثل هذا إلى الشيخ مُرتضى فيستبشر به، وربما كان يبلغ إليه هذه الأخبار من كان يبالغ فيها، ويفتح له في ذلك باب الأمل.

فكان من فرح الشيخ بمبدإ هذا الفتح المبشّر بالسعادة، أن كتب إلى هذا الوزير الجزّار بأن مثل هذا العمل الذي بناه على رفع الجور ووضع أساس العدل، يؤهله لأن يكون من الصالحين، وأن ينال به أهلية الخليفة العادل الذي يأتي في آخر الزمان، وهو المهدي المنتظر.

وهذا أمر غير مستنكر؛ إذ كل مؤمن عالم ديِّن ينتظر تحسين حال هذه الأمة بظهور هذا الخليفة العادل، الموعود بظهوره آخر الزمان. وكم من عالم كبير، وإمام شهير، اغتر فيما مضى من الدعاة لهذا الأمر، وخدعوا الأمة بإظهار الإصلاح، وإرجاع قواعد الدين إلى أصولها، ورفع ظلم الأمراء عنهم، وإعلانهم بأنهم إنما قاموا بإنكار المنكرات، ورد المظالم، ومحق المحرمات، ودفع المآثم.

كما وقع لمهدي الموحدين، الذي اغترّ به من العلماء الأماثل، ومن الأعيان الأفاضل، حتى انقادت له البلاد، ودانت به العامة والخاصة من العباد، وكشف الحال أنه كذاب أشِر، مخالف في أعماله للشريعة، نابذ لها عند إدراكه ما كان يحتال إليه من ادعاء المهدوية. فشَرع شرائعه المزورة، وأجرى الناس عليها بمقتضى ما أوحته إليه أفكاره الضالة؛ فشرع القتل فيما لم يأذن به الله، وأزهق النفوس ظلما وعدوانا لما تغلب على الدولة اللمتونية بحيل لا تبيحها الشريعة، ولا توافقها أحكام القرآن، ولم تأت بها السنة النبوية. والأمر في هذا التلبيس، الذي هو من وحي إبليس، مقرر في كتب أهل الأحكام والأصول من علماء المغرب؛

كالإمام الشاطبي وغيره، فإنه قد تعرض في كتابه "الاعتصام" للرد على تشريعاته المختلفة، وأباطيله المنكرة، فليراجعه من شاء.

ومرادنا الذب عمًّا وقع للشيخ مُرتضَى في ترَجِّيه أن يكون الوزير الجزَّار ممَن بُعث لإقامة العدل ومحق الظلم والجور.

ولكن أخطأ تفرسه، وخاب رجاؤه، وتبيَّن ما تبيَّن في شأن الجزار، وكان بناؤه على شفا جرفٍ فانهار، والحكم لله الواحد القهار.

أمَّا ما وقع لسلطان المغرب، المولى محمد بن عبد الله، من انحرافه عن الشيخ مُرتضَى، بعد أن كان يعظمه ويعتقده، ويتقرب إليه بالهدايا،[فقد كان] بسبب رده إليه تلك الهدية الأخيرة؛ إذ كان الشيخ أعرض عن الخلق ونأى بجانبه عنهم، والتزم بيته وتزهَّد، وأقبل على الله مفردا يتهجّد، إذ رأى الناس، فيما يظهر، قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وتشابكت أمورهم، فأمسك لسانه، وفارق إخوانه، وأخذ ما يعرف، وترك ما ينكر، واشتغل بخاصة نفسه، وانتظر ما يلاحقه في رمسه، وردّ ما كان يصل إليه من الهدايا والصلات، مشتغلا بالذكر والصلاة؛ وكان ممن ردّ هديته السلطان المولى محمد.

ولكن السلطان، رحمه الله، رأى ذلك خروجا عما كان يقتضيه الأدب وحسن المقابلة، وجاء في ذلك بما لا يناسب مكانته ومقامه، واغتاظ جلالة السلطان؛ إذ ليس ذلك من شأن أهل العرفان، المتخلقين بالأخلاق الحسان.

وقد تقدم لنا ما كتبه إليه السلطان من اللوم والعتاب، ومن جملة ما فيه الانتقاد عليه في اشتغاله بشرح "الإحياء"، وقد تقدمت عبارة الجبرتي عن كتاب السلطان إذ قال:

{ ويلومه أيضا على شرحه كتاب"الإحياء"، ويقول له: كان الأولى أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك. ويذكر وجه لومه له في ذلك، وما قاله العلماء، وكلاما مفحما مختصرا مُفيدا. رحمه الله}.

[مسألة طعن علماء المغرب في كتاب"الإحياء"، وإحراقه أيام المرابطين]

قلت: وقول جلالة السلطان المولى محمد: وما قاله العلماء إلخ. يعني بذلك علماء المغرب والأندلس من الطعن في هذا الكتاب وانتقاده، حتى آل الأمر إلى أن أغروا السلطان اللمتوني، المولى علي، بإحراقه. ففي "معيار" العلامة الونشريسي، بعد تقدم كلام له نقله في شأن الغزالي، ما لفظه: قال ابن القطان:

{ لما وصل "إحياء علوم الدين" إلى قرطبة، تكلمُوا فيه بالسوء، وأنكروا عليه أشياء، لا سيما قاضيهم ابن حمدين، فإنه أبلغ في ذلك حتى كفر مؤلفه وأغرَ[ى]السلطان به، واستشهد بفقهائه، فأجمع هو وهُم على حرقه؛ فأمر علي بن يوسف بذلك، بفتياهم، فأحرق بقرطبة على الباب الغربي، في رحبة المسجد بجلوده بعد إشباكه زيتا، بمحضر جماعة من أعيان الناس. ووجه إلى جميع بلاده يأمر بإحراقه، وتوالى الإحراق على ما اشتهر عنه ببلاد المغرب في ذلك الوقت. فكان إحراقه سببا لزوال ملكهم، وانتثار سلكهم، وتوالي الهزائم عليهم} هـ. المراد من الجزء الثاني عشر، ص:133.

هذا، وممن تكلم من فقهاء المالكية المتقدمين، وبالغلوا بالطعن في الغزالي و"إحيائه"؛ الإمام المازري، وأبو الوليد الطرطوشي، وهو ممن اجتمع بالغزالي وكلمه فقال، حسبما نقله في"المعيار"، للسائل:

"أما ما ذكرت من أمر الغزالي، فرأيت الرجل وكلمته، فوجدته رجلا جليلا من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول عمره، وكان على ذلك معظم زمانه. ثم بدا له عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمّال، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووسواس الشيطان. ثم شابها برأي الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل ينحو على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين. فلما عمل كتابهُ سماه(إحياء علوم الدين): عمد يتكلم في علوم الأحوال ومراقي الصوفية، وكان غير دري بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه؛ فلا في علماء المسلمين قرَّ، ولا في أحوال الزاهدين استقرّ. شحن كتابه بالكذب على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلا أعلم كتابا على بسيط الأرض، في مبلغ علمي، أكثر كذبا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منه، سبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني"رسائل إخوان الصفا"، وهم قوم يرون النبوة اكتسابا، وليس النبي في زعمهم أكثر من شخص فاضل تخلق بمحاسن الأخلاق وجانب سفسافها، وساس نفسه حتى ملك قيادها، فلا تغلبه شهواته، ولا يقهره سوء أخلاقه، ثم ساس الخلق بتلك الأخلاق. وأنكروا أن يكون الله تعالى - من أقر منهم بالصانع - يبعث إلى الخلق رسولا ويؤيده بالمعجزات: حيل ومخاريق. ولقد شرف الله الإسلام، وأوضح حجته، وأقام برهانه، وقطع عذر الخلائق بحججه الواضحة، وأدلته القاطعة الدامغة. وما من ينصر دين الإسلام بمذاهب الفلاسفة وآراء المنطقية، إلا كمن يغسل الماء بالبول".هـ [المعيار:133/12].

ثم أطال الكلام في طعن هذا الكتاب، وتتبع بعض عباراته، حتى أوشك أن يجزم بتكفيره بها، وقال بإحراق هذا الكتاب. وانظر تمام كلامه.

ونحا نحو هذا الكلام الإمام المازري. وقد تصدى التاج السبكي في"طبقاته" في ترجمة الغزالي لرد كل الانتقادات التي أوردها عليه، وقال أخيرا:

{وأما المازري، لأنه مغربي، وكانت المغاربة لما وقع لهم كتاب(الإحياء)، لم يفهموه فحرقوه، فمن تلك الحالة، تكلم المازري. ثم إن المغاربة بعد ذلك أقبلوا عليه ومدحوه بقصائد، منها قصيدة:

أبا حـامد أنت المخصص بالحمـد وأنت الذي علمتنا سنن الرشـد

وضعت لنا"الإحياء" تحيي نفوسنا وينقذنا من ربقة المارد المـردي

وهي طويلة}.هـ [129/4].

[طبع "الإحياء" بالمغرب بأمر السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان، وتوزيعه على أهم الخزانات بالمملكة]

بل جاء بعد سلطان المغرب المولى محمد بن عبد الله، الذي انتقد على الشيخ مُرتضى شرحه"الإحياء"؛ السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان، فاعتنى بهذا الكتاب، وأمر بطبعه بالمطبعة الحجرية بالخط المغربي بفاس، وهي المطبعة المحمدية. ووزع نسخا كثيرة على مدن المغرب لتجعل في خزائن الكتب التي بجوامعها الكبيرة، وهي في غاية الجودة والإتقان.

وهذا كله اعتناء بهذا الكتاب وتقدير لقدر مؤلفه. وكانت توجد نسخة بخزانة الجامع الكبير من تطوان، وقد شاهدتُ بعض أسفارها. والله يجازي الكل على قدر نيته.

وقد أجاب في مسألة كتاب "الإحياء"، وبين في جوابه ما رد به على ما بالغ في شأنه بعض الفقهاء؛ العلامة القباب، أحد المعتمد عليهم من المالكية في الإفتاء، فقال في جواب له، ذكره الونشريسي في"معياره" في الجامع؛ فله في الجزء الثاني عشر، ص132، ما لفظه:

{وسئل القباب عن جماعة من الطلبة يطعنون في كتاب الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي، رضي الله عنه، المشهور بـ"الإحياء"، ويشددون في الإنكار على من أراد قراءته. وبالغ بعضهم في ذلك إلى أن قال: ليس ذلك بإحياء علوم الدين، وإنما إماتة علوم

الدين. وأردنا منكم، أعانكم الله على طاعته، جوابا شافيا يوضح الحق، وهل لإنكارهم وجه، أم هو جهل منهم؟ وهل يجوز لكل أحد أن ينظره، أم لا يجوز إلا لعارف؟ وفيه ما ينظر وما لا ينظر؟ وهل على من أنكر منهم عقوبة، لكونه أنكر ما لا يعرفه أم لا؟ بينوا لنا ذلك، والسلام}.

{فأجاب: إنكار المنكر لقراءة "الإحياء"، وقوله انه إماتة علوم الدين لا إحياؤه؛ فهذا قول منكر، وكلام مبتدع وغبي جاهل بحق الرجل وبحق كتابه. وأبو حامد إمام من أئمة المسلمين؛ قال فيه المازري إنه لا يشق غباره في الفقه وفي أصول الفقه. وإنما انتقد عليه بعض الفقهاء مسائل مما يتعلق بشرح عجائب القلب وما أشبه ذلك، وأجاب عنه آخرون. ولا شك أن ترك النظر في تلك المسائل لمن لا رسوخ له في العلم واجب. وما عدا ذلك من الفقه والتكلم على خبائث القلب، من الكبر والعجب والرياء والحسد، فقراءته واجبة. وكذلك جميع الآداب، من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم، والأوراد وآداب الصحبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما لا يتعلق بالتعليل في قياس الشاهد على الغائب، فلا يعدل بكلامه شيء من كلام غيره. وإذا كان المنكر لقراءته ممن لا يمارس كلام العلماء، فإنه يزجر عن ذلك. ولو أدب، لكان لذلك أهلا. والله ولي التوفيق}هـ.

<u>قلت</u>: وهو جواب مفيد، مبيِّن فيه الحق الذي لا يمكن أن يُعرض عنه من له اطلاع على كلام هذا الإمام وفهمه، وكانت له ممارسة ودراية بعلوم الشريعة الظاهرة، وإلمام ببعض إشارات أهل التصوف من أهل السلوك وأصحاب التجريد، ولا عن مبهمه الذي حرره محيد. هذا فيما مضى، أما فيما بعد النقد والنزاع في شأنه؛ فقد قضى وأجمع أهل العلم الظاهر والباطن على اعتقاد هذا الكتاب واعتماده، وأنه في موضوعاته حجة، وأن مؤلفه حجة الإسلام، والمقدم في هذا الميدان.

[ثناء المؤلف على الإمام الغزالي، وشرح إعجابه بـ"إحيائه"]

وأنا العبد الضعيف، المعترف بقصوره في بيان مقام هذا الإمام الكبير، ومقدار كتابه الجامع للآداب الدينية والدنيوية، المحيط بأحكام الدين الشرعية، والآداب لسلوك المقامات الموصلة إلى الحضرة الإلهية؛[أقول] إن هذا الكتاب هو من أسرار القدرة الإلهية التي امتن الله بها على عباده، وأعان هذا الإمام الكبير على إبدائها، ووفقه لتبويبه وترتيبه.

ولقد استفدت منه فوائد كثيرة، وأخذت منه علوما نفيسة. ومنذ اطلعت عليه، وتشرّفتْ به خزانة كتبي، وأنا أجعله بين يدي لا أفارقه. وهو المرجع الذي أستفيد منه كل حين، وأرجع إليه فيما يعرض من أمور الدنيا والدين. ولي شغف به فائق، وحب في مؤلفه صادق، وبجلالته وأسرار علومه لائق. رضي الله عنه، ونفعنا به وبأمثاله من أهل العلوم النافعة، والأنوار المضيئة الساطعة.

ولقد استوعب ترجمة هذا الشيخ، وجاء بما له من الفضائل ومحاسن الشمائل، ومكانته عند الأواخر والأوائل، والجواب عما انتقد عليه به كل قائل؛ هذا المترجم له، وهو الشيخ مُرتضى في أوائل هذا "الشرح"، الذي قيل: إنه لو اشتغل بما هو أهم، لكان أولى له. وهو الذي جرّ بنا إلى إطالة الكلام في هذا الموضوع، الذي هو في الحقيقة خارج عن مقصدنا هذا، وهي زيادة خير.

ثم إنه لو كنا أولاً اكتفينا فيما أتينا به من الرد على المنتقد بالإحالة على ترجمة الشيخ مُرتضَى في أول "شرحه للإحياء"، الذي ليم عليه؛ لكان ذلك كافيا، لأنه كما قدمنا أتى فيها بما لم يأت به غيره في ترجمة هذا الإمام، إذ أعطى المقام حقه، ونفى عنه ما نفى وأثبت له ما استحقه.

[التنويه بالشيخ مُرتضَى، وبـ"شرحه"]

أما الإمام الهمام الشيخ مُرتضَى؛ فهو علامة زمانه بلا ارتياب، والرجل علما وصلاحا وإبانة وتصوفا، فهو كامل المقام، عالي السنام، تام النصاب. و"شرحه" على "الإحياء" يشهد له بالاطلاع التام على علم الحديث والأخبار؛ يستخرج نفائس جواهرها من تلك البحار، متتبع لتخريجات العراقي في"المغني عن الأسفار في الأسفار"، مستدرك عليه ما جهله أو غاب عنه في تخريجه تلك الآثار، باسط لما أتى به مختصرا، مطنب لما ذكره موجزا، مبين للطرق المتعددة، مستوعب لمقالات أهل الحديث في ذلك من تصحيح أو تضعيف أو تحسين.

وبالجملة؛ فالرجل عمدة من عمد الحديث، وركن من أركان أهل الاطلاع على مصنفاته، محرر للنقل في ذلك، معرب عما أعجمه غيره في الاختصار والاقتصار، الذي لا يقنع به أهل السعة في الأنظار.

أما الكلام على الغزالي، فقد كتب فيه، كما أسلفنا، هذا الإمام ما يصلح أن يكون تويلفا خاصا، مستوعبا لمناقبه وفضائله، ومؤلفاته ومصنفاته، وما قيل في"الإحياء" مدحا وذما،

والجواب عما انتقده فيه المنتقدون، وعابه عليه المتقدمون، وأجاب عنه المتأخرون، وذكر ما كتبه الإمام الغزالي في ذلك مجيبا بنفسه عن نفسه. كما نقل الشيخ مرتضى كلام تقي الدين السبكي في مدح الكتاب، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، [فقال]:

قال ابن السبكي: هو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدي بها كثير من الخلق، وقل ما ينظر فيه ناظر إلا وتيقظ له في الحال. وقال أيضا: لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها أهل العلم إلا "الإحياء" لكفاهم. وأنا لا أعرف له نظيرا في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر، والفكر والأثر.هـ وفي "لطائف المنن"، لابن عطاء الله، عن القطب أبي الحسن الشاذلي أنه قال: كتاب "الإحياء" يورثك العلم، وكتاب"القوت" يورثك النور.هـ [إتحاف السادة المتقين:27/1].

قلت: وناهيك بمؤلف هذا الكتاب، كما قاله أئمة الأمة الأعلام، أنه المجدد لهذا الدين على رأس المائة الخامسة، وناشر قواعده الجامعة. ونظم ذلك الحافظ السيوطي فقال:

والخامس الحبر هو الغزالي وعـــــدت ما فيه من خصال

ومسألة التجديد قد أسلفنا في هذه "الفهرسة"،[الجزء الأول]، ما فيها من الأقوال، وأنها لا تختص بطائفة خاصة، ولا بمذهب معين، بل إنها تعم أهل كل فن؛ فيكون في العلماء والرؤساء والملوك والأمراء، فراجع ذلك إن شئت. والله يؤتي فضله من يشاء مدى الأزمان والأعصار، وكل عنده مقدر على حسب ما تقتضيه حكمته بمقدار، وهو الواحد القهار.

هذا، وقد طال بنا الكلام في تتبع هذا الموضوع، ولا تفي به الأوقات والأيام.

[الشيخ مُرتضى وآثاره العلمية، وتقريظ المؤلف لكتابه"تاج العروس"]

وكل ما يقال في ترجمة هذا الإمام المُرتضى، أنه ممن أشرق نجمه في سماء علم الحديث وأضاء، واستحق ذكره في هذه المرحلة السابعة، الذي ذاع علمه في كل الفنون وانتشر، وظهر ظهور الشمس في هذا القرن الثاني عشر، فكان من الكرامات التي بدت في آخر الزمان، فابتهج بها كل عالم واستبشر. وقد كانت وفاته في ابتداء القرن الثالث عشر، سنة1205. فرحم الله تلك العظام، التي خلف صاحبها لهذه الأمة من آثاره العلمية العظام، ما فيه للعارف بقدرها بلوغ المرام.

ومن آثاره العظيمة المقدار، الواقعة في اللغة العربية وآدابها في مقام قطبها الذي عليه المدار؛ كتابه"تاج العروس"، الذي هو تاج مرصع بجواهر العلوم النفيسة، الجامع لمؤلفاتها المختلفة الأوضاع، المنوعة في النسق والأبواب والفصول، سواء منها الفرعية والرئيسية، فصار كتابه في زماننا دائرة معارف كبرى، ومرجعا جامعا لمفردات اللغة وتفسيرها، وباسطا لما قبضه بعبارته المختصرة المَجْد، وشرحها وتبيينها وإفاضة القول فيما أشار إليه صاحب الأصل إشارة، وتحقيق النقل فيما أثاره، من أسماء رجال الحديث وأعيان العلماء، ومشاهير الرؤساء والأمراء، والإعراب عن تواريخهم وأعمالهم، والإبانة عما جرى من وقائع العرب في حروبهم وأيامهم، وإتيانه بالنقول عند ذكر اسم قبيلة أو قرية أو مدينة أو إقليم في الأصل، وإزالة اللبس فيما ينشأ عن الاختصار وإتيانه في ذلك بالقول الفصل، وشرحه المفردات الطبية، وما فيها من المنافع المرضية، إلى غير ذلك من الاستدراكات التي استدركها في كل حرف ومادة، وارتكب في كل ذلك طريق التحقيق، وسلوك الطريق الجادة.

وبكل حال؛ فمن له بالأدب العربي أدنى اهتبال، وله به دراية وأقل ممارسة واتصال، يغتبط به ويقتنيه، ويشرف به خزانة كتبه، ويجعله في المراجع الكبرى والمصادر التي هي جنة المعارف، إذ فيها للأديب ما تلذه عينه، وما تتشوف إليه نفسه وتشتهيه، ويباهي بهذا الكتاب "دائرة" البستاني، ويجعلها في المقام الثاني، ويرى ما ألفه فريد، خاليا من مقصده الذي يريد، ويرى كتاب"العين" للخليل، لم يأت من هذا الفن إلا بالقليل، ويلاحظ"صحاح" الجوهري، من جل ما رصعه من جواهر اللغة بري، ويشاهد"المصباح المنير"، إنما أتى بالشيء اليسير، و"أساس البلاغة"، قد استحوذ عليه وأساغه، و"النهاية" لابن الأثير، قد ضمها إليه وأنه بها جدير.

وبكل حال، فإن هذا الكتاب من الكتب القيمة العديمة المثال. وقد تقدم لنا أنه اشتهر في حياته، وشهد له فيه بسعة الاطلاع والتبريز في علم اللغة، مشاهير العلماء من أهل مصر والعراق والحجاز، وكل مبرز في نواحي القطر المصري وجهاته، وبالغوا في مدحه وتقريظه، وأتوا في ذلك بغرر القصائد ودرر منثوراته، كالعلامة الصعيدي الشهير، والشيخ الدردير، والشيخ عطية الأجهوري، والشيخ الأمير، وجماعة كبيرة أمثال هؤلاء ممّن لهم مؤلفات مختلفة. جزى الله الكل على قدر مقاصده، وأثابهم فضلا على خدمتهم للعلم ونشر فوائده.

[الشيخ الشرقاوي،
شيخ الأزهر، وشارح"التجريد الصريح"]

هذا، ولم نقف على أحد من المشتهرين في بقية القرن الثالث عشر، من هذه المرحلة، في الفن إلا ما كان من بعض أهل العلم الذين لم تكن لهم شهرة في ذلك، ولا خلفوا مؤلفات؛ إلا ما كان من بعض الأفراد المتفرقين في البلاد، ولم يشتهر ذكرهم، ولم يخلفوا من آثارهم ما يحيي أسماءهم بعدهم؛ إلا ما كان من الشيخ الشرقاوي، شيخ الجامع الأزهر، ورئيس الديوان الذي ألفه الفرنسيون لما احتلوا مصر سنة 1213، فإن له في الحديث شرحا على"التجريد الصريح، لأحاديث الجامع الصحيح" للإمام المحدث الزبيدي، الذي سماه "فتح المُبدي، بشرح مختصر الزبيدي"؛ فإنه ينبغي أن يعد من أهل القرن الثالث عشر، إذ كانت وفاته سنة 1227. وقد ترجم له الجبرتي في كتابه فقال:

الإمام الكامل، والأستاذ العادل، الفقيه الأصولي النحوي، مربي السالكين، ومرجع الفضلاء من المتأخرين، شيخ الإسلام والمسلمين، الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري، الشهير بالشرقاوي. ثم قال:

وتولى مشيخة الأزهر بعد موت الشيخ العروسي. ولما دخلت الفرنسوية مصر في سنة1213، كان المترجم شيخا على الجامع الأزهر، فرتبوا ديوانا لإجراء الأحكام بين المسلمين، وجعلوا الأستاذ صاحب الترجمة رئيسا عليه. وله معهم وقائع تدل على شدة ورعه. ومن استقصى تاريخ مكثهم بمصر، يعلم ذلك.

وقد صدر الجبرتي ترجمة هذا المؤلف بقوله:

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكر، يعني سنة1227، فمات الشيخ الإمام العلامة، والنحرير الفهامة، الفقيه الأصولي النحوي، شيخ الإسلام والمسلمين، الشيخ عبد الله [إلخ]. قال: فلما ترعرع وحفظ "القرءان"، قدم إلى الجامع الأزهر، وسمع الكثير من الشهابين الملوي والجوهري، والحفني وأخيه يوسف، والدمنهوري والبليدي وعطية الأجهوري ومحمد الفارسي والصعيدي وعمر الطحلاوي. وسمع "الموطأ" فقط على علي بن العربي الشهير بالسقاط.[عجائب الآثار:89/11]

قلت: وكل هؤلاء علماء أزهريون دينون، لهم مؤلفات شهيرة، لكن في غير الحديث. ثم ذكر مؤلفاته في العقائد والتصوف والنحو، ولم يذكر له في الحديث إلا "اختصار الشمائل" و"شرحه". وصار يذكر مؤلفاته بقوله: وله مؤلفات دالة على سعة فضله. ولكن لم يذكر

كتابه الذي سماه" فتح المُبدي" الذي تقدم ذكره، وكأنه أغفله. وهذا "الشرح" هو الذي أدرج بسببه في هذه المرحلة. والله أعلم.

[العلامة الشوكاني، وأهمية كتابه"نيل الأوطـار"، ونقد بعض ما جاء فيه]

وممن اشتهر ذكره في هذه السنوات الأخيرة، من القرن الرابع عشر، الشيخ الشوكاني، صاحب كتاب" نيل الأوطار، شرح مُنتقى الأخبار".

و"منتقى الأخبار" هذا[للإمام ابن تيمية الحراني]؛ من أجلّ الكتب التي ألفت في جمْع الأحاديث النبوية التي إليها أصول الأحكام، وهي منتقاة من صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن الأربعة: أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وابن تيمية هذا، ليس هو تقي الدين الشهير، بل هذا جده. وهو الإمام مجد الدين أبو البركات، عبد السلام ابن تيمية الحراني، ولد سنة 590، وتوفي سنة 652. وحران بلدة بالشام.

أما صاحب"نيل الأوطار"، فهو الإمام علامة القطر اليماني ومفتيه، الشيخ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني، مولده سنة 1172، ووفاته سنة 1255، فقد استوعبت حياته أكثر من نصف القرن الثالث عشر.

وله مؤلفات عديدة غير هذا "الشرح". وكان في العقيدة على مذهب الزيدية، فرقة من الشيعة، إلا أن تشيعها كان خفيفا. وكان تفقه في مذهبهم وبرع فيه، وألف وأفتى، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه، حتى اغترّ وادعى الاجتهاد المطلق. ولكن رفض أهل عصره دعواه، وتصدّى له من كان فيه أهلية من أهل العلم، وردوا عليه ردا عنيفا، حتى ثارت من أجل ذلك فتنة بصنعاء، أثارتها آراؤه المعلولة وما اتخذه من هواه.

أما "نيل الأوطار"الذي [نأتي] بالكلام عليه، وإثباته من أجله في هذه المرحلة الحديثية السابعة؛ فهو كتاب مفيد، خدم به فنون تلك الأحاديث التي اشتمل عليها "المنتقى" المذكور، وسلك في غالبها مسالك الجماعة من أهل السنة، واتباع طريقة المحدثين المتقدمين، واعتماد نقولهم في المتون والأسانيد.

لكنه في بعض ذلك استبد بنظره، وحاول مطاولة من تقدمه، مغترًا بما أوحاه إليه اجتهاده بمقتضى فكره.

وقد بين نسقه في هذا "الشرح"، بعد أن أطنب في شرحه، وبين أنه سيخالف الجمهور، ويعتمد الدليل الذي مال إليه فهمه، ولا يبالي بالمخالف وإن علا قدره، فقال:

{وقد اقتصرتُ فيما عدا هذه المقامات الموصوفات، على بيان حال الحديث وتفسير غريبه، وما يستفاد منه بكل الدلالات، وضممت إلى ذلك، في غالب الحالات، الإشارة إلى بقية الأحاديث الواردة في الباب مما لم يذكر في الكتاب، لعلمي بأن هذا من أعظم الفوائد التي يرغب في مثلها أرباب الألباب من الطلاب. ولم أطول ذيل هذا "الشرح" بذكر تراجم رواة الأخبار، لأن ذلك، مع كونه علما آخر، يمكن الوقوف عليه في مختصر من كتب الفن من المختصرات الصغار. وقد أشير في النادر إلى ضبط اسم راو أو بيان حاله على طريق التنبيه، لا سيما في المواطن التي هي مظنة تحريف أو تصحيف؛ لا ينجو منه غير النبيه. وجعلت ما كان للمصنف من الكلام على فقه الأحاديث وما يستطرده من الأدلة في غضونه، من جملة الشرح في الغالب ونسبت ذلك إليه، وتعقبت ما ينبغي تعقبه عليه، وتكلمت على ما لا يحسن السكوت عليه، مما لا يستغني عنه الطالب. كل ذلك لمحبة رعاية الاختصار.} هـ [4/1].

وبالجملة؛ فإن هذا الكتاب هو كتاب مفيد، كثير الفوائد، جليل القدر في بابه، شارح لتلك الأحاديث التي هي أصول الأحكام، مستوعب فيه معظم كلام أهل الحديث في المتون، باسط لأقوال الأئمة المجتهدين فيما في الأحاديث من الفقه وفروع الأحكام، ناقل في ذلك عن غيره، وآت في الغالب بما اعتمد عليه في ذلك أهل المذاهب. ثم تارة يطلق القول، وتارة يعلن ترجيحه في بعضها. ولكن ذلك مع استناده إلى بعض المذاهب.

وما يعيب هذا الكتاب إلا شيئان:

أحدهما: اعتماده أقوال المذهب المختلق المفقود، وجعله مع مذاهب أهل السنة المتفق عليهم في الفروع، وهو المذهب الذي تسميه الشيعة مذهب أهل البيت، أو مذهب العترة. وهو كثيرا ما ينقل عن كتبهم مثل كتاب "البحر"، وعن أئمتهم؛ كالقاسم والناصر والهادي، ونحو ذلك.

وهو مذهب مرفوض، عند أهل السنة منبوذ، لا التفات إليه ولا اعتبار، إذ هو من اختلاقات الشيعة، إذ أهل البيت الأبرار، كلهم مع الجماعة من أهل السنة الأخيار.

والذي أشاع هذا المذهب المبتدع هم الرافضة، الذين اشتهرت دولتهم بمصر، وتغلبوا على مذهب أهل السنة بتعضيد هذا المذهب الذي ابتدعوه. واستمر هذا المذهب بمصر من

هؤلاء الرافضة من العُبيديين إلى أن أتى الله بالمصلح الكبير، والفاتح العظيم، صلاح الدين الأيوبي، فمحا آثار هذه البدعة، وأحيى مذهب أهل السنة؛ فرجع إليها فقه الإمام الشافعي وأصحابه، من أهل العراق والشام، وأشرقت نجوم هذا المذهب، واشتهر منهم أئمة كبار، وصاروا ينشرون المذهب الحق بمؤلفاتهم القيمة؛ كالإمام النووي، وعز الدين ابن عبد السلام، وابن الرفعة، وابن دقيق العيد، وتقي الدين السبكي، وأمثالهم.

ورفع الله هذا الداء الوبيل، من هذا القطر النبيل، كما أشار إلى ذلك الإمام ابن خلدون؛ [إذ قال]:

{وشذَّ شيعة أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة، ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية}.هـ [المقدمة:393].

ولكن حسبما وقفنا عليه فيه،[أي في نيل الأوطار]، من النقل، مصحوبا بالنقل عن أئمة المذاهب التي اتفق عليها أهل السنة، وهي المقلدة في سائر الأقاليم الإسلامية، ومثال ذلك ما ذكره عند كلامه على حديث"إن المسلم لا ينجس"، بعد كلام، ما لفظه: تمسك بمفهومه بعض أهل الظاهر، وحكاه في "البحر" عن الهادي والقاسم والناصر ومالك، فقالوا: إن الكافر نجس عين. الخ[25/1].

أما طريقه في الحديث وسنده، فهو تابع فيها لجمهور المحدثين واصطلاحهم، إذ لا عوج فيها ولا أمتَ. وتبين ذلك مما ذكره في الكلام على التعقب على صاحب المتن من أنه ينسب الحديث إلى مخرجه من أهل "السنن" و"مسند" الإمام أحمد، ولا يتعرض في الغالب لرتبة ذلك الحديث في الصحة والضعف، فيقول: رواه أحمد، ورواه الدارقطني، ورواه أبو داود، ويكون الحديث ضعيفا. وأشد من ذلك، كون الحديث في "جامع الترمذي"، مبينا ضعفه إلخ.

وهذا مما عيب به"منتقى الأخبار" المذكور، إذ قال العلامة الشوكاني، بعد أن ذكر عن ابن الصلاح وغيره ما يعتمد عليه [من] كتب الحديث دون بحث، وما لا يعتمد عليه إلا بعد البحث عن رتبته، ما لفظه:

{ وقد بحثنا عن الأحاديث الخارجة عن الصحيحين في هذا الكتاب، وتكلمنا عليها بما أمكن الوقوف عليه من كلام الحفاظ، وما بلغت إليه القدرة. ومن عرف طول ذيل هذا الكتاب الذي تصدينا لشرحه، وكثرة ما اشتمل عليه من أحاديث الأحكام، علم أن الكلام على بعض أحاديثه على الحد المعتبر متعسر، لا سيما ما كان منها في مسند الإمام أحمد}. قال:

{ وقد ذكر جماعة من أئمة فن الحديث أن هذا الكتاب من أحسن الكتب المصنفة في الفن، لولا عدم تعرض مؤلفه، رحمه الله، للكلام على التصحيح والتحسين والتضعيف في الغالب}. ثم قال:

{ وقد أعان الله، وله الحمد، على القيام بما أرشد إليه هذا الحافظ، (يعني الذي قال: وينبغي للحافظ جمع هذه المواضع وكتبها على حواشي هذا الكتاب، أو جمعها في مصنف يستكمل فائدة الكتاب المذكور)، مع زيادات إليها تُشدّ رحال الطلاب، وتنقيحات تنقطع بتحقيقها علائق الشك والارتياب}.هـ [نيل الأوطار: 15/1].

أما الثاني: فإنه لم يذكر المواد التي استمد منها لتأليف هذا "الشرح"، مع أن تلك النقول هي بالضرورة محتاجة إلى مراجعة الأصول لتكمل ما أغفله، أو تصحح ما أخطأ فيه، أو تبين ما أجمله؛ وإن كان تسمية الكتاب الذي نقل منه، أو اسم المؤلف الذي نقل عنه، ترشد الممارس للفن إلى مراجعة مكان تلك النقول، فإذا قال: نقله الحافظ، عُلم أنه الحافظ ابن حجر في "شرح" البخاري، أو قال في"الفتح" فكذلك، أو قال: قال النووي، فالغالب أنه ذكر ذلك في "شرح" مسلم، وإذا قال: ابن عبد البر، فالغالب أن يكون ذكر ذلك في"التمهيد"، شرح "الموطأ"، وهكذا.

ولهذا كان هذا الكتاب جليلا حافلا جامعا في بابه؛ ولكنه لا يليق مطالعته إلا لمن روي من مورد هذا الفن، وتمرن في اصطلاحه، وتفقه في المذاهب وعلم بمسائل الخلاف، حتى لا يغتر بما ضعفه هذا المؤلف أو قواه واختاره.

أما طلبة العصر الذين يطالعون هذا الكتاب، ويرون فيه تلك الأقوال في مسائل الأحكام، والتخالف بين هذا الإمام وذاك الإمام، ويأتي إلى قول يخالف قول إمامه الذي قلده آباؤه وأشياخه وعلماء بلده، وجرى الناس عليه منذ قرون وأحقاب، وهو جاهل حتى بأحكام وضوئه وفرائض صلاته، ولا يقتصر على العمل بذلك في نفسه، إن كان يعمل بذلك القول؛ بل يذيع ذلك بين العامة، ويبين لهم أن الحق معه في ذلك القول، وأن قول مالك ـ مثلا ـ هو قول باطل لا مستند له، لأن الحديث الذي يوجد في "نيل الأوطار" فيه كذا وكذا. فيوقظ الفتنة بين العامة، ويشككهم فيما كانوا عليه،[و]الذي تقرر في مذهبهم بالأدلة الراجحة، وفتاوى أئمتهم الواضحة. وهذا الذي يرشدهم، إن سألته عن وجه الدليل الذي أخذ منه القول، لا يدري ما يجيب به. وقد أسلفنا في هذه"الفهرسة" أمثلة من ذلك.

ولكن جاء الزمان الذي تجرأ فيه الجهال وجهلوا، فوقع العامة معهم في بحر الضلال، ولا شكوى في هذا إلا للكبير المتعال.

وبالجملة؛ فإن هذا الكتاب هو كتاب حسن لذوي العلم الممارسين لقواعد الاجتهاد ومسائل الفقه، ومرجع مفيد لمن يريد من العلماء مراجعة أحاديث الأحكام، لأن الحديث مضلة إلا للفقهاء ذوي الذكاء النبلاء المتوقدين في الأفهام.

وأنا العبد الضعيف، مما يرُوقني، هذا الكتاب. وأراجعه كثيرا في مسائل الخلاف، وأجد نفعا فيه، وأنال به غاية المرام. ألهمنا الله رشده، ووفقنا لمعرفة الحق واتباعه حتى لا نتعدى حده.

وخلاصة القول في هذا المبحث، أن هذا العالم اليماني، هو من أهل القرن الثالث عشر، ولخدمته الحديث يستحق الإلحاق بهذه المرحلة السابعة، على دَخَن في عقيدته الشيعية، المخالفة لجماعة أهل السنة. والحكم لله العلي الكبير.

[العلامة أحمد بن عبد الرحمان البنا الساعاتي، وترتيبه لـ"مسند" الإمام أحمد]

أما هذا القرن الرابع عشر، الذي نحن فيه، فلا يخلو أيضا من بعض أهل العلم المعنيين بحديث هذا النبي الكريم، الذي لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، من أتى بترهاته ليضل الناس بغير علم من كل معتد أثيم. ونحن والحمد لله، وجماعة متفرقة من أهل الإسلام في الأقاليم، لا يصرفنا صارف عن هذا الصراط المستقيم.

فقد ظهر في هذه السنوات الأخيرة كتاب مهم جدا، ألفه العالم المصري، المسمى أحمد ابن عبد الرحمان، الشهير بالساعاتي، في ترتيب الكتاب العظيم الموقع في ملة الإسلام، الجامع من الحديث ما لم يجمعه قبله ولا بعده إمام، لأنه أصل كبير ومرجع وثيق لأهل الحديث، كما قاله الحافظ المديني، وهو المسند الأوحد، "مسند" الإمام أحمد. وقد تقدم لنا ما قاله فيه أئمة الحديث، وما وصفوه به من الجمع والإفادة، والتحري في الرواية.

وقد أتى هذا العالم المتأخر في هذا التأليف بما يعرب عن جده واجتهاده في هذا الموضوع، وأتى في ذلك بما يشهد له بالتقدم في الاطلاع، وانتصابه لهذا الفن في المقام المرفوع، لأن "المسند" وإن كان من الكنوز؛ إلا أن [طلب]حديث[فيه]، لمراجعة مسألة خاصة بباب هو على طالبه مدفون، إذ شأن "المسندات" أنهم يذكرون الأحاديث منسوبة للصحابي الذي روي عنه ذاك الحديث، وهذا الحديث لا يكون خاصا بباب، بل بحسب ما اتفق

له سماعه من النبي، صلى الله عليه وسلم، فتارة يكون الحديث متعلقا بالطهارة، وتارة بالصلاة، وتارة بالحج، وتارة بالبيوع، وتارة بالإجارة، وتارة بالأدب والرقائق والسير وأمر الجنة والنار، وغير ذلك.

فإذا أراد الطالب حديثا خاصا بباب، فلا يحصل له الوقوف عليه إلا بعد تصفح كبير. وربما حمله البحث عنه أن يتصفح الكتاب كله أو معظمه.

وهذا الترتيب، الذي قام به هذا المؤلف، قد سهل للطالب الوصول إلى الحديث الذي يطلب بسهولة؛ إذ رتب هذا "المسند" على الأبواب كترتيب "الجامع" للبخاري، وكتاب مسلم، والسنن الأربعة، وما شابهها؛ ومراعاة الأبواب لا الرواة. وقد قسم هذا الكتاب إلى سبعة أقسام:

- قسم التوحيد وأصول الدين، وما فيه من الكتب.

- الثاني: قسم الفقه، وفيه أربعة أنواع: الأول: العبادات، وفيه كتب، الثاني: المعاملات، وفيه كتب، الثالث: الأقضية والأحكام، وفيه كتب، الرابع من الفقه: الأحوال الشخصية والعادات، وفيه كتب.

- القسم الثالث من الكتاب: تفسير القرءان، وفيه ما يتعلق بالقرءان الكريم من فضائل وقراءات وغير ذلك.

- القسم الرابع من الكتاب: قسم الترغيب، وفيه كتب.

- القسم الخامس من الكتاب: قسم الترهيب.

- السادس من الكتاب: قسم التاريخ، وفيه ثلاث حلقات.

- القسم السابع من الكتاب: في أحوال الآخرة وما يتقدم ذلك من القبر، وفيه كتب.

وبالجملة؛ فقد رتب هذا المؤلف هذا "المسند" الجليل، ترتيبا عجيبا، دل على اعتنائه بهذا الكتاب، وصرفه فيه معظم أزمانه، وتكبده في ذلك أكبر المشاق، وأحسن في ذلك، ونسق تلك الأقسام والأبواب أبدع مساق، وزان ذلك بإكمال هذه التراتيب، التي هي في هذا القرن الرابع عشر من الأمر العجيب الغريب، إذ ذيل ذلك بشرح مختصر مفيد، لا يصدر إلا عن ذي نباهة، ودراية وعناية،[قلّ] وجوده في عصرنا، [مع] تحرير فريد، إذ أتى فيه بالسند الكامل، وذكر تخريج الحديث في غير"المسند"، وفسر الغريب، وأتى بمعنى الحديث على وجه موجز قريب.

وهو في ذلك تابع لا مبتدع، لا يخرج عن عقيدة أهل السنة، ولا يستبدّ بنظره ويتسوّر على ما لا يدري ولا له سلف فيه، كما يفعله بعض ناشئة هذا العصر.

وسمى هذا "الشرح": "بلوغ الأماني، من أسرار الفتح الرباني". فلله دره من مرتب وشارح، إذ وفقه الله لفتح هذه الخزائن العلمية بالدين الخالص، والبيان الواضح. وهي المواهب الإلهية يهبها لمن يشاء من عباده، ويختص بها من أراد، سواء تقدم زمانه أو تأخر، إذ هذه الأمة أمة مباركة مرحومة، محفوفة من ربها بالإكرام والامتنان. وفي الحديث الذي رواه ابن عساكر مرسلا، وأشار له في "الجامع الصغير" بعلامة الحسن، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "أمَّتِي أمَّةٌ مبارَكةٌ؛ لا يُدْرَى أوَّلُهَا خيْرٌ أوْ آخِرُها".

ورحم الله شيخنا الرهوني، فقد كنت ذكرت له هذا الكتاب، لما ظهرت منه بعض أجزاء، وأثنيت عليه، فقال لي مبادرًا: إن مؤلف هذا الكتاب من أولياء الله؛ إذ كنت وجدته قد اطلع على ما وصله من الأجزاء.

ولا بأس أن نثبت هنا نسق هذا "الشرح"، ليعلم ذلك من يريد أن يقدر قدر رجال الدين من المتأخرين، ونأتي بحديث من كتاب التوحيد، وهو الحديث الذي رواه البخاري وغيره، عن أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:"يقبضُ اللهُ الأرضَ يوم القيامةِ ويَطوي السَّماءَ بيمِنهِ، ثم يقولُ أنا الملِكُ. أينَ ملوكُ الأرضِ؟!". وعنه أيضا(سنده): حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، عن يونس عن الزهري، قال: حدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة الخ(غريبه): في رواية عند مسلم: ثم يأخذهن بيمينه. قال القاضي عياض، رحمه الله، في هذا الحديث ثلاثة ألفاظ: يقبض، ويطوي، ويأخذ، كله بمعنى الجمع، لأن السماوات مبسوطة، والأرضين مدحوة وممدودة. ثم يرجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة، وتبديل الأرض غير الأرض والسماوات، فعاد كله إلى ضم بعضها إلى بعض، ورفعها وتبديلها بغيرها.هـ [31/1].

ثم شرح "أنا الملِك" إلخ، بقوله: فيه إشعار بكبير عظمته، عز وجل، ومزيد جلالته. ورمز إلى أن ما يشركون معه سبحانه، أرضيا كان أو سماويا، مقهور تحت سلطانه، جل شأنه. قال القاضي عياض: والله أعلم بمراد نبيه، صلى الله عليه وسلم، فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل، ونحن نؤمن بالله تعالى وصفاته، ولا نشبه شيئا به، ولا نشبهه بشيء،(لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُو السَّمِيعُ البَصِيرُ). وما قاله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وثبت عنه، فهو حق وصدق، فما أدركنا علمه، فبفضل الله تعالى. وما خفي علينا، آمنا به

ووكلنا علمه إليه سبحانه وتعالى، وحملنا لفظه على ما احتمل في لسان العرب الذي خوطبنا به، ولم نقطع على أحد معنييه، بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به سبحانه. وبالله التوفيق. هـ قلت، أي قال صاحب "الشرح": وهو في غاية الحسن.(تخريجه): ق، وغيرهما.هـ أي رواه البخاري ومسلم وغيرهما.[الفتح الرباني:41/1].

واخترنا الإتيان بشرح هذا الحديث، ليزداد المؤمن المحافظ على عقائد أهل السنة؛[يقينا]أن هذا المؤلف إمام سني، سليم العقيدة، سالك المناهج الإسلامية الرشيدة، ولينشرح صدر المطالع لكتابه، ويستمد من نقوله، لأنه أتى العلم من بابه، وأخذه عن الثقات من أربابه. والله يلهمنا رشدنا حتى نعرف خطأ القول من صوابه، آمين.

أما ترجمة هذا المؤلف فلم نقف عليها، إنما يؤخذ معظمها من كلامه وبيانه، والمرء مخبوء تحت قلمه ولسانه. أما تاريخه، فإنه كان من أهل القرن الرابع عشر، وإنه فرغ من تبييض هذا الكتاب سنة 1349، فيكون أمضى نصف القرن الرابع عشر. ولا ندري الآن هل لا زال بقيد الحياة أم لا؟ ومن الأسف أنه لم يبلغنا من هذا المؤلف الجليل إلا أجزاء آخرها الجزء الخامس.

[العلامة الطهطاوي، وترتيبه لأحاديث الإمام البخاري]

ومما يجمل ذكره هنا من أهل القرن الرابع عشر، مؤلف كتاب"هداية الباري، إلى ترتيب أحاديث البخاري"، وهو العلامة عبد الرحيم الطهطاوي المصري، الذي رتب أحاديث البخاري على حروف المعجم، وهو كتاب مفيد دلّ على اعتنائه بهذا الكتاب الجليل، وذكر أنه فرغ من تأليفه سنة1317. وقد تعرضنا لذلك وبينا فحوى الكتاب، وحال مؤلفه في الكلام على"شراح" هذا الكتاب الذي هو عمدة الدين، ومرجع جامع للعلماء المتقدمين والمتأخرين، وهو الكتاب الصحيح بعد كتاب الله العزيز المبين.

وخدمة هذا العالم المتأخر لهذا الكتاب (صحيح البخاري)، الذي أجمع على صحته أهل الحديث، وقوبل بالعناية والقبول والاعتبار من طبقات الأمة في القديم والحديث، دليل واضح على أنه ممن شارك في هذه المرحلة، واشتغل بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، آناء الليل وأطراف النهار، وعمر أوقاته بما يقربه إلى الله زلفى، ويجعله ممن نضّر الله وجهه، ونور أسراره بالاعتناء بأخبار النبي المختار. فجزاه الله خيرا، ووفق أمثاله للمثابرة على هذا العمل المُدني من الجنة والمُبعد عن النار. آمين

وهنا نقول إننا وصلنا إلى عصرنا الحاضر، وأيام قراءتنا ولقيّنا، بتطوان وفاس، بأشياخنا الأكابر، الذين أعِدّت هذه "الفهرسة" لذكرهم، والتحلي بوصفهم، والثناء عليهم، على ما أفادونا من علمهم، والإعلان بعلو أقدارهم ورفعة مقامهم.

فمن أشياخنا من كان متخصصا في هذا الفن، ويستدعي المقام إدراجه في هذه المرحلة، وهو شيخنا الحافظ، الشيخ شعيب الدكالي، لكن لم يخلف أثرا مدونا في هذا الفن. ولهذا أخرنا ذكره إلى ترجمته الخاصة به.

[الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني]

أما شيخنا الكتاني؛ فهو العلامة المشارك، وإمام المغرب في الورع واتباع سنة جده، والاشتغال بسيرته ونشر حديثه، وإدراكه في مراقي العبادة والزهد والصلاح أعلى المدارك، الشيخ الهمام الذي أحرز المرتبة العليا في ذلك دون ثاني، أبو عبد الله، سيدي محمد ابن العلامة سيدي جعفر الكتاني.

إن شيخنا هذا ممن يستحق أن يذكر في هذه المرحلة الحديثية، لأنه، وإن كان أولا من فقهاء القرويين، الذين يعمرون أوقاتهم غالبا بدراسة الفقه والأصول، وما يتبع ذلك من العلوم التي هي آلة لفهم القرآن والحديث؛ فإنه في آخر حياته أعرض عن الدراسة في هذه العلوم، وأقبل على دراسة الحديث.

ولما وصلت إلى فاس، وهي إذ ذاك العاصمة العلمية، وبجامعها القرويين يتخرج الطالب ويكمل، كما سبق؛ وجدت شيخنا الكتاني المذكور أعرض عن دراسة هذه الفنون التي كانت تدرس بهذا الجامع، وأقبل على دراسة الحديث والسير وما يناسب ذلك.

وكان الباعث له على ذلك، ما كان وقع إذ ذاك في المغرب من الاختلال، وبان له أن الأجنبي فغر فاه للاحتلال؛ فكان في عمله هذا يرى أن اشتداد هذه الأهوال، توجب التضرع والابتهال، واستمطار الألطاف من الكبير المتعال، بالتوسل إليه بأكرم خلقه عليه من الأرسال، وهو سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، في البكور والآصال. ولا وسيلة يُرجى بها بلوغ الآمال[إلا] بترداد حديثه، ونشر سيرته وفضائله وخصائصه، التي فضله الله بها، وخصه بها، بمحض الجود والأفضال. وقد ألفيته، رضي الله عنه، لما وصلت إلى الحضرة يقرأ كتاب"الشفا"، كما قدمنا.

***

[ختام الكلام على مراحل الحديث، وخلاصة ما تقدم عنها]

ثم علينا أن نجمل القول فيما قدمناه عن هذه المراحل، ونبين للقارئ - إن قدر الله بوجوده - ما كان عليه الحال في شأن الحديث أولا، وما صار إليه أخيرًا، حتى يتبين لطالب الآخرة أن الأمة الإسلامية لم تزل فيها طائفة من أهل العلم قائمة على الحق، شرقا وغربا، سالكة مسالك الحامين لشرائعها، الذابّين عنها، الحارسين لحصونها، محافظة على قواعدها، سالكة مسالك سلفها الصالح من أئمة علمائها، واقتداؤها بهم واعتمادها؛ وإن قلّتْ في هذه الأوقات السائدة، وضعفت في قبول وعظها وإرشادها؛ فهي لم تلق السلاح، ولم تدع سيوف معارضتها ودفاعها في أغمادها، ولم تحجم قط عن محاربة الضالين من أعدائها، والمذيعين لضلالة كفرهم وإلحادهم.

وقد أسلفنا في هذه المراحل شأن الحديث، وما كان عليه في القديم والحديث، وأن كل مرحلة من هذه المراحل السبع التي امتدت إلى عصرنا هذا الحاضر، دع المراحل الخمس الأولى، فإنها كانت بأهل الحديث معمورة، ومجالسهم بروايته ودراسته مشهورة، وكتابة المؤلفات فيها منشورة، ودرر الأحاديث النفيسة على بسط المعاهد والمساجد منثورة.

<u>فالمرحلة الأولى:</u> كانت للتلقي من معدن الوحي، وهو الرسول، عليه الصلاة والسلام، مشافهة يتلقاه منه أصحابه الكرام، ويحفظونه في صدورهم دون رسمه في سطورهم.

<u>والثانية:</u> كانت بالحفظ والكتابة، لكن كتابة خاصة خوف النسيان.

<u>والثالثة:</u> كانت بالرواية والكتابة والجمع والتأليف، ونشر ذلك للعموم، وصدور أمر الخليفة سيدنا عمر بن عبد العزيز بذلك، وذلك على رأس القرن الأول.

<u>والمرحلة الرابعة:</u> هي التي كانت للتنقيح، وتمييز العليل من الصحيح، وكان زعيم هذه المرحلة هو إمامنا مالك، رضي الله عنه، حسبما سبق. ثم البخاري ومسلم، ثم بقية الأصول من السنن الأربعة، ثم شبيهها من المصنفات التي التزم أصحابها رواية الصحيح. وانتهت هذه المرحلة تقريبا في أوائل القرن الرابع، وذلك بموت الحافظ النسائي سنة303.

هذا ما اتفقت عليه أئمة الحديث من أهل الصحيح. وهناك مؤلفات أخرى التزم أهلها الصحيح كابن خزيمة وابن حبان وابن أبي شيبة، وغيرهم، ولكن لا تعْدُو هذه القرون. وما جاء بعد ذلك من المصنفات هي استدراكات، كما قدمنا، أو تذييلات وزيادة ترجع إلى هذه الأصول، كما سبق ذلك مبينا بالنقول عن أرباب أهل هذا الفن.

وهذه هي المرحلة الخامسة، فإنها تبتدئ من أوساط القرن الرابع إلى أوائل القرن السابع.

وأما المرحلة السادسة، التي كانت تبتدئ من أوائل القرن السابع إلى منتهى الثامن؛ فقد تقدم أن الإمام ابن الصلاح وصف فيها حال هذا الفن بأنه آض أساسُه إلى انهيار، وكاد أن يعم أهله الهلاك والبوار، وأنه لم يبق منه إلا شرذمة قليلة ذهب الفن منها ولم يبق إلا الآثار.

وقد قدمنا التعقب في ذلك، وأنه لا زال في هذه المرحلة حفاظ نقاد، الواحد منهم يقوم مقام العدد من الأفراد، ومنهم صاحب هذه المقالة، فإنه في مقدمتهم لا محالة. وذكرنا هناك عددا وافرا من أئمة الشأن، أحرزوا قصبات السبق في هذا الميدان، ولكنهم لم يخرجوا في الغالب عن الأصول، وأن ما انفردوا بتخريجه لا يحظى بمطلق القبول، إلا بعد فحصه وتطبيقه على النقول.

وأما المرحلة السابعة، وهي منتهى المراحل، فإنها تبتدئ من أوائل القرن التاسع إلى الرابع عشر، الذي هو عصرنا، فهي تابعة للآثار، سالكة مسالك السابقين، لا تخريج لها يرجع إليه، إلا ذكرها الأسانيد على وجه التبرك والاعتبار.

نعم؛ لها خدمات جليلة في الضبط والشرح وبيان ما تخالفت في فهمه الأنظار، وتقريب الأقصى البعيد بالترتيب والاختصار، وتسهيل مآخذه الخفية وإيضاحها لأهل هذه الأعصار، التي تأخر أهلها عن التباري في هذا المضمار. وكل ذلك قد بيناه وأوضحناه، وبالنصوص الصحيحة أيدناه.

ثم اعلم بعد هذا: أن المرحلة الأولى والثانية والثالثة والرابعة؛ هي المراحل الحقيقية المتمحضة لرواية الحديث وتأسيس أصوله التي صار عليها الاعتماد في أخذ الأحكام، وإليها الاستناد في معرفة الحلال والحرام، وما تتطلبه من الآداب والرقائق والسيّر والأخبار شرائع الإسلام.

وما بعدها إنما هي استدراكات وتتميمات، وشروح وتنبيهات، ومنها تأسست المذاهب الفقهية، ومن فحواها استمدت الفتاوى الفروعية.

***

[تأسيس المذاهب، واجتهاد الأئمة
وتحرير الفقه الإسلامي]

وبعد أن تأسست هذه المذاهب، واختار أهل كل قطر من قلده من أصحابها الأجلة، ما ترجح لديه كما هو الواجب، والتفّ حول كل مذهب جهابذة عظام، وعلماء تمكنوا من قيادة فنون العلوم وتملكها، حتى أطاعتهم في كل مقام، دون تلكؤ ولا إحجام. إذ كانت إذ ذاك عظمت الأمصار، وعم الإسلام معظم الأقطار، وذهبت أمية العرب بممارسة الكتاب، واستنباط ما يحتاجون إليه من العلوم، وتأسست لديهم الفنون، التي أصبحوا بها قادرين على استنباط الأحكام من "القرءان" والحديث اللذين هما أصل دين الله، وكان السلف من الصحابة، ومن يليهم من التابعين، يأخذون ذلك منهما دون واسطة ولا آلة.

فأما الصحابة؛ فقد كانوا يفهمون ذلك، ويأخذون الأحكام بمقتضى سليقتهم العربية، أو سؤال الرسول، عليه الصلاة والسلام، إذ كان بينهم، لأنه عليه الصلاة والسلام، جاء ليبين للناس ما نزل إليهم. ثم إن الصحابة، رضي الله عنهم، بعد أن صاروا علماء حكماء، إذ كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، كما قاله، عليه الصلاة والسلام، في ذلك الوفد الذي تشرف بطلعته، واستنار باطنه بنور مشاهدته. وكان من هؤلاء خواصّ الصحابة ورؤساؤهم، إذ كانوا بإشراق نور طلعته عليهم، واتصالهم بأسرار رسالته، وضياء وتلاوة ما يتلوه عليهم من حكمته وآياته؛ عارفين بمعاني القرآن، وعالمين بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وسائر دلالته مما تلقوه منه، عليه الصلاة والسلام، أو يتلقون ذلك ممن تلقاه منهم من خواصهم وأعيانهم.

فلم يكونوا يحتاجون إلى آلة من هذه الآلات العلمية التي أحدثت بعد الاضطرار إليها، فلم يكون يطلبون قواعد النحو، ولا قواعد الأصول، ولا قواعد البلاغة، ولا مفردات اللغة، إذ هم في ذلك عرب، وبلغتهم نزل القرآن، وبينهم شمس المعارف الإلهية الذي انفلقت منه الأنوار، وانشقت منه لهذه الأمة الأمية الأسرار، حتى أصبحت بإمداده كالنجوم في سائر الفنون تعم البوادي والأمصار. ثم جاء بعدهم التابعون؛ فحذوا حذوهم.

ثم تقلصت هذه الظلال، واختلطت العجمة بالسليقة العربية، وحصل الضعف في الحفظ، واستولى على غالب الهمم الملل، وعم الكلال؛ فبادر أهل العقول الكاملة، والأفكار النيرة، إلى الاستنباط من كلام العرب ولغاتهم، من منطوقها ومفهومها، ما يحفظون به عربيتهم،

ويفهمون به كتابهم، وما جاء به نبيهم من اللسان العربي المبين؛ فألفوا قواعد النحو، ودونوا مفردات اللغة العربية، وبينوا علوم البلاغة، وأسسوا قواعد أصول الفقه.

وهكذا استمر الحال في الاستنباط، حتى تم ذلك، ونفوا ما شاب هذه اللغة من الاختلاط، وحُفظ بذلك الذكر الحكيم، من تلبيس كل أفاك أثيم. كما حفظت السنة المحمدية بحفظ أسانيدها الصحيحة الغراء، حتى سلمت من كل الشوائب هذه الشريعة الحنفية البيضاء. فليخسأ الملحدون وليُقرأ عليهم:(إنا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

[المذاهب الفقهية المتّبعة، ونَظْم أسماء أربابها]

ولما [تم] هذا المقصد الشريف، الذي شهرته تغني عن التعريف، وتم الاستنباط وكمل الفقه في نصابه، وقام كل إمام من الأئمة المجتهدين، جزاهم الله عن الأمة خيرا، أحسن ما قام به من بذل وسعه في تحرير الفقه الإسلامي، الذي هو قانون الدين، وترتيبه في أبوابه، وكانت المذاهب المقلدة أربابها متعددة.

فقد كان من الصحابة:

عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وكان لكل واحد أتباع. أما من غيرهم فألفت مذاهب: الحسن البصرى المتوفى سنة 110، أبو حنيفة المتوفى سنة151، الأوزاعي المتوفى سنة 157، سفيان الثوري المتوفى سنة161، مالك المتوفى سنة 179، الليث المتوفى سنة 175، سفيان بن عيينة المتوفى سنة198، الشافعي المتوفى سنة204، ابن راهويه المتوفى سنة233، أبو ثور المتوفى سنة 240،[أحمد بن حنبل المتوفى سنة241]، داود الظاهري المتوفى سنة270، ابن جرير الطبري المتوفى سنة 310.

وقد نظمتُهم على الترتيب، للتبرك والحفظ، فقلتُ، فيما عدا الصحابة، إذ لم تدوّن كتبهم:

ذَوُو الاجتهاد وقد قلّدُوا	فأوّلهم حسنٌ تابعيْ
فنُعمانُهم بعده الأوْزَاعي	فثورٌ مع مالك الورع
كذا الليثُ فابن عيينة معْ	إمام الورى القدوةِ الشافعي
فطود العُلا أحمدٌ إثرَه	فإسحاقُ بدر السَّنا اللامع
أبو ثور فالظاهري حذْوه	كذا الطبري عمدة الشارع

***

[الأئمة المُجمع على تقليدهم، وكلام القاضي عياض وابن خلدون في الموضوع]

قلت: وقد اقتصر التاج في "جمع الجوامع" على تسمية تسعة من هؤلاء الثلاثة عشر، فقال:

وإن الشافعي ومالكا وأبا حنيفة، والسفيانين، واحمد والأوزاعي، وإسحاق وداود، وسائر أئمة المسلمين على هدى من ربهم هـ قال "شارحه" الشيخ احلولو، عن القاضي عياض:

{أجمع المسلمون على تقليد من سيذكر. وإنما اختلفوا في تعيين من يقلد منهم بحسب ما اعتقدوا فيه، وهم: مالك بن أنس بالمدينة، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والشافعي بمصر، وأحمد بن حنبل بعدهُ ببغداد. وكان لأبي ثور هناك أتباع. ثم نشأ ببغداد أبو جعفر الطبري، وداوود الاصبهاني، فألف الكتب، واختار في المذاهب على رأي أهل الحديث وطرح القياس، وكانت له أتباع. وسرت جميع هذه المذاهب في الآفاق؛ فغلب مذهب مالك على أهل الحجاز والبصرة ومصر، وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس والمغرب الأقصى، إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا. وظهر ببغداد ظهورا كثيرا، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة. وغلب من بلاد خراسان على قزوين وأبهر، وظهر بنيسابور أولا، وكان بها وبغيرها منهم أئمة، وكان ببلاد فارس، وانتشر باليمن والشام. وغلب مذهب أبي حنيفة على الكوفة والعراق وما وراء النهر، وكثير من بلاد خراسان إلى وقتنا، وظهر بإفريقية ظهورا كثيرا إلى قريب من أربعمائة، فانقطع منها. وغلب مذهب الأوزاعي على الشام وعلى جزيرة الأندلس أولا، إلى أن غلب عليها مذهب مالك بعد المائتين، فانقطع منها. وأما الحسن، والثوري؛ فلم تكثر أتباعهما ولم يطل تقليدهما، وانقطع مذهبهما عن قريب. وأما الشافعي، فكثرت أتباعه، وظهر مذهبه ظهور مذهب مالك وأبي حنيفة قبله، وكان أول ظهوره بمصر، وكثر أصحابه فيها مع المالكية، ثم بالعراق وبغداد وغلب عليها وعلى كثير من بلاد خراسان والشام واليمن إلى وقتنا هذا، ووراء النهر وبلاد فارس، ودخل منه شيء لبلاد إفريقية والأندلس. وأما مذهب أحمد؛ فظهر ببغداد، ثم انتشر منه كثير في بلاد الشام وغيرها، وضعف الآن. وأما أصحاب الطبري، وأبي ثور؛ فلم يكثروا، ولا طالت مدتهم. وانقطع أتباع أبي ثور بعد ثلاثمائة، وأتباع الطبري بعد الأربعمائة. وأما داوود؛ فكثر أتباعه، وانتشر ببغداد وبلاد فارس [شيء] من مذهبه. ووقع

منه شيء قليل بإفريقية والأندلس، وضعف الآن؛ فهؤلاء الذين أجمع الناس على تقليدهم. وصار الناس اليوم في أقطار الدنيا إلى خمسة: مالكية وشافعية وحنفية وحنبلية وداوودية، وهم المعروفون بالظاهرية.} قال الشيخ احلولو:

{ولم يذكر القاضي؛ سفيان بن عيينة في جملة من قلد، ولا إسحاق. وكلام المصنف، يعني السبكي، في"جمع الجوامع" مُشعر بأن لهما أتباع}هـ [الضياء اللامع:315/3].

قلت: وهل القاضي لم يذكرهما لعدم شهرة أتباعهما، أو اتبعهما القليل الذي لا يعتبر؟ والله أعلم.

أما العلامة ابن خلدون؛ فإنه لما ذكر أن الاجتهاد قد سُدّ بابه، وانقطع أربابه، وأن التقليد وقف في الأقطار عند هؤلاء الأربعة، يعني مالكا والشافعي وأبا حنيفة وأحمد، ودرس المقلدون لمن سواهم، قال:

{ وسدّ الناس باب الخلاف وطرقه، لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خُشي من إسناد ذلك إلى غير أهله، ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه؛ فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء؛ كل بمن اختص به من المقلدين. وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب. ولم يبق إلا نقل مذاهبهم، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم، بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية: لا محصول اليوم للفقه غير هذا. ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه، مهجور تقليده. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة.} ثم صار يذكر الأقطار التي اشتهرت فيها هذه المذاهب الأربعة. [المقدمة: 395].

ثم إنه خالف القاضي في الخامس، وهو داوُود الظاهري، فأثبته القاضي وأسقطه ابن خلدون. وذلك فيما يظهر أن مذهب داوود كان في عصر القاضي لا زال في بعض الأقطار موجودا كالأندلس والمغرب، بل كاد في بعض الظروف أن يغالب مذهب مالك، بسبب ابن حزم ونشره مبادئه في الأندلس والمغرب، حتى ولي بعض القضاة على هذا المذهب بعاصمة مراكش، وتقوت هذه الفئة وتسمّت بالحزمية، كما هو مذكور في التاريخ. وكان الذي تصدى إذ ذاك لرد تيار ابن حزم، كما سبق لنا، هو الإمام الباجي.

أما ابن خلدون، الذي كان يعيش في القرن الثامن، فإنه في عصره كان هذا المذهب انقطع واضمحل واندثر، ولم يبق له عين بل ذهب منه العين والأثر.

وهنا أقول: إننا خرجنا عن حد الإطالة وأمعنا في الاستطرادات، وأوسعنا في ذلك دائرة المقالة، وما جرينا في هذا المجرى إلا بإذن من صاحب الترجمة؛ إذ أشار علي، في رؤيا رأيته فيها، في التمادي في هذا الموضوع ولا أبالي في الزيادة. فإن صحت الرؤيا فإن هذه المباحث مباحث حديث الرسول وكلامه، وتكرار ذكره[كان هو]قصد شيخنا الكتاني ومراده، وأنه أفضل ما يدّخره المحب لهذا النبي الكريم للدار الآخرة راحلته وزاده.

[تعذر الاجتهاد لفقد شروطه، وتدوين الفقه وتحرير أصوله]

ثم إننا بعد هذا التمهيد، وإجمال القول في المذاهب، وما صار إليه حال الأمة في سائر الأقطار من تقليد الأئمة الأربعة وسد باب الاجتهاد،[نقول]:

أما أولا؛ فإن الوصول إليه صعب أو متعذر، لتعذر اجتماع آلاته، ثم ما يؤدي إليه من كثرة الخلافات، وتعدد الأقوال، وتصدي لادعائه من ليس من أهله لقلة علمه، وفقد الثقة وانعدام التقوى، وكثرة المتلاعبين المتساهلين في أمر الديانة، كما شاهدناه فيمن يدعي ذلك في عصرنا هذا وفيما قبله، وتبين قصورهم حتى في أضعف آلاته، وهي علوم العربية من النحو واللغة وما يشابهها.

أما معرفتهم بالتفسير والحديث وأقوال الصحابة والتابعين، فهم في ذلك من أجهل الجاهلين، فضلا عن معرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمجمل من البين. أما معرفة علل الحديث، وما يعرض له من تعارض واشتباه، فهم في ذلك أضلّ من توما الحكيم، فإن خاضوا فيه سقطوا على رؤوسهم، وضلوا الصراط المستقيم، كما تضل العشواء في الليل البهيم.

أضف إلى هذا أن أساس الاجتهاد هو معرفة القرآن وتفسيره، وحفظ الحديث وما يتعلق به من علومه، وبينهم وبين ذلك خرط القتاد.

ولهذا أقبل علماء هذه المذاهب وأئمتها، وهداة الأمة وقادتها، على التأليف في الفروع، وتحرير الأصول وجمعها في المتون والمصنفات، وتحصيل متفرقها، وتفصيل مجملها، وضبط فصولها وأبوابها، وإصلاح أخطائها وبيان صوابها. كل واحد منهم يخدم مذهب إمامه. وأسس كل إمام أصول مذهبه التي تتفرع عنها فروعها، وأعرضوا عن طريق الاجتهاد، واعتبروا ما نص عليه إمامهم، تصريحا أو تخريجا، كنص الشارع، لما تحقق عندهم بالنظر.

وهم أئمة حصلت لهم ملكة الفقه في مذاهبهم راسخة، يمكن لهم بها التخريج، فيما أخذوا به عن إمام مذهبهم، والتفريع، دون خروجهم عن أصل إمامهم المقرر.

[المذهب المالكي وكبار أئمته، وأهم مؤلفاتهم]

وحيث كان أهل المغرب، من أندلسيين وأفارقة، في أول الأمر كلهم مقلدين لمالك. وفي هذا الحال، كان في العراق ومصر لهذا المذهب أئمة كبار، كالقاضي إسماعيل، وطبقته كابن خويز منداذ، وابن اللبان، والأبهري، وابن القصار، والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم. وهؤلاء هم العراقيون.

كما كان بمصر من مشاهير هذا المذهب من تلاميذ مالك وأتباعه؛ ابن القاسم وأشهب، وابن الحكم وابن مسكين وأضرابهم. وهم الأئمة المالكيون المصريون، ولهم مؤلفات وأقوال منقولة في المذهب.

ولكن لم يأخذ هذا المذهب قراره، ولم يلق عصاه، ويؤلف حماته وأنصاره؛ إلا في الأندلس وإفريقية، إذ رحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس ودوّن في المذهب المالكي"الواضحة"، ودون العتبي كتاب"العتبية"، واعتمد أهل الأندلس كتابيهما.

ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، وكان أولا حنفيا، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان وسمى كتابه"الأسدية". ثم وقع له ما وقع بلقائه ابن القاسم، ورجوعه عن مسائل عارضه فيها ابن القاسم. وكتب الإمام سحنون الإفريقي مسائلها ودونها، وأثبت ما رجع عنه. ووقع الرجوع إلى ما كتب سحنون وهو"المدونة"، واتبعها الناس على ما كان فيها من الاختلاط، وعكف عليها أهل القيروان. وعكف أهل الأندلس على"واضحة" ابن حبيب، و"العتبية" للإمام العتبي.

[جهود العلماء، من أندلسيين وأفارقة، في النظر في الأمهات الفقهية وتحصيل ما فيها]

ثم أفاض علماء المذهب، من أندلسيين وأفارقة، في النظر في هذه الأمّهات، وتعاهدها بالشرح والإيضاح، وتحصيل ما فيها بالبيان والإفصاح.

فكتب الإفريقيون في هذا المعنى مؤلفات قوبلت بالقبول والاستحسان؛ كابن يونس واللخمي، وهما الشيخان اللذان جعلهما الشيخ خليل من الشيوخ الذين صرح بأنه يعتمد عليهما، وابن محرز التونسي وابن بشير، ومن ماثلهم في التضلع في فقه المذهب.

وكتب أهل الأندلس نحو هذا، فكتب ابن رشد"البيان والتحصيل" على "العتبية"، وهو الكتاب المشهور الذكر في المؤلفات الفقهية، والاعتماد عليه في تحصيل المسائل الفروعية.

[كتاب"النوادر" لابن أبي زيد، وأهميته وكونه من الكتب النادرة]

ثم تصدى الإمام ابن أبي زيد القيرواني في جمع ما في هذه الأمهات من الأقوال في كتابه"النوادر"، الذي تقبله أهل المذهب باليمين، وتنافسوا في اقتنائه والافتخار بالنقل عنه لقلة وجوده بين أيدي الطالبين. وهو من الكتب النادرة التي كان تحتوي عليه خزانة الجامع الكبير بتطوان.

ولقد كانت وقعت المذاكرة في شأنه، قبل هذا، بمجلس الخليفة مولاي الحسن العلوي، وكان بالحضرة مندوب التعليم بحضرة السلطان، وهو إذ ذاك المولى محمد بن يوسف؛ فبيَّنتُ للمندوب المذكور أن هذا الكتاب يوجد بخزانة الجامع الكبير. فتعجب غاية العجب، لندرة هذا الكتاب. والآن لا أدري ما آل إليه أمره هل بقي محفوظا بها أم لا؟.

ثم جاء الإمام ابن يونس، ونقل معظمه في كتابه على "المدونة"، الكتاب الذي كان يسميه الفقهاء مصحف المذهب. وابن يونس هذا مع ابن رشد السابق؛ هما كمال الأربعة الذين كان يعتمد عليهم الشيخ خليل في"مختصره".

[كتاب ابن الحاجب، وإقبال علماء المغرب عليه]

ثم لما انقرضت دولتا الأندلس والقيروان، وذهب العلم منهما، انتقل علم هذين القطرين العزيزين وحضارتهما إلى المغرب الأقصى. ويفيد المراكشي في "معجبه" أن الوارث لهما في ذلك كانت حضرة فاس، كما وصفنا ذلك في غير هذه"الفهرسة". فتمسك أهلها بما كان يتمسك به أهل هذين القطرين من هذه الأصول، واستمر ذلك إلى عصرنا.

ثم لما ألف الإمام ابن الحاجب المصري المالكي [كتابه]، وكان ذلك بعد أن ذهب الله بباطل الشيعة العبيديين الذين أشاعوا بالقطر المصري فقههم المكذوب على أهل البيت،

وأبطلوا به مذاهب أهل السنة من المالكية والشافعية، واختلقوا من إفكهم هذا المذهب الذي ذكرتُ عن ابن خلدون أنه لا أصل له، وكان ذلك آخر المائة السابعة، ووصل كتابه إلى المغرب؛ أقبلوا على حفظه ودراسته، ورغبت فيه علماؤهم، وخصوصا علماء بجاية، لأن كبير شيوخهم ناصر الدين الزواوي، وهو الذي جلبه من مصر إلى المغرب، وهو كان قرأ على أصحاب مؤلفه. فانتشر هذا الكتاب ببجاية في تلاميذ الزواوي، ومنهم انتقل لسائر المدن والأمصار المغربية. قال العلامة ابن خلدون:

{ وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه}. ثم ذكر شراحه من ابن عبد السلام وابن هارون وابن راشد، وقال: {إن سابق هذه الحلبة في ذلك هو ابن عبد السلام التونسي} [المقدمة:397].

قلت: إذ هو شيخه وشيخ ابن عرفة ، وكانا متعاصرين.

[كتاب "التوضيح" وثناء المؤلف عليه، وانتفاعه به]

ولم يذكر ابن خلدون شرح الشيخ خليل، الذي يسمى "التوضيح"، الذي كان هو الكتاب المعتمد عند المغاربة، لأنه يتعرض في شرحه هذا لهذه الشروح الثلاثة، ويأتي بعباراتهم. ولهذا قال ابن الحاج في "أزهاره":

{وليس في شروحه، يعني ابن الحاجب، على كثرتها ما هو أنفع منه ولا أشهر، اعتمد عليه الناس وأئمة المغرب من أصحاب ابن عرفة وغيرهم، مع حفظهم للمذهب، وكفى بذلك حجة على إمامة صاحبه. ومن عاداته فيه أنه يتعرض لمبنى الخلاف ومدارك الأقوال. ولا يخفى ما في الاطلاع على ذلك من الفوائد الغريبة، وما يحصل به من التفقهات العجيبة} هـ.[ص178].

قلت: ولم تسمح المقادير بنشره بالطبع، بل بقي مستورا في طي المخطوطات، لا يوجد إلا بيد الخواص. وقد كان منَّ الله بنسخة منه على كاتبه أيام ازدهار المغرب بدراسة الفقه، والاغتباط به والعناية بكتبه، ولا سيما بمثل هذا المؤلَّف المعتمد في نصوصه، والمفتخر، عندما ظفر به، بنفائس فصوصه؛ إذ كان الفقه حيا يتهادى بلباسه القشيب في مجالس التعليم، ويهدي بنصوصه إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وقد انتفعت به كثيرا في الدراسة والتدريس،[لوضعه] النصوص في أماكنها، واستخراج درر المسائل من معادنها. فرحم الله تلك العظام التي ذهبت، وذهب العلم الصحيح بذهابهم، فصار كأضغاث أحلام، والملك كله لله الملك العلام.

[أسماء المؤلفات الشهيرة
في الفقه المـــالكي بأقسامها]

ولم تزل المؤلفات تنمو في هذا المذهب، وتنظم وتنشر، وبحر الفقه بها يمتد ويزخر، ما بين طويل مديد، وبين خفيف وجيز مختصر. وقد قسمها الفقهاء إلى ثلاثة أقسام:

فمنها المبسوط؛ كـ"المدونة"، والمستخرجة، وهي"العتبية" التي شرحها ابن رشد، وسمى كتابه"البيان والتحصيل"، وصار عند المغاربة في المذهب عليه التعويل، و"الموازية" لابن المواز(299)، و"الواضحة" لابن حبيب الأندلسي(288)، و"النوادر" لابن أبي زيـد(389)، و"التهذيب" للبرادعي من أهل المائة الرابعة، و"كتاب" ابن يونس الجامع للمدونة وغيرها(451)، و"التبصرة" للخمي القيرواني(478)، و"المعلم" للمازري، ومختصر ابن عرفة(803). إلى غير ذلك مما يكثر ذكره، ويعسر حصره.

أما المختصرة فهي أيضا كثيرة، كـ"التلقين" للقاضي عبد الوهاب البغدادي(425)، و"الرسالة" الشهيرة، لابن أبي زيد القيرواني، و"مختصر" الجلاب البصري(378)، وغيرها.

ومن المتوسطة: "المعونة" للقاضي عبد الوهاب السابق الذكر، و"التحفة" لابن عاصم، وهي خاصة بالأحكام القضائية، و"الجواهر الثمينة" لابن شاش(616)، و"جامع الأمهات" السابق الذكر، لابن الحاجب(646).

["مختصر" الشيخ خليل ومزاياه،
وتصدي العلماء لشرحه وتيسير فهمه]

ومن المختصرات العجيبة؛ "مختصر" أبي المودة، خليل بن إسحاق، صاحب "التوضيح" السابق الذكر؛ الكتاب الذي جمع فأوعى، وأحاط بغالب ما تدعو إليه الضرورة في أحكام العبادات والمعاملات، والقضاء والزواج والطلاق، وغير ذلك من أحكام الوصايا والمواريث، مع بيان الراجح والمشهور وما به الفتوى، وما هو الأحق بالأخذ والأقوى.

وبالجملة؛ فهو الكتاب الجامع للمذهب، والمحيط بفروعه، الذي لا مندوحة عنه لمن يدين بالشريعة الإسلامية. ولهذا أقبل الفقهاء المغاربة على دراسته، وعمروا أوقاتهم بفهمه وتفهيمه، إذ صار للطالب المغربي أقصى غاياته؛ إلا أنه لاختصاره يعسر على المبتدئ فهمه، ويتعذر عليه أن يعلق بفكره حكمه.

لكن تصدى الأئمة لشرحه وبيانه، وأفاضوا في فتح أبواب فهمه وتقريبه للطالب حتى تجلت عبارته واضحة المعاني، سهلة المآخذ دانية قطوفها للجاني؛ فقد شرحه جماعة كبيرة من الأئمة؛ كالشيخ بهرام، وهو أول شارح له، واتبعه جماعة كالأجهوري(1066)، وتلامذته: الزرقاني (1099)، والخرشي (1102)، والحطاب. وهكذا استمر الحال في ذلك، من مطيل ومن مختصر.

وآخر "الشروح" المختصرة المفيدة؛ "شرح" العلامة الدردير، فهو على اختصاره مفيد جدا، إذ هو اختصر "شرح" العلامة الزرقاني وأجاد. ولهذا كان شيخنا البقالي، رحمه الله، يمدحه ويغتبط به. كما أن على هذه الشروح حواشي من محققي علماء المغرب؛ كالشيخ التاودي، والشيخ بناني.

[حاشية الشيخ الرهوني]

ومجمع "الحواشي" في التحقيق والإفادة، وإفاضته في بيان ما يتعين فيه السلوك لقصد صواب الطريق؛ "حاشية" العلامة الرهوني، خاتمة الفقهاء، وآخر من أنتجه المغرب الأقصى من العلماء الصلحاء. إذ صرف أوقاته في مراجعة أصول النصوص، ومراجعة الشروح والحواشي والاطلاع على الفتاوي والنوازل، وإتيانه بنصوص أهلها كاملة في جملتها، محفوظة بنصها ولفظها.

[شرح العلامة ابن رحال، للمختصر، وهو من المؤلفات النادرة]

ومن أكبر الشراح المغاربة على هذا المختصر الجليل؛ الإمام المطلع المحقق، أبو علي، الحسن بن رحال المعداني، إذ شرحه شرحا مبسوطا مستوعبا للنصوص الشارحة للمقاصد، وموضحا لما استتر فيه من المعاني، ولكنه لم يشرحه من أوله، بل يبتدئ شرحه من كتاب النكاح إلى الختام. وتم هذا القدر في أربعة عشر مجلدا، وهو من المؤلفات النادرة.

وكانت منه نسخة كاملة في خزانة الجامع الكبير من تطوان، وكنتُ أستعير منها أجزاءً، وأستفيد منها عند دراسة هذا "المختصر". وهو طويل الذيل، عظيم النيل. وكانت وفاة هذا العالم الجليل سنة 1140.

[حاشية الشيخ ابن الخياط في الفرائض]

ولم يزل فقهاؤنا المغاربة، فيما أدركنا، يعتنون بهذا "المختصر" ويكتبون عليه، إما كتابة عامة أو خاصة. ومن أنفس ما كتب في خصوص الفرائض؛ "حاشية" شيخنا وبركتنا، وخاتمة أشياخ المغرب المحققين، أحد رجال هذه "الفهرسة"، وهو الإمام العلامة المفضال، المشارك في كافة العلوم الإسلامية الذي إلى مثله تشد الرحال، أبو العباس، سيدي أحمد ابن الخياط. وقد تقدمت ترجمته مستوفاة في المجلد الثالث من هذه "الفهرسة".

أما إحصاء المؤلفات التي أصدرها علماء هذا المذهب المالكي؛ فإن القلم يعجز عن تسطيرها، وتنفد مادة الدواة وإن استمدت من أنهار مدادها.

["تقييد" للشيخ ابن الخياط
في ذكر المؤلفات المشهورة في المذهب]

وقد اعتنى شيخنا ابن الخياط، المتقدم الذكر، بجمع المشهور من هذه المؤلفات في المذهب، التي يجري ذكرها والنقل عنها في الكتب والفتاوى، ويعتمدها من أتى بعد مؤلفيها من الفقهاء وأهل الإفتاء. فاكتال في ذلك بالمكيال الأوفى، وسقى النبلاء من أهل الاعتناء بالفقه من كتابته من المورد الأصفى. وذكر في ذلك أصول المتقدمين وما تفرع عنها من شروح واختصارات وتهذيبات لمن جاء بعد ذلك من المتأخرين، من لدن آخر القرن الثاني إلى آخر القرن الثامن وأوائل التاسع.

وصدر هذا "التقييد" الذي طبع بفاس بالمطبعة الحجرية آخر "حاشيته" على فرائض الشيخ خليل، فقال:

{الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. وبعد؛ فالمقصود ذكر جملة من مشاهير كتب المالكية، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، ونفعنا بهم آمين}.

ثم صار يذكر ذلك مبتدئا بـ"المدونة"، وخاتما بـ"الموافقات" للشاطبي.

وفي هذه المؤلفات ما كان أصحابها من أهل القرن الثاني، ومنهم من كان من المتأخرين إلى القرن التاسع. وأسماء هذه المؤلفات تربو على المائة، وإن كان أدمج في ذلك ما ليس في علم الفقه، كـ"الاستيعاب" لابن عبد البر، و"الشفا" للقاضي عياض، و"الموافقات" لأبي إسحاق الشاطبي، و"الديباج" لابن فرحون، و"تكميله" للشيخ أحمد بابا السوداني، و"الفروق" و"التنقيح" للقرافي، وإن كانت هذه ترجع إلى الفقه من حيث أصوله، أو من حيث معرفة الفقهاء المالكية الذين غالبهم لهم مؤلفات في المذهب.

وبالجملة؛ فقد أفاد وأجاد، وجمع من المؤلفات الفقهية التي يكثر دورانها في الكتب الشهيرة التي تستمد منها "الحواشي" و"الشروح" والفتوى، مما يقع عليه في ذلك الاعتماد. رحمة الله على شيخنا العمدة الذي كان شأنه نشر العلم ونفع العباد.

****

[سند الفقه المالكي
نقلا عن"رحلة"العياشي، عن الثعالبي]

هذا، ومما يناسب هنا ذكره من الفوائد، والإشارة إلى ما كان عليه أهل المذهب من الاعتناء بضبط روايته بالأسانيد، ما ذكره الإمام الحافظ الضابط، الرُحلة المستفيد المفيد، المعتني في رحلاته بالجمع لنفائس المسائل بالكتابة والتقييد، أبو سالم العياشي المغربي الشهير، في "رحلته"، إذ ذكر شيخه الثعالبي فقال: وسمعت على شيخنا أبي مهدي الثعالبي جميع "رسالة" أبي محمد بن أبي زيد، بلفظي في منزله بجانب المسجد الحرام، وأجازني بها وبسائر مروياته، خصوصا مؤلفات أهل مذهب مالك، جمعًا لم يسبق إليه، بعد ما حارت فيه فحول الأئمة، كما هو معروف، فرفع الأسانيد من طريق شيخه الأنصاري إلى مشاهير أئمة المذهب المتأخرين، ثم إلى من فوقهم في الشهرة والزمان، ثم كذلك على أسلوب غريب، إلى أن أوصلها إلى الإمام مالك، ثم إلى النبي، صلى الله عليه وسلم. قال أبو سالم:

{ ولنذكر جمعه المذكور بلفظه. وإن كان فيه طول، فهو مما يغتبط به. قال، رضي الله عنه، وهو مما أدرجه في كتابه"كنز الرواة"، ما نصه}. ثم ذكر البسملة والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

{ في ذكر سند الفقه من طريق شيخنا، قدس الله روحه. قد تقدم ذكر ما أخذته عنه في الفقه، وهو أخذه، رحمه الله، دراية ورواية عن أعلامه الأدلاء، ومفاخره الأجلاء، أبي محمد

ابن طاهر الحسني، وأبي عبد الله بن أبي بكر الدلائي، والشهاب أبي العباس المقري التلمساني.

أما الأول، فأخذه كذلك عن غير واحد، من أجلهم العالم النظار، أبو العباس، أحمد بن علي المنجور الفاسي. وهو أخذه عن جماعة، منهم العلامة أبو محمد، عبد الرحمان بن أحمد القصري، المعروف بسقين، والعلامة أبو الحسن علي بن هارون المضغري، والعلامة أبو عبد الله، محمد بن عبد الرحمان اليسيتني، وأبو محمد، عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي، الفاسيون. وهم أربعهم أخذوه عن حافظ المذهب في عصره، أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن غازي.

وزاد سقين عن شيخ العِلْمين، ومحقق الفنين، الإمام أبي العباس، أحمد زروق الفاسي. وزاد عبد الواحد عن أبيه، حامل لواء المذهب، أبي العباس، أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم الفاسي، مؤلف "المعيار المعرب" في النوازل.

وأما الثاني والثالث، فأخذاه عن شيخ الفتوى بفاس، العلامة المحقق، أبي عبد الله، محمد بن قاسم القيسي الشهير بالقصار. وهو أخذه عن اليسيتني وغيره.

وأخذه اليسيتني عمن تقدم، وعن الفقيه الحافظ، أبي العباس، أحمد بن علي الزقاق الفاسي. وهو أخذه عن أبيه العلامة المحقق، أبي الحسن، علي بن قاسم بن محمد الزقاق.

وزاد الثالث، وهو الشهاب المقري، فأخذه عن عمه إمام الفتوى بتلمسان، بل المغرب، ستين سنة، أبي عثمان، سعيد بن أحمد المقري.

وهو أخذه عن العلامة أبي عبد الله، محمد بن محمد التنسي. وهو أخذه عن أبيه الحافظ أبي عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني.

وقد انتهت الطرق، باعتبار ما اقتصرنا عليه، إلى خمسة أعيان من أعلام فاس وتلمسان: الإمام ابن غازي، والشيخ زروق، والعلامة الونشريسي، والمحقق أبي الحسن الزقاق، والحافظ التنسي.

أما ابن غازي فأخذه عن جماعة، من أجلهم: العلامة الحافظ، أبو عبد الله، محمد ابن قاسم القوري اللخمي المكناسي ثم الفاسي، والمحقق النظار، أبو العباس، أحمد بن عمر المزدغي، والفقيه المتفنن، أبو زيد، عبد الرحمان الكاواني.

أما القوري، فأخذه عن الحافظ أبي موسى، عمران بن موسى الجاناتي.

وأما المزدغي والكاواني، فأخذاه عن شيخ الجماعة بفاس، أبي مهدي، عيسى بن علال المصمودي، وتلميذه الحافظ أبي القاسم التازغدري.

والحافظ الجناتي، وابن علال المصمودي، أخذاه عن الحافظ، شيخ الفتيا بفاس، أبي عمران، موسى بن محمد بن معطي العبدوسي الفاسي. وهو أخذه عن الفقيه الضابط، عبد العزيز القوري الفاسي، صاحب"التقييد" على "المدونة"، المنسوب لأبي الحسن الصغير، وهو أحسن التقاييد وأصحها، وعن شيخ "الرسالة" و"المدونة"، أبي زيد، عبد الرحمان بن عفان الجزولي.

والقوري أخذ عن شيخ الإسلام، والقائم على المذهب الجامع بين العلم والعمل، أبي الحسن، علي بن عبد الحق الزرويلي، الشهير بأبي الحسن الصغير، بضم الصاد المهملة وفتح الغين المعجمة، وتشديد المثناة التحتية.

وهو وابن عفان الجزولي، أخذاه عن شيخ الفتيا، وأتبع الناس للحق، أبي الفضل، راشد ابن أبي راشد الوليدي الفاسي، وعن شيخ "المدونة"، أبي إبراهيم، إسحاق بن يحيى بن مطر الأعرج، صاحب"الطرر" على "المدونة".

وهما أخذاه عن شيخ المغرب علما وعملا، الإمام الكبير، أبي محمد، صالح الهسكوري الفاسي. وهو أخذه عن الحافظ الكبير، أبي موسى، عيسى بن [ ] النصر المومناني الفاسي، وأبي القاسم ابن البقال.

وهما أخذاه عن الحافظ الضابط، الواسع الدراية والرواية، أبي القاسم خلف ابن عبد الملك بن بشكوال.

وهو أخذه عن فحول المذهب وأعلامه؛ أبي محمد، عبد الرحمان بن عتّاب، وأبي الوليد، محمد بن أحمد بن رشد، والقاضي أبي بكر ابن العربي وغيرهم.

وأما شيخ الكمال أبو العباس، أحمد زروق، فأخذه عن القوري بسنده، وعن عالم الصلحاء، وصالح العلماء، أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري، مؤلف "شرح" ابن الحاجب وغيره، وعن الحافظ أبي العباس ابن عبد الرحمان بن موسى، المعروف بحلولو "شارح المختصر" وغيره، وعن قاضي الجماعة ومفتيها أبي عبد الله، محمد بن قاسم الرصاع التونسي، مؤلف"شرح حدود ابن عرفة" وغيره.

والثلاثة: الثعالبي وحلولو والرصاع؛ أخذوه عن العلامة النظار، حافظ المذهب، وشيخ الفتيا، أبي القاسم ابن أحمد بن إسماعيل التونسي البرزلي، مؤلف"النوازل" المشهورة}هـ [الرحلة:193/2].

وهكذا استمر في ذكر هذه الطرق وما تفرع عنها، وفيها أكابر فقهاء المذهب، من فاسيين وتونسيين وتلمسانيين، إلى عمدة المذهب وإمامه ابن عرفة، وإلى شيخه ابن عبد السلام وأضرابه؛ كابن هارون، صاحب"شرح" ابن الحاجب و"مختصر المتيطية"، إلى أن اتصلت الطرق بأكابر علماء الفقه بالأندلس، كالمَواق وابن سراج وابن لب، وكبراء أهل سبتة والأندلس وقادتهم؛ كالقاضي عياض وأضرابه، وابن الحاج القرطبي، صاحب "النوازل"، والقاضي أبي بكر ابن العربي، والإمام المازري، وابن عتاب، وابن رشد وأضرابهم من فقهاء وحفاظ، أخذوا المذهب بالمعاني والألفاظ، يطول ذكرهم في تعداد هذه الطرق، إلى أن انتهت، كما قال صاحب"التقييد"، إلى أعلام الطبقة وشيوخ الفتيا وأئمة الشورى: الإمام المازري، وأبي الوليد ابن رشد، وابن الحاج، وأبي بكر الطرطوشي، وابن العربي، وأبي محمد بن عتاب، والقاضي ابن عيسى التميمي.

ثم صار يبين شيوخ هؤلاء، ويذكر سلسلة طرقهم وأسانيدهم في المذهب. وقد استوعب في هذه الطرق أكابر الفقهاء المالكيين من تونسيين وقرويين ومصريين، وعراقيين وأندلسيين، بحيث لا تكاد تخلو هذه الطرق عن كل أو جل من ينسب إلى هذا المذهب الواسع، ولأعلام الأمة جامع، إلى أن وصلت الطرق إلى أصحاب الإمام مالك. وفي ترجمته قال: قد ارتقت الأسانيد المتان، وانتهت سلاسلها البديعة الإتقان، إلى مشاهير أصحاب الإمام، وأعلام أئمة الإسلام، مدوني طريقته الغراء، ومنتهجي محجته الزهراء. ثم أخذ يذكر أصحابه المدنيين والمصريين، والإفريقيين والأندلسيين.

<u>فذكر من المدنيين</u>: المغيرة المخزومي، وابن دينار، ومحمد بن مسلمة، ومطرف بن عبد الله، وعبد الملك بن الماجشون، وعبد الله بن نافع.

<u>ومن المصريين</u>: أبو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم العتقي، وأبو عمرو أشهب، وعبد الله بن وهب، وأبو محمد عبد الله بن الحكم.

<u>ومن الإفريقيين</u>: أبو الحسن بن زياد التونسي، والبهلول بن راشد القيرواني.

<u>ومن الأندلسيين</u>: إمام قرطبة، وأول من أدخل"الموطأ" للأندلس، أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون، والإمام رئيس الأندلس وكبيرها يحيى بن يحيى الليثي.

وجميع هؤلاء أخذوا عن إمام دار الهجرة. والإمام، رضي الله عنه، أخذ كما قال صاحب"التقييد"، عن ابن شهاب الزهري، والإمام الذي دارت عليه الفتيا بالمدينة ربيعة، ثم ذكر جماعة أخرى.[الرحلة:203/2].

قلت: وأشياخ مالك معروفون، خصهم الأئمة بالتأليف، وقد أوصل هؤلاء الأعلام سندهم بأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذين كان عليهم الفتوى في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعده. وذكر في "التقييد" منهم أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وأبا سعيد الخدري. ثم أوصل السند برسول الله، صلى الله عليه وسلم.

***

قلت: وإنما أتيت بصدر هذا"التقييد"النفيس، واقتصرت عليه، وتركت الإتيان بتمامه لطوله وسعة عدد رجاله، وإن كانت في ذلك فوائد جمة، معربة عما كان لهذا المذهب، شرقا وغربا، من الحاملين له والآخذين به من أجلة الأئمة.

أما الاقتصار على صدر هذا "التقييد" والاكتفاء به؛ فهو تبيان لهذا النسق الذي ابتكره هذا العلامة الثعالبي، من وصله السند الفقهي إلى أصله الأصيل، وتحصيل رجاله أوضح تحصيل، فأجاد في ذلك وأفاد، وبلغ [به] المغتبط بالفقه المالكي وأهله المراد؛ لأمور:

أولها: التعريف بما كان لعلماء المغرب من الاعتناء بالمذهب، وبلوغهم فيه غاية المأرب، وتحقيقهم في مسائله، وإقبالهم على تدوينه، وتسهيل مناهجه لطالبه، وبالأخص ما كان لجهابذة فـــاس وتونس الذين ارتقوا ذروته العليا، واعتمد الطلبة تقريراتهم وتحريراتهم في الدراسة والفتيا؛ مما يبين للقارئ أن جامع القرويين والزيتونة كانتا بالشمال[الإفريقي] المعهد الأعلى، والمقصد في رواية فقه الإمام مالك هو الأشهر والأحق بذلك والأولى.

الثاني: إن في هذا السند ذكر علماء أكابر، كانت تفتخر بأقلامهم في كتابتهم المحابر، وتتشرف برقيهم أعالي المنابر، أخفاهم الإهمال، وكتم أسرار علومهم عدم الاعتناء بتراجمهم، كما كان شأن المغاربة في هذا الحال.

الثالث: وهو الأمر الخاص بكاتبه؛ التبرك بهؤلاء الأعيان الذين كانوا أقطابا في زمانهم، ونجوما تستضئ بأنوارهم قلوب أهل الإيمان، إذ بذكرهم ومناقبهم ورحمتهم بآخر هذه الأمة بحفظ قواعد دينهم؛ تتنزل من ربنا الرحمات، والراحمون يرحمهم الرحمان، مع ما في ذلك من وصل بعض أسانيد أشياخنا الفاسيين بهم، وبوصلهم يحصل لنا الإيصال. ونرجو من الله

بذلك بلوغ الآمال، والاندماج في زمرتهم، وهم أهل التقوى والولاية، وتكون لنا البشرى، كما لهم في الحال والمآل.

سند شيخنا ابن الخياط في الفقه
واتصالي بسنده

وذلك أني أخذت جملة من الفقه، من "مختصر" الشيخ خليل، عن شيخ الجماعة، ومقدم التحقيق في النوازل، وعمدة العلماء الأجلة الأفاضل، الإمام الذي لم يكن له فيما أدركنا بفاس من مُضاهٍ ولا مماثل، أبي العباس، سيدي أحمد بن الخياط، الذي سبقت ترجمته، وهو أخذ الفقه، من"مختصر" خليل وغيره، عن عدة شيوخ منهم: أبو زيد الشرادي الحسني، وهو أخذه عن سيدي بدر الدين الحمومي الودغيري الحسني. قال شيخنا:

وهو، أي الحمومي، يروي الفقه عن الشيخ الإمام سيدي التاودي ابن سودة، عن الشيخ العلامة سيدي محمد جسوس، شارح"المختصر" و"الرسالة" و"الشمائل" و"عقائد المرشد المعين" وتصوفه وفقهية سيدي عبد القادر الفاسي وغيرها، عن العلامة المسناوي الدلائي، عن الشيخ بناني وابن جلون، كلاهما عن ابن الحاج، عن سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، والشيخ الجليل أبي العباس الأبار، وسيدي محمد ميارة، والقاضي أبي عبد الله سيدي محمد بن قاسم بن سودة المرّي، كلهم عن أصحاب الشيخين المنجور والقصار؛ كالعارف بالله، أبي زيد الفاسي، وسيدي عبد الواحد ابن عاشر، والجنان، وابن النعيم، وأبي العباس المقري، بعضهم عن القصار وبعضهم عن المنجور. أما القصار فعن سيدي رضوان الجنوي عن سقين عن ابن غازي. وأما المنجور فعن سقين وغيره، من أصحاب ابن غازي، عن ابن غازي عن أبي عبد الله القوري.[الفهرسة: ص49 مخطوطة]

وهنا يلتقي سنده بسند شيخنا ابن الخياط. ثم بعد ذلك تتعدد الطرق في هذا"التقييد".

ويقول شيخنا بعد القوري: عن أبي موسى، عمران الجني عن أبي عمران العبدوسي، عن عبد العزيز القوري، عن شيخه أبي الحسن الصغير، عن أبي الفضل راشد، عن أبي محمد صالح الهسكوي، عن أبي موسى البناني، عن أبي قاسم ابن بشكوال، وأبي محمد بن عتاب، كلاهما عن أبي محمد بن أبي محمد بن أبي طالب القيرواني، عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، عن أبي بكر بن اللباد، والأبياني، ودرّاس بن إسماعيل، والأبهري، كلهم عن يحيى بن عمر، عن سحنون، عن ابن القاسم، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم.[ص50].

وقد اختصر شيخنا ابن الخياط، رضي الله عنه، هذا السند. أما صاحب"التقييد" فإنه تتبع الفروع، بعد ذكر الأصول، واستوعب الطرق وبسط القول، وتتبع رواية كل إمام، وشرح أحوال الرواة، وتعرض لغالب ما ألفوه. فكان "التقييد"، من أنفس ما يقتنيه الفقيه المستفيد. فلا غرو إن أطنب في مدحه العلامة الرحالة أبو سالم، الذي اكتشف هذا الكنز المدفون، وأثبته في"رحلته"، فأقر به العيون، حسبما سبق ذلك في طالعة "التقييد" الذي نقلناه آنفا.

[إهمال هذا "التقييد" وأمثاله
عند أهل العصر، لإعراضهم عن الفقه]

وهذا "التقييد" على نفاسته وجمعه لعمد هذا المذهب وجهابذته، وذكر ما ألفوه فيه من بدائع أسفاره وروائع مصنفاته، هو في عصرنا هذا يُعد في منهاجه سالكا بنيات الطريق، وسالكا في مسالك غير المسالك التي به تليق. فالواقع بين يديه يكون كمصحف ببيت زنديق؛ إذ صار الفقه لديهم وأهله من السلع التي لا تشترى ولا تباع، وأنه من اللغو الذي يتعين الإعراض عنه إذ هو من سقط المتاع، بعد أن كان عند عظمة هذه الأمة ونفوذ كلمتها، واتساع دائرتها في شرق الأرض وغربها، وتمسك الكل بأحكام دينها وشرعتها؛ هو عِلمها المأثور، وعلمها المنشور، الذي يضطر لمعرفته الأمير والمأمور، والآجر والمأجور، والتاجر والفلاح، والجندي الذي يحمل السلاح، والذي يطلب في دينه تحري الحرام والواجب والمباح، والمتزوج الذي يطلب الحلال من الزوجات ليتباعد عن السفاح.

وهكذا كانت كل أمور الدنيا والدين منوطة بما تحكم به شريعة سيد المرسلين، وهو الفقه المأخوذ من الكتاب المبين، وحديث الرسول الأمين.

[تعريف الفقه والفقهاء عند الإمام الغزالي]

قال حجة الإسلام، بعد كلام في علم الفقه والاضطرار إليه، ما لفظه:

وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة؛ ويدل على ذلك ما روي مسندا: "لا يفتي الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو متكلف"؛ فالأمير هو الإمام، وقد كان[هو المفتي]، والمأمور نائبه، والمتكلف غيرهما.

وقال قبل هذا: فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا. ولعمري إنه متعلق أيضا بالدين، ولكـــن

لا بنفسه، بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا. والملك والدين توأمان؛ فالدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع. ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان، وطرق الضبط في فصل الحكومات بالفقه.هـ[الإحياء:13/1].

[الدولة الأموية في الأندلس
وما كان للفقهاء فيها من مكانة ورفعة]

وانظر إلى ما قاله المؤرخون في شأن الدولة الجديدة التي تأسست بقطر الأندلس في عنفوان أيامها، وأخذها بمقاد الشريعة الغراء وزمامها، وقلدت في أمورها الفقهاء من أعلامها؛ كيف كان هذا العلم عندهم يحتل المقام الأعلى، والعارف به هو المقدم في الوظائف الكبرى، إذ كان عند أمرائها هو الأحق والأولى. قال في"نفح الطيب" عن ابن سعيد مؤرخ الأندلس:

{ وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك. وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباهون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه. وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق. وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات}.هـ [103/1].

وقد أخذ المغرب الأقصى من هذه السمة حظا، إذ كان الوزير الصَّدْر يُدْعى بهذا اللقب، وكذلك من يماثله من الوزراء، ويدعون المحتسب بالفقيه، تعظيما له.

وأما الآن؛ فقد صار وصف الفقيه من أحط الأوصاف عند المغاربة، واستبدلوه بلقب(أستاذ). فرحم الله أهل تلك الأعصار، "وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا"، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من ضلالات هؤلاء الأشرار.

[تنويه المؤلف بتقييد الإمام الثعالبي
لما تضمنه من ذكر أعلام المذهب وآثارهم]

ثم إني أقول إن هذا"التقييد" الذي حرره هذا الإمام الثعالبي، بين للناظر فيه ما كان في هذا المذهب المالكي من الأئمة الكبار، والعلماء الصلحاء الأخيار، وما خدموا به هذا المذهب الحجازي المديني، الذي أسس بنيانه على الكتاب وصحيح الآثار والأخبار، من

المؤلفات العظيمة الكبيرة المقدار، المعتمدة عند ذوي البصائر وأهل الاعتبار والاستبصار؛ إذ لم يغادر في هذا"التقييد" المفيد، ما يستدرك عليه في موضوعه ويعد هذا الاستدراك من الأمر الجديد.

وإني أود أن لو كان الشباب لا زال يمدني بنشاطه وقوته، والحال يساعدني على الإقبال على مراجعة أصول التاريخ ومؤلفاته، ومطالعة ما أحتاج إليه في منقولاته ومروياته؛ لأخرجت منه أجزاء كبيرة، وشرحت فيه ما أجمعه ببيانات جامعة كثيرة، ولكن هنا أقول:

أهُم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

هذا، ولو تتبعت هذا الحديث، وزدت في الإملاء الذي طاب وراق، واستطال في المساق، لنبا حد القلم ونفذت الأوراق. أقول: ولكن لذة العلوم والمعارف، وشراب معينها، لا يمل من تناولها ذائق، ومن استحلى موردها، لا تصرفه عنها عوارض العوائق. ولهذا قال الله تعالى لخاتم أنبيائه، ومتلقي نور وحيه من السماء، وامتلأ صدره حكمة وعلما:(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْما).

وهذه هي اللذة التي قال فيها الإمام النعمان، وأعلن بها للناس ولم يخفها بالكتمان: ولو علم الملوك ما نحن عليه من اللذات، لقاتلونا عليه. فكان هجيرا أهل البراعة في العلوم، والمتقدمين في الإدراكات والذكاء والفهوم؛ الكتابة والتصنيف، وعمارة أوقاتهم، بعد أداء فرائضهم، بمنادمة الدفاتر التي تحدثهم بأصدق الحديث، وتؤنسهم بكل معنى لطيف، ويتلقون منها ما يملأون به بطون الطروس، التي تحصلها الصدور، وتبتهج بها النفوس.

وانظر ما نقله الحافظ ابن عبد البر، عن أبي أيوب ابن شجاع، لما تخلف في بيته ابن الأعرابي، أحد أئمة اللغة والأدب والعلم، ومؤلف كتاب"الغريب"، وأرسل إليه غلامه ليأتي إليه، فأجابه الغلام بأنه لما سأله المجيء، قال له: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربي معهم أتيت. قال الغلام: وما رأيت عنده أحدا إلا أن بين يديه كتبا ينظر فيها، فينظر في هذا مرة، وفي هذا مرة. ولما جاء قال له أيوب: يا أبا عبد الله. سبحان الله العظيم. تخلفت عنا، وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحدًا، وقلت أنت مع قوم من الأعراب إلخ. فقال ابن الأعرابي:

لنـا جلسـاء مـا نمـلّ حديثهــم ألبّاء مأمُونون غيبا ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم من مضى و عقلا وتأديبا ورأيا مسددا
فلا فتنة تخشى، ولا سوء عشرة ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فإن قلتَ: أموات، فما أنت كاذبا وإن قلت : أحياء، فلست مفندا

وقيل للإمام ثعلب: توحشت من الناس جدا، فلو تركت البيت وبرزت للناس، كانوا ينتفعون بك وينفعك الله بهم؟. فمكث ساعة ثم قال:

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا واستخفوا كبرًا بحق الجليس
أو صحبنا التجار صرنا إلى البؤ س، وصرنا إلى عداد الفلوس
فلزمنا البيوت نستخرج العلمَ، ونملأ به بطون الطروس

[جامع بيان العلم:202/2].

إلى غير ذلك مما قاله أهل العلم المقبلين على نفع الأمة بتخليد معارفهم، وتوريثها بعدهم لأهل ملتهم. ومن طالع تراجم هؤلاء الفقهاء الأجلة، الذين سبق لنا طلب استنزال الرحمة بذكرهم؛ يعرف ذلك، ويتبين له ما كان عليه هؤلاء الأفاضل من الاشتغال بالعلم والإقبال عليه آناء الليل وأطراف النهار، مع أداء الحقوق الواجبة عليهم دنيا وأخرى، لا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الدنيا لا سرا ولا جهرا.

وقد أسلفنا في هذه "الفهرسة" من ذلك ما يعرفك سيرة حملة هذه الشريعة الغراء.

[عود إلى موضوع تدوين الفقه، والسند الذي اعتمده الشيخ ابن الخياط]

ثم نرجع إلى إتمام الموضوع، في شأن اشتغال أئمة الأمة بتدوين علم الفقه من أصوله وفروعه، وقيام كل طائفة منهم في تحرير مذهب إمامه، ونشر ما تحتاج إليه الأمة ويستدعيه حاجته في معرفة شرائع الدين وصحيح أحكامه.

وكنا تعرضنا لما أتممنا به المقام، وأبلغنا به أهل العناية بموضوع فقه المرام؛ بذكر تلك الأسانيد التي أتحفنا بها صاحب "الرحلة" العياشية، بما نقله عن شيخه العلامة الثعالبي من ذلك "التقييد" النفيس، الذي يستحق أن يكتب بسواد العيون على بياض الخواطر، ويحصل في الصدور، وكان [بـ] ذلك أوصل الإسناد إلى أكابر الأمة من أصحاب الرسول الذين وصلوه إلى من أرسل رحمة للعباد، والمرجوع إليه في الشريعة يوم التناد،

والقائل "أنا لها" إذا تعاظمها المصطفون من الرسل، وقال كل واحد منهم: نفسي نفسي، واعتذر عنها وحاد.

هذا، ومن الملاحظ هنا أن السند الذي اعتمده شيخنا ابن الخياط في الفقه، واستندتُ إليه في ذلك رجاء الاندماج في زمرة هؤلاء الأجلة الأخيار؛ أنهم إنما أوصلوه بسيدنا عبد الله بن عمر.

و"التقييد"، المذكور، أوصله إلى جماعة من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منهم أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعمر بن أبي سلمة، وعبد الله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، وأبو لبابة، وأبو هريرة، رضي الله عنهم.

فيقال: أما وجه اتباع شيخنا المذكور وصل هذا السند بخصوص سيدنا عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، وذلك فيما نرى، والله أعلم، أن اتباع هذا الإسناد مراعاة لما قاله أهل المذهب، وروي ذلك عن الإمام البخاري، أن أصح الأسانيد كلها؛ مالك عن نافع عن ابن عمر هـ.

وعليه، فاختيار شيخنا، وهو مالكي المذهب، مما يستحسن، لما في هذا الاختصاص بهذه المرتبة في الوثوق والاعتماد، مما فيه للمالكي غاية الفخر وشرف بهذا الإسناد.

[سند الشيخ الحطاب في الفقه]

وعلى هذا جرى الإمام الحطاب، فقال في صدر ذكر سنده في فقه المذهب ما لفظه:

{ولنذكر سلسلة الفقه إلى الإمام مالك، رحمه الله ورضي عنه، ثم إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال النووي: وهذا من المطلوبات المهمات، والنفائس الجليات، التي ينبغي للفقيه والمتفقه معرفتها، ويقبح به جهالتها، فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين؛ وكيف لا يقبح جهل الأنساب، والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم، والثناء عليهم والشكر لهم هـ. (فأقول): أخذت الفقه عن جماعة منهم سيدي والدي محمد بن عبد الرحمان الحطاب، رحمه الله.} إلخ [مواهب الجليل:5/1].

ثم صار يذكر الأسانيد والطرق، ثم ذكر من الطرق طريقة والده التي أخذ فيها عن أهل تونس والمغرب وأهل الأندلس، فذكر أخذه عن الشيخ زروق الفاسي، وهو عن الثعالبي وحُلولو، والثعالبي عن الأبّي، والأبّي عن ابن عرفة، وابن عرفة عن ابن عبد السلام،

القاضي التونسي الشهير، وهو عن جماعة منهم ابن هارون عن أحمد بن بقي، وابن بقي عن محمد بن عبد الحق، وابن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى ابن الطلاع، وابن الطلاع عن أبي طالب مكي القيسي، وابن مكي عن جماعة منهم محمد بن أبي زيد، وابن أبي زيد عن جماعة منهم الزاهد أبو بكر بن اللباب، وهو عن الزاهد المجاب الدعوة يحيى بن عمر البلوي، صاحب كتاب"اختلاف ابن القاسم وأشهب"، وهو عن جماعة منهم الإمامان سحنون وعبد الملك بن حبيب، وهما عن جماعة منهم ابن القاسم وأشهب، وهما عن إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك ابن أنس، وهو عن جماعة من علماء التابعين؛ منهم ربيعة ابن عبد الرحمان ونافع، وتفقه ربيعة على أنس، وتفقه نافع على ابن عمر، كلاهما ممن أخذ عن سيد المرسلين، وإمام المتقين، أبي القاسم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى سائر النبيئين. هـ باختصار وإسقاط تحلية أهل السند، وذكر الإسم الذي لا بد منه. [مواهب الجليل:6/1].

ولكن زاد الحطاب في سنده هذا رواية ربيعة عن أنس، مع رواية نافع عن ابن عمر، وهو حسن، إذ ربيعة أيضا من أشهر شيوخ مالك وهم كثيرون، كما قدمنا أنهم خصوا بالتآليف.

***

[أساس دين الإسلام
التفقه في قواعده وأحكامه]

ثم اعلم أيها الناظر في هذه"الفهرسة" ـ إن قدر الله لك النظر فيها ـ أن عمدة هذا الدّين، هو التفقه في قواعده وأحكامه، من واجباته ومندوباته، وحلاله وحرامه؛ وهو الأساس، بلا ارتياب ولا التباس. ولهذا قال النبي، صلى الله عليه وسلم:"مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ"، وقال تعالى: (فَلوْلاَ نفرَ مِنْ كُل فِرْقةٍ مّنْهُم طائِفة لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّين).

وقد قدمنا في هذه"الفهرسة"، في غير ما مناسبة، ما للفقه من المقام الأعلى، وأن إليه الرجوع في شؤون هذه الأمة من الأخفى والأجلى، وأن حملته هم حماة الدين والخلفاء بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين. وهم، إذا قاموا بواجباتهم وكانوا هادين ومهتدين، أولياء الله الذين أنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.

قال الإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي، رضي الله عنهما، حسبما نقله الإمام الحطاب، في طالعة"شرحه" لمختصر خليل، عن الإمام النووي في كتاب"التبيان":

{قال الإمامان الجليلان، أبو حنيفة والشافعي، رحمهما الله،: إن لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي. وذكره في"شرح المهذب" بلفظ: إن لم يكن الفقهاء أولياء الله، فليس لله ولي. وفي "الصحيح" عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال:"إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب"} هـ [4/1].

فمن عادى فقيها، وهو ولي من أولياء الله، فقد حارب ربه، ووالى من حاد الله ورسوله، وكبت كما كبت الله الشيطان وحرمه. كما أنه لا ينبغي لمن وقف على مثل هذا الكلام المبسوط في شأن أئمة الإسلام، وما نقل عنهم في الديانة والترغيب فيها وفي علومها من المنثور والنظام، أن يبادر بالنقد والملامة، ويعطيه جانبا من الكراهة والسآمة، ويحط شأنه، ويستصغر مقامه؛ إذ ذاك كله معرب عن تمكنه في الضلالة، وإغراقه في بحر الجهالة. قال الإمام النووي، حسبما نقله عنه الإمام الحطاب، في كلام له أطال فيه فصل الخطاب، وأرشد فيه الطالب النبيه إلى صَوب الصواب:

ولا ينبغي لطالب التحقيق، والتنقيح والإتقان والتدقيق،أن يلتفت إلى كراهة أو سآمة ذوي البطالة، وأصحاب الغباوة والمهانة والملالة. بل يفرح بما يجده من العلم مبسوطا، وما يصادفه من القواعد والمشكلات واضحا مضبوطا، ويحمد الله الكريم على تيسيره، ويدعو لجامعه الساعي في تنقيحه وإيضاحه وتقريره.هـ[4/1].

[فقهاء الصحابة الذين كان المرجع إليهم في الفتوى والتعليم]

هذا، وما ذكرنا في شأن أئمة الفقه في هذه الديانة، وذكر ما أبدى فيه أئمتنا المتقدمون والمتأخرون من كبير العناية به، بعد الرواية والدراية؛ هو العلم الموروث، كما أشرنا إليه سابقا، عن الوحي الإلهي الكريم، الذي تلقاه سيد المرسلين من لدن حكيم عليم، وجدّ واجتهد في حفظه وروايته ونشره للأنام، أئمة الصحابة الكرام.

وقدم في حياته، عليه الصلاة والسلام، لذلك أئمة كانت لهم المكانة المكينة في هذا المقام.

فأول هذه المرتبة الذين أحرزوا قصبات السبق، هم الخلفاء الأربعة، وهم نجوم العلم والفقه؛ إذ تقدموا للفتوى والتعليم وإذاعة أحكام الفقه، وهو بينهم حي مقيم. وما اقتحموا هذه العقبة الكنود إلا بعد امتلاء صدورهم بما أخذوا عنه، عليه السلام، من شرائع الإسلام،

وصحيح التفقه في الأحكام، وصدور إذنه لهم الصريح، دون كناية ولا تلميح، فقال في الحديث الصحيح: "اِقتَدُوا بِالَّذَيْن مِنْ بَعْدِي أبي بكر وَعُمَر".

وأخرج ابن سعد في "طبقاته"، بسنده إلى القاسم بن محمد أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، يُفتُون على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. [335/2].

[الستة الذين كانوا يفتون على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، ونظم أسمائهم]

وروى أيضا بسنده إلى محمد بن سهل بن أبي خَيْثَمَة عن أبيه أنه قال: كان الذين يُفتون على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثلاثة نفر من المهاجرين وثلاثة من الأنصار: عمر وعثمان وعليّ، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت. هـ[350/2].

وإلى هؤلاء الستة كان ينتهي علم أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما روى صاحب "الطبقات" ذلك عن المِسْوَر بن مَخْرمَة.

وكنتُ نظمتُ أسماء هؤلاء الفقهاء الستة، الذين هم عمدة الدين والفقه، بشهادة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقلتُ، تبركا بذكر أسمائهم:

سِتٌ مِن الصَّحَابِ فِقهًا سَادُوا ... وبلغُوا الأمة مَا استفادُوا
أفتوا بمَا رووا عن النَّبيّ ... وانتهجُوا في نهجه المرضيّ
وهو لديهم حاضرٌ مقيمُ ... وبالَّذِي أفتوا بهِ عليمُ
علي عثمان وتربهم عُمرْ ... وكلهُم مهاجر عمّن كفرْ
أبيٌّ وابن جَبَل وزيدُ ... جميعهم أنصاريّ إنْ عُدّوا

وكل واحد من هؤلاء الأعلام، ورد عن النبي في خصوصه ما يعلي قدره، ويُوجب على الأمة أن ينشر ذكره، ويكثر الثناء عليه ويكرر شكره.

ومن شاء أن يملأ صدره بنور سيرتهم وأحوالهم؛ فليراجع تراجمهم في مراجعها، وليستخرج معاني أوصافهم من معادنها، ولقد جاء الحافظ ابن سعد في "طبقاته" في ترجمة:

(ذكر من كان يُفتي بالمدينة ويُقتدى به، من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على عهده وبعد ذلك، وإلى من انتهى علمهم).

وهو باب مهم جدا، لمن كان له عند الله بعلم الدين والفقه عهدا. فذكرَ عيون أعيان هؤلاء الأصحاب، وبدأ بالخلفاء الراشدين أئمة الهدى والإرشاد، وذكر ما قاله النبي، عليه السلام، فيهم، من ذلك قوله:"إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".[335/2].

وقال في علي بن أبي طالب، لما ولاه قضاء اليمن وهو شاب، إذ قال للنبي، صلى الله عليه وسلم: لا أدري ما القضاء!، قال سيدنا علي: فضرب صدري بيده ثم قال:"اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه"، فوالذي فلق الحبة؛ ما شككتُ في قضاء بين اثنين. هـ[337/2].

ثم مع هذه الدعوة المستجابة لم يترك اشتغاله بالعلم والفقه، ولقد كان يمكث في بيته أيام بيعة سيدنا أبي بكر لا يخرج إلا إلى الصلاة؛ فلقيه أبو بكر فقال له: أكرهت إمارتي؟ فقال: لا، ولكني آليتُ بيمينٍ أن لا أرتدي بردائي إلا إلى الصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنه كتبه على تنزيله. قال ابن سعد الراوي لهذا الأثر: فلو أصيب ذلك الكتابُ، لكان فيه علم. قال ابن عون: فسألت عكرمة عن ذلك الكتاب، فلم يعرفه. هـ[2 /338].

وذكر ابن سعد: عبد الرحمان بن عوف، فروي أنه كان ممن يفتي في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان، بما سمع من النبي، صلى الله عليه وسلم.

وذكرَ أبي بن كعب، وروى في حقه عن أنس أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأبي بن كعب:"أمرت أن أعرض عليك القرءان"، وقال بعضهم: سورة كذا وكذا. قال: قلتَ: وقد ذكرتُ هناك؟! فقال: نعم. فذرفت عيناه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (قل بفضل اللهِ وبرَحْمَتِهِ فبذلكَ فليفْرَحُوا، هُوَ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُون). ثم ذكر في هذا المعنى روايات أخر.[الطبقات: 340/2].

وذكرَ عبد الله بن مسعود، وروى في شأنه أحاديث وآثارا، منها الحديث المشهور عن عبد الله أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "اقرأ عليَّ"؛ فقلت: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟"، قال: "إني أشتهي أن أسمعه من غيري"، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت:(فَكَيْفَ إذَا جِئنَا مِن كُل أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا)، قال أبو نُعيم في حديثه: فقال لي:"حسبك"، وقالا جميعا: فنظرتُ إليه، وقد اغرورقت عينا النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال:"من سره أن يقرأ القرءان غضّاً كما نزل، فليقرأه قراءة ابن أمّ عبد".هـ[الطبقات: 342/2]

وروى عن أبي الأحوص أنه كان عِدَّةٌ من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، في دار أبي موسى يعرضون مصحفا، قال: فقام عبد الله فخرج، فقال [أبو موسى]: هذا أعلمُ من

بقِي بما أنزل الله على محمد، صلى الله عليه وسلم. وفي موضوع آخر قال: فقال أبو موسى: إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حُجبنا، ويشهد إذا غبنا. [الطبقات: 343/2].

وروى ابن سعد أن سيدنا عمر، رضي الله عنه، ذكَرَ ابنَ مسعود فقال: كُنَيفٌ مُلِئَ علماً آثرتُ به أهل القادسية.[الطبقات:344/2].

وذكر في هذه الترجمة: أبا موسى الأشعري، فروى عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سمع قراءة أبي موسى الأشعري فقال:"لقد أوتي هذا من مزامير آل داود".

قلت: ومن فقه أبي موسى ما رواه ابن سعد عن قتادة، أن أبا موسى قال: لا ينبغي للقاضي أن يقضي حتَّى يتبيّن له الحق، كما يتبيّن الليل من النهار. فبلغ ذلك عمر فقال: صدق أبو موسى هـ[الطبقات: 345/2]

وذكر ابن سعد: مُعاذ بن جبل، فروى فيه عن محمد بن كعب القُرَظي، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء برَتْوة".[347/2].

والرَّتوَةُ رمية سهم، وقيل ميل، وقيل مدى البصر. بهذا فسر الحديث في"النهاية"؛ بمعنى أنه يتقدم العلماء لفضله عليهم. وفي"الأساس": بينه وبينهم مسافة بعيدة قدر مد البصر.

وروى عن أنس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "أعلمُ أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل".

وأكبر شاهد يشهد لهذا السيد الجليل، ما ورد عنه في الحديث المشهور أنه قال: لما بعثني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى اليمن، قال لي: "بمَ تقضي إن عَرض قضاء؟. قال: قلت أقضي بما في كتاب الله؛ قال: "فإن لم يكن في كتاب الله؟"، قال: قلت: أقضي بما قضى به الرسول. قال: "فإن لم يكن فيما قضى به الرسول؟"، قال: قلت أجتهد رأيي ولا آلو. قال: فضرب صدري وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله. هـ[347/2].

وروى ابن سعد أيضا عن مجاهد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خَلَّفَ معاذ بن جبل بمكة حين وجه إلى حُنين يفقه أهل مكة ويُقرئهم القرآن.هـ وكان رضي الله عنه ممن له تخصص بعلم الفقه، ولهذا خطب سيدنا عمر بالجابية فقال: من كان يريد أن يسأل عن الفقه،

فليأت معاذ بن جبل. هـ وقد تقدم أنه كان ممن يفتي بالمدينة في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

[حصر الفتوى في خلافة أبي بكر في سبعة من الصحابة]

ثم ذيل ابن سعد الترجمة السابقة بترجمة أخرى، وذكر فيها طبقة أخرى من الصحابة؛ وكأن الترجمة الأولى كانت لمن يفتي من الفقهاء في حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، وهذه في الذين كانوا يفتون في أيام الخلفاء بعده، فقال فيها: (باب أهل العلم والفتوى من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم).

ثم روى عن عبد الرحمان بن القاسم عن أبيه، أن أبا بكر الصديق، كان إذا نزل به أمرٌ يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه، ودعا رجالا من المهاجرين والأنصار، دعا: عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمان بن عوف ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت. وكل هؤلاء كان يُفتي في خلافة أبي بكر، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء، فمضى أبو بكر على ذلك. ثم ولي عمر، فكان يدعو هؤلاء النفر، وكانت الفتوى تصير وهو خليفة إلى عثمان، وأبيٍّ وزيد.هـ[350/2].

ثم ذكر ابن سعد: عبد الله بن سلام، فروى عن تلميذ معاذ، أن معاذا أمره أن يأخذ العلم عن أربعة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وعُويمر أبي الدرداء. وفي رواية أن يزيد السَّكسَكِيّ، تلميذ معاذ، لما أخذ يبكي عندما حضرت الوفاة لمعاذ، فقال إنه يبكي عليه لِما فاته من العلم، فقال له معاذ: إن العلم كما هو لم يذهب، فاطلبه عند عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام الذي قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "هو عاشر عشرة في الجنة"، وعمر بن الخطاب، وسلمان الفارسي.[352/2]. وروى ابن سعد في شأن علم عبد الله هذا عن عطية في قوله تعالى: (أنْ يَعْلَمَهُ عُلمَاءُ بنِي إسرَائيل)، قال: كانوا خمسة منهم: عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة بن قيس، وأسد، وأسَيْد هـ[353/2].

ثم ذكر ابن سعد: أبا ذر، وروى فيه عن سيدنا علي أنه قال، إذ سئل عنه: وعَى علما عجز فيه، وكان شحيحا حريصا، شحيحا على دينه، حريصا على العلم، وكان يُكثر السؤال، فيُعطى ويُمنع. وذكر تمام كلامه.

وروى أنه لما مُنع من الفتوى قال : والله لو وضعتم الصَمصامة على هذا، وأشار إلى حلقه، على أن أترك كلمة سمعتها من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنفذتُها قبل ذلك.

وروى عنه أيضا الحديث الشهير الذي قال فيه: لقد تركنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وما يقلب طائرٌ جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علما.[354/2].

ثم ترجم ابن سعد لأئمة الصحابة الذين جمعوا القرآن في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ستة نفر: أبيّ، معاذ، أبو الدرداء، زيد، سعد، أبُو زيد. وكان ابن مسعود أخذ بضعا وتسعين سورة، وتعلم بقية القرآن. وزاد في رواية: عثمان بن عفان، وتميم الداري. ثم جاء بروايات أخرى فيها مخالفة لما تقدم.

والمسألة محررة في مواضعها. ومرادنا هنا بيان ما كان لأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الاعتناء بالعلم والفقه، وهم الذين نشروا الفقه والعلم في الآفاق، وعلموا الناس القرآن، ورووا الحديث.

[القراء الذين أرسلهم سيدنا عمر إلى الشام]

وفي خلافة سيدنا عمر، صارت الأقطار المفتوحة تطلب المعلمين؛ فمن ذلك أن يزيد بن أبي سفيان كتب إليه أن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن، واحتاجُوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين؛ فوجه سيدنا عمر إلى ذلك القطر ثلاثة من العلماء الذي جمعوا القرآن. وهم: معاذ، وعبادة، وأبو الدرداء، وبين لهم، رضي الله عنه، العمل في ذلك وأنهم يبدأون بحِمْص، فكانوا بها حتى إذا رضُوا من الناس، أقام بها عبادة، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، فمات معاذ في طاعون عمواس، وصار عبادة بعد إلى فلسطين فمات بها. وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات.

وأحد هؤلاء الأعلام، وهو أبو الدرداء، تُروَى عنه وصايات في العلم والفقه والقرآن، تدل على إحرازه المقام الأعلى في العلم والتعليم. فممّا روَى عنه ابن سعد أنه كان يقول: إنك لن تفقه كل الفقه، حتى ترى للقرآن وجوها. وقال: لا يكون عالما حتى يكون متعلما، ولا يكون عالما حتى يكون بالعلم عاملا. وقال: اطلبوا العلم، فإن عجزتم، فأحبوا أهله، فإن لم تحبوهم فلا تبغضوهم.

[ذكر بقية مشاهير علماء الصحابة]

ثم صار الحافظ ابن سعد يذكر بقية مشاهير العلماء والقراء من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فذكر:

زيد بن ثابت ، وذكر من علمه وفهمه وذكائه ومشاركته في فنون الفقه، من الفتوى في الأحكام، وتخصصه بعلم الفرائض، فقال، فيما روي عنه أنه قال: قال لي رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إنه يأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحدٌ، فهل تستطيع أن تُعلّم كتاب العبرانية، أوقال السريانية؟" فقلت: نعم؛ فتعلمتها في سبع عشرة ليلة.[الطبقات:358/2].

قلت: وهذه غاية الذكاء والنبل.

وروى ابن سعد عن أبيّ أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "أعلمهم بالفرائض زيد". وروى عن سليمان بن بشار قال: ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدا في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة. وروى أيضا عن نافع قال: استعمل عمر بن الخطاب زيد بن ثابت على القضاء، وفرض له رزقا.

قلت: ولم أكن وقفت على هذا النقل في كتابتي"الأبحاث السامية"، والعلم كله لله.

وروى أيضا عن عبد الرحمان بن القاسم عن أبيه، قال: كان عمر يستخلف زيد بن ثابت، وكان يفرّق الناس في البلدان، ويوجّهه في الأمور المهمة إلخ. وروى أيضا عن الزهري عن قبيصة قال: كان زيد بن ثابت مترنسا بالمدينة في القضاء والفتوى، والقراءة والفرائض، في عهد عمر وعثمان وعليّ، في مُقامه بالمدينة، وبعد ذلك خمس سنين، حتى ولي معاوية سنة أربعين، فكان كذلك أيضا، حتى توفي زيد سنة خمس وأربعين.[360/2].

هذا، ومن مكانته وجلالته وامتيازه بالعلوم؛ ما رواه ابن سعد أيضا عن ابن عباس أنه أخذ لزيد بن ثابت بالركاب، فقال: تنحَّ يا ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا. وقال ابن عباس لما مات زيد: هكذا يذهب العلم. وذكر ابن سعد في هذا الشأن آثارا أخرى، ومن ذلك قول أبي هريرة: اليوم مات حَبْر هذه الأمة، ولعلّ الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفا.[362/2].

ثم ذكر ابن سعد من هؤلاء الأعلام: أبا هريرة ، فقال فيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لي: "ابسُط ثوْبَكَ"، فبسطته، ثم حدثني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، النهار، ثم ضممتُ ثوبي إلى بطني، فما نسيتُ شيئا مما حدثني.

ثم روى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة من الحديث. ووالله لولا آيتان في كتاب الله، عز وجل، ما حدّثْتُ حديثا، ثم يقرأ: (إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى)، حتى يبلغ: (فأولَئِكَ أتُوبُ عَلَيْهِم وَأنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ)، ثم يقول على أثرهما: إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم

الصفق بالأسواق، وإن إخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وكان أبو هريرة يلزم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على شبع بطنه، فيسمع ما لا يسمعون، ويحفظ ما لا يحفظون. هـ[362/2].

ولما وقع له ما وقع مع ابن عمر في الحديث الذي شك فيه ابن عمر، وذهب به إلى عائشة، فصدّقت أبا هريرة في الحديث، فقال أبو هريرة: يا أبا عبد الرحمان والله ما كان يشغلني عن النبي، صلى الله عليه وسلم، غَرْسُ الوَدِيّ، ولا الصَّفقُ بالأسواق. فقال ابن عمر: أنت أعلمُنا يا أبا هريرة برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأحفظنا لحديثه.

كما رواه ابن سعد[الطبقات:363/2]، وهذا مختصر من أوله. وكفى بهذا شهادة على علمه ووعيه لحديث رسول الله، وهو الجامع للعلم والسنة.

ثم ذكر ابن سعد:

ابن عباس، وأطال في ذكر ترجمته، وبيان ما كان عليه من المعرفة والعلم والفقه، وما دعا له به النبي، صلى الله عليه وسلم، ومشاركته في العلوم كلها مما لم يذكر ذلك في سواه من أمثاله؛ من ذلك ما رواه أنه قال: دعاني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فمسح على ناصيتي وقال: "اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب". وروى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان في بيت ميمونة، فوضعت له وضوءًا بالليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله. وضع لك هذا عبد الله بن عباس. فقال: "اللهم فقههُ في الدين، وعلمه التأويل". وروى عن مجاهد، قال: كان ابن عباس يُسمى البحر من كثرة علمه. وروى عن عبد الله بن عتبة، قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وسَيْب ونائل، وما رأيت أحدا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير "القرآن"، ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقف رأيا فيما احتيج إليه منه. ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب. وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلا قط سأله إلا وجد عنده علما.هـ[الطبقات:365/2].

وروى ابن سعد أيضا عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، قال: سمعت أبي يقول: ما رأيت أحدا أحضر فهمًا، ولا ألبَّ لبًا، ولا أكثر علما، ولا أوسع حلما من ابن عباس. ولقد رأيت عمر

بن الخطاب يدعوه للمعضلات ثم يقول: عندك قد جاءتك معضلة؛ ثم لا يجاوز قوله، وإنَّ حوله لأهلَ بدر من المهاجرين والأنصار.هـ[369/2].

وأطال النقول في شأن هذا الحبر الجليل، وبحر العلوم الذي يستمد منه كل عالم نبيل. ومع العلم الرباني الموهوب، والفتح الذي كان مفتاحه دعوة ابن عمه سيدنا محمد المتلقي أسرار المعارف والعلوم من علام الغيوب؛ لم يلق عصا السعي والإقبال، على اقتناء المعارف بتكبد المشاق وكثرة السؤال. فقد روى ابن سعد عن عكرمة عن ابن عباس، قال:

لما قبض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإنهم اليوم كثير. قال فقال: واعجبا لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من فيهم؟ قال: فتركت ذلك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الحديث؛ فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه، وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح عليّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول لي: يا ابن عم رسول الله: ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليّ فآتيك؟. فأقول: لا. أنا أحق أن آتيك؛ فأسأله عن الحديث؛ فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني.هـ[367/2].

وهذا القدر كاف واف شاف، بالتنويه بأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وما كان لهم من العناية والجد والاجتهاد في جمع العلوم من الفقه وغيره، وبثه في الأمة. رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم ذكر ابن سعد من هذه الطبقة:

عبد الله بن عمر، وروى عن عمرو بن دينار أنه قال: كان ابن عمر يعدّ من فقهاء الأحداث. وروى عن أبي جعفر، قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا سمع من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حديثا أحذر أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا، ولا من عبد الله بن عمر بن الخطاب.هـ [373/2].

[صحيفة"الصادقة" في الحديث]

ثم ذكر: عبد الله بن عمرو، ثم روى عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو، قال: استأذنت النبي، صلى الله عليه وسلم، في كتاب ما سمعت منه. قال: فأذن لي فكتبته. فكان عبد الله يُسمي صحيفته تلك: (الصادقة).

وروى عن مجاهد قال: رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص، صحيفة فسألت عنها، فقال: هذه (الصادقة). فيها ما سمعت من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليس بيني وبينه فيها أحد. هـ[373/2].

قلت: وهذا الأثر يفيد أن التأليف في الحديث ابتدأ في عصر النبي، صلى الله عليه وسلم. وذلك أن هذا الصحابي الحافظ، الذي قال فيه أبو هريرة، وهو من أكبر الحفاظ للحديث، ما أحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أكثر حديثا منه، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب. هـ وهذا يؤيد ما قلناه.

وهو الذي رأى تلك الرؤيا التي عبرها له النبي، صلى الله عليه وسلم؛ إذ رأى فيما يرى النائم، قال: كأن في إحدى يدي عسلا. وفي الأخرى سمنا، وأنا ألعقهما، فذكرت ذلك للنبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: "تقرأ الكتابين". وكان يقرأهما. ذكر ذلك ابن حجر في "الإصابة"، من رواية أحمد والبغوي.

* * *

قلت: وقد ختم ابن سعد، رحمه الله، تراجم من سمى من أعلام الصحابة الذين امتازوا عن غيرهم بمعرفة الفقه والفتوى، وتقدمهم في الدراية والعلم، في المدينة المنورة، بقوله:

(باب). ثم روى عن محمد بن سيرين أنه قال: كان عمران بن الحصين يعد من ثقات أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الحديث. وروى عن خالد بن معدان، قال: لم يبق من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالشام أحد كان أوثق ولا أفقه ولا أرضى من عُبادة بن الصامت، وشدّاد بن أوس.

وروى عن أبي سعيد الخدري، قال:

كان أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا قعدوا يتحدثون، كان حديثهم الفقه، إلا أن يأمروا رجلا فيقرأ عليهم سورةً، أو يقرأ رجل سورة من القرآن.

وروى عن حنظلة بن أبي سفيان، عن أشياخه قالوا: لم يكن أحد من أحداث أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أفقه من أبي سعيد الخدريّ.

ثم جعل لبنة ختام هذه الدائرة، تلك الدرة اليتيمة، والذرة العالية العظيمة، تلك الحميراء، المنيرة الغراء، عمدة العلماء، وحاملة قوانين الشريعة البيضاء، أم المؤمنين، السيدة عائشة، اليتيمة العصماء؛ فقال فيها راويا عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب عن حَلحَلة، قال:

كانت عائشة أعلم الناس، يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمان، قال: ما رأيت أحدًا أعلم بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا أفقه في رأي إن احتيج إلى رأيه، ولا أعلم بآية فيما نزلت ولا فريضة، من عائشة.

وروى عن محمود بن لبيد، قال: كان أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، يحفظن من حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، كثيرا، ولا مثلاً لعائشة وأم سلمة. وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان، إلى أن ماتت، يرحمها الله. وكان الأكابر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم: عمر وعثمان بعده، يرسلان إليها فيسألانها عن السنن.

وروى عن عبد الرحمان بن القاسم عن أبيه، قال:

كانت عائشة قد استقلت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وهلمّ جرّاً، إلى أن ماتت؛ يرحمها الله. وكنت ملازما لها مع برها بي، وكنت أجالس البحر ابن عباس، وقد جلست مع أبي هريرة وابن عمر فأكثرتُ، فكان هناك، يعني ابن عمر، ورع وعلم جم، ووقوف عما لا علم له به هـ [الطبقات:374/2].

قلت: القاسم هذا الذي قال: إن عائشة، رضي الله عنها، كانت برة به؛ هو ابن أخيها محمد بن أبي بكر، هو أبو محمد المدني، أحد الفقهاء السبعة، وأحد الأعلام. روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم، وقال فيه مالك: القاسم من فقهاء الأمة. انظر(خلاصة التذهيب).

[مشكلة قلة رواية أكابر الصحابة للحديث، وكثرة روايته من الأحداث والأصاغر]

هذا، ولما أنهى الحافظ ابن سعد الكلام على ذكر أهل الفتوى من أعلام الأصحاب وفقهائهم، الذين كانوا يفتون في عصر النبي، صلى الله عليه وسلم، وعصر الخلفاء ومن بعدهم، أعقب ذلك بفائدة جليلة، ونكتة لطيفة، طالما أشكلت على كثر من أهل العلم والفقه، واضطروا للجواب عنها.

وقد كانت عرضت لنا هذه المشكلة أثناء إملائي لدرس "أحكام " الإمام الحافظ، الفقيه المالكي المجد المجتهد، أبي بكر ابن العربي، عند كلامه على قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى)الآية، وأجاب عن ذلك الإشكال. وكنتُ إذ ذاك نقلت ما في هذا

الموضوع، وأوسعت المقال فيما علقته أيام الدراسة في ذلك الإملاء. ولم أكن وقفت على هذا الكلام الجامع، والبيان الواضح بضَوْءِ تحصيل تحقيقه الساطع.

والآن، لما جاد المولى بالحصول على "طبقات" هذا الإمام، التي هي كغرر الدرر، ومكنون الياقوت والجوهر، سُررت بذلك غاية السرور، وعددتها عندي من التجارة العلمية التي لا تبور، وينبغي أن يحصل عند أهل المحبة والاطلاع على نفائس الفوائد في الصدور. ولفظه، أي ابن سعد، عن شيخه محمد بن عمر، قلت: يعني الواقدي الشهير، الذي قال فيه الإمام الحربي: إنه أمين الناس على أهل الإسلام. قال صاحب "الخلاصة": كان عالما بالمغازي والسير، والفتوح واختلاف الناس. وقال مصعب الزبيري: ما رأيت مثله. وخالف البخاري وقال: إنه متروك. وقال أحمد: إنه كذاب. وقال ابن معين: ضعيف. انظر "الخلاصة" [ص293]. قلت: ولا زالت الأشراف تهجى وتمدح. وهذا نصه:

"إنما قلت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنهم هلكوا قبل أن يُحتاج إليهم. وإنما كثرت عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، لأنهما وليَا، فسُئلا وقضيا بين الناس. وكل أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانوا أئمة يُقتدى بهم، ويُحفظ عليهم ما كانوا يفعلون، ويُستفتون فيفتون، وسمعوا أحاديث فأدوها؛ فكان الأكابر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أقل حديثا عنه من غيرهم، مثل أبي بكر وعثمان، وطلحة والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان بن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد بن عمرُو بن نفيل، وأبي بن كعب، وسعد بن عبادة، وعبادة ابن الصامت، وأسَيْد بن الحضير، ومعاذ بن جبل، ونظرائهم؛ فلم يأت عنهم من كثرة الحديث مثلُ ما جاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ مثل جابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن العباس، ورافع بن خديج، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، ونظرائهم".

"وكل هؤلاء كان يُعدّ من فقهاء أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكانوا يلزمون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع غيرهم من نظرائهم".

"وأحدَثُ منهم مثل عقبة بن عامر الجُهني، وزيد بن خالد الجُهني، وعمران بن الحصين، والنعمان بن بشير، ومعاوية بن أبي سفيان، وسهل بن سعد الساعدي، وعبد الله

ابن يزيد الخطمي، ومسلمة بن مخلد الزَرَقيّ، وربيعة بن كعب الأسلمي، وهند وأسماء ابني حارثة الأسلميين، وكانا يخدمان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويلزمانه".

"فكان أكثر الرواية والعلم في هؤلاء ونظرائهم من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم بقوا، وطالت أعمارهم، واحتاج الناس إليهم، ومضى كثير من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبله وبعده بعلمه، لم يؤثر عنه شيء، ولم يُحتج إليه لكثرة أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم".[الطبقات: 376/2].

ثم قال في ذكر ما يناسب هذا الموضوع:

"شهد مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تبُوكا، وهي آخر غزاة غزاها من المسلمين ثلاثون ألف رجل، وذلك سوى من قد أسلم وأقام في بلاده وموضعه لم يغزُ، فكانوا عندنا أكثر ممن غزا معه تبوكا. فأحصينا منهم من أمكننا اسمه ونسبه، وعلم أمره في المغازي والسرايا وما ذكر من موقف وقفه، ومن استشهد منهم في حياة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعد، ومن وفد على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى بلاد قومه، ومن روي عنه الحديث ممن قد عرف نسبه وإسلامه، ومن لم يعرف منهم إلا بالحديث الذي رواه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قد تقدم موته قبل وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وله نسب وذكر ومشهدٌ، ومنهم من تأخر موته بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهم أكثر؛ فمنهم من حفظ عنه ما حدث به عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومنهم من أفتى برأيه، ومنهم من لم يحدث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شيئًا، ولعله أكثر له صحبة ومجالسة وسماعًا، من الذي حدّث عنه".

"ولكنا حملنا الأمر في ذلك منهم على التوقي في الحديث، أو على أنه يحتاج إليه لكثرة أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى للاشتغال بالعبادة والأسفار في الجهاد في سبيل الله، حتى مضوا ولم يحفظ عنهم عن النبي، صلى الله عليه وسلم، شيء. وقد أحاطت المعرفة بصحبتهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولقيهم إياه، وليس كلهم كان يلزم النبي، صلى الله عليه وسلم. منهم من أقام معه ولزمه وشهد معه المشاهد كلها، ومنهم من قدم عليه فرآه، ثم انصرفَ إلى بلاد قومه، ومنهم من كان يقدم عليه الفينة بعد الفينة من منزله بالحجاز وغيره."

"وقد كتبنا من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كلّ من انتهى إلينا اسمه في المغازي؛ من قدم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من العرب ومن روى عنه منهم الحديث، وبينا من ذلك ما أمكن، على ما بلغنا وروينا، وليس كل العلم وعيْنا". قال:

"ثم كان التابعون بعد أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم، فيهم فقهاء وعلماء، وعندهم رواية الحديث والآثار، والفقه والفتوى. ثم مضوا وخلف بعدهم طبقة أخرى، ثم طبقاتٌ بعدُ إلى زماننا هذا. وقد فصلنا ذلك وبيناه." هـ كله من"طبقات" ابن سعد، بروايته ولفظه.[377/2].

ثم ترجم ابن سعد لمن كان يفتي بالمدينة، بعد الصحابة، من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم، فراجع ذلك إن شئت.

***

هذا وإذ أشرفنا على عبور مشرع هذا الوادي الواسع مشرعه، العذب ماؤه ومنبعه، الذي تفرعت فروعه، واستطالت جداوله، وعذبت موارده، وطابت مناهله، حتى كادت أن تلقي الأقلام عصاها في هذا المقام، وأن تستمر فيه ولا تستعد للارتحال، حبًا في المقام، حيث أتممنا في المبحث المهمات في هذا الوادي؛ فإن الذي يليه يدعو الرحيل إليه وينادي.

وقد قال إمام التابعين، وأحد أفراد العلماء الفقهاء المحدثين، العالي المقام، الرفيع في الرواية والدراية الجناب، الحافظ الواعي الحديث عن الأصحاب، أبو بكر محمد بن شهاب: العلم واد، فإذا هبطت واديا فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه؛ فإنك لا تقطع حتى يقطع بك.

[التخصص في العلوم وأصله]

ثم لا يخفى أن منبع هذا المَشرَع، أول انفجاره من إتمام الكلام على حفاظ الحديث الممتازين بروايته وتدوينه، ومن نحا نحوهم من اختصاصهم بهذا الفن ونبوغهم فيه، وصرف أوقاتهم في التدوين والتحرير، والدفع عنه وحمايته من افتراء الوضاعين الضالين المضلين، وهم أهل التخصص الذين يُرجع إليهم في شأن هذا الفن ومتعلقاته؛ وهم طبقة المحدثين، وطبقة القراء، وطبقة المفسرين، وطبقة الفقهاء، وطبقة النحاة، وطبقة الأدباء، والأصوليين والمتكلمين، وغير ذلك من العلوم التي تنوعت فنونها، كما احتيج إلى تأسيس قواعدها. وقد ألفت في هذه الطبقات مؤلفات، كل مؤلف خاص بأهله، كما هو معلوم عند كل عالم بهذه الفنون، وهم في هذا العصر يجعلون في التعليم هذه المرحلة مرحلة التخصص.

قلت: ويمكن أن يجعل أصل ذلك، ما رواه أبو عبيد في كتاب"الأموال"، أن سيدنا عمر، رضي الله عنه، خطب الناس بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القراء، فليأت أبيّ بن كعب. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت زيد بن ثابت. ومن أراد أن يسأل عن الفقهيات، فليأت معاذ بن جبل.هـ.

قلت: وكل ما قاله سيدنا عمر في هؤلاء الثلاثة، مأخوذ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فقد قال في معاذ، حسبما رواه ابن سعد في"طبقاته"، عن أنس بن مالك، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:"أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل"، وقد تقدم ذلك. وفي أبي بن كعب قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حسبما رواه أيضا ابن سعد عن أنس: "أقرأ أمتي أبي بن كعب". وفي زيد بن ثابت قال، صلى الله عليه وسلم، كما رواه أيضا ابن سعد عن أنس: "أفرض أمتي زيد بن ثابت".

وبكل حال، فإن التصدي لتحصيل فن واحد، وجمع الهمة فيه، موجب للتوسع فيه والتقدم في مباحثه على غيره ممن يشارك في الفنون، ويخوض بحار كل العلوم؛ لأن الفكرة حينئذ تتفرق وتنقسم، فيأخذ كل فن منها قسما، بخلاف المتجه إلى فن واحد، فإن جوهرة الفكرة فيه غير منقسمة. قال ابن قتيبة: من أراد أن يكون عالما، فليطلب علما واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا، فليتفنّن في العلوم.هـ.

أما مطلق معرفة الحديث وممارسته والاطلاع على أصوله المؤلفة فيه من الكتب الصحاح، كالصحيحين وبقية السنن، وفهم ما فيها عند الاحتياج إلى حديث فيها؛ فما أظن أن فقيها من فقهاء الأمة الذين يعتد بكلامهم، من المذاهب المعتمدة، الذين قدمنا،[يعجز عن إدراك ذلك]، إذ كلهم أو جلهم علماء فقهاء، يشاركون في كل العلوم التي يحتاج إليها في فهم الكتاب والسنة.

ومن تكلم في مثل هؤلاء، فهو إما لجهله بهم وبمعارفهم، أو قصده بذلك من ينسب إلى الفقه من علماء السوء. وهؤلاء لا كلام فيهم، ولا يخلو من[مثل] هذه الطائفة فن من الفنون. وعلى هؤلاء ينطبق ما أفاض فيه القول حجة الإسلام من ذمه أهل الفقه [وأدى] به القول إلى التزهيد فيه. وحاشا حجة الإسلام أن يذم الفقه؛ ومؤلفاته في مذهب الشافعي لا زالت معتمدة فيه إلى عصرنا، مع ما سمعت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من اشتغالهم بالفقه، وعمارة أوقاتهم بمسائله، وتنويه النبي، صلى الله عليه وسلم، به، وقوله:"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". وقد قدمنا لك في هذا الموضوع ما فيه المقنع، وللقادح في

الفقه دون تقييد مدفع، ونشرنا لك من أسماء فقهاء المذهب المالكي من يُستسقى بهم الغيث، ويُضرع بعملهم الصالح إلى الله، وبمعارفهم من الشريعة المحمدية يُستشفع.

وسأتم هذا الموضوع بذكر فقهاء المذاهب الأخرى. وأما القدح في دخلاء أهل الفقه الخارجين عن قصد السبيل، والمنحرفين عن الصراط المستقيم، فمثل هؤلاء لا تخلو منهم طائفة من الطوائف، ولا يتخلص من سوء انحرافهم لا أهل الفقه ولا أهل الحديث ولا الصوفية ولا الزهاد الذين ما فيهم إلا الراكع والساجد الطائع لله في كل المواقف. ولقد تصدى لنشر مساوئ الكل الحافظ أبو الفرج في "تلبيسه"، وإن كان أكثر في ذلك المقال، وخرج عن الإنصاف في توسيع دائرة المجال؛ إذ سلك هنالك ما هو حق وما هو قابل للاحتمال أو الإبطال، والعلم كله للكبير المتعال.

***

[مواصلة الكلام على جهود علماء المذاهب في التأليف والتصنيف]

ولنصرف الآن العنان إلى ما كنا بصدده من الإيضاح والتبيان، لما قام به أئمة المذاهب المقلدة إلى هذا الزمان، بعد أن أتينا بما قام به الأعيان، من أصحاب مالك، رضي الله عنه، من تأليف المؤلفات الحسان، وتعددها ووفرة إمدادها، وشهرتها في الآفاق وامتدادها، مما يكاد يقول المنصف من أهل المذهب وغيره، إنه لم يؤلف في المذاهب الأخرى أمثالها.

[مذهب الإمام الشافعي، وانتشاره وجهود أعلامه في التأليف والتصنيف]

فأقول: ما بعد ذكر الشيخ إلا تلميذه وفرعه، ولا سيما الفرع اليانع، والغصن من تلك الشجرة الطيبة، المثمر بثمرة العلم النافع؛ وهو أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي، التلميذ البار الذي لم يزل يعترف لأستاذه وينتسب إلى جنابه، ويعرف الفضل لذويه؛ إذ كان يقول: مالك أستاذي، وعنه أخذت العلم، وما أحد أمنّ عليّ من مالك، وجعلت مالكا حجة بيني وبين الله تعالى، وإذا ذكر العلماء، فمالك النجم الثاقب.هـ.

ولقد انتشر مذهب الشافعي أيضا، وقلده أهل مصر والعراق وبلاد خراسان والشام وغير ذلك. وقام أيضا بالنشر والتأليف في مذهبه أكابر الأعلام، كل واحد منهم قدوة يُقتدى به وإمام. وقد أشار التاج في"طبقاته" إلى كثرة انتشار هذا المذهب في أقطار المشرق ونواحيه، فقال:

واعلم أن أصحابنا، تفرقوا بتفرق البلاد، فمنهم بالعراق كبغداد وما والاها، وهي محلة العلماء إذ ذاك، ولبغداد "تاريخ" الخطيب، وهو من أجل الكتب. وذيَّل عليه ابن السمعاني، وذيل على ابن السمعاني الحافظ الدبيثيّ. ثم جاء الحافظ ابن النجار، فذيل على الخطيب فأوعى. ومنهم النيسابوريون، وللحافظ الحاكم لنيسابور "تاريخ". قال التاج:

وهو تاريخ تخضع له جهابذة الحفاظ. قال: ومنهم الخراسانيون. ومنهم أهل الشام ومصر. ثم ذكر ما يفيد [ما كان] عليه هذا المذهب هنالك، ثم قال:

(قلت): وقبل ظهور مذهب الشافعي بالديار المصرية، لم يكن يلي الخطابة والقضاء إلا من هو على مذهب مالك، رضي الله عنه، فلم يكن للحنفي مدخل في هذه البلاد في وقت من الأوقات إلا القاضي بكار؛ فإنه ولي الديار المصرية مدة. وأما الحجاز، فلم تبرح أيضا منذ ظهور الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة إلخ. ومنهم أهل اليمن، والغالب عليهم الشافعية، لا يوجد غير شافعي، إلا أن يكون بعض زيدية.

قال التاج، رحمه الله تعالى هنا: وفي قوله، صلى الله عليه وسلم: "الإيمان يمان، والحكمة يمانية"، مع اقتصار أهل اليمن على مذهب الشافعي، دليل على أن الحق في هذا المذهب المطلبي؛ فما ظنك بقوله، صلى الله عليه وسلم: إذا اجتمعت جماعات في بعضها قريش؛ فالحق مع قريش، وهي مع الحق"، أخرجه [ابن] الفرات في مناقب الشافعي. والشافعية جماعة في بعضها قريش، وهو إمامهم المطلبي المشار إليه بقوله، صلى الله عليه وسلم: "قدموا قريشا ولا تقدموها"، وقوله، صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش"، وقوله، صلى الله عليه وسلم: "عالم قريش يملأ الأرض علما"، ودلائل أخر يطول ذكرها ولسنا الآن لها.} هـ[طبقات الشافعية:147/1 باختصار].

[إفراط التاج السبكي
في التعصب لمذهبه، وتعقب كلامه]

ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإفراط في التعصب المذهبي، الذي لا يقبله كل ذي اطلاع وافر عالم بأن كل مجتهد مصيب فيما أداه إليه اجتهاده في كل ما يختار ويجتبي، وأن مذهب هؤلاء الأئمة المجتهدين من اتصلت مذاهبهم إلى عصرنا، كمالك والشافعي وأبي حنيفة والإمام أحمد، أو من انقطع مذهبه منهم، كلها طرق موصلة إلى الشريعة؛ كيف، وقد جعلها

التاج نفسه كلها على حق، وأن أصحابها على هدى من ربهم، وأدرجها في "العقائد"؛ إذ قال، عاطفا على ما يجب اعتقاده:

"وإن الشافعي ومالكا وأبا حنيفة، والسفيانين وأحمد، والأوزاعي وإسحاق وداود، وسائر أئمة المسلمين، على هدى من ربهم." هـ [جمع الجوامع:314/3].

وعليه، فإذا كان الكل على هدى من ربه، وأن للمقلد أن يختار في تقليده من شاء منهم؛ لا يتعصب لأي مذهب من المذاهب الصحيحة؛ فالميل لتصويب هذا، أو التعريض بتخطئة هذا، مما لا يليق بأهل الإنصاف من العلماء.

ولهذا تعقب أئمتنا على التاج هذه المقالة؛ منهم من المتأخرين، العلامة المحقق سيدي أحمد بن مبارك اللمطي الفاسي، إذ قال ما لفظه: الذين قالوا إن المصيب واحد، اتفقوا أنه غير معين في مجتهد من المجتهدين. والسبكي، رضي الله عنه، أراد أن يخالف ذلك الإجماع بتعيين الحق في مذهب الشافعي. وكفاك دليلا على بطلانه، مخالفته للإجماع. وإنما غاية ما ذكره غيره من الشافعية، السعي في الترجيح؛ وقد أشار إلى ذلك إمام الحرمين في "البرهان"، ورد عليه الأبياري من المالكية في "شرحه" بإنصاف غاية الرد، وكذلك أبو يحيى في شرح "البرهان".هـ بنقل الشيخ الطالب ابن الحاج الفاسي في "أزهاره" [ص170].

<u>وأنا أقول</u>: إن هذه الكلمات من هذا العالم بالفروع والأصول، وما هو مقرر في هذا الموضوع من الأبواب والفصول؛ إنما هي نفثة مصدور، خرجت من صدر إمام مشهور، أذهله عن ما في تحقيق هذه المسألة ما عمّه من الفرح والسرور، من اشتهار مذهبه وتكاثر مقلديه في بسائط المعمور؛ فأراد أن يبين للجمهور، أن هذه الشهرة الكبيرة من الأدلة الواضحة على أن الحق في جانبه محصور، وذهب عنه أن الكثرة هنا لا تثبت مدعاه، ولا تضعف، فضلا عن أن تخطئ، ما سواه؛ إذ كثرة المقلدين للمذاهب تنقلب بحسب ما تقتضيه الأعصار، وتغير الأحوال، وتداول الدول.

فانظر إلى مذهب مالك، وظهوره أولا في الحجاز، وغلبته في ذلك القطر، كما غلب في البصرة ومصر، وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس والمغرب الأقصى، إلى بلاد من أسلم من السودان، إلى أوائل القرن السادس، حسبما ذكره القاضي عياض. وقد تغير بعد ذلك، إلى أن كاد ينحصر في المغرب والأندلس، وشيئا يسيرا في مصر، في مشاركته مع المذاهب الأربعة في القضاء والفتوى ومشيخة الأزهر، كما يعرف ذلك بالمراجعة في مظان هذا البحث.

أما مذهب أبي حنيفة، فإنه في هذه العصور، كاد أن يعم المعمور، لمكان الحكومة التي كانت تدين به، حتى وصل باحتلال الأتراك لقطر الجزائر، وجاورنا هذا المذهب.

وتفصيل القول في هذا يطول. والمراد هنا أن شهرة المذهب وانتشاره لا تدل على التصويب، إذ كل هذه المذاهب تطلع في سماء الشهرة تارة، وتارة تغيب، وفي بعض الأحوال تضمحل بالمرة، ولا يبقى لها أثر ظاهر، كما وقع الآن في مذهب أهل الظاهر.

[مسألة الترجيح بين المذاهب]

ولكن، لا بد لمن أراد أن يلتزم مذهبا معينا من هذه المذاهب الشائعة، أن يسعى جهده، حتى يتمكن من اعتقاده أن هذا المذهب الذي يريد تقليده، أنه أرجح من غيره. والترجيح بين المذاهب، يكون كما قاله أبو إسحاق الشاطبي: بذكر الفضائل أو الخواص والمزايا الظاهرة التي يشهد بها الكافة. وهذا لا حرج فيه، بل لا بد منه إذا كان ذلك من غير تنقيص لأحد، ولا حط منصب الآخر. والترجيح بالقدح في أصل المذهب، بالنسبة إلى أحد المتصفين به، ليس من شأن العلماء. وإنما الذي يليق به ذلك، من اتصف به وتعاطاه وليس من أهله. والأئمة المذكورون محاشون من ذلك.هـ بنقل الشيخ حلولو.[شرح جمع الجوامع:261/3].

وفي هذه المسألة، يقول التاج نفسه في"جمع الجوامع": وإنه يجب التزام مذهب معين يعتقده أرجح، أو متساويا، ثم ينبغي السعي في اعتقاده الترجيح.هـ[260/3].

[الحكم بترجيح مذهب الإمام مالك، وبيان أوجه هذا الترجيح]

وأما إذا ذهبنا إلى أن الأرجحية بذكر الأوصاف الجميلة، والفضائل الجليلة، والمناقب العديدة، التي لا توجد مجتمعة في عالم مجتهد؛ فإننا نحكم بتقديم مالك على سائر الأئمة المجتهدين. قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في أوائل كتاب "التمهيد"، بعد ذكره ما قاله الناس في مالك، وما شهد له به أكابر العلماء، ما لفظه:

"الأخبار في إمامة مالك، وحفظه وإتقانه وورعه وتثبته؛ أكثر من أن تحصى. وقد ألف الناس في فضائله كتبا كثيرة. وإنما ذكرت هاهنا فقرا من أخباره."هـ[75/1].

قلت: فقد ألف فيه من المتقدمين جماعة من أهل المذهب وغيرهم. منهم: ابن عبد البر نفسه في كتابه"الانتقاء، في فضائل الأئمة الفقهاء"، القاضي أبو عبد الله التستري(453)، أبو محمد الضراب (362)، أبو بكر الفريابي (301)، أبو بشر الدولابي (320)، أبو العرب

ابن تميم(303)، القاضي أبو الحسن ابن المنتاب الكرابيسي، أبو إسحاق محمد بن القاسم (355). ثم إن الأرقام التي على أسماء هؤلاء، هي إشارة للوفاة.

وهؤلاء من المتقدمين. أما المتأخرون، فقد ألف أيضا في مناقبه جماعة من الأئمة من المالكية وغيرهم؛ فقد ألف الحافظ السيوطي الشافعي، وهو من أهل القرن العاشر: "تزيين الممالك، بمناقب سيدنا الإمام مالك"، وألف في مناقبه أيضا العلامة السيد عيسى بن مسعود الزواوي، وغيرهما.

هذا، وقد أفاض القول الإمام القاضي عياض، إمام المالكية في الأندلس والمغرب، في كتابه"المدارك"،[في]الوجوه التي يترجح بها مذهب مالك، ونقل ذلك عنه العلامة ابن فرحون في"الديباج"، بعد أن نقل عنه ما صدر به ذلك، بمقدمة مفيدة للمستفيد، فيما يتعلق بالاجتهاد والتقليد، وذكر أن الترجيح يرجع إلى فصلين:

الأول: من جهة النقل.

والثاني: من جهة الاعتبار والنظر.

وصدر فصل النقل، بالحديث الشهير، الصحيح المروي عن الثقات. قال القاضي: منهم سفيان بن عيينة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم"، وفي رواية: "يلتمسون العلم، فلا يجدون عالما أعلم"، وفي رواية:"أفقه من عالم المدينة"، وفي رواية:"من عالم بالمدينة"

ثم صار القاضي يذكر ما في تلك الروايات عن أهل الحديث، واختلافهم في الوقف أو الرفع. ثم تردد سفيان، راوي الحديث، فيمن ينطبق عليه هذا الحديث. وأخيرا قال: ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك، وذلك أنه عاش حتى لم يبق له نظير بالمدينة. وهذا هو الصحيح عن سفيان.

ثم أطال في تحقيق هذا التطبيق، ثم قال: قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب، ما معناه: إنه لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول: المراد به إمامي. ونحن ندعي أنه صاحبنا، بشهادة السلف له، وبأنه إذا أطلق بين أهل العلم: قال عالم المدينة، وإمام دار الهجرة. فالمراد به مالك دون غيره من علمائها، كما إذا قيل: الكوفي، فالمراد به أبو حنيفة، دون سائر فقهاء الكوفة.

قال أبو الفضل، رضي الله عنه: فوجه احتجاجنا بهذا الحديث من ثلاثة أوجه:

الأول: تأويل السلف أن المراد به مالك.

الثاني: ما أوردنا وما نورده من شهادة السلف له وإجماعهم على تقديمه، ظهر أنه المراد بذلك، إذ لم تحصل تلك الأوصاف لغيره، ولا أطبقوا على هذه الشهرة لغيره.

الثالث: إن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من مشرق الأرض ومغربها إلى عالم، ورحلتهم إلى مالك.

فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلا   من غيـر أن يجـدوا آثار إحسان

هـ ببعض اختصار. [ثم قال]:

"الترجيح الثاني: إنه إذا اعتبر في هذا الفصل النقلي، والمعتمد فيه مجرد تقليد السلف وأئمة المسلمين، والاعتراف لمالك بأنه أعلم أهل وقته وإمامه، وتقليدهم إياه وإقتداؤهم به، على رسوخ كثير منهم في العلم، وترجيحهم مذهبه على مذهب غيره. وسنورد هنا لمعًا من ذلك تومئ إلى ما وراءها".

ثم أورد [القاضي عياض] ما قاله فيه ابن هرمز، وسفيان بن عيينة، والشافعي، وأطنب في ذكر فضائله. قلت: وهو أدرى بها، لأنه شيخه. ثم نقل ما قاله الإمام الأوزاعي من أن مالكا عالم أهل المدينة، وعالم العلماء، ومفتي الحرمين، وما قاله فيه أيضا بقية بن الوليد، وذكر أن الإمام أحمد قدمه على الأوزاعي والثوري، والليث وحماد والحكم، في العلم، وقال: هو إمام في الحديث والفقه. قال القاضي، بعد أن أطال في نقله ما قاله أئمة الحديث والفقه ومعرفة الرجال، ما لفظه:

"وقد اعترف له بالإمامة يحيى بن سعيد، شيخه، والأوزاعي والليث وابن المبارك، وجماعة من هذا النمط، ومَن بعدهم، كالبخاري وابن عبد الحكم وأبي زرعة الرازي، ومن لا يُعد كثرة. وقال عتيق بن يعقوب: ما اجتمع أحد بالمدينة بعد موت النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا على أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. ومات مالك وما نعلم أحدا من أهل المدينة إلا أجمع عليه".

الفصل الثاني: ترجيحه من جهة الاعتبار والنظر: منها جمعه لدرجات الاجتهاد في علوم الشريعة، من السنة ومسائل الاتفاق والاختلاف. وهذا لا يخالف فيه إلا متعصب، وأنه القدوة في السنن، وأول من ألف فأجاد، وأول من تكلم في الغريب، وله في تفسير القرآن؛ كلام كثير قد جمع. قال: وقد جمع أبو محمد مكي مصنفا فيما روي عنه من التفسير والكلام في معاني "القرآن" وأحكامه، مع تجويده له وضبطه حروفه ورواياته عن نافع. وقال ابن راشد: ما رأيت أسرع بيانا من كلام مالك، مع معرفته بالمعمول به من الحديث والمتروك، وسيرة

الرجال، وصحة حفظه، إلى ما يؤثر عنه من الأخذ في سائر العلوم، كرسالته إلى ابن وهب في الرد على أهل الأهواء، وكقوله: جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة، ويروى ست عشرة سنة، في علم لم أبثه لأحد من الناس، وتأليفه في الأوقات والنجوم، وإشارته إلى مأخذ العلم وأصوله التي اتخذها أهل الأصول من أصحابه معالم، وغيره ممن ذكرنا لم يجمع هذا الجمع.

قال:

"أما أبو حنيفة والشافعي، فمسلم لهما حسن الاعتبار، وتدقيق النظر والقياس، وجودة الفقه والإمامة فيه؛ لكن ليس لهما إمامة في الحديث، وضعَّفهما فيه أهل الصنعة، وهاذان أهل الحديث لم يخرِّجوا عنهما فيه حرفا، ولا لهما في أكثر مصنفاتهم ذكر، وإن كان الشافعي متبعا للحديث، ومفتشا على السنن، لكن بتقليد غيره. وقد كان يقول لابن مهدي وابن حنبل: أنتما أعلم بالحديث مني، فما صح عندكما منه، فعرفاني به. ولا سبيل إلى إنكار إمامتهما في الفقه. وللشافعي في تقرير الأصول، وترتيب الأدلة، ما لم يسبقه إليه من قبله، وكان الناس فيه عليه عيالا، مع التفنن في علم لسان العرب. وكل ميسر لما خلق له. كما أن أحمد وداود من العارفين بالحديث، ولا ينكر إمامة أحد منهما فيه. لكن لا يسلم لهما الإمامة في الفقه، ولا جودة النظر في مأخذه، مع أن داود نهج اتباع الظاهر، ونفى القياس، فخالف السلف والخلف، وما مضى عليه عمل الصحابة، رضي الله عنهم، فمن بعدهم، حتى قال بعض العلماء: إن مذهبه بدعة ظهرت. وليس بقصير من قصر منهم في فن، بالذي يسقط رتبته عن الآخر. ولكل واحد منهم من المناقب والفضائل ما حشيت به الصحف، لكن نقص ركن عن الاجتهاد، يخل به على كل حال". هـ [من الديباج: ص15-16]، مع إسقاط جملة من هذا النقل عن ابن فرحون، لا تخل بالمقصود.

ثم إنك إذا تأملت هذا الترجيح اللطيف، الخالي عن كل فظاظة أو تعنيف، آتيا فيه هذا القاضي العدل، الإمام أبو الفضل، بالنقول الصحيحة الخالية عن كل علة أو تضعيف، ليست مشوبة بداء تعصب الجاهلية الذي يؤثر الباطل على الحق، ولو اتضح فيه التزوير والتحريف. بل نظر إلى المذاهب كلها بعين الإجلال والتشريف، وعرف بأئمتها كما يقتضيه مقام الكل في البسط والتعريف. فلله دره من إمام عرف الحق لذويه، وأعطى لكل مقام من الفضل ما يقتضيه، وذكر في حق إمام مذهبه، وهو الإمام مالك، من مناقبه وفضائله من جمع النقول عن السلف الصالح ومن بعدهم، ما يسلمه كل من سلك في الحق أوضح المسالك.

[مقالة العلامة الزواقي
في سبب عدم طبع "مدارك" عياض بالمشرق]

وهنا تذكرت مقالة كان يقولها شيخنا العلامة الزواقي، رحمه الله، عندما كانت تجري بين يديه المذاكرة في شأن عدم طبع كتاب "المدارك" في مصر، الذي نقلت عنه هذه الجملة في ترجيح مذهب مالك، بواسطة الإمام ابن فرحون، في "الديباج": إن طبع هذا الكتاب ونشره في البلاد المشرقية يُوجب، بالاطلاع على هذا الترجيح، الخضوع لديه من كل مذهب يخالفه. وهو كلام حق لمن أنصف، وبالانقياد للحق الواضح اتصف. والعلم كله للواحد الأحد.

***

[مواصلة بسط كلام القاضي عياض
في ترجيح مذهب مالك]

أما الاعتبار الثاني: الالتفات إلى مأخذ الجميع في فقههم، ونظرهم على الجملة في علمهم. ثم ذكر مآخذ الأحكام المفيدة في باب الاجتهاد، وذكر ترتيبها على ما يوجب العقل، ويشهد له الشرع: كتاب الله على ترتيب أدلته في الوضوح من تقديم نصوصه، ثم ظواهره، ثم مفهوماته، ثم كذلك السنة، ثم الإجماع عند عدم الكتاب ومتواتر السنة. ثم عند عدم هذه الأصول كلها، القياس عليها والاستنباط منها. ثم أفاض في إتمام ذلك على مقتضى ما هو مبين في الأصول. ثم قال:

"وأنت إذا نظرت لأول وهلة، منازع هؤلاء الأئمة، ومآخذهم في الفقه، واجتهادهم في الشرع؛ وجدت مالكا، رحمه الله، ناهجا في هذه الأصول مناهجها، مرتبا لها مراتبها ومداركها، مقدما كتاب الله، عز وجل، على الآثار، ثم مقدما لها على القياس والاعتبار، تاركا منها ما لم يتحمله الثقات العارفون مما يحملونه، أو ما يحملونه، أو ما وجد الجمهور والجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه. ثم كان وقوفه في المشكلات، وتحريه عن الكلام في المُعوصات، ما سلك به سبيل السلف الصالح. وكان يرجح الاتباع، ويكره الابتداع والخروج عن سنن الماضين" هـ.[الديباج لابن فرحون:16].

ولهذا الترجيح أشار العلامة حلولو في "جمع الجوامع"، عند قوله ما سبق ذكره، وأنه يجب اتباع مذهب معين يعتقده أرجح إلخ، ما لفظه: ثم نحن نعتقد أن مذهب مالك أسدّ المذاهب، وأولاها بالاتباع. وقد ذكر القاضي من ذلك في "المدارك" ما لا سبيل إلى دفعه، لوضوحه وثبوته.هـ[261/3].

أما كتاب "المدارك"، فقد وقع الشروع في طبعه بالمغرب الأقصى بأمر من صاحب الجلالة، أمير المؤمنين، مولانا الحسن الثاني. فجزاه الله خيرا عن اعتنائه بهذه الذخيرة البهية بين الدفاتر، التي كانت درة مكنونة في أصداف القماطر. وإلى الآن ما توصلت بسفر منها، إذ قد صدر منها بعض أجزاء.

والله يوفق ساداتنا وكبراءنا وأمراءنا لبث العلوم ونشرها، وتعميم النفع بما احتوت عليه من أسرار المعارف التي جمعها أكابر العلماء في قطرها.

***

[رؤيا المؤلف للولي الشيخ عبد السلام ابن ريسون]

هذا، وهنا رأيت ليلة البارحة، وهو يوم الأربعاء، ثامن شوال الأبرك، من عام[1389]، أني مع الولي الشهير، سيدي عبد السلام ابن ريسون، وكأني جالس معه في مائدة معدة للأكل. لكن لم أضبط بعد اليقظة إلا أننا فرغنا من الأكل، والوجيه الشهير، أحد أصحاب الشيخ المذكور، وأكبر خاصته، وهو السيد الحاج عبد الكريم بريشة، يكنس ما سقط تحت المائدة بمكنسة لطيفة عصرية. وأنا أرجو الله النفع به وبأوليائه المتقين، الذين قال الله فيهم:(أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ؛ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)، وقد كنتُ رأيت هذا الولي قبل هذا، رؤيا أوضح من هذه. وقد أثبتها في المجلد الأول وما أخذت منها من الفوائد في ترجمة هذا الشيخ.

***

[الرجوع إلى ذكر أكابر علماء المذاهب الذين اشتغلوا بالفقه والاستنباط]

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي من هذه المناقب، وهو بيان وجه اشتغال عامة أكابر علماء المذاهب بالفقه، ووضع المؤلفات فيه، وتتبع فروعه، وتوضيح التحريات التي استخرجوها واستنبطوها من قواعد مذاهبهم.

وكنا ابتدأنا بمذهب مالك، وذكرنا من ذلك ما فيه الكفاية وبسط الدراية، لمن له بالاطلاع والاستفادة غبطة وعناية. والمقصد من ذلك البيان الواضح، بمكانة الفقه وإشراق نوره لدى الأوائل والأواخر لامعٌ لائح:

[الإمام الشافعي، وانتشار مذهبه، وذكر بعض مشاهير أعلامه]

و[هو] ممّن اشتهر من هؤلاء الأربعة في الشرق مذهبه، وانتشرت فيه موضوعاته ومؤلفاته، وأخِذ بأقواله، وانتهت إليه مشاهير العلماء وأقطابه، وأقبلوا على الجمع فيه والتأليف، ما امتلأت به بطون الدفاتر، وضاقت عن حمله صدور القماطر، وانتشر ذكرهم في الأقطار، وأخذت عنهم الفقه طلبة الأمصار؛ فمن تلاميذ هذا الإمام الكبير، الذي كان لمذهبه أوعى جامع وأكبر ناصر:

الإمام أبو إبراهيم المزني، وفيه قال الإمام الشافعي: المزني ناصر مذهبي. وقد ألف في مذهبه كتبا كثيرة؛ منها: "الجامع الكبير"، و"الجامع الصغير"، و"المختصر"، و"المنثور"، و"المسائل المعتبرة"، وغير ذلك. قال في"الطبقات"، عن عمر بن عثمان المكي: ما رأيت أحدا من المتعبدين في كثرة من لقيت أشد اجتهادا من المزني، ولا أدوم على العبادة منه، وما رأيت أحدا أشد تعظيما للعلم وأهله منه. وذكر التاج في "طبقاته" أن بكار بن قتيبة، لما قدم مصر على قاضيها، وهو حنفي، فاجتمع بالمزني مرة، فسأله رجل من أصحاب بكار، فقال: قد جاء في الأحاديث تحريم النبيذ وتحليله، فلم قدمتم التحريم على التحليل؟ فقال المزني: لم يذهب أحد إلى تحريم النبيذ في الجاهلية، ثم تحليله لنا. ووقع الاتفاق على أنه كان حلالا فحرم، هذا يعضد أحاديث التحريم. فاستحسن بكار ذلك منه. هـ [الطبقات: 238/1].

ومن مشاهير المذهب الشافعي:

الربيع بن سليمان المرادي، وهو صاحب الإمام الشافعي وراوية كتبه، والثقة الثبت فيما يرويه، حتى لو تعارض هو وإبراهيم المزني في روايته لقدم الأصحاب روايته، مع علو قدر أبي إبراهيم علما ودينا وجلالة، وموافقة ما رواه للقواعد.هـ[الطبقات:259/1].

ثم ذكر[التاج]مسألة روى فيها المزني خلاف ما رواه الربيع. وتعرض لتحرير المسألة، ولا غرض لنا في ذلك. ومن أكابر أصحاب الشافعي:

أبو يعقوب البويطي المصري. وصفه التاج بقوله: وهو أكبر أصحاب الشافعي المصريين. كان إماما جليلا عابدا زاهدا، فقيها عظيما مناظرا، جبَلا من جبال العلم والدين، غالب أوقاته الذكر، والتشاغل بالعلم، غالب ليله التهجد والتلاوة. وقال التاج: وله "المختصر" المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي، رضي الله عنه. قال أبو عاصم: هو

في غاية الحسن، على نظم أبواب "المبسوط". قال التاج: (قلت): وقفت عليه، وهو مشهور.هـ [275/1].

وبالجملة؛ فالبويطي إمام من أئمة الشافعية المعتمد عليهم. قال التاج: قال أبو عاصم: كان الشافعي يعتمد البويطي في الفتيا، ويحيل عليه إذا جاءته مسألة.

ومن مشاهير هذا المذهب:

أبو الحسن الزعفراني، أحد أصحاب الشافعي الذين أخذوا عنه ورووا كتبه. ومن مشاهيرهم أيضا:

أبو علي الكرابيسي، كان إماما جليلا، جامعا بين الفقه والحديث. كان أولا على مذهب أهل الرأي، ثم تفقه للشافعي، وأجازه كتب الزعفراني. ومنهم:

الإمام حَرمَلة، وهو إمام جليل، رفيع القدر. روى عن الشافعي، وعن الحافظ الشهير، عبد الله ابن وهب المالكي، حديثا كثيرا. ألف "المبسوط"، و"المختصر". [250/1].

وهؤلاء كلهم في الطبقة الأولى التي عاصرت الإمام الشافعي، وأخذت عنه.

ومن الطبقة الثانية والثالثة جماعة كبيرة، فيها جماعة ممن يعد[من]أئمة الحديث، وفيهم من لهم مذاهب مستقلة، أو مستقلون بالاجتهاد في أنفسهم.

وذكرهُم التاج في طبقات الشافعية، أو أئمة صوفية، فذكر في هذه الطبقة: الإمام البخاري، والحكيم الترمذي، والإمام الجنيد، والحارث المحاسبي، وداود الظاهري، والدارمي، والنسائي، وابن السني، وابن المنذر، وابن خزيمة، وابن جرير الطبري، وابن حبان، والخطابي، وابن أبي حاتم الرازي، وأبا داود صاحب "السنن"، وابن عدي صاحب"الكامل"، والإمام الأشعري إمام أهل السنة.

وذكر التاج ما وقع لأهل السنة بسبب تغلب أهل الاعتزال بالسطوة عليهم، و"رسالة" القشيري المسماة بـ"زجر المفتري، على أبي الحسن الأشعري"، وما كتبه بعد ذلك الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، وأبو عوانة، صاحب"المستدرك" على صحيح الإمام مسلم، وذكر الدارقطني، ولم يُذكر في فهرسة نسخة الطبع، وهو مذكور فيها في الجزء الثاني، صفحة 310. وبيْن هؤلاء جماعة كثيرة من فقهاء الشافعية، من أشهرهم:

الإمام الحربي، الشهير في العلم والأدب، والحديث والفقه، وفيه قال الخطيب مؤرخ بغداد: كان إماما في العلم، رأسا في الزهد، عارفا بالفقه، بصيرا بالأحكام، حافظا للحديث،

مميزا لعلله، قيما بالأدب، جماعا للغة. صنف "غريب الحديث"، وكتبا كثيرة هـ[تاريخ بغداد: 28/6].

ومن مشاهير أئمة الشافعية:

الإمام أبو سهل الصعلوكي. قال فيه التاج: شيخ عصره، وقدوة أهل زمانه، وإمام وقته، في الفقه والنحو والتفسير، واللغة والشعر والعروض، والكلام والتصوف وغير ذلك.

ومن أشهر مشاهير الشافعية:

الإمام القفال، وهو محمد بن علي بن إسماعيل القفال الكبير الشاشي. وصفه التاج بأوصاف جمة، صدرها بقوله: الإمام الجليل، أحد أئمة الدهر. وقال: كان إماما في التفسير، إماما في الحديث، إماما في الكلام، إماما في الأصول، إماما في الفروع، إماما في الزهد والورع، إماما في اللغة والشعر.

ثم ذكر ما قال فيه الأئمة من الشيم المرضية، والصفات العلمية، والأخلاق السنية؛ فقال عن أبي إسحاق الشيرازي: كان إماما. وله مصنفات كثيرة ليس لأحد مثلها. وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء. وله كتاب في أصول الفقه، وله شرح"الرسالة". وعنه انتشر فقه الشافعي بما وراء النهر.هـ[الطبقات: 176/2]. ثم أتم ترجمته بفوائد.

ثم لما فرغ التاج من ذكر الأئمة الذين ماتوا بين الثلاثمائة والأربعمائة، من الفقهاء الشافعية، أعقبه بذكر من مات بين الأربعمائة والخمسمائة، وهي الطبقة الرابعة عنده. وذكر في هذه الطبقة جماعة من أهل الحديث والكلام والتصوف، وأهل التفسير، وذوي الرئاسة؛ فذكر من ذوي الإمارة والخلافة:

القادر بالله العباسي، وليس في ذكره في هذه "الطبقات" خروج عن موضوعها؛ فإنه كما قال التاج فيها هو: أبو العباس، أمير المؤمنين، القادر بالله، وجده جعفر، هو المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد. قال: بويع بالخلافة عند القبض على الطائع في حادي عشر رمضان، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. قال: وقد تفقه على أبي بشر، أحمد بن محمد الهروي الشافعي. ونقل عن الخطيب أنه قال في حقه: كان من الديانة وإدامة التهجد وكثرة الصدقات على صفة اشتهرت عنه. وصنف كتابا في الأصول كان يقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي. واستمر في الخلافة إلى أن مات. مدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر.هـ[الطبقات:1/3].

ومن جملة ما ذكره في هذه الطبقة:

أبو نعيم الاصبهاني، صاحب"الحلية" الشهير، والحافظ البيهقي، وأبو عبيد الهروي، وابن فورك، وأبو عبد الرحمان السلمي، وأبو عبد الله الحاكم، والحافظ الدارمي، والأستاذ الإسفرايني، وأبو إسحاق الطوسي، والوزير نظام الملك، عميد أهل العلم وناصرهم وممدهم وباني مدارسهم، وأبو عبد الله الزجاج، وابن ما كولا، وجماعة كبيرة من الفقهاء يكثر عدّهم،[وذكرهم هنا]هو المقصود بهذا المبحث؛ لأنه لتعريف الجاهل، وتذكير العالم الغافل، بأن الفقه هو عمدة هذا الدين، ومرشد الراكعين الساجدين، وقانون المعاملات والمحاكمات الذي يستند إليه أهل المحافظة على أحكام شريعة سيد المرسلين، الذين يخافون ربهم يوم يرون الجحيم عين اليقين.

وقد قدمنا مرارًا أن الفقه هو روح الكتاب، وحديث سيد المرسلين. ثم إنه، وإن أطلنا الحديث في هذا الموضوع، وكدنا أن نخرج إلى حد الإملال، ويعرض السامع كلية عن هذا المسموع؛ فالفائدة حاصلة على كل حال، لأن في ذكر هؤلاء الأئمة الهداة الأعلام إيقاظا للهمم السامعة، ومواعظ لذوي الأفكار وأهل الاعتبار جامعة نافعة. والأعمال تابعة للمقاصد والنيات. وهو سبحانه العالم ما تعلن الصدور وما عندها من الخفيات.

قلت: وممن ذكره التاج من الشافعية في هذه الطبقة:

<u>أبو حيان التوحيدي</u> الشهير. وتضاربت الأقوال فيه ما بين ولاية وتكفير.

[ثناء الشيخ ابن الخياط على كتاب"الطبقات"، وتجريد فوائده]

وبما أننا نعتبر أن هذه"الطبقات السبكية"، هي كتاب تاريخ للفقهاء الشافعية؛ نعتبره[كذلك] كتاب علم جليل، ومرجعا مفيدًا لكل عالم نبيل، كما اعتبره شيخنا ابن الخياط، وتصدّى، رحمه الله، لتجريد تلك المسائل في كتاب خاص، بعد أن خاض لجج بحر تلك التراجم وغاص.

[كلام أهل العلم في أبي حيان التوحيدي، إيجابا وسلبا]

فإنه، أي التاج السبكي، ترجمه بقوله: علي بن محمد بن العباس، المعروف بأبي حيان التوحيدي، المتكلم الصوفي، صاحب المصنفات. ثم قال: كان إماما في النحو واللغة والتصوف، فقيها مؤرخا، صنف"البصائر" و"الإشارات"، وغيرهما. ثم ذكر شيوخه في الفقه وغيره، ثم نقل عن ابن النجار أنه قال فيه: كان فقيرا صابرا متدينا، قال: وكان صحيح

العقيدة. ثم قال: وقال شيخنا الذهبي: بل كان عدو الله خبيثا. ثم قال أيضا: كان سيئ الاعتقاد. ثم نقل الذهبي عن ابن فارس أنه قال: كان أبو حيان كذابا، قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان. تعرض لأمور جسام، من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل. ثم ذكر أن السلطنة وقفت على ما كان يخفيه من سوء اعتقاده؛ فطلبته ففر واستتر. ثم نقل عن أبي الفرج ابن الجوزي أنه قال في "تاريخه":

{ زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء. قال: وأشدهم على الإسلام أبو حيان، لأنه جمجم ولم يصرح}.هـ[الطبقات:4/2].

أما تاج الدين، فيظهر من كلامه أنه لم يقبل كلام الذهبي ولا غيره ممن أخرج التوحيدي عن العقيدة، قائلا: ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقيعة فيه. ووقفت على كثير من كلامه، فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس، مزدريا بأهل عصره؛ ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل. قال: وسئل الوالد، رحمه الله، عنه، فأجاب بقريب مما أقول، والله أعلم بالصواب، وهو ولي التوفيق.هـ[3/4].

وأما ما ذهب إليه التاج ووالده، [فـ]هُو الأسلم والأولى. وإسناد العلم في ذلك إلى العلي الأعلى، ولا سيما والكل قد قضى نحبه، وفارق هذه الحياة وأقبل على مولاه، الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. ثم إن تتبع هذه الفوائد الغرار، في هذا الكتاب الرفيع المقدار، في أبحاث مسلسلة ما لها من حد، ولا يجد القلم فيها من وقوف ولا قرار.

***

ثم ذكر التاج الطبقة السادسة من الفقهاء الشافعية، وهم من توفى بين الستمائة والسبعمائة.

قلت: وأضاف إليها التاج من مات أثناء المائة الثامنة، وذكر في ذلك من الشافعية أعلاما أجلة؛ منهم من تخصص بالفقه، ومنهم من تخصص بغيره من الفنون، كالتفسير والحديث، والكلام والأدب والشعر والتاريخ، مما يطول ذكرهم. ومن أشهر من ذكره في ذلك:

الحافظ محب الدين الطبري، وابن فرْح الإشبيلي، وشمس الدين ابن خلكان صاحب"الوفيات"، والكواشي صاحب التفسير، وجمال الدين ابن مالك النحوي، والفخر الرازي صاحب "التفسير"، والحافظ ابن النجار، وابن جماعة، وعبد الله الفهري شارح "المعالم" في أصول الدين، وشهاب الدين أبو شامة، الذي جرى ذكره سابقا في هذه

"الفهرسة"، وناصر الدين البيضاوي صاحب "التفسير"، والإمام الذي جمع الله به العلماء في واحد، وهو عز الدين بن عبد السلام.

[عز الدين ابن عبد السلام، ترجمته، مواقفه وجملة وافرة من فوائده]

وفيه قال التاج صدر ترجمته: "شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها. عالم لم ير مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله علما وورعا، وقياما في الحق، وشجاعة وقوة جنان، وسلاطة لسان". [الطبقات:80/5].

ثم ذكر مولده، وشيوخه في الفقه والحديث والأصول وغير ذلك. ثم ذكر ولايته الإمامة والخطابة بالجامع الأموي بدمشق، وإزالته البدع التي كان الخطباء قبله ابتدعوها في الخطب.

[مسألة إنكاره استعانة أمير الشام بالفرنج، وإعطائهم مدينة صيدا]

ثم وقع ما وقع له من إنكاره على أميرها الصالح إسماعيل، في استعانته بالفرنج، وإعطائهم في مقابلة ذلك مدينة صيدا وغيرها، وترك له الدعاء في الخطبة، وتبعه في ذلك الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي؛ فخرجا معا إلى الديار المصرية في حدود سنة639.

[ولايته الخطابة والقضاء والتدريس، وكلامه في أصل التصوف]

فتوجه الشيخ إلى القاهرة، فأكرمه سلطانها وهو إذ ذاك الملك أيوب بن الكامل، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص، والقضاء بمصر وبالوجه القبلي مدة.

ثم صار يعارض أهل الولاية في أمور، حتى أدى الحال إلى عزل نفسه من القضاء. ثم لم تتأثر الولاية بذلك، بل بعد ذلك بنى السلطان مدرسة الصالحية، وفوض تدريس الشافعية بها إلى الشيخ عز الدين، وتصدى لنفع الناس بعلومه.

ولما استقر الشيخ بمصر، وكان حافظها وزاهدها الشيخ عبد العظيم المنذري، فأقام له إكراما؛ ثم امتنع من الفتيا وقال: الآن بعد حضور عز الدين، فمنصب الفتيا متعين عليه.

ثم صار يعارض أهل الإمارة فيما يراه مخالفا للشريعة، ولا يخاف في ذلك لومة لائم، ولا يبالي بما يوقعه ذلك من مكرهم في العظائم.

ومن سيرته أنه كان مقلا في ماله، وهو مع ذلك كثير التصدق، فربما سأله فقير فلم يجد شيئا، قطع قطعة من عمامته وأعطاها إياه.

ومع ما كان عليه من الرئاسة الدينية، ومباشرته الوظائف الشرعية، وتمسكه بالديانة المتينة التابعة للكتاب العزيز، والسنة النبوية السنِيَّة؛ لم يكن منابذا لطريق أهل العرفان، ولا معرضا عما لا يناقض الشريعة في هذا الشأن؛ ولهذا ذكر تاج الدين أنه أخذ خرقة التصوف عن الشيخ شهاب الدين السهروردي وأخذ عنه. وذكر أنه كان يقرأ بين يديه"رسالة" القشيري، فحضر مرة الشيخ أبو العباس المرسي، لما قدم من الإسكندرية إلى القاهرة، فقال له الشيخ عز الدين: تكلم على هذا الفصل؛ فأخذ المرسي يتكلم، والشيخ عز الدين يزحف في الحلقة، ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه. قال التاج:

" وقد كانت للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك" . هـ[83/5].

<u>قلت:</u> وما قاله التاج في كون عز الدين كانت له اليد الطولى في التصوف، هو صحيح. بل يصح أن يقال في حقه إنه إمامه الذي أبان فيه الحقيقة. ووجب أن يجعل كلامه في هذا الشأن هو المرشد لمن يريد التصوف الشرعي الذي كان عليه السلف الصالح من اتباع مثلى الطريقة.

وبنقل كلامه في هذا الموضوع، وإن طال، فإن من وعاه، وأحكم فصوله واتبع فحواه، بعد ما قبل معناه؛ أوصله إلى المقامات، ونال القرب والإيصال، بحضرة المحبة من الكبير المتعال، التي هي للعارفين منتهى الآمال. وهذا لفظه من كتاب"قواعد الأحكام"، عند كلامه على ما يباح من المزاح:

"وعلى الجملة، فلا ينبغي لعاقل أن يخطر بقلبه، ولا يجري على جوارحه إلا ما يوجب صلاحا أو يدرأ فسادا، فإن سنح له غير ذلك، فليدرأ ما استطاع". قال:

"والطريق في إصلاح القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها، وتفسد بفسادها، تطهيرها من كل ما يباعد عن الله ويزلفه لديه من الأحوال والأقوال والأعمال، وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه والإصغاء إليه، والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات، وحال من الأحوال، على حسب الإمكان، من غير أداء إلى السآمة والملل. ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة.

وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب والأحوال، والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب؛ فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشريعة، ولا ينكر شيء منهما إلا كافر أو فاجر." [202/2].

ثم صار يبين حال هؤلاء المتصوفين الكاذبين المخادعين، الذين لا يخلو منهم زمان، أوقلما ينجو منهم؛ فقال: ما لفظه:

"وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شر من قطاع الطريق، لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله، ويسيئون الأدب على الأنبياء والرسل، وأتباع الأنبياء من العلماء الأتقياء، وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم، وعن سلوك طريقهم".

ثم قال مبينا للأصول التي بنى أهل التصوف عليها طريقهم:

"واعلم أن الأصول أنواع:

أحدها: الخوف، وهو ناشئ عن معرفة شدة الانتقام.

الثاني: الرجاء، وهو ناشئ عن معرفة سعة الرحمة والإنعام.

النوع الثالث: التوكل، وهو ناشئ عن معرفة تفرد الرب بالضر والنفع، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والإكثار والإقلال.

النوع الرابع: المحبة، ولها سببان: أحدهما معرفة إحسانه وإنعامه، وعنها تنشأ محبة الإنعام والإفضال، فإن القلوب مجلوبة على حب من أنعم إليها وأحسن إليها؛ فما الظن بمحبة من الإنعام كله منه، والإحسان كله صادر عنه. السبب الثاني: معرفة جماله، وعنها تنشأ محبة الجلال. وينبغي أن يكون كل واحد من المحبين أفضل من كل محبة، إذ لا إفضال كإفضاله، ولا جمال كجماله.

النوع الخامس: الحياء، وهو ناشئ عن معرفة نظره إلينا، واطلاعه علينا. فمن حضرته هذه المعرفة، استحيا من نظره إلينا واطلاعه علينا، فلم يأت إلا بما يقربه إليه، ويزلفه لديه، ولا يأتي بما يبعده منه، وينحيه عنه.

النوع السادس، والسابع: المهابة والإجلال، ومنشؤهما معرفة جلاله وكماله؛ فينبغي أن تكون مهابته وإجلاله أعظم من كل مهابة وإجلال، إذ لا إجلال كإجلاله، ولا كمال ككماله.

النوع الثامن: الفناء الناشئ عن الاستغراق ببعض هذه الأحوال. وحقيقة الفناء غفلة وغيبة وفراغ القلب عن الأكوان، إلا عن السبب المفني؛ فمن فقد معرفة من هذه المعارف، فقدَ فقدَ ما يُبتنى عليها من الأحوال، وما يناسب تلك الأحوال من الأقوال والأعمال. ومن دامت معارفه بهذه الصفات، دامت له الأحوال الناشئة عنها والمستفادة منها. وتتفاوت رتب القوم بتفاوت دوام المعارف والأحوال المبنية عليها؛ وكذلك تتفاوت رتبهم بشرف الأحوال الناشئة عن المعارف المذكورة. فمراتب الخائفين والراجين دون مراتب المحبين، لتعلق أسباب الخوف والرجاء بالمخوف من الشرور، والمرجوّ من الخيور، وتعلق المحبة بالإله. ثم المحبة الناشئة عن معرفة الجمال، أفضل من المحبة الناشئة عن معرفة الإنعام والافضال، لأن محبة الجمال نشأت عن جمال الإله، ومحبة الإنعام والافضال نشأتا عما صدر منه من إنعامه وإفضاله، والتعظيم والإجلال أفضل من الكل، لأنهما نشآ عن معرفة الجلال والجمال؛ فنشآ عن جلال الله وكماله وتعلقاته، فلهما شرف من وجهين اثنين".[قواعد الأحكام:203/2].

ثم قال: ومن أطلعه الله على أوصاف غير هذه الأوصاف، فنشأت عنها أحوال تناسبها غير هذه الأحوال، لا يمكنهم العبارة عنها، إذ لم توضع عبارة عليها ولا الإشارة إليها؛ فإن دلالة الإشارة دون دلالة العبارة، فإن للأكابر علوما خارجة عن العلم الضروري النظري، وهم فيها متفاوتون. ولحضور هذه المعارف المذكورة في القلوب رتب أعلاها:

أن تُبْده القلوب من غير سعي في استحضارها واكتسابها، فيصدر عنها الأحوال الناشئة لها، ثم تدوم بدوامها وتنقطع بانقطاعها؛ وهذا ثابت للنبيين والمرسلين في أغلب الأحوال، ولقليل من الأبدال.

الرتبة الثانية: أن يستحضرها العبد باستجلابها واستذكارها حتى تحضر وينشأ عنها أحوالها اللائقة بها، ويختلف الناس في ذلك: فمنهم من تستمر عليه هذه المعارف، فتستمر به الأحوال الناشئة عنها، وهذا دأب الأولياء. ومنهم من تنقطع عنهم هذه الأحوال على الفور من استحضارها، وهذا حال مثلنا وأمثالنا. ومنهم من يقع عليه انقطاعها بين هاتين الرتبتين، وهم يتفاوتون في سرعة الانقطاع وبطئه.

الرتبة الثالثة: من لا تحضره هذه المعارف والأحوال الناشئة عنها إلا بسبب خارج، وله رتب: أحدها من تحضره المعارف وأحوالها عند سماع القرآن: هؤلاء أفضل أهل السماع. الرتبة الثانية: من تحضره المعارف والأحوال عند سماع الوعظ والتذكير، وهؤلاء في الرتبة

الثانية. الرتبة الثالثة: من تحضره هذه المعارف والأحوال عند سماع الحُداء والنشيد، وهذا في الرتبة الثالثة، لارتياح النفوس والتذاذها بسماع المتزن من الأشعار والنشيد، وفي هذا نقص من جهة ما فيه من حظ النفس. الرتبة الرابعة: من تحضره هذه المعارف والأحوال المبنية عليها عند سماع المطربات المختلف في تحليلها، كسماع الدف والشبابات. فهذا إن اعتقد تحريم ذلك، فهو مسيء بسماعه، محسن بما يحصل له من المعارف والأحوال. وإن اعتقد إباحتها، تقليدا لمن قال بها من العلماء، فهو تارك للورع باستماعها، محسن بما حضره من المعارف والأحوال الناشئة عنها. الرتبة الخامسة: من تحضره هذه المعارف والأحوال عند سماع المطربات، المحرمة عند جمهور العلماء، كسماع الأوتار والمزامر؛ فهذا مرتكب لمحرم، ملتذ النفس بسبب محرم. فإن حضره معرفة، وحال تناسب تلك المعرفة، كان مازجا للخير بالشر، والنفع بالضر، مرتكبا لحسنات وسيئات، ولعل حسناته لا تفي بسيئاته. فإن انضم إلى ذلك نظر إلى مطرب لا يحل النظر إليه، فقد زادت شقوته ومعصيته". [قواعدالأحكام: 204/2].

ثم ذكر مراتب من تحضرهم الأحوال بسبب ما يسمعونه، فجعل أفضلهم الذي تحضره هذه المعارف وهذه الأحوال بسبب سماع "القرآن". ثم ذكر حكم سماع ما عدا القرآن، فقال:

"وعلى الجملة؛ فالسماع بالحُداء ونشيد الأشعار، بدعة لا بأس بسماع بعضها. وأما سماع المطربات المحرمات، فغلط من الجهلة المتشيعين المتشبهين، المجترنين على رب العالمين. ولو كان ذلك قربة، كما زعموه، لما أهمل الأنبياء أن يفعلوه، ويعرفوه لأتباعهم وأشياعهم. ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء، ولا من أكابر الأولياء، ولا أشار إليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء. وقد قال الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا)، ولو كان السماع بالملاهي المطربات من الدين، لبيَّنهُ رسول رب العالمين، وقد قال، عليه السلام: "والذي نفسي بيده، ما تركت شيئا يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار، إلا أمرتكم به، وما تركت شيئا يقربكم من النار، ويباعدكم عن الجنة، إلا نهيتكم عنه".[206/2].

ثم ذكر هذا العلامة الهمام، أن السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم. ثم أفاض في ذكر الأقسام التي تختلف فيها أحوال العارفين؛ فمنهم من يغلب عليه الخوف، ومنهم من يغلب عليه الرجاء، ومنهم من يغلب عليه الحب، ومنهم من غلب عليه التعظيم والإجلال. وبين في كل حال حالة العارف الذي قامت به هذه الصفة، مما يظهر عليه من

آثارها. وأطال في هذا الموضوع، مما يعرفك شأن هذا الإمام فيما كان له من تمام المعرفة والاطلاع على الحقائق التي ملأت قلوب أهل العرفان، وأنه في علم التصوف وأذواق أكابره مبرز في هذا الميدان.

ثم تعرض لما عليه بعض أهل الطريقة من مزجهم هذه الأحوال بالرقص والتصفيق فقال:

"وأما الرقص والتصفيق، فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذاب؛ وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال عليه السلام: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يُقتدى بهم يفعل شيئا من ذلك. وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله، عز وجل، ولقد مانوا فيما قالوا، وكذبوا فيما ادعوا"، إلخ [210/2].

ثم أطال الكلام في هذا الموضوع ـ وقد كنت نقلت جملة في هذا الموضوع في كتابنا "العقود الإبريزية، على طرر الصلاة المشيشية" ـ وقد ذيل ذلك بفوائد ونفائس من معارف أهل الله، مما لا يخالف شريعة القرآن، ولا ما أتى من البينات والهدى سيد ولد عدنان، في عدة صفحات. ثم ختم الموضوع بفصل عرف فيه ما يظهر من معارف الأولياء وأحوالهم، فقال:

"للأحوال آثار تظهر على الجوارح والأبدان؛ فإذا أردت معرفة مراتب الرجال، فانظر إلى ما يظهر عليهم من الآثار، ويغلب عليهم من الأقوال والأعمال. فمن غلب عليه آثار الخوف، كالبكاء والاقشعرار عند ذكر الوعيد، فهو من الخائفين. ومن غلب عليه السرور والاستبشار عند ذكر الوعيد، فهو من الراجين. ومن غلب عليه عند ذكرهما، فهو من الخائفين الراجين. ومن غلب عليه الهشاشة والبشاشة عند ذكر الجمال، فهو من المحبين. ومن غلب عليه الانقباض والذل عند ذكر العظمة والجلال، فهو من الهائبين المعظمين. ومن غلب عليه الانقطاع عن الأسباب، عند نزول النوازل وحلول المصائب، فهم من المتوكلين. ومن غلب عليه من هؤلاء أفضل المعارف والأحوال، فهو الأفضل". قال:

"وكان الأنبياء يتصفون بهذه الأحوال في مظانها، وعند تحقق أسبابها". قال: "وقد يغلب الحال على الضعيف من الأولياء، فيفقد لبه لعظمة ربه. وقد يضحك أحدهم طمعا في قرب ربه وإسعاده، ويبكي أحدهم خوفا من طرده وإبعاده. فكل من هؤلاء، إذا ذكر نفسه بهذه

الصفات في خلوة نشأ من تذكره بهذه الأحوال. فسبحان من أنعم عليهم، وأحسن إليهم، بما وصلوا إليه وقدموا عليه". هـ[217/2].

قلت: ومن هذا القسم، فيما يظهر والله أعلم، كان الولي الصالح سيدي محمد بن علي الريسوني، حسبما حكى عنه الشيخ المربي، مولاي العربي الدرقاوي، لما زاره بمنزله بقرية تازروت، من قبيلة بني عروس، حكى عنه هذه الحال، وقال وجده تارة يضحك وتارة يبكي، وتارة يجلس وتارة يقوم ويرقص، وتارة يغيب وتارة يحضر. والفضل بيده تعالى يؤتيه لعباده من يشاء.

وقد ذيل الشيخ عز الدين هذا الفصل بقوله في أحوال الناس:

"معظم الناس خاسرون، وأقلهم رابحون: فمن أراد أن ينظر في خسره وربحه، فليعرض نفسه على الكتاب والسنة. فمن وافقهما، فهو الرابح، إن صدق ظنه في موافقتهما. وإن كذب ظنه، فيا حسرة عليه. وقد أخبر الله بخسران الخاسرين، وربح الرابحين، وأقسم بـ (العَصْرِ إنَّ الإنسَانَ لفي خُسْرٍ)، إلا من اجتمع فيه أربعة أوصاف: أحدها: الإيمان. والثاني: العمل الصالح. والثالث: التواصي بالحق. والرابع: التواصي بالصبر. وقد روي أن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفترقوا حتى يقرأوها". [قواعد الأحكام : 218/2].

ثم ذكر الشيخ تفسيرها، فانظره. وبين أن اجتماع تلك الخصال كاملة في الإنسان عزيز نادر في هذا الزمان. ثم بين وجه عزة اجتماعها. وأخيرا قال:

"والشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتيقن الربح من الخسران. فمن رجح في ميزان الشرع، كان من أولياء الله؛ وتختلف مراتب الرجحان. ومن نقص في ميزان الشرع، فأولئك أهل الخسران، وتتفاوت خفتهم في الميزان، وأخسها مراتب الكفار. ولا تزال المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى منزلة مرتكب أصغر الصغائر؛ فإذا رأيت إنسانا يطير في الهواء، ويمشي على الماء، ويخبر بالمغيبات، ويخالف الشرع بارتكاب المحرمات، بغير سبب محلل، أو يترك الواجبات بغير سبب مجوز؛ فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة. وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وصفها الله للضلال؛ فإن الدجال يحيي ويميت، فتنة لأهل الضلال. وكذلك يأتي الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل. وكذلك يظهر للناس أن معه جنة ونارا، فناره جنة، وجنته نار. وكذلك من يأكل الحيات، ويدخل النيران، فإنه مرتكب للحرام بأكل الحيات، وفاتن للناس بدخول النيران ليقتدوا به في ضلالته، ويتابعوه على جهالته". هـ[219/2].

قلت: وبهذه الكلمات الصحيحة، الموافقة لنصوص الشريعة الصريحة، يتبين لك ما افتتن به الناس في هذا الزمان، المحتف بفنون الفتن في كل مكان، ووصول هذه الدول النصرانية بتتبعهم للخواص الأرضية، والمواد العجيبة السحرية، أن طاروا بإيجاد آلات صناعية في جو السماء، وادّعوا أنهم وصلوا لجرم القمر.[إلخ ما سبقت الإشارة إليه في مقدمة هذا المجلد].

***

ثم أقول فيما سطرناه، وعن عز الدين في طريق التصوف الحقيقي نقلناه، ودعانا إلى ذلك كلام تاج الدين السبكي الذي بهذه النقول أيدناه وبيناه. ومن أمعن فيه النظر من ذوي العرفان، ألفاه كلاما صادرا عن ذوق في الفن وإتقان؛ فمن قرأه وتأمله، رأى نفسه كأنه طالع"رسالة" القشيري، ومارس "العوارف" للسهروردي، واقتطف فنونا من أفنان دوحة "إحياء العلوم" للغزالي.

وما أحسن العلم والتصوف إذا اجتمعا، وما أحلى كلام من أحرز هذا المقام من أهل العلم وأوقعه في النفوس لمن سمعه فوعى.

[رسالته في أصول الدين]

ثم إن لهذا الإمام الذي لم يكن في عصره ثان، مقالات مفيدة، ومقامات في الفوائد العلمية، مقامات حسان؛ فلقد كتب في أصول الدين رسالة فائقة. قال السبكي: إنه ذكرها في "طبقاته"، لتستفاد وتحفظ.

قلت: وهي حرية بذلك، لما احتوت عليه من القواعد الدينية الواضحة المسالك. من جملة ما في هذه العقيدة تأييدا لعقد الإمام الأشعري، أنه قال:

"واعتقاد الأشعري، رحمه الله، مشتمل على ما دلت عليه أسماء الله التسعة والتسعون، التي سمى بها نفسه في كتابه وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وأسماؤه مندرجة في أربع كلمات، هي (الباقياتُ الصالحات). ثم صار يذكر تلك الكلمات ويفسرها. فراجع شرحها في ترجمته من"الطبقات"[86/5].

وهي رسالة لطيفة، فيها فوائد جمة، وتحريرات في الفقه مهمة؛ ومن جملة ما فيها: بأن على العلماء الدفاع والنضال في الحق على قدر المستطاع، إذ قال:

"ولولا ما وجب على العلماء من إعزاز الدين، وإخمال المبتدعين، وما طولت به الحشوية ألسنتهم في هذا الزمان من الطعن في أعراض الموحدين، والإزراء على كلام المنزهين، لما أطلت النفس في مثل هذا مع إيضاحه؛ ولكن قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه، إلا أن سلاح العالم علمُه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه؛ فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين. فمن ناضل عن الله، وأظهر دين الله، كان جديرا أن يحرسه الله بعينه التي لا تنام، ويعزه بعزه الذي لا يضام".[قواعد الأحكام: 90/5].

ثم قال مصرحا عما قام به في هذه الفتوى وهذه الرسالة، من الانتصار لعقيدة الإمام الأشعري:

"وعلى طريقة المنزهين والموحدين، درج الخلف والسلف، رضي الله عنهم أجمعين. والعجب أنهم يذمون الأشعري بقوله: إن الخبز لا يشبع، والماء لا يروي، والنار لا تحرق. وهذا كلام أنزل الله معناه في كتابه؛ فإن الشبع والري والإحراق، حوادث انفرد الرب بخلقها، فلم يخلق الخبز الشبع، ولم يخلق الماء الري، ولم تخلق النار الإحراق، وإن كانت أسبابا في ذلك، فالخالق هو المسبب دون السبب، كما قال تعالى: (ومَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى)، نفى أن يكون رسوله خالقا للرمي، وإن كان سببا فيه، وقال تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)؛ فاقتطع الإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء، عن أسبابها وأضافها إليه. فكذلك اقتطع الأشعري، رحمه الله، الشبع والري والإحراق عن أسبابها، وأضافها إلى خالقها، لقوله تعالى: (خَالِقُ كُل شَيْءٍ)، وقوله: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ)،(بَلْ كذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطوا بعلمِهِ وَلَمَّا يأتِيهِمْ تأويلُهُ)،(أَكَذَّبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلمًا،أمَّا ذَا كُنتُم تعْمَلُونَ)".

ثم قال:

"وعلى الجملة؛ ينبغي لكل عالم إذا أذل الحق، وأهمل الصواب، أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما، وإن عز الحق فظهر الصواب، أن يستظل بظلهما، وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما":

قليل منك ينفعني ولكن   قليلك لا يقال له قليل

هـ [90/5].

ثم ذكر مسألة المخاطرة بالنفس في تغيير المنكر، وهي مسألة فيها خلاف، فقال: "والمخاطرة بالنفس مشروعة في إعزاز الدين. ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر

في صفوف المشركين. وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين، مشروعة. فمن خشي على نفسه، سقط عنه الوجوب، وبقي الاستحباب. ومن قال إن التغرير بالنفس لا يجوز، فقد بعد عن الحق ونأى عن الصواب. وعلى الجملة، فمن آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه، الناس. ومن طلب رضى الناس بما يسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، وفي رضى الله كفاية عن رضى كل أحد".

(فليتك تحلو والحياة مريـــــرة وليتك ترضى والأنام غضـــاب)

غيره:

(في كل شيء إذا ضيعته عوض وليس في الله إن ضيعته عوض)

"وقد قال، عليه الصلاة والسلام: {احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك}. وجاء في حديث: {اذكروا الله في بأنفسكم، فإن الله ينزل العبد من نفسه}. حتى قال بعض الأكابر: من أراد أن ينظر منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده".هـ[قواعدالأحكام:91/5].

قلت: واعلم أن ما قرر الشيخ عز الدين، من أن من قام قيام مخلص في دين الله، ودافع عنه، وجادل فيه بالتي هي أحسن، ولم يبال المخالف أيا كان، لا يخشى في جانب الحق لومة لا ئم، سواء كان ممن يدعي العلم، أو كان من أهل السطوة والإمارة، وهو في معارضته خارج عن الطريق المستقيم، وفي بحر الجهالة والتعصب عائم؛ فإن الله تعالى، لحسن نيته وصفاء حبه في الحق، وسعيه في نصرته، يُؤيده، وإن افتخر خصمه، واحتمى بمن يحميه بعدته وعزته. وعزة الله تعالى فوق كل عزة، ونصرته وتأييده وقوته أشد من كل قوة. ومن استعان بالله أعانه، ومن حفظ الله في حدوده، حفظه الله في كل شؤونه، وأيده بروح منه(إن تنصُرُوا الله ينْصُرْكُمْ وَيُثَبِّت أقدَامَكُم). وكل ذلك قد شاهده عز الدين عيانا، ورأى ما اعتقده في جانب السطوة الإلهية مما زاده إيمانا وإيقانا.

[ثبات الشيخ، ونصرته للسنة والعقيدة الأشعرية، وتصديه للفئة الضالة]

فإن هذه الفتوى التي أفتى بها، وأعلن فيها بتضليل هذه الطائفة من مبتدعة الحنابلة، القائلين بالحرف والصوت، الذين يلزم من قولهم التشبيه والتجسيم المحال في حقه تعالى. وكان الشيخ عز الدين في أول أمره عند الملك الأشرف، ملك مصر، له المكانة العظمى لما اتصل بما عليه الشيخ، رحمه الله، من العلم والدين، وأنه سيد عصره، وصار يلهج بذكره.

وكانت هذه الطائفة الضالة تكره الشيخ وتطعن فيه، وكان لهم بالملك الأشرف بعض اتصال أيام صغره، فوجدوا الفرصة للطعن في الشيخ لدى الملك؛ وقرروا له أن ما هُم عليه من الاعتقاد، وأنه اعتقاد السلف، ومنهم الإمام أحمد، وفضلاء أصحابه، حتى امتزجت هذه العقيدة بالملك، وانحرف عن الشيخ. وأدلوا إليه ببيان فساد عقيدة الإمام الأشعري، وذكروا له بعض اعتقاداته، التي أثرت في عقيدة الملك، وكتبوا في ذلك ما كتبوا، وأوصلوها إلى الشيخ ليكتب في الرد عليها، ويكون هذا الرد سببا لسقوط منزلة الشيخ عند السلطان. ولكن الشيخ، كما سمعت، ردّ الرد العنيف، ولم يخش من هذا الإرهاب والتخويف، وكتب هذه الرسالة كتابة صريحة في الحق بنصرة مذهب الأشعري، ولا أحجمه هذا الترهيب ولا هاله.

ثم آل أمر وشايتهم، وإفساد قلب الملك باتباع عقيدتهم، والمسارعة في انتقامه من خصمهم الرادّ لضلالتهم؛ فحصلوا في ذلك على مرادهم، فخرج أمر السلطان بإيقاف الشيخ عن الفتيا، ولزوم بيته، وعدم اجتماعه بالناس، وأبلغه الملك ذلك. فلما جاء الرسول بذلك، أظهر له ما به من الفرح والسرور بهذه الأوامر، التي القصد منها تأديبه بها، والانتقام منه بها. ولكن الشيخ لم يبال بذلك، بل قال: إن هذه الأوامر الثلاثة كلها من نعم الله الجزيلة عليّ، الموجبة للشكر: أما الفتيا، فإني كنت متبرما منها وأكرهها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، وكنت أعتقد أنها واجبة عليّ، والآن سقط عني الوجوب. وأما لزوم بيتي، فهو من سعادتي، وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى . وأعطى الرسول الذي أبلغه هذا الأمر، إذ عده بشارة. هذا ملخص كلامه، لا لفظه، بما أجاب به الرسول. ثم لما أخبر الرسول الملك بما قاله الشيخ، قال لمن حضر: قولوا لي ما أفعل به؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة! اتركوه، بيننا وبينه الله.

ولكن لم يلبث الشيخ على هذه الحالة، حتى صار يظهر أثر قوله تعالى: (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ)؛ إذ قام شيخ الحنفية، العلامة جمال الدين الخضيري، الذي كان يجمع بين العلم والعمل، وقصد الملك الأشرف، وكان الملك يجله، فقال: إيش بينك وبين ابن عبد السلام؟ وهذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا، كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده، ويفخر به على الملوك. فقال السلطان: عندي خطه باعتقاده في فتيا، وخطه أيضا في رقعة جواب، وأحضرهما السلطان، وقرأها الشيخ الخضيري، وقال للسلطان: هذا اعتقاد المسلمين، وشعار الصالحين، ويقين المؤمنين، وكل ما فيهما صحيح.

ومن خالف ما فيهما، وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت، فهو حمار. فقال السلطان، رحمه الله: نحن نستغفر الله لما جرى، ونستدرك الفارط في حقه. والله لأجعلنه أغنى العلماء. وأرسل إلى الشيخ واسترضاه، وطلب محاللته ومخاللته. [الطبقات:96/5].

ومنذ ذلك، وجاه عز الدين في ازدياد، وعزته وشهرة ذكره شائع في البلاد، وخصومه، الذين كانوا استطالوا على أهل السنة، واستعلوا عليهم، وتعرضوا لهم بالسب والضرب، قد أذهب الله سطوتهم، وجعل كيدهم في نحورهم. وجعل الله كلمة الشيخ عز الدين هي العليا، وكلمة الفئة الضالة القائلة بالتجسيم هي الباطلة السفلى. فجاء الحق بهذا الإمام، وزهق الباطل، وسقط ما كان يستطيل به أولئك اللئام، على أهل السنة الكرام،(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وهذه الجملة إنما اقتطعناها من كلام ولد الشيخ تقي الدين الذي أطال فيه، وشرح القضية شرحا وافيا بالمرام. فمن شاء أن يستوعبها، فعليه بمراجعة ترجمة الشيخ في"الطبقات".

ثم إنه بقي علينا، وهو من المهمات، أن نذكر هنا ما وقع للشيخ في صلاة التسبيح التي كان ينكرها الشيخ، وما كان عليه ابن الصلاح أولا، ثم رجع إلى الجواز. وقد أخرنا هذا المبحث إلى أن يأتي ذلك في موضعه من ترجمة شيخنا الكتاني هذه، التي نحن فيها.

[مواصلة ذكر مشاهير علماء المذهب الشافعي - تلخيص محنة ابن تيمية]

قلت: ثم أفاض التاج في ذكر أئمة الشافعية في هذه الطبقة، وهي الرابعة، وجاء بأئمة ممن ذكرناهم في حفاظ الحديث، وهم من أئمة الشافعية. وتتبع بعض ذلك يخرج عن المقصد، وفي الخروج السابق كفاية. وذلك كما قدمنا أن العلم فنون، ومهما شرعت في فن، إلا وتفرعت فيه فروع وأغصان، (صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ). وتتبع ذلك يفني الأعمار، ويطيل الأعصار، والعلم لا يحده حد ولا يعده انحصار.

ومن المشاهير في هذه الطبقة: الإمام النووي، وتاج الدين بن عطاء الله، الإمام الفقيه الصوفي، والحافظ الذهبي، وقاضي القضاة ابن جماعة، وصفي الدين الهندي.

والهندي هذا، هو الإمام المتكلم والأعلم بمذهب الأشعري، وهو الذي تصدى إلى الرد على ابن تيمية في المسألة الحموية، إذ عقد مجلس في هذا الشأن بدار السعادة بين يدي

الأمير؛ تكاثر بجمع من العلماء، وطلبوا حضور صفي الدين المذكور. وكان هذا الإمام طويل النفس في التقرير؛ إذا شرع في وجه، لا يدع شبهة ولا اعتراضا؛ وأخذ ابن تيمية يعجل عليه، على عادته، ويخرج من شيء إلى شيء، فقال له الهندي: ما أراك يا ابن تيمية إلا كالعصفور، حيث أردت أن أقبضه في مكان، يفر إلى مكان آخر. وكان الأمير يعظم الهندي ويعتقده، وكان الهندي شيخ الحاضرين كلهم، وكلهم صدر عن رأيه.

وحُبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة، وهي التي تضمنت القول بالجهة، ونودي عليه في البلد وعلى أصحابه، وعزلوا من وظائفهم. هذا ملخص ما قاله السبكي.[240/5].

وفي هذه الطبقة ذكَر من الصوفية: السهروردي، صاحب"العوارف"، وجلال الدين القزويني، صاحب كتاب"التلخيص" في المعاني والبيان، ومنهم الشيخ شهاب الدين الكلاني، مؤلف "رسالة" في الرد على ابن تيمية في قوله بالجهة، وغيرهم من الفقهاء المشاركين في الفتوى. ومن هذه الطبقة المذكورين في المجلد السادس من"الطبقات"، وهو خاتمة المجلدات: العلامة ابن دقيق العيد، وقد تقدم ذكره في حفاظ الحديث، وأبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري، وقد ذكر في الحفاظ، وابن نباتة الشاعر، وأبو حيان النحوي، وصلاح الدين الصفدي، والحافظ العلائي، وتقدم، وابن الفركاح، والملك أبو الفدا، صاحب"التاريخ"، وعضد الدين الإيجي، الشهير بالعضُد، صاحب المؤلفات في المعقولات، وعلاء الدين الباجي، وتقي الدين السبكي، والد تاج الدين صاحب"الطبقات"، وقد سبق لنا ذكره، وذكر المزي والبرزالي في ذكر حفاظ الحديث.

***

ومن هذه الطبقة السادسة التي ذكر فيها من مات بين الستمائة والسبعمائة، ولكن الواقع أنه ذكر فيها من توفي بين السبعمائة والثمانمائة؛ ومنهم والده تقي الدين، رحمه الله، فإنه توفي سنة ست وخمسين وسبعمائة. وآخر من ذكره في هذه "الطبقات"، شرف الدين أبو النور القلقشندي، وذكر أنه كان من أعيان فقهاء مصر، قال: توفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة.هـ[267/6].

[استدراك على صاحب "الطبقات"، عدم ذكر إسناد الفقه إلى إمام مذهبه]

ثم إن الإمام تاج الدين بقي عليه ذكر إسناد الفقه إلى إمام مذهبه الشافعي. وقد امتاز بذلك الفقيه المالكي الجزائري، أحد أشياخ العلامة الرّحلة أبي سالم العياشي، ووضع في

ذلك "تقييدا" حسنا، استوعب الإسناد المتصل مع ما اشتمل عليه من تفريعات في الأسانيد. وهو كتاب مفيد لمعرفة أعلام المذهب المالكي. وقد تقدم لنا نقل بعضه مما فيه الاطلاع على المنهج الذي انتقاه في ذلك، ووصل بذلك إلى أكابر أصحاب مالك من طرق، ثم إلى مالك، ثم إلى أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم إلى الوحي السماوي.

أما التاج السبكي فإنه لم يعتن بأمر الإسناد كل الاعتناء نعم. وقف له على نبذة تقارب هذا الموضوع، فإنه لما ذكر في ترجمة والده، رحمه الله، سلسلة الحفاظ، قال: ولنتبرك عند ختم هذه السلاسل بذكر حديث مسلسل بالفقهاء، فنقول: أخبرنا إمام الفقهاء والمحدثين، الوالد رحمه الله، بقراءتي عليه، أخبرنا الفقيه الحافظ، أبو محمد، عبد المؤمن بن خلف في كتابه (ح)، وأخبرنا الفقيه الحافظ أبو سعيد خليل بن كيكلدي، من لفظه بالمسجد الأقصى، أخبرنا محمد بن يوسف بن المهتار الفقيه، بقراءتي قالا: أخبرنا الفقيه الحافظ أبو عمرو، عثمان بن عبد الرحمان بن الصلاح، قال أبو محمد كتابة: وقال ابن المهتار سماعا، قال: أخبرنا الفقيه ابن الفقيه ابن الفقيه، أبو بكر بن القاسم بن عبد الله بن عمر النيسابوري بها قراءة مني عليه، أخبرنا أبو البركات، عبد الله بن محمد بن الفضل، الفقيه ابن الفقيه ابن الفقيه، حدثنا جدي أبو عبد الرحمان الشحامي، وأبو علي الحاجري، الفقيهان في فنهما، قالا: حدثنا الإمام المنصور البغدادي الفقيه، حدثنا أبو زكرياء، يحيى بن أحمد السكري الفقيه، والقاضي أبو زيد، عبد الرحمان بن محمد الحسيني الفقيه، والإمام أبو طاهر، محمد بن محمد الزيادي الفقيه، قالوا: حدثنا أبو الوليد، حسان بن محمد القرشي الفقيه، حدثنا القاضي أبو العباس، أحمد بن سريج الفقيه، قالوا: حدثنا أبودا ود السجستاني، الفقيه الحافظ، حدثنا محمد بن سليمان الأنباري الفقيه، حدثنا زيد بن الخباب، البارع في الفقه والحديث، عن محمد بن مسلم الطائفي، أفقه أقرانه، عن عمرو بن دينار فقيه آل الزبير عن عكرمة، فقيه مكة، عن ابن عباس، الذي دعا له النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال:" اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"؛ قال: قتل رجل من بني عدي، فجعل النبي، صلى الله عليه وسلم، إثنى عشر ألفا.هـ [181/6].

ثم إن التاج لم يصرح بأن هؤلاء الفقهاء المذكورين في هذه السلسلة كلهم شافعية، أو منهم غيرهم. ولكن الظاهر، والله أعلم، أنهم كلهم شافعية.

[الفقهاء الذين استدرك ذكرهم الحافظ السيوطي]

هذا، ولم يزل حملة الفقه وحماته العدول بعد عصر التاج، كلما ذهبت منهم أمة خلفتها من أمثالهم أخرى. وهكذا تحفظ هذه الشريعة الغراء إلى أن يتداعى الزمان، ويرفع العلم بموت العلماء الأعيان، ولا يبقى عالم بقواعد الأديان. ولأهل الأصول في هذا المبحث تحرير وبيان، سيأتي بعد هذا تفصيله في محله بحسب الإمكان. وإنما نقول هنا إنه بعد عصر صاحب"الطبقات"، أتى الله بأئمة كبار، وفقهاء في مذهب الشافعي ذوي مكانة في الفقه والصلاح والورع وأسرار.

فقد استدرك الحافظ السيوطي منهم، في خصوص الفقهاء، جماعة من أهل القرن الثامن إلى مبدإ العاشر.

منهم ابن النقيب، توفي سنة 769.

ومنهم بهاء الدين السبكي، أبو بهاء الدين، صاحب "شرح التلخيص"، لأخيه الذي سماه "عروس الأفراح"، وهو تحت يدنا، وله في الفقه "شرح الحاوي"، و"شرح المنهاج"، توفي سنة773.

ومنهم بدر الدين الزركشي، أخذ عن الأسنوي ومغلطاي وابن كثير، وألف تآليف كثيرة، منها"الخادم" على الرافعي، و"الروضة"، و"المنهاج"، وغير ذلك.

ومنهم الأيناسي، الورع الزاهد، شيخ الشيوخ، له تصانيف. قال السيوطي: وكان مشهورا بالصلاح، يقرأ عليه الجن، توفي سنة802.

ومنهم سراج الدين ابن الملقن، أخذ عن ابن الناس، وكان أكثر أهل العصر تصنيفا، لأنه اشتغل بالتصنيف وهو صغير.

ومنهم الإمام البلقيني، وولداه بدر الدين، وأخوه جلال الدين، قاضي القضاة. انتهت إليه رئاسة الفتيا، مع عفة ونزاهة في القضاء، توفي سنة 824.

ومنهم الكمال الدميري، وهو محمد بن موسى بن عيسى، وله مؤلفات منها"شرح المنهاج"، وهو صاحب كتاب"حياة الحيوان" المملوء بالفوائد الفقهية والأدبية والتاريخية وهو دليل على سعة معارفه، توفي سنة808، قال الجلال: واشتهرت عنه كرامات وأخبار بأمور مغيبات.

ومنهم ابن العماد شهاب الدين، له تصانيف كثيرة، توفي سنة808.

ومنهم البرماوي شمس الدين، محمد بن عبد الدائم، لا زم الزركشي وتميز به، وأخذ عن البلقيني، توفي سنة831.

ومنهم الجلال المحلي، صاحب "شرح جمع الجوامع"، اللطيف، وهو صاحب "التفسير" الذي أكمله الجلال السيوطي، الذي نقلنا عنه هذه التراجم في "حسن المحاضرة"، وبهما سمي التفسير، ويطلق عليه "تفسير الجلالين". قال الجلال: وكان علامة، آية في الذكاء والفهم. كان بعض أهل العصر يقول فيه: إن ذهنه يثقب الماس، قال الجلال: ولم يكن يقدر على الحفظ، وحفظ كراسا من بعض الكتب فامتلأ بدنه حرارة، قال: وكان غرة هذا العصر في سلوك طريق السلف، على قدم من الصلاح والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يواجه بذلك أكابر الظلمة والحكام، قال الجلال: وظهرت له كرامات كثيرة. قال: وكان متقشفا في ملبوسه ومركوبه، ويتكسب بالتجارة، وألف كتبا تُشد إليها الرحال، في غاية الاختصار والتحرير. وذكر منها: "شرح جمع الجوامع" الشهير، قال: فمن أجلّ كتبه التي لم تكمل،"تفسير القرآن"، كتب منه من أول الكهف إلى آخر "القرآن"، في أربعة عشر كراسا، في قطع النصف البلدي، وهو ممزوج محرر في غاية الحسن، وكتب على ألفاظه، وآيات يسيرة من البقرة. قال: وقد أكملتُه بتكميله على نمطه، من أول البقرة إلى آخر سورة الإسراء. توفي سنة864.

ومنهم البلقيني، شيخ الجلال، وفيه قال: شيخنا قاضي القضاة، علم الدين، صالح ابن شيخ الإسلام سراج الدين، حامل لواء مذهب الشافعي في عصره. قال: وتفرد بالفقه، وأخذ عنه الجم الغفير، وألحق الأصاغر بالأكابر، والأحفاد بالأجداد. قال الجلال: قرأت عليه الفقه وأجازني بالتدريس وحضر تقريري.

ومنهم شرف الدين المناوي، قاضي القضاة، قال الجلال: شيخنا شيخ الإسلام. قال: لا زم ولي الدين العراقي وتخرج به في الفقه والأصول، قال: وله تصانيف منها "شرح مختصر" المزني، توفي سنة871.

***

هذا، ولم يزل[الاهتمام بتراجم الفقهاء] بعد السيوطي، الذي كان من أعيان فقهاء الشافعية بمصر في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، وكان ادعى الاجتهاد، وحاول أن ينفرد بمذهب، ورد أهل عصره ذلك، حسبما سبق، رعيا للمصلحة العامة، ودفعا لما

يخشى من الفتنة في ذلك، سدا للذرائع، ومنعا لما يقع من الحيرة في العامة عند تعدد الأحكام في الوقائع.

وقد كتبنا في هذا الموضوع ما هو القول المفيد الجامع، الذي يخضع له كل ناظر إلى المصلحة العامة، وما حرره أئمتنا الأعلام من كل المذاهب، في سد باب الاجتهاد، بعد اتفاق الأمة على تقليد هؤلاء الجهابذة الكرام، الذين حرروا هذا الدين، ونقحوا أصوله وفروعه، ولا ينكر ذلك إلا جاهل منافق، أو معاند جاهل بالمضار والمنافع.

هذا، وكما قلنا، أتى بعد هؤلاء الأئمة الأكابر، والفقهاء الذين هم للدِّين هداة ثقاة، قائمون بالحق، لا يخافون في الله رد معاند مكابر؛ [مَنْ واصل الاهتمام بهذا الموضوع]؛ إذ ألف الحافظ ابن حجر، في أعيان المائة الثامنة، ولكن عنوان كتابه لا يخصص هؤلاء الأعيان بمذهب الشافعي، الذي هو مذهبه. ولكن لابد أن يكون الغالب أهل مذهبه، لأنه سماه: "الدرر الكامنة، في أعيان المائة الثامنة". وجاء أيضا تلميذه السخاوي، وهو شافعي أيضا، وألف في أعيان المائة التاسعة، وسمى كتابه: "الضوء اللامع، في تراجم أهل القرن التاسع".

ثم لم يزل الناس يكتبون في تراجم هؤلاء الأعلام في القرن العاشر والحادي عشر وما بعده، ويذكرون ما كان لهم من الرياسة الدينية، وخصوصا في مصر والشام؛ من القضاء والفتوى، وتولي الدراسة، ومشيخة المدارس الشهيرة العظام؛ إلى أن أذن صبح الشريعة الغراء بالانصرام، وعمّ أقطار الإسلام تقليد الأجانب في القوانين والأحكام، فتضاءل الفقهاء، وأحجموا عن التباري في ميادين الشريعة الإسلامية بعد الإقدام، وزهد الناس في معالم دينهم في سائر دول الإسلام؛ فضعفت المذاهب، وقل الطالب لها والراغب، كما سيأتي ذلك مفصلا إن شاء الله.

***

[المذهب الحنفي
وإمامه، وأكابر أصحابه]

أما مذهب أبي حنيفة النعمان، الفارسي الكوفي، فقيه أهل العراق، وهو يُعد من التابعين في قول؛ لأنهم قالوا أربعة من الصحابة: أنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي، وأبو الطفيل بن واثلة، وعبد الله بن أبي أوْفى، [كذا]، ولكن لم يلق أحدا منهم. وزعم أصحابه أنه لقي جماعة من الصحابة، ولم يثبت ذلك عند أهل النقل. وذكر الخطيب أنه رأى أنس بن مالك. وتبعه في ذلك ابن حجر والسيوطي. قال الخطيب في "تاريخه" في أبي حنيفة هو:

" النعمان بن ثابت، أبو حنيفة التيمي. إمام أصحاب الرأي، وفقيه أهل العراق، رأى أنس بن مالك".[323/13].

[دعاء سيدنا علي لجد أبي حنيفة بالبركة فيه وفي ذريته]

ثم ذكر أن ثابت ذهب إلى علي بن أبي طالب، وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، قال ثابت: ونحن نرجو من الله أن يكون قد استجاب الله ذلك لعلي بن أبي طالب فينا. هـ[326/13].

وذكر الخطيب أيضا أن جده النعمان بن المرزبان، هو الذي أهدى لعلي بن أبي طالب الفالوذج في يوم النَّيرُوز، فقال: نوروزُونا كل يوم، وقيل كان ذلك في المهرجان، فقال: مهرجُونا كل يوم.هـ[326/13].

وقد أطال الإمام الخطيب في صدر ترجمة هذا الإمام، ولكن شَانَهُ بما لمزه به أعداؤه، والمساوئ التي لا تحتمل، وقد رد العلماء ذلك على الخطيب، وقالوا: الأولى أن لم يكن دنَّس كتابه بذلك. وقد كُتِبَتْ بعض الردود في هذه النسخة التي بأيدينا، المطبوعة بمصر، وهي أول طبعة طبعت لهذا الكتاب الجليل سنة1339 هجرية، موافق سنة1931 مسيحية. وهو على التحقيق في عِداد تابعي التابعين.

أما فضل هذا الإمام وديانته وورعه، فهو بيِّن عند أهل العلم، منها ما ورد في حديث عن أبي هريرة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "إن في أمتي رجلا - وفي حديث القصري - يكون في أمتي رجل اسمه النعمان، وكنيته أبو حنيفة، هو سراج أمتي، هو سراج أمتي، هو سراج أمتي". قال الخطيب إثره: هو حديث موضوع. ولكن كُتب عليه[في الهامش] ما لفظه: استوفى طرقه البدر العيني في"تاريخه الكبير"، واستصعب الحكم عليه بالوضع مع وُروده بتلك الطرق الكثيرة.هـ [تاريخ بغداد:335/13].

[شهرته في العلم والورع وسَعة المَال]

أما علمه وفقهه؛ فروى الخطيب عن الحسن بن سليمان، قال في تفسير حديث:"لا تقوم الساعة حتى يظهر العلم"، قال: هو علم أبي حنيفة. وروى أيضا عن خلف بن أيوب أنه: صار العلم من الله تعالى إلى محمد، صلى الله عليه وسلم، ثم صار إلى أصحابه، ثم صار إلى التابعين، ثم صار إلى أبي حنيفة وأتباعه.

وروى عن ابن المبارك أنه كان يقول: ما كان أوقر مجلس أبي حنيفة، كان يشبه الفقهاء، وكان حسن السمت، حسن الوجه، حسن الثوب. ولقد كنا يوما في المسجد الجامع فوقعت حية، فسقطت في حجر أبي حنيفة، وهرب الناس غيره، فما رأيته زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه. [336/13].

وروى الخطيب أيضا عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول: كان أبو حنيفة رجلا فقيها معروفا بالفقه، مشهورا بالورع، واسع المال، معروفا بالأفضال على كل من يطيف به، صبورا على تعليم العلم بالليل والنهار، حسن الليل، كثير الصمت، قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام، فكان يحسن أن يدل على الحق، هاربا من مال السلطان. وزاد ابن الصباح: وكان إذا وردت عليه مسألة فيها حديث صحيح اتبعه، وإن كان عن الصحابة والتابعين؛ وإلا قاس وأحسن القياس.هـ[340/13].

وكفى بهذه الشهادة التي أداها أحد ثقاة الأئمة الأعلام، وقدوة أهل الزهد والتعبد والتصوف في التقدم من ذلك في كل مقام. وكنا قدمنا شيئا من هذا في شأن هذا الإمام.

[امتناعه من ولاية القضاء، وما تعرض له من الضرب والسجن]

أما استفاء ترجمته، وما وصفه به الأئمة من الذكاء والمعرفة والورع؛ فكفاك فيه مهابة وخشية من الله وورعا، ما وقع له مع والي الكوفة والعراق من قبل مروان، إذ كلمه في أن يلي قضاء الكوفة؛ فامتنع. فأراد أن يجبره على الولاية بالضرب؛ فضربه مائة سوط وعشرة أسواط، عشرة أسواط في كل يوم. وهو على امتناعه. فلما رأى تصميمه على الامتناع تركه. وروى الخطيب أن الإمام أحمد كان إذا ذكر ذلك - أي ضرب أبي حنيفة على ولاية القضاء - بكى، وترحم على أبي حنيفة.

وذكر الخطيب في رواية عن خارجة، أن أبا جعفر، يعني المنصور، دعا أبا حنيفة إلى القضاء، فأبى عليه، فحبسه. ثم دعا به يوما فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء. فقال له: كذبت. قال: ثم عرض عليه الثانية، فقال أبو حنيفة: قد حكم عليّ أمير المؤمنين أني لا أصلح؛ لأنه ينسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذبا فلا أصلح، وإن كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح. قال: فرده إلى الحبس.

ثم روى الخطيب عن الربيع بن يونس يقول: رأيت أمير المؤمنين، المنصور، ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهو يقول: اتّق الله، ولا ترعى أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا

بمأمون الرضى، فكيف أكون مأمون الغضب!؟؛ ولو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات، أو أن تلي الحكم، لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك؛ فلا أصلح لذلك. فقال له: كذبت، أنت تصلح. فقال: قد حكمت لي على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب.هـ[328/13].

[وجه امتناع أكابر العلماء من ولاية القضاء]

قلت: وهنا يقال: إنه يتوجه هنا سؤال؛ وهو أن القيام بالقضاء بين الناس هو فرض، لا سيما على من تعيّن عليه، وقد تولى ذلك أكابر الصحابة، وأفاضل التابعين، وفي أبي حنيفة الشروط التي تؤهله لذلك، أو ينفرد بها، فيكون القضاء واجبا عليه؟

فالجواب: إن الموجب الأول: هو خوف الله من الخطإ في الحكم وعدم الإصابة فيه، إذ الدخول فيه دخول في بحر لا ساحل له، كما قيل: من وقع في البحر كم عساه أن يسبح. وفي الحديث: "من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين"، وهذا واضح.

والموجب الثاني: وهو الغالب الذي يتباعد عنه بسببه أهل العلم والديانة، هو ما يصدر من الأمراء من التدخل في الحكم، وأمر قضاتهم باتباع ما يرونه ملائما لشهوتهم. وإن تباعد عنه الأمراء، فما ذا يصنع القاضي مع الحاشية من الوزراء، وأقارب الأمراء وحاشيتهم؟ كما أشار لذلك الإمام أبو حنيفة. وهو شيء لا يعرفه إلا من وليّ القضاء، وابتلي بهذا الداء الذي يعزّ فيه الدواء. اللهم إنا نسألك اللطف في القضاء، والعفو فيما زلت به الآراء، ومالت فيه الأهواء، إنك سميع الدعاء.

***

[الرجوع إلى موضوع احتياج الناس إلى الفقه، والنظر في المذاهب الفقهية بدون تعصب]

ثم لنرجع إلى موضوعنا، الذي امتدت مسافته، وتنوعت مباحثه، وهو احتياج الناس إلى الفقه، وهو السبب الذي صرف أئمة المذاهب إلى الاعتناء بدرسه، ووضع المؤلفات الكثيرة في أصوله وفروعه.

وكان القصد الأول، هو ذكر مشاهير أئمة المذهب المالكي، الذي هو مذهبنا. ولكن دعانا النظر إلى المذاهب كلها نظرة واحدة، وتجنب التعصب لواحد منها، كما وقع الغلط

لكثير من المتقدمين، ونظرهم إلى ما سوى مذهبه الذي قلده كأنه خارج عن الدين، وليس من جماعة المسلمين.

وهذا هو التعصب المذهبي الذي صاروا فيه طرائق قددا، ونشروا به أنواع الشر وما تحروا رشدا، وما رعوا قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، وأنهم أصدقاء أخلاء، وهم جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو اشتكى منه سائر الأعضاء.

وعلى هذا النهج المتحد، وتصويب كل إمام في طريق الشريعة مجد مجتهد، سلكت، وأشرت لمقام كل إمام منهم، ولعمد أصحابه، وما كانوا عليه من العلم والدين أعلنت. كما أجملتُ في مذهب إمامه تارة، وتارة فصلت. والله المعين الكافي، على جمع القلوب، على الاتجاه إلى علام الغيوب، دون مخالف ومفرق بين أئمة الأمة ومنافي.

[ذكر بعض مشاهير المذهب الحنفي]

أما أصحاب هذا الإمام الكوفي، فقيه أهل العراق، بدون شرط ولا قيد، بل بإطلاق، حسبما سبق بيانه؛ كان في مقدمة أصحابه محمد بن الحسن، أبو عبد الله الشيباني. وهو الإمام الذي اشتهر بمهارته في العلم والذكاء والدراية بالقياس، مع علمه بكتاب الله تعالى، فقد قال أبو عبيد: ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن. وروى الخطيب أيضا عن الشافعي أنه قال عن الربيع: سمعت الشافعي يقول: لو أشاء أن أقول: إن القرآن نزل بلغة محمد بن الحسن، لقلته، لفصاحته.هـ [تاريخ بغداد:175/2].

ومحمد بن الحسن من تلاميذ الإمام مالك، وممن لازمه وأخذ عنه، فقد روى الخطيب عن الإمام الشافعي، أنه سمع محمد بن الحسن يقول: أقمت على باب مالك ثلاث سنين وكسرًا. وكان يقول: إنه سمع منه لفظا أكثر من سبعمائة حديث. قال: وكان إذا حدثهم عن مالك، امتلأ منزله، وكثر الناس عليه، حتى يضيق عليهم الموضع. وإذا حدثهم عن غير مالك، لم يجبه إلا القليل من الناس؛ يأتوني متكارهين.[173/2].

[ما وقع لمحمد بن الحسن مع الإمام مالك]

وقد وقعت له مع مالك مسألة، فيما رواه الخطيب، أن محمد بن الحسن دخل على مالك، وهو يفتي الناس، فقال: ما تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد. قال: فكيف يصنع، وقد حضرت الصلاة، وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد. فلما أكثر عليه، قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم

ويدخل، فيأخذ الماء من المسجد، ويخرج فيغتسل. قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه - وأشار إلى الأرض - فقال: ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه. فقال: ما أكثر من لا تعرف، ثم نهض. فقالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن، صاحب أبي حنيفة. فقال مالك: محمد بن الحسن! كيف يكذب، وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال من أهل هذه؛ وأشار إلى الأرض. قال: هذا أشدّ عليّ. هـ [تاريخ بغداد:174/2].

[مناظرة محمد بن الحسن
للشافعي، بشأن اعتماد عمل أهل المدينة]

ولقد وقعت له مناظرة مع الإمام الشافعي، بمجلس الخليفة هارون الرشيد؛ ابتدأ فيها محمد بن الحسن بما يفيد إنكار اعتماد عمل أهل المدينة، وكأنه يعرض بمالك. [و] برواية الخطيب، قال الشافعي: لم يزل محمد بن الحسن عندي عظيما جليلا، أنفقت على كتبه ستين دينارا، حتى جمعني وإياه مجلس عند الرشيد، فابتدأ محمد بن الحسن، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أهل المدينة خالفوا كتاب الله نصا، وأحكام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإجماع المسلمين. فأخذني ما قدُم وما حدُث، فقلت: ألا أراك قد قصدت لأهل بيت النبوة، ومن نزل القرآن فيهم، وأحكِمَت الأحكام فيهم، وقبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين أظهرهم، عمدت تهجوهم! أرايتك أنت، بأي شيء قضيت بشهادة امرأة واحدة، قابلة، حتى تورث ابن خليفة ملك الدنيا، ومالا عظيما؟ قال: بعلي بن أبي طالب. قلت: إنما رواه عن علي رجل مجهول يُقال له عبد الله بن نُجيّ، ورواه جابر الجعفي، وكان يؤمن بالرجعة. سمعت سفيان بن عيينة يقول: دخلت على جابر الجعفي، فسألني عن شيء من أمر الكهنة، ونحن معنا قضاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقضاء علي بن أبي طالب، أنه قضى به بين أهل العراق. وقلت له: ما تقول في القسامة؟ قال: بالاستفهام. قلت: يا سبحان الله! تزعم أن رسول رب العالمين حكم في أمته بالاستفهام؟ يستفهم ولا يحكم به؟. قال: فسمعها هارون، فقال: ما هذا؟ عليّ بالسيف والنطع، فلما جيئ بهما قلت: يا أمير المؤمنين. والله ما هذا عقده في القسامة. وإنه ليقول فيها بخلاف هذا. ولكن، المتناظران إذا تناظرا، أحب أحدهما أن يدخل على صاحبه حجة يكبته بها. قال: فسري عن هارون. قال: فلما خرجنا من عنده قال لي: كنتَ قد أشطت بدمي. قلتُ: فقد خلصك الله الآن.هـ [178/2].

<u>قلت: وفي هذه المناظرة فوائد كثيرة:</u>

منها أن الخليفة هارون الرشيد، كان يعتمد ما جعله الإمام مالك من أصول مذهبه، وهو عمل أهل المدينة. ومنها أن الحنفية لا يقولون بذلك. ومنها دفاع الإمام الشافعي، بمحضر الخليفة، ورد هذا المخالف، فرحم الله الكل، ورضي عنهم.

وفي محمد بن الحسن هذا، قال الشافعي، لما قيل له: خالفت الفقهاء، قال: وهل رأيتَ فقيها قط؟ اللهم إلا أن تكون رأيت محمد بن الحسن، فإنه كان يملأ العين والقلب.هـ.

وقال المزني، لما سأله رجل عن أهل العراق، فقال له: ما تقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم. قال: فأبو يوسف؟ قال: أتبعهم للحديث. قال: فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريعا قال: فزفر؟ قال: أحدّهم قياسًا.هـ.

وعلى وجه الجملة؛ فإن محمد بن الحسن كان من أخص أصحاب أبي حنيفة، الذين لهم القدم الراسخ في مذهب أهل الرأي. وكان مجدا في إفشاء العلم، رافضا لما يشغله من أمور حوائج الحياة الدنيا؛ فقد قال لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا تشغلون قلبي، وخذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي، فإنه أقل لهمي، وأفرغ لقلبي.هـ من "تاريخ" الخطيب،[176/2]، ولكن بإسقاط ما لا يحتاج إليه، واختصار لا يخل بالمعنى. وأسقطنا ما نقله من الطعن فيه ورميه بالتجهم، لأن الحساد من أول الخليقة لا تعدم ذما، والعالم الشهير بين قومه لا يسلم من حسود يحمله إثما.

هذا، ولما مات هذا الإمام، رءاه السيد محمويه ، وكانوا يرونه من الأبدال، قال: رأيت محمد بن الحسن في المنام، فقلت له: يا أبا عبد الله. إلى ما صرت؟ قال: قال لي: إني لم أجعلك وعاء للعلم، وأنا أريد أن أعذبك. قلت: فما فعل أبو يوسف؟ قال: فوقي. قلت: فما فعل أبو حنيفة؟ قال: فوق أبي يوسف بطبقات.هـ برواية الخطيب. [182/2].

وكانت وفاة هذا الإمام بالري سنة تسع وثمانين ومائة. رحمه الله، ورضي عنه وعن أمثاله العلماء، وعلينا معهم، آمين.

[أبو يوسف، القاضي الشهير]

ومن مشاهير أصحاب الإمام أبي حنيفة، القاضي الشهير، يعقوب أبو يوسف، الذي قيل فيه: أبو حنيفة: أبو يوسف. يريد القائل أنه لا فرق بينهما. وهو قول مشهور على لسان الطلبة. قال الخطيب عن ابن كامل: هو قاضي موسى الهادي، وهارون الرشيد ببغداد.

وقال: ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي ابن المديني في ثقته في النقل.
قال: وهو أول من خوطب بقاضي القضاة.

•وكان في أول طلبه للعلم، مقلا فقيرا يتيما لا شيء له، تطعمه أمه من الخدمة بمغزلها. ووقع له مع أبي حنيفة كرامة، وكانت أسلمته أمه إلى قصار، يعني صباغا، ليكتسب بالخدمة معه ما يقتات به، فكان يدع القصار، ويذهب لحلقة أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يعتني به، لما يرى من حرصه على التعلم. فلما طال هربه من الصنعة التي وضعته بها، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك. هذا صبي يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكتسب دانقا يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء. هذا هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق. فانصرفت عنه وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. قال أبو يوسف: ثم لزمته، فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلدت منصب القضاء، وكنت أجالس الرشيد، وآكل معه على مائدته. فلما كان في بعض الأيام، قدم إليّ هارون فالوذجة، فقال لي: يا يعقوب. كل منه، فليس كل يوم يعمل لنا مثله. فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال لي: هذه فالوذجة بدهن الفستق؛ فضحكت، فقال لي: مم ضحكت؟ فقلت: خيرا. أبقى الله أمير المؤمنين. ثم حكى له ما جرى بين أمه وبين أبي حنيفة، وقول أبي حنيفة: هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق. فعجب من ذلك الرشيد، وقال: إن العلم ليرفع وينفع دينا ودنيا. وترحم على أبي حنيفة، وقال: كان ينظر بعين عقله، ما لا يراه بعين رأسه.هـ عن الخطيب باختصار.[تاريخ بغداد:244/14].

[أفاضل أصحاب أبي حنيفة]

. وقد كان لأبي حنيفة أصحاب أفاضل أماثل. وأمثلهم وأعظمهم بثا ونشرا لمذهب أبي حنيفة، هو أبو يوسف؛ فقد روى الخطيب عن إسماعيل، حفيد أبي حنيفة، أنه كان يقول: أصحاب أبي حنيفة عشرة: أبو يوسف، وزفر، وأسد بن عمر، والبجلي، وعافية الأودي، وداود الطائي، والقاسم بن معن المسعودي، وعلي بن مسهر، ويحيى بن زكرياء بن أبي زائدة، وحبان ومندل، ابنا علي العنزي؛ ولم يكن فيهم مثل أبي يوسف وزفر. وقال النخعي: حدثنا أحمد بن عمار بن أبي مالك، قال: سمعت عمار بن أبي مالك يقول: ما كان فيهم مثل أبي يوسف. لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة، ولا ابن أبي ليلى. ولكنه هو نشر قولهما، وبث علمهما. وعن طلحة بن محمد قال: وأبو يوسف مشهور الأمر، ظاهر الفضل،

وهو صاحب أبي حنيفة، وأفقه أهل عصره، ولم يتقدمه أحد في زمانه. كان النهاية في العلم والحكم، والرئاسة والقدر، وأول من وضع الكتب في الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض.هـ[245/14].

[تأدب كبار أصحاب الأئمة مع شيوخهم، وتفسير معنى مجتهد المذهب]

وأبو يوسف، وزُفر، ومحمد بن الحسن، من أصحاب أبي حنيفة، هم في الحقيقة مجتهدون اجتهادا مطلقا، إلا أنهم كانوا يتأدبون مع شيخهم، وحفظا لمذهبه، حتى لا تكثر المذاهب، كما سلف، ولكنهم أعطوهم مرتبة هي بين الإطلاق والتقليد؛ ففي "الموافقات" لأبي إسحاق الشاطبي، مشيرا إلى هذا المعنى، بعد تمهيد وتوجيهات، بأن هذا النوع إليه يرجع الاجتهاد المنسوب إلى أصحاب الأئمة المجتهدين، كابن القاسم وأشهب، في مذهب مالك، وأبي يوسف ومحمد بن الحسن، في مذهب أبي حنيفة، والمزني والبويطي، في مذهب الشافعي؛ فإنه، على ما حكى عنهم، أنهم يأخذون أصول إمامهم، وما بقي عليه في نهج ألفاظ الشريعة، ويفرعون المسائل، ويصدرون الفتاوى على مقتضى ذلك. وقد قبل الناس أنظارهم وفتاويهم، وعملوا على مقتضاها؛ خالفت مذاهب إمامهم أو وافقتها.هـ أنظر تمام كلامه، وتفصيله في هذا الموضوع.[59/4].

قلت: وهذا هو الذي يسمى عند الأصوليين بالمجتهد في المذهب. قال في"جمع الجوامع": وهو المتمكن من تخريج الوجوه على نصوص إمامه.هـ وقال الشيخ حلولو في "شرحه": مجتهد مذهب، هو المقلد لإمام من الأئمة، قد عرف أصول مذهبه وأحاط بها. فإذا سئل عن حادثة، نظر في نصوص إمامه، كنظر المطلق في أصول الشرع. فإن لم يجد لإمامه في المسألة نصا، قاس على أصوله، وخرج عليها، كبعض أصحاب مالك والشافعي والحنفي. قال ابن برهان: واختلف أصحابنا، وأصحاب أبي حنيفة، في المزني وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، والعباس بن سريج، هل هم مجتهدون مطلقا، أو في المذاهب؟هـ [224/3].

قلت: ولذلك اختلف في مذهبنا في ابن القاسم، وانظر كلام الأئمة في ذلك في"المعيار".

قلت: ومن كلام أبي يوسف أنه كان يقول: رؤوس النِّعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية نعمة العافية التي لا تطيبُ الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.هـ [تاريخ بغداد: 14/ 248].

ولما كان أبو يوسف نال من الدنيا ما نال، وانهالت عليه زهراتها فوق الآمال، إذ قال: "ولقد صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة. ثم انصبت علي الدنيا سبع عشرة سنة"؛ فإنه عند حضور موته، تمنى أن لم يملك شيئا وأنه عاش فقيرا، فإنه كان يقول: "يا ليتني مت على ما كنت عليه من الفقر"؛ مع أنه قال: "اللهم إنك تعلم أني لم أجُر في حكم حكمت به بين عبادك متعمدا، ولهذا اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك. وكل ما أشكل علي، جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي، والله، ممن يعرف أمرك، ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه".هـ[تاريخ بغداد: 254/14]

ففي كلامه هذا دليل على أنه لم يخرج عن التقليد، رغم إدراكه رتبة الاجتهاد. وفيه أيضا الشهادة بعلو مقام الإمام أبي حنيفة في معرفة الحق وتحريه. وقد روى الخطيب عن ابن سماعة أنه قال: كان أبو يوسف، بعد ما ولي القضاء، يصلي كل يوم مائتي ركعة. وقال في مرضه الذي توفي فيه: اللهم إنك تعلم أني لم أطأ فرجا حراما قط وأنا أعلم. اللهم إنك تعلم أني لم آكل درهما حراما قط وأنا أعلم. هـ برواية الخطيب. وكانت وفاته، كما ذكره الخطيب سنة 182ببغداد.

وقد رأى الرجل الصالح، المتبرك به حيا وميتا، إمام أهل التصوف الأخيار، السيد معروف الكرخي، قال: رأيت كأني دخلت الجنة، فإذ قصر قد بني، وتم شرفه وجصص، وعلقت أبوابه وستوره، وتم أمره. فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لأبي يوسف القاضي. فقلت لهم: وبم نال هذا؟ فقالوا: بتعليمه الناس الخير، وحرصه على ذلك، وبأذى الناس له.هـ [تاريخ بغداد:261/14].

[تراجم بعض مشاهير المذهب الحنفي بمصر]

وهؤلاء الذين ذكرنا من أصحاب أبي حنيفة، هم أصحابه المشهورون الآخذون عنه الفقه ونشره في الأقطار. وأما من دونهم في الرتبة، فهم كثيرون. وقد ذكر الجلال السيوطي في"حسن المحاضرة" جماعة كثيرة منهم، الذين كانوا في خصوص القطر المصري. من أشهرهم: القاضي بكار، من ولد أبي بكرة الصحابي. قال الجلال فيه: أبو بكر، الفقيه قاضي الديار المصرية. سمع أبا داود الطيالسي وأقرانه، روى عنه أبو عوانة في "صحيحه"، وابن خزيمة. وولاه المتوكل قضاء مصر سنة246. وله أخبار في العدل والعفة، والنزاهة والورع، وتصانيف في الشروط والوثائق.[218/1].

والطحاوي، وذكره أيضا في أهل الحديث، لأنه قال فيه: الإمام العلامة الحافظ، صاحب التصانيف البديعة، وهو ابن أخت المزني. قال: إليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر. وذكر له مؤلفات كثيرة. توفي سنة321. [163/1].

ثم استمر يذكر مشاهير الفقهاء متتابعة، على حسب تتابع التاريخ، وما تولوه من وظائف القضاء بمصر، وما ألفوه من المؤلفات، في نحو ست صفحات، إلى أن وصل إلى المئة التاسعة التي وصل بها إلى بعض أشياخه؛ فذكر:

بدر الدين العيني، قاضي القضاة، الذي مر ذكره في شراح البخاري، وكانت وفاته سنة 855.

وذكر ابن الهمام، العلامة كمال الدين ابن الهمام. قال الجلال: وتقدم على أقرانه في أنواع العلوم، من الفقه والأصول، والنحو والمعاني، وغيرها. وكان علامة محققا جدليا نظارا. قرره الأشرف شيخا في مدرسته، فباشرها مدة ثم تركها. وولي مشيخة الشيخونية، ثم تركها أيضا. وله تصانيف منها "تكملة شرح الهداية"، للشروجي. مات سنة867. وذكر شيخه الشمني، فقال:

شيخنا الشمني، الإمام تقي الدين، أبو العباس، أحمد ابن الشيخ المحدث، كمال الدين، قال: "قدوة عين الزمان وإنسانها، وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها، وشجرة المعارف التي طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها، ورياض الآداب التي فاضت ينابيعها وفاحت زهورها وتنوعت أفنانها". ثم أفاض في تحلية هذا الشيخ، وذكر شيوخه. ثم قال: وصنف حاشية على"المُغني"، وحاشية على"الشفا". (قلت): وكانت تحت يدي، مخطوطة بالخط المغربي، وهي مختصرة جدا في أوراق، وينقل عنها الشارح ابن سلطان وغيره. وله مؤلفات أخرى ذكرها الجلال. قال الجلال: وطلب لقضاء الحنفية فامتنع. مات سنة 872. ورثاه تلميذه الجلال بقصيدة طنانة، قال في مطلعها:

رزء عظيم به تستنزل العبر ... وحادث جل فيه الخطب و الغير
رزء مصاب جميع المسلمين به ... و قلبهم منه مكلوم و منكسر
ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى ... انهدام ركن عظيم ليس ينعمر

ثم قال في آخرها:

وكل وقت نرى الأخيار قد ذهبوا ... وللأشرة فيه النار تستعر
حبر فحبر، إمام بعد آخر لا ... يُرى لهم خلف كلا، ولا نظر

إذا نجوم الهدى والرشد قد أفلت ضل الورى، فلهم في غيهم سكر
وإن تكن أعين الإسلام ذاهبة تترى، فعما قليل يذهب الأثر

ثم ذكر من شيوخ الحنفية: أمين الدين الأخضر، وقال فيه: إنه انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه. مات سنة 880. وذكر الشيخ سيف الدين الحنفي، وقال فيه: العلامة الورع، الزاهد العابد. قال: لازم ابن الهمام، وبرع في الفقه والأصول والنحو. وكان شيخه ابن الهمام يقول عنه: محقق الديار المصرية، مع ما هو عليه من سلوك طريق السلف والعبادة والخير. قال الجلال: وولي التدريس بأماكن. قال: وله حاشية على "التوضيح" كثيرة الفوائد. مات سنة881. قال الجلال: وهو آخر شيوخه موتا، وقد رثاه بأبيات دالية.[حسن المحاضرة: 224/1].

***

[مذهب الإمام أحمد بن حنبل]

أما الإمام أحمد، إمام المحدثين، وعماد سنة سيّد المرسلين؛ فإن مذهبه لم يشتهر في العالم الإسلامي اشتهار المذاهب الثلاثة. قال العلامة ابن خلدون:

"فأما أحمد بن حنبل، فمقلده قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وإصالته في مقاصده الرواية والأخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث".هـ [المقدمة:395].

وقال القاضي عياض: وأما مذهب أحمد، فظهر ببغداد، ثم انتشر منه كثير في بلاد الشام وغيرها. وضعف الآن في عصر القاضي، وهو آخر المائة الخامسة.

ولهذا قال الجلال السيوطي، عند ذكره من كان بمصر من فقهاء الحنابلة:

{هم بالديار المصرية قليل جدا، ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده. وذلك أن الإمام أحمد، رضي الله عنه، كان في القرن الثالث، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع. وفي هذا القرن ملكت العبيديون مصر، وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة، قتلا ونفيا وتشريدا، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة، ولم يزُولوا منها إلى أواخر القرن السادس، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب. وأول إمام من الحنابلة علمتُ حلوله بمصر، الحافظ عبد الغني المقدسي، صاحب "العمدة"}. [حسن المحاضرة: 228/1]، وذكره الجلال في حفاظ الحديث، فقال:

[الحافظ عبد الغني المقدسي]

عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي، الحافظ الإمام، أوحد زمانه في الحديث والحفظ، تقي الدين، أبو محمد الزاهد العابد، صاحب "العمدة"، و"الكمال"، وغير ذلك من التصانيف. نزل مصر في آخر عمره، ومات بها سنة600. [حسن المحاضرة:165/1].

قلت: وكتابه "العمدة"، مختصر مُفيد في أحاديث الأحكام. شرحه جماعة من الأئمة المالكية والشافعية. ومن أشهرها "شرح" الحافظ ابن دقيق العيد، وهو في خزانتنا. رحم الله الجميع.

[مشاهير الفقهاء الحنابلة الذين ذكرهم الإمـام السيوطي]

ثم استمر الجلال يذكر مشاهير الفقهاء الحنابلة الذين أقاموا بمصر، ويحلي كل واحد بما يناسبه، وما تولاه من الولايات الشرعية؛ فذكر من القضاة بها:

نجم الدين الحراني، شيخ الحنابلة بها، مات سنة 695، والقاضي عز الدين المقدسي، وكان مشكور السيرة، محدث بارع في مذهبه، توفي سنة 696، وعفيف الدين المصري الحنبلي، العالم القدوة، توفي سنة 696، وقاضي القضاة، شرف الدين الحراني، لم يكن في زمانه مثله علما ورياسة، وتولى ولاية القضاء، وفيها توفي سنة 759، وقاضي القضاة، مُوفق الدين المقدسي. قال الجلال: أقام في القضاء بمصر أكثر من ثلاثين سنة، توفي سنة 769، وقاضي القضاة، ناصر الدين العسقلاني، أقام في قضاء مصر ستا وعشرين سنة، وكان مشكور السيرة، توفي سنة 795، وله من الفقهاء الحنابلة ولد اسمه إبراهيم، برهان الدين، وولي القضاء بعد والده، وله بضع وعشرون سنة، وسلك طريق أبيه في الفقه، وكان ملك مصر الظاهر برقوق يعظمه، مات سنة 802، وأخوه موفق الدين، أحمد، توفي سنة853. وذكر الزركشي زين الدين وأن له مؤلفات، إلى أن وصل إلى شيوخه؛ فقال في شيخه قاضي القضاة عز الدين، أبي البركات:

" شيخنا أبو البركات ابن قاضي القضاة، ناصر الدين الحنبلي، قاضٍ مشى على طريقة السلف، وسعى إلى أن بلغ العُلا، لمَّا كَلَّ غيره، ووقف، من أهل بيت في العلوم والقضاء عريق، وبالرياسة حقيق".

ثم أفاض الجلال في تحليته بسجعات أدبية، وعبارات بليغة سنية، ثم قال:

" وسمع الكثير، وأجاز له العراقي والمراغي وخلق، وناب في القضاء عن ابن معلي، وله نحو العشرين سنة. ثم ولي قضاء الحنابلة بالديار المصرية، فباشرها بعفة ونزاهة، وتواضع مفرط، بحيث لم يتخذ نقيبا ولا حاجبا. ودرّس للحنابلة بغالب مدارس البلد، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله، والحديث والعربية والتاريخ، وغير ذلك. مات سنة 876". وبهذا انتهت تراجم فقهاء الحنابلة باختصار. [حسن المحاضرة: 229/1].

***

[التذكير بموضوع هذه "الفهرسة"، ومقصد المؤلف منها]

واعلم أنّي في كتابي هذا، لم أضعه لأستوعب فيه تراجم العلماء ولا لتاريخهم، بل هو كتابٌ موضُوعه الأصلي هو ذكر أشياخي الذين أخذت عنهم. ولكن أضفت إليه فوائد أدبية تاريخية، فقهية أصولية، حديثية تفسيرية، ونوازل عصرية، مما يُستحسن ذكره، ويستوضح لمن يتحرّى الحق أمره، وغير ذلك مما يجرّ إليه كل موضوع، ويكون المرجع المحقق عندما يستدعي إليه الرجوع.

وأهم ما أعده في هذه الأوراق من المقاصد الحسنة؛ هي عمارة الوقت بما يرق من الأحاديث النبوية، والرقائق اللطيفة، والمواعظ الدينية التي نقتطفها من أخبار أكابر العلماء المحدثين، وأعاظم الفقهاء المجتهدين الراكعين الساجدين، وإلهامات أهل الله الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وحضورهم بقلوبهم مع أحكم الحاكمين، واتّخاذ هذه الموضوعات في هذه الأوقات، التي خلت عمّن يرشدك إلى الحق، وإلى طريق مستقيم يُوصلك إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، التي هي أعظم الأماني وأكبر المسرات.

***

[ترجمة الشيخ الكتاني، وما نشأ عنها من الكلام على مراحل الحديث والفقه من عهد الصحابة إلى عصر المؤلف]

ثم إن هذا الموضوع، الذي جاد[فيه]المولى عليَّ بالإعانة والتوفيق حتى كتبتُ فيه هذه الأوراق، التي ليس فيها عند ذوي الأذواق إلا ما [رق] وراق؛ كان نشأ عن ترجمة العلامة

الفريد، فرد زمانه في العمل بالعلم والتوجه لربه المجيد، إذ بينا أني لما وصلتُ إلى حضرة فاس، للأخذ عن علمائها والاقتباس من أنوار علومهم ما قدّر لي من الاقتباس، ألفيتُ شيخنا الكتاني هذا، قد أعرض عن الفقه ومتعلقاته، ونأى عنه بجانبه، وعمّر أوقاته بدراسة حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، وجعله أهم مطالبه. وبينا في ذلك أن قصده في ذلك هو التعلق بالجناب النبوي الشريف في ترداد كلماته، والتقرب إليه بتكرار صلواته عليه وتسليماته، لأن الحال الذي قد شاهده قد استحال، وتراكمت فيه الأهوال، واتسع بالأراجيف بما يكلم قلب المؤمن.

فكان هذا هو المُوجب لصرف الوجهة إلى تفصيل مراحل الحديث الشريف، وأوصلناها إلى سبع مراحل. وفي هذه المراحل الأخيرة التي كان الحديث الشريف قد أخذ مقعده، واستوفى مقصده، وحُررت فيه المؤلفات، وفصلت فيه الفصول، وانتشرت فيه الفروع والأصول، ورتبت فيه الأبواب، وبُين فيها الخطأ من الصواب، ووضح فيها الصحيح من الضعيف، وصُحّحت الروايات عن أهلها بالضبط والتنقيح، وأزيل عنها كل معتل وموضوع مما أدخله فيها كل جهول أو زائغ عن الحق بالتلويح والتصريح؛ فغدت هذه الأصول المهذبة، والموارد الصافية عذبة المذاق مستعذبة، وغدت بالوارد من الصحيح جامعة، ولما رامه الدخلاء من أهل الجهل أو الزيغ مانعة. وصارت هذه الأصول، التي هي الأصل الثاني بعد كتاب الله، جنة من جنات الدّين قطوفها دانية، وفي كل ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا وافية كافية، ولبيان كليات القرآن الكريم بالجزئيات آتية، وبمقتضى قول الباري جل وعلا: (وأنْزَلْنَا إلَيْكَ الذكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاس مَا نُزّلَ إلَيْهَم) فكانت هذه الأصول الحديثية مرشدة لطريق الحق هادية.

ولهذا أجمعت كلمة أهل هذه الأمة أنه لم يبق بعد هذا البيان، الذي جمعه لنا أكابر الثقات من أحاديث سيد ولد عدنان، إلا مخطئ أو من يأتي بما يفتريه من بهتان.

وعليه؛ فشد يدك أيها الطالب واعتمد على هذه الأصول الستة التي أولها البخاري، وآخرها ابن ماجه، وأضف إليها من ألحق بها، حسبما قدمنا. ولهذا كانت المراحل الأصلية انتهت أثناء نصف القرن الرابع، حتى إن من استدرك شيئا من أهل الحديث الثقاة؛ كالخطيب وابن مندة، وأبي نُعيم وابن عساكر؛ لا يحكم على ما رووه وانفردوا به إلا بعد عرضه على الصحيح، كما قدمنا ذلك عن ابن الصلاح وأبي شامة وابن خلدون. وجعل أبو شامة، وكذلك أبو الفرج ابن الجوزي، وفي معناهم ابن الصلاح، أن الاشتغال [بتخريج]الحديث، ومحاولة

الزيادة على ما في هذه الكتب؛ هو تعب لا طائل تحته تظهر، ولا فائدة في إطالة تلك الأسانيد وجمعها تُنتظر، إلا في اتباع الأثر، لمن مضى من أهل الرواية وغبر؛ على أن أبا الفرج أطال في الإنكار، وضلّل في ذلك الأفكار، وجعل أنه إذا حصلت الكفاية، فلم يبق إلا الاشتغال بالدراية، والعمل بمقتضى تلك الأوامر في البداية والنهاية.

ولهذا أعقبنا هذه المراحل في الحديث بالكلام على الفقه الذي هو روح هذه الأحاديث، لأنها ما جاءت، كما أسلفنا، إلا لشرح أصول الشريعة وفروعها التي اشتمل "القرآن" الكريم[عليها]، وأنيط البيان بالمرسل بها، والمأمور بتبليغها وتبيينها، كما شرحنا ذلك مرارا في هذه "الفهرسة" وغيرها. واندرج بنا الكلام على الفقه واحتياج الأمة إليه، إلى ذكر فقهاء الصحابة، رضي الله عنهم، ومن كان يُفتي منهم في عصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ثم إلى التابعين، ثم إلى الأئمة المجتهدين، ثم إلى أصحابهم الذين عمروا أوقاتهم بالتخريج في ذلك والتفريع؛ من المالكية والشافعية، والحنفية والحنابلة، مع روايتهم الحديث، واشتغالهم أيضا بالأصول المعتمدة عليها من "صحيح" البخاري ومسلم، وباقي الكتب الستة وغيرها، ولم يشغلهم حال عن حال، ولا أنساهم التباري في هذا المجال. بل أعطوا لكل مقام ما يحتاج إليه من المقال. ولا يظن الظان أن ابن القاسم أو أشهب، أو المزني أوالبويطي، ولا أبو يوسف ومحمد بن الحسن، من هؤلاء المذاهب المقلدة إلى عصرنا هذا؛ كانوا جاهلين بالحديث، رافضين لدراسته، غير آخذين له عن أربابه أولي الحفظ والضبط في الرواية والتحديث، وكذا من أتى بعدهم من المشاهير في كل هذه المذاهب. ولهذا نوّرنا هذه "الفهرسة" بذكرهم، ونشر ما أمكن من سيرهم إلى عصرنا، أو إلى ما يقرب من ذلك.

فممّن أدركنا؛ كالشيخ ابن الخياط والشيخ ابن الجيلالي والشيخ الكتاني، المترجم له الآن، والشيخ الحافظ ابن القرشي، والشيخ الفاطمي الشرادي، والشيخ التهامي جنون، هؤلاء الأشياخ الذين أدركنا، كانت أوقاتهم معمورة بتعليم الشريعة وأحكامها المهمة، وكانوا خيرة الأمة ممن تعلم العلم وعلمه؛ فهم، كما قدمنا، في هذه الأمة أولياء، إذ هم أئمة أعلام، يُستسقى بهم وبمن سبقهم، عند احتباس الغيث الغمام؛ فليخسأ المارق، الذي يغتر ببعض تمويهات أصحاب الخرافات والمخارق، في مجافاته للفقهاء، ويعدهم أنهم في هذه الأمة من البلاء، ولا سيما من بعض من يتصوّف، ويدّعي أنه يصل إلى الله باللهو والألعاب، وأنه بذلك تفتح له الأبواب. كلاً، بل هؤلاء في هياط ومياط، ولا يدخلون جنة الوصول إلى الله حتى يلج الجمل في سم الخياط.

[عود إلى ترجمة
الشيخ محمد بن جعفر الكتاني]

وعليه؛ فنقول إن شيخنا الكتاني كان من الفقهاء الأعلام، والمحدثين المجدين المخلصين في هداية أهل الإسلام، الباذلين ما أمكنهم من جهودهم في الإرشاد والنصيحة لكل حاضر وباد. ويسرني فيه ما قاله في ترجمته صاحب"رياض الجنة"، ما لفظه:

"عين من أعيان علماء فاس وسراتها الأمجاد، مُشارك متفنن في كثير من العلوم، متضلع في علم الحديث، بصير بمعانيه وفقهه، دءوب على تدريسه وسرده، حسن النطق به، عارف بتراجم رجاله، مطلع على أخبار صلحاء وعلماء فاس، وطبقات علماء المذهب، مشارك في التصوف، عارف بمقاصد أهله واصطلاحاتهم، صحيح النقل، مُتحر في العَزْو، أصيل الضبط، مشار إليه اجتهادا في العلم، ودءوبا على تدريسه والاعتناء به، والاطلاع على غرائبه، جانح إلى الخير، محب في أهل الصلاح، محسن الظن فيهم، منحاش إليهم، تام المروءة، حسن السمت، ميمون الحظ، ميسر المآرب، موفق المسعى، إلى سراوة وفضل، ولين جانب، وبعد عن الريب، وتمسك بعرى النزاهة، وسحب أذيال العفة، واكتساب الذكر والشهرة، وتعظيم عند الخاصة والعامة، شرقا ومغربا، ولم يخلف بعده مثله في هديه وسمته ووقاره؛ وبالجملة فهو آخر مثال رجال العلم والدّين السابقين."هـ [ص77].

وهذا الوصف الذي وصفه به صاحب"الرياض"، هو كله صحيح واقع محله، ونحن وإنْ لم نشاهد كله فقد شاهدنا بأعيننا جله. ولكن ما فاتنا من مشاهدتنا أقله؛ ففي الأقل منها شواهد وأدلة. ثم فيما نأتي به في إتمام هذا الموضوع، من المنقول من شيمه وسيرته والمسمُوع، ما ربما أربى على ما حلاّه به صاحب"الرياض"، ولا سيما ما شاهدناه من أنوار معارفه في مجالس درسه لـ"شفاء" القاضي عياض؛ فكنتُ أشاهد فيه إماما عظيما، وعالما جليلا، وتقيا نبيلا، لا يبغي باتباع السلف الصالح بديلا، راغبا في الاتباع، متباعدا عن ما أحدثه المُحْدِثون من الابتداع، متبعا للسنة في أقواله وأعماله، ناهجا منهج الصحابة الكرام، وأئمة التابعين الأعلام في سائر أحواله، معظما للجناب النبوي السامي، لاهجا بذكره الذي طاب اسمه وسما على كل الأسامي، محبّا لآله وأصحابه، منتميا إلى جناب أنصاره وأحبابه.

***

[تأليف الشيخ الكتاني في محاسن
قطب المغرب وسلطانه؛ المولى إدريس]

هذا ومن حُبه لآله، وشغفه بهم وتوسله بهم في بلوغ آماله؛ أن اعتنى بإمام المغرب وسلطانه، وعين الشرف الحسني ونخبة أعيانه، الطالع السعيد، الذي أشرق بطلعته بهذا المغرب الأقصى نور الإيمان، وأضاءت بضيائه الأرجاء، وانجَالت عن أرجانه الظلماء، يتيمة الدر النفيس، الإمام الشهير المولى إدريس، وألف فيه مؤلفا فريدًا، صار في المغرب في موضوعه وحيدا، وسماه:"الأزهار العاطرة الأنفاس، بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس".

وقد تلقّى هذا المؤلّف أهل المحبة وسلامة الاعتقاد، بمزيد التكريم والاغتباط، لما فيه من شيّم هذا القطب وأبنائه الأجلة الأنجاد، حتى قال قائلهم فيه:

كتابٌ قد سمَــا أفْقَ السَّماءِ	وفاقَ سنًا بذكر أبي العَـــلاءِ
فإن تظفر به تظفر بكنــز	من الخيراتِ يزكُــو بالبهَاءِ
وإن تحظ بملءِ العين منهُ	تفُز بالقصد من باب الوفــاء
عليك به وناضل عن عُـلاهُ	وزَوِّدْ بالـدُّعـــاءِ و بالثنَــاءِ

وصدَّر هذا المُؤلف الجليل، في ترجمة هذا القطب الذي عليه مدار كل شريف حسني بمغربنا الأقصى محقق أصيل، هذا الكتاب بقوله:

"يقول عبيد مولاه، وأسير جرمه وهواه، محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، أسكنه الله دار التهاني، وأكرمه بكرامة القرب منه والتداني، وأوصل إليه كل ما يرجوه من الأماني، آمين."

خطبة كتاب "الأزهار" لشيخنا الكتاني:

{الحمد لله الذي تفضل على من شاء من عباده بما شاء من أنواع المزايا وعظيم الكرامات، وامتنّ على من أراد من أهل وداده بجزيل العطايا ورفيع المقامات، وجعل منهم أفرادا وأقطابا وأوتادا يتصرفون في عالمي الأرض والسماوات، وفضل بعضهم على بعض في العلوم اللدنية، والمراتب العلية والمكانات، وميّز أبناء نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، فهدى بهم من داء الجهل والكفر والغوايات، وأمّن عباده بمحبتهم ومتابعتهم من الضلال وكثير من البلايا والمحن والآفات. قال عليه الصلاة والسلام:"النجوم أمانٌ لأهل

السماء، وأهل بيتي، أمانٌ لأمّتي." أخرجه أبو يعلى بسند حسن، عن سلمة بن الأكوع}. ثم صار يتم مطلع هذه الخطبة، إلى أن قال:

{أما بعدُ، فإن أحسن ما يجعل فيه العاقل أفكاره، وأولى ما يعمّر به اللبيب لياليه وأيامه وأعماره، ويُعمل فيه مداده وأقلامه، ويصير حديثه ذكره وراحةُ ومُدامه، محاسنُ أهل الله الأولياء، وخاصته من عباده الأصفياء، الذين هم مظاهر آيات نبيه وحبيبه، صلى الله عليه وسلم، المصطفى، ونوابه الخلفاء، المتخلقون بأخلاقه وخلاله، المتّبعون لأقواله وأفعاله؛ فبسماع ذكرهم ترتاح النفوس والقلوب والأرواح، وباستنشاق محاسنهم تهيج بها الأشواق إلى حضرة الفتاح، وبالتعلق بهم واللياذ بجنابهم، والانحياش إليهم، والوقوف بأبوابهم، يحصل التعلق بجناب الله الكريم، والوقوف ببابه العظيم، والتعرض لِرحماته الإلهية العميمة، ونفحاته الربانية الجسيمة. وقد ورد في حديث الطبراني في"الكبير"، عن محمد بن مسلمة مرفوعًا: "إن لِربّكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها، لعل أن تصيبكم نفحةٌ منها فلا تشقوْنَ بعدها أبدًا". وإذا كان عند ذكرهم تتنزل الرحمات، وتكمل سوابغ المنات؛ فما بالك بنشر محاسنهم الكريمة، ومناقبهم العظيمة} [ص3].

ثم صار يمهد بقوله:

{لا سيما من جمع له منهم بين شرف العلم والدين والطّين، والقرب والاصطفاء واليقين، وجعلهُ المولى سببا لعباده، في الإنقاذ من خسَّةِ الكفر وعناده، والتحلي بحلية الشرف والتقوى، والاستمساك بحبل رسوله، صلى الله عليه وسلم، الأقوى.} ثم قال:

{ومن أعظم من اتصف بهذه الصفة، وسعَى لعباد الله في هذا الخير العظيم، بعد أن كانوا على شفة؛ قطب دائرة أفلاك السيادة، وينبوع كل شرف وفخار ومجادة}. ثم قال مصرحا باسمه:

{العارف الكبير، والعلم الشهير، قطب جميع الأقطاب، ويتيمة جوهر العقد النفيس، أبو القاسم، وأبو العلاء، سيدنا ومولانا إدريس}. ثم صار يبين نسبه.

ثم ذكر أبواب الكتاب وما تضمنه كل باب، وحصر تلك الأبواب في خمسة عشر بابا:

الأول: في ذكر آبائه وأجداده. الثاني: في مولده وبيعته بالخلافة. الثالث: في حاله بعد بيعته وبنائه مدينة فاس. الرابع: في وفاته ومحل تربته وروضته. الخامس: في ذكر من خلف بعده من الأولاد. السادس: في ذكر بعض كراماته في حياته وبعد وفاته. السابع: في ثناء الأكابر عليه. الثامن: [في] أنه من أهل الخصوصية. التاسع: في بيان أنه من أهل التحكيم.

العاشر: [في] أنه يدفع الله به البلاء عن أهل بلده. الحادي عشر: ما يجده الأولياء وأفاضل الصلحاء في مزارته من الهيبة والوقار. الثاني عشر: [في]أن ضريحه، رضي الله عنه، مجرب لقضاء الحوائج. الثالث عشر: تأكد زيارته. الرابع عشر: في كيفية زيارته. الخامس عشر: ما قيل فيه من المدائح الشعرية.

ولقد أجاد، رحمه الله، في هذه الأبواب بذكر الفوائد المنسوبة لأهلها في هذا الإمام الشهير، الذي انتمى إلى أشرف الأنساب، وأطلق الله لسان أهل المغرب بذكر فضائله ومزاياه، وبشرفه واتصاله بسيد البشر، وجعله من أبواب التعلق بربّ الأرباب. وهذا شيء لا يشوبه، عند أكابر العلماء والصلحاء وأهل الله الصادقين، شك ولا ارتياب، كما بين ذلك شيخنا عنهم في كل باب.

والناس أكيسُ من أنْ يمْدحُوا رجُلاً مَا لـم يروْا عليه آثـار إحْسَان

[رؤيا مولاي إدريس
في المنام على هيئة سلطان]

قلت: ولا بد من أن يشارك كاتبه، محمد بن محمد المُرير، جامع هذه "الفهرسة"، في هذا الميدان، فأقول: ممّا ذكره شيخنا في الباب السادس من ذكر كراماته، رضي الله عنه، حيا وميتا، قال: ومنها رؤية كثير من الناس له مناما على هيئة سلطان، ومعه جنوده وعساكره. إلخ؛ إنه وقع لي في هذا الذي ذكره شيخنا في هذه الكرامة، أني رأيته رؤيا بين النوم واليقظة، وفق ما قاله شيخنا، وأنا في سن الحداثة. وأنا أحكي هذه الرؤيا، وإن كنتُ قد ذكرتها في غير هذا الموضع، فإني أعيدها هنا لأنه الأوفق بذكرها، تأييدا لمادة الكرامة التي ذكرها شيخنا، رحمه الله. وذلك أنني كنت أيام الحداثة وابتداء التعلم في غرفتي الخاصة من دار والدي أكتب متن "مختصر" الشيخ خليل في لوحي، حسبما كانت العادة. ولما فرغت من القدر الذي كنت أعده للحفظ، وضعته حذائي انتظارا لإنشاف الكتابة، ووضعت رأسي على مخدة للراحة، لا لقصد النوم؛ فشاهدت، وأنا بين النوم واليقظة، من جاء إليّ، وقبض على يديّ، إحداهما على الأخرى، فإذا أنا قرب الجامع الكبير من حضرة تطوان، واقف بدكانٍ كان معدّا لجلوس العدول للشهادة. وأظن كان ذلك الدكان يجلس فيه لتلقي الشهادة شيخنا الفقيه ابن الأبار، ورفيقه هناك الفقيه السيد محمد الزواقي، رحمهما الله. وهذا الدكان هو الذي صار بعد ذلك بابا لدار المرحوم سيدي عبد الله أفيلال؛ إذ سمعتُ قعقعة الحوافر الكثيرة من الدواب، فوجهت نظري لمحجة الطريق المقابلة للمسجد الجامع الكبير، فإذا أنا بكوكبة من الخيل

تصحبها ضجة، ومعها بعض الراجلين، وكنتُ أتوسم عليها سمة أهل فاس. ثم رأيت، وأنا واقف بالمحل المذكور، من تلك الكوكبة صفا متتابعا، واحدا بعد واحد، وفيهم رجل ممتطيا على فرسه، وهو رجل ربعة، عربي مائل إلى السمرة، وعلى رأسه[ ](*) مجردة، وهو لابس برنسا أخضر اللون من الملف. فصرت متشوفا لمعرفة هذا الأمر؛ فإذا أنا بصوت رقيق لطيف يقول: (الله يقوّي حرمك يا مولاي إدريس). ففهمت وعلمت أن ذلك الموكب موكب مولاي إدريس؛ فبادرت الاتصال بصاحب البرنس الأخضر، وهو على فرسه، وعمدت إلى ركابه، وقبلت ركبته، ولم يكلمني ولم أكلمه. ثم فلتتْ يدي بعضها من بعض، وتفطنت وأنا مرتاع. ثم إنه بعد ذلك، قصصت ذلك على والدي، فقال لي بسرعة: إنك ستذهب لفاس للقراءة.

ومن العجب أن ذلك كان، وأنا لا أعرف مولاي إدريس إلا كما يعرفه مطلق العوام: ما قرأت له ترجمة، ولا اطلعت على تاريخه الذي أمضاه في المغرب، ولا عرفت أنه كان أميره وسلطانه، ولا دريت مكانته في المعارف، ولا علمت جلالته وعرفانه.

وتمّ في ذلك مبلغ علمي في هذا الإمام، حتى مضت سنون وأعوام، ومنَّ الله عليَّ بملكِ كتاب شيخنا هذا، الذي سماه:"الأزهار العاطرة الأنفاس"، وقرأت كلام شيخنا في ذلك، وأنه يُرى في المنام على هيئة أمير وسلطان. وقد رآه العُبيْد الضعيف كذلك، فوقع لي بكلام شيخنا من الفرح والسرور ما لا تحدّه العبارة، ولا يستوعبه إيماء ولا تبلغه الإشارة.

واستفدت بعد الاطلاع على كلام شيخنا فوائد زوائد؛ منها صحة كرامات هذا الإمام، وأنه كانت له الإمامة الظاهرة والباطنة، بدليل أنه كان يُرى في عالم المثال في صورة الأمير والسلطان، كما رآه العبد الضعيف رؤيا أخرى، كما قدمنا.

وفي هذا يقول شيخنا، رحمه الله، بعد أن نقل عن الصالح المدرع الأندلسي، في "نظم صلحاء فاس"، أن هذا الإمام ، رضي الله عنه، ممن جُمع له بين الخلافة الظاهرة والباطنة؛ قال شيخنا: ومعلوم أن الخلافة الباطنة، هي القطبانية العظمى. قال في "شرح المواهب اللدنية"، عن بعض العلماء: القطب هو الخليفة الباطن، وسيد أهل زمانه. سمي قطبا لجمعه جميع المقامات والأحوال، ودورانها عليه.هـ وقال الشهاب في"شرح الشفا"، نقلا عن صاحب "حكمة الإشراق" في كتابه: لا بد لله من خليفة في أرضه، يكون متصرفا ظاهرا فقط كالسلاطين، أو باطنا فقط كالأقطاب، أو يجمع بين الخلافتين، كالخلفاء الراشدين، كأبي بكر

(*) بياض في الأصل. ولعلها: "قلنسوة".

وعُمر، وَعُمر بن عبد العزيز.هـ قال شيخنا: وممّن يُجمع له بينهما الإمام المهدي المنتظر، الذي يخرج في آخر الزمان. والله أعلم. هـ [الأزهارالعاطرة الأنفاس:219].

[عدّ معاوية بن يزيد، والمتوكل من الخلفـــاء]

قلت: وفي "الفتوحات" للحاتمي، رضي الله عنه، في الكلام على الأقطاب: ومنهم من يكون ظاهر الحكم، ويحوز الخلافة الظاهرة، كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام؛ كأبي بكر وعمر، وعثمان وعلي والحسن، ومعاوية بن يزيد، وعُمر بن عبد العزيز، والمتوكل.هـ انظر الباب 73 جزء2 صح6.

والمتوكل هذا الذي عدّوه مع الخلفاء؛ هو الخليفة العباسي الذي هزم جيش الفتنة التي نشأت عن القول بخلق "القرآن"، وامتحن فيها الإمام أحمد وجماعته من أكابر علماء أهل السنة؛ فكانت له بذلك عند أهل السنة والجماعة المكانة المكينة، والمنزلة العظيمة، إذ رفع عن الأمة ما كانت عليه من النكبات، وعظائم المصيبات، وتهافت أهل الابتداع، وتفريق ما كان للجماعة من الاجتماع.

والمتوكل هو أمير المؤمنين، جعفر المتوكل على الله ابن محمد المعتصم بالله ابن هارون الرشيد. بويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق سنة232. قال العلامة الدميري في "حياة الحيوان":

فرفع المحنة بخلق "القرآن"، وأظهر السنة، وأمر بنشر الآثار النبوية. قال: وكتب للآفاق برفع المحنة، وإظهار السنة، وتكلم في مجلسه بالسنة وأعز أهلها، وأخمد المعتزلة، وكانوا في قوة ونماء إلى أيام المتوكل فخمدُوا، ولم يكن في هذه الملة الإسلامية أهل بدعة شر منهم. نعوذ بالله من شر مقالتهم، ونسأل الله السلامة من الزّيغ والردى. هـ [94/1].

وهذه منقبة عظيمة أكسبته عند أئمة السنة، وأفاضل الأمة المشار إليهم بالخير والصلاح، مقاما عظيما ألحقته به بخلفاء أئمة الأمة الراشدين. فقد روى الإمام الحافظ الخطيب في "تاريخ بغداد"، بسنده عن إبراهيم التيمي، قاضي البصرة، أنه كان يقول: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق، قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، وعمر بن عبد العزيز، ردّ مظالم بني أمية، والمتوكل، محا البدع، وأظهر السنة.هـ[170/7].

قلت: وليس في هذا نفي الخلافة عمن سوى الثلاثة، ولكن القصد، فيما يظهر، هو التنويه بقدر المتوكل. والله أعلم.

وقد رأى بعض أفاضل عصر المتوكل مرائي تدل على قربه من ربه بغفران ذنبه؛ منها ما رواه الخطيب، عن علي بن إسماعيل، قال: رأيت جعفرًا المتوكل بطرسوس في النوم، وهو في النور جالس. قلت: المتوكل؟ قال: المتوكل. قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بقليل من السنة أحييتها. [170/7].

إلى غير ذلك من المرائي. والله يؤتي فضله من يشاء، ويلحقه بأدنى سبب إلى مقام الأولياء والأصفياء.

وأما معاوية بن يزيد بن معاوية، الذي عدّه محيي الدين من الخلفاء؛ فإنه لما بويع له بالخلافة، بعد أبيه وجده، فإنه لم يمكث فيها إلا أياما يسيرة، فخلع نفسه، وتخلى طوعا عن هذا الأمر العظيم، وآثر ما يبقى على ما يفنى، وعدَّ في ذلك من أهل الصلاح والزهد الراغبين في ربهم في المقام الأسنى، وإن الآخرة خير من الأولى.

قال العلامة الدميري: لما خلَع نفسه، صعد المنبر فجلس طويلا، ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء، ثم ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، بأحسن ما يذكر به. ثم قال: أيها الناس؛ ما أنا بالراغب في الانتمار عليكم، لعظيم ما أكرهه منكم. وإني لأعلم أنكم تكرهوننا أيضا، لأنا بلينا بكم، وبليتم بنا؛ إلا أن جدّي معاوية، رضي الله عنه، قد نازع في هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقرابته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم صار يعدد فضائل سيدنا علي. قال: ثم انتقلت الخلافة إلى أبي يزيد فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه. ثم صار يعدد مثالب أبيه ومساويه وإساءته. ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم، والساخط عليّ أكثر من الراضي. ثم قال: فشأنكم أمركم، فخذوه، ومن رضيتم به عليكم فولُّوه، فقد خلعتُ بيعتي من أعناقكم. ثم صار أهله وأقاربه يحاولون رده عن ذلك، فلم يرجع عما صمم عليه، ودخل بيته حتى توفيَ، بعد خلع نفسه بأربعين ليلة أو سبعين ليلة، وعمره ثلاث وعشرون سنة. وكان بنو أمية اتهموا مُعلمه بأنه لقنه حب عليّ، وزهده في الخلافة، فحلف لهم على أنه ما لقنه، ولكنه جبل على حب علي، وزهده في الخلافة. [حياة الحيوان:69/1].

أما المتوكل؛ فإنه شَانَ تلك الحسنة التي انتصر بها للسنة بضد ما جُبل عليه السيد معاوية هذا؛ فإن المتوكل أشربته هذه العقيدة النصبية تلك البطانة السيئة التي كانت تحتفَ

به، إذ كان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض عليّ، فكانوا يخوّفونه من العلويين، ويشيرُون عليه بإبعادهم والإساءة إليهم، وتنفير الناس من تعظيم أسلافهم. ومن جملة ذلك ما أوقعه بمشهد سيدنا الحسين، وهي من الوقائع العظيمة في الإسلام؛ فقد ترجم لها ابن الأثير في"كامله" ترجمة خاصة، فقال:

"في هذه السنة، وهي سنة 236، أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي، عليه السلام، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذرَ ويُسقى موضع قبره، وأن يُمنع الناس من إتيانه؛ فنادى في الناس في تلك الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة، حبسناه في المطبق. فهرب الناس، وتركوا زيارته، وخرّب وزرع}. هـ[21/7].

[استدراك على مؤرخ بغداد
عدم ذكر مثالب المتوكل والاكتفاء بالمحاسن]

ومن العجب أن المؤرخين كلهم، كابن جرير وابن الأثير وابن خلكان والدميري، ذكرُوا هذه الهفوة العظيمة التي ارتكبها المتوكل، وأعرض عن ذكرها مؤرخ بغداد، الذي هو مؤرخ الدولة في ذلك القطر. والظن أن تركه لذكرها، وإعراضه عن نشرها؛ خوف إذاعة هذا الشر الذي كان ساكنا، أو مراعاة للدولة التي كان تحت أحضانها، أو لما رأى في هذه القضية من الارتياب، أو كان فِعْل المتوكل هذا محافظة على ركن الخلافة أن ينهار، ميلا لما قرره له أهل الأغراض السيئة، والمذاهب المبتدعة؛ من أنه إن لم يفعل هذا ويجعل للثورة حدا، يتعاظم الأمر ويعظم اتقاؤه، والله أعلم. فخرج الخطيب من باب السلامة وتحسين الظن، واقتصر على ذكر المحاسن والمناقب، وأعرض عن إشاعة المساوئ والمثالب، والله جلّ وعلا على عباده غالب.

ومن جملة ما ذكره من مناقب المتوكل، ما رواه بسنده إلى علي بن الجهم السامي، قال: وجه إليّ أمير المؤمنين المتوكل، فأتيته فقال: يا علي؛ رأيتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، الساعة في المنام، فقمت إليه، فقال لي: تقوم إلي وأنت خليفة؟. فقلت: أبشر يا أمير المؤمنين؛ أمّا قيامك إليه، فقيامك بالسنة، وقد عدّك من الخلفاء. قال: فسرّ بذلك.هـ[تاريخ بغداد:170/7].

قلت: وهذا ممّا يؤيد من عدّ المتوكل من الخلفاء، كما سبق، والله أعلم.

وفي "تاريخ" أبي الفدا، بعد أن ذكر ما شَانَ نفسه من اكتساب بغض سيدنا علي من مجالسة تلك البطانة السيئة التي كانت تدين ببغض متبع الشرف وباب العلم ومعدن الفضل، كابن الجهم الشاعر، وأبي السمط، وأمثالهما، قال:

{فغطّى ذمّه لعليّ على حسناته؛ وإلا فكان من أحسن الخلفاء سيرة. هـ[38/2].

***

[عود إلى ترجمة الشيخ الكتاني، والكلام على محبّته في الجناب النبوي المحمدي]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده، من بيان فرط محبة شيخنا في الجناب النبوي المحمدي العظيم، وتعظيم مقامه، وتوقير جميع أسبابه، من آله وأصحابه، ومن آكد برّه، وأولاه بالتقديم، بر آله، والتنويه بذكرهم، والتمدح بفضائلهم، وطهارة مقاماتهم، وعلو مراتبهم، وتقديسهم عند جريان الحديث عنهم، وإلقاء القصائد في تحليتهم، وإنشادها في المجتمعات، واعتقاد أن الله فضلهم بسبب اتصالهم بهذا النبي العظيم المقدار، بفضل، منه جل وعلا، واختيار.

ولهذا أطنب شيخنا في هذا المقام الإدريسي بذكر مناقبه، وما أعطاه الله من شريف الخصال التي لذّ سمعها عند أهل المحبة في المقام النبوي وطاب، وقد استوعب في ذلك ما يناسب كل باب.

[الجواب عن القول بأن أهل فاس خرجوا بتعظيم المولى إدريس إلى التشيع]

وهنا ربما يقول القائل إن هذه المبالغة في المدح خرجت عن حدّ الاعتدال، وشاركت فيها طوائف الشيعة في المقال.

وقد كان كثيرا ما يقول لي بعض من ينتسب للعلم، ويشار إليه بالاطلاع والفهم: إن أهل فاس، وأهل العلم منهم، خرجوا بتعظيم المولى إدريس إلى التشيّع. وكان في بعض الأحيان يقول لي: إن أهل فاس كلهم شيعة. أو كلاما هذا معناه.

ولكن هذا القائل كان، فيما يظهر، لا يُحقق مذهب الشيعة التي هي طوائف المبتدعة؛ فإن الشيعة أصل عقيدتهم هو مشايعة عليّ ومعاضدته، في أمور مخالفة للسنة، ومباينة للجماعة وأهل الحق، فهم يشايعونه ويتعصبون له على خلاف ما يراه، وعلى ضد ما

يعتقده. وقد أسلفنا في هذه"الفهرسة" الكلام عليهم وعلى أصل نشأتهم، واستوفينا الكلام فيهم، وما وقع لسيدنا علي معهم، فليراجع في موضعه.

وإنما المراد هنا بيان أن هذا التشيع الذي نسب لأهل فاس، وأهل العلم منهم؛ هو مباين لهذه الطائفة المبتدعة التي أصلها هو التفريق بين الأمة، والقدح في إمامة الخلفاء. ثم أفرطوا في مشايعة سيدنا علي، ومبالغتهم في تقديسه وتعظيمه، حتى قال غلاتهم له: أنت الإله حقا. قال الإمام العضد في"المواقف"، بشرح السيد الشريف:

{الشيعة، أي الذين شايعوا عليا، وقالوا إنه الإمام بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالنص، إما جليا وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده، وإن خرجت فإما بظلم يكون من غيرهم، وإما بتقية منه أو من أولاده. وهم اثنان وعشرون فرقة يكفر بعضهم بعضا. أصولهم ثلاث فرق: غلاة وزيدية وإمامية. أما الغلاة، فثمانية عشر منها السبائية. قال عبد الله بن سبإ لِعليّ: أنت الإله حقا، فنفاه إلى المدائن. وقيل إنه كان يهوديا.}[284/8].

وصار يعدِّد فرقهم، ومقالاتهم الكفرية، إلى أن استوفى تلك الفرق الضالة، التي لم يخطر ببال مطلق مؤمن من أهل السنة أن يقول بذلك، فضلا عن علمائهم، فضلا عن أورع علمائهم وأشدهم تمسكا بالسنة، ومحبة الله ورسوله وآله وأصحابه وأتباعه، كما ترى ذلك مبسوطا في كلامه في كتابه هذا.

وإنما تشيّع شيخنا وأمثاله هو التشيع لمحبة الله، التي هي الأصل الأول، والعروة الوثقى التي من اعتصم بها فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

ثم حُبّ رسوله، صلى الله عليه وسلم، بتعظيمه وتوقيره، والاهتداء به في أقواله وأفعاله، والتحلي بجميل شيمه وأخلاقه، أي باتباعه والتمسك بسنته، يكتسب العبد محبة ربه، كما قال تعالى في مُحكم كتابه: (قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)، وهو الصراط المستقيم الذي قال فيه تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)، وباتباعه يكون المؤمن مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وفي الحديث الشهير، الذي قيل انه متواتر، عن أنس، رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله. متى الساعة؟ فقام النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى الصلاة ثم صلى، ثم قال: "أين السائل عن الساعة؟" قال: أنا،

قال: "ما أعددت لها؟"، قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت". قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها.هـ وهذا شيء معلوم معروف عند كل مؤمن، فضلا عن العالم المتقي.

ومن محبته، صلى الله عليه وسلم، وبرّه وإعظامه؛ تعظيم آله ومن له انتساب إليه من أصحابه وأتباعه، بأنواع التعظيم والبرور، ونشر محاسنهم، وإذاعة مناقبهم، من مدحهم بترداد كمال أوصافهم وجمال أخلاقهم، وإعلاء مقاماتهم، نثرا ونظما. قال القاضي عياض في "الشفا":

ومن توقيره، صلى الله عليه وسلم، وبره؛ بر آله. قال الشهاب: وبرهم بالإحسان إليهم، ومعاونتهم ومودتهم ورعايتهم.[شرح الشفا: 453/3]. قال القاضي: كما حض، عليه الصلاة والسلام، عليه، وسلكه السلف الصالح، قال تعالى: (إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ). ثم روى عن زيد بن أرقم، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، "أنشدكمُ اللهَ وأهلَ بيتي"، ثلاثا، الحديث. وفي حديث ذكره القاضي أيضا: "معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب". قال القاضي: قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم منه، صلى الله عليه وسلم، وإذا عرفهم بذلك، عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه. قال الشهاب: لا لفرض آخر، وقد دعا النبي، صلى الله عليه وسلم، لمن أحبهم لحبه، صلى الله عليه وسلم. هـ[شرح الشفا:455/3].

فهذه هي المحبة التي تمسك بها المحبون لهذا النبي الكريم، وهي المحبة التي دعت شيخنا وأمثاله إلى عمارة أوقاتهم بذكر فضائلهم ونشر شرفهم وعلو مناصبهم؛ وهذا مباين تمام المباينة لتشيع الرافضة وأمثالهم من طوائف الشيعة الضالة. وفي هذا يقول الإمام الشافعي، رضي الله عنه:

يا راكبا قف بالمحصَّب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهِض
سحرًا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

هذا، ولم يزل أئمة الإسلام، وأكابر علمائهم وفضلاء شعرائهم، وأصحاب النثر من نبغاء الأقلام، في جمع المؤلفات في إفاضة المدح، والتباري في الإطناب في ذكر شيم،

ونشر شمائل وخصائص نيرة تنتعش بها الأسماع، وترتاح بها الأرواح، فيما اتصف به هذا النبي الذي هو لكل فضل مصباح. ونظموا ونثروا وجمعوا المؤلفات، وأكثرها من القصائد الرائعات، والأشعار البليغة الرائقات. ولكن قد وقفوا وعجزوا عن الاستيفاء، وأيقنوا أن حصر فضائله، عليه السلام، لا يستوعبها حد ولا يحصرها إحصاء، ولهذا قال العارف ابن الفارض:

وعلى تفنُّن واصفيه لحسنـــه يفنى الزمان وفيه ما لم يُوصـف

[حديث: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم"]

وأما قوله، عليه السلام، فيما رواه البخاري، وذكره القاضي عياض: "لا تطرُوني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم"، أي معناه نهيه، عليه السلام، عن المبالغة في مدحه، والكذب به، وإخراجه بذلك عما لا يليق بالبشر، من مشاركته في الربوبية وأوصافها. وقد بين ذلك، صلى الله عليه وسلم، بقوله: "كما أطرت النصارى عيسى بن مريم"؛ فإنهم قالوا فيه إنه ابن الله، وغيره مما هو مشهور. أما مدحه، صلى الله عليه وسلم، بما يليق من الشيم العالية والمناقب والمفاخر، فهي مطلوبة من كل أحد من الأوائل والأواخر. ولهذا قال الإمام البوصيري:

دع ما ادّعتهُ النّصارَى في نبيّهــمُ واحكُم بما شئتَ مدحًا فيـه واحتكِم
وانسبْ إلى ذاته ماشئتَ من شرفٍ وانسبْ إلى قدره ما شئتَ من عِظَمِ
فإنّ فضلَ رسول اللهِ ليس له حـدٌ فيُعربَ عـنه نــاطقٌ بفــــمِ

وهذا المعنى لا بد أن يلاحظ في حق آله الأشراف، وأصحابه الذين اكتسبوا منه، عليه الصلاة والسلام، جمال الشيّم وكمال الأوصاف؛ فلا يبالغ في تحليتهم بالمدائح الجليلة، ونسبة الخصائص التي لا تليق إلا بالأنبياء والمرسلين، من المقامات العالية، التي خُصّوا بها، والمعجزات التي جاءُوا بها، تأييدا من الله لرسالتهم، وتصديقا لما أبلغوه من الشرائع التي أوحى الله إليهم بها.

[التحذير أيضا من الغلو في تعظيم الأمراء والأئمة والأشياخ]

وفي حكمهم الأمراء والأئمة والأشياخ؛ فلا يبالغ في أمداحهم والإطراء في ذكر مناقبهم وفضائلهم، حتى يساوُوا بهم مقامات الأنبياء والرسل، كما حذا حذو ذلك جهلة

أتباع الأشياخ، من عامتهم وبعض خاصتهم؛ إذ تغالى قومٌ في تعظيم شيوخهم حتى ألحقوهم بما لا يستحقونه.

قال أبو إسحاق الشاطبي في"اعتصامه": فالمقتصد منهم يزعم أنه لا ولي لله أعظم من فلان، وربما أغلقوا باب الولاية. قال: وهو باطل محض.

ثم ذكر ما كان عليه الأولون من الصحابة وأتباعهم في رسوخ الإيمان، وأنه لو أنفق أحدٌ من المتأخرين وزن أحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدَّ أحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا نصيفه. وإذا كان ذلك في المال، فكذلك في سائر شعب الإيمان، بشهادة التجربة العادية.

ثم ذكر أن الحامل لهذا الاعتقاد هو الجهل الغالب، والغلو في التعظيم. ثم قال: والمتوسط، أي في التغالي في التعظيم، يزعم أنه مساوٍ للنبي، صلى الله عليه وسلم، إلا أنه لا يأتيه الوحي. قال أبو إسحاق:

"وقد حدثني بعض الشيوخ، أهل العدالة والصدق في النقل، أنه قال: أقمت زمانا في بعض القرى[بـ]البادية، وفيها من هذه الطائفة المشار إليها كثير. قال: فخرجت يوما من منزلي لبعض شأني، فرأيت رجلين منهم قاعدين، فاتَّهمت أنهما يتحدثان في بعض فروع طريقتهم، فقربت منهما على استخفاء لأسمع كلامهما، إذ من شأنهم الاستخفاء بأسرارهم، فتحدثا في شيخهم وعظم منزلته، وأنه لا أحد في الدنيا مثله، وطربا لهذه المقابلة طربا عظيما. ثم قال أحدهما للآخر: أتحب الحق؟ هُو النبيّ. قال: نعم هذا هو الحق. قال المخبر: فقُمتُ من ذلك المكان فارًّا أن يصبني معهم قارعة".هـ [349/1].

اللهم يا مولاي املأ قلبي بمعرفتك، وعرّفني بمقامات من خصصته وجعلته أهلا لرسالتك ونبوتك، حتى أعامل الكل على حسب ما اقتضاه مقامه، وأقدّسه تقديسا يستوجبه احترامه، لأسلم من وُرودِي موارد الجهالة، وأتباعد عن مداحض إساءة الأدب مع الله ورسوله والوقوع في مهاوي الضلالة. آمين.

هذا ولم يزل أهل الفضل والنبل يظهرون فائق محبتهم لأشراف الآل، ويدبِّجُون لبَّات صحائفهم بجواهر الأمداح التي مِلؤها الإكبار والإجلال، ويتبارون في نشر محاسنهم بالمبالغة والإطناب، لكن دون خروج عن الحدود التي بينت في هذا الباب.

[قصيدة الفرزدق في مدح علي بن الحسين]

ومن أحسن ما روي في هذا المعنى عن المتقدمين من شعراء الإسلام، ما مدح به أبو فراس، همام بن غالب الفرزدق، الذي يُعدّ من التابعين، فإنهم ذكروا أنه روى عن سيدنا علي، وعن أبي هريرة، والحسين وابن عمر، وتوفي أول ستة عشر ومائة. قال أبو عمر: وكان ثلاثة من شعراء الإسلام، يشبه شعر ثلاثة من شعراء الجاهلية: الفرزدق بزهير، وجرير بالأعشى، والأخطل بالنابغة.

ومديحه هو تلك القصيدة الشهيرة التي تشهد له بالتبريز في ميدان الشعراء، وتدل دلالة واضحة على محبته في أهل البيت الشريف، دون تشيع قبيح، ولا تطرية شعره بالأوصاف الكاذبة الخارجة عن منهج أهل المحبة الصحيح؛ فقد روى هذه القصيدة بسنده التاج السبكي في "طبقاته"، وذكر سبب إنشاد الفرزدق لها، وذلك يعد من حسناته، إذ قال عن الراوي:

حجَّ هشام بن عبد الملك، في زمن عبد الملك أو الوليد، فطاف بالبيتِ فجهد أن يصل إلى الحجر فيستلمه، فلم يقدر عليه، فنصب له منبر، وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه أهل الشام، إلى أن أقبل علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وكان من أحسن الناس وجها، وأطيبهم أرجا، فطاف بالبيت. فلما بلغ الحجر، تنحى له الناس حتى يستلمه، فقال رجل من أهل الشام: من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرا، فقال الفرزدق: لكني أعرفه. قال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فقال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه، والحل والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلمُ
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرمُ
ينمى إلى ذروة العزالتي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجمُ
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلمُ
يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسمُ
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمَمُ
ينشق نور الهدى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلمُ

مشتقة من رسول الله نبعته طابت عناصره والخيم والشيمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد خُتِموا
اللّه شرفه قدما و فضله جرى بذاك له في لوحه القلمُ
فليس قولك من هذا؟ بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجمُ

ثم قال مُعمّما لذكر أهل البيت:

من معشر حبهم دين، و بغضهم كفر، وقربهم منجى ومعتصمُ

ثم قال:

يستدفع السوء والبلوى بحبهم ويستزاد به الإحسان والنعمُ
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختوم به الكلمُ

[الطبقات:153/1]

وهي قصيدة كلها دُرر، تستحق، لبلاغتها ووقوع تلك المدائح في محلها، أن تكتب بالذهب على غرر الطرر؛ فبمثل هذه ينبغي أن تنظم جواهر الأمداح، وبزواهر هذه الأزهار يتسابق الشعراء إلى نشر عاطر روائحها فتنتعش بها الأشباح، وتبتهج بها الأرواح، إذ أفصحت بأبلغ مديح، وأرق كلام فصيح، خاليا من افتراءات الشعراء الكاذبة، والمبالغة إلا بالنبا الصادق والمديح الصحيح، وهو مضمن ما أشرنا إليه سابقا، مما أخذناه من قوله عليه السلام: "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم"، فلا حاجة لإعادة ذلك هنا.

[تأليف للشيخ الكتاني في المولد النبوي الشريف]

هذا ومما يدل على محبة شيخنا الكتاني، رحمه الله، في الجناب النبوي وآله، وفنائه في الوله بهذا المقام العالي وإعظامه وإجلاله، ما ألّفه في المولد النبوي الشريف، ودبّجه من مقالات الأئمة ومدائحهم بكل معنى لطيف، وحلّى لبّات صحائفه بزواهر السجعات، وجواهر المعاني البليغة الرائقات.

وقد افتتح هذا المؤلّف الرائق الذي سماه:"إسعاف الراغب الشائق، بخبر ولادة خير الأنبياء وسيد الخلائق"، بقوله:

"نحمدك اللهم يا من افتتح بالنور الباهر الأحمدي، والجناب العاطر المحمدي، كل مخلوق وموجود، وجعله بذرة الأكوان، ودرة الأعيان، وأبرزه طالعة الوجود، فكان الوالد

للأرواح، والبادي بالأفراح، والسابق لكل كرم وجود، والفاتح لما أغلق من الأنوار، وسائر المعارف والأسرار، وجميع الخيرات التي لم تفتح قط لمولود".

ثم استمر في هذه الخطبة المدبجة بالأسجاع، التي تستلذ فقراتها الأسماع.

[اعتماد شيخنا الكتاني
قول من قال بجواز إقامة المولد النبوي عيدًا]

ثم شرع في الموضوع على نسق هو فيه، رضي الله عنه، ليس بالقائل المبتدع. جزاه الله على خدمته هذا المقام الحريّ بكل إجلال وإعظام.

ثم إن شيخنا، رحمه الله، اعتمد في هذا ما ذهب إليه المحققون من أعلام المتأخرين من أهل المغرب، من اتخاذ يوم هذا المولد من الأعياد والمواسم، وتلقيه بوجوه مستبشرة وثغور بواسم، والاحتفال به كسائر الأعياد، من التحلي بأفخر اللباس، وإظهار الشكر لله، جل وعلا، بولادة هذا النبي الكريم؛ إذ أصبحت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

ولم يكن ذلك عيدا عند المتقدمين، ولا كانوا يخصّون يومه بشيء من خصوصية العيدين اللذين أتى بهما النص عن سيد المرسلين. لكن من أجاز ذلك أو طلبه؛ اشترط خلوه مما يخالف الشريعة، ويخرق بالسرف فيه واللهو والخروج عن حدودها المنيعة، كما يأتي ذلك عن شيخنا وغيره.

[مباحث
في المولد النبوي الشريف]

ثم إننا لا نُخلِي هذه"الفهرسة" من الإلمام بمباحث مهمة في هذا المولد الشريف، تبركا بذلك وطلبا للثواب، وتحقيقا للمقام، لمن يريد من أهل النبل الاستفادة مما يبلغه من تتبع هذا المبحث وذيوله ما يغتبط به من المرام.

وعليه؛ فيمكن أن نجعل الكلام يشتمل على نشأة الأعياد في الإسلام، وعلى اشتقاق اسم العيد ومعناه، ووجه تسمية العيد عيدا، وعلى ما كان عند العرب من المواسم التي كانت لهم في حكم الأعياد، وعلى أعياد الأمم القديمة من الفرس والروم والقبط، على اختلاف أديانهم، وهل يجوز في الملة الإسلامية إحداث أعياد لم تأت بها السنة؟ وما حكم إقامة المولد النبوي الشريف وجعله عيدا من الأعياد؟.

***

[نشأة الأعياد في الإسلام]

أما نشأة الأعياد في الإسلام؛ فأقرب ما وقفت عليه في ذلك: أولا ما وقع في حديث لعب الحبشة بالحراب والدرق بحضرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وإسعاف النبي، صلى الله عليه وسلم، للتفرج والنظر إليهم يلعبون في يوم العيد. وبهذا المعنى ترجم البخاري في"صحيحه" بقوله: (باب الحِراب والدرق يوم العيد)، وذكر داخل الترجمة أن السيدة عائشة قالت: وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث. وفي الحديث أن سيدنا أبا بكر أنكر سماع ذلك على عائشة، وفيه قول النبي، صلى الله عليه وسلم: " يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا".هـ[125/1].

قال في "الفتح": ففيه تعليل الأمر بتركهما، وإيضاح خلاف ما ظنه الصديق من أنهما فعلتا ذلك بغير علمه، صلى الله عليه وسلم. قال: فأوضح له النبي، صلى الله عليه وسلم، الحال، وعرفه الحكم، مقرونا ببيان الحكمة بأنه يوم عيد، أي يوم سرور شرعي، فلا ينكر فيه مثل هذا، كما لا ينكر في الأعراس.هـ[301/2].

وقوله: لكل قوم، أي من الطوائف، وقوله: عيدا، أي كالنَّيرُوز والمهْرجان. قال ابن حجر: وفي النسائي وابن حبان، بإسناد صحيح، عن أنس: قدم النبي، صلى الله عليه وسلم، المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: "قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما؛ يوم الفطر والأضحى".

وفي هذا الحديث لموضوعنا النَّص الواضح على نشأة هذين العيدين، وأنهما بنصٍّ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الله؛ إذ قال لهم:"قد أبدلكم الله بهما خيرا منهما"، أي من هذين اليومين الذيْن كانوا يلعبون فيهما، ويتخذونهما أيام لهو ولعب وفرح. كما أن في أحاديث الباب، وما شرحه بها الحافظ ابن حجر، فوائد كثيرة؛ منها سنة الاحتفال بهذين العيدين من التوسع في المآكل والمشارب. وقال الحافظ:

"وفي هذا الحديث من الفوائد، مشروعية التوسعة على العيال أيام الأعياد، بأنواع ما يحصل لهم به بسط النفس، وترويح البدن من كلف العبادة". قال: "وفيه أن إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين". هـ[302/2].

أما التجمل في العيد؛ فقد تقدم في ترجمة البخاري أول الكتاب: (باب في العيدين والتجمل فيه). وذكر ابن حجر داخل هذا الباب ما رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناد صحيح إلى ابن عمر، أنه كان يلبس أحسن ثيابه في العيدين. هـ [فتح الباري:300/2].

واستدل الصوفية بحديث الباب على إباحة الغناء وسماعه بآلة وبغير آلة. ولكن ردّ ذلك الحافظ ابن حجر ردًا عنيفًا، ولا سيما بهذه الآلات المطربة، قائلا:

"وأما الآلات، فسيأتي الكلام على اختلاف العلماء فيها، عند الكلام على حديث المعازف في كتاب الأشربة. وقد حكى قوم الإجماع على تحريمها، وحكى بعضهم عكسه".

قال: "ولا يلزم من إباحة الضرب بالدّف في العرس ونحوه، إباحة غيره من الآلات كالعود}.هـ[فتح الباري:302/2].

وسبق له أن قال في شأن الصوفية: "وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك؛ فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه. لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن يُنسب إلى الخير، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصُوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقح بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال، وأن ذلك يثمر سنى الأحوال. وهذا على التحقيق من آثار الزندقة. وقول أهل المخرقة. والله المستعان".هـ ما نقله ابن حجر، وسياقه من كلام القرطبي. [فتح الباري: 302/2].

قلت: وهذا المبحث بجميع فروعه في الغناء وأنواعه، وما قاله أهل العلم في ذلك اتفاقا واختلافا، قد حررنا الكلام فيه في ترجمة الشيخ الصالح سيدي عبد السلام ابن ريسون، من جزء "الفهرسة" الأول، فليراجع. وإنما أعيد هنا اتباعا لما أخذ من أحاديث العيدين.

ومن بقية فوائد هذه الأحاديث؛ جواز الألعاب بالسلاح أيام العيد في المسجد، وقد تكلم العلماء في ذلك. وفي كلام ابن المُنير ما يفيد أن هذا من قبيل التدريب في الحرب، وهو الذي كان يسبق إلى ذهني، فإنه قال، حسبما نقله في "الفتح"، في لعب الحبشة بهذا السلاح يوم العيد:

{والنبي، صلى الله عليه وسلم، سماه لعبا، وإن كان أصله التدريب على الحرب، وهو من الجد، لما فيه من شبه اللعب، لكونه يقصد إلى الطعن ولا يفعله، ويُوهم بذلك قرنه، ولو كان أباه أو ابنه}.هـ [303/2].

قلت: وقد يؤخذ من هذا مشروعية المدرسة الحربية التي وضعت في هذه الأعصار، ولذلك شواهد أخرى.

قال ابن حجر: واستدل به على جواز سماع صوت الجارية بالغناء، ولو لم تكن مملوكة، لأنه، صلى الله عليه وسلم، لم ينكر على أبي بكر سماعه، بل أنكر إنكاره. ثم قال: ولا يخفى أن محل الجواز، ما إذا أمنت الفتنة بذلك.هـ [302/2].

[اشتقاق اسم العـيد]

أما اشتقاق العيد ومأخذه من اللغة؛ قال الإمام الراغب في كتابه"مفردات القرآن": والعيد ما يعاود مرة بعد أخرى. وخص في الشريعة بيوم الفطر ويوم النحر. ولما كان ذلك اليوم مجعولا للسرور في الشريعة، كما نبه النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: "أيام أكل وشرب وبعَال"؛ صارت تستعمل في كل يوم فيه مسرة، وعلى ذلك قوله:(يَكُونُ لنا عِيدًا)هـ[162/2].

ومن"تاج العروس" ممزوجا بمتن"القاموس": والعيد كل يوم فيه جمع، واشتقاقه من عاد يعود، كأنهم عادوا إليه. وقيل: اشتقاقه من العادة، لأنهم اعتادوه. والجمع أعياد، لزم البدل، ولو لم يلزم، لقيل: أعواد، كريح وأرواح، لأنه من عاد يعود. ثم قال: قال الأزهري: والعيد عند العرب: الوقت الذي يعود فيه الفرح والحزن، وكان في الأصل العود. ثم ذكر ما جرى في تصريفه، ثم قال: قال ابن الأعرابي: سمي العيد عيدا لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد.هـ [438/2].

[لم يكن للعرب في الجاهلية عيد خاص]

أما العرب قبل الإسلام؛ فلم ينقل عنهم أنه كان لهم عيد خاص. أما قوله في الحديث الذي سبق أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما قدم المدينة، وجد أهلها ولهم يومان يلعبون فيهما؛ فيحتمل أنهم كانوا تابعين فيهما لغيرهم من الطوائف التابعين لأديانهم، لأن العرب قبل الإسلام كان فيهم من يميل إلى اليهودية، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يميل إلى الصابئة، كما قاله أبو الفدا.

ويدل لهذا قول ابن حجر: وفي قوله: "لكل قوم"، أي من الطوائف، وقوله "عيد"، أي كالنيرُوز والمهرجان.هـ. وهما عيدان من أعياد الفرس. وفيه ما يفيد أن هذين اليومين

الذين كان أهل المدينة يفرحون فيهما، كانا من أعياد الفرس، وهو الأقرب؛ إذ كانت العرب في الغالب تحت سيطرتهم.

ويؤكد القول بأن العرب في الجاهلية لم يكن لهم عيد كأعياد الأمم التي كانت تعاصرهم؛ أن العلامة أبا الفدا، وهو جهينة الأخبار، وعيبة علم ما مضى من الأمم على اختلاف دياناتها ونحلها في الأعصار والأقطار، وما كانوا عليه في عوائدهم وعقائدهم وأعيادهم وأفعالهم في أيامها، وتقاليدهم في مواسمهم وأسمائها، وما كان[في] نشأة اتخاذها عيدا؛ فقد ذكر أعياد الفرس، وذكر منها (النَّورُوز)، ومعناه يوم جديد، لكونه غرة العام الجديد. و(المهرجان)، وفيه زعموا أن أفريدُون ظفر بالساحر الضحاك بيُوراسب. و(الكنبهارات)، وهي أقسام لأيام السنة مختلفة، في أول كل قسم منها خمسة أيام هي في(الكنبهارات)؛ زعم زرادشت أن في كل يوم خلق الله تعالى نوعا من الخليقة من سماء وأرض، وماء ونبات وحيوان وإنس، فتم خلق العالم في ستة أيام.[المختصر في أخبار البشر: 83/1].

<u>وذكر أعياد اليهود</u>؛ فمنها الفصح، وهو اليوم الخامس عشر من نيسان اليهود. وهو عيد كبير، وهو أول أيام الفطر السبعة، ولا يجوز لهم فيها أكل الخمير. وذكر لهم (عيد العنصرة). وذكر من أعيادهم عيد(المظالا)، وهي سبعة أيام، أولها خامس عشر تشرين الأول، يستظلون فيها بالخلاف والقصب وغير ذلك. وذكر لهم غير ذلك.[88/1].

<u>وذكر أيضا أعياد النصارى</u> وصياماتهم، فقال، ناقلا عن كتاب الخرقي: إن للنصارى أعيادا وصيامات. ثم صار يذكر ذلك مفصلا؛ فذكر من أعيادهم(الشعانين) الكبير، وتفسير الشعانين التسبيح. وذكر هنا ما وقع لليهود وقصدهم إلى قتل سيدنا عيسى ، وما ألقى الله من الشبه علي غيره، حتى ظنوا أنه سيدنا عيسى. وانظر تفصيل ذلك عند أبي الفدا.[91/1].

ثم ذكر أبو الفدا بقية أعيادهم وصياماتهم. فراجع ذلك إن شئت؛ إذ المقصد بهذا النقل إنما هو الاستدلال على أن العرب لم تكن لهم أعياد خاصة، لأن أبا الفدا، وإن ذكر أمم العرب وأحوالهم قبل الإسلام، لم يذكر لهم عيدا. والله أعلم.

[أسواق العرب وعددها وأسماؤها وأوقاتها]

ولكن كانت لهم مواسم يجتمعون فيها للتفاخر والتسابق في أشعارهم؛ ومن أشهرها ما كان يقام بسوق عُكاظ، ففي "تاج العروس"، ممزوجا بشرح"القاموس"، ما لفظه:

وعُكاظ كغراب، سوق بصحراء. وقال الأصمعي: عكاظ: نَخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب. وقال الزمخشري: قيل: عكاظ ماء، بين نخلة والطائف، إلى بلد يقال له الفتق، كانت موسما من مواسم الجاهلية، تقوم هلال ذي القعدة، وتستمر عشرين يوما. قال ابن دريد: وكانت تجتمع فيها قبائل العرب، فيتعاكظون، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحْدثوا من الشعر، ثم يتفرقون. وفي "الصحاح": فيقيمون شهرا. فلما جاء الإسلام، هدم ذلك. هـ[تاج العروس:254/5].

قلت: فكانت هذه السوق بمنزلة المعارض التي تقام الآن في الدول لعرض منتوجاتها، وترويج أسباب التجارة. وربما يزيد هذا السوق العربي عن هذه المعارض بأنها لم تكن سوق اتجار فقط، بل كانت معرضا أيضا للأفكار التي ينشرها في ذلك نوابغ الشعراء في الأشعار، زيادة على ما كانت تذيعه من الافتخار، بما لها من شرف الأنساب ومحامد الشيَم ومحاسن الأوصاف الغرار.

هذا، وإذا فرغنا من هذا الباب في إثبات ما كان للعرب من المواسم، وما ترسم لها من قوانين المراسم؛ فلا بد من إتمام الكلام بتوسيع دائرة هذا المقام بذكر ما كان للعرب من الأسواق، التي كانت تجلب إليها بضائع التجارة، وتعرض فيها أفكار النبلاء الرقاق، فأقول:

قال ياقوت في"معجم البلدان"، بعد ما ذكر نحوًا مما قدمناه في موضوع عكاظ عن الأصمعي: "وبه كانت تقام سوق العرب بموضع فيه يقال له الأثيداء، وبه كان أيام الفِجار. وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها. قال الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف، وذو المجاز خلف عرفة، ومجنَّة بممر الظهران. وهذه أسواق قريش والعرب. ولم يكن فيه أعظم من عكاظ. قالوا: كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال، ثم تنتقل إلى سوق مجنة، فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز، فتقيم فيه إلى أيام الحج".هـ[202/6].

فقد اقتصر ياقوت على ثلاثة أسواق، وهي أكثر من ذلك.

ولابن حجر في "شرح البخاري"، حسبما نقل ذلك عنه البغدادي في"خزانته"، أن أسواق العرب في الجاهلية أربعة، فذكر الثلاثة التي ذكرها ياقوت، وزاد عليها سوق حُباشة، فقال:

{وأما حُباشة، بضمّ الحاء المهملة، وتخفيف الموحّدة، وبعد الألف شين معجمة، فكانت في ديار بارق نحو قَنُونا، بفتح القاف وبضم النون الخفيفة، وبعد النون ألف مقصورة، من مكة إلى جهة اليمن، على ست مراحل. وقد ذُكر في الحديث الثلاث الأول. وإنما لم تُذكر حُباشة في الحديث، لأنها لم تكن من مواسم الحجّ، وإنما كانت تقام في شهر رجب. قال الفاكهيّ: ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الإسلام، إلى أن كان أول ما تُرك منها سوق عُكاظ في زمن الخوارج، سنة تسع وعشرين ومائة، وآخر ما ترك منها سوق حُباشة في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي، في سنة سبع وتسعين ومائة. ثم أسند عن ابن الكلبي أن كل شريف إنما كان يحضر سوق بلده، إلاّ سوق عكاظ؛ فإنهم كانوا يتوافدون بها من كل جهة، فكانت أعظم تلك الأسواق. وقد ذكرها في أحاديث، منها حديث ابن عباس، رضي الله عنهما: "انطلق النبي، صلى الله عليه وسلم، في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ"، الحديث في قصة الجن. وروى الزبير بن بكّار في "كتاب النسب"، أنها كانت تقام صبحَ هلالِ ذي القعدة، إلى أن يمضي عشرون يوما. قال: ثم تقوم سوق مجَنّة، عشرة أيام إلى هلال ذي الحجة، ثم تقوم سوق ذي المجاز، ثمانية أيام . ثم يتوجهون إلى منى بالحجّ. وفي حديث جابر: "أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لبث عشرَ سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم، بمجَنّة وعكاظ، يبلّغ رسالات ربه"}.هـ ما أورده ابن حجر، بنقل البغدادي في "خزانته"[360/4].

ثم يعقب البغدادي كلام ابن حجر بقوله :

وفيه: أن أسواق العرب أكثر من هذا، جمعها صاحب "قبائل العرب". قال: (دُومة الجندل): كانت تقوم أول يوم من ربيع الأول إلى النصف منه، وكانت المبايعة فيه إلقاءَ الحجارة على السلعة، فمن أعجبته، ألقى حجرًا، فتُركت له. و(المشقّر): تقوم من أول يوم من جمادى الأخيرة. وكان بيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة، خوفَ الحلف والكذب. ثم (صُحار)؛ بضم الصاد المهملة: تقوم لعشر يمضين من رجب، خمسة أيام. ثم (الشِحْر)، بالكسر: يقوم في النصف من شعبان، وكان بيعهم فيه بالحجارة أيضا. ثم (صنعاء)، في النصف من شهر رمضان إلى آخره. ثم سوق (حضْرَمَوت) في النصف من ذي القعدة. ثم

ذكر (عكاظ)، ثم (ذا المجاز)، وقد تقدم ذكرهما. ثم ذكر(حَجْر)، بفتح الحاء وسكون الجيم: يوم عاشوراء إلى آخر المحرم. هذا ما أورده صاحب قبائل العرب.هـ كلام البغدادي[خزانة الأدب:361/4].

وكتب صاحب التعليق على نسخة "الخزانة" على قوله: وجمعها صاحب "قبائل العرب" ما لفظه: قال المحقق الميمني: لم يجمع ولا قارب، بل جمعها المرزوقي في "الأزمنة" هـ[361/4].

قلت: فهذا يفيد أن للعرب أسواقا أخرى كثيرة. ثم القصد بذكر هذه الأسواق، إنما هو لبيان أنها كانت عند العرب بمنزلة الأعياد والمواسم عند غيرها، وأنها لم تكن لها أعياد كالأمم السابقة، حسبما قدمنا عن أبي الفدا؛ إذ سرد أعياد الأمم من الفرس واليهود والنصارى، ولم يذكر للعرب أعيادا، وهو جهينة الأخبار، والمعتني بتتبع الآثار.

[أعياد المسلمين، وما ألحق بها]

ويزيد ذلك تأييدا أن صاحب"صبح الأعشى"، وهو الرجل الوحيد الذي استوعب ما يحتاج إليه الكاتب، في خطة الكتابة من المقاصد والمطالب، لمّا ترجم لأعياد الأمم ومواسمها، ذكر خمس جمل، بمعنى فصول؛ فذكر في الجملة الأولى أعياد المسلمين، وفي الثانية أعياد الفرس، وفي الثالثة أعياد القبط، وفي الرابعة أعياد اليهود، وفي الخامسة أعياد الصابئين، ولم يذكر أعياد العرب في الجاهلية؛ فقال في أعياد المسلمين:

{ واعلم أن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان: عيد الفطر وعيد الأضحى. والسبب في اتخاذهما ما رواه أبو داود عن أنس ابن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدم المدينة، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: "ما هذان اليومان؟" فقالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن الله، عز وجل، قد بدّلكم خيرا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر". فأول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنين من الهجرة. وروى ابن باطيش في كتاب"الأوائل" أن أول عيد ضحى فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سنة اثنين من الهجرة، وخرج إلى المصلى. وحينئذ فيكون العيدان قد شرعا في سنة واحدة. نعم؛ قد ابتدعت الشيعة عيدا ثالثا وسموه عيدالغدير}. ثم ذكر سببه، وقوله، عليه السلام: "من كنت مولاه، فعلي مولاه".

قلت: والكلام في الحديث وسببه مشهور، فلا نطيل. قال صاحب "الصبح":

"والشيعة يحيُون ليلة هذا العيد بالصلاة، ويُصلون في صبحتها ركعتين قبل الزوال، وشعارهم فيه لبس الجديد، وعتق العبيد، وذبح الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل في الإكرام، والشعراء والمترسلون يهنئون الكبراء منهم بهذا العيد". [531/1].

وهذا كله بدع خارجة عن السنة، ولم تأت السنة الصحيحة إلا بشرع العيدين الشهيرين الّذين سمعت حديثهما، وتلقاه أهل السنة بالقبول والاتباع، ورأوا أن كل ما أحدثه المحدثون في ذلك من قبيل الزيادة في الشريعة والابتداع، ولقد كان لنا في رسول الله أسوة حسنة كافية في الاقتداء والاتباع.

نعم؛ رأيت العلامة ابن الحاج، جعل الأعياد الشرعية ثلاثة، فذكر الأضحى والفطر، ثم زاد ثالثا وهو يوم عاشوراء، وصدّر ذلك بقوله: ومن العوائد الرديئة ما يفعلونه في المواسم، وهم فيها على ثلاثة مراتب. المرتبة الأولى: المواسم الشرعية، وهي ثلاثة. المرتبة الثانية: المواسم التي ينسبونها إلى الشرع، وليست منه. المرتبة الثالثة: المواسم التي تشبَّهُوا فيها بالنصارى.[المدخل:282/1].

ثم ذكر المواسم الشرعية، وذكر ما أحدث فيها من البدع والخروج بذلك عن السنة، ثم قال في الموسم الثالث الذي عدّه من الأعياد الشرعية:

"الموسم الثالث من المواسم الشرعية، وهو يوم عاشوراء؛ فالتوسعة فيه على الأهل والأقارب، واليتامى والمساكين، وزيادة النفقة والصدقة، مندوب إليها، بحيث لا يجهل ذلك."هـ[المدخل: 289/1].

ثم صار ينكر ما أحدث في هذا اليوم من ابتداع، لأنه رضي الله عنه، ناصر السنة، وقامع البدعة، كما هو موضوع كتابه الأعظم. إلا أنه[لا يتأتى]إلحاق يوم عاشوراء بالعيدين المشروعين للأمة، وأجمعت عليهما أئمتها من لدن عصر النبي، صلى الله عليه وسلم، وتشريعه، صلى الله عليه وسلم، لهم أركانهما وسننهما من صدقة الفطر والضحايا، وإيقاع صلاتهما في المصلى، أي في الصحراء خارج المدن، وخروجه بذاته معهم، وندبهم إلى لباس الجديد في هذين اليومين الّذين أخبر، عليه السلام، بأنهما خير مما كان الناس عليه في الجاهلية، وسن لهم الضحايا وذكرهم شروطها وواجباتها، وما يجزئ فيها وما لا يجزئ. وباشر، صلى الله عليه وسلم، ذبح أضحيته بيده الكريمة، وقال لهم: "إنه يوم أكل وشرب"، أي يوم يستريح فيه الناس، ويفرحون ويبتهجون، ويأكلون أضاحيهم في أرغد

عيش وأنعم بال، كما أنه حرم صيامهما، إلى غير ذلك من سنن هذين العيدين ومستحباتهما كما هو مبين في محله.

وعلى هذا الهدي النبوي الشريف، اهتدت الأمة، وبتشريعه اقتدت إلى عصرنا هذا؛ فصار إذا أطلق العيد عند سائر الأمم الإسلامية لا ينصرف إلا لعيد الأضحى أو عيد الفطر، وبهما يقع الاحتفال، وبحلولهما يبتهج أهل الحواضر والبادية، ويستعدون لإظهار الزينة وجميل الثياب على ما تقتضيه الحال، وتقام صلاة العيد في كل بلد في مصلاها، ويرأس حفلاتها الأمراء، ومن قام مقامهم من نوابهم، ببياض لباسهم كالنهار إذا تجلى، والتظاهر بالجيوش المنظمة، حاملين للسلاح، تحديا لمن يحاول العداء، أو يروم العداء.

هذا ما كان عليه الأمر في الأزمنة الماضية. ولم يزل العمل مستمرا على ذلك إلى هذه العصور الحاضرة في الدول الإسلامية القريبة والقاصية.

فإذا كان الأمر كذلك؛ فيجب حمل كلام الإمام ابن الحاج على أن هذا اليوم هو موسم شرعي، وليس بمحدث بدعي، ووطأ به ليذكرنا في الأقسام الخارجة عن المسنون، وإنما هي مما أحدثه المبتدعون.

وأما جعل يوم عاشوراء من الأعياد التي عليها الأمة في الحديث والقديم،[فـ]لم ينص عليه أحد من أهل الحديث ولا الفقهاء، لا على سبيل التخصيص، ولا عن طريق التعميم. إنما ذكر المحدثون والفقهاء هذا اليوم ووسمُوه بالتعظيم، وذكر ما في صيامه من إثابة الرب الكريم. وقد تقدم لنا ما قاله صاحب"الصبح"، أن العيدين في الإسلام إنما هما الأضحى والفطر، ورد ما ابتدعه الشيعة من اختلاق عيد يوم غدير خم، وهو مما ينبغي أن ينكر أشدّ نكر.

أما الحافظ ابن حزم؛ فإنه ألحق بالعيدين يوم الجمعة، فقال: هما عيد الفطر من رمضان، وهو أول يوم من شوال، ويوم الأضحى، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، ليس للمسلمين عيد غيرهما، إلا يوم الجمعة، وثلاثة أيام بعد يوم الأضحى، لأن الله تعالى لم يجعل لهم عيدا غير ما ذكرنا ولا رسوله، صلى الله عليه وسلم. ولا خلاف بين أهل الإسلام في ذلك.هـ [المُحلّى:81/5].

قلت: وكلام ابن حزم كذلك يرجع إلى أن العيدين هما الفطر والأضحى، كما هو معروف. وأما يوم الجمعة فإنه يوم له فضل على سائر الأيام، وله خصائص قد أفردت

بالتاليف؛ وليس عيداً كالعيدين المشروعين، كما أن لبعض الشهور فضائل على باقي الشهور كالأشهر الحُرم، كما سيأتي بسط الكلام في هذا الموضوع.

أما العلامة الحطاب؛ فإنه ذكر كلام "المدخل" وسلّمه، ولكنه فيما يظهر على أنه موسم من المواسم المأذون في تعظيمها، لا أنها عيد ثالث كالعيدين، كما تقدم.

وإذ جرينا على ما اتخذناه منهاجا في هذه"الفهرسة" من إفاضة القول في مثل هذه الموضوعات؛ فإننا نستعين الله في تحرير المقال، وتفصيل المباحث في هذا المجال، فنقول:

[مباحث في يوم عاشوراء]

المبحث الأول: في اشتقاقه، وهل هو لفظ عربي كان معروفا في الجاهلية، أو هو من الأسماء الإسلامية؟ قال في"الفتح":

"وعاشوراء، بالمدّ على المشهور، وحكي فيه القصر. وزعم ابن دريد أنه اسم إسلامي، وأنه لا يعرف في الجاهلية. وردّ ذلك عليه ابن دحية، بأن ابن الأعرابي حكى أنه سمع في كلامهم خابوراء، وبقول عائشة إن أهل الجاهلية كانوا يصومونه".هـ [174/4].

وعضّد هذا الاستدلال في "إكمال الإكمال" عن عياض بقوله: تقدم في صدر كتاب الصلاة، ذكر اختلاف العلماء في الصلاة وأخواتها من الحقائق الشرعية، هل هي باقية على مسمياتها لغة، أو نقلها الشارع عنها، ووضعها على معان أخر؟ واخترنا هناك أن سيَر العرب قبل ورود الشرع، تدل على أنهم كانوا يستعملون هذه الألفاظ في معانيها الشرعية من أقوال وأفعال، فعرفوا الصلاة والزكاة، والصوم والحج والعمرة، وتقربوا بالجميع. فما خاطبهم الشرع إلا بأمر عرفوه تحقيقا، لا أنه أتاهم بألفاظ ابتدعها لهم، كما قاله المخالف، أو بألفاظ لغوية لا يعرف منها المقصود إلا رمزا، كما أشار إليه المخالف. (قلت)، أي قال الأبّي: وهذا الحديث ـ يعني حديث عائشة في صيام قريش ـ ممّا يدل على ذلك. [250/3].

وعاشوراء، معدول عن عاشر، ففي "فتح الباري"، عن القرطبي: عاشوراء معدول عن عاشر للمبالغة والتعظيم، وهو في الأصل صفة الليلة العاشرة لأنه مأخوذ من العشر الذي هو اسم العقد، واليوم مضاف إليها؛ فإذا قيل يوم عاشوراء فكأنه قيل يوم الليلة العاشرة، إلا أنهم لما عدلوا به عن الصفة غلبت عليه الإسمية، فاستغنوا عن الموصوف فحذفوا الليلة ، فصار هذا اللفظ علما على اليوم العاشر.هـ[174/4].

المبحث الثاني: في تعيين اليوم الذي هو الموسم الشرعي المطلوب صيامه، وما يتبع ذلك من المستحبات؛ ففي"فتح الباري"، بعد أن ذكر ما نقلنا عنه في اشتقاق لفظة عاشوراء، قال:

"وعلى هذا، فيوم عاشوراء هو العاشر. وهذا قول الخليل وغيره، وقال الزين بن المنير: الأكثر على أن عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم، وهو مقتضى الاشتقاق والتسمية. وقيل: هو اليوم التاسع". [174/4]، ثم استمر يبين وجه كل قول ودليله.

أما مذهبنا: فقال الأبّي عن عياض ما لفظه: قيل في عاشوراء إنه اليوم التاسع من المحرم. وقال مالك: والأكثر هو العاشر، وهو الذي تدل عليه الأحاديث كلها. وهذا الحديث لقوله:"لأصُومَن التاسع"، فدل على أنه كان يصوم العاشر. وهذا الآخر لم يصمه ولم يبلغه، ولعله لو بلغه صامه على وجه الجمع بينه وبين العاشر، كما في رواية: "فصوموا التاسع والعاشر". وإلى صومه على وجه معنى الجمع، ذهب الشافعي وأحمد وجماعة، وإما للاحتياط، للخلاف فيه.هـ[253/3].

وزاد الشيخ الحطاب هنا، عن الشيخ زروق، قوله:

"اختلف فيه؛ فقيل التاسع، وقيل: العاشر. واستحب بعض العلماء[صيام]يوم قبله ويوم بعده. وهذا الذي ذكره عن بعض العلماء، غريب لم أقف عليه". كما نقل عن الشيخ يوسف بن عمر أنه يستحب صيام التاسع. وقال بعضهم: وكذلك الحادي عشر، احتياطا لعله نقص الشهر.هـ[مواهب الجليل:403/2].

قلت: وفي"الفتح": فصيام عاشوراء على ثلاث مراتب؛ أدناها أن يصام وحده، وفوقه أن يصام التاسع معه، وفوقه أن يصام التاسع والحادي عشر.هـ[175/4].

المبحث الثالث: في أصل مشروعية هذا الموسم وصومه إلخ. أخرج البخاري في "صحيحه"، عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصومه. فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه. فلما فرض رمضان، ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه. وأخرج عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قدم النبي، صلى الله عليه وسلم، المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال:" ما هذا؟" قالوا: هذا يوم صالح. هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه وأمر بصيامه. وأخرج عن

أبي موسى، رضي الله عنه، قال: كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيدا، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "فصوموه أنتم".هـ[259/1].

وفي هذه الأحاديث إشكالات، من جهة صيام قريش في الجاهلية لعاشوراء، وصيام النبي، صلى الله عليه وسلم، له في الجاهلية، وفي صوم اليهود واتخاذه عيدا، وقوله، عليه السلام: "نحن أحق بموسى منكم". وقد أكثر شراح الحديث من الكلام في الموضعين.

أما صيام قريش، فقال القرطبي فيه: لعل قريشا كانوا يستندون في صومه إلى شرع من مضى كإبراهيم. وصوم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم، كما في الحج، أو أذن الله له في صيامه على أنه فعل خير. فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه، وسألهم، وصامه وأمر بصيامه، احتمل ذلك أن يكون ذلك استئلافا لليهود، كما استألفهم باستقبال قبلتهم، ويحتمل غير ذلك. وعلى كل حال، فلم يصمه اقتداء بهم، فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي كان يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه.هـ[فتح الباري: 177/4].

وذكر في"الفتح" من جملة وجه صيام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عاشوراء في حديث أبي موسى الأشعري المتقدم، من قوله: كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيدا، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم:"فصوموه أنتم"، وفي رواية مسلم: كان يوم عاشوراء تعظمه اليهود؛ تتخذه عيدا. قال الحافظ: فظاهره أن الباعث على الأمر بصومه، محبة مخالفة اليهود، حتى يصام ما يفطرون فيه، لأن يوم العيد لا يصام.هـ [177/4].

أما الحافظ ابن العربي، فإنه قال في "العارضة"، عند الكلام على حديث ابن عباس، وفيه: وكان أهل خيبر يتخذونه عيدا، ويلبسون فيه نساءهم حللهم وحليهم وشارتهم له. قالوا: نحن نصومه تعظيما له. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بموسى منكم"، فصامه وأمر بصيامه، وقال:"فصوموه أنتم"، وفي رواية: كنا نصومه ويصومه صبياننا الصغار، ونذهب إلى المسجد إلخ. ولفظه:

{قال ابن العربي، رضي الله عنه، لما قدم النبي، عليه السلام، المدينة، وجد اليهود تصوم يوم عاشوراء، تيمنا بنعمة الله على موسى، فصامه رغبة في تقرب اليهود منه بموافقتهم في الصيام، كما رغب بتقريبهم منه بالصلاة إلى بيت المقدس لحرصه علينا، ورغبة في إيمان الخليقة، والباري، تعالى وجل، قد خبأ له خصيصته، وادخر له نعمته، واصطفى له كرامته. فلما فرض رمضان، كان هو الفريضة، وترك عاشوراء. ولكنه بقي

ندبه، ولم يبق ندب الصلاة إلى من ترك القبلة، بل هو حرام لحكمة بالغة، وهي [أن] استقبالها ترك لتلك، وليس في صوم عاشوراء ترك لرمضان. ولما رأى الصحابة أن الله قد عوضه برمضان، قال: "إن عشت إلى قابل، لأصُومَن التاسع"، مخالفة لليهود في إفراد عاشوراء بالصوم، فتوفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل ذلك. فسمعتُ من يقول: إنه يستحب صوم التاسع والعاشر. وأنا أقول: إن رمضان نسخ عاشوراء، وأن التاسع نسخ العاشر. ولكن ابن عباس قال، فيما روى عنه أبو عيسى: صُومُوا التاسع والعاشر، خالفوا اليهود. وهو أعرف بالدِّين من جميع المسلمين}.هـ [شرح الترمذي : 280/3].

المبحث الرابع: فيما يطلب في هذا اليوم من الأعمال الصالحة إلخ. وقد أوصلها الفقهاء وأهل العلم إلى اثنتي عشرة خصلة، وذكرها الإمام الحطاب في"شرح المختصر" فقال: وقد ذكروا فيما يفعل يوم عاشوراء اثنتي عشرة خصلة؛ وهي: الصلاة، والصوم، والصدقة، والاغتسال، والاكتحال، وزيارة عالم، وعيادة المريض، ومسح رأس اليتيم، والتوسعة على العيال، وتقليم الأظفار، وقراءة سورة الإخلاص ألف مرة، وصلة الرحم. وقد نظمها بعضهم فقال:

في يوم عاشُوراء عشرٌ يتَّصِل بها اثنان لها فضل قد نُقِلْ
صُمْ صَلِّ صِلْ زُر عالمًا عُدْ واكتحِلْ رأس اليتيم امسَحْ تصدَّق واغتسِلْ
وسِّعْ على العِيَال قلِّم ظفرا وسُورة الإخلاص ألفًا تُقرَا

قلت: وذكر الشيخ الحطاب هذه الخصال وسكت عنها. ولكنه كان نقل فتوى الحافظ العراقي على ما يشير لبعضها، وما ورد في ذلك، وقبل ما قبل، ورد ما رد في ذلك.

[فتوى الحافظ العراقي، ورده على ابن تيمية بشأن يوم عاشوراء]

وملخَّص هذه الفتوى أنه سئل عن أكل الدَّجاج والحبوب يوم عاشوراء، فأجاب بأنه من جملة المباحات. فإن كان بنية صالحة، كان من الطاعات.

وردَ في فتواه هذه على من حرَّم ذلك، وأنه لا يستحب شيء في هذا اليوم غير الصوم، وذكر أن هذه الفتوى من فتاوى تقي الدين ابن تيمية. ثم ساق فتواه، وقال: إن ابن تيمية سئل عن أشياء تتعلق بيوم عاشوراء، ومن ذلك ذبح الدجاج، وطبخ الحبوب في هذا اليوم؟ فأجاب: ليس شيء من ذلك سُنة في هذا اليوم، بل هو بدعة لم يشرعها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا فعلها هو ولا أصحابه. ثم ذكر حديثا عن أبي هريرة، يتضمن

الأمر بصيامه والتوسعة فيه على العيال، وإحياء ليلته والصلاة فيه، وأن من اغتسل فيه لم يمرض إلا مرض الموت، ومن اكتحل فيه لم ترمد عينه في تلك السنة. ثم قال: وقد علم أنه لم يستحب أحد من أئمة الإسلام، ولا روى أحد من أئمة الحديث ما فيه استحباب الاغتسال يوم عاشوراء، ولا الكحل والخضاب وتوسيع النفقة، ولا الصلاة المذكورة، ولا إحياء ليلة عاشوراء، ولا أمثال ذلك مما تضمنه هذا الحديث، ولا ذكروا في ذلك سنة عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وأعلى ما بلغني في ذلك ما رواه ابن عيينة عن محمد بن المنتشر، أنه من وسع على أهله يوم عاشوراء، وسع الله عليه سائر سنته، قال ابن المنتشر: جربناه ستين سنة، فوجدناه حقا. ثم اعترض على ابن المنتشر فيما ذكره.

ثم ذكر الحطاب عن العراقي رد كلام ابن تيمية، متعجبا منه في قوله: لم يستحب أحد من أئمة الإسلام توسيع النفقة على الأهل، إلخ: وقد قال بذلك عمر بن الخطاب، وجابر بن عبد الله، ومحمد بن المنتشر، وابنه، وأبو الزبير وشعبة، وغيرهم من المتأخرين. وقوله: ولا روى أحد من أئمة الحديث ما فيه استحباب ذلك؛ فليس كذلك؛ بل رواه الطبراني والبيهقي وابن عبد البر.

ثم أطال في الاستدلال على حديث التوسعة على العيال. ثم قال الحطاب، بعد تلخيص كلام العراقي الذي اقتطفنا منه هذه الجملة:

"قلت: وقد علم من هذا أنه لم يقف، يعني الحافظ العراقي، على شيء في الخصال التي يذكر أنها تفعل في يوم عاشوراء، غير الصوم والتوسعة على العيال". هـ[مواهب الجليل: 404/2].

قلت: وبعد ما أشار العلامة الرهوني في"حاشية" الزرقاني إلى ما أطال به الحطاب هنا، وما قاله أخيرا كما سبق، قال: "قلت: لا خفاء أن النفقة والتوسعة على العيال مطلوبة، وخصوصا في يوم عاشوراء وسائر المواسم". انظر تمام كلامه.

أما ما يعلق بالحديث الذي تقدم أنه رواه الطبراني والبيهقي وابن عبد البر، فقد ذكره السيوطي في"الجامع"، وأشار له بعلامة الصحة. وفي "اختصار المقاصد الحسنة": "من وسّع على عياله يوم عاشوراء" إلخ، رواه الطبراني، والبيهقي في "الشعب" وغيرهما، عن أبي سعيد، والبيهقي أيضا عن جابر وأبي هريرة، وقال: أسانيده كلها ضعيفة. وقال العراقي: لحديث أبي هريرة طرق صحح بعضها ابن ناصر الحافظ، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، والحديث حسن على رأيه.هـ

وفي"الترغيب" للمنذري،[بعد ما] أورد رواية البيهقي عن أبي هريرة[قال] ما لفظه. رواه البيهقي وغيره من طرق عن جماعة من الصحابة. وقال البيهقي: هذه الأسانيد، وإن كانت ضعيفة، فهي إذا ضُمّ بعضها إلى بعض، أخذت قوة.هـ [188/1].

قلت: وعلى هذه القوة اعتمد الجلال السيوطي، فأشار لهُ في"الجامع" بعلامة الصحة، وصرح بذلك في"الدرر المنتثرة" فقال: هو ثابت صحيح.هـ[بهامش الفتاوى الحديثية:227]. والله أعلم.

وقد اعتمد هذه الصحة، من أعلام المالكية، ابن حبيب، والقاضي أبو بكر ابن العربي، وابن رشد. وقبل ذلك العلامة المَوَّاق في "شرح" خليل فقال، ناقلاً عن ابن يونس: وجاء الترغيب في النفقة فيه على العيال. وقد روي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "من وسع على أهله يوم عاشوراء، وسع الله عليه سائر السنة"، وأن أهل مكة والمدينة يتحرّون ذلك، حتى كأنه يوم عيد. هـ نص ابن يونس من المَوَّاق.

ثم قال الموّاق: "وقال ابن العربي: أما النفقة في يوم عاشوراء، والتوسعة، فمخلوفة باتفاق، وأنه يخلف الله بالدرهم عشرة أمثاله. ورأيت لابن حبيب":

لا تنس، لا يُنسيك الرحمان، عاشُورًا   واذكره، لا زلت في الأحياء مذكُورًا

قال الرسـول، صلاة الله تشملـهُ،   قولا وجَدنا عليه الحق و النُّـورًا

أوسع بمالك في العاشـور إنَّ لـهُ   فضلاً وجدناهُ في الآثـار مأثُـورًا

من بات في ليلة العاشُور ذا سعةٍ   يكُنْ بعيشته في الحَول مسرُورًا

"وأنشدني شيخي الأستاذ أبو عبد الله المنتوري، جدد الله عليه رحمته، قال: أنشدني الخطيب أبو بكر ابن جزي يوم عاشوراء، قال: أنشدني الخطيب أبو علي القرشي يوم عاشوراء، قال: أنشدني الخطيب أبو عبد الله ابن رُشيْد لنفسه يوم عاشوراء، وذكر أنه نظمه يوم عاشوراء":

صيام يوم عاشُورًا أتى فضلُه   في سُنّةٍ مُحكـمة قاضيـة

قـال النبيّ المصطفى إنــه   تكفير ذنب السنــة الماضية

ومن يُوسعْ يومه لم يـزل   في عامه في عيشة راضيــة

انتهى ما نقله المَواق[بهامش مواهب الجليل: 403/2].

أما الصوم في ذلك اليوم؛ فهذا أمر لم يختلف في أنه مطلوب مرغب فيه، كما سبق، بعد أن كان واجبا إلى أن نسخ برمضان. ففي "صحيح" البخاري عن ابن عباس قال: ما

رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يتحرَّى صيام يوم فضله على غيره إلا هذا اليوم، يوم عاشوراء وهذا الشهر، يعني شهر رمضان. هـ[259/1].

وفي"جامع الترمذي":(باب ما جاء في الحث على صوم يوم عاشوراء). ثم روى عن أبي قتادة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:"صيام يوم عاشوراء؛ إني أحتسبُ على الله أن يكفر السنة التي قبله"، قال: وفي الباب عن علي، وذكر غيره من الصحابة، ذكروا عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه حثَّ على صيام يوم عاشوراء.هـ[284/4].

قلت: أما باقي الخصال التي ذكرها الشيخ الحطاب؛ وهي الصلاة والصدقة، والاغتسال، والاكتحال، وزيارة عالم، وعيادة المريض، ومسح رأس اليتيم، وتقليم الأظفار، وقراءة سورة الإخلاص ألف مرة، وصلة الرحم، وهي عشر خصال، وقد علمتَ أنه روي في بعضها أحاديث، لكن حكم أهل الحديث بعدم صحتها. وقد تقدم ما قاله فيها ابن تيمية، ووافق الحافظ العراقي على كلامه، ما عدا التوسعة على العيال. وفي بعضها قال المجد الفيروزابادي، صاحب "القاموس"، في آخر كتابه الذي سماه"سفر السعادة":

{وباب فضائل عاشوراء، ورد استحباب صيامه، وسائر الأحاديث في فضله وفضل الصلاة فيه، والإنفاق والخضاب، والادهان والاكتحال، وطبخ الحبوب، وغير ذلك، مجموعه موضوع ومفترى. قال أئمة الحديث: الاكتحال فيه؛ بدعة ابتدعها قتلة الحسين، رضي الله عنه.} [ص:144].

ومن"الغنية" للحنفية: الاكتحال يوم عاشوراء، لما صار علامة لبغض أهل البيت وجب تركه.هـ بنقل المناوي في "فيض القدير، شرح الجامع الصغير".

وقد وقع في كلامه في فضل صوم عاشوراء غلط أو سهو؛ فإن صوم عاشوراء والحث على صومه لا نزاع فيه، وقد تقدم ما ورد في ذلك.

قلت: وهذه الأمور العشرة التي بقيت مما ذكره الحطاب، يمكن أن تخرج لها مخارج، ويوجد لها أصول تسند إليها، ويقال فيها ما قاله الحافظ العراقي في أكل الدجاج يوم عاشوراء، الذي حكم بحرمته من تبع ابن تيمية؛ فيقال: هذه الأمور العشرة، التي قال فيها بعض العلماء بأنها تفعل يوم عاشوراء، هي كلها من قبيل المباحات أو المندوبات في مطلق الأيام، بل بعضها من قبيل القربات العظيمة في الدين، كالصلاة والصدقة، وصلة الرحم، ورحمة اليتيم، وتوقير العالم واحترامه إلخ.

أما التقرب في هذا اليوم بالطاعات، من النوافل وكثرة الصدقة وصلة الرحم، فلا يمكن لعالم أن ينكره في هذا اليوم العظيم الذي ذكرت له مزايا تدعو إلى التقرب إلى الله بأنواع القربات، وإن لم يأت فيها نص خاص، فهي داخلة في قوله تعالى: (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

ولا يخفى ما قالوه ان العمل الصالح في الأيام الفاضلة، ليس كالأعمال في غيرها، بل الثواب في مثل هذه الأيام يزكو ويعظم، ويتضاعف في الجزاء.

وممّا ورد في فضل هذا اليوم، ما رواه البخاري، كما تقدم، من أن اليهود لما وجدهم النبي، صلى الله عليه وسلم، يصومون عاشوراء، فقال لهم: "ما هذا؟" قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال النبي، صلى الله عليه وسلم:"فأنا أحق بموسى منكم". فصامه وأمر بصيامه. هـ[259/1].

وفي الحطّاب عن ابن حبيب "ويقال: فيه تيب على آدم، عليه الصلاة والسلام، واستوت السفينة على الجودي". وفي"الفتح"، من رواية الإمام أحمد، زيادة: فصامه نوح شكرا.هـ ثم قال ابن حبيب: "وفلق البحر لموسى، عليه الصلاة والسلام، وأغرق فرعون، وولد عيسى، عليه الصلاة والسلام، وخرج يونس، عليه الصلاة والسلام، من جوف الحوت، وخرج يوسف، عليه الصلاة والسلام، من الجب، وتاب الله سبحانه على قوم يونس، وفيه تكسَى الكعبة كل عام.هـ[مواهب الجليل، للحطاب:403/2].

[ذكر ما يشهد لأصل تلك الخصال التي يتضاعف أجرها في الأزمنة الفاضلة]

وعليه، فالتطوع بنوافل الخيرات، وتعميم الصدقات، وصلة الرحم من ذوي القرابات، وزيارة العلماء من ذوي الفضل وأهل الاختصاصات؛ هو من الأعمال الصالحات، التي ورد الترغيب فيها في كل الأوقات، ويتضاعف أجرها في الأزمنة التي لله فيها نفحات.

وهاأنا أذكر ما وقفتُ عليه من الآثار، وما يقاربه من كلام الأئمة الأخيار:

أما التقرب إلى الله بالصلوات، فهو شيء معلوم، وناهيك الحديث الذي في"الصحيح" عن الله تعالى:"ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه"إلخ.

أما الأحاديث في الحثّ على الصدقة وتبيان فضلها، فكثيرة جدا؛ منها ما رواه الترمذي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن الصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء". وروى ابن المبارك:" إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين من

ميتة السوء". وروى الترمذي، وقال حسن صحيح، عن معاذ بن جبل: كنتُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في سفر- فذكر الحديث إلى أن قال فيه - : ثم قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: "الصوم جُنّة، والصدقة تطفئُ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار". وفي"الصحيح": "اتقوا النار ولو بشق تمرة". إلى غير ذلك مما رُوي في هذا الباب. وفي القرآن الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم) الآية، ويقول الله تعالى لأهل النار: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ)، وقال: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وعلى هذا، فهذه الحسنة العظيمة إن فُعلت يوم عاشوراء، وعُدّت من تلك الخصال، وقصد بها ما أعدّه الله لفاعلها؛ فإنها تزيد في الأجر بمقتضى ما قدمنا من أن الثواب في هذه الأيام الفاضلة، والمواسم المباركة، التي يعظم فيها ويكثر. وفي هذا يقول صاحب "المدخل"، وهو ممّن أنكر بعض ما يُفعل في هذا الموسم، ما لفظه:

"ولم يكن السلف، رضوان الله عليهم، يتعرضون في هذه المواسم، ولا يعرفون تعظيمها إلا بكثرة العبادة والصدقة والخير، واغتنام فضيلتها".هـ[289/1].

<u>وأما صلة الرحم،</u> فهي مطلوبة في كل حال، ولها فضل عظيم، إذ هي مُقربة إلى الله، ففي "الصحيح" عن أبي أيوب الأنصاري، في الرجل الذي سأل النبي، صلى الله عليه وسلم، عن العمل الذي يقربه إلى الله، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم".

<u>وأما عيادة المريض،</u> فهي من الواجبات، ففي"صحيح" البخاري(:باب وجُوب عيادة المريض). ثم أخرج عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "أطعمُوا الجائع، وعُودُوا المريض، وفكّوا العاني".[3/4].

<u>وأما مسح رأس اليتيم؛</u> ففي "الترغيب" للمُنذري عن أبي أمامة، رضي الله عنه، أنه قال: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كان له في كل شعرة مرت عليها يده حسنات". ثم أتمّ الحديث، ونسب روايته لأحمد وغيره.

وفيه عن أبي الدرداء قال: أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، رجل يشكو قسوة قلبه. قال: "أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك؛ يلن قلبك، وتدرك حاجتك"، قال: "رواه الطبراني".[133/2]. وفيه نحو هذا عن أبي هريرة.

وأما زيارة أفاضل العلماء والصالحين والشيوخ؛ فهو شيء مأثور بالعمل، مشهور في الأواخر والأول، إذ العادة الآن جارية بأن الناس يقصدونهم في مواسمهم وأعيادهم، لاستجلاب مودتهم، واستدعاء أدعيتهم، وفي ذلك من توقير أهل الفضل والعلم، وتعظيم ما قاموا به من خدمة الأمة وإرشادها إلى طريق مستقيم. وورد في ذلك عن أفاضل الأمة وأكابرها أخبار جمة، ففي"الترغيب" للحافظ المُنذري، تحت ترجمة:

(الترغيب في زيارة الإخوان والصالحين، وما جاء في إكرام الزائرين). وروى في ذلك أحاديث؛ منها: حديث أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أن رجلا زار أخاه في قرية، فأرصد الله تعالى على مَدرَجته (أي طريقه) مَلكا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربّها(تربُّها؛ أي تقوم بها وتسعى في صلاحها)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه. رواه مسلم. وعن أبي هريرة أيضا، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من عاد مريضا، أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا. رواه ابن ماجه والترمذي واللفظ له، وقال: حديث حسن، وابن حبان في "صحيحه".[138/2].

وقد ترجم الإمام النووي في "رياضه" هذا الباب بقوله:

(باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم، وطلب زيارتهم، والدعاء منهم، وزيارة المواضع الفاضلة). ثم ذكر من الآيات ما يشهد للباب؛ كقوله تعالى في حق موسى للخضر: (هَل اتَّبِعُكَ)، وقوله تعالى لنبينا، عليه السلام:(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ). ثم أخرج عن أنس، قال: قال أبو بكر لعُمر، رضى الله عنهما، بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم: انطلق بنا إلى أمّ أيمن، رضي الله عنها، نزُورُها، كما كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يزُورها. انظر تمام الحديث.[رياض الصالحين: 162]

وفي "الاستيعاب"، كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يزُور أمّ أيمَن، بركة. وكان بعده أبو بكر وعمر يزُورَانها في منزلها، كما كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

يزورها إلخ. وبركة هذه، هي أم أيمن، أم أسامة بن زيد، وكان يقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "أمّ أيمن أمّي بعد أمّي". انظر"الاستيعاب"[بهامش الإصابة: 250/4].

وذكرالعلامة الطرُنبَاطِي في "تأليفه" في فضل العلم والعلماء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "من صافح عالما صادقا، فإنما صافح نبيا مرسلا". وفيه:" ومن عظم عالما، فإنما عظم الله ورسوله". ثم ذكر ما قالوه: فلو لم يكن في حضور مجلس العلم منفعة سِوَى النظر في وجه العالم؛ لوجب أن يحرص عليه ويرغب فيه.هـ[مخطوطة: ص22].

ومن هذا الباب ما ذكره أبو عُمر في "كتاب العلم"، عن أبي جحيفة قال: كان يقال: جالس الكبراء، وخالل العلماء، وخالط الحكماء. وروى عن أبي عيينة قال: قال عيسى بن مريم: جالسُوا من يذكّركم بالله رؤيته، ومن يزيد في علمكم منطقه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله. هـ[جامع بيان العلم: 126/1].

ولهذا لم يزل أكابر الأمة، من علماء وفقهاء، يأتون مَن فوقهم من أهل العلم؛ ليأخذوا من علمهم وآدابهم وأخلاقهم. ويقول الإمام عبد الله ابن المبارك في هذا:

أيها الطّالب علمًا   اِئت حمّادَ بن زيدِ
فاقتبس علمًا وحلمًا   ثم قيّدهُ بقيْدِ

وقال الصحابي الجليل أبو الدرداء، كما رواه عنه أبو عُمر: من فِقْهِ الرجل، مَمْشاهُ ومدخله ومخرجه مع أهل العلم. وذكر عن أبي حنيفة أنه قال: الحكايات عن العلماء ومجالستهم، أحب إليّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم. هـ[جامع بيان العلم:127/1].

وعليه، فزيارة العالم الصالح في هذا اليوم المبارك، للتبرك به، والأخذ من علمهِ، والتّخلق بأخلاقه؛ هو من أجل القربات، كما سمعت ما ورد في زيارة مطلق الأخ في الله، الذي لا يوصف بعلم ولا صلاح، فما بالك بأهل العلم الّذين هم ورثة الأنبياء. وإذا كان كذلك؛ فالزيارة من قبيل الأعمال الصالحة، التي تطلب في الأيام الفاضلة، من المواسم والأعياد.

<u>وأما تقليم الأظفار</u>؛ فهو من خصال الفطرة التي في"صحيح" البخاري وغيره عن أبي هريرة: خمس من الفطرة، أي من السنة أو من الدين، وذكر منها قص الأظفار وتقليمها، إلخ. وفيه: (باب تقليم الأظفار). ثم أخرج عن ابن عمر وأبي هريرة حديث: خمس من الفطرة، وفيها تقليم الأظفار.

وبالجملة؛ فإن تقليم الأظفار، فإنه من السنة أو من الدين، لما فيه من التنظيف. أما تحديد الترتيب في الأصابع عند تقليمها، فلم يثبت فيه حديث. وردّ أهل الحديث ما في"إحياء" الغزالي في ذلك، وإن خرج النووي في"شرح مسلم" بأنه يستحب ذلك.

وأطال الحافظ في"الفتح" في هذا الموضوع إثباتا ونفيا، وكذلك أيضا التاج السبكي في"الطبقات"، وجاء بالأبيات التي رويت عن سيدنا علي، رضي الله عنه، في ذلك.

وليس هذا المحل محل بسط لهذه المسألة، بعد أن ألف في ذلك الجلال السيوطي جزءًا سماه:"الإسفار، في تقليم الأظفار"، فليراجعه من أراد استيفاء أبحاث المسألة. وإنما مرادنا هنا أن نبين أن تقليم الأظفار، من قبيل السنن المطلوبة. وأشار ابن حجر إلى أن الحديث فيه إشارة إلى الندب إلى تنظيف المغابن كلها، ويستحب الاستقصاء في إزالتها، إلى حد لا يدخل فيه ضرر على الأصبع.هـ[فتح الباري: 268/10].

وإذا كان ذلك مستحبا في كل الأوقات والأيام، وكان من قبيل تنظيف البدن من الأوساخ والأدران؛ فإن فعل ذلك في هذا اليوم المبارك بهذه النية، فلا حرج في ذلك، قياسا على التنظيف ليوم الجمعة.

هذا ما كان يجول بخاطري. ثم وقفت على ما قاله في "فتح الباري" في قول من قال إنه يستحب قص الظفر يوم الخميس؛ أنه لم يثبت فيه حديث. ثم قال: وأقرب ما وقفت عليه في ذلك، ما أخرجه البيهقي من مرسَل أبي جعفر الباقر، قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يستحب أن يأخذ من أظفاره وشاربه يوم الجمعة، وله شاهد موصول عن أبي هريرة، لكن سنده ضعيف، أخرجه البيهقي أيضا في "الشعَب"، وسئل أحمد عنه فقال: يسن في يوم الجمعة قبل الزوال. هـ.[269/10].

وعليه، إذا كان يُسن تقليم الأظفار يوم الجمعة، الذي هو عيد من أعياد المسلمين كما في الحديث؛ فكذلك يقاس عليه هذا اليوم المبارك الذي هو أيضا من المواسم الشرعية، كما عدّها فيها صاحب"المدخل". ويؤخذ ذلك من كلام النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ قال له اليهود: هذا يوم صالح إلخ، فقال لهم النبي، صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بموسى منكم"، أي بأن نتخذه موسما وعيدا، وشكرا للنعمة التي منّ الله بها على كليمه موسى، عليه السلام.

ومثل هذا القياس واقع في كلام الأئمة، فقد قال ابن حجر في ترتيب التقليم للأظفار، الذي استحبَّه بعض العلماء ورده غيره، بأنه يمكن أن يؤخذ بالقياس على الوضوء، والجامع التنظيف. انظره في"الفتح".

وعليه، فيقال ـ كما تقدم ـ إن التنظيف في هذا اليوم المبارك، لتلقي نفحات الله وبركاته، هو من الطاعات المطلوبة فيما سواه، فأحرى في الأيام الفاضلة التي يعظم فيها الثواب، ويكثر الأجر بفضل الملك الوهاب.

وأما الاغتسال؛ فهو أيضا بالقياس على ما ورد من استحباب الغسل في العيدين أو سنيته، قال الشيخ خليل، عطفا على المستحبات في العيدين: {ونُدبَ إحْياءُ ليلتِه وَغسْلٌ} قال الحطاب: يعني أن الغسل للعيدين مستحب، وهو المشهور. ثم قال: ورجّح اللخمي وصاحب"الطراز" أنه سنة.هـ [193/2].

وهذا اليوم عيد، كما سمعت من كلام "المدخل"، وأخذ من كلام النبي، صلى الله عليه وسلم. وفي المُواق عن مالك: يستحب الغسل في كل عيد.هـ [193/2]، وهذا اليوم من الأعياد.

وأما الاكتحال؛ فهو من قبيل الاستشفاء والوقاية مما يعرض للبصر من العناء، وهو من السنن التي كان، عليه الصلاة والسلام، يفعلها ويأمر بها، ففي "الشمائل" للترمذي، عن ابن عباس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "اكتحلوا بالإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبتُ الشعر"، وزعم، أي ابن عباس (أي قال قولا محققا على ما فسرُوا به كلامه، لا بمعنى الزعم الذي هو مطية الكذب)؛ أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ثلاثة في هذه، وثلاثة في هذه. هـ [ص48].

وأما قراءة سورة الإخلاص ألف مرة في هذا اليوم المبارك، طلبا لما في قراءتها من الثواب العظيم، وتقربا إلى الله في هذا الموسم الكريم، إذ قراءة المرة الواحدة منها تعدل ثلث قراءة القرآن كله. وقد ورد في فضلها من الأحاديث الكثيرة في "الصحيحين" وغيرهما؛ ما يُعرب عن عظيم قدرها، وكثرة ثوابها.

وقد ذكر القرطبي في"التذكار" من ذلك جملة كثيرة فقال: سورة الإخلاص، وفيها أحاديث كثيرة، منها ما ثبت في البخاري عن أبي سعيد الخدري، أن رجلا سمع رجلا يقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، يرددها. فلما أصبح، جاء إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك

له، وكان الرجل يتقالها؛ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:"والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرءان".

وفيه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه: "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرءان في ليلته؟"، فشق ذلك عليهم وقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد، ثلث القرءان"، وخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء،[التذكار:198]. إلى غير ذلك.

وقد اختلف العلماء في تأويل معنى: تعدل ثلث "القرءان"، فقال بعض العلماء، كما قاله القرطبي: إنما عدلت ثلث "القرءان"، لأجل هذا الإسم الذي هو (الصمد)، فإنه لا يوجد في غيرها من السور، وكذلك (أحَد). وقيل إن "القرءان" أنزل أثلاثا؛ ثلثًا منه أحكام، وثلثًا منه وعيد، وثلثًا منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت(قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ) الثلث، وهو الأسماء والصفات. قال القرطبي: ودل على هذا التأويل ما في"صحيح" مسلم، من حديث أبي الدرداء، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله، عز وجل، جزّأ القرءان ثلاثة أجزاء؛ فجعل (قُل هُوَ اللهُ أحَدٌ) جزءاً من أجزاء القرءان، وهذا نص، وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص.هـ [ص 199].

وقال المناوي في "فيض القدير"، في تأويل ثلث القرءان: لأنها متضمنة لتوحيد الاعتقاد، والمعرفة، والأحدية المنافية لمطلق الشركة، المثبتة لجميع صفات الكمال، ونفي الولد والوالد الذي هو من لازم صمديته وأحديته، والكفؤ المتضمن لنفي الشبيه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد الاعتقادي، المباين لكل شرك وضـــلال، فمن ثمَّ عدلت ثلثه. هـ[201/6].

ثم ذكر القرطبي أحاديث أخرى في شأن هذه السورة المباركة؛ فذكر عن مسلم، ذلك الرجل الذي خرج في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، ويختم بـ (قُل هُوَ اللهُ أحَدٌ)، فذكروا ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال لهم:"سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟"، فقال: لأنها صفة الرحمان، فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:"أخبروه أن الله تعالى يحبه".

ثم ذكر حديث الترمذي، وفيه أن الرجل الذي كان يؤم القوم، كان يفتتح دائما بـ(قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ) ثم يقرأ سورة أخرى. وقوله، لما سأله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن ذلك قال:إني أحبها، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" إن حبك إياها أدخلك الجنة". ثم

قال عن القاضي أبي بكر ابن العربي في هذا الحديث: فكان دليلا على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة إلخ.

ثم ذكر القرطبي أحاديث أخرى في فضل هذه السورة؛ منها: "من قرأ كل يوم مائتي مرة (قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ)، محا الله عنه من ذنوبه خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دَين"، وذُكر خمسين مرة، وذُكر أحد عشر مرة، وذكر ثلاثين مرة.

ثم ذكر عن "الحلية"، حديث أبي العلاء، يزيد بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "من قرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أحَد) في مرضه الذي يموت فيه، لم يُفتن في قبره، وأمن من ضغطة القبر، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة. ثم ذكر أحاديث أخرى.[التذكار:199].

أما الجلال السيوطي، فإنه ذكر هذه الأحاديث من روايات متعددة نحو العشر، وفيها الصحيح والضعيف، ومنها ما تقدم ذكره. ومن هذه الروايات قوله: "من قرأ (قُل هُو اللهُ أحدٌ) ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله". ونسب روايته للخياري في"فوائده" عن حذيفة بن اليمان، وقد عضده المناوي فقال: وروى أبو الشيخ عن ابن عمر: "من قرأ(قل هُو اللهُ أحدٌ) عشية عرفة ألف مرة، أعطاه الله ما سأله. [فيض القدير:6 /203]

وعليه؛ فمن قرأ(قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ) في يوم عاشوراء ألف مرة، قاصدا به الثواب الذي ورد في هذا الحديث، وهو العتق من النار، أو أن يعطيه الله ما سأله من حوائجه، مع تعرضه لنفحات الله ورحماته في هذا اليوم المبارك؛ نال ما قصد.

***

وإذا علمتَ ما سطرناه، وبالأحاديث والآثار أيدناه، وتجعله أصلا تستند عليه في فعل تلك الخصال العشرة المطلوبة، التي بقي على الإمام الحطاب بيان مستندها حسبما أسلفناه؛ فإن الفاعل لها في هذا اليوم المبارك بقصد صحيح، ونية صادقة، متباعد عن ما يشوب عمله من السمعة والرياء، غير معتقد الوجوب فيها في يومه، ولا إيقاع ذلك في جماعة شأنها التباهي والتلهي، مما يشغله عن الإقبال على ربه؛ فذلك يُعدّ له من الطاعات، وأفضل القربات. وإنما الأعمال بالمقاصد والنيات.

***

[زيارة النساء للأضرحة يوم عاشوراء
وتبرجهن واختلاطهن بالرجال]

أمَّا ما أحدثه النساء في هذا اليوم من زيارة القبور،[وهنّ لابسات]أفخر الثياب وأرفع الحلي، والتبرج وكشف ما لا يحل لهن كشفه، وزيارة بعض المساجد والزوايا، وخصوصا في الليل، وتمسحهن بالأضرحة والجدران، واختلاطهن مع ذلك بالشباب من الرجال، كما أشار إلى ذلك صاحب"المدخل"، شارحا للعادة التي كانت بمصر في عصره. وهذا الذي أشرنا إليه، بقية من ذلك، بل لو شاهد هذا الإمام ما يقع في عصرنا هذا، في بلدنا هذا، من سُفور النساء وتبرجهن، وتجرنهن على الشباب وابتدائهن بالكلام الفاحش الخارج عن دائرة المروءة والاستحياء، وبروزهن في الطرقات العامة باديات عاريات، مظهرات للعورات ما لا يظهرنَ النساء الأجنبيات؛ لحكَم عليهن بالمروق من الدّين، وألحقهُنّ بالمتبرجات الجاهلات المشركات. والأمر عندنا لا يزداد إلا فسادا وتجددا في كل الأوقات، بل في كل الساعات، حتى أصبح النّاهي والمُنكر لهذه الفواحش المنكرات، يُعد من الناس في الأخريات، لاختلال في عقله أو جنون خرج به عن فهمه محاسن الحضارات.

[مسألة البخُور بمناسبة عاشوراء]

أما ما ذكره صاحب"المدخل" في بدعة البخُور الذي يشترى في هذا الموسم، ويتبخر به لدفع كثير من الآفات، فقال:

"ومما أحدثوه فيه من البدع؛ البُخور. فمن لم يشتره منهن في ذلك اليوم، ويتبخّر به، فكأنه ارتكب أمرا عظيما. وكونه سنة عندهن، لا بد من فعلها، وادّخارهن له طول السنة؛ يتبركن به ويتبخرّن، إلى أن يأتي مثله يوم عاشوراء الثاني. ويزعمن أنه إذا بخر به المسجون، خرج من سجنه، وأنه يبرئ من العين والنظرة والمصاب والموعوك". قال:

"وهذا أمر خطر، لأنه مما يحتاج إلى توقيف من صاحب الشريعة، صلوات الله عليه وسلامه. فلم يبق إلا أنه أمرّ باطلٌ فعلنه من تلقاء أنفسهن."[291/1].

<u>قلت:</u> وما قاله هذا السيد الجليل هُو خفيف، ويمكن أن يلتمس له وجه في الجملة. ثم هذا البخور وهذا التبرك وأمثاله، صار عند هؤلاء النساء الجديدات اليوم من قبيل المضحكات، لا يبالين بذلك ولا يلتفتن لهذه التبركات، ولم يبق شيء من ذلك إلا عند بعض

العجائز المتمسكات ببعض العوائد القديمة. وإن كان هذا البخور لا زال إلى الآن يباع يوم عاشوراء في الأسواق، ويشتريه من لم يزل متمسكا بما وجد عليه الأمهات والجدّات.

أما الأمور التي لم تزل جارية في مدن المغرب، فهُو التوسيع على العائلة في ذلك اليوم، من اختيار الأطعمة وشراء الفواكه التي يرغب فيها الصبيان، وبعض آلات اللعب من الدفوف والطبول الصغيرة ونحوها، وتفريح الصبيان بشراء ما يلعبون به من الصور وغيرها من آلات اللعب. وكل ذلك لا بأس به إلا صور الحيوان؛ ففيها من رخّص، وفيها من شدّد.

[ختم مباحث عاشوراء، والكلام على دعاء يُدعى به لطول العمر]

وهنا نختم الكلام على مباحث موسم عاشوراء. وما بقي علينا إلا أن نأتي بدعاء يُدعى به في هذا اليوم لطول العمر. وأول من نشر هذا الدعاء، فيما يظهر، الفقيه العلامة الرحالة، المطلع الباحث الناقد، في "رحلته" الحجازية، أبو سالم العياشي المغربي، أحد تلاميذ الشيخ، إمام المغرب علما وعملا وصلاحا ورفعة مقام، وشهرة ذكر، ولسان صدق في الأولين والآخرين، سيدي عبد القادر الفاسي .

وهذه "الرحلة"، كما كان يقوله محققو أشياخنا: إنها كتاب علم، لا كتاب رحلة فقط؛ فإنه قال في الجزء الثاني منها، صح:225 ما لفظه:

{(فائدة) لطول العمر: يُصلي ركعتين يوم عاشوراء، ويقرأ هذا الدعاء، وهو مستقبل القبلة بحضور قلب، سبع مرات، كذا في "الجواهر الغوثية". وقال قطب الدّين الحنفي: يقرأ عشر مرات. قال سيدُنا الغوث: فإن من قرأ العدد المذكور يوم عاشوراء، لم يمت في تلك السنة، فإذا دنا أجله، لم يوفق لقراءته.هـ. وممّن جرّب ذلك، قطب الدين، ووالدهُ علاء الدين، وزاد قطب الدين على ما ذكره الغوث، فقال: ينفخ على نفسه في كل مرة من العشر مرات، وأنه إذا قرئ على الأطفال الذين لم ينطقوا، ونفخ عليهم القارئ في كل مرة، لم يموتوا. قال: ويلقن لمن استطاع منهم النطق، فإنه جرب مرارا، وما تخلف قط." هـ. والفقيرُ ممّن جرّبه. وهذا هو الدعاء: "سبحان الله ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضى وزنة العرش. لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه. سبحان الله عدد الشفع والوتر، وعدد كلماته التامّات كلها. أسألك السلامة برحمتك، يا أرحم الراحمين. وهو حسبي ونعم

الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على خير خلقه، محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرا".}

قلت: وقد نقل هذا الدعاء جماعة من الأعلام، منهم العلامة الإفراني في "صفوته"، في ترجمة الشيخ أبي علي المكي الحنفي، من شيوخ أبي سالم، رحمه الله.

وممّن نقله أيضا شيخ شيوخنا الفاسيين، وإمام عصره، وشيخ الجماعة في مصره، أبو عبد الله، سيدي محمد بن المدني جنون، صاحب اختصار"حاشية" العلامة الرهوني على الزرقاني؛ فإنه قال في "اختصاره" المذكور:

(فائدة): ذكر الشيخ سيدي علي الأجهوري ان من قرأ يوم عاشوراء سبع مرات: سبحان الله ملء الميزان، ومنتهى العلم،إلخ، وختم بقوله: وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، إلخ [350/2].

ثم نقل شيخ شيوخنا ما نقلناه عن أبي سالم في"رحلته". والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ومما يَردُ هنا أن هذا الفضل ممّا يحتاج إلى توقيف من صاحب الشريعة، إذ هو مما لا يقال بالرأي؛ فقد أجبنا عن هذا وأمثاله في هذه"الفهرسة" سابقا. وما قاله في ذلك الشيخ زروق وغيره، وأنه يحتمل أن يكون رؤيا صالحة من رجل صالح، التي هي من بقايا الوحي، أو بإلهام أو كشف أو كرامة من ذي ولاية صحيحة ثابتة تُدخِله في قوله تعالى: (ألاَ إنَّ أوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)، وهذه من قبيل البشرى في الدنيا. وقد نقلنا هناك ما وقع من ذلك لبعض الصالحين من تلقيهم صلوات وأدعية وأذكارًا في المنام، وتلقي أكابر أهل العلم والصلاح ذلك منهم؛ كقضية العارف الكتاني، التي نقلها العارف القشيري في"رسالته". قال: وقال الكتاني:

"رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقلت: ادع الله أن لا يميت قلبي، فقال:"قل كل يوم أربعين مرة: يا حيّ يا قيوم، لا إله إلا أنت؛ فإن الله يُحيي قلبك" [ص192].

وقد تلقى هذا الذكر أهل العرفان، والتوجه إلى الملك الديان، بالقبول. وذكر نحو ذلك عن أكابر العارفين. ومن أشهر ما عمل به المتأخرون من هذا النوع؛ الصلاة التازية،

والصلاة الريسونية، وصلاة الفاتح التي يقال لها الصلاة البكرية. وظهر في ذلك لأهل الله، ومن أخلص في نيته، خير كثير.

وقد أطلنا في إيضاح هذا المبحث في غير هذا الموضع من هذه "الفهرسة"، فراجعه.

[الرجوع للكلام على المواسم المحدثة]

ولنرجع إلى ما ذكره صاحب"المدخل" في المواسم التي نسبوها إلى الشرع وليست منه؛ فذكر من ذلك:

أول ليلة من شهر رجب. وذكر ما يقع في مصر من المحدثات المحرمات، وذكر من ذلك ما يفعلونه من الحلاوات وصناعة صور الحيوانات من تلك الحلاوة، وبيّن أن ذلك حرام. وذكر أنهم زادُوا في ذلك اليوم إحداث التكلفات من المُهادات والتغالي فيها، والتنافس فيها من نسائهم، حتى إن من لم يفعل ذلك من الأزواج، يؤدي النزاع إلى الطلاق. وبيّن تحريم التكلف، وقال:

"والتكلف مذموم في المواسم الشرعية، والعبادات العملية الدينية، فكيف به في غير موسم شرعي ولا عرفي".[192/1].

قلت: وهذا الذي قاله صاحب"المدخل"، إنما كان فيما يظهر في قطره المصري.

أما في المغرب؛ فالذي أدركنا عليه الحال، أن الاحتفال إنما يقع في أول خميس من رجب. ولكن الاحتفال إنما هو عند النساء بصيامه، والتوسيع في بعض المآكل. ويقول النساء:(الخميس من ذاتُ، مَن لا ينفق على زوجته فيه، تُصبح عليه امرأته غضبانة) الخ. ولكن ذلك أمر خفيف؛ إذ في الغالب لا يعتني بيومه إلا المتدينات من النساء، ولا يعم احتفاله ولا إظهار شيء من ذلك؛ إلا أن بعض النساء المتجالة، يخرجن لزيارة قبور أهلهن، ولا يظهر في ذلك ما يُنكر، ولا لوم على من ترك ذلك. هذا الذي أدركنا عليه الحال.

***

ثم أنكر صاحب"المدخل" ما يفعل فيه في المساجد في أول ليلة جمعة من هذا الشهر المبارك من صلاة الرغائب، وما يستعدون لها من الاجتماعات في جوامع الأمصار وفي مساجدها، ويصلون بإمام وجماعة، كأنها صلوات مشروعة. وأطال في بيان خروجها عن مناهج السنة، والأفعال الواقعة فيها من الابتداع، والتباعد بذلك عن واجب الاتباع.

ونقل عن الإمام الطرطوشي وغيره، إنكاره، وذكر ما قاله الإمام الغزالي في ذلك، ولاطف في الرد، وبين أن الإنكار إنما هو راجع لإظهارها في الجماعات، وأما المنفرد بها في بيته، فلا حرج عليه. وانظر ذلك فيه.[المدخل:293/1].

ثم إن هذه البدعة لم تكن قط بمغربنا، ولا جرت ببلدنا، ولا يعرف هذه الصلاة الخواص، فضلاً عن العوام.

[ليلة الإسراء والمعراج]

وأشهر ما يحتفل به في هذا الشهر احتفالا خفيفا، أحدثه في الزاوية الريسُونية بتطوان بعض من يُعدّ من العوام، وإن كانت نيته صالحة؛ ليلة السابع والعشرين منه، وهي ليلة المعراج. ولكنه، فيما كنت أسمع، يكون خاليا مما يشوبه من المنكرات. وإنما يجتمع أهل الزاوية ومن يأتي إليها باعتباره من طلبة العلم وغيرهم، ويقرأون القصائد في مدح الرسول، عليه الصلاة والسلام، وخصوصا أوائل قصيدة المحب البوصيري وغيرها، ثم يسرد مولدية شيخنا العارف بالله، التقي النقي، العالم العامل، المترجم في هذه الأسطر، سيدي محمد بن جعفر الكتاني. ويجعل للفقراء الحاضرين طعام من أهل الدور المجاورة للزاوية من مالهم، ولا دخل في ذلك للحكومة ولا للأحباس، بل يكون صدقة خالصة لوجه الله.

وهذا فعل حسن لا يخالف مجالس السنن. أما النساء فإنهن يحضرن. ولكن جعل لهن في الزاوية موضعا خاصا بهن، بينهن وبين الرجال حجاب من خشب.

وعليه، فلا إنكار على هؤلاء في ذلك، إلا لكونه بدعة لم تكن تعمل في السلف، ولا تفعل من القريب من الخلف. والرجاء من الله أن تكون من البدع الحسنة.

[تلخيص ما قاله العلماء
بشأن ما ورد في فضل شهر رجب]

أما الكلام على شهر رجب وما ورد فيه من فضله وصيامه، وفعل صلاة الرغائب فيه؛ فلا يكفي فيه هذا القدر من الكلام. بل لا بد من تلخيص ما قاله فيه الأعلام، وما ورد فيه من الأحاديث التي تنسب للنبي، صلى الله عليه وسلم، من صحيح وضعيف وموضوع اختلقته المفترون اللئام. وقد ألف في ذلك الحافظ ابن حجر، اعتناء بهذا الموضوع جزءًا سماه :

"تبيين العجب، بما ورد في فضل رجب". وقد اطلع عليه العلامة الحطاب، ولخصه في "شرح المختصر". وها أنا سألخص تلخيصه، مع زيادة ما نقله أخيرا عن غير ابن حجر.

أما ما لخصه عن ابن حجر؛ فذكر أولا أسماء هذا الشهر وتعددها، من ذلك: الأصب، والأصم، وشهر العتيرة، لأنهم كانوا يذبحونها فيه.

قلت أنا: وربما يكون ذبح الدجاج، في فاتحه أو في أول خميس منه، فيه ما يشير إلى تقليد أهل الجاهلية، والله أعلم.

ثم قال الحطاب: (فصل) لم يرد في فضله، أي رجب، ولا في صيامه، ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه، حديث صحيح يصلح للحجة. وقد سبقني إلى الجزم بذلك الإمام الهروي الحافظ. قال: رويناه عنه.

ثم ذكر على سبيل التنبيه والإرشاد إلى أن الحديث إذا كان ضعيفا في مثل هذا الموضع، فإن أهل العلم يتسامحون في الحديث الضعيف المتعلق بالفضائل، ويعملون به بشروط ذكرها.[شرح المختصر:408/2].

قلت: وقد جمعها العلامة سيدي مَحمد، بفتح الميم، ابن محمد جنون الفاسي، أحد العلماء الذين فاتني الأخذ عنهم بموته بإثر رحلتي لفاس؛ إذ قال في "حاشيته" على شرح نظم العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي، في مصطلح الحديث، إذ قال:

ويندب العمل بالضعيف في ... فضائل مناقِب فلتقتفِ

إن خفّ ضعفه ولمّا يُعتقدْ ... ثبوته عن النبي فاجتهدْ

وكان تحت ذي عموم دخلا ... ولم يعارضه صحيح فاقبلا

[هـ.مجموع رقم 508].

ولكن الشيخ الحطاب اقتصر على شرطين، والعلامة الفاسي فصلها وجعلها شروطا أربعة. ثم نرجع إلى كلام الحطاب، فنقول: قال الحطاب:

{إن أمثل ما ورد فيه، ما رواه النسائي من حديث أسامة: قلت يا رسول الله. لم أرك من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: "ذلك شهر يغفل الناس عنه، بين رجب ورمضان". ففيه إشعار بأن في رجب مشابهة برمضان، وأن الناس يشتغلون فيه عن العبادة بما يشتغلون به في رمضان، ويغفلون عن نظير ذلك في شعبان، ولذلك كان يصومه. وفي تخصيصه ذلك بالصوم إشعار بفضل صيام رجب وأن ذلك كان من المعلوم المقرر لديهم}.

ثم استدل أيضا بحديث أبي داود من قوله، عليه السلام:"صُم من الحُرُم واترك"الخ، ورجب من الحُرُم. قال الحطاب: وأما الأحاديث الواردة في فضل رجب، أو في فضل صيامه، أو في صيام شيء منه صريحة؛ فهي على قسمين: ضعيفة وموضوعة.

فذكر من الضعيف حديثا رواه النقاش والبيهقي، من حديث أنس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا دخل رجب قال: "اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبلغنا رمضان". قال ابن حجر: وقد وجدت لهذا الخبر إسنادا ظاهره الصحة، فكأنه موضوع. [شرح المختصر:408/2].

ثم ذكر جملة من الأحاديث الباطلة في فضل هذا الشهر، منها حديث النقاش وابن ناصر، وهو حديث طويل. ومنها حديث: "رجب شهر الله الأصم. من صام من رجب يوما إيمانا واحتسابا، استوجب رضوان الله الأكبر". قال: "وهو متن لا أصل له. اختلقه أبو البركات السقطي".

ثم ذكر أحاديث عن هذا من هذا النوع، وهي باطلة موضوعة. ومنها حديث، فضل الصلاة بعد المغرب في أول ليلة من رجب، عن أنس مرفوعا، قال: "من صلى المغرب في أول ليلة من رجب، ثم صلى بعدها عشرين ركعة، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب، و(قُلْ هُو اللهُ أحَد) مرة، ويسلم فيهن عشر تسليمات، أتدرون ما ثوابه، فإن الروح الأمين جبريل علمني ذلك. قلت: الله ورسوله أعلم، قال:"حفظه الله في نفسه وأهله وماله وولده، وأجير من عذاب القبر، وجاز على الصراط كالبرق بغير حساب ولا عقاب". قال: وهذا حديث موضوع.[409/2].

ثم ذكر عن ابن عباس موقوفا أنه قال: من صلى ليلة سبع وعشرين من رجب، اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة منها فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغ من صلاته، قرأ فاتحة الكتاب سبع مرات، وهو جالس، ثم قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أربع مرات، ثم أصبح صائما، حط الله عنه ذنوب ستين سنة، وهي الليلة التي بعث فيها محمد، صلى الله عليه وسلم.هـ[410/2].

قلت: وقد سكت عنه الحطاب، ولم يذكر شيئا فيه عن ابن حجر. ولكن ذِكْره في تعداد الأحاديث الموضوعة، يُفيد أنه منها.

قال الحطاب: ثم ذكر صلاة الرغائب، عن أنس مرفوعا. قال الحطاب: قال الحافظ، يعني ابن حجر: هو حديث موضوع على رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم ذكر أحاديث أخر كلها باطلة.

قلت: وذكر هذه الأحاديث الباطلة والتنبيه عليها من قبيل النصيحة، وهي لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، من العلماء والأمراء وأهل الاقتداء؛ كابن حجر وأمثاله، من المحدثين السابقين واللاحقين، الذين شأنهم البحث والتنقيب على أمثال هذه الافتراءات التي أدخلها في الدّين من لا يتقي الله، ومن في قلبه مرض من علل النفاق، أو التساهل أو التلاعب في أمر الديانة، جهلا أو قصدا، وهم أبعد من الدين بعد الأرض من السماء. فجزى الله علماء هذه الأمة أحسن الجزاء.

وبعد أن أشار إلى أن هذه الأحاديث كلها باطلة، وإنْ نقلها البيهقي في "الشعب"، والجزولي في"شرح الرسالة"، قال: وذكر الدميري في "شرح" سنن ابن ماجه، عن الحليمي أنه لم يوجد لصوم رجب في الأصول المعروفة سوى ما روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سئل عن صوم رجب، فقال: "أين أنتم من شعبان؟".

ثم ذكر ابن حجر ما يناقض طلب صوم رجب، وذكر رواية ابن ماجه، عن ابن عباس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، نهى عن صوم رجب كله. قال الدميري في شرحها: انفرد به المُصنف، وهو ضعيف. ثم أطال الحافظ الكلام في هذا الحديث، إيرادا وجوابا، ثم نقل عن الطرطوشي في كتاب"الحوادث والبدع" أنه قال:

{يكره صوم رجب. وهي على ثلاثة أوجه؛ أحدها: إذا خصه المسلمون بالصوم في كل عام، حسب العوام، أنه فرض كشهر رمضان، وإما سنة ثابتة كالسنن الثابتة، وإما لأن الصوم فيه مخصوص بفضل ثواب على ثواب باقي الشهور. ولو كان من هذا شيء، لبينه، صلى الله عليه وسلم. قال ابن دحية: الصيام عمل بر، لا لفضل صوم رجب، فقد كان عمر ينهى عن صيامه}.هـ كلام ابن حجر فيما لخصه الحطاب من مؤلفه"تبيين العجب". [411/2].

ثم نقل الحطاب فتوى ابن الصلاح، وفتوى عز الدين ابن عبد السلام، في ردّ مقالة من قال بتأثيم من صام رجب، فقال الأول: لا إثم عليه في ذلك، ولم يؤثمه بذلك أحد من علماء الأمة فيما نعلمه. بل قال حفاظ الحديث: لم يثبت في صوم رجب حديث، أي فضل خاص، وهذا لا يوجب زهدا في صومه، لما ورد في النصوص في فضل الصوم مطلقا.إلخ.

وقال الثاني في فتواه: نذر صوم رجب لا زم، لأنه يتقرب إلى الله بمثله. والذي نهى عن صومه، جاهل بمأخذ أحكام الشريعة. وكيف يكون منهيا عنه، مع أن العلماء الذين دونوا الشريعة لم يذكر أحد منهم اندراجه فيما يكره صومه. ثم قال في آخر فتواه:

"والذي نهى عنه من أهل الحديث، جاهل معروف بالجهل، لا يحل لمسلم أن يقلده في دينه"، إلخ.

وقد نقل بعد هاتين الفتويين نظمًا للدميري، شارح ابن ماجة، الإمام الحطاب، لخص فيه مضمنهما، إذ قال:

تتميمُ الأصبُ صومُه نُدِبْ ... لكل قادر وبالنّذر يجبْ
وأحمد كرهه إذا انفردْ ... والمانع المطلق قوله يُردْ
والنهي عنه قد روَى ابن ماجهْ ... ضعّفهُ النسائي في الدباجهْ
والشيخ عز الدين قال من نهَى ... عن صومه في كل حالة سهَا
وشدد النكير في الرد عليه ... وقال لا يُرجع في الفتوى إليه
إذ الّذِين نقلُوا الشريعهْ ... مَا كرهُوا صيامه جميعهْ
وفي عموم طلب الصوم اندرجْ ... وزال عن صائمه به الحَرجْ
وابن الصلاح قال من رَوى رجب ... فيه عذاب صائميه قد وجبْ
غير صحيح لا تحل نسبتهْ ... إلى رسول الله ضلّ مثبتهْ
ففي عموم الفضل للصوم نصُوصْ ... تدل لاستحبابه على الخصوصْ

هـ[شرح المختصر:412/2].

قلت: ومما ذكره ابن حجر في هذا التأليف، أن أهل الجاهلية كانوا يتخذون رجبا عيدا وموسما. ولهذا ورد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، نهى عن صيامه. ثم ذكر عن ابن عباس أنه قال: لا تتخذوا رجبا عيدا ترونه مثل رمضان. ثم نقل عن سيدنا عمر نحوا من هذا، فقال، عن "مسند" سعيد بن منصور، إن عمر كان يضرب أيدي الرجال في رجب، إذا رفعوها عن الطعام، حتى يضعوها فيه، ويقول: هو موسم كان أهل الجاهلية يعظمونه، إلخ.

قلت: وهذه الجملة يمكن أن تضاف إلى ما قدمناه في شأن أعياد العرب ومواسمها قبل الإسلام. والله أعلم.

***

[صلاة الرغائب وما قيل فيها]

أما صلاة الرغائب التي ذكر ابن حجر حديثها، وصرح بأنه موضوع لا شك فيه، وذكرها صاحب"المدخل"، وما قاله فيها الغزالي، وأجاز فعلها للمنفرد في بيته، وما أنكر إلا إظهارها في المساجد، وإقامتها بجماعة وإمام، إلخ.

واعلم أن هذه الصلاة قد بسط القول فيها الإمام تاج الدين ابن السبكي في "الطبقات"، وترجم لهذا الموضوع بقوله: (شرح حال صلاة الرغائب)، وبين ما اتفق فيها بين الشيخين، سلطان العلماء، أبي محمد ابن عبد السلام، والحافظ أبي عمرو ابن الصلاح. قال: وقد كان ابن الصلاح أفتى بالمنع منها. ثم صمّم على خلافه. وأما سلطان العلماء فلم يبرح على المنع.

قلت: وقد تصدّى لرد ما ذهب إليه ابن الصلاح، وكتب في ذلك رسالة نقلها عنه في "الطبقات"، وسألخص المُهم منها. فقال في فاتحتها:

"الحمد لله الذي لا يحيط به وصف واصف، الآخر الذي لا تحويه معرفة عارف، جلّ ربنا عن التشبيه بخلقه، وكلّ عن القيام بحقه. أحمده على نعمه وإحسانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في سلطانه. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، المبعوث بحججه وبرهانه. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه".

"أما بعد؛ فإن البدعة ثلاثة أضرب: أحدها ما كان مباحا كالتوسع في المآكل والمشارب والملابس والمناكح؛ فلا بأس بشيء من ذلك. الضرب الثاني: ما كان حسنا، وهو كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة، غير مخالف لشيء منها؛ كصلاة التراويح، وبناء الربط والخانات والمدارس، وغير ذلك من أنواع البر التي لم تُعهد في الصدر الأول، فإنه موافق لما جاءت به الشريعة في اصطناع المعروف، والمعاونة على البر والتقوى. وكذلك الاشتغال بالعربية، فإنه مبتدع. ولكن لا يتأتى تدبر القرآن وفهم معانيه إلا بمعرفة ذلك، فكان ابتداعه موافقا لما أمرنا به من تدبر آيات القرآن وفهم معانيه. وكذلك الأحاديث وتدوينها وتقسيمها إلى الحسن والصحيح والضعيف والموضوع، مبتدع حسن، لما فيه من حفظ كلام الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يدخله ما ليس فيه، أو يخرج منه ما هو فيه. وكذلك تأسيس قواعد الفقه وأصوله. وكل ذلك مبتدع حسن موافق لأصول الشرع، غير مخالف لشيء منها. الضرب الثالث: ما كان مخالفا للشرع، أو متلزما لمخالفة الشرع؛ فمن

ذلك صلاة الرغائب؛ فإنها موضوعة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وكذب عليه. ذكر ذلك أبو الفرج ابن الجوزي. وكذلك قال أبو بكر الطرطوشي إنها لم تحدث ببيت المقدس إلا بعد ثمانين وأربعمائة من الهجرة". [105/5].

ثم صار يبين الأوجه التي خالفت هذه الصلاة بها الشرع، ثم ختم هذه الرسالة بقوله.

" ومما يدل على ابتداع هذه الصلاة، أن العلماء الذين هم أعلام الدين، وأئمة المسلمين، من الصحابة والتابعين، وتابعي التابعين وغيرهم، ومن دوَّن الكتب في الشريعة، مع شدة حرصهم على تعليم الناس الفرائض والسنن، لم ينقل عن أحد منهم أنه ذكر هذه الصلاة ولا دَوّنها في كتابه، ولا تعرض لها في مجالسه. والعادة تحيل أن يكون مثل هذه سنة، وتغيب عن هؤلاء الذين هم أعلام الدين، وقدوة المؤمنين، وهم الذين إليهم الرجوع في جميع الأحكام، من الفرائض والسنن والحلال والحرام".

"وهذه الصلاة لا يصليها أهل المغرب، الذين شهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لطائفة منهم أنهم لا يزالون على الحق حتى تقوم الساعة. وكذلك لا تفعل بالأسكندرية، لتمسكهم بالسنة. ولمَّا صحّ عند الملك الكامل، رحمه الله، أنها من البدع المفتراة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أبطلها من الديار المصرية. فطوبى لمن تولى شيئا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن. وليس لأحد أن يستدل بما روي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: {الصلاة خير موضوع}؛ فإن ذلك مختص بصلاة مشروعة".هـ كلام ابن عبد السلام. [الطبقات:107/5].

وقد أطال الشيخ مُرتضى أيضا في الكلام على هذه الصلاة عند ذكر الغزالي لها في"الإحياء"، ونقل نصوص أهل الحديث في إبطالها والحكم بوضعها. والعلم كله لله.

***

[نظمُ الخصال الحميدة
التي تُفعل يــوم عـــاشوراء]

وهنا أستدرك شيئا فاتني فيما يتعلق بالخصال التي تُفعل يوم عاشوراء، وهو زيادة في بيانها نظمًا وبسطاً لِما جاء به الإمام الحطاب من تلك الأبيات الثلاثة فيها.

ونظرًا لحضور هذا الموسم الجليل، الذي هو بكل تعظيم وتوقير كفيل؛ فقلتُ، تبركا بهذا اليوم وتنويها بقدره، الذي أهمله اليوم هؤلاء القوم الذين بأعراف الكفار وأعيادهم اقتدوا، وتركوا سنن نبيهم وهدي أصحابه والتابعين من أهل الديانة والمحافظة على شعائرها،

وأعرضوا عنها، وما بهديهم اهتدوا. وقصدي بهذا أن يبقى ذلك محفوظا، ولو لم يَنظر إليه إلا الكاغد والرق، ويعلم أن العلم هو الموصل إلى أهل الحق:

صُمْ بعاشُوراء وَصلِّ واحتَسِب — وصِلْ أقاربًا إليك تنتسبْ
واغن بذي اليُتم بمسح رأسهِ — وعالمًا زُرهُ التماس أنسهِ
وطهر الذات بالاغتسال — وداو عينيك بالاكتحال
وقلم الأظفار دفعًا للدنسْ — ووسّع الإنفاق من بك أمَسْ
و(قل هُوَ اللهُ) اقرأنْه ألفا — تنل مُناك و الذنوب تُنفى
وعُد مريضا سَائلاً له الشّفَا — ووَاس مَن دهره نالَ الجفا
وكلّ ما ذُكرَ من خصَال — لها أصول تدرى بالسؤال
والذي صحّ مِنَ الأخبار — خصوصه الصوم بلا اعتلال
كذلك التوسيع للعيال — توسطا دون ضياع المَال
ومما يدعى به وهُو مَاشِي — لطول عُمر دعوة العياشي
عن شيخه العارف بالأذواق — علامة الأسماء والأوْفَاق
الحنفي المكي ذي العلُوم — مبرّز الميدان في الفهوم
والشيخ جنون لذا انتقاهُ — من قولةالأجهوري وارتضاهُ
ثم عن العياشي أيضًا نقلهْ — وفي حواشيه اصطفى وقبلهْ
فاعمل به وحسِّن الظن ودعْ — قولك إنَّ ذا باطل من البدعْ
فإنَّ أهل الله أهل الدّين — أقوالهم تصدرُ عن يقين
فإن يكن هذا الدعا لمْ يستندْ — إلى حديث أصله عنه وردْ
إما لما صحّ لهم منَاما — أو ألهمُوا ألفاظه إلهاما
فسلّم الأمر لأهل اللهِ — تسلم بذا من أكبر الدَّواهِي

***

[ختام "الجواهر المنثورة، في فضائل يوم عاشوراة، وما يفعل فيه من الخصال المأثورة"]

وفي الختام، يُمكن أن تُسمي هذه النبذة التي كتبتُها في يوم عاشوراء، بـ:(الجواهر المنثورة، في فضائل يوم عاشورة، وما يُفعل فيه من الخصال المأثورة).

اللهم وفقني لاتباع طريقة الأدب مع مقامك العظيم، واقتفاء آثار نبيك ذي الخلق الكريم، ومعرفته معرفة تامة أسلم بها من مُعاداة أوليائك من خلقك، ومخالفة ما وصفت به الخاصة من أهل قربك الذين آمنوا وكانوا يتقون، وجعلت لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. آمين، واجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

***

[الرجوع إلى موضوع المواسم المحدثة]

ثم لنرجع إلى إتمام ما ذكره العلامة، المحافظ على السنّة، صاحب"المدخل"، في إنكاره هذه المواسم المحدثة؛ فذكر من ذلك أيضا ليلة المعراج التي هي في شهر رجب، الذي أفضْنا القول فيه، ولخَّصنا فيه مُؤلف الحافظ ابن حجر، الذي فيه عن الأحاديث الضعيفة وعن الموضوعة التي يستحق واضعها أن يُرجم بحجر، فقال:

"ومن البدع التي أحدثوها فيه، أعني في شهر رجب؛ ليلة السابع والعشرين منه، التي هي ليلة المعراج، التي شرّف الله تعالى هذه الأمة بما شرع لهم فيها بفضله العميم، وإحسانه الجسيم، وكانت عند السلف يعظمونها إكراما لنبيهم، صلى الله عليه وسلم، على عادتهم الكريمة من زيادة العبادة فيها، وإطالة القيام في الصلاة والتضرع والبكاء، وغير ذلك ممّا قد علم من عوائدهم الجميلة في تعظيم ما عظمه الله تعالى لامتثال سنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: { تعرضوا لنفحات الله}، وهذه الليلة المباركة من جملة النفحات، وكيف لا وقد جعلت فيها الصلوات بخمسين إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء. وهذا هو الفضل العظيم من غني كريم. فكانوا، إذا جاءت، يقابلونها بما تقدم ذكره، شكرا منهم لمولاهم، على ما منحهم وأولاهم. نسأل الله الكريم أن لا يحرمنا ما منّ به عليهم، إنه ولي ذلك، آمين". قال:

"فجاء بعض أهل هذا الزمان، فقابلوا هذه الليلة الشريفة بنقيض ما كان السلف يقابلونها به، وذلك أنهم أحدثوا من البدع أشياء"، إلخ. ثم صار يذكرها.

[الاحتفال بليلة المعراج بتطوان]

ولكن نحن، والحمد لله، في بلدنا يعظمون هذه الليلة بصيام يومها. والغالب أن الذين يصومون هذا اليوم هم النساء، ولا سيما العجائز والمتجالات منهن. أما الرجال، فإنما يصومه القليل منهم. نعم؛ في هذه الأيام الأخيرة، أحدث بعض من لا يدري السنة من

البدعة، من رؤساء الزوايا، اجتماعا بعد صلاة العشاء يحضره الطلبة وغيرهم. وأشهر من يقام فيه ذلك من الزوايا، الزاوية الريسونية، ويقتصرُون في ذلك على الأمداح النبوية، مما فيه ذكر هذه الليلة المباركة. ولم يبلغنا في ذلك ما يشوب هذا الاجتماع من المنكرات. والنساء اللواتي يحضرْن هنالك، أعدَّ لهُن موضعا خاصا يقيهنّ من الاتصال بالرجال، وهؤلاء النسوة اللواتي يحضرن، نيتهن حسنة. والغالب عليهن التأثر بذكر هذا الرسول، والتشوق لذكر شمائله ومحاسن أخلاقه. وربما غلب عليهن البكاء، والحمد لله.

أما صيام هذا اليوم؛ ففي المَوّاق عن ابن يونس، أحد كبار الفقهاء المالكية، أنه مما وقع الترغيب فيه. ورغب أيضا في صيام سبعة وعشرين من رجب، فيه بُعث النبي، صلى الله عليه وسلم. [التاج والإكليل، بهامش شرح الحطاب:407/2].

وفي الحطاب، فيما لخصه من جزء ابن حجر، عن ابن عباس موقوفا أنه قال: من صلى ليلة سبع وعشرين من رجب، اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة منها بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغ من صلاته قرأ فاتحة الكتاب سبع مرات، وهو جالس، ثم قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أربع مرات. ثم أصبح صائما، حط اللهُ عنه ذنوب ستين سنة. وهي الليلة التي بعث فيها محمد، صلى الله عليه وسلم.هـ.[410/2].

وقد ذكرتُ هذا الأثر فيما لخصته من كلام الحطاب في تلخيص ابن حجر. وهناك نبَّهتُ على أن ابن حجر ذكره في سياق تعداد الأحاديث الموضوعة، والله أعلم. وإنما أعدته هنا لأنه هنا أنسب.

أما صيام أول خميس من رجب، فهو من العادات المعمول بها في تطوان. وقد قدمت ذلك، مع زيادة الإنفاق. قلت: وهو مأخوذ مما ورد في صلاة الرغائب، وهي مذكورة في"الإحياء" وغيرها، قال في "الإحياء": ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي، إلخ.[182/1]، ثم ذكر صفة هذه الصلاة.

[مسائل تتعلق بالإسراء والمعراج]

أما الكلام على الإسراء والمعراج، فهو مبسوط في كتب التفسير والحديث؛ إذ المسألة قطعية، لأن القرآن قصّها علينا بالنص الأجْلى وقال: (سُبحَانَ الّذِي أسرَى بعَبْدِهِ ليْلاً). وما أنكرها واستبعدها إلا من كذّب وتولى، وفي النار ذات اللهب سيصلى.

وهنا، قبل الكلام على نبذة من هذه المعجزة الكبرى، التي هي المعجزة العظمى ببلوغ نبينا المقام الأسمى، ورؤيته من الآيات ما لم يره سواه من أهل المقامات العليا، فكان قاب قوسين أو أدنى، وأوحى إليه ربه ما أوحى، وما زاغ البصر، أدبا مع ربه، وما طغى؛ مسائل لا بد من الإلمام بشيء منها.

أما المسألة الأولى هنا؛ فهي مسألة الإسراء: هل كان بالجسد والروح، أو كان بمجرد الروح؟. وقد اختلف في ذلك أهل العلم من المفسرين وغيرهم.

ولنبدأ في هذه المسألة بما جاء في القرآن، وهو الكتاب الذي لا ريب فيه، وهو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ من آيَاتِنَا. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)،[الإسراء:1]. ونورد في تفسير هذه الآيات الكريمة، تفسير الإمام المحدث الهمام، المحفوف "تفسيره" بالنور الرباني، والفتح الوهبي الإلهي، أبي الفداء ابن كثير، فقال إثر قوله: (السَّمِيعُ الْبَصِيرُ):

{ يُمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره، ولا رب سواه، (الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) يعني محمدا، صلى الله عليه وسلم،(لَيْلاً) أي في جنح الليل (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وهو مسجد مكة (إِلَى الْمَسْجِدِ الاقْصى) وهو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل، عليه السلام. ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمَّهم في محلتهم ودارهم، فدلّ على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى: (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) أي في الزروع والثمار (لِنُرِيَهُ) أي محمدا(مِنْ آيَاتِنَا) أي العظام، كما قال تعالى: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)، وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أي السميع لأقوال عباده، مُؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم، فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.} هـ[3/3].

ثم صار يذكر الأحاديث الطويلة الواردة في الإسراء، وما وقع فيه من رقيّه، صلى الله عليه وسلم، السبع الطباق وبلوغه، صلى الله عليه وسلم، إلى سدرة المنتهى، ووصل إلى محل يسمع فيه صرير الأقلام، بتصاريف الملك القدوس السلام، ولقيه بالأنبياء في كل سماء، ورؤيته، صلى الله عليه وسلم، من آيات الله الكبرى التي ارتقى بها عن كل ذي مقام

وقدر قدرا، وفرضت على أمته فيه الصلوات، وما نبه إليه موسى،عليه السلام، من عدم إطاقة أمته ما فرضه الله عليها، فطلب من ربه التخفيفات.

وأطال في ذلك الحافظ ابن كثير في نقل الروايات وتعدد ما فيها من اختلاف العبارات، في وصف ما شاهده، عليه السلام، من العجائب التي ينشرح لسماعها قلب كل مؤمن صادق الإيمان، مصدق لكل ما أخبر به سيدنا محمد، عليه السلام، مما أكرمه به المولى، جل وعلا، من المعجزات، وفضله به من المناقب.

[الإسراء هل كان بالجسد والروح؟، واختلاف الناس في ذلك]

ثم تعرّض العماد في هذه المسألة التي ابتدأنا بها، وهي: هل كان الإسراء بالجسد والروح، أو بمجرد الروح؟ فقال:

"ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه، عليه السلام، وروحه، أو روحه فقط، على قولين؛ فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه، يقظة لا مناما. ولا ينكرون أن يكون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رأى قبل ذلك مناما ثم رآه بعد اليقظة، لأنه كان، عليه السلام، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والدليل على هذا قوله تعالى : (سُبحَانَ الذِي أسرَى)" إلخ، قال: "فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام؛ فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظما، ولمّا بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولمّا ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد".

ثم قال: "وقال الله تعالى: (مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى)، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضا فإنه حُمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه". [23/3].

ثم نقل كلام ابن إسحاق في"السيرة"، ما يشهد لهذا المذهب. ولكن ليس فيه شاهد صحيح، بل كلامه كله مخالف لما دل عليه ظاهر الكتاب العزيز.

ولهذا، تعقبه إمام المفسرين ابن جرير؛ فقال أبو الفداء ابن كثير، بعد نقله عن ابن إسحاق ما أشرنا إليه:

" وقد تعقبه أبو جعفر ابن جرير في "تفسيره" بالرد والإنكار، والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن. وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم"، أي من كلام ابن كثير.

وفي"السيرة النبوية":

"اعلم أنه لا خلاف في الإسراء به، صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة من الرجال والنساء، نحو الثلاثين".[بهامش إنسان العيون: 301/1].

وفي"المواهب اللدنية" للإمام القسطلاني:

"ولما كان في شهر ربيع الأول، أسري بروحه وجسده يقظة، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إلى فوق سماوات، ورأى ربه بعيني رأسه، وأوحى الله إليه ما أوحى، وفرض عليه الصلوات الخمس، ثم انصرف من ليلته إلى مكة، فأخبر بذلك؛ وصدّقه الصديق وكل من آمن بالله، وكذبه الكفار"، إلخ.

والقصد بنقل كلام "المواهب" هنا؛ أنه اتبع الجادّة فيما يقتضيه ظاهر القرآن، وعليه الجمهور من أهل العلم من الإسراء بالجسد والروح. ولم يتعرض للخلاف هنا، لأنه يراه ضعيفا ومردودا، كما سبق، عن ابن كثير، واعتماده ما قاله إمام المفسرين.

ثم التمهيد لما كان يتردد في فكري، وسبق إلى فهمي؛ أن الذي استحال ما جاء من إسرائه، عليه السلام، بجسده وروحه، وطوى هذه المسافات الكبيرة العظيمة، ورأى ما رأى من آياته الكبرى، ورجع من ليلته؛ أنه إن كان مؤمنا، فهو غفلة عن وصفه تعالى بأنه على كل شيء قدير. وكنت بفهمي القاصر نشاهد [كذا] بأعيننا أن الطير في جو السماء، وهو أضعف المخلوقات، يقطع المسافات الطويلة في المدة القصيرة. وأقرب شيء يمثل به، ما كانت تستعمله الأمم قبلنا من استخدام الحمام لنقل الأخبار عند الاحتياج للإسراع، فتأتي بالرسائل في أعناقها، وترجع حينا بأجوبتها في أقرب وقت. وانظر ما قالوه في سرعة سبح النسر في الفضاء وارتفاعه فيه، مع عظم جثته، ففي "حياة الحيوان" للعلامة الدميري: وهو، أي النسر، أشد الطير طيرانا وأقواها جناحا، حتى إنه ليطير بين المشرق والمغرب في يوم واحد. وذكر أنه يرفع نفسه في الهواء طبقة بعد طبقة، حتى لا يدخل تحت الريح. ويشابهها أيضا العقاب في سرعة الطيران وخفة الجناح. قال الدميري فيها: وهي، أي العقاب، أشد الجوارح حرارة، وأقواها حركة، وأيبسها مزاجا. وهي خفيفة الجناح سريعة الطيران، تتغدّى بالعراق، وتتعشى باليمن.هـ[140/2]، وهي مسافة بعيدة، كما لا يخفى.

فمن أعطى القوة لهذا الطير الضعيف حتى يقطع المسافات البعيدة في سبح الفضاء، كيف يستحيل أن يعطي ذلك معجزة لإمام النبيئين ومقدم المرسلين؟ والله يقول، تنبيها لنا

على القدرة التي أعطاها لمطلق الطير: (أ لَمْ يَرَوا إلى الطيْر مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاّ اللهُ) الآية،[النحل:79].

والعجب كل العجب،[من]القائل باستحالة إسراء الله بنبيّه، صلى الله عليه وسلم، بجسده وروحه، وقطعه تلك المسافة بسرعة، وهو يرى تلك السرعة التي يشاهدها الخاصة والعامة في الطير الضعيف!

هذا من جهة العوائد. أما من جهة الخوارق والمعجزات؛ فانظر ما وقع للنبي الكريم مع ذلك المخلوق الذي أتى له بعرش بلقيس من مسافة بعيدة، قبل أن يرتد إليه طرفه. وما سخره له من الريح التي تجري بأمره مشيا لينا حيث شاء.

فهذا عجيب من أمثال هؤلاء الأئمة المسلمين الذين استبعدوا مثل هذه المعجزة من خاتم النبيين، وصاروا يؤوّلونها، ومنهم من يستحيلها من طريق الفلسفة وقواعد الهندسة، وتحكمات الحكماء؛ ففي "روح المعاني" من هذا المعنى، ما نقله عن الفخر الرازي والبيضاوي، إذ قال:

"والأكثرون على أن المعراج كالإسراء، بالروح والبـــدن، ولا استحالــة في ذلك". [ج5ص7]. ثم ذكر ما قالوه في دفع الاستحالة من طريق الهندسة بحركة الشمس والأفلاك.

وأنا أقول: نحن لا نحتاج لهذا، ولا إلى ما ذهب إليه بعض أئمتنا من الجمع بين الروايتين بتعدد الإسراءات؛ كالقاضي أبي بكر الباقلاني والبغوي. وحكى المازري في "شرح" مسلم، تأويلا آخر، وقال:

"إن الإسراء بجسده، صلى الله عليه وسلم، في اليقظة إلى بيت المقدس؛ فكانت رؤية عين، ثم أسري بروحه الشريفة، عليه الصلاة والسلام، منه إلى ما فوقه؛ فكانت رؤيا.هـ[بنقل "روح المعاني":ج 15 ص8].

قلت: ولهذا أتى الحافظ أبو بكر ابن العربي في كتاب"أحكام القرآن"، بما يردّ هذا القول وما أولوه به، وأتى بعبارة تابعة لتشنيع إمام المفسرين ابن جرير، على من قال إن الإسراء بالروح دون الجسد، حسبما سبق. وقد سرّتني تلك العبارة السديدة التي أتى بها، رحمه الله ورضي عنه، لأنها تعرب عن يقين ثابت، وإيمان صادق، لا يشوبه ريب، ولا يكدر صفوه تردد في قدرة الملك القدوس القدير الخالق؛ إذ قال في المسألة الرابعة، عند الكلام على سورة الإسراء، ما لفظه:

"قضى الله بحكمته وحكمه أن يتكلم الناس: هل أسري بجسد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أم بروحه؟ ولولا مَشيئة ربنا السابقة بالاختلاف، لكانت المسألة أبين عند الإنصاف، فإن المنكر لذلك لا يخلو أن يكون ملحدا ينكر القدرة، ويرى أن الثقيل لا يصعد علوًا وطبعه الاستفال، فما باله يتكلم معنا في هذا الفرع وهو منكر للأصل، وهو وجود الإله وقدرته، وأنه يصرف الأشياء بالعلم والإرادة، لا بالطبيعة؟! وإن كان المُنكر من أغبياء الملة، يقر معنا بالإلهية العلم والإرادة والقدرة على التصريف والتدبير والتقدير؛ فيقال له: وما الذي يمنع من ارتقاء النبي في الهواء، بقدرة خالق الأرض والسماء؟ . قال: فإن قال: لأنه لم يرد، قلنا له: قد ورد من كل طريق، على لسان كل فريق، منهم أبو ذر"، إلخ. فساق لفظ الحديث.[الأحكام: 32/2].

قلت: وحديث أبي ذر أخرجه الشيخان والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

وقد انتصر لهذا القول القاضي عياض في"شفائه" قائلا: وذهب معظم السلف من المسلمين إلى أنه إسراء بالجسد في اليقظة. وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباس وجابر، وأنس وحذيفة وعمر، وأبي هريرة، ومالك بن صعصعة، وأبي حية البدري، وابن مسعود، والضحاك، وسعيد ابن جبير، وقتادة وابن شهاب، وابن زيد، والحسن وإبراهيم، ومسروق ومجاهد، وعكرمة وابن جريج. قال: وهو قول الطبري وأحمد بن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين. وهذا قول أكثر المتأخرين والفقهاء، والمحدثين والمتكلمين والمفسرين. ثم قال القاضي، رحمه الله:

"والحق من هذا والصحيح، إن شاء الله، أنه إسراء بالجسد والروح في القضية كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة". ثم أطال في الاستدلال، ورد حديث السيدة عائشة بالاعتلال.

قلت: ومن العجب أن العلامة الخفاجي قال في "شرح الشفا" مقالة في الاستحالة، وافقت ما كنتُ قدمتُه، وفي مجاري هذه القضية من رد الفلاسفة وأهل الغفلة أو السهو ما فهمتُه، من إنكار خبر الإسراء بالاستحالة أو الاستبعاد، ومن قضية الإتيان بعرش بلقيس، ومن تسخير الريح لسيدنا سليمان استخرجته، وإن كان الخفاجي أغفل تسخير الريح الذي هو أجلى وأوضح [كما] أثبته، ولفظ الخفاجي:

"تنبيه: الاستحالة المذكورة،أي عد الإسراء محالا، صدر من كفار قريش، ومن بعض ضعفاء المسلمين، إذ توهموا أن قطع مثل هذه المسافة، ذهابا وإيابا، في بعض ليلة محال،

لأنها بعيدة بحيث تقطع في أيام كثيرة، ومن بعض أرباب علم الهيئة الذين قالوا: إن الأفلاك لا فرجة فيها، ولا تقبل الخرق ولا الإلتئام. وكلاهما خطأ عقلا ونقلا. ألا ترى نقل عرش بلقيس في مسافة أبعد من هذه في طرفة العين، وغير ذلك مما هو مأثور مشهور؟! وقد نطقت النصوص بأن السماء لها أبواب تفتح وتغلق، فلا عبرة بأوهام الفلاسفة. وقال البيضاوي، تبعا للإمام الرازي: الاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس، ضعف ما بين طرفي كرة الأرض، مائة ونيفا وستين مرة. ثم إن طرفها الأسفل يصل لموضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، والأجسام كلها متساوية في قبول الأعراض، والله قادر على كل الممكنات، فيقدر على أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي، صلى الله عليه وسلم، أو فيما حمله. والتعجب من لوازم المعجزات". هـ[292/2].

قلت: وكل ما قاله الخفاجي، قد قدمنا مضمنه، وكنت أظن أني سبقت. وزدنا أمورا أخرى كالريح التي تجري لسيدنا سليمان حيث يشاء، وكالطير في جو السماء، وقطع بعضها المسافات الطويلة في المدة القصيرة، كالنسر والعقاب وغيرهما.

أما من صح عنده حتى القول المقابل، وحاول الجمع بين الصحيح المتقدم، الذي كادت أن تجمع عليه الأمة، فأراد التفصي من هذا الخلاف بالتأويل، بأن ادعى تعدد الإسراءات. ثم منهم من اقتصد في التعدد وجعله مرتين. ومنهم من أكثر وأطال، كالشيخ محيي الدين، إذ أوصله إلى الثلاثين، عدد الرواة الذين رووا حديث الإسراء، ونقل ذلك عنه الحلبي في"إنسان العيون"، فقال:

"اعلم أنه لا خلاف في الإسراء به، صلى الله عليه وسلم، إذ هو نص القرءان على سبيل الإجمال، وجاءت بتفصيله وشرح أعاجيبه أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة، من الرجال والنساء، نحو الثلاثين، أي ومن ثمَّ ذهب الحاتمي الصوفي، إلى أن الإسراء وقع له، صلى الله عليه وسلم، ثلاثين مرة، فجعل كل حديث إسراء".

ثم نقل عن الشعراني أن إسراءاته، صلى الله عليه وسلم، كانت أربعا وثلاثين، واحد بجسمه، صلى الله عليه وسلم، والباقي بروحه، انظر تمامه.[390/1].

وقد علمتَ ما حققه المحققون من أهل التفسير والحديث والسير، وما تمسكوا به من نص "القرءان"، وما ردوا به ما خالفه. والله تعالى أعلم، وإلى من أصاب الحق الواضح ألهم، وما أشرنا إليه، إلى ما ألهمنا الله إلى ردّ ما استبعده المشركون والحكماء، الذين

خرجوا بتعقبهم وتحكيم الطبيعة والعادة، وجاراهم في ذلك المسلمون الغافلون، إذ غفلوا عن عظمة قدرته، وحكم إرادته التي يقف عند آثارهما وتصريفهما وتقديرهما العارفون، وغفل عن ذلك الغافلون، ولم يقرأوا قوله تعالى: (أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا، فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ).

[المعجزات من شأنها خرق العوائد]

ثم لنرجع إلى بيان أن معجزة الإسراء، هي كسائر المعجزات التي من شأنها خرق العوائد، والخروج عما تقتضيه الطبائع، التي مَال إليها في هذه المعجزة أهل العقول القصيرة عن تأمل وسائل الديانة والمقاصد؛ إذ هذه المعجزة ليست هي الأولى في بابها. بل أظهرها الله على أيد السابقين من أنبيائه، وانقاد لها من سبقت له الحسنى بالتسليم، وأنكرها أهل الشقاء من أعدائه؛ إذ لو كانت جارية على العوائد المألوفة، والأمور التي هي في البشر معروفة، لما أنكرها من أنكرها، ولما كانت معجزة، ولما كانت مؤيدة لدعوى الرسالة، ولا مصدقة لما دعا إليه المرسل من اتباع الحق، ورفض ما كانوا عليه من الكفر بالله والضلالة.

فانظر إلى ما أشرنا إليه سابقا من المعجزات التي وقعت لسيدنا سليمان، عليه الصلاة والسلام، التي يُرد بها على الحكماء الذين استحالوا ما أخبرهم به، عليه الصلاة والسلام، من إسرائه من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، فطوى الأرض والسماوات العلا، ورجع من ليلته؛ من إتيان ذلك الذي كان عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس، من سبإ إلى القدس في طرفة عين. ويرد عليهم فيما استحالوه وردوا به خبر الرسول، عليه السلام، من صعوده إلى السماوات العلا؛ بأن الجسم الثقيل شأنه السقوط للأسفل، لا العلو في السماء، بما وقع لسيدنا سليمان من تسخير الريح له، وجريانه به في الفضاء، مع كل ما يحتاج إليه من الآلات الثقيلة، وقد نقل ذلك المفسرون وأهل التاريخ.

<u>ولا بد من اتباع عادتنا</u> في هذه "الفهرسة"، من تكميل الفائدة، بذكر ملخص ما في القضيتين:

[ملخص ما جاء في قضيتي
الإتيان بعرش بلقيس، وتسخير الريح]

ولنبدأ بقضية الإتيان بالعرش، فأقول: إن القضيتين اللتين يخبر بهما "القرءان" العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

أما قضية الإتيان بعرش ملكة سبا، التي كانت إذ ذاك ملكة هذه المملكة العظيمة من أرض اليمن، وهي مملكة التبابعة المتوجين. وكان الذي أخبر سيدنا سليمان بأمرها، هُو الطائر المعروف بالهُدهُد، الذي كانت وظيفته لدى الملك سيدنا سليمان، وظيفة المهندس والمعرفة بمواقع المياه، وذلك أن الطيور، كما ذكره المفسرون عن ابن عباس، كان على كل صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده عند النوبة، كما هي عادة الجنود مع الملوك. وكانت وظيفة الهدهُد، على ما ذكره ابن عباس وغيره، أنهم كانوا إذا أعوزهم الماء في القفار في حال الأسفار، يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء. وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء في تخوم الأرض، فإذا دلهم عليه، حفروا عنه. قال: فلما تطلبه سليمان، عليه السلام، ذات يوم، فقده ولم يجده في موضعه في محل خدمته، فقال عليه السلام: (مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدهُدَ) الآية. ولما توعده سيدنا سليمان على عدم حضوره في محل خدمته، إلا إذا أتى بحجة على عدم حضوره؛ (فقال أَحَطتُ بِمَا لَم تُحِط بِهِ)، أي اطلعت على ما لم تطلع عليه (وجِئتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إنِّي وجَدْتُ امرأةً تَمْلِكُهُم وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ، ولَها عَرْشٌ عَظِيمٌ)، يعني سرير مملكتها. قال المفسرون: كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللئالي والذهب والحلي الفاخر.

ثم ذكر الهُدهُد لسيدنا سليمان ما يتعلق بدينها ودين قومها، وأنها كانت كافرة بالله، فقال: (وجَدتُّهَا وقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ)، كما في الآية، فعند ذلك صار سيدنا سليمان يدعوها إلى طاعة الله ورسوله، ويكاتبها في ذلك، كما قص القرآن الكريم.

ثم أراد، عليه السلام، أن يُظهر لها معجزته قبل أن تأتيه؛ فقال لملإه: (أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وإنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ). فلما أحضره هذا الأخير، ورآه سليمان مستقراً عنده، أي عرش بلقيس هذه الملكة العظيمة، صاحبة العرش العظيم، حاضرا بين يديه في هذه اللحظة القريبة، جاء به هذا الرجل العليم من سبإ، عاصمة بلاد اليمن، إلى بيت المقدس؛ قال سيدنا سليمان، شاكرا لله، ورادًا للأمر كله إليه، وأن هذا الأمر العظيم الخارق للعوائد كله بخلق الله وقدرته وإرادته، إذ هو الخالق للخلق وأفعالهم، وهو لهم في أقوالهم وأعمالهم: (هَذَا مَنْ فَضْلِ رَبِّي)، أي المحسن إليَّ، لا بعمل أستحق به شيئا؛ فإنه أحسن إليّ بإخراجي من العدم، وهداني بتوفيقي للعمل. فكل عمل نعمة يستوجب عليّ بها الشكر.

وقد أطال المفسرون وأهل التاريخ، في بسط هذه القضية، ونقل الأقوال، وما ظهر من المعجزات على يد هذا النبي المفضال، من ذي العظمة والجلال.

ومرادنا هنا؛ إنما هو الإشارة إلى أن معجزات الأنبياء، لا تردّ بفلسفة أهل الحكمة، وذوي الآراء الضالين في مهاوي الضلالة، الزائغين عن مهيع الحق ومنهج الاهتداء، كما وقع في قضية الإسراء.

وأما القضية الثانية؛ وهي قضية تسخير الريح لسيدنا سليمان، التي نصت عليها الآية من قوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوّهَا شَهْرٌ)، وهي أنسب لقضية إسراء نبينا، عليه الصلاة والسلام. وهذا مضمنها نقلا عن "البداية والنهاية"، للحافظ ابن كثير؛ إذ قال:

"لما ترك سيدنا سليمان الخيل ابتغاء وجه الله، عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيرا وأقوى وأعظم، ولا كلفة عليه لها، تجري بأمره رخاء حيث أراد". قال:

"كان له بساط مركب من أخشاب، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية، والقصور والخيام، والأمتعة والخيول والجمال، والأثقال والرجال من الإنس والجن، وغير ذلك من الحيوانات والطيور. فإذا أراد سفرا لأي بلاد شاء، فإذا حمل كل ما احتاج إليه على هذا البساط، أمر الريح فرفعته ووضعته حيث شاء، بحيث كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس إلى اصطخر، مسيرة شهر، فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يرجع من آخره. قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق، فينزل باصطخر، فيتغدى بها، ويذهب رائحا منها، فيبيت بكابل. وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر".هـ باختصار،[27/2].

[كلام بعض المفسرين
في رد استحالة الإسراء بالجسد]

ومن العجب أني كنت أتيت بتلك الاستدلالات، التي ألهمني الله إليها، في رد الاستحالة التي نحا لها أهل الفلسفة، وتبعهم بعض من غفل من أهل الإسلام؛ أولا بحركة الطير. وكنت خائفا من انفرادي في ذلك، لعدم الوقوف على كلام لإمام نحا هذا المنحى في الاستدلال، حتى وقفتُ على كلام للخطيب الشربيني في "تفسيره"، أشار فيه لبعض ما أسلفناه في الموضوع، وجاء به في نسق آخر؛ إذ قال في تفسير قوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) الآية، قائلا:

"ولما أتم الله تعالى المراد من آيات داود، عليه السلام، أتبعها بعض آيات ابنه سليمان، عليه الصلاة والسلام، لمشاركته في الإنابة بقوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ)، أي عوضا عن الخيل التي عقرها الله تعالى"، قال: "(الرِّيحَ غُدُوّهَا)، أي سيرها، من الغدوة، يعني الصباح إلى الزوال (شهر)، أي تحمله وتذهب به وبجميع عسكره من الصباح إلى نصف النهار، مسيرة شهر،(ورَوَاحُهَا) أي من الزوال إلى الغروب (شهر)، أي مسيرته؛ فكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين. قال الحسن: كان يغدو من دمشق، فيقيل بإصطخر، وبينهما شهر للراكب المسرع".

ثم أدمج في ذلك بعض ما وقع لنبينا، عليه الصلاة والسلام، مما يشبه هذه المعجزة، فقال:

"وهذا كما سخر الله تعالى الريح لنبينا، صلى الله عليه وسلم، في غزوة الأحزاب، فكانت تهد خيامهم، وتضرب وجوههم بالتراب والحجارة، وهي لا تجاوز عسكرهم، إلى أن هزمهم الله تعالى بها، وكما حملت شخصين من الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، في غزوة تبوك فألقتهما بجبل طيّئ، وتحمل من أراد الله تعالى من أولياء أمته مما هو في غاية الشهرة، ونهاية الكثرة". قال:

"وأما أمر الإسراء والمعراج؛ فهو من الجلالة والعظم بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى، مع أن الله تعالى صرفه في آيات السماء بحبس المطر تارة وإرساله أخرى". هـ[267/3].

وقصدنا بنقل كلام هذا الإمام، رد استحالة من استحال إسراء النبي، صلى الله عليه وسلم، بجسمه وروحه، والإبانة عن [أن] من أنكر ذلك من أهل الإسلام، إنما هو[عن] غفلة أو جهل، كما أعلن به الحافظ ابن العربي، وأغلظ الإنكار في ذلك على أهل الاستحالة، كما أسلفنا بإطناب وإيضاح، بتوفيق العليم الفتاح.

ثم إن هذا الاستبعاد العادي، أو الاستحالة الهندسية التي لا تجوز للجسم الثقيل أن يعتلي ويطلب الفوقية، لأن شأنه التسفل وطلب النزول إلى الأرض؛ إنما كان قبل هذا الزمان.

وأما اليوم فإننا نشاهد الأجسام العظيمة، والمراكب الكبيرة التي تحمل القناطير المقنطرة من آدمي وغيره؛ تسبح في الهواء، وتقطع الآفاق، وتعلو في الفضاء، حتى تغيب عن الآماق، بسرعة فائقة تقطع بها المسافات البعيدة في أقرب وقت، فبطل بهذا قول الحكماء بإطلاق.

وكل هذا مجرد صناعة البشر، واستنباط ذلك بتركيب آلات وأدوات هندسية، واستخراج خواصّ أرضية، وتجريبات أخذت من حركات الطير في جو السماء، وحركات أجنحته عند الطيران والنزول من الفضاء.

ولكن السير في الآفاق، ومحاكاة الطير في ذلك، ليس مما تكلمنا فيه، إذ ما تكلمنا إلا فيما يكون بمحض القدرة الإلهية، دون اتخاذ آلة ومعالجة أسباب ظاهرة تعالج بأيدي البشر.

أما المعجزة الصادرة عن الأنبياء؛ فهي بمحض القدرة الإلهية، لا بواسطة استعمال حيلة أو تركيب آلة أو تحريكها. وذلك كتسخير الريح لسيدنا سليمان، تجري بأمره حيث شاء.

وقد وقع للشيخ طنطاوي فيما يدعى أنه "تفسير للقرءان"، ما يقتضي التسوية. وكنتُ كتبتُ على مقاله في هذا الموضوع ما يرد ما ادعاه، وأن بين هذه الأمور الغريبة التي تظهر على يد البشر بالصناعة والحيل العجيبة، ليس ذلك شيء منه يلحق بالمعجزات، ولا[بـ]أن يحاكيها ويشابهها به.

وأما مسألة الطيران اليوم في الفضاء؛ فصارت من قبيل الشيء المعتاد. وكلها راجعة إلى تدبير ومعالجة، وتجريبات صناعية وهندسية. وقديما حاول الناس ذلك، وأدركوا في ذلك شيئا يسيرا، فعجزوا عن متابعة تلك التجارب؛ فقد روى المؤرخون، كما ذكرنا في غير هذا الموضع، أن أحد ملوك الفرس قد صنع له مركبة من زجاج طار بها مسافة بعيدة.

وذكر طنطاوي في كتابه، عند الكلام على مسألة معجزة سيدنا سليمان في قضية الهُدهُد، اعتناء الأوربيين بقضية الطيران، و[أنهم] صرف حكماؤهم النظر في ذلك، وأطالوا التأمل والبحث عن الأسباب التي يمكن بها أن يساوي الإنسان الطير في طيرانه؛ فعجزوا عن ذلك بعد اختبارهم الأسباب التي يسهل على الطير أن يطير بها في الهواء بعد أن [تأملوا] في سباحة الحوت في الماء. قالوا: ولكن النوع الإنساني لم يقف عند هذا الحد، فقال: كلا، لا بد لي أن أقلد الطير. الطير جسمه ثقيل، فعلي أن أطير بجسمي الذي هو أثقل من الهواء مئات المرات، وعلي أن أدرس الطير في الجو، وأعلم كيف تمكن من الطيران، وجسمه أثقل من الهواء.

ثم ذكر إقبال الناس على التجربة، من نصارى ومسلمين من لدن القرن السادس عشر. ولم تزل التجارب جارية، واستعمال الوسائل، ولكن بواسطة المركبات، إلى أن وقع

النجاح، وابتدأ الطيران بالطيارات التي هي أثقل من الهواء من سنة 1903 مسيحية، واشتهر سنة 1928. ثم ذكر طنطاوي من ذلك جزئيات، وأخيرا قال: إذن الناس من سنة 1903 ابتدأوا عصرا جديدا، وينتظر النــاس أن يكون الطيـران شائعـا سنــة 1936. [169/13].

قلت: وأما الآن، وهي سنة 1969، فصار السير بالطائرات في الفضاء، هو الأكثر استعمالا، وأهنأ سفرا، وأهدأ مركبا. وهو سبحانه يخلق ما يشاء، ويسخر في أرضه من العجائب والغرائب ما لم يسخره للقدماء، كما في حديث ثوبان الذي ذكرنا في غير هذا الموضع. وكل هذا بقدرة الفاعل المختار، الذي كل شيء عنده واقع بمقدار، سبحانه، الواحد القهار.

[فوائد تتعلق بالسفر بالطائرة إلى الحج]

ولنذكر هنا فائدة كثيرا ما يقع السؤال عنها، ولم أسمع في هذا الوقت حكمها، وهي أن الحج اليوم لا يؤدى فرضه كلا أو بعضا إلا في الطائرة، فهل هذا الحج يكون صحيحا تسقط به الفريضة أم لا؟ والذي تحصل عندي أن الذي أمكنه أن يتوجه إلى الحج برا أو بحرا، مع استكمال أركان الحج وواجباته، هو الجادة؛ لأنه سفر معتاد، يمكن له فيه تأدية المناسك على وجهها من الإحرام وتوابعه، وكذلك يكون حاله في الفرائض الأخرى من الصلوات الخمس وأتباعها.

أما الطائرة؛ فإن أمكنه [فيها] أيضا الإتيان بذلك، وتأدية فرائض الحج والصلوات على مقتضى الواجبات من الأركان وغيرها؛ فحجه صحيح. وقد نص أئمتنا، قبل وجود الطائرات، على أن الإنسان إذا أمكنه الحج طيرانا في الهواء، أو مشيا على وجه الماء، على سبيل الكرامة، كما يؤثر ذلك عن كثير من الأولياء؛ فحجه صحيح، إذ المقصود من الحج إنما هو الوصول لمكة لطوافه بالبيت، والوقوف بعرفة، وغير ذلك من لوازم الحج.

فإذا وصل إلى هذا المقام، وأدى الشعائر كلها على وجهها، فحجه صحيح؛ ففي "الاعتصام"، للعلامة المحقق، أبي إسحاق الشاطبي، في الكلام على ما ابتدع من المحدثات، وظهر في هذه الأمة بعد الصدر الأول، ولم يكن يجري عندهم في العبادات والعادات، ما لفظه:

"وأما الأول؛ فلأنه لو كان ثمّ من يسير إلى فريضة الحج طيرانا في الهواء، أو مشيا على الماء، لم يعد مبتدعا بمشيه كذلك، لأن المقصود إنما هو التوصل إلى مكة لأداء الفرض؛ وقد حصل على الكمال".هـ المراد[260/1].

وهذا من أبي إسحاق جريا على مذهبه من أن المحدثات في العادات لا تعد بدعة؛ كإحداث المراكب الفخمة، والهيئات الممتازة، والترفه في المآكل والمشارب واللباس، لا يقال له بدعة. وإنما ينظر فيه؛ فإن كانت تستسيغه القواعد الشرعية، فهو من الجائزات. وإن كانت تمنعه، فهو من الممنوعات. وإن كانت توجبه قواعدها، وتستدعيه مصالحها، ولا تكمل واجباتها إلا به، فهو من الواجبات، حسبما بسطه في"الاعتصام".

أما الإمام ابن عبد السلام؛ فإن البدعة عنده: كل ما لم يكن في الصدر الأول من المحدثات. ولكن هذه البدع فيها ما هو واجب، ومنها ما هو ممنوع. بل قسموا البدعة إلى أقسام خمسة، حسب تقسم الأحكام الشرعية.

وبالجملة، فالحج في الطائرة، إن سلم من الموانع، ولم يدفعه من قواعد الشريعة دافع؛ فهو حج صحيح. وإذا صح ذلك، واعتبر أنه سفر جائز، فيسوغ لراكب الطائرة إلى الحج أن يُقصر الصلاة، وأن يفطر في رمضان، لأنه سفر من الأسفار، ولا تعتبر فيه المشقة التي أباحت ذلك في السفر المعتاد، لأنهم قالوا، قبل حدوث هذه المراكب السريعة في البر والبحر والجو: إن الملك ـ مثلا ـ إذا سافر في محفة جامعة لأنواع الراحة، سالمة من كل مشقة، أو ركب مركبا بحريا أو بريا وأسرع به غاية الإسراع، حتى قطع المسافة البعيدة في أقرب وقت؛ فإنهم أفتوا له بأن له القصر والفطر. وعللوا ذلك بما هو مقرر عندهم بأن علة القصر والفطر في السفر هي لمظنة المشقة. والتعليل عندهم بالمظنة، لا يشترط فيه تحقق المشقة.

وبعد ذلك وجدت للسيد بدران، مهذب "تاريخ" ابن عساكر، فيما علقه على "تهذيبه"، عند الكلام على قضية الإسراء وركوب البراق، ما لفظه:

" وقد أخذ الحنابلة وغيرهم من هذا، أن من طويت له المسافة البعيدة في الساعة الواحدة، يتناوله اسم المسافر، وتشمله أحكام السفر باعتبار القصر والفطر. فعلى هذا، إن المسافر في السفينة البرية أو البحرية، تعتبر المسافة في حقه بسير الأثقال ودبيب الأقدام، كما قرره الفقهاء، لا باعتبار سير السفين الذي هو راكب لها. وهذا يشمل راكب النجاب، وراكب الطيارات، وغيرها فليعلم".هـ[381/1].

وهو من عجيب الموافقة، فإني كنت أظن أني أول من ظفرت بهذا،(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، وما الإحاطة بالعلوم، إلا للذي لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم ليعلم القارئ هنا أن الحج بهذه الطرق الجديدة ، والاختراعات للمراكب السريعة، التي تمر بالإنسان مر الرياح، سواء في الأرض أو في الهواء؛ أزالت مشقات الأسفار، وأمنته من تلك المزعجات والحوادث التي كان يخشاها الحاج ويلقاها، من سلب ماله، وعدم الأمن على نفسه.

ولهذا كان من شاهد ذلك من أهل العلم بنفسه أو بلغه؛ أفتى بأن من توقع ذلك في طريقه إلى الحج، من الأقاليم والأصقاع، بأن الحج في حقه ساقط، وأنه يحكم عليه بالامتناع، لأنه فاقد الاستطاعة.

هذا، ومن الفقهاء الذين أفتوا بسقوط الحج ابن رشد؛ فإنه أفتى بسقوط الحج على أهل الأندلس. بل أفتى الإمام الطرطوشي بأن الحج على أهل المغرب حرام لهذا المعنى.

وفي الحطاب، عن المازري، أن الشيخ أبا الوليد أفتى بسقوط الحج عن أهل الأندلس، وأن الطُرطوشي أفتى بأنه حرام على أهل المغرب، وأن من غرّ وحجّ سقط فرضه، ولكنه آثم بما ارتكب من الغرر. أنظر تمامه [مواهب الجليل: 497/2].

وهذا كله مبني على فقد الأمن وملاقات المشقات العظيمة. أما الآن فقد زالت هذه المشقات ونسختها الراحة والاطمئنان، كما هو معروف عند الخاص والعام.

نعم؛ بقي هناك شرط آخر أهم، ربما لا يلتفت إليه العوام من القاصدين للحج، وهو من الشروط الأساسية، وهو التمكن من إقامة الفرائض، وترك التفريط وارتكاب المناكر، كما في نقل الحطاب عن المازري.

وعليه، فالذاهب للحج في الطائرة اليوم، إن أمكن له فيها أداء الصلوات في أوقاتها، والإحرام بالحج في وقته وميقاته، كما أسلفناه، فذلك جائز. وإن لم يمكنه ذلك؛ فأقرب ما تجري عليه[في هذه]المسألة، هو ما قاله الأئمة، المقتدى بهم من أهل الفقه والفتوى، في الذاهب للحج بحرًا لمن تعين عليه.

واعلم أنه أولا اختلف الأئمة في وجوب ذلك وعدمه. وحصّل العلامة الحطاب في "شرح المختصر"، في ذلك أقوالا ثلاثة:

الأول : المشهور وجوب الحج، لمن تعين عليه بشروطه، وجواز ذلك لمن لم يتعين عليه.

الثاني : سقوط الحج عمن لا يمكنه الحج إلا من البحر.

الثالث: الكراهة، إلا لمن لا يجد طريقا سواه.

ودليل الأول قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، وحديث أنس، الذي في"الصحيح"، أنه صلى الله عليه وسلم، عند ما نام عند أم حرام، استيقظ وهو يضحك، فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: "أناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر، ملوكا على الأسرة - أو مثل الملوك على الأسرة" الحديث. وما رواه أو داود عن عبد الله بن عمرو أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: "لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر، أو غاز في سبيل الله. هـ[مواهب الجليل:512/2].

ثم تعرض الحطاب لشرح نصّ خليل الذي ذكره في الحج في البحر، إذ قال: "والبحر كالبر، إلا أن يغلب عطبه، أو يضيع رُكن صلاة لكَميْد".هـ؛ فقال: فذكر المصنف أنه يشترط في كون البحر طريقا إلى الحج، أن لا يغلب العطب فيه، وأن لا يؤدي إلى تضييع ركن من أركان الصلاة لأجل مَيْد، أو ما أشبهه كزحام وضيق. قال:

أما الشرط الأول، وهو أن لا يغلب العطب فيه، فظاهر، لأن من شرط الاستطاعة الأمن على النفس والمال. فإذا غلب العطب فيه، حرُم ركوبه. [512/2]، ثم استمر في الكلام على هذا الشرط.

ولكن يجيب الراكب في الطائرة بأن العطب اليوم انتفى، وغلبت السلامة، ولم يقع العطب فيها إلا قليلا جدًا كاد أن يلحق بالمعدوم.

وأما الشرط الثاني، وهو أهم ما يُنظر في تحصيله اليوم، والغالب فيما يظهر أنه لا يحصل، لعدم إمكان أداء الصلاة في هذا المركوب، لضيقه وعدم سكونه، وفيه قال الإمام الحطاب:

وأما الشرط الثاني، وهو قوله: أو يضيع ركن صلاة لكميْد، (الميْدُ هو الدَّوخة التي تعتري الراكب في البحر)، فمعناه أن شرط ركوب البحر للحج، فأحرى لغيره، أن يعلم الراكب أنه يوفي بصلاته في أوقاتها من غير أن يضيع شيئا من فروضها. قال الحطاب:

وهذا أيضا ليس خاصا بالبحر، بل هو شرط في وجوب الحج، مطلقا. قال في "المدخل": قال علماؤنا: إذا علم المكلف أنه تفوته صلاة واحدة إذا خرج إلى الحج؛ فقد سقط الحج. وقال في موضع آخر: إن الحج إذا لم يكن إلا بإخراج الصلاة عن وقتها وشبهه، فهو ساقط.هـ [مواهب الجليل:513/2].

ونقل الحطاب عن ابن المنير: اعلم أن تضييعه لصلاة واحدة، سيئة عظيمة لا توفيها حسنات الحج، بل الفاضل عليه، لأن الصلاة أهم. فإن كانت عادته الميْد، ولو عن صلاة واحدة بركوب البحر أو الدابة، ترك الحج، بل يحرم عليه الحج إذا لم يتوصل إليه إلا بترك الصلاة. [513/] ثم نقل عن ابن هلال، بعد كلام في هذا الموضوع، ما لفظه:

ولتفريط الحاج في الصلاة، وتأخيرهم إياها عن أوقاتها، يقول أهل العلم فيهم إنهم عصاة، وقد أخذ من قول مالك: لا يجوز ركوب البحر للحج، إذا أدى لتعطيل الصلاة، إنه متى خيف تعطيلها في البر، إنه لا يجوز السفر إلى الحج. [513/2].

ثم نقل نص المازري في تأييد هذا. ثم نقل نص اللخمي فيمن ركب مراكب البحر، وأدى ذلك إلى منعه من الصلاة بالكلية، أو للصلاة جالسا أو على ظهر أخيه، فقال:

" والحج في البحر واجب على كل من في الجزائر، مثل صقلية والأندلس، لأنها بحار مارجة؛ إذا كان الراكب يوفي بصلاته ولا يعطلها، ولا ينقص فروضها. فإن كان يعرض له ميْد يمنعه من الصلاة؛ لم يلزمه أن يأتي بفرض ليُسقط فروضًا. ويختلف إذا كان يأتي بصلاته جالسا، أو لا يجد موضعا لسجوده، لضيق الموضع، فقال مالك: إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه؛ فلا يركبه. أيركب حيث لا يصلي؟! ويل لمن ترك الصلاة. وقال أشهب فيمن لا يستطيع السجود إلا على ظهر أخيه يوم الجمعة: إنه يجزئه. وهذا هو المعروف، إذا كان يأتي بالبدل، وإن كان دون الأول في الرتبة، أن ذلك جائز كالذي يسافر حيث لا يجد الماء، وينتقل للتيمم. فخرج على قول أشهب في الجمعة بالإجزاء؛ لزوم الحج مع ذلك، وقاس منع ركوبه حيث يصلي جالسا، على قول مالك في منع ركوبه حيث يسجد على ظهر أخيه، فساوى بين ترك القيام والسجود على ظهر أخيه. وقبل ابن عرفة كلامه".[مواهب الجليل:514/2].

ثم ساق الحطاب نص ابن عرفة، وأطال في هذا الموضوع بجلب النقول والآراء، وما يرد على ذلك من أقوال العلماء.

<u>ثم جاء الحطاب</u> أخيرا بمحصل ما استفاد من نقول الفتاوي التي أفتى بها الفقهاء، فقال:

" فتحصل من هذا أنه إذا كان ركوب البحر يؤدي إلى الإخلال بالسجود، فإنه لا يركبه، ويسقط عنه الحج. وإن ركبه وصلى، أعاد أبدًا؛ هذا هو المنصوص. وإن أداه إلى الصلاة جالسا فمقتضى إطلاق المصنف ـ يعني الشيخ خليل ـ وإطلاق البرزلي، وما قاله ابن أبي

جمرة، وقياس اللخمي وابن عرفة وابن فرحون ذلك على السجود على ظهر أخيه إنه كذلك. ومقتضى كلام اللخمي وكلام صاحب"الطراز"، أن ذلك لا يُسقط وجوب الحج، ولا يُعيد الصلاة. وفي"المدونة" و"العتبية": ومن لم يستطع القيام في السفينة، يصلي جالسا". هـ. [مواهب الجليل:515/2].

[إقبال الناس على قصد البقاع المقدسة، وما يراه المؤلف من الإفتاء لهم بأيسر الأقوال]

هذا، ولا يخفى أن الناس في عصرنا هذا كثُر تشوفهم لقصد تلك البقاع المقدسة، والمقامات المباركة المعظمة المحترمة، ويبذلون في ذلك النفس والنفيس، ولا يبالون بمن يؤخرهم عن ذلك بعلة فقدان الاستطاعة الكاملة، ولا سيما حيث ارتفعت المشقات، وطويت المسافات، وسبحت في بحر الفضاء الطائرات.

وعليه، فالذي يميل إليه نظري، ويستحسنه فكري، أن يلتمس لهؤلاء المخارج، وأن يفتى لهم، إن سألوا، بالأسهل من الأقوال التي قدمنا، وإن ضعفت في التخاريج، كالصلاة جالسا، إن لم يمكن القيام، وأن يجمع بين الحاضرتين، خوف فوات وقت إحداهما، كما هو مشروح في الأسفار، وأن لا يضيق عليهم في بعض المسائل الخارجة عن أركان الحج وواجباته؛ لأن التشديد في هذا ربما أدى إلى حرمان بعض الناس من اغتنام هذه الفضائل العظيمة، التي ينال من وقف هذه المواقف العظيمة ونظر إلى هذه الآيات البينات، وتمتع بالمثول بين يدي الله في بيته الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس بمكة، البيت الذي جعله الله تعالى مباركا وهدى للعالمين، وفيه الآيات البينات التي يشاهدها من صفا قلبه من أهل البدايات والنهايات.

[بعض فضـــائل الحج]

وناهيك في فضل هذا الموقف الأعظم، وإنزال الله لزائره والواقف في عرفاته منزل الجود والكرم؛ ما ورد في ذلك من الأحاديث والآثار، منها ما في "الموطأ"، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، يقول لهم: انظروا إلى عبادي: جاءوني شعثا غبرا. أشهدكم أني قد غفرت لهم". وفيه عن ابن عباس قال: "إن يوم عرفة، يوم يباهي الله ملائكته في السماء بأهل الأرض. يقول تبارك وتعالى: عبادي جاءوني شعثا غبرا، آمنوا بي ولم يروني. وعزتي لأغفرن لهم.

وهو يوم الحج الأكبر". وفي لفظ عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم عرفة، غفر الله للحاج. فإذا كان ليلة المزدلفة، غفر الله للتجار. وإذا كان يوم منى، غفر الله للجمالين. وإذا كان عند جمرة العقبة، غفر الله للسؤال. ولا يشهد ذلك الموقف خلق ممن يقول: لا إله إلا الله، إلا غفر له. وفيه عن أنس بن مالك قال: وقف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعرفات، وكادت الشمس أن تؤوب، فقال: "يا بلال. أنصت لي الناس"، فقام بلال فقال: انصتوا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم. فنصت الناس، فقال: "معشر الناس. أتاني جبريل آنفا، فأقرأني من ربي السلام، وقال لي: إن الله غفر لأهل عرفات، وضمن عنهم التبعات". فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله هذا لنا خاص؟ فقال: "هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة". فقال عمر، رضي الله عنه: كثر خير الله وطاب. هـ. وأحاديث الفضل في هذا كثيرة.

وعليه، فمن علم من نفسه القدرة على الوصول إلى هذا المقام العظيم، والتمكن من الإتيان بأركان هذه القربة وواجباتها، وتقاعد عنها فقد تقاعد عن فضل عظيم.

ولهذا قلنا إنه لا ينبغي أن يزهد الناس بمجرد ما يعرض في الطريق بما لا يؤثر في هذه القربة، ولا يوجب فيها خللا بأركانها، ويلتمس المخارج في غير ذلك.

[تعاطي التجارة في الحج، وما في ذلك]

ومما يكثر على أقوال الناس، وعدهم له من الآثار والأدناس، ما يفعله بعض الحجاج من تعاطيهم بعض أسباب التجارة، وابتياع أو شراء بعض البضائع، وجلبها إلى بلده من تلك البقاع، ويكون ذلك منهم على سبيل التبعية؛ فهو خطأ مردود، إذ الله تعالى أباح ذلك في كتابه العزيز؛ ففي "صحيح" البخاري عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام، كأنهم كرهوا ذلك، حتى نزلت: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ) في مواسم الحج.هـ[230/1].

وقد ترجم لهذا الحديث البخاري بقوله: (باب التجارة أيام الموسم، والبيع في أسواق الجاهلية).

قال الإمام ابن العربي في"أحكام القرآن" إثر الآية:

"قال علماؤنا: في هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج، مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركا، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص للمفترض عليه، خلافا للفقراء أن الحج دون تجارة أفضل أجرا".هـ[57/1].

ويعني الشيخ أبو بكر بالفقراء أهل التصوف. قلت: وذلك لأن شأنهم اتباع العزائم وترك الرخص زهدا؛ ولا سيما فيما يرجع للاشتغال بأمور الدنيا الذي من شأنه أن يشغل البال، ويشوب الإخلاص المأمور به في سائر العبادات لذي العزة والجلال. ولهذا يشير قول الإمام الفخر الرازي، بعد أن أطال الكلام والنقول في تفسير الآية، ما لفظه:

"اتفقوا على أن التجارة إذا أوقعت نقصانا في الطاعة لم تكن مباحة. أما إن لم توقع نقصا البتة فيها، فهي من المباحات التي الأولى تركها، لقوله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لهُ الدِّينَ)، والإخلاص أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة. وقال عليه السلام، حكاية عن الله تعالى: {أنا أغنى الأغنياء عن الشرك. من عمل عملا أشرك فيه غيري، تركته وشركه}. والحاصل أن الإذن في هذه التجارة جار مجرى الرخص.}هـ [170/2].

قلت: وكلام الإمام الفخر هو الكلام الحق، والحكم الذي الأخذ به أولى وأوفق.

ولهذا المعنى تشير فتوى إمام العارفين، ابن عباد، الطويلة التي نقلها شيخ شيوخنا عن "أجوبته الصغرى" في "اختصاره". وفيها قسم المشي إلى الحج على ثلاثة أوجه:

محمود مطلقا، وهو مشي عالم مؤمن، سالم من حظ النفس وغلبة الطبع، لأن باعثه على ذلك هو مقتضى الدين ونور اليقين. قال: وهذه حالة شريفة.

ثم ذكر بعض حكايات، ثم ذكر أن الشيخ أبا الحسن اللخمي كان ذات يوم جالسا مع أصحابه؛ فتذاكروا حكم الحج في زمانهم، وهل وجوبه باق أو ساقط؟ وكثر في ذلك كلامهم، ومن وراء الناس فقير يسمع إليهم. فلما فرغوا من ذلك، أدخل رأسه في الحلقة، وقال مخاطبا للشيخ: يا سيدي:

إن كان سفك دمي أقصى مرادكم فما غلـت نظرة منكم بسفك دمي

ثم قال ابن عباد في الوجه الثاني:

ومذموم مطلقا، وهو مشي من اتصف بأضداد تلك الصفات، وكان غرضه من ذلك مجرد الرياء والسمعة إلخ.

ثم ذكر الوجه الثالث: وهو المحمود من وجه، ومذموم من وجه إلخ.

وعليه، فلننظر إلى حال حجاجنا اليوم؛ وعندي هو تحسين الظن بالجميع، وإن بدا شيء منهم لا يقدح في أركان الحج وواجباته، فليلتمس له في ذلك وجه، ولو على وجه ضعيف، حسبما أشرنا إلى ذلك سابقا، لأن القاصد لبيت الرب الكريم، وملك الملوك العظيم، دخل بحجه بيتا (مَنْ دَخلهُ كانَ آمِنًا). ألحقنا الله بمن حج هذا البيت وطاف، والتمس من ذي الفضل الواسع والرحمة العامة العطاء من جوده وكرمه، وأن يحفنا بعاجل الألطاف، آمين.

أما الحج بالمال الحرام الذي ليس فيه شبهة؛ فمذهب مالك حجه باطل. وشدد في ذلك الإمام مالك؛ ففي "المعيار" من جواب لبعض الفقهاء المالكية، قائلا:

"أما في مذهبنا، فلا يجزئه. وأما في قول الشافعي، فذلك جائز، ويرد المال، ويطيب له حجه. فإذا قلنا بالإجزاء، فمذهب جماعة من المالكية والشافعية عدم القبول؛ منهم القرافي والقرطبي من أصحابنا، والغزالي والنووي من الشافعية. قال برهان الدين: ورأيت في بعض الكتب عن مالك، رحمه الله، عدم الإجزاء، وأنه وقف في المسجد الحرام في الحج ونادى: يا أيها الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا مالك بن أنس؛ من حج بمال حرام، فليس له حج".هـ[346/1]

وعليه، فانظر حال الحاج اليوم الذي عم فيه الحرام، وقل فيه المال الحلال، بل كاد أن ينعدم بالكلية من يد الخاصة، فضلا عن العوام. وعليه، فهل سقط الحج بذلك، لأنه يقصد البيت الحرام لأجل أن تحط عنه الآثام، فيرجع خاسرا في صفقته غير مدرك لما أمله من المرام؟. وفي هذا قيل:

يحجون بالمال الذي يجمعُونـه حراما، إلى البيت العتيق المُحـرّم
ويزعم كل أن تحـط رحالهم تحط، ولكـن فوقهـم في جهنّـم

اللهم يا مولانا انظر إلينا بعين رضاك، وقابلنا بمحض فضلك، فإنك لا تخيب من رجاك، آمين.

وليقف القلم هنا؛ إذ ذيل المسألة طويل، والفكر كليل، والمستمع لهذه الأحكام السديدة قليل.

***

[عود لموضوع المواسم المحدثة، ومسألة الاحتفال بليلة النصف من شعبان]

ولنرجع إلى إتمام ما كنا بصدده من المحدثات التي أشار إليها العلامة ابن الحاج في"المدخل"، من المواسم المبتدعة، وانحراف الناس عن مناهج الشريعة المتبعة. فذكر

ما اعتاده الناس أيضا من اتخاذ ليلة نصف شعبان موسما من المواسم التي يعظمونها. وعندنا بتطوان يسمونها النسخة. قال في "المدخل":

"ثم نرجع إلى ذكر موسم ليلة النصف من شعبان على زعمهم، وقد تقدم أنهم يسمونه موسما، وليس بموسم". ثم قال: "ولا شك أنها ليلة مباركة عظيمة القدر عند الله تعالى، قال الله تعالى: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلّ أمْرٍ حَكِيمٍ)، وقد اختلف العلماء، رحمة الله عليهم، هل هي هذه الليلة أو ليلة القدر. وبالجملة، فهذه الليلة، وإن لم تكن ليلة القدر، فلها فضل عظيم، وخير جسيم. وكان السلف، رضي الله عنهم، يعظمونها ويشمرون لها قبل إتيانها، فما تأتيهم إلا وهم متأهبون للقائها والقيام بحرمتها، على ما قد علم من احترامهم للشعائر، على ما تقدم ذكره. هذا هو التعظيم الشرعي لهذه الليلة. ثم جاء بعض هؤلاء، فعكسوا الحال، كما جرى منهم في غيرها".[299/1].

ثم صار يذكر ما أحدث عندهم في ذلك من البدع، وأطال في ذم البدع، وما قال أهل العلم فيها من الذم، وما روي في شأنها من الأخبار والآثار، وأنها أصل كل شر في هذه الأمة.

<u>أما في بلادنا</u>؛ فلا يحتفل بهذه الليلة إلا بصيام يومها من بعض النساء، واجتماع بعض أهل الزوايا في زواياهم.

[الآثار الواردة في هذه الليلة]

واعلم أن هذه الليلة المباركة وردت فيها أحاديث نبوية؛ فمن أهل الحديث من ردها، ومنهم من قبلها. أما الإمام أبو بكر ابن العربي، فإنه قال في "أحكامه":

وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه، لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها؛ فلا تلتفتوا إليها.هـ[214/2]. ولكن قال في "البحر" إثر كلامه: إنه لا يخلو من مجازفة.

وقد ذكر المفسرون في هذه الليلة أحاديث كثيرة؛ منها ما أخرجه ابن ماجه والبيهقي في"شعب الإيمان"، عن علي، كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلها، وصوموا نهارها؛ فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا، ألا كذا، حتى يطلع الفجر". وفيها حديث رواه الترمذي وابن أبي

شيبة، والبيهقي وابن ماجه، عن عائشة، رضي الله عنها، في حديث ذكرت أنها فقدت النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال لها: "إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب". وفيها ما أخرجه الإمام أحمد في "مسنده"، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "يطلع الله تعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لعباده إلا اثنين: مشاحن وقاتل نفس". إلى غير ذلك من الأحاديث التي في "الدر المنثور" فيها جملة كثيرة.

أما ما ورد من الصلاة فيها، فقد رواه البيهقي في حديث طويل عن سيدنا علي، كرم الله وجهه، فقال فيه يشبه أن يكون هذا الحديث موضوعا، وهو منكر، وفي رواية مجهول.

[إنكار القول بنزول القرآن ليلة النصف من شعبان]

أما كون هذه الليلة هي الليلة التي أنزل فيها القرآن؛ فإن أكثر المفسرين على خلافه، وأن هذه الليلة هي ليلة القدر بنص القرآن. قال الحافظ ابن كثير، في "تفسيره"، بعد أن ذكر تفسير قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ): هي ليلة القدر، ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان، كما روي عن عكرمة، فقد أبعد النجعة؛ فإن نص القرآن أنها في رمضان.هـ [137/4].

وفي"أحكام" الإمام ابن العربي في تعيين هذه الليلة، أي من قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ):

" وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر. ومنهم من قال: إنها ليلة النصف من شعبان، وهو باطل؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان. ثم عبر عن زمانية الليلة هاهنا بقوله: (فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ)؛ فمن زعم أنه في غيره، فقد أعظم الفرية على الله".هـ [214/2].

***

[عيد المولد النبوي الشريف، وتخالف الآراء في إحداثه]

أما عيد مولده، عليه الصلاة والسلام، فهو قد أحدث بعده وبعد القرون الأولى. ولهذا عده بعض العلماء من البدع التي لم يأت بها نص من صاحب الشريعة، ولا ندب إليه أحد

من الصحابة ولا التابعين، ولا من يقفوهم من أئمة الأقطار الإسلامية، وما أحدث إلا بعد القرون الثلاثة.

ولما أحدث، اختلف فيه أهل العلم؛ فمنهم من استجازه، وعدّه من القربات إلى الحضرة النبوية، وجعله من البدع الحسنة التي فيها للأمة خير كثير. ومنهم من ذمَّ ذلك، وجعله مما لم يأذن به الله؛ لأن شر الأمور محدثاتها. وسيأتي ما في ذلك من الرد والقبول:

[تقييد للمؤلف سماه:
"تجديد المسرات والأفراح، بذكرى مولد
شمس الموجودات وروح الأرواح"]

وعلى كون هذا المبحث مهمًا، وتخالفت فيه الآراء، وقد علمتَ اعتناء شيخنا الكتاني - صاحب الترجمة - بهذا المولد الشريف، ووضعه فيه ذلك التوليف اللطيف، الذي دعانا لذكر المواسم الشرعية وغيرها، وإطالة المقالات في الموضوع، من مخفوض ومرفوع؛ أوجبت محبة سيدنا، والرغبة في الانحياش إلى جناب حماية ملاذنا وشفيعنا، يوم اشتداد الأمر علينا، في حشرنا ونشرنا، النبي الفاتح الخاتم، سيدنا ومولانا وعمادنا أبي القاسم؛ أن أكتب في هذا المولد الذي كان قرة لعيون أهل الإسلام، ومطلع شمس الهداية، الذي دعا إلى السبيل المستقيم، وأضاء السلوك إلى الوصول لدار السلام، وأن أجمع في هذا المقام العالي الذرى، ما يكون فيه قرة لعين من في قلبه ما يليق من التعظيم والتوقير لهذا النبي الكريم، الذي يقول فيه جل وعلا: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ).

وعند الختام، إن أعان الله على ذلك، واستيفاء المباحث التي يستدعيها المقام هنالك، أسَمِّيه: (تجديد المسرَّات والأفراح، بذكرى مولد شمس الموجودات وروح الأرواح). والله المعين والمؤيد للتوفيق، إلى إصابة الصواب، وموافقة التحقيق، آمين. فأقول:

[تمهيـــد]

الحمد لله رب العالمين، الذي منّ علينا بأن جعلنا ممن أنعم عليهم بالإسلام، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ومنّ علينا قبل السؤال بأن أكرمنا بالدخول في ملة النبي الأمين، الذي دعا الخلق إلى توحيدك يا مولانا وعبادتك باللطف واللين، وأيدته بالمعجزات الباهرات، القاطعة لتشكيك الضالين المضلين، ثم توَّجته بتاج العز المنيع الغالب، وحليته بالسيف المهند الذي لا ينبُو في يده ولا يكل عن مقاتلة المضارب؛ تلك المعجزة القاهرة، والآية الباقية الظاهرة، معجزة "القرآن" الكريم، المحيرة لبلاغة فصحاء العرب

والمستعربين، وهم إذ ذاك يحسبون أنهم أحرزوا المقام الأعلى، والمنزلة العظمى؛ إذ كانت هي صنعتهم الوحيدة، ومفاخرهم السديدة، وبها يتفاخرون، وبأنديتهم بالتسابق فيها يتباهون، وعلى إحراز السبق في ميدانها يتسابقون. فجاءت هذه المعجزة الكبرى، فحبست ألسنتهم، وهم أمراء الفصاحة، وأئمة البلاغة والبراعة، وأصحاب الإبداع في الكلام، وألد الناس في المقاطعة والخصام. وتحدتهم هذه المعجزة العظيمة وهم الجم الغفير، والجحفل الكبير الذي ملأ بسيط الجزيرة العربية بعظماء العرب العرباء، ونبغاء الناطقين بالضاد من البلغاء والشعراء، وفتحت لهم أبواب المعارضة للإتيان بمثله، وتنزلت لهم في ذلك حتى طلبتهم أن يأتوا منه بأقله، ولو بحديث من سورة، وجملة من جملة، فوقفوا بالباب، وتيقنوا أنه فصل الخطاب، وصُرفوا عن أن يأتوا بكلام يضاهي كلام رب الأرباب.

فآمن به من سبقت له العناية، وكان من أهل السعادة، وجحد به من كتبت له الشقاوة، استكبارا وعنادا، وأعرض عن آيات الله البينات. وآذنوا بحرب من الله ورسوله، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وأيد الله نبيه بانتشار هذا النور، وعمت أضواؤه سائر المعمور. ولم تزل هذه المعجزة العظيمة مستمرة آياتها، مشرقة في الشرق والغرب أنوارها، تتلى في الأندية والمجالس، ولا يستطيع ردها الجاحدون، ولا يخدش في وجهها المحفوظ بقدرة القهار ما يوسوس به شياطين الإنس الملحدون. وقد مرت على هذه الآيات البينات، المكتوبة في صدور الذين أوتوا العلم، ما يقارب أربعة عشر قرنا، يتلى فيها قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الحجر:9]، وهم (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ).[التوبة:32].

اللهم فصلِّ على رسولك الذي بعثته رحمة للعالمين، وجعلته بشيرا ونذيرا. بشيرا للمؤمنين، ونذيرا للكافرين. أرسلته في أمة من الأميين، فأصبحوا بتلاوة آياتٍ في محكم كتابك من أعلم العلماء في الدنيا والدين؛ إذ صاروا بالاجتماع به، عليه السلام، والتلقي من علومه الربانية علماء حكماء، كادُوا من فقههم أن يكونوا من النبيئين. وعلى آله وأصحابه الذين اتقوك حق تقاتك؛ فكانوا في هذه الأمة من الأئمة المرشدين، ولأركان وقواعد شريعتها من الحماة الحافظين.

[القرن الرابع عشر وما فيه من الشر]

هذا، ولما كان القرن الذي نحن فيه، وهو القرن الرابع عشر، من هجرة سيد البشر، إلى المدينة المنورة التي منها استنار هذا الدين الحنفي وانتشر؛ قرنا اقترن بالشر، الذي

نسأل الله سبحانه أن يلطف بعباده فيه حتى لا يأتي بعده ما هو منه أشر؛ إذ أنكر المعروف، وأقر المنكر، وصدق الكاذب، وكذب من صدق في القول وبر، واستبيحت المحرمات، وأعلنت في المجتمعات، واستجهل العالم العامل، واحتقر، وهو العالي قدره في الدين في المحافل، ومرجت العهود، ونكثت من الديانة العقود، وفقدت الأمانة، وتعامل الناس في كل أعمالهم بالغش والخيانة، والتبست على العالم المسائل، واختلط الحابل بالنابل. ووجَدت الفرصة لفك عرى الإسلام العدا، وأصبح الدين غريبا كما بدا، وتعين الفرار لمن بقي في قلبه مثقال ذرة من الديانة إلى رُءوس الجبال الشواهق، وأن يعتزل الناس ويفر إلى الله خوفا من الفتنة في عقيدته فرار العبد الآبق. هذا إن وجد السلامة في الجبال، وألفى فيها ما يستبدل ما هو خير من سيئ هذه الأحوال.

ولكن في عصرنا هذا قد ضاق المجال، وعمّ الاختلال، في سائر أقطار الإسلام، وشملهم الاعتلال، ولم يبق الفرار إلا إلى الاعتزال، ولزوم المنازل عسى أن يسلم من هذا الضلال. وهي - أي العزلة - في هذه الأعصار، من الواجبات التي لا تقبل خلافا، ولا تقابل من ذي الديانة بإنكار.

والخلاف الذي كان بين العلماء سابقا، من أهل التصوف وغيرهم في التفضيل بين العزلة والمخالطة، إنما كان حيث يجد في المخالطة ما لا ينافي عقيدة الإسلام. وأما في عصرنا هذا، فما في المخالطة إلا اكتساب الآثام، بل في مخالطة جل الناس ما يخرج عن الإسلام.

وعليه، فالعزلة في هذه العصور، المملوءة بالفسوق والفجور، واجبة مطلقا، ولا يجد لها المعارض فيها ما يعده نفعا. فالمذهب الحق اليوم ما كان عليه السلف الصالح، الذي كان فيه من أهل الديانة أئمة كبار، الذين كان هجيراهُم: (رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالاسْحَارِ).

[ذكر من اختار العزلة، ومن اختار المخالطة من السابقين]

فقد اختار الاعتزال في تلك العصور، التي كان لأهل الدين فيها بهجة وسرور، ولشعائر الديانة ظهور في سائر المعمور؛ الإمام الثوري، وابن أدهم، وداود الطائي، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، وبشر الحافي، وغيرهم من أكابر أهل الله، والعلماء المتمسكين بحبله المتين، والمحافظين على القيام بحقوقه والتماس رضاه.

أما من اختار المخالطة واستحبها، ورآها من الطرائق المثلى، لما فيها من التعاون على البر والتقوى؛ فمنهم سعيد بن المسيب، والشعبي، وابن أبي ليلى، وشريح، وشريك، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.

ولكن هؤلاء لو شاهدوا اليوم ما في المخالطة، لحكموا عليها بالتحريم، إن علموا أن ما في المخالطة للناس إلا كل معتد أثيم، لا يقول لا بجنة ولا بجحيم، ولا يهتم إلا بهذه الحياة الدنيا؛ يموت ويحيى، ولا يستعد ليوم تبلى فيه السرائر، ولا ينفع فيه مال ولا سطوة أمير، ولا صولة معاضد ولا نصرة ناصر.

ولهذا، لما آنس بعض السلف بعض التغيرات اليسيرة في الدِّين، وتخوفوا أن يمسهم شرر فساد المفسدين، وكان ذلك في خير القرون، حيث يكثر فيه المصلحون، آثروا الوحدة، والتزموا العزلة، وتركوا حتى حضور الجماعات في المساجد المقدسات؛ فهذا عروة بن الزبير، نخبة التابعين، وعمدة الهادين المهتدين، لما شاهد فيما شاهده في مدينة الرسول، مما كان يراه اعتلالا في الدين، خرج إلى العقيق، وبنى قصرا فيه معتزلا عن الجماعة، منفردا بنفسه مقبلا على ربه، حذرا من أن يصيبه ما يشوش عليه ما هو عليه من الطاعة. ولهذا لما سئل عن ذلك، وقيل له: لزمت القصر، وتركت مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم ؟! فقال: رأيت مساجدكم لاهية، وأسواقكم لاغية، والفاحشة في فجاجكم عاتية، وفيما هناك أنتم فيه عافية.

وجلس الإمام طاووس في بيته؛ فقيل له في ذلك: فقال: فساد الزمان، وحيف الأئمة.

وبهذا يتحقق الناظر في هذا [أن] الخلاف الواقع بين الأئمة، في الصدر الأول أو فيما بعده، يرجع إلى وفاق، مهما كان يرجو في الاجتماع إفادة واستفادة، مع السلامة من الآثام، ففيه أجر، وله فيه خير. وأما إن كان خاليا من ذلك، مع إضافة سماع ما يحرم سماعه، أو اكتساب إثم يجب عليه اجتنابه؛ فضلا عما إذا كان في المخالطة الخوض في آيات الله بالطعن والإلحاد، والخروج فيه عن قواعد الدين أو الاستهزاء بها، كما يقع في المجالس اليوم. فمن فارق هذه القواعد بالقول أو الاعتقاد؛ فهذه المخالطة لا منفعة فيها، إذ لا يقول بجوازها، فضلا عن تفضيلها، عالم متدين. ولهذا قال ابن عطاء الله في"الحكم": لا تصحب من لا يصلحك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. وأحسن ما يستدل به لهذه الطريقة، قول الله تعالى الذي هو المورد العذب الذي يستسقي منه أهل الشريعة والحقيقة، وهو قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ،

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). وقال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً).

وتأمل في هذا المعنى ما اتخذه الأئمة الكبار من تخليهم آخر عمرهم عن مخالطة الجمهور، وتوجههم في عزلتهم إلى عبادة الله التي هي تجارة لن تبور، بعد أن كانوا يخالطون الخاصة والعامة، ويحضرون حفلاتهم، ويجيبون دعوات أفراحهم، ويعودون مرضاهم، ويحضرون جنائزهم. ثم بدا لهم في أواخر أعمارهم ترك ذلك كله، ورجحوا الاعتزال. وفي ذلك يقول حجة الإسلام في"إحيائه":

"وحكي عن جماعة من السلف، مثل مالك وغيره، ترك إجابة الدعوات وعيادة المرضى، وحضور الجنائز. بل كانوا أحلاس بيوتهم، لا يخرجون إلا إلى الجمعة وزيارة القبور. وبعضهم فارق الأمصار، وانحازوا إلى قلل الجبال، تفرغا للعبادة، وفرارا من الشواغل".[162/2]

ولقد أفاض حجة الإسلام، رضي الله عنه، في موضوع المخالطة والاعتزال، وذكر ما في كل واحد منهما من المنافع والمضار وحقق المقال، وأن ذلك يختلف بحسب اختلاف الأحوال، وهو معنى ما أسلفناه، فقال:

"إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا، خطأ. بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة، ويقاس الفائت بالحاصل؛ فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل. وكلام الشافعي، رحمه الله، هو فصل الخطاب، إذ قال: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء؛ فكن بين المنقبض والمنبسط".

قال حجة الإسلام: فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة. ويختلف ذلك باختلاف الأحوال، وبملاحظة العوائد والآفات يتبين الأفضل. هذا هو الحق الصراح، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر. انظر تمامه. [الإحياء: 164/2].

قلت: وهذا هو الميزان الذي توزن به العزلة مع المخالطة، والإنسان على نفسه بصيرة، ولينظر في ذلك ما سبق لنا عن الذكر الحكيم، وإنارة فكره به، يتبين له الطريق، ويعرف من يتباعد عن مخالطته والقعود معه، ومن هو بالاتصال به ومجالسته حقيق.

وقد كان حجة الإسلام بيَّن معنى [هذا] أيضا في الفائدة الأولى من فوائد المخالطة، وأنها التعلم والتعليم، ولهما فضل كبير، وأن التعلم لمن ليس فيه أهلية للتبريز في العلوم والمشاركة فيها، فالفرض في حقه تحصيل ما يحتاج إليه. فإن اعتزل[قبل] تحصيل ما يؤدي به الفرائض، فهو عاص. وأما الذي فيه الاستعداد للمشاركة في العلوم، فالعزلة في حقه قبل التبريز في ذلك علامة الخسران. فإذا تعلم، فله أن يعتزل. قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل. ثم قال حجة الإسلام:

فالعلم هوأصل الدين، فلا خير في عزلة العوام والجهال، أعني من لا يحسن العبادة والخلوة، ولا يعرف ما يلزمه فيها. قال: فلا تليق العزلة إلا بالعالم. وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم، مهما صحت نية المعلم والمتعلم. ومهما كان المقصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع؛ فهو هلاك الدين. قال:

وحُكم العالم في هذا الزمان أن يعتزل، إن أراد سلامة دينه.هـ [الإحياء: 159/2].

وهنا، هذا القول يقوله حجة الإسلام في القرن الخامس، والمدارس بعلوم الإسلام معمورة، ودُرر العلوم الدينية منثورة لمن حاولها غير مهجورة. أما ما عليه الأمم الإسلامية في هذا القرن الرابع عشر؛[فـ] يحكم على المتعلم والعالم بالخروج عن الملة، وفقدان مطلق عالم بالديانة، فضلا عن أن يُرى فيه ما كان في عصره من العلماء الأجلة.

نسأله سبحانه أن يداركنا بلطفه، وأن يرد عن هذه الأمة إغارة جيش هذه الضلالة، برحمته وفضله، ويكسر شوكته بقدرته القاهرة، حتى يرجع هذا الدين إلى أول أصله، إنه جواد كريم.

[طريقة العزلة في العصر الحاضر هي الاقتصار على ما لا بد منه، والاشتغال بالعبادة والعلم]

وبما ذكرناه في شأن العزلة والمخالطة، يتبين لك أن الواجب في هذا العصر هو تقليل المؤمن المحافظ على دينه من مخالطة الناس، والاقتصار على ما لا بد منه؛ إذ الانقطاع عن الناس بالكلية لا يمكن، لمكان الاحتياج إلى الكسب والسعي على العيال، ودخوله الأسواق، والبيع والشراء، لأن هذه الحالة ما استغنى عنها حتى الأنبياء، الذين هم عند الله البررة الأصفياء، حتى إن الكفرة لما حاولوا تنقيص سيد الساعين بالدخول للأسواق والبيع والشراء، وأكل الطعام، كما هو شأن من يمشي على ظهر هذه الغبراء، رد الله تعالى عليهم

مقالتهم، وردهم إلى النظر إلى حالة أنبياء الأمم الذين كانوا قبلهم، إذ قالوا: (مَا لِ هَذا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ)،[الفرقان:7]؛ فقال تعالى خطابا لرسوله الكريم: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَاكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ) الآية [الفرقان:20].

فإذا كان هذا الاختلاط لا بد منه، فليقتصر على الواجب، وليتحرز من آفاته، ومن آفات حب المال والجاه ومخالطة أهلهما، حتى لا يقع في [فتنتهما]، وليستحضر الحديث الذي ورد عن عمرو بن العاص، لما ذكرت الفتن، إذ قال عليه، عليه السلام: "إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه". قال عبد الله: قلت فما تامرني؟ قال: الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر. وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة". إلى غير ذلك مما ورد في هذا الموضوع من الأحاديث والأخبار.

ولا يقال إن العزلة عن الخلق بالكلية من قبيل التكليف بما لا يطاق، لعدم استغناء البشر عن المأكل والمشرب من قوته وقت عياله؛ فإن المراد هو الاقتصار على الواجب وعدم الاستكثار، إذ الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأمر في كتابه تعالى بالأكل والشرب والتزين باللباس والإنفاق في ذلك، دون إقتار ولا إسراف، واتخاذ الطريق الأوسط في ذلك، قال تعالى: (وَلاَ تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لاَ يُحِبّ الْمُسْرِفِينَ)،[الأنعام:41]، وقال: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ).[الأعراف:32]، وقال: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يُقْتِرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا).[الفرقان:67]، وقال: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ).[الطلاق:7]، وقال: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا).[الإسراء:29].

ومن"صحيح" البخاري، عن سيدنا عبد الله بن عباس: "كلوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة". وروي هذا الأثر مرفوعا كما في "الفتح".

وبالجملة؛ فأهم الاعتزال والفرار من الناس؛ هو الفرار القلبي، وترك الاشتغال بما يلهي من المال والأولاد، كما قال تعالى: (يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ).

وعليه، فمن عنده بضاعة، أو ضيعة يعيش بها هو وأهله، أو صنعة كذلك، وهو مقتصر في ذلك على ما يقيم أوده، منعزل في ذلك عن المجالس اللاغية، والمجتمعات

اللاهية، التي من شأنها جلب الآثام، وكثرة القيل والقال، فليلازم بيته لا يخرج إلا لأداء الصلوات، أو اشتراء ما تقتضيه الضرورات، متباعدًا عن ما يستدعي النزاع والخصومات، يملأ أوقاته بأداء الفرائض، ويضيف إليها ما يقرب إلى الله بالنوافل، هجيراه ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز. إن آتاه الله علما، فليشتغل بدراسته في الدفاتر، إن لم يجد طالبا له مخلصا يحاضره في ذلك ويذاكر، فهو بهذا في عزلة لا يكدرها وحشة، لاستئناسه بمعارفه وأسفاره. وعليه بنيت هذه"الفهرسة" الواسعة المباحث، الكثيرة الاستطراد. وهذه ترجمة شيخنا الكتاني هي الأصل، ولكن كم من أبحاث جرّت إليها، وموضوعات أدمجت فيها، ومنها هذا "التقييد" الذي شرعت في تحريره في مولد البشير النذير، السراج المنير، الذي دعا إليه ذكر مولدية شيخنا، رحمه الله، ورضي عنه.

***

[مقدمة التقييد]

وإذ قد فرغنا بعد التمهيد، بعد أن أسلفنا القول في المواسم الشرعية، وما يطلق عليه اسم موسم أو عيد؛ فأقول:

إن المقصود الأهم، هو تحقيق المقال في اليوم الموافق لمولد النبي، صلى الله عليه وسلم، هل يعد من الأعياد الإسلامية التي تُخص بالاحتفال، كسائر الأعياد كما هو المعتاد، أو هو الاحتفال، الذي يقام اليوم فيه من البدع المحدثة، التي لم تكن في العصور الأولى معهودة عند الصحابة، ولا عند التابعين، ولا عند من يليهم في تلك الأجيال؟

ثم لا بد قبل الشروع في نفس الموضوع أن ألمّ هنا، قصد استمطار الرحمات، ببعض ما يليق بنسبه الشريف، وما جرى في ذلك في الحياة والممات، وخلاصة ما يتعلق بسيرته، عليه السلام، قبل مولده وبعده، وذكر محاسن أخلاقه ومحامده، وإن كان ذلك قد ألفت فيه المصنفات الكبار، وجمعت فيه مجلدات الأسفار، التي امتلأت بها خزائن المكاتب في سائر الأقطار، وضاقت بها صدور القماطر في المدن والأمصار. لكني أردت أن أرصّع لبّات هذه الأوراق بدرر ألتقطها من هذه البحور الغزار، وأحلي بها صدر هذا التوليف الصغير الجسم، الكبير المقدار، وأبتدئ بذكر نسبه فأقول:

***

نسبه الرفيع المقدار، المرتفـع على ســـائر الأقــدار

روى ابن سعد في"طبقاته"، عن هشام الكلبي، قال: علّمني أبي، وأنا غلام، نسب النبي، صلى الله عليه وسلم: محمد الطيب المبارك ابن عبد الله بن عبد المطلب، واسمه شيبَة الحمد ابن هشام، واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المُغيرة بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وإلى فهر جماع قريش وما كان فوق فهر فليس يقال له قرشيّ يُقال له كنانيّ؛ وهو فهر بن مالك بن النّضر، واسمه قيس بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، واسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. [55/1].

ثم روى ابن سعد بسنده إلى ابن عباس أنه قال: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه عدنان أدَدَ، ثم يمسك ويقول: "كذب النسابون، قال الله عز وجل: (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)". قال ابن عباس: لو شاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يعلمه لعلمه.

ثم روى عنه أنه كان يقرأ: "(وَعَادًا وَثَمُودًا وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ الله)، كذب النسابون".

وروى عن هشام بن محمد أنه قال: بين معدّ وإسماعيل نيّف وثلاثون أبا. وكان لا يُسمّيهم. ولعله ترك ذلك لما سمع ما روي عن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه كان إذا بلغ معدّ بن عدنان أمسك.

ثم ذكر ابن سعد عن هشام وصل الآباء من أدَد إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، بأسمائهم. ثم ذكر ابن سعد الاختلاف في وصل أدَد بإسماعيل، عليه السلام، ثم قال:

"وهذا الاختلاف في نسبته يدل على أنه لم يحفظ، وإنما أخذ ذلك من أهل الكتاب وترجموه لهم، فاختلفوا فيه. ولو صح، لكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أعلم الناس به؛ فالأمر عندنا على الانتهاء إلى معدّ بن عدنان، ثم الإمساك عمّا وراء ذلك إلى إسماعيل ابن إبراهيم".هـ [الطبقات:57/1].

قلت: وقد اعتمد ابن عساكر في "تاريخه" على ما رواه ابن سعد، وذيل ذلك مهذب "التاريخ" المذكور في الهامش بقوله: والذين يذكرون ما بعد عدنان، يذكرون أسماء محرفة مأخوذة عن التوراة ومعربة عنها.هـ [279/1].

قلت: وقد كنت نظمت أسماء أجداده، صلى الله عليه وسلم، المتفق عليها، عند الكلام على بئر زمزم في المجلد الرابع، في المؤلف الذي جعلته خاصا بهذه البئر المباركة.

أمهاته، عليه الصلاة والسلام:

قال ابن سعد، عن هشام الكلبي، عن أبيه قال: أم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، آمنةَ بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مُرة، وأمها بَرّة بنت عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصيّ بن كلاب، وأمها أم حبيبة بنت أسد بن عبد العزّى بن قصيَ ابن كلاب. ثم أفاض في تعداد الأمهات الكريمات.

ثم عن هشام المذكور عن أبيه أنه قال: كتبت للنبي، عليه الصلاة والسلام، خمسمائة أمّ، فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كان من أمر الجاهلية.

ثم روى ابن سعد بسنده عن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي بن حسين، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "إنما خرجتُ من نكاح، ولم أخرُج من سفاح، من لدن آدمَ. لم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيءٌ، لم أخرج إلا من طُهْرِ". ثم أخرج نحو ذلك عن عروة عن عائشة، رضي الله عنهما.[الطبقات:59/1].

ثم ذكر ابن سعد الفواطم والعواتك اللاتي ولدن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأطنب في ذكر الجدات والأجداد، وذكر كل واحد بمفرده، وأوسع في ذلك المقال.

ولكن لا يضيق صدر المحب لهذا الرسول وما تعلق به من الأسباب، ولو امتد الخطاب، واستوعب أوراق الكتاب، لأن ذكر الحبيب وأسبابه يطيب، إذ فيه منتهى الأمل، ولا يعتري الصادق في المحبة من ذلك ملل، وإن قال الحافظ ابن عساكر ما لفظه:

{وقد ساق ابن سعد نسب أجداده وجداته، كل واحد بمفرده، مما يحصل الملل باستقصائه. وغاية الأمر منه أن نسب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتصل بجميع قبائل العرب، كما قال ابن عباس، رضي الله عنه. وقال قتادة: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال في بعض غزواته: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أنا ابن العواتك"}. ثم صار

ابن عساكر يذكر أسماء العواتك والخلاف في عددهن، والخلاف في ذلك، بعد أن صدر بقوله:

وقالوا: العواتك ثلاث. ثم ذكر أسماءهن، ثم نقل عن أبي عبد الله الطالبي العدوي، أن العواتك أربعة عشر؛ ثلاث قرشيات، وأربع سلميات، وعدوانيتان، وهذلية، وقحطانية، وقضاعية وثقفية، وأسدية، أسد خزيمة. [التاريخ الكبير: 288/1].

ثم ذكر أسماءهن، واتصالهن بأمهات النبي، صلى الله عليه وسلم. فإن شئت التوسع في ذلك فانظر تمامه، وانظر "طبقات" ابن سعد. قال ابن سعد: والعاتكة في كلام العرب: الطاهرة.

وأما الفواطم، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما في "تاريخ" ابن عساكر، يوم أحد: "أنا ابن الفواطم". وذكر ابن عساكر منهن خمسا وسماهن، ونقل عن الإمام أحمد أنه قال: الذي ثبت لنا خمس من الفواطم.هـ[289/1].

تزوج والد المصطفى، عليه السلام، سيدنا عبد الله، بالسيدة آمنة بنت وهْب

روى ابن سعد بسنده إلى محمد بن علي بن الحسين وغيره، قال: كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، في حجر عمّها وُهيب بن عبد مناف بن زهرة، فمشى إليه عبد المطلب بن هشام بن عبد مَناف بن قصيّ، بابنه عبد الله بن عبد المطلب، أبي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخطب عليه آمنة، فزوجها عبد الله، وخطب إليه عبد المطلب في مجلسه ذلك ابنته هالة لنفسه، فزوجه إياها. فكان تزوّج عبد المطلب وتزوّج عبد الله في مجلس واحد. فولدت هالة لعبد المطلب حمزة، فكان حمزة عمَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في النّسب وأخاه من الرّضاعة. قال: ولما تزوج عبد الله آمنة، أقام عندها ثلاثا، وكانت تلك السُنّة عندهم. هـ من "الطبقات" [94/1] ببعض اختصار.

المولد النبوي الكريم، الذي أشرقت الأرض بنوره، وابتهجت الأمة بهذا الطالع العظيم وظهوره

طلع هذا الطالع السعيد، وأشرق هذا النور الساطع بالهداية والخير المزيد المديد، والأمة العربية تخوض في بحور الجهالة، وتتيه في مهامه العماية والضلالة؛ فأرسل الله إليها، وإلى سائر أهل الأرض، هذا النبي الفاتح الخاتم، محمد بن عبد الله، سيدنا أبا القاسم،

فانتشلها من تلك الجهالة، وأنقذها من ظلمات تلك الضلالة، وأرشدها إلى الصراط المستقيم، الصراط الذي يوصلها إلى النعيم المقيم. أرسله الله إلى الخلق بالهدى ودين الحق الواضح بالدليل والبرهان، وأظهره على سائر الأديان، بالمعجزات الباهرة، ومن أجلها "القرآن"، الذي يتلألأ نوره، وتتوالى حِكَمه البينة، وآياته المحكمة على مر الدهور، ولا يبليه امتداد الزمان. ورضي الله عن عمه الإمام، الذي كان يُستسقى به الغمام، إذ قال، حيث يشاهد النور، وأنه سيعم أهل الأرض في الظهور، من قصيدته التي امتدح بها النبي، صلى الله عليه وسلم، في غزوة تبوك:

وأنت لما ولدت أشرقت الأ　　رض وضاءت بنورك الأفقُ

فنحن في ذاك الضياء وفي النـــــور وسبل الرشاد نختـرقُ

وقال البوصيري في الهمزية:

ليلة المولد الذي كان للدِّيـــــن سرورٌ بيومـــه وازدهـاءُ

فشكرا للعلي الكبير، الذي أنعم على هذه الأمة بهذا الخير العميم الكثير، وشكرا شكرا له إذ أطلع علينا بدر هذا النور المنير، السيد البشير النذير، وما الفضل إلا له، إذ هو الملك الحق، المنفرد بالخلق، والتقدير والتدبير.

ثم اعلم أنه قد تعددت الروايات عن أهل العلم في وقت ولادته، عليه السلام، هل كان ليلا أو نهارا، وفي شهره وفي عامه وفي محله؛ فقيل: ولد يوم الإثنين. قال بعضهم: لاخلاف فيه، والله بل أخطأ من قال ولد يوم الجمعة؛ فعن قتادة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سئل عن يوم الإثنين، فقال: "ذلك يوم ولدت فيه"، قاله الحلبي. [السيرة:61/1].

ويؤيده ما في"تاريخ" ابن عساكر، قال: روى البيهقي بسنده إلى ابن عباس أنه قال: ولد نبيكم يوم الإثنين، ونبئ يوم الإثنين، وخرج من مكة يوم الإثنين، وفتح مكة يوم الإثنين، ونزلت سورة المائدة يوم الإثنين:(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)، وتوفي يوم الإثنين.هـ[280/1].

قال الحلبي عن الزبير بن بكار، والحافظ ابن عساكر: إن ذلك كان حين طلوع الفجر. قال: وكان ذلك لمضي ثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول. قال: وحكي الإجماع عليه، وعليه العمل الآن، أي في الأمصار، وخصوصا أهل مكة في زيارتهم موضع مولده، صلى الله عليه وسلم. هـ[61/1].

وفي هذا القول؛ قال الحافظ ابن عساكر: والذي عليه معظم علماء الأخبار، أنه ولد في ربيع الأول، لاثنتي عشرة خلت منه. هـ [تاريخ الشام: 281/1].

ثم صار الحلبي يذكر الأقوال في ذلك؛ فقيل في عشر ليال من ربيع. قال: وصحح، أي صححه الدمياطي. قلت: وعلى هذا القول اقتصر ابن سعد في "الطبقات". وقيل لسبعة عشر، وقيل لثمان مضت منه. قال ابن دحية: وهو الذي لا يصح غيره، وعليه أجمع أهل التاريخ. قال القطب القسطلاني: هو اختيار أكثر أهل الحديث، أي كالحُميدي وشيخه ابن حزم. وقيل لليلتين خلتا منه، وبه جزم ابن عبد البر. وقيل لثمان عشرة مضت منه، رواه ابن أبي شيبة، وهو حديث معلول. وقيل لاثنتي عشرة بقين منه، وقيل لثمان ليال خلت من رمضان، وصححه كثير من العلماء. وقيل في صفر، وقيل في ربيع الآخر، وقيل في محرم، وقيل في عاشوراء، وقيل لخمس بقين منه. هـ.

أما ولادته في عاشوراء، فقد كذب ذلك الحافظ الذهبي، وقال، كما قاله الحلبي، إنه من الإفك، أي الكذب. هـ [السيرة:62/1].

<u>وقد علمت</u> أن المشهور من الأقوال، هو ما عليه الناس اليوم، من أنه لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، فما على سواه من الأقوال المخالفة لذلك من مُعول.

<u>وأما هل كان ليلا أو نهارا</u>؛ فقد تقدم ما نقله الحلبي عن الزبير بن بكار، والحافظ ابن عساكر، أنه كان حين طلوع الفجر.

<u>أما عام ولادته</u>؛ فهو عام الفيل، كما روى ذلك ابن سعد، عن ابن عباس، من طرق متعددة، قال: ولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم الفيل، يعني عام الفيل. قال ابن سعد: وكان قدوم أصحاب الفيل قبل ذلك للنصف من المحرم، فبين الفيل وبين مولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خمس وخمسون ليلة.هـ [الطبقات:100/1].

وقد اختلفت أيضا الروايات والأقوال في المدة التي بين عام الفيل، ومولده، عليه السلام. وبعد أن ذكر ابن عساكر هذا الخلاف، عن خليفة بن خياط [قال]: والمجمع عليه أنه ولد عام الفيل.هـ[281/1].

<u>وأقول:</u> هو الذي يجب أن يعول عليه، لأن الله تعالى أهلك أصحاب الفيل كرامة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم. ولما أرسله، ذكره تلك النعمة فقال: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ). وكونه عام الفيل، قال الحافظ ابن كثير: هو المشهور عند الجمهور. وقال

إبراهيم بن المنذر، شيخ البخاري، رحمه الله: لا يشك فيه أحد من العلماء، ونقل غير واحد فيه الإجماع. قاله الحلبي [إنسان العيون:63/1].

قلت: وقد نقل في"الإبريز" العلامة ابن مبارك ما يخالف ما تقدم من المشهور في يوم الولادة، إذ سأل عن ذلك الولي الصالح سيدي عبد العزيز الدباغ؛ إذ فيه:

"وسألته، رضي الله عنه، عن يوم الولادة من شهر ربيع الأول، فإن العلماء، رضي الله عنهم، اختلفوا فيه؛ فقيل في ثانيه، وقيل في سابعه، واختاره الأكثرون، وقيل في ثامنه، وقيل في تاسعه، وقيل في ثاني عشره؛ فقال، رضي الله عنه: إنه ولد، عليه الصلاة والسلام، في سابع ربيع الأول، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، يعني أنه ولد ليلة السابع منه، كما سبق أنه، عليه السلام، ولد ليلا". [123/1].

قلت: والقول بأنه ولد ليلة السابع من ربيع الأول، لم يذكره من اطلعنا على كلامه من أهل السيَر كصاحب "المواهب"، مع أن الحلبي استوعب الأقوال، وليس فيها هذا القول. إنما فيه ما يقرب منه، وهو أنه ولد لثمان مضت منه. وقال ابن دحية: إنه لا يصح غيره، وعليه أجمع أهل التاريخ. وقال القطب القسطلاني: هو اختيار أهل الحديث. فانظر ذلك. ولكن لأهل الله اختصاصات وأسرار لا يعقلها إلا العالمون.

أما الدار التي ولد فيها، صلى الله عليه وسلم، ومحل مولده الشريف؛ ففي "إنسان العيون": إن مولده، صلى الله عليه وسلم، كان بمكة في الدار التي صارت تدعى لمحمد بن يوسف، أخي الحجاج. وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبي طالب، ولم تزل بيد أولاده إلى أن باعوها لأخي الحجاج بمائة ألف دينار، فأدخلها في داره، وسماها البيضاء، كما في"إنسان العيون". وتلك الدار عند الصفا، بنتها زبيدة زوجة الرشيد، أم الأمين، لما حجت. وقيل أم الرشيد هي التي أخرجتها من دار ابن يوسف، وجعلتها مسجدا. وقيل ولد في شعب بني هاشم، وقيل في الردم، أي ردم بني جُمَح، وقيل بعسفان، كما في "إنسان العيون"، مع إطالة في توجيه الأقوال.

ولخص الإمام الهيتمي في"شرح الهمزية" هذه الأقوال، وبين فيها المعول عليه منها فقال:

"والصواب أنه ولد في مكة. قيل بالشعب، وقيل بالردم. والمشهور أنه بالمسجد المشهور الآن بالمولد. والزعم أنه بعسفان، شاذ لا يعول عليه؛ فقد صرح بعض أئمتنا أن أول واجب على الأولياء أن يعلموا صبيانهم أن نبينا محمدا، صلى الله عليه وسلم، ولد

بمكة، ودفن بالمدينة. بل قيل إن إنكار ذلك كفر، لاستلزامه إنكار وجود النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي هو محمد". هـ [ص34].

هذا وقد خالفنا فيما في هذه الأوراق سطرنا، ما كنا رسمناه من ذكر عيون هذه السيرة النبوية ودررها، دون إطالة ذيول تحريرها، التي بحرها كله جواهر، غاص على التقاطها الأوائل والأواخر، وملأوا بها الحقائب وأودعوها في الصحائف والدفاتر.

ولكن، لما انساق القلم لهذا المورد العذب المذاق، الشريف المساق، الرائق للنواظر والآماق، الشارح برقائقه صدور أهل المحبة والأشواق؛ انطلق في تسطيره هذه الرقائق كل انطلاق، ونقض ما أسلفناه من الالتزام والميثاق، وخالف تلك العهود، ناطقا بلسان حاله: ما أحلى هذا المشرب فإنه نعم الورد المورود.

وعليه، فعلينا الرجوع لما رسمناه، والشروع في تتميم ما ابتدأناه، جريا على المنهج الذي قدمناه، إذ تتبع هذه المباحث ومحاولة استيعابها يستوعب الأوقات، ولا يدرك منه إلا النزر القليل مما فات؛ ومع هذا، ففي اقتباس هذه الأنوار، واختيار عيونها، ما يستدعي مراجعة كثير من الأسفار،[الذي] يُوقع في إتعاب الأبدان، واستطالة الأزمان، فيقع الوقوع بذلك فيما منه وقع الفرار.

ولكن ألهمني الله لمراجعة كتاب"حياة الحيوان"، للعلامة الدميري، على وجه الاتفاق لا عن قصد؛ فوجدت ذلك المقصد الذي قصدناه، والمنحى الذي بهذه المقدمة اخترناه، قد هيأه لنا الباري ويسر، جلا وعلا، لتلك المقدمة بمقاصدها وأمضاها، فكانت حاجة في نفسي علي يد هذا العلامة قضاها، واستوفى من تلك المباحث ما كنت زورته في فكري واستقصاها.

[ابتداء تلخيص
العلامة الدميري، للسيرة النبوية]

ولفظه في ترجمة البراق، إذ ذكر الإسراء، وانبرى في بث ما أتبعه به من النكت الغراء، والسير المهمة السراء. وفيه بعض تكرار لما أسلفناه فيما يتلى، والمكرر هنا أعذب وأحلى. قال، رحمه الله:

" واختلف الناس في تاريخ الإسراء، فقال ابن الأثير: الصحيح عندي أنه كان ليلة الإثنين لسبع وعشرين من شهر ربيع الأول، قبل الهجرة بسنة. وبهذا جزم شيخ الإسلام، محيي الدين النووي، في "شرح مسلم". وجزم في "فتاويه"، في كتاب الصلاة، بأنه كان

في شهر ربيع الآخر. وفي "سيرة الروضة" أنه كان في رجب. وإنما كان ليلا لتظهر الخصوصية بين جليس الملك نهارا، وجليسه ليلا. قال أهل التاريخ: ولد النبي، صلى الله عليه وسلم، عام الفيل. وأقام في بني سعد سنتين، ثم توفيت أمه بالأبواء، وهو ابن ست سنين، وكفله جده عبد المطلب. ثم توفي وهو ابن ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، وخرج معه إلى الشام، وهو ابن اثنتي عشرة سنة. ثم خرج، صلى الله عليه وسلم، في تجارة لخديجة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، ثم تزوجها في تلك السنة. وبنت قريش الكعبة، ورضيت بحكمه فيها، وهو ابن خمس وثلاثين سنة. وبُعث، صلى الله عليه وسلم، وهو ابن أربعين سنة. وتُوفيّ أبو طالب، وهو ابن تسع وأربعين سنة، وثمانية أشهر، وأحد عشر يوما. وتوفيت خديجة، رضي الله عنها، بعد أبي طالب بثلاثة أيام. ثم خرج، صلى الله عليه وسلم، إلى الطائف، ومعه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، بعد ثلاثة أشهر من موت خديجة، رضي الله عنها، فأقام به شهرًا. ثم رجع إلى مكة في جوار المطعم بن عدي. فلما أتت له خمسون سنة، قدم عليه جنّ نصيبين فأسلموا. فلما أتت له إحدى وخمسون سنة، وتسعة أشهر، أسري به، صلى الله عليه وسلم".

" وهاجر إلى المدينة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وهي السنة الثالثة عشرة من بعثته، صلى الله عليه وسلم. وقيل هاجر في السنة الرابعة عشرة، ومعه أبو بكر الصديق، ومولاه عامر بن فهيرة، ودليلهم عبد الله بن أريقط".

" وهذه السنة عليها مبنى التاريخ الإسلامي، وهي سنة أحد. وفيها آخى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين الصحابة، رضي الله عنهم، واتخذ علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أخا. وفيها أتمت صلاة الحضر، وقصرت صلاة السفر. وفيها تزوج علي فاطمة، رضي الله عنهما".

"وفي سنة اثنين، كانت غزوة ودّان، وهو اسم مكان، وغزوة بواط، وهي من ناحية رضوى، وغزوة العشيرة، وغزوة بدر الأولى، وكانت في جمادى الآخرة، وغزوة بدر الكبرى، وهي التي قتل فيها صناديق قريش، وأعز الله تعالى بها الدين، وكانت يوم الجمعة ثالث عشر رمضان، وغزوة بني سليم، وكانت في ذي الحجة، خرج، صلى الله عليه وسلم، يريد أبا سفيان فلم يلقه. وفي سنة ثلاث كانت غزوة بني غطفان، وغزوة نجران، وغزوة قنيقاع، وغزوة أحد، وغزوة حمراء الأسد. وفي سنة أربع، كانت غزوة بني النضير،

وغزوة ذات الرقاع. وفي سنة خمس، كانت غزوة دومة الجندل، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة. وفي سنة ست، كانت غزوة بني لحيان، وغزوة بني المصطلق".

"وفي سنة سبع، اتخذ النبي، صلى الله عليه وسلم، المنبر. وغزا غزوة خيبر، وفيها كانت قصة فدك، وهي مشهورة، وكانت فدك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، خالصة".

"وفي سنة ثمان، كانت غزوة مؤتة، وفتح مكة المشرفة، وغزوة حنين، وغزوة الطائف، وقسمة أموال هوازن. وفي سنة تسع، كانت غزوة تبُوك. وفي سنة عشر، كانت حجة الوداع؛ ونحر بيده الشريفة، صلى الله عليه وسلم، ثلاثا وستين بدنة، وأعتق ثلاثا وستين رقبة، وهي عدد سني عمره".

"وفي سنة إحدى عشرة، كانت وفاته، صلى الله عليه وسلم. وكان ابتداء الوجع في مستهل ربيع الأول، وتوفي في الثاني عشر منه، وعاش، صلى الله عليه وسلم، ثلاثا وستين سنة. وكانت مدة مقامه في المدينة عشر سنين، وقد تقدم ذلك في باب الهمزة، في الكلام على الأوز".

" وكان أولاده، صلى الله عليه وسلم، كلهم من خديجة، رضي الله تعالى عنها، إلا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية. أما الذكور فماتوا كلهم أطفالا. ولم يتزوج، صلى الله عليه وسلم، في حياة خديجة غيرها.

فلما ماتت، تزوج سودة بنت زمعة، رضي الله تعالى عنها، وعائشة، رضي الله تعالى عنها، ولم يتزوج، صلى الله عليه وسلم، بكرا غيرها. وماتت، رضي الله عنها، في أيام معاوية، رضي الله تعالى عنه، سنة ثمان وخمسين، عن سبع وستين سنة. وتزوج، صلى الله عليه وسلم، حفصة بنت عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنهما، وتوفيت في أيام عثمان، رضي الله عنه. وتزوج، صلى الله عليه وسلم، زينب بنت خزيمة، وتوفيت في حياته، صلى الله عليه وسلم، ولم يمت عنده من نسائه غيرها وغير خديجة، رضي الله عنهما. وتزوج أم سلمة، رضي الله تعالى عنها، سنة أربع، وأمها عاتكة عمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتوفيت سنة تسع وخمسين في أيام معاوية، رضي الله تعالى عنه، وقيل توفيت سنة إحدى وستين في يوم عاشوراء، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين، رضي الله تعالى عنه. وتزوج زينب بنت جحش في سنة خمس، وتوفيت في سنة عشرين، في أيام عمر، رضي الله عنهما، وهي أول أزواجه، صلى الله عليه وسلم، لحوقا به. وتزوج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان، وتوفيت سنة أربع وأربعين، في أيام أخيها معاوية،

رضي الله عنهما. وتزوج جويرية بنت الحرث المصطلقية، وتوفيت سنة ست وخمسين في أيام معاوية. وتزوج ميمونة بنت الحرث سنة سبع ، وتوفيت سنة أربعين. ومات، عليه السلام، عن تسع". هـ[133/1].

[ترجمة العلامة الدميري]

هذا ما لخّصه العلامة الدميري من السيرة النبوية؛ وهو المنهج الذي كنت أطلبه، والمنحى الذي كنت زورته في نفسي وقصدته؛ فكأن هذا العلامة أطلعه الله على ما في ضميري، وألهمه إعانتي على ما كنت أستعد لإنجازه حسب تقديري. ولا غرو في هذا الإلهام، إذ تقدم في حياة هذا الهمام بأنه اشتهرت عنه كرامات وكشوفات؛ فقد ترجمه الجلال السيوطي في"حسن المحاضرة"، عند ذكر من كان بمصر من الفقهاء الشافعية، فقال فيه:

"الكمال الدميري، محمد بن عيسى: لا زم البهاء السبكي، وتخرج به وبالأسنوي وغيرهما، وسمع عن العرضي وغيره، ومهر في الأدب، ودرس الحديث بقبة بيبرس. وله تصانيف منها"شرح المنهاج"، و"المنظومة الكبرى"، و"حياة الحيوان". واشتهرت عنه كرامات وإخبار بأمور مغيبات. مات في جمادى الأولى سنة 808 }.هـ [ص207/1].

قلت: وإنما أتيت بهذه الترجمة لغرابتها عند أهل العصر، الذين يظنون أنه إنما هو رجل عالم اشتغل بمعرفة الحيوانات وأسمائها، والاطلاع على خواصها ونحو ذلك؛ مع أن كتابه"حياة الحيوان" يعرف العالم النبيه، الذي قرأه واطلع على أبوابه وما يحويه؛ أن الرجل وحيد دهره، وفريد عصره، في المشاركة في العلوم الإسلامية المشاركة التامة، من حديث وفقه، وتاريخ الدول الإسلامية وتراجم ملوكها، وتواريخ أهل العلم والحديث، واطلاع تام على السيرة النبوية، كما يعلم ذلك من ملخصها الذي نقلناه آنفا. أضف إلى ذلك ما كان له من المهارة في الأدب والتقدم في فنونه. وكل هذا يشهد له هذا الكتاب الذي نقلنا عنه، وهو كتاب"حياة الحيوان". رحمه الله ورضي عنه.

شمائل المصطفى، عليه السلام، وآدابه وحسن أخلاقه

هذا، ولنرجع إلى موضوع كتابنا، فأقول: إن هذا التلخيص الذي نقلناه عن هذا السيد، أخلّ فيه بذكر شمائل المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ومحاسن أخلاقه.

وعليه، فلا بدّ لنا من تكميل هذا الملخص واستدراكه عليه وإلحاقه. وأحسن ما اطلعت عليه في ذلك، ما كتبه حجة الإسلام في كتابه"الإحياء"، في كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة إلخ؛ فاخترتُ من هذا الكتاب جملة من جواهر أخلاقه، عليه السلام، ودرر محاسن آدابه التي من تحلى بها أدرك في الدين والدنيا غاية المرام. قال حجة الإسلام:

كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق؛ فكان يقول في دعائه: "اللهم حسن خلقي وخلقي". ويقول: "اللهم جنبني منكرات الأخلاق". فاستجاب الله تعالى دعاءه، وفاء بقوله عز وجل: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، فأنزل عليه القرآن وأدبه به، فكان خلقه القرآن. قال سعد بن هشام: دخلت على عائشة، رضي الله عنها وعن أبيها، فسألتها عن أخلاق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خلق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، القرآن. قال حجة الإسلام: وإنما أدبه بالقرآن، بمثل قوله: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)،[الأعراف:99]، وقوله: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ). [النحل: 90].

ثم صار يذكر أمثال هذه الآيات المرشدة إلى الآداب الأخلاقية، والمحاسن التهذيبية.

ثم قال حجة الإسلام: وأمثال هذه التأديبات في "القرآن" لا تحصر، وهو عليه السلام، المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق؛ فإنه أدب بالقرآن، وأدَّب الخلق به، ولذلك قال، صلى الله عليه وسلم: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق. قال حجة الإسلام: ثم لما أكمل الله تعالى خلقه، أثنى عليه فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، فسبحانه ما أعظم شأنه، وأتمّ امتنانه. ثم انظر إلى عميم لطفه، وعظيم فضله، كيف أعطى ثم أثنى، فهو الذي زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ). ثم بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، للخَلق أن الله يحب مكارم الأخلاق، ويكره سفسافها. قال عليّ، رضي الله عنه: يا عجبا لرجل مسلم، يجيئه أخوه المسلم في حاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلا! فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا؛ لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما يدل على سبيل النجاة. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فقال: نعم؛ وما هو خير منه. لما أُتيّ بسبايا طيِّء، وقفت جارية في السبي؛ فقالت: يا محمد: إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومي. وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع

الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائي. فقال، صلى الله عليه وسلم: "يا جارية. هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلوا عنها؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق". فقام أبو بردة ابن نيار، فقال: يا رسول الله: الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: "والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة إلا حسَن الأخلاق".

ثم قال حجة الإسلام: وقال معاذ: أوصاني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا معاذ: أوصيك باتقاء الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وأنهاك أن تسب حكيما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آثما، أو تعصي إماما عادلا، أو تفسد أرضا. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تُحْدث لكل ذنب توبة؛ السر بالسر، والعلانية بالعلانية". قال حجة الإسلام:

فهكذا أدّب عباد الله، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.هـ[الإحياء:313/2].

قلت: وحديث معاذ كنتُ وقفت عليه في"الحلية" لأبي نعيم، واغتبطتُ به، وقيدته في ورقة خاصة، لكون[هذه الوصية] لآداب الدين جامعة، وعلى ألفاظها أنوار النبوة ساطعة. وكتب على هذا الحديث الحافظ العراقي، فقال: أبو نعيم في"الحلية"، والبيهقي في الزهد، وقد تقدم في آداب الصحبة. [الإحياء:314/2].

ثم أتى حجة الإسلام بجملة مما كتبه أهل العلم في محاسن أخلاقه وشمائله، وما كان عليه، صلى الله عليه وسلم، في أحواله الخاصة به من مأكله ومشربه، وسائر تصرفاته مع أهله وأقاربه وسائر رفاقه، فقال: كان، صلى الله عليه وسلم، أحلم الناس، وأشجع الناس، وأعدل الناس. قال: وكان أسخى الناس؛ لا يبيت عنده دينار ولا درهم. وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه، وفجأه الليل، لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه. لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط، من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله، لا يُسأل شيئا إلا أعطاه. ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه، حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام، إن لم يأته شيء. وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن. وكان أشد الناس حياء؛ لا يثبت بصره في وجه أحد، ويجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية، ولو أنها جرعة لبن، أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها

ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين. يغضب لربه، ولا يغضب لنفسه، وينفذ الحق، وإن عاد ذلك عليه بالضرر، أو على أصحابه. عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين، وهو في قلّة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه؛ فأبى، وقال: "أنا لا أنتصر بمشرك". قال: وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع، ومرة يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ولا يتورع من مطعم حلال. إن وجد تمرا دون خبز أكله، وإن وجد شواء أكله، وإن وجد خبزا بُرا أو شعيرا أكله، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله. لا يأكل متكئًا ولا على خوان؛ منديله باطن قدميه. لم يشبع من خبز بُرّ ثلاثة أيام متوالية، حتى لقي الله تعالى، إيثارا على نفسه، لا فقرا ولا بخلا. يجيب الوليمة، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس. أشد الناس تواضعا، وأسكنهم في غير كبر، وأبلغهم في غير تطويل، وأحسنهم بشرا، لا يهوله شيء من أمور الدنيا. ويلبس ما وجد، فمرة شملة، ومرة برد حبرة يمانيا، ومرة جبة صوف؛ ما وجد من المباح لبس. وخاتمه فضة؛ يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر. يردف خلفه عبده أو غيره. يركب ما أمكنه، مرة فرسا، ومرة بعيرا، ومرة بغلة شهباء، ومرة حمارا، ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة. يعود المرضى في أقصى المدينة. يحب الطيب، ويكره الرائحة الرديئة. ويجالس الفقراء، ويُؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم. يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقا، يضحك من غير قهقهة. يرى اللعب المباح فلا ينكره. يسابق أهله، وترفع الأصوات عليه فيصبر. وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها. وكان له عبيد وإماء، لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس. ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه، يخرج إلى بساتين أصحابه. لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكا لملكه. يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا. قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التّامة.هـ[315/2].

ثم أطال حجة الإسلام بذكر فصول خاصة من شيمه الحميدة، وأخلاقه الجميلة، من رحمته وشفقته، وصفات كلامه وجوامعه من البلاغة والإيجاز، دون فضول ولا تقصير، وصفة ضحكه، وأنه كان أكثر الناس تبسما في وجوه أصحابه، وتعجبا مما تحدثوا به، وربما ضحك حتى تبدو نواجذه.

ثم صار يذكر أخلاقه، عليه السلام، في الطعام وفي اللباس، وفي حلمه وعفوه وإغضائه عما يكره، وفي سخائه وجوده وشجاعته وتواضعه، ووصف ذاته الشريفة، عليه الصلاة والسلام.

ثم أفاض في ذكر معجزاته وآياته الدالة على صدقه، مما يشرح صدر المؤمن الصادق، ويضيق منه قلب الكافر والمنافق. وفقنا الله لاتباع هذا النبي الكريم، الذي منّ الله به علينا ليتلو علينا آياته، ويعلمنا الكتاب والحكمة ويؤدبنا بآدابه، ويرشدنا إلى ما يوصلنا إلى جنة النعيم، ويقينا من عذاب الجحيم.

قلت: وقد ذكر حجة الإسلام أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان خلقه القرآن، وأن معناه ما فيه من الآيات التي ترشد إلى محاسن الأخلاق، ومحامد الآداب على الإطلاق. وإلى ذلك يشير الحديث، وهو قوله، عليه السلام:"أدبني ربي فأحسن تأديبي".

[مذاكرة في حديث:"أدبني ربي فأحسن تأديبي"، وملخص ما قيل فيه]

وقد وقعت لي في هذا الحديث مذاكرة، أيام زار الفقيه الديّن الخيّر الواعظ، سيدي المكي ابن شيخنا الكتاني، صاحب هذه الترجمة؛ وذلك أنه جمعني الحال معه في حفلة أقامها له عامل المدينة، واستدعى لها جماعة من الأعيان وأهل العلم. فبعد أن فرغ الجمع من الأكل والشرب، افتتح الشيخ المذكور مذاكرة علمية، متبعا في ذلك سَنن أهل العلم في الشرق، من أن أحد العلماء الحاضرين يلقي على الحاضرين مسألة من مسائل العلم التي اختارها هو واستعد للكلام فيها. وأول من استفتح المذاكرة، أحد أبناء عمه النبيل سيدي عبد الرحمان، الذي كان يصاحبه، فوجه السؤال إلي مستفهما عن سند حديث"أدبني ربي فأحسن تأديبي". ثم وجه الشيخ الخطاب إليّ بأن أشرح معنى هذا الحديث، فأجبته أنا فورًا بأن معنى هذا هو قول السيدة عائشة، رضي الله عنها: كان خلقه القرآن. ولكن أخطأت في مُسارعتي بالجواب، لأن العادة عندهم أن الشيخ، وإن تأدب معي في تقديمي للكلام في الحديث، كان الواجب أن أسند ذلك إليه. ثم صار الشيخ يملي ما كان أعده للمجلس، ثم يرجع إلى ما قلناه عن السيدة عائشة من أن خلقه القرآن، وقد تقدم ما فسره به حجة الإسلام.

ثم إن هذه المذاكرة كانت دعتني للكتابة في هذا الحديث، من تخريجه وما قال فيه أهل الحديث. وكنت عزمت على وضع تويلف فيه، وكنت شرعت في تبويبه. وكان قصدي أن

أجمع الآيات القرآنية المبينة لمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، الجامعة لآداب الدين والدنيا. ولم يتم لي في ذلك القصد.

وهنا ألخص القول في هذا الحديث. وأتعجب من عدم ذكر حجة الإسلام له؛ والحديث قد ذكره السيوطي في "الجامع الصغير"، ونسب روايته لابن السمعاني في كتاب "أدب الإملاء"، وأشار له بعلامة الصحة. والحديث، كما سيأتي، ضعفه أهل الفن، ومنهم من استغربه، ومنهم من وهّاه.

أما معنى الحديث، فقد تقدم في كلام حجة الإسلام ما يفيده، وهو المعنى الذي كنا أردنا بسطه وشرحه، ولكن الآن نكتفي بتلخيص ما شرحه به العلامة المناوي في كتابه"فيض القدير"، ولفظه: "أدّبني ربي"، أي علمني رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة، "فأحسن تأديبي" بأفضاله عليّ بالعلوم الكسبية والوهبية، بما لم يقع نظيره لأحد من البشر. قال بعضهم: أدبه بآداب العبودية، وهذبه بمكارم أخلاق الربوبية. ولما أراد إرساله ليكون ظاهرُ عبوديته مرآة العالم، كقوله: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وباطنُ حاله مرآةً للصادقين في متابعته، وللصديقين في السير إليه (فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ). وقال القرطبي: حفظه الله من صغره، وتولى تأديبه بنفسه، ولم يكله في شيء من ذلك لغيره. ولم يزل الله يفعل به، حتى كرَّه إليه أحوال الجاهلية وحماه منها، فلم يجر عليه شيء منها. كل ذلك لطف به، وعطف عليه، وجمع للمحاسن لديه هـ. قال المناوي: وفي هذا من تعظيم شأن الأدب ما لا يخفى، ومن ثمّ قالوا: الأدب صُورة العقل، فصوّر عقلك كيف شئت. وقالوا: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والنسب، لأن من ساء أدبه، ضاع نسبه، ومن قل عقله، ضلّ أصله.[224/1]

ثم انساق في هذا النسق الصوفي، وصار ينقل في ذلك عبارة أهله؛ كالسقطي، وصاحب"العوارف"، وغيرهما. ثم أتى بعباراتهم في معنى الأدب، وكل فسره بمقتضى حاله، كما في "الرسالة".

[تقسيم أهل التصوف للأدب]

وأحسن ما رأيت فيها ـ أي في"الرسالة"ـ ما نقله عن نصر الطوسي السراج: الناس في الأدب على ثلاث طبقات؛ أما أهل الدنيا، فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسماء الملوك، وأشعار العرب.

وأما أهل الدين، فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتـأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية، فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب، في مواقف الطلب، وأوقات الحضور ومقامات القرب.هـ [الرسالة القشيرية:140].

[الرجوع للكلام على تخريج حديث: "أدبني ربِّي" إلخ]

ثم نرجع إلى الحديث وتخريجه، وما قال أهل الفن في سنده. قال المناوي في قول السيوطي: ابن السمعاني، أي أخرجه ابن السمعاني، الإمام أبو سعد، في كتاب"أدب الإملاء"، أي إملاء الحديث، من جهة صفوان بن مفلس الحنطي، عن محمد بن عبد الله، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن الله أدبني فأحسن أدبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: (خُذِ العَفْوَ وَامُرْ بِالعُرْفِ، وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ)". هذا سياق رواية السمعاني بحروفه، فتصرف فيه المؤلف كما ترى. قال الزركشي: حديث"أدبني ربي فأحسن تأديبي" معناه صحيح، لكنه لم يأت من طريق صحيح. وذكره ابن الجوزي في الواهيَات عن علي، في ذيل حديث، وضعفه. وأسنده سبطه في "مرآة الزمان"، وأخرجه بطرق كلها تدور على السدي، عن ابن عمارة الجواني، عن علي، وفيه فقال: يا رسول الله: إنك تكلم الوفود بكلام، أو لسان، لا نفهم أكثره. فقال: "إن الله أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعد"، فقال له عمر: يا رسول الله. كلنا من العرب، فما بالك أفصحنا؟ فقال: "أتاني جبريل بلغة إسماعيل وغيرها من اللغات، فعلمني إياها". وصححه أبو الفضل ابن ناصر.هـ[225/1].

قلت: ولعل الجلال اعتمد في هذه النسخة على ما قاله ابن ناصر من الحكم بالصحة مما في هذا الحديث. ثم نقل المناوي عن العسكري ما يقرب من هذا الحديث عن علي، كما نقل عن ابن عساكر مثل ذلك، عن أبي بكر، وحكم في ذلك بضعف الإسناد، قال المناوي: وقال السخاوي: ضعيف، وإن اقتصر شيخنا، يعني ابن حجر، على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه. وقال ابن تيمية: لا يعرف له سند ثابت.هـ [فيض القدير:225/1].

وعليه، فهذا الحديث اختلف فيه أهل الفن، فقال الزركشي: إن معناه صحيح، لكنه لم يأت من طريق صحيح. وصححه ابن ناصر، وجعله ابن الجوزي في الواهيات. وقال

السخاوي، إنه ضعيف، وحكم عليه شيخه ابن حجر بالغرابة. قلت: والغرابة لا تنافي الصحة. وقال ابن تيمية: لا يعرف له سند صحيح. قلت: فمعناه أنه ضعيف، كما قال سواه، والله أعلم.

وبهذا نختم هذه المقدمة، ونشرع في الكلام على تاريخ إحداث هذا_المولد، مولد سيد العالمين بالإطلاق، وتفضيله بالاتفاق، بمحض جود الجواد الكريم الخلاق، وما قال في إحداثه أعلام الأمة وأفاضلها، وما احتج به من عدّه منهم عيدا إسلاميا، وما رد عليهم في ذلك مناضلها.

[إحداث الاحتفال بعيد المولد النبوي، وكلام العلماء في ذلك]

فأقول: قد اختلف أهل العلم في عيد المولد الكريم، هل يُعد من الأعياد الشرعية التي تخص بالاحتفالات، وإظهار الأفراح والمسرات، وتخصيصه، كالعيدين الشهيرين، بالتوسع في المأكولات والمشروبات، وإظهار الزينة والفرح في الملبوسات والمركوبات، أم لا يعدّ ذلك عيدا، لأنه لم يأت به نص عن صاحب الشريعة، ولا عن من بعده من الخلفاء الراشدين، ولا عن من بعدهم من التابعين، ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين.

بل لم يكن أحد من أهل القرون الأولى يزيد على العيدين عيدا، ولم يحدث المتقدم منهم ولا المتأخر في تلك القرون - التي هي خير القرون لقول الرسول، عليه السلام:"خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم"- في هذا المعنى شيئا جديدا.

وقد ذهب إلى هذا جماعة فقالوا: إن هذا من المحدثات التي لم يفعلها أحد من السلف، ولا أتت به صحيح الروايات، ولا عدوه من القربات، ولو كان في ذلك خير لسبقونا إليه، ولندبوا من ياتي بعدهم وحضّوهم عليه؛ فهو بدعة لم يأت بها في التشريع أهل الهداية، ولا ورد بها عن صاحب الشريعة تصريح ولا إشارة في الرواية، والخير كله في الاتباع، والشر كل الشر في الابتداع. وحب النبي، صلى الله عليه وسلم، إنما هو في اتباعه والاقتداء به فيما سنه من أقواله وأفعاله، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللهَ فَاتّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ).

وهذا المنحى هو الذي نحا نحوه صاحب "المدخل"، إذ جعل الأعياد الشرعية ثلاثة: الفطر والأضحى، وذكر ثالثا وهو يوم عاشوراء. وقد تقدم لنا الكلام في ذلك. وعلى هذه الزيادة،[فـ]إن ابن حزم جعلها أيضا ثلاثة، ولم يذكر عاشوراء، وذكر ثالثا يوم الجمعة.

وسبق لنا ما في ذلك، لأنه لا حاجة إلى إعادته، لأنه من المعاداة التي قيل فيها في جاري العادات أنها من المُعاداة، وإن كان الأوفق أن يذكر ذلك هنا. فقال في "المدخل":

"ومن جملة ما أحدثوا من البدع، مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات، وإظهار الشعائر، ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد، وقد احتوى على بدع ومحرمات جملة".[2/2] .

ثم صار يبين تلك البدع المحرمات إلخ؛ مما يفيد فحوى كلامه إنكار هذا الإحداث، إذ عيد المولد ليس من الأعياد الشرعية المنصوص عليها، مع ما في ذلك من ارتكاب المحرمات. وأطال الكلام في ذلك مما سنرجع إليه بعد هذا، إن شاء الله.

[فتوى الإمام الحفار
في إنكار أقامـــة المولـــد]

أما الإمام الحفار، أحد من اعتمد عليه في فتاويه صاحب"المعيار"، فإنه صرح في فتواه بعَدِّه من المحدثات، وأنكره غاية الإنكار، إذ سئل عن رجل حبّس أصل توت على ليلة مولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم مات المحبس فأراد ولده أن يتملك أصل التوت المذكور؛ فهل له ذلك أم لا؟ فأجـــاب:

وقفت على السؤال فوقه. وليلة المولد لم يكن السلف الصالح، وهم أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتابعون لهم، يجتمعون فيها للعبادة، ولا يفعلون فيها زيادة على سائر ليالي السنة، لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، لا يُعظم إلا بالوجه الذي شرع فيه تعظيمه. وتعظيمه من أعظم القرب إلى الله، لكن يتقرب إلى الله، جل جلاله، بما شرع. والدليل على أن السلف لم يكونوا يزيدون فيها زيادة على سائر الليالي، أنهم اختلفوا فيها، فقيل له إنه، صلى الله عليه وسلم، ولد في رمضان، وقيل في ربيع. واختلف في أي يوم ولد فيه على أربعة أقوال. فلو كانت تلك الليلة التي ولد في صبيحتها تحدد فيها عبادة بولادة خير الخلق، صلى الله عليه وسلم، لكانت معلومة مشهورة، لا يقع فيها اختلاف، ولكن لم تشرع زيادة تعظيم. ألا ترى أن يوم الجمعة خير يوم طلعت عليه الشمس، وأفضل ما يفعل في اليوم الفاضل صومه، وقد نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن صوم يوم الجمعة، مع عظيم فضله؛ فدل هذا على أنه لا تحدث عبادة في زمان ولا مكان إلا إن شرعت، وما لم يشرع لا يفعل، إذ لا يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما أتى به أولها. ولو فتح هذا الباب لجاء

قوم فقالوا: يوم هجرته إلى المدينة يوم أعز الله فيه الإسلام؛ فيجتمع فيه ويتعبد. ويقول آخرون: الليلة التي أسري به فيها، حصل له من الشرف ما لا يقدر قدره، فتحدث فيها عبادة. (قلت: قد وقع ذلك في زماننا، وأحدثوا الاحتفال بيوم الهجرة والإسراء ويقولون فيه ليلة المعراج، وزادُوا أعيادا أخرى). ولا يقف ذلك عند حد. والخير كله في اتباع السلف الصالح الذين اختارهم الله له، فما فعلوه فعلناه، وما تركوه تركناه. فإذا تقرر هذا، ظهر أن الاجتماع في تلك الليلة ليس بمطلوب شرعا. ثم هاهنا أمر زائد في السؤال، أن تلك الليلة تقام على طريقة الفقراء. وطريقة الفقراء في هذه الأوقات، شنيعة من شنع الدِّين، لأن عندهم في الاجتماع إنما هو الغناء والشطح، ويقررون لعوام المسلمين أن ذلك من أعظم القربات في هذه الأوقات، وأنها طريقة أولياء الله. وهم قوم جهلة لا يحسن أحدهم إحكام ما يجب عليه في يومه وليلته، بل هو ممن استخلفه الشيطان على إضلال عوام المسلمين. هـ[المعيار: 66/7]. ثم تعرض الحفار لإبطال ذلك الحبس الذي سئل عنه.

[مخالفة صاحب "المعيار" لهذه الفتوى]

هذا ما نقله الونشريسي في باب الحبس. وذكر في كتاب "الإجارة"، عند كلامه على ما يلزم آباء الصبيان، في الأعياد والمواسم، بذله للمعلمين، وما لا يلزم، فقال، بعد أن نقل فتوى لغيره: (قلت) ويظهر من هذا الكلام، القضاء بالشمع للمعلمين على آباء الصبيان في ميلاد النبي، صلى الله عليه وسلم، لأنه فاش معتاد ببلاد المغرب الأوسط والأقصى، ولا انتزاع في انتصاب المعلمين لأجله، ولا سيما وهو موسم عظيم عند ملة أهل الإسلام، يعتنون به في الحواضر تعظيما لنبينا وسيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم. هـ [المعيار: 160/8].

قلت: فكلام صاحب "المعيار" هنا يخالف فتوى الحفار. وذكر في"جامعه" ما يؤيد ما ذهب إليه هنا من جواز إقام المولد النبوي عيدا من أعياد أهل الإسلام، وأنه يفعل فيه من إظهار الفرح والسرور من اللباس الفاخر، والإعلان بذلك من اتقاد الشموع في المساجد، وتكثير الأضواء، ابتهاجا لهذه النعمة السراء بطلعة سيد الأنبياء، وشكرا لله الذي خص هذه الأمة بهذه اليتيمة العصماء، ولكن بشرط أن لا تخرج هذه الحفلات التي تقام فيها عن قواعد الشريعة الغراء.

[فتوى العارف ابن عباد باستحسان إقامة ليلة المولد، والرد على المخـالف]

وذكر الونشريسي في هذا، فتوى العارف بالله ابن عباد، فقال: وسئل الولي العارف بالطريقة والحقيقة، أبو عبد الله ابن عباد، رحمه الله ونفع به، عمّا يقع في مولد النبيّ، صلى الله عليه وسلم، من وقود الشمع وغير ذلك، لأجل الفرح والسرور بمولده، عليه السلام؛ فأجـاب: الذي يظهر أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما يقتضيه الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع، وإمتاع البصر، وتنزه السمع والنظر، والتزيين بما حسن من الثياب، وركوب فاره الدواب؛ أمر مباح لا ينكر، قياسا على غيره من أوقات الفرح. والحكم بأن هذه الأشياء لا تسلم من بدعة في هذه الوقت الذي ظهر فيه سر الوجود، وارتفع فيه علم العهود، وتقشع بسببه ظلام الكفر والجحود؛ ينكر على قائله، لأنه مقت وجحود. وادّعاءُ أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان، ومقارنةُ ذلك بالنَّيرُوز والمهرجَان، أمر مستثقل تشمئز منه النفوس السليمة، وترده الآراء المستقيمة.هـ [المعيار:211/11].

[تأييد ما قاله الولي ابن عباد بكلام بعض الفضلاء]

ثم قال الونشريسي إثر هذا الجواب، قال بعض الفضلاء: فكلام هذا الولي يدل على كمال محبته، وحسن طريقته. وما أنكر مَن أنكر ما يقع في هذا الزمان من الاجتماع في المكاتب للأطفال؛ إلا خيفة المناكر واختلاط النساء والرجال. فأما إذا أمن ذلك، فلاشك في حسن ما يُفعل من الاجتماع، وذكر محاسنه والصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، في سائر البقاع. ويحرم استعمال آلة اللهو عند الاجتماع في هذه الليلة. ولا يجوز تعظيم نبيّ الله تعالى إلا بما يرضيه ويرضي الله تعالى؛ بل ينبغي الصدقة في السرّ بما يعمل في تلك الأيام من الأطعمة، فإن ذلك أسلم من فساد النيات ومن حضور الجماعات. واختار جماعة من العلماء، رضي الله عنهم، الفطر في يوم المولد، لأنه يوم سرور، والتوسيع على العيال بما أمكن من الميسُور. [211/11].

ثم ذكر الونشريسي، عن ابن عباد، ما وقع له مع الولي الصالح الحاج ابن عاشر، من إنكاره عليه في صيام يوم المولد الشريف، ثم نقل عن ابن مرزوق في "جنى الجنَّتين، في شرف الليلتين" أنه قال: سمعت شيخنا الإمام أبا موسى ابن الإمام، رحمة الله عليه، وغيره

من مشيخة المغرب، يحدثون فيما أحدث في ليالي المولد في المغرب، وما وضعه العَزفي في ذلك واختاره، وتبعه في ذلك ولده أبو القاسم، وهما عن الأئمة، فاستصوبوه واستحسنوا ما قصده فيها والقيام بها. وقد كان نقل عن بعض علماء المغرب إنكاره، والأظهر في ذلك عندي ما قاله بعض الفضلاء من علماء المغرب أيضا، وقد وقع الكلام في ذلك، فقال ما معناه: لاشك أن المسلك الذي سلكه العَزفي مسلك حسن؛ إلا أن المستعمل في هذه الليلة الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، والقيام بإحياء سنته، ومعونة آله، ومساهمتهم وتعظيم حرمتهم، والاستكثار من الصدقة وأعمال البر، وإغاثة الملهوف، وفك العاني، ونصر المظلوم؛ وهو أفضل مما سوى ذلك مما أحدث، إذ لا يخلُو من مزاحم في النيّة، أو مفسد للعمل، أو دخول الشهوة. وطريق الحق معروف. ولا أفضل في هذه الليلة مما ذكرناه من أعمال البر، والتكثير من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، ليحظى المستكثر منها ببعض ما ورد في فضلها. [212/11].

ثم ذكر الونشريسي فائدة، نقل فيها ما قاله ابن مرزوق في تفضيل ليلة المولد على ليلة القدر، واستدلاله لذلك. ولكن هذه المسألة لابد من الكلام عليها في مبحث آخر بعد هذا.

***

[ملك "إربلْ" وإحداثه الاحتفال بالمولد النبوي، وذكر شيء من سيرته]

ولنرجع لما أشار إليه الونشريسي، عن ابن مرزوق، من أن أول من أحدث إقامة المولد الشريف بالمغرب هم بنو العزفي السبتيون، أهل الرياسة والسياسة بمدينة سبتة. وهذه الإشارة تستدعي الكلام على ذكر من أحدث ذلك مطلقا، فأقول:

إن أصحاب التاريخ والمؤلفين في السيّر، اتفقوا على أن الاحتفال باليوم الموافق ليوم ولادته، عليه الصلاة والسلام، واتخاذه موسمًا وعيدًا من أعياد أهل الإسلام، لم يفعله أحد من أهل القرون الثلاثة الأول، وإنما أحدث بعد ذلك.

والشائع الذائع أن أول من أحدث ذلك من الملوك، ملك إرْبِل، وهوأبوسعيد كُوكُبُورِي، بضم الكافين بينهما واو ساكنة ثم باء موحدة مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها راء. وهو اسم تركي معناه بالعربي ذنب أزرق، قاله ابن خلكان.

وإرْبِل، بوزن إثمِد، قال ياقوت: ولا يجوز فتح الهمزة، لأن أفعِل ليس في أوزان العرب، إلا أصبع في لغة قليلة. قال ياقوت: وإرْبِل قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من

الأرض واسع بسيط. ثم صار يصفها، ثم قال: وهي بين الزّابَيْن، تُعَد من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين. وفي ربض هذه القلعة في عصرنا هذا مدينة كبيرة، عريضة طويلة، قام بعمارتها وبناء سورها وعمارة أسواقها وقيسارياتها؛ الأمير مظفّر الدّين كُوكُبُري ابن زين الدّين كُوجَك علي، فأقام بها وقامت بمقامه بها، لها سوقٌ. وصار له هيبة، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته وكثرة تجربته حتى هابوه، فانحفظ بذلك أطرافه، وقصدها الغرباء، وقطنها كثير منهم، حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار. قال:

وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة؛ فإنه كثير الظلم، عسوف بالرعية، راغب في أخذ الأموال من غير وجهها. وهو مع ذلك مُفضِل على الفقراء، كثير الصدقات على الغرباء، يسيّر الأموال الجمّة الوافرة يستفكّ بها الأسارى من أيدي الكفار، وفي ذلك يقول الشاعر:

كساعية للخير من كسب فرجها   لها الويل لا تزني ولا تتصــدّق

قال ياقوت:

ومع اتساع هذه المدينة؛ فبنياتها وطباعها بالقرى أشبهُ منها بالمدن، وأكثر أهلها أكراد. قال: وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل. ثم قال:

"ودخلتها، فلم أر فيها من يُنسب إلى فضل، غير أبي البركات المبارك". ثم ذكر أشعارا في ذم إرْبل.[معجم البلدان:172/1].

ولم يذكر لمظفر الدّين مكرمة تحمد آثارها، إلا ما كان عليه من تضاد الأخلاق،[وأنه كان]عديم الموازنة، متباعد عن الانسجام والاتساق، فهو مع اتصافه بالظلم لرعيته، وأخذه الأموال منهم من غير حقه ووجهته؛ يواسي الفقراء، ويكثر الصدقات على الغرباء.

ولكن كان ياقوت يرى أن هذه الحسنات التي يُبديها، لا تُذهب تلك السيئات والمظالم التي تجحف بالرعية وترديها، وأنها أعمال غير مرضية، لا يقبلها رب البرية، إذ هي كسراب بقيعة، غير واقعة مواقعها في حكم الشريعة.

<u>وقد تكلم الفقهاء</u> على هذه المسألة وما يشبهها، وذكرُوا أن الملوك والسلاطين لا يجوز لهم التصرف في أموال الأمة، المأخوذة بحقها، بدون مصلحة؛ فضلا عن المغتصبة، إذ المغتصبة هي مظالم يجب ردها إلى أهلها، كما فعله الإمام العادل، سيدنا عمر بن عبد العزيز، في رد مظالم بني أمية، وهُم عصبته الذين بهم اقتعد كرسي المملكة، وسيفه المسلول على من ينازعه في هذه السلطنة؛ ولكنه لم يبال بهذا، واستمر في تنفيذ أعماله،

ولم يبال بتهديد الخصم لمغبة هذا التشديد وسوء مآله، فقال: كل سُوء أهدّدُ به دُون يوم القيامة لا وقيته. أو كلاما هذا معناه.

ومن هذا المعنى ما في "نوازل" الإمام العلمي، من جواب للإمام العبدوسي: الملوك فقراء مدينون، بسبب ما احتجرُوه على المسلمين بتصرفاتهم في أموال بيت المال بالهوى في أبنية الدور العالية المزخرفة، والمراكب النفيسة، والأطعمة الطيبة اللذيذة، إلى غير ذلك من التصرفات المنهي عنها؛ فهي كلها ديون عليهم، وتكثر بتطاول الأيام، فلا تصح تبرعاتهم. إلخ.[66/2].

وهكذا، كما علمتَ، فيما يجبُون من جلّ الأموال. أما المظالم فهي ترد، كما سلف، لأهلها بكل حال؛ ولا يحل لهم بها تأسيس مصلحة، ولا إحداث مآثر خيرية، ولا بناء ملاجئ للمرضى، ولا مدارس للدراسة، ولا حصون للحراسة، ولا تعميم الصدقات والعطايا عرضا أو نقدا، إذ مَثلُهم في ذلك كما قال تعالى: (كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا).

أما العلامة ابن خلكان في كتابه "الوفيات"، فإنه ذكر لمظفر الدّين هذا من المناقب والمآثر محاسن متعددات، وأعرض عما سوى ذلك، وجعل الحسنات يُذهبن السيئات، وإنما الأعمال بالنيات. وكفاه شرفا أنْ كان هو السابق لإقامة مولد سيد البشر، كما فشا ذلك عنه وانتشر؛ وعسى أن تكون هذه المنقبة له توبة من تلك الموبقات يغفر له الله بها، (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ).

قال ابن خلكان في ترجمته، بعد أن ذكر نسبه وما يتعلق به: وأما سيرته، فلقد كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل في ذلك ما فعله. لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة؛ كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج في عدة مواضع من البلد. قال: وكان إذا نزل من الركوب، يكون قد اجتمع عند الدار جمع كثير، فيدخلهم إليه، ويدفع لكل واحد كسوة تناسب الفصل، ومعها قدر من النقود. ولذلك بنى عددا من الملاجئ للزمنى والعميان، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، ويعودهم بنفسه في كل يوم إثنين وخميس، ويتفقدهم ويسألهم عن أحوالهم واحدا فواحدا، وهو يباسطهم. كما بنى دارا للأرامل والأيتام والملاقيط، ورتب لهم جماعة من المراضع. وكل دار لهذه الأنواع على حدة، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، مع تفقد أحوالهم بنفسه في كل حين.

كما بنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين الشافعية والحنفية، ويأتيها كل وقت.

وكان يُسيّر في كل سنة أمناء إلى الساحل، ومعهم مال لفك الأسرى من أيدي الكفار. كما كان يقيم في كل سنة سبيلا للحج ومعه ما تدعو إليه حاجة المسافر،[ومبالغ] وافرة من المال لتنفق بالحرمين على أهل الحاجة. قال ابن خلكان: وله بمكة آثار جميلة، وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف.هـ باختصار من "الوفيات".[436/1].

[وصف احتفال ملك إربل بالمولد النبوي الشريف]

ثم قال: وأما احتفاله بمولد النبي، صلى الله عليه وسلم، (قلت: وهو بيت القصيد، الذي دعانا إلى ذكر ترجمة صاحب هذا المقصد الحميد)، قال ابن خلكان: فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفا منه؛ وهو أن أهل البلاد، كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل، مثل بغداد والموصل، والجزيرة وسنجار، ونصيبين وبلاد العجم، وتلك النواحي، خلق كثير من الفقهاء والصوفية، والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المُحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب، كل قبة أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر، منها قبة له، والباقي للأمراء وأعيان دولته، لكل واحد قبة. فإذا كان أول صفر، زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة، وقعد في كل قبة جوق من[أرباب]الأغاني، وجوق من أرباب الخيال، ومن أصحاب الملاهي. قال:

وتبطل معايش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج. فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف على كل قبة قبة، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب، ويبيت في الخانقاه، ويعمل السماع فيها. قال: هكذا يفعل كل يوم إلى ليلة المولد. وكان يعمله سنة في ثامن الشهر، وسنة في ثاني عشره، لأجل الاختلاف الذي فيه.

فإذا كان قبل المولد بيومين، أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئا كثيرا، وأصحبها بالطبول والأغاني إلى الميدان، ونحرت وطبخت في مختلف الألوان.

فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات، بعد أن يصلي المغرب في القلعة. ثم ينزل وبين يديه من الشموع شيء كثير، وفي جملتها شمعتان، أوأربع، تحمل كل واحدة منها على بغل حتى ينتهي إلى الخانقاه.

فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل من القلة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية خلعا كثيرة، ثم ينزل إلى الخانقاه، ويجتمع الأعيان والرؤساء وعامة الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس والكرسي، وشبابيك أخر للبرج أيضا إلى الميدان الواسع لعرض الجند، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند، وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يتم العرض.

ثم يبسط للناس بساطا عاما للطعام لأكل الصعاليك، ثم بساطا ثانيا في الخانقاه للمجتمعين هنالك. وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ، يستدعي كل واحد من الأعيان والرؤساء، والوافدين من الفقهاء والوعاظ، والقراء والشعراء، ويخلع على كل واحد منهم خلعة، ويعود إلى مكانه، ثم ينفض الجمع. وهكذا يفعل كل سنة.هـ ملخصًا ممّا لخصه صاحب"الوفيات"، وسياقه أنه لخصه من "تاريخ" شيخه عز الدين ابن الأثير في "تاريخه الصغير". [/436].

أما كاتبه، عفا الله عنه، فإنه اقتصر في التلخيص على المهم من عيون المسائل، بحذف وتغيير في بعض العبارات.

[الحافظ ابن دحية واتصاله بمظفرالدين، وتأليفه في المولد الشريف]

وممن اتصل بمظفر الدِّين هذا من الأندلس، حافظها العلامة البلنسي ابن دحية الشهير، في رحلته التي اخترق فيها أقطار الشرق والغرب لأجل طلب الحديث. و[لما]سمع باهتمام هذا الملك بشأن مولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واعتنائه بأمر مولده، وإقامة الاحتفالات الرائعة حبا في صاحبه، وإجلالا لذلك اليوم؛ دخل إلى هذه المدينة، وإن لم تكن مرمى لمقصده، إذ ليس إربل من المدن الشهيرة بعلوم الحديث ولا بغيرها من العلوم، إذ كانت أولا في عداد الحصون والقرى، كما أسلفناه عن"معجم" ياقوت.

وقد ذكر صاحب "نفح الطيب" ابن دحية من الراحلين إلى الشرق في طلب الحديث، وقال إنه روى بالمغرب ومصر والشام والعراق، وخراسان وعراق العجم، وكل ذلك في طلب الحديث. ثم قال:

وحصل الكتب والأصول، وحدث وأفاد. وكان من أعيان العلماء، ومشاهيرالفضلاء، متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به. ثم قال: وصنف كتبا كثيرة، مفيدة جدا، منها كتاب: "التنوير، في مولد السراج المنير"، صنفه عند قدومه إلى إرْبل سنة أربع وستمائة، وهو متوجه إلى خراسان، لما رأى ملك إربل مظفر الدين كُوكُبري معتنيا بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول كل عام، مهتما به غاية الاهتمام، وكمله وقرأه عليه بنفسه، وختمه بقصيدة طويلة، فأجازه بألف دينار.هـ [371/1].

وتوفي ابن دحية سنة 633 بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم. وكان ظاهري المذهب، كما قاله المقري.

وقد ترجم ابن دحية صاحب "الوفيات"، ترجمة وافية، ووصف رحلته الغربية والشرقية، وفي ذلك يقول: وقدم مدينة إربل في سنة 604، وهو متوجه إلى خراسان؛ فرأى صاحبها الملك المعظم، مظفر الدين بن زين الدين، رحمه الله تعالى، مولعا بعمل مولد النبي، صلى الله عليه وسلم، عظيم الاحتفال به، كما هو مذكور في ترجمته، في حرف الكاف من هذا الكتاب، فعمل له كتابا سماه:"التنوير، في مولد السراج المنير"، وقرأه عليه بنفسه، وسمعناه على الملك المعظم، في ستة مجالس في جمادى الآخرة، سنة 626. وكان الحافظ أبو الخطاب المذكور قد ختم هذا الكتاب بقصيدة طويلة. قال: ولما عمل هذا الكتاب، دفع له الملك المعظم المذكور ألف دينار.هـ [381/1].

هذا، وإنما أطلت في ترجمة هذا الملك المظفر، لما امتاز به من سبقيته لهذا العمل المبرورالذي يذكر فيشكر. ثم يبقى النظر في هذه السبقية هل هي مطلقا، أو إنما هي أسبقية بالنسبة إلى الملوك، وأنه إنما امتاز بأنه أول ملك اعتنى بهذا المولد الشريف، وأقام هذا الاحتفال المؤذن بالتعظيم والإجلال في مجلسه الموقر وحضرة حكومته، واستدعاء أعيان دولته وفقهاء الأمصار وعلمائها، وفقراء الزوايا وصلحائها، ونصب الموائد للخواص وإنزالهم من المنازل في عليائها، وتعميم العطايا المختلفة للقادمين من قريب الأمصار وأنحائها، لأنهم يقولون: أول من عمل المولد الشريف واحتفل به هُو ملك إرْبل.

فمن المحتمل أن يكون غير الملوك، من أرباب الطرق والزوايا وغيرهم، كانوا يعملون هذه الليلة بما يليق بها، من إظهار الفرح والسرور في زواياهم وفي دورهم.

ولكنني بعد البحث لم أجد أحدًا تعرض لهذا؛ وذلك أن أهل"السيَر" وأصحاب "الشمائل"، الذين تكلموا على هذا المولد الشريف، اتفقت كلمتهم على أن الاحتفال بهذا

المولد لم يقع في القرون الثلاثة الأول، كما سبق، وإنما أحدث بعد ذلك. ثم قالوا: إن أول من أحدثه من الملوك، هو صاحب إربل. وصاحب إربل كان حيًا في أوائل القرن السابع، لأنه توفي سنة ثلاثين وستمائة؛ فبيْن إحداثه هذا الاحتفال، وبين القرن الثالث، ثلاثة قرون وزيادة! فهل هذه القرون كانت خالية من إقامة المولد الشريف، جمعًا وأفرادًا؟ أو كانت تعمل في زوايا خاصة ودور كذلك، كما استمر عليه الحال إلى عصرنا هذا، كما سيأتي، وأن السلطة كانت تقيم هذه الحفلة إقامة خاصة بها، ويستدعى لها الخصوص؟.

أما أهل الزوايا من الفقراء وأهل التصوف، فإنهم يقيمونها في زواياهم، وعلى طريقتهم من الذكر والتواجد، كما أشار إليه الإمام الحفار في فتواه.

نعم؛ في كلام الحافظ السخاوي ما يفيد ما قلنا، وأن الأسبقية [التي] كانت لمظفر الدين، إنما هي بالنسبة للملوك. ولفظه من نقل صاحب"إنسان العيون"، قال السخاوي: لم يفعله أحد من السلف في القرون الثلاثة، وإنما حدث بعد، ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار، والمدن الكبار، يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.هـ [91/1].

فإذا تأملت هذه العبارة، يرشدك إلى أن المولد أحدث بعد القرن الثالث، واستمر الناس على عمله شرقا وغربا، ولكن دون مشاركة السلطة. وهذا هو الأقرب، والله أعلم. هذا ما يتعلق بالإحداث العام.

[الرئيس العزفي السبتي أول من أحدث الاحتفال بالمولد النبوي بالمغرب]

أما الخاص ببعض الأقطار، وترسيم أهل السلطنة له؛ ففي القطر المغربي، أول من سن هذه السنة الحسنة، والبدعة المستحسنة؛ الرئيس أبو العباس العَزفي السبتي، لأن بني العزفي كانت لهم بمدينة سَبْتة رئاسة كبرى، وسيادة عليا، امتازوا فيها بتقدمهم فيها في الدين والدنيا. وقد لمح إلى ذلك صاحب "أزهار الرياض"، فقال، عطفا على المجرور: وبني العزفي المشاهير، الذين برزُوا في ميدان السبق على الخاصة والجماهير، وحازوا رياسة الدين والدنيا، وفازوا بالمكانة السامية والمرتبة العليا.هـ [ص 45].

وحلى ابن الخطيب الفقيه أبا القاسم منهم، السابق ذكره قريبا، بما لفظه: فرع تأود من الرياسة في دوْحِه، وتردد بين غدوه في المجد وروْحِه، فنشأ والرياسة العزفية [تظله] وتنقله، والدهر ييسر أمله ويبشره، حتى اتسقت أسباب سعده، وانتهت إليه رياسة سلفه

من بعده، فألقت إليه رحالها وحطت، ومتعته بعزها وما شطت. هـ. ثم وصف كرور الدهر عليه، إلخ.

وأبو العباس العزفي منهم، هو أول من سن عمل المولد النبوي بالمغرب، واتبعه الناس على ذلك. ولأبي العباس هذا، على ما يفيده العلامة السيتاني؛ كتاب في المولد الكريم، نظم مضمنه العلامة الأديب الفرضي، أبو إسحاق التلمساني، أحد علماء سبتة، المقبور فيها، وهو ناظم"التلمسانية"، الشهيرة في الفرائض. وفي ذلك يقول العلامة السيتاني: ونظم، أي العلامة التلمساني، قصيدة عينية في المولد الكريم، نحو مائتي بيت. قلت، أي قال السيتاني : هي مائة وخمسة وثمانون بيتا، أودعها مضمن كتاب "المولد الكريم"، للإمام أبي العباس، أحمد بن محمد بن أحمد العزفي، الذي حذر فيه مما يفعله الناس من تعظيم المهرجان وليلة الحجُوز، وحض فيه على التعريف بالمولد الكريم، وهو مولده، صلى الله عليه وسلم، وأول القصيدة:

حذار من محدثات الأمر والبدع حذار منها وسبيل الرشد فاتبع
واسلك من الملة المثلى على سننٍ واربأ بطبعك أن يختل بالطبع
ما للهداة وأعياد العِداة أما يريع عن وعيها روع امرئ ورع
وإنّ أفضل ميلاد نعظمه شرعًا و أفضل يوم في الزمان رُع
ميلاد من قد هُدينا للرشاد به ومن به نرتجي أمنا لدى الجزع
ميلاد أكرم خلق الله كلهم طرا، وأعظم مولود ومرتضع
ميلاد من قد شفى من كان فوق شفا/ بناجع في الشكايا حسب منتجع(*)
ميلاد من لم يزل تلقى الأصول به نورا لأسمى فروع في العلا فرع
ميلاد من وجبت سبقا نبوته وآدم طينة في قبضة الصنع
محمد، صلوات الله دائمة عليه في كل مصطاف ومرتفع

هذا ما وجدته من الأبيات في نسخة خطية من أول "شرح" العلامة السيتاني، على نظم "التلمسانية"، وهي رديئة الخط، مشتملة على تحريف وتصحيف.

وهذا "الشرح" يُعد من النفائس المفقودة، كما كنا نسمعه من شيوخنا بفاس زمن القراءة، والله أعلم.

(*) كذا في نسختنا، ولم أفهمه. مؤلفه.

وانظر هذا الإحداث في عمل المولد الشريف، هل كان من العزفي من اجتهاده، والدعاء إليه من تلقاء نفسه، أو كان مقلدا فيه لمُظفر الدّين، أو سمع ما كان لهذا الملك من الاعتناء به؟.

أما التاريخ، فإنه بينهما متقارب، إذ يجمعهما القرن السابع، بدليل أن التلمساني الذي جاء بعد العزفي، كان يعيش أواخر هذا القرن، لأنه توفي عام 690، وبالضرورة أن العزفي كان قبله، لأنه نظم مضمن ما ألفه في المولد الشريف. وعلى هذا، فالعزفي معاصر لمظفر الدين. أما تاريخ حياة العزفي، فإني إلى الآن لم أقف على تحقيقه، وإنما وقفت على ما يفيد ذلك "تاريخ الاستقصا"؛ ففيه:

"وفي سنة إحدى وسبعين وستمائة، أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له. وصيّره عيدا من الأعياد في جميع بلاده. وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وكان الأمر قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف، في آخر صفر من السنة. ثم قال:

واعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف إلى هذه المنقبة المولدية؛ بنو العزفي، أصحاب سبتة؛ فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب، والله تعالى أعلم. [43/2].

فتبيّن أن إحداث عمل المولد بالمغرب، إن لم يكن سابقا على عمل المظفر، فهو في عصره أو يقاربه، كما يفيده التاريخ.

ثم إن العزفي وضع في هذا المولد الشريف تأليفا خاصا بنفسه؛ إذ كان أحد العلماء بسبتة. وأما مظفر الدين، فإن الحافظ ابن دحية الأندلسي، هو الذي انتدب لذلك، فألف لهذا الملك المؤلّف المسمى بـ:"التنوير، في مولد السراج المنير"، كما سبق.

[إهتمام الناس بأعياد الأجانب
كان هو الدافع إلى إحداث الاحتفال بعيد المولد]

ثم إن العزفي كان الباعث له على هذا الإحداث والتأليف في ذلك، هو ما كان يرى من ولوع أهل عصره بتعظيم مواسم الكفار وأعيادهم، كما يفيده "نظم" التلمساني، وأنه وضعه للترهيب من اتباع أهل الكفر والاقتداء بهم، والتشبه بهم.

وقد شدّد صاحب"المدخل" في هذا الموضوع، وأنكر على من يفعل ذلك كل الإنكار، واستشهد على حرمة ذلك بالكتاب والسنة وفتاوي الأئمة؛ كمالك وغيره.

ثم بعد أن أبان وجه ما نقلناه عنه من كون عمل المولد من البدع والمحدثات التي لم يات بها الشرع، وبيّن ما يفعله الناس في هذا المولد، من الأمور الخارجة عن مناهج الشريعة، وما يخرجون به عن طريق السلف في احترام الأيام الفاضلة، بعمارتها بما ينافي ما هو المطلوب والمرغب فيه من صاحب المولد الشريف، عليه أفضل الصلاة والسلام، أفصح بمخالفة ما يفهم من أول كلامه من إنكار إظهار الفرح والسرور، بالسراج المنير، الذي أشرق في أفضل الشهور. بل أورد سؤالا في وجه الحكمة في كونه، عليه السلام، ولد في شهر ربيع، ويوم الإثنين - على الصحيح والمشهور عند أكثر العلماء - ولم يكن في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفيه ليلة القدر، واختص بفضائل عديدة؟ ولا في الأشهر الحرم، التي جعل الله لها الحرمة يوم خلق السموات والأرض؟ ولا في ليلة النصف من شعبان؟ ولا في يوم الجمعة، ولا في ليلتها؟. وذكر في ذلك أجوبة أربعة:

منها: فمولده، صلى الله عليه وسلم، في شهر ربيع؛ فيه من الإشارات ما تقدم ذكر بعضه. وذلك إشارة ظاهرة من المولى، سبحانه وتعالى، إلى التنويه بعظيم قدر هذا النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، وأنه رحمة للعالمين، وبشرى للمؤمنين، وحماية لهم من المهالك والمخاوف، وحماية للكافرين بتأخير العذاب عنهم في الدنيا، لأجله صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّ بَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)، وكيف لا يكون ذلك والخير كله في الاتباع، وإدرار نعم المولى، سبحانه وتعالى. إنما يكثر عند الامتثال لأمره، واتباع سنن أنبيائه، صلوات الله عليهم وسلامه، ومخالفة العدو وجنوده.[المدخل: 27/2].

ثم أشار إلى الوجه الثالث [وذكر] فصل الربيع، الذي هو أعدل الفصول وأحسنها،[وأن] حال هذا الفصل أشبه بحال الشريعة السمحة التي جاء بها، وأشار لها القرآن بقوله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والانْجِيلِ يَامُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمُ إِصْرَهُمْ والاغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ). [الآية، الأعراف:157].

وقال في الوجه الرابع: انه قد شاء الحكيم، سبحانه وتعالى، أنه عليه الصلاة والسلام، تتشرف به الأزمنة والأماكن. وأشار، رحمه الله، إلى فضل يوم ولادته وشهره، وفضل المدينة التي كانت مهاجره ومحل إقامته، وفيها نشر دينه، ومنها سطع نوره الذي عم البرية، وفيها التربة التي ضمخت أعظمه التي لا طيب يعدلها، ولا مكان يشبهها، ولا مقام يطاولها في شرفها؛ وهي المدينة المنورة التي طابت به، وارتفع قدرها بجلاله وجماله،

وبُعث لهذه الأمة لتتميم محاسن أخلاقها، بلطافة أوصافه، ونور شمائله وتمام خُلقه، وحسن خلقه وكماله.

ثم أطال صاحب"المدخل" في هذا الموضوع، وأن الأزمنة والأمكنة به شرفت، وفضائلها من أخباره، التي هي وحي من الباري، إليه أخذت، وبالفرح والسرور تلقيت، حتى قال في هذا الوجه: فعلم ذلك كله حصل لنا بإخباره، عليه الصلاة والسلام، وفضيلة الأوقات تلقيناها منه وعنه، عليه الصلاة والسلام، وشهر ربيع ويوم الإثنين وليلته. علمنا ذلك كله بظهوره، عليه الصلاة والسلام، فيها. فهو، صلى الله عليه وسلم، قطب دائرة الكون، والذي خُلق الوجود لأجله، والذي فضلت الأوقات ببركته. [33/2].

ثم انطلق في هذا الموضوع، وأشار إلى أن عمر بن الخطاب ذهب إلى أن المدينة أفضل من مكة. ثم أفاض في ذكر ما ورد في ذلك عن الصحابة وغيرهم، وما في ذلك من الأحاديث والأخبار، مما يعلم ذلك بمراجعته.

قلت: وأنت خبير بأن مذهب مالك أن المدينة أفضل، ثم مكة.

ثم جاء بجملة طويلة في شأن ما نالت هذه الأمة بهذا الرسول الذي جاء من أنفسهم، عزيز عليه ما يعنتهم ويعنيهم، وأنه حريص على ما يسعدهم، وأنه بهم رءوف رحيم.

ثم أشارصاحب "المدخل" إلى أن رحمته، عليه السلام، ورأفته بهذه الأمة وفضيلته فيها، تعم الدارين، حيث قال: "حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم". قال: فجعل، عليه الصلاة والسلام، حياته ومماته كليهما سيّين في الفضيلة، في تعدي نفعه وبركته، عليه الصلاة والسلام، لأمته؛ أولها ووسطها وآخرها، فنص، عليه الصلاة والسلام، على عموم نفعه في الحالتين معا. كيف لا، وهو سيد الأولين والآخرين، وسيد من وطئ الحصا، وكان من ربه في القرب والتداني، مع التنزيه والتقديس، قاب قوسين أو أدنى. [43/2].

ثم أفاض في هذا المعنى، وجاء بكلام العالم الصالح، شيخه المرجاني، في شأن تفضيل المكان به، وهي طيبة الطيبة، التي فاقت بحلوله بها سائر المدن والبقاع، بلا خلاف عند المالكية ولا نزاع. وقد تقدم أنه مذهب سيدنا عمر بن الخطاب. واستدل لفضل المدينة بكلام الشيخ المرجاني وغيره بأدلة، بما يعلم ذلك بالوقوف على ذلك الكلام الرائق المساق، العذب المورد والحلو المذاق.

ثم قال: ولقد أحسن الشيخ الإمام ابن السماط،[إلخ]. وذكر عنه أبياتا في شأن المولد النبوي وتفضيله.

وهو يعرفك مذهب صاحب "المدخل" المذكور، وأنه لم ينكر عمل المولد والاحتفال به، وإنما ينكر أعمال الجهال فيه من الأمور الخارجة عن السنة، والمنافية لما يرضاه الله ورسوله، وتتباعد عنها قادة الأمة ومجتهدو الأئمة، فقال:

أعلمت أنك يا ربيع الأول ... تاج على هام الزمان مكلل
مستعذب الإلمام مرتقب اللقا ... كل الفضائل حين تقبل تقبل
ما عدت إلا كُنت عيدًا ثالثا ... بل أنت أحلى في العيون وأجمل
شرفا بمولد المصطفى لما بَدا ... أخفى الأهلة وجهه المتهلل
وحويت من أصبحت ظرف زمانه ... ظرفا به في برد حسنك ترفل
وملكت أنفسها بلطف شمائل ... بنسيمها نفس العليل تعلل
وإذا حدا الحادي بمنزلة الحمى ... فالقصد سكان الحمى لا المنزل
فضل الشهور علا ففاخرها فإن ... فخرت بأطولها فأنت الأطول
واستثن منها ليلة القدر التي ... أثناءها نزل الكتاب المنزل
وأصغ لقول الله فيها إنها ... من ألف شهر في الإبانة أفضل
واستكمل البشرى فإنك لم تزل ... لك في القلوب مكانة لا تجهل
لم لا وعشرك واثنتاك أريننا ... قمرًا به شمس الضحى لا تعدل
ومن العجائب أن بدرًا يستوي ... لتمام عشر واثنتين ويكمل
ويفوق أقمار السماء لأنها ... للنقص من بعد الزيادة تنقل
وكمال هذا البدر لا يعزى إلى ... نقص ولا عن حاله يتحول
بل نوره يزداد ضعفا كلما ... طفق المحاق سنا البدور يبدل

فهذه القصيدة الواصفة لأحواله، عليه السلام، الذي تشرف به هذا الشهر وهذا اليوم، حتى فاق شهر ربيع سائر الشهور، ويوم مولده سائر الأيام، حتى عاد عيدًا من أعياد الإسلام، ما عدَا ليلة القدر، على حسب ما يأتي من مقالات أهل العلم في ذلك؛ يُحقق لنا أن إمام العلماء السنيين المحاربين لمحدثات البدعيين، رمَى هو والقرَافي، في تعظيم المولد العظيم، عن قوس واحدة، وأن إنكارهم إنما هو للبدع التي ارتكبوها في هذه الليلة، مع تخطئة أهل عصرهم في احتفالهم بأعياد الكفار، وإظهار الإعظام لأهلها والإكبار، والتحبب إليهم بالهدايا والتحف، كما بين ذلك صاحب"المدخل" ووصف، وتعجب القرافي، حسبما أشار إلى ذلك التلمساني؛ ممّن[يُعدّ]من أهل الهداية، بهذه الصفة الرذيلة اتّصف.

وكلاهما يقبح أفعال هؤلاء الذين يشاركون الكفار في أعيادهم بالهدايا ونحوها، وإظهار الفرح والسرور بالمآكل الطيبة والألبسة الحسنة في أهله وولده. وقد سمعتَ مضمن كلام صاحب سبتة، الإمام العَزفي، وما قاله في تأليفه في المولد الشريف، الذي قدمنا الإشارة إليه، ومضمنه في نظم العلامة التلمساني. ومن ذلك قوله متعجبا:

ما للهداة وأعياد العداة أمـــا يريع عن وعيها رُوع امرئ ورع

وإن أفضــل ميــلاد تعظمـــــه شرعا وأفضل يوم في الزمان رُعـي

[ملخص معنى قصيدة العلامة التلمساني]

يقول العلامة التلمساني: عجبًا لأهل الهداية من المسلمين، كيف يتركون مواسمهم الواجب عليهم تعظيمها والاحتفال بها، ويحتفلون بأعياد أعدائهم الكفار؟!.

ثم أتى أيضا بالاستفهام الإنكاري، مخاطبا لعامة أهل الإسلام، وموبخا لهم، على عدم وجود مؤمن مخلص يرد الناس عن هذا الضلال، ويبين لهم أن أعمالهم في ذلك تؤذن بمرض في إيمانهم، باتخاذهم النوروز والمهرجان، وهما عيدان من أعياد الفرس. فالأول عيد رأس السنة عندهم، والثاني عيد انتصار أفريدون، أحد ملوكهم، ويتركون التوجه بقلبهم وقالبهم إلى أعياد الإسلام؛ ومن أجَلّها وأفضلها وأعودها عليهم بالخيرات في الدين والدنيا، وإن أفضل ميلاد تعظمه إلخ.

أما صاحب "المدخل"، فإنْ أنكر هذا كل الإنكار، وأن فاعل هذا ممن حادّ الله ورسوله وآثر موادّة الكفار؛ فقال:

"فهذا بعض الكلام على المواسم التي ينسبونها إلى الشرع وليست منه، وبقي الكلام على المواسم التي اعتادها أكثرهم، وهم يعلمون أنها مواسم مختصة بأهل الكتاب، وشاركوهم في تعظيمها! ياليت ذلك، لو كان في العامة خصوصا. ولكنك ترى بعض من ينتسب إلى العلم يفعل ذلك في بيته، ويعينهم عليه ويعجبه منهم". ثم قال:

"بل زاد بعضهم أنهم يهادُون بعض أهل الكتاب في مواسمهم" قال: "وفي(العُتبية)، قال أشهب: قيل لمالك: أترى بأسًا أن يهدي الرجل لجاره النصراني، مكافأة له على هدية أهداها إليه؟ قال: ما يعجبني ذلك. قال الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ، تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)" إلخ. [46/2].

قلت: ومسألة قبول هدية المشرك، ومكافأته عليها، وابتداؤه بالهدية؛ قد تكلم عليها أهل السيَر في هدية هرقل، وهدية المقوقس، للنبي، صلى الله عليه وسلم. قال في "الروض الأنف" في هدية هرقل، إن النبي، صلى الله عليه وسلم، قبلها وقسمها بين المسلمين، وكان لا يقبل هدية مشرك محارب. وإنما قبل هذه لأنها فيء للمسلمين، ولذلك قسمها عليهم، ولو أتته في بيته كانت له خالصة، كما كانت هدية المقوقس، وكانت خالصة له. وقبلها من المقوقس، لأنه لم يكن محاربا للإسلام، بل كان قد أظهر الميل إلى الدخول في الدين. وقد ردّ هدية أبي براء، ملاعب الأسنة، وكان أهدى إليه فرسا. إلخ. [320/2].

قلت: وما أردتُ إثباته هنا تذكرتُ أني أثبته سابقا في المجلد الرابع، في مبحث تجديد المسجد النبوي، ومبالغة الوليد في زخرفته، وما فيه من استعانته بملك الروم على ذلك؛ فلا حاجة لإعادته هنا.

وبالجملة؛ فالعلامة ابن الحاج، يُشدِّد غاية التشديد في تقليد الكفار في أعيادهم، ومهاداتهم فيها، والاحتفال فيها، لأنه يؤذن بضعف في الدين، وميل إلى مودة أعداء الله وخاتم النبيئين؛ فالحذر الحذر.

[ترسيم الاحتفال ببعض أعياد الفرس أيام الدولة الأموية]

ومن السيئات التي ألمّت بهذه الأمة في أيام دولة بني أمية، وهي من البليات المؤلمات؛ أن رسَمت الحكومة بعض أعياد الفرس، وجعلتها من جملة أعيادها التي تحتفل بها، وترتفع فيها الهدايا إلى أمرائها وأكابر أفرادها. وكان أول من أحدث ذلك الحَجّاج، فكانت الهدايا ترفع إليهم في النّيروز والمهرجان. واستمرت هذه السنّة إلى أن أسندت الخلافة للإمام العادل، خامس الخلفاء، على ما قاله الشافعي، وهو سيدنا عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه؛ فأبطل هذا العمل السيِّئ، وأمر بالتخلي عنه.

ولكن، لما جاءت الدولة العباسية، جدّدته وشدّت أزْرَه، وتحمّلت على ظهرها وِزْرَه، وأحيت تلك السَّيِّئة التي أماتها أعدل بني مروان، وأطلقت للشعراء والأدباء العنان، وفتحت باب الهدايا في هذين العيدين الفارسيين المجوسيين واسع الميدان، ولم تخش في هذا الإحداث الله الملك الديَّان، ومخالفة ما سنّه الرسول سيد ولد عدنان.

وقد تعرض صاحب "صبح الأعشى" لذكر هذين العيدين وغيرهما من أعياد الفرس، وفسّر أسبابها ومنشأها عندهم؛ وبالأخص النيروز والمهرجان، وذكر أن أول من رسم

الهدايا في هذين العيدين في الإسلام؛ الحجاج بن يوسف الثقفي. ثم قال: ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه. واستمر المنع فيه إلى أن فتح باب الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب؛ فإنه أهدى فيه للمأمون سفط ذهب، فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه، وكتب معه: "هذا يوم جرت العادة بإتحاف العبيد السادة، وقد قلتُ":

على العبد حق وهو لا شك فاعله وإن عظم المولى وجلت فواضله
ألم ترنا نهدي إلى الله ماله وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يُهدى للجليل بقدره لقصر عنه البحر يوما وساحله
ولكننا نُهدي إلى من نُجله وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله

قال: "وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيرُوز: هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك، فتعلقت كل طائفة من البرّ بحسب القدرة والهمة. ولم أجد فيما أملك ما يفي بحقك، ووجدت تقريظك أبلغ في أداء ما يجب لك، ومن لم يؤت في هديته إلا من جهة قدرته، فلا طعن عليه". هـ [533/1].

ثم تكلم على المهرجان ومعناه، وأصل التسمية به، وذكر أنه وسط الخريف، وفي ذلك يقول الشاعر:

أحِب المهرجان لأن فيه سرُورًا للملوك ذوي السنَّاء
و بابا للمصير إلى أوان تفتح فيه أبواب السماء

قلت: ومراده بفتح أبواب السماء، أي تمطر، لأنه أوانه.

وقال في باب التهاني بالأعياد، في التهنئة بالنيروز، قال: وهو من أجل أعياد الفرس. قال: وكان للكتاب به اهتمام في أوائل الدولة العباسية بالعراق، جريا على ما كان عليه الفرس من قديم الزمان.

ثم ذكر ألفاظ التهاني التي كان يبعث بها الكتاب، ويتقربون بها لنيل ما يرمون إليه من الآراب، غير مراعين في ذلك ما أوجبه عليهم، من الآداب مع الشريعة رب الأرباب.

وذكر أيضا ألفاظهم في التهنئة بالمهرجان، قائلا: وكان للكُتَّاب من الاحتفال بالتهنئة به، في أوائل الدولة العباسية، ما لهم بالنَّيْرُوز.[صبح الأعشى:47/9].

قلت: وللأديب الشاعر البيغاء، في التهنئة بهذا العيد، كلام موجز ظريف، يجري فيه الغلو في مدحه، وأشار إشارة لطيفة إلى أنه محض سياسة يواسي بها أهل القطر المحتلين فيما ابتلوا به، إذ قال:

"هذا اليوم من غرر الدهور المشهورة، وفضائل الأزمنة المذكورة: معظم في العهد الكسرويّ، مستظرف في العصر العربي، باعث على عمارة المودات، مخصوص بالانبساط في الملاطفات. ولستُ أستزيده، أيده الله، من بر يوليه، ولا تطول إلي يُسديه؛ غير إدخالي في جملة من بسطته الأنسة، وثقفته المحبة، وتقرَّبتُ منه بوكيد الخدمة، في قبول ما إن شرف بقبوله، كان كثرا مع قلة، جليلا مع نزارته؛ فإن رأى أن يقويَ منه ثقتي، ويقابل بقبول ما أنفذته رغبتي، فعل، إن شاء الله".هـ [صبح الأعشى:50/7].

قلت: وهي كتابة كاتب بليغ، أدى واجب التهنئة بسياسة عن منهج مراعاة قواعد الديانة لا تزيغ. وهذا الذي ذكرناه من اعتناء الملوك الأول بمشاركتهم في أعياد أهل الكفر، وكان على الاعتناء في عوائدهم فيها؛ سلّ [عليهم] كل من العَزفي وصاحب"المدخل"، سيوف نضالهما، وتضليلهم في أفعالهم، لأن الناس بأفعالهم تقتدي، والأمة على دين ملوكها وبها تدين، وبضلالهم ترتدي، وبهدايتهم تهتدي.

لكن يؤخذ من كلام صاحب"الصبح" أن الاعتناء بهذا الشأن كان في أوائل الدولة العباسية، ثم وقع عنه الانصراف، إذ تكسرت بعد ذلك وحدتها، وتفرقت في الأطراف، وصار كل طرف يقلد ما في ذلك الطرف من الأعراف، ويتصف بما اتصف به الغالب من الأوصاف. والمغلوب دائما في قبضة يد أرباب النفوذ وأصحاب المناصب، والحكم على المغلوب في العادة يُجريه الغالب، في الملابس والمآكل والمشارب. والله جل وعلا غالب على أمره، وإليه يرجع الأمر في سره وجهره.

ومن العجائب أيضا أن الفقهاء قرّرُوا هذه الأعياد في بعض أحكامهم؛ ففي "شرح المواق، لمختصر الشيخ خليل"، ناقلا، وسياق النقل عن المتيطي، في باب المزارعة، قال:

"وإن شرط رب الأرض هدايا في العيدين، والنيرُوز والمهرجان، وساوى ذلك مع العمل كراء الأرض، فهو جائز".هـ [177/5].

قلت: ويمكن أن يجاب في هذا؛ بأن مقصد الفقهاء إنما هو التاريخ، لا عد ذلك عيدًا، كما يؤرخ بعام الفيل مثلا ونحوه. والله أعلم.

[مسألة الاقتداء بالغالب، وتقليد الأجانب]

ومسألة الاقتداء بالغالب، مسألة عمت في هذه الأعصار، وانتشر آثارها في عموم أقاليم الإسلام؛ إذ رفضوا أزياءهم، ونبذوا ما كان عليه أجدادهم وآباؤهم في عوائدهم من

مآكلهم ومشاربهم، وأعيادهم ومواسمهم، وجدهم وهزلهم، وقلدوا الأجنبي تقليد الأعمى، من غير نظر إلى ما يضرهم ولا ينفعهم.

هذا التقليد هو الذي أعمى هذه الأمة العربية الإسلامية وأصماها، وقضى على آدابها وأخلاقها؛ فكان ذلك حاجة في نفس العدو قضاها، وأدرك مُناه في تقويض هذه الديانة في أدنى هذه الكرة الأرضية وأقصاها. ولم يقنعه ذلك حتى وجه وجهته إلى اقتلاع لغتها، التي هي لغة كتابها وعمدة من عُمد ديانتها من أصلها. ولم يبق لديها حينئذ إلا سماع الأغنية الملهية المضلة، المغيرة للأخلاق الحسنة الدينية، بالأضاليل الخادعة المردية، وتحسينها للعامة والخاصة باختلاق الروايات الكاذبة التي تقودهم إلى الاغتباط بالفواحش الممقوتة عند الله، بل وعند ذوي العقول الزكية.

وفي هذا المعنى يقول إمام علوم الاجتماع، بلا مخالفة ولا نزاع، ابن خلدون، في "مقدمته"، وذكر أن أصل ذلك اعتقاد الكمال في الغالب، ويرى النقص في أمته المغلوبة. قال: وانظر إلى كل قطر من الأقطار، كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه [إذا] كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ أكبر، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة (إسبانيا)؛ فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء. والأمر لله. هـ [ص 130].

ثم من شاء الاعتبار، فلينظر إلى حال الأمم الإسلامية اليوم، وليعتبر، وليبك على ما فقدته أمتنا بسبب تغييرها قواعد دينها، بكاء الثكلى على عزيز ولدها، وليستن في ذلك ببقية أهلها من ذوي التأمل والاستبصار. ولكن:

قد أسمعت لو ناديت حيا ولكــن لا حيـاة لمــن تنادي

والله سبحانه هو المرشد إلى الرجوع إلى طريق الحق، وهو الهادي.

****

[الرجوع إلى موضوع "التقييد" الخاص بالمولد المبارك السعيد]

ثم الآن نرجع إلى ما هو المقصود من هذا "التقييد" الخاص بالمولد المبارك السعيد؛ فأقول:

قد قدمنا أن القرون الأولى، من عصر الصحابة والتابعين، لم يجعلوا ليوم المولد احتفالا خاصا، ولا عدوه من الأعياد، ولا زادوا فيه شيئا جديدا على المعتاد. وقد علمتَ من قال إن الزيادة فيه وإلحاقه بالأعياد الشرعية هو من المحدثات، التي لا يوجد لها عن أهل القرون الثلاثة ما يقع عليه الاستناد. وتقدمت في ذلك فتوى الإمام الحفار، التي نقلها صاحب"المعيار"، وتقدم ما يقابلها من فتوى إمام العباد، العارف بالله، سيدي محمد ابن عباد.

ثم وقع التعرض لأول من أحدث الاحتفال بهذا المولد العظيم الشأن، ممن كان له في المشرق إمارة وسلطان، وهو الملك الأنبل، مظفر الدين، صاحب إربل. وكان ذلك ـ فيما يظهر ـ أواخر القرن السادس، وأوائل القرن السابع الهجري. ثم غاب عنا الخبر عمّن حذا حذوه من ملوك الشرق، إذ العبارة في التاريخ جاءت مجملة، ولم يفصح لنا عمن فعله من ملوك الشرق بعده في هذا الأمر الجميل المبتدع؛ هل جعلوه قدوة في ذلك، وأنه سابق للخيرات بإذن الله، وهو الإمام المتبع؟ أم أهملوا عمله السابق، ولم يلتفتوا لفعله السابق؟ نعم؛ في عبارة الحافظ السخاوي، أحد تلاميذة الحافظ ابن حجر، ما يفيد أن إحداث هذا الملك عمل المولد، قد عمّ أقطار الإسلام، وتلقاه الكل بإعظام واحترام، ولفظه، على نقل صاحب "إنسان العيون":

قال السخاوي: لم يفعله ـ يعني المولد ـ أحد من السلف في القرون الثلاثة، وإنما حدث بعد. ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار، والمدن الكبار، يعملون المولد، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. هـ.[1 /91] فهذه العبارة تفيد عموم إقامة المولد بعد هذا الإحداث. والله أعلم.

[اقتداء ملوك المغرب
بما أحدثه صاحب سبتة، ووصف
احتفال سلطان تلمسان بالمولد]

أما في المغرب، فاقتداء ملوكه بأول من أحدثه فيه، وهو الرئيس العزفي السبتي، حسبما سبق، جاء[فيه]النص من أهل التاريخ واضح، ومحاذاتهم في المباهاة بهذه الليلة العظيمة يعلمه الغادي والرائح، وإقامتهم لهذا الحفل العظيم بإيوان حكومتهم، ومجالس مملكتهم، واستدعاؤهم لذلك الرؤساء والأعيان، وكبار الأئمة والعلماء من كافة القرى والبلدان. ويعرفك ذلك ما قاله الإمام المقري في وصف الحفلة التي كان يقيمها فيها من كان

إلى كل فضيلة ساحته تسمُو، سلطان تلمسان موسى أبُو حمو، إذ قال: وكان السلطان أبو حمو، موسى بن يوسف، الممدوح في هذه القصيدة ـ يعني قصيدة أبي زكرياء، يحيى بن خلدون التي أنشأها في حفلة من محافل المولد النبوي الكريم، حسبما يأتي الكلام عليها بعد. قال المقري: يحتفل ليلة مولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله يعتنون بذلك، ولا يقع منهم فيه إغفال. قال: وقد تقدم أن العَزفي، صاحب سبتة، هو الذي سَنَّ ذلك في بلاد المغرب، وأتى بزُلفى تُدنِيه إلى الله وتُقرِّب، واقتفى الناس سَنَنه، وتقلدوا مِنَنه، تعظيما للجناب الذي وجب له السموّ والعلوّ، على أن بعضهم قد خرج في ذلك إلى حدِّ الإسراف والغلو؛ و(كُلّ يَعْمَلُ عَلى شَاكِلَتِهِ)(ومن جملة احتفال السلطان أبي حموالمذكور، ما قاله صاحب"راح الأرواح"، أنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوي، على صاحبها الصلاة والسلام، بمشوره من تلمسان المحروسة، مَدْعاةً حفيلة، يحشر فيها الناس خاصة وعامة؛ فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة، وبُسُط موَشَّاة، ووسائد بالذهب مُغشَّاة، وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهلالات، ومباخر صُفر منصوبة كالقباب، يخالها البصر من تبر مذاب، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة؛ تشتهيها الأنفس، وتستلذها النواظر، ويخالط حسن ريّاها الأرواح ويخامر؛ رتّب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال، وقد علت الجميع أبّهة الوقار والإجلال. وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى، عليه الصلاة والسلام، ومكفّرات ترغّب في الإقلاع من الآثام؛ يخرجون فيها من فن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب؛ وبالقرب من السلطان، رضوان الله عليه، خزانة المنجانة، قد زخرفت كأنها حلة يمانية، لها أبواب مرتجة على عدد ساعات الليل الزمانية؛ فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة؛ فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة. هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادي حيّ على الفلاح. [أزهارالرياض:243].

ثم ساق المقري في "أزهاره" وصف هذه الليلة، التي كان يقيمها السلطان أبوحمو ليلة المولد الشريف، عن نظم"الدرر والعقيان"، وهو مقارب لوصف "راح الأرواح". وفي آخر كلامه يقول:

"وعلى هذا الأسلوب، تمضي ليلة مولد المصطفى، صلى الله عليه وسلم، في جميع أيام دولته. قال: وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أول ما يبتدئ المسمع في ذلك المحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العالي في تلك الليلة نظما".هـ [ص245].

قلت: ومن هذه القصائد، قصيدة أبي زكرياء يحيى بن خلدون، أخي صاحب "التاريخ"، وهو إذ ذاك كاتبُ الإنشاء بتلمسان أيام أبي حمُو، وهو في ذلك ناسج على منوال قصيدة أنشأها ابن الخطيب في مولدية، يمدح بها مخدومه أبا عبد الله المخلوع، التي مطلعها:

ما على القلب بَعدكم من جُناح   أن يُرَى طـائرًا بغير جناح

ومنها:

يا تُرى والنفوس أسْرى أماني   ما لها من وثاقها من سَـراح

هل يُباح الـوُرود بعد ذيـاد   أو يُبـاح اللقـاء بعد انتزاح

وإذا أعوز الجسومَ التـلاقـي   نـابَ عنـه تعـارفُ الأرواح

وذكر في "الأزهار" أنه لم يقف على قصيدة ابن الخطيب بتمامها.

أما قصيدة أبي زكرياء التي أنشأها في مولد سنة 778، ورفعها إلى السلطان أبي حمَو، فقد نقلها في "الأزهار" بتمامها، ومطلعها:

ما على الصَّب في الهوى من جُناح   أن يُرَى حِلْفَ عَبْرة وافتضاح

ثم أطال في النسيب على عادة بلغاء الشعراء، ثم تخرج لمديح المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وذكر مولده، تخرجا لطيفا يكاد [يذوب] لطفا، ويفوق رقة النسيم عرفا، فقال:

أي مسرًى حمِدتُ لم أخل مِنـه   بسوَى حسرةٍ وطـول افتضـاح

وَخسَاري يـوم القيـامة إنْ لـم   يغفـر اللهُ زَلّـتي واجْتـراحـي

لم أقـدِّم وسيـلـة فيـه إلا   حُبَّ خير الورَى الشفيع المـاحي

سيِّـدِ العالمـيـن دنيـا وأخـرى   أشرفِ الخلق في العُلا والسَّمـاح

سيـِّدِ الكـون من سَمـاءٍ وأرض   سـرّه بيـن غـاية وافتتـاح

زهرةِ الغيب مَظهَرالوَحْي معنىَ النـور كنـه المِشكـاة والمِصبَـاح

آيـة المكـرُمـات قطـب المَعـالي   مصطفى الله من قُريش البطـاح

أوّل الأنبيــاء تخصيـص زُلفـى آخـر المُرسليـــن بـعْثَ نجـاح
صفوةِ الخلـق أرفـع الرسل قــدْرًا وسراج الهدى وشمس الفــلاح
مـن لمـيــلاده بمكــة ضـــاءت من قُرَى قيصـر جميـع الضواحي
وخَبتْ نـــار فــارس وتـداعتْ مِن مَشيد الإيــوان كلّ النواحـي
من رقِي في السماء سبعا طباقــا ورأى آيَ ربّــهِ في اتضــــاح

ثم صار يُعدِّد أبو زكرياء في هذه القصيدة البديعة، ما خص به، صلى الله عليه وسلم، من المعالي والفضائل، وما أكرمه الله به من الإرهاصات المبشرة بطلوع بدره الساطع، وما أيده به من المعجزات عند إشراق الأرض بنوره، مما عجز عن معارضته الأواخر والأوائل.

ثم اعترف هذا الشاعر المفلق، بعد ما عدد من مزايا فضائله، بالعجز عن الإحاطة بذكر محاسن أوصافه وشمائله، والوقوف لسفينة قلمه عن قطع مسافة بحر ما وهبه الله لهذا النبي الكريم من المعجزات الباهرات، ومحاسن الأخلاق العظيمة، والشمائل الكريمة، والوقوف عند ساحله، وأرشد رواة القريض ونبغاء الشعراء في محاولة الإحاطة بما له عليه من المفاخر والأمداح، إلى التصريح بقصورهم عن تعدادها وحصر أفرادها، وأن عليهم في ذلك إيقاف الأقلام، والتصريح بإلقاء السلام؛ إذ قال:

يا رواة القريض والشعر عجزًا ما عسى تُدركون بالأمـــداح
إنمـــا حسْبُنا الصـــلاةُ عليـه وهي للفـوز آيــةُ استفـتـاح

ثم خرج من هذا إلى مدح السلطان. ولكن أزاحه الغلو في التقرب إلى ذلك المكان، وألقى به لسحر البيان في هذا الميدان، فأكبه طغيان اللسان على وجهه في إساءة الأدب؛ إذ وصف مخدومه بما لا يمكن أن يوصف به إلا سيد ولد عدنان، إذ قال فيما مدح به مخدومه أبا حمّو:

أكمل العالمين خلقًا وخلقًـا أشرف النـاس في النّدى والكِفاح

وقد انتقد عليه العلامة المقري هذه المبالغة في هذا المخدوم، قائلا، بعد ما سرد هذه القصيدة، ما لفظه:

لا يخلو من قلة تحفظ، ومثل هذا في الحقيقة إنما يُطلق على رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم جاء بما يفيد الاعتذار عن أبي زكرياء بقوله: وإن كان المتكلم أراد أهل

عصره.هـ [ص242/239]؛ أي فيكون المعنى: أكمل العالمين من أهل عصرنا خلقا وخُلقا،إلخ. وهو جواب لا بأس به، والله أعلم.

[السلطان أبوحمّو، وذكر شيء من ترجمته]

وقد جاء في"الأزهار"، بعد وصف احتفال هذا الملك بالمولد النبوي، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، بشيء من ترجمته فقال:

وكان هذا السلطان أبوحمّو، رحمه الله، يقرض الشعر ويحب أهله، ولهُ، رحمه الله، تأليف حسن في السياسة، لخص فيه "سُلوان المُطاع" لابن ظفر، وزاد عليه فوائد، وأورد فيه جملة من نظمه، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصنّفه برسم ولي عهده أبي تاشفين، وسماه:"نظم السلوك، في سياسة الملوك".هـ [ص239].

قلت: وكان هذا السلطان من معاصري ابن الخطيب. ولهذا، لما كان رآى بعض تغير عليه في سلطانه، وجه إليه بين يدي نجواه قصيدة، تمهيدا عند اشتداد الحال، إلى الالتجاء إلى كنفه، ويكون في حضرته مأواه. وهي قصيدة سِينية، بليغة سنيّة، فقال في مطلعها، مصدرا بالنسيب والتشبيب المطرب، الذي يبيّن مقام هذا الأديب الشاعر، الذي استحق إمامة الأدب نظما ونثرا، عن جدارة واستحقاق، وأقر له بذلك نبغاء المشرق والمغرب، وهو قوله:

أطلعْن في سُدَف الفُروع شُموسَا ... ضحِك الظلام لها وكان عبُوسَا

و عطفن قُضْبا للقدود نواعِمًا ... بُوّئْن أدواح النعيم غُروسَا

ثم تخرج لذكر ممدوحه، والإشارة إلى ما ألم به من جروحه، فقال:

قـل للزمـان إليـك عن متـذمّم ... بضمان عِـزّ لـم يكن ليَخِيسَـا

فإذا استحرّ جِلادُه فأنا الذي استغْشيـــت من سَرد اليقين لبُـوسَا

وإذا طغا فِرْعونـه فـأنا الـذي ... مِن ضرّه وأذاه عُذتُ بموسـى

أنا ذا أبو مثواه من يَحْمي الحِمَى ... ليثا ويُعلم بالزّئير الخيسَـا

بحمَى أبي حَمّو حططْتُ ركائبـي ... لما اختبرتُ الليثَ والعِرّيسَـا

ثم اندفق يُجري في هذه القصيدة الغراء رحيق معينه، ويلفظ الدرر مِن فيه، ويخرج الذهب المصفى من دفينه.

وانظر القصيدة بتمامها في"الأزهار"[ص250]؛ وإن كان فيها اقتباس من قصيدة أبي تمام، التي مطلعها:

أقشيبَ رَبْعِهِم أراكَ دَرِيسَا ... ثقْرِي ضُيوفك لوْعة ورَسِيسَا

قال في "الأزهار": ووصل ابن الخطيب هذه السِّينية بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حَمّو المذكور.هـ. وانظر جميع ذلك فيه إن كنت ممن تروقه جواهر الشعر، وترق لديه زواهر سجعات النّثر، ويعذب لديه ورود مواردها، ويكرع من مجاريها، ويود أن يجعل مثواه في شواطئها، وشربٍ مِن فيها.

قلت: وأبو حمو؛ هو ملك من أفراد الدولة الزيّانية. ولا يخفى على المؤرخ المطلع، الشارب من هذا الوادي شرب الصادي المتضلع؛ أن شمال إفريقية في جل أوقاته، كان ميدانا للفتن والثورات، والتغالب والتحارب بين الفئات المتعددات، من أهل تلك القبائل البربريات؛ إذ لم يكن يتغلب ملك ويتقلب في سلطانه، حتى يقوم بجانبه ثائر يحطم ما أخذ يؤسسه في سلطنته من بُنيانه. ومَهما ساعدته بعض الأيام، وظن أنه تمكن من الملك وأصبح أميرالمؤمنين في الإسلام؛ صبَّحه أو مسَّاه ثائر قويت شوكته، وطلعت دولته؛ وهدم كل ما بناه سابقه، وانقاد الناس للغالب، وقالوا: من اشتدت شوكته، وجبت طاعته، فهذا اللاحق أولى من السابق. فغدت بيده المقاليد، وأصبح يُدعى له بالنصر والتأييد، وهكذا.

وقد قال صاحب "موجز التاريخ العام للجزائر"، وهو ملخص ما في ابن خلدون وغيره، وكلامه في هذا الموضوع مختصر مفيد، إذ قال تحت ترجمة (الدولة الزيانية):

"كان الأمراء من بني عبد الواد، ثم من بني زيان، يلقبون بأمراء المؤمنين وبالخلفاء، اقتداء بعظماء ملوك الإسلام، وعلى الخصوص الأدارسة، وهم يزعمون أنهم أشراف من أحفادهم". [ص341]. ثم صار يذكر نظام هذه الإمارة الصغيرة، وتقليدها في نظامها الدول الإسلامية الكبار. وكانت هذه الدويلة من نسل الدولة الوادية.

وقد ذكر صاحب"تاريخ دول الإسلام"، (تمهيدا) لهذه الدولة، عن ابن خلدون أنه قسم جيل زناتة إلى طبقتين:

الطبقة الأولى التي كان منها مغراوة ملوك فاس. [قال]: وقد تقدم الكلام عنهم.

والطبقة الثانية كان منها بنو مرين ملوك فاس، وبنو عبد الواد ملوك تلمسان. ثم قال: كانت تلمسان، في ذلك الوقت، قاعدة المغرب الأوسط(الجزائر).[19/3].

ثم صار يذكر ما جرى في ذلك منذ تملك الموحدين. ثم ذكر دولة بني عبد الواحد، وما تعاقب في مملكتها من أمرائها، وما جرى في ذلك من الحروب والمنازعات، وما كان لبني مرين في ذلك من الظهور والاستيلاء تارة، وتارة من الانكسار والرجوع إلى وراء، كما هو مبسوط في كتب التاريخ، إلى أن وصل لذكر الزيانيين.

وترجم لأبي موسى أبي حمو، المقصود بالذكر، وذكر مبدأ انتصابه للملك، وانتصاره في ميدان التنازع، وأصبح درة في هذا السلك. ثم بعد ما أضحكته الأيام في هذا المقام، أبكته بالثورات عليه، التي آل الأمر به إلى التعلق بدولة بني مرين، في حوادث يطول شرحها.

[أسباب ضعف الدول الإسلامية وانكسار صولتها]

وأصل ذلك كله، اتباع الأهواء، والتقاتل على الرئاسة، دون مراعاة أحوال الرعية، ومعاملتهم بما تقتضيه أحكام الدِّين، بلطف العدل ورأفة السياسة؛ وأن يجعلوا المقصد هو إصلاح الأمة، وجمع كلمتها على الوحدة الإسلامية، وتكسير النزاع؛ وكل من تولّى رئاسة فهو لدولته راع، وهو مسؤول عن رعيته يوم لا ينفع مال ولا سطوة تطاع.

لأن أصل هذا الضعف الذي اعترى هذه الدول الإسلامية فذهبت قوتها، وانكسرت بين دول الأجانب صولتها؛ كله جاء من التنازع والتفرق، ورفض الجادة في العدالة، واتباع الهوَى وسلوك بنيّات الطرق، قال تعالى: (وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)؛ فقد تنازعنا يا مولانا ففشلنا، وذهبت دولتنا، وودّعنا ريحنا، وأصبح من تولى منا سعَى في الأرض ليُفسدَ فيها ويُهلِكَ الحرْثَ والنّسْل.

اللهم اردد لهذه الأمة بالدِّين صولتها، وأعِد عليها بفضلك قوتها ودولتها، إنك سميع الدعاء.

على أن هذا السلطان أبا حمو، على ما قال صاحب"تاريخ الجزائر"، إنه عمل الحزم والقوة لإرجاع الدولة إلى عهد شبابها؛ فبلغت في عهده قوة جديدة، ونشاطا لم تعرفه من قبل. ثم قال: وكان ملكا عالما فاضلا، له القدح المعلى في السياسة؛ وقد ألف كتابا في هذا الصدد. وكان ذا باع في الشعر، أكثره من الجيد النفيس. قال: وكان له ولوع بإظهار قوة الملك؛ فأقام الحفلات الشائقة بمناسبة المولد النبوي.هـ [ص 363].

وقد قدمنا ذلك مفصلا. ودامت دولته من سنة 760، إلى سنة791. والملك الباقي إنما هو للملك الحيّ القيوم.

***

[عود إلى موضوع
إحداث الاحتفال بالمولد النبوي الشريف]

ثم لنرجع، بعد هذا الذيل التاريخي، إلى المقصد الأهم، وهو تتميم الكلام على إحداث هذا المولد الشريف، والاعتناء به، وإظهار المسرات والأفراح، بطلوع هذا البدر المنير الذي استنارت بنوره الأرض في سائر البقاع والبطاح. فأقول:

إن وجهتنا المقصودة، وقبلتنا التي يرضاها كل صادق المحبة، وهي ضالتنا في هذا "التقييد" المنشودة؛ هو إيضاح المقالة لمن يتحرى الطريقة المثلى، وينتهج المنهج الأقوى. إن إقامة المولد النبوي، وإظهار كبير المسرات، من تكثير الاجتماعات في المساجد العامة والزوايا المخصوصات، وتحسين الهيئات بالحلل الفاخرة التي يتحلى بها في أكبر الحفلات، وتكثير الأضواء في المساجد، وإنارتها بتكثير المصابيح؛ إشارةٌ لتنوير القلوب المملوءة بحب هذا النبي الكريم من كل راكع وساجد، وإنشاد الأشعار والقصائد بمديح النبي المختار.

ولا بأس بمزج ذلك بالأناشيد المطربة، والأغاني بالأصوات الحسنة، التي لا يخرج بها عن الفرح المباح في الأعراس وغيرها. وقد قدمنا ما قاله العارف ابن عباد، من أن الذي يظهر له أن مولده، صلى الله عليه وسلم، عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما يقتضيه الفرح والسرور بذلك المولد المبارك، من إيقاد الشموع، وإمتاع البصر، وتنزه السمع والنظر، والتزيين بما حسن من الثياب، وركوب فاره الدواب؛ أمر مباح لا ينكر، قياسا على غيره من أوقات الفرح،إلخ.

قلت: وبعد أن ذكر شيخنا الكتاني في"مولديته"، مضمن ما قاله ابن عباد، قال: وفي "تحفة الأكابر"، عن شيخ الإسلام أبي محمد، سيدي عبد القادر الفاسي، رضي الله عنه، أنه كان يذكر عن القطب الفرد، أبي محمد، سيدي عبد الله الغزواني، أنه كان يزغرت إذا دخل هلال ربيع الأول، فرحا بعَروس الأكوان الذي عليه في الدارين المعوّل. هـ [مخطوطة، ص25].

وقد قال الإمام أبو شامة الشافعي، شيخ الإمام النووي، الذي تقدمت ترجمته في مراحل الحديث، وكان في زمن إحداث المظفر هذه الحفلة العظيمة أو قريبا من ذلك، حسبما نقله عنه في"إنسان العيون"، لما ذكر أن إحداث هذه الحفلة من البدع المستحسنة. ونقل عن ابن حجر الهيثمي أنه قال:

"والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها، وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك، أيّ بدعة حسنة. ومن ثم قال الإمام أبو شامة، شيخ الإمام النووي: ومن أحسن ما ابتدع في زماننا، ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده، صلى الله عليه وسلم، من الصدقات والمعروف، وإظهار الزينة والسرور؛ فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء؛ مُشعر بمحبته، صلى الله عليه وسلم، وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكر الله على مَا مَنَّ به من إيجاد رسوله، صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله رحمة للعالمين. هذا كلامه". [90/1].

فقوله: "وإظهارالزينة"، يدخل فيه كل زينة بدنية من اللباس الحسن، ومكانية، كتزيين الزوايا والمساجد بزيادة الأضواء، وبثّ البُسط الحسنة، وإنشاد القصائد المعلنة بمدحه، عليه الصلاة والسلام، وتزيينها بالأصوات الحسان، والتغني بها دون استعمال الآلات المحرمة. أما الآلات الجائزة في الأفراح، كالدف ونحوه، وكذلك ما يستعمل في الأعياد من إنشاد الشعر، واللعب بالآلات الحربية، وإطلاق البارود بتلك الآلات، كما هو الشأن الآن في المواسم والأعياد؛ [فـ]لا بأس به، لأن ذلك كله له أصل وارد في السنة، وفعل ما يشبه ذلك في عصر النبي، صلى الله عليه وسلم، وشاهده، ولم ينكره. وإلى هذا يشير العارف بالله، سيدي أبو عبد الله ابن عباد، حسبما سبق.

<u>قلت:</u> وقد كنت دائما أستحضر في هذا المعنى الذي يستعمل في خصوص المولد الكريم فرحا بمقدمه العظيم، وطلوع سراجه المنير، وعموم رحمته للصغير والكبير؛ مما هو كالنص الجلي في الموضوع، في جواز السماع والطرب بالآلات المستعملة في ذلك، دون التعدي إلى ما هو منها مستقبح وممنوع. بل ربما أجاز النص المرفوع إلى التواجد بالرقص، والاستناد في ذلك إلى ما فعله الحبشة والسيدة العالمة الجليلة تنظر إليهم في بيتها المرفوع، ولم ينكر النبي، صلى الله عليه وسلم، لعبهم وإظهار سرورهم، ولا طرد هذه الجموع.

- وأكبر شاهد أيضا، كما أشار إليه العارف ابن عباد، ما رواه أصحاب السيّر عند مقدمِه، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، من تلقي النساء والصبيان على السطوح

والجدران، وهُم يغنون ويطربون بالآلات، فرحا بطلوع هذا البدر اللائح، الذي يسعد به كل غاد ورائح، وينشدون هذا الشعر:

طلع البدر علينـــا من ثنيّات الـــوداع
وجب الشكرعلينا مـــا دعـــا لِلّه دَاع

وفي ذلك يقول صاحب"إنسان العيون": ولما أشرف، صلى الله عليه وسلم، على المدينة قال:"هذه طيبة أسكنيها ربي؛ تنفي خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد". ولما رأى، صلى الله عليه وسلم، جبل أحُدٍ قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه".

ثم قال: وعن عائشة، رضي الله عنها: ولما قدم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المدينة، تلقاه النساء والصبيان يقلن: طلع البدر علينا إلخ. ثم قال الحلبي: قال البيهقي، رحمه الله: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه، صلى الله عليه وسلم، المدينة من مكة؛ لا أنه عند مقدمه المدينة من تبوك. هذا كلامه، ولا ما نع من تعدد ذلك.هـ

[إظهارالفرح بأنواع مثيرات للمسرات في الأعياد والأعراس والمواليد وغيرها؛ مباح]

قلت: وأجمع شاهد، وأكمل نص، وهو أوضح المساند، الذي يرد به على من حرم إظهار السرور في مولد هذا البر المبرُور، بأنواع مثيرات للمسرات، التي تفعل عادة في الأعياد والأعراس والمواليد وسائر الاحتفالات؛ ما قاله حجة الإسلام، وفرد العلماء الأعلام، أبو حامد الغزالي في "إحيائه"، عند ذكر ما قاله العلماء في حكم الغناء، وما ذهب إليه كل واحد منهم في أفكاره وآرائه، في باب بيان الدليل على إباحة السماع. فمن ذلك أنه قال بعد كلام، للاِستدلال على موضوعه:

" فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة، معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في الغالب، وهي سبعة مواضع". ثم صار يذكر تلك المواضع، فقال:

"الخامس: السماع في أوقات السرور، تأكيدا للسرور وتهييجا له، وهو مباح، إن كان ذلك السرور مباحا، كالغناء في أيام العيد، وفي العرس، وفي وقت قدوم الغائب، وفي وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود وعند ختانه، وعند حفظ القرآن العزيز؛ وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به. ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب؛ فكل ما جاز السرور به، جاز إثارة السرور به. ويدل على هذا من النقل، الإنشاد على السطوح بالدف والألحان، عند قدوم رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدوم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو سرور محمود؛ فإظهاره بالشعر والنغمات، والرقص والحركات أيضا محمود، فقد ذكر عن الصحابة، رضي الله عنهم، أنهم حجلوا في سرور أصابهم. قال حجة الإسلام: وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به، وفي كل سبب مباح من أسباب السرور".

ثم صار يستدل على ذلك بآثار صحيحة، وأخبار واردة، فقال: وروى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" حديث عقيل عن الزهري، عن عروة عن عائشة، رضي الله عنها، أن أبا بكر، رضي الله عنه، دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى، تدفّفان وتضربان، والنبي، صلى الله عليه وسلم، متغش بثوبه؛ فانتهرهما أبو بكر، رضي الله عنه. فكشف النبي، صلى الله عليه وسلم، عن وجهه وقال:"دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد". وقالت عائشة، رضي الله عنها: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر، رضي الله عنه، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "أمنا يا بني أرفدة"، يعني من الأمن. ثم ذكر أحاديث أخر في هذا المعنى، ثم قال:

فهذه الأحاديث كلها في "الصحيحين"، وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام.

ثم صار يذكر فوائد هذه الأحاديث، ومآخذ الأحكام منها، وفيها دلالة على أنواع من الرخص:

الأول: اللعب، ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب.

والثاني: فعل ذلك في المسجد.

والثالث: قوله، صلى الله عليه وسلم: "دونكم يا بني أرفدة"، وهذا أمر باللعب والتماس له، فكيف يقدر كونه حراما؟!

والرابع: منعه لأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، عن الإنكار والتغيير، وتعليله بأنه يوم عيد، أي هو وقت سرور، وهذا من أسباب السرور.

ثم قال حجة الإسلام:

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص، والضرب بالدف، واللعب بالدرق والحراب، والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج في أوقات السرور، كلها قياسا على يوم العيد، فإنه وقت سرور. وفي معناه يوم العرس والوليمة، والعقيقة والختان، ويوم القدوم من السفر، وسائرأسباب الفرح؛ وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا. ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم، واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام؛ فهو أيضا مظنة السماع. هـ[الإحياء: 189/2].

وعليه، فإذا كانت اتفقت كلمة أئمة الدين المتأخرين، على عدّ هذا المولد عيدا من أعياد المؤمنين؛ فكل ما ساغ استعماله في أفراحهم، واشتهاره في المجالس العامة والخاصة، مما يؤكد السرور، ويزيد في ابتهاج القلوب وانشراحها؛ حسن جميل، ولا يرد بابتداع ولا تضليل.

لكن لا بد من مراعاة ما أشار إليه أفاضل العلماء، وقد أشرت إلى ذلك سابقا، من عدم الخروج في إظهار هذه الأفراح عن الأمر المباح، وارتكاب ما هو محرم في الشريعة من الحرام الصراح، كما يفعل اليوم في هذه الحفلات، من حضور النساء المتبرجات، الكاسيات العاريات، واختلاطهن بالشباب، مع استعمال آلات الطرب المهيجات، التي تحرم في مطلق المجتمعات، فضلا عن المجتمع الذي أقيم لذكرى النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي يأمرنا بالمعروف وينهانا عن المحرمات، الذي لأجل هذا الفعل المخالف للشريعة الغراء، أنكر من أنكر إعمال حفلة هذا المولد من أصله من أكابر الفضلاء، وأماثل العلم النبلاء، كما فعل الإمام الحفار، في فتواه التي قدمناها عن "المعيار"، وتصريح صاحب"المدخل" أولا [أنها] بدعة مردودة، ومذمومة غير محمودة، ثم جاء بكلامه مما يعرف؛ على أن هذه الليلة أفضل الليالي، ولكن مع مراعاة المأمورات، واجتناب المنهيات، والاشتغال بأنواع التقربات، من الذكر والصلوات، وتعميم الإحسان إلى الفقراء وتعميم الصدقات، مما يقرب إلى الله زلفى ويوصل إلى أرفع المقامات.

[أسئلة ستة بشأن المولد الكريم، والجواب عنها]

قلت: وهذا الكلام قد تقدم لنا معناه، وشرحنا في ذلك أساسه ومبناه، وبقي علينا، مما يتعلق به وتذييله، تتميمات مما يبتهج به المنتبه. وسأوردها هنا على وجه الأسئلة:

- <u>السؤال الأول:</u>

ما السَّبب في عدم احتفال أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا من بعدهم من التابعين وتابعيهم وهلم جرا، إلى أن كان القرن السابع، أو أواخر القرن السادس؛ بهذا المولد العظيم، وما فيه من التشريف والتكريم، مع مبادرة هذه القرون، التي قال فيها النبي، صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني"، إلى المسارعة إلى إظهار شعائر الدين، وتكثير العبادات، وأنواع التقربات. ولم ينقل عن أحد منهم زيادة في هذا الشهر، الذي هو ربيع الأول، على مطلق الشهور، كما نجد في غيره من الشهور والليالي والأيام الفاضلة؟

وقد أجاب صاحب"المدخل" عن هذا السؤال بأجوبة ثلاثة:

أولها: أن تلك الأزمنة حصلت لها الفضيلة بزيادة الأعمال الفاضلة فيها. وهذا الشهر حصل له التشريف بظهور من جاءت الأعمال والخيرات، التي حصلت بها الفضيلة لتلك الأوقات، على يديه وبسببه، صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: أنه، صلى الله عليه وسلم، كما وصفه الله: (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ)، فكان دأبه التخفيف عن أمته، مهما قدرعلى ذلك؛ فلما كان هذا الشهر اختص بظهوره فيه، لم يكلف أمته زيادة عمل فيه، بل أشار إلى ذلك بالتنبيه عليه.

ثالثها: أن أهل الآفاق قد حرم عليهم الصوم أيام التشريق، لأنهم ضيف الله، فوقعت الضيافة لهم كرامة لهم؛ فكيف بالزمن الذي ظهر فيه مَن شرع ذلك على يديه، صلى الله عليه وسلم. هـ باختصار.[45/2].

وأما العارف بالله، سيدي محمد ابن عباد، قد نحا في الجواب عن هذا السؤال منحى آخر، إذ قال في "رسائله الكبرى"، جوابا عن كتاب ورد إليه في إنكار بعض الناس على حفلة المولد:

"وكون هذا الأمر لم يكن في الصدر الأول، حيث الإيمان راسخ في القلوب، وشرائع الإسلام مطوية على تعظيمها والانقياد إليها الأضلاع والجنوب؛ ليس بدافع له ولا مغير في وجهه، حيث لم يبق من الإيمان إلا الإسم، ولا من شرائع الإسلام إلا الرسم، وقريب من أن يذهب من أيدي هؤلاء الناس إسمه ورسمه، ويسلب عنهم معرفته وعلمه. فلم يبق اليوم بأيدي الناس من أمر الدين إلا انهم إذا سمعوا بذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، تضطرب له أفئدتهم، وتنطلق بالصلاة عليه ألسنتهم؛ فهم يدينون له بالتعظيم والتصديق، ويمزقون شريعته أي تمزيق. فالعاقل اليوم لا ينظر إلى ما أحدثوه، مما يكون موافقا لأهوائهم، من تعظيم ما عظم الله حرمته، بأي وجه يرونه تعظيمًا. وإنما ينظر إلى ما أحدثوه من اطراح

أوامره، والاستهانة بنواهيه وزواجره، الذي يستحقون عليه عذابا أليما. وإذا جاز أن يحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور، جاز أن يقرّوا على رُسوم قد استولى على حقائقها الدرُوس والدثور؛ فإذا نزعت منهم، أي شيء يبقى بأيديهم؟!. وما كان سبب جواز تحلية المصاحف بالذهب والفضة إلا لئلا يخلق في أيدي الجاهلين، وتعليق أثواب الحرير والديباج على الكعبة الشريفة إنما استحسن لئلا يذهب تعظيمها وهيبتها من قلوب المفسدين؛ وإلا فأي حاجة للحجارة والصخور، إلى تعليق الحُجب والستور، لولا هذا الغرض المذكور. ولما كتب حجبة البيت إلى عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، في شأن كسوته، كتب إليهم: إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة أولى من البيت، أو كما قال، رضي الله عنه. بل المتفقه في مثل هذا الوقت لو لم يحبس النامُوس، ويتحل بالانقباض والعبُوس، ويلتزم هيئة مستحسنة في الملبُوس؛ لم يسمع أحد منه فتوى، ولا قبل له دعوى، وإن كان في علم مالك بن أنس مثلا. والعوام لا يتأثرون إلا بالمحسوسات، من المنظورات والمسموعات والملموسات، وأما الأمور الروحانية، فهم بمعزل عنها". هـ[ص65].

قلت: وقد أشار لهذا المعنى الشهاب القرافي في الفرق259، قال:

"وأما التجمل، فقد يكون واجبا في ولاة الأمور وغيرهم، إذا توقف عليه تنفيذ الواجب، فإن الهيئة الرثة لا تحصل معها مصالح العامة من ولاة الأمور". هـ[207/4]؛ أي لأن العامة، كما قاله العارف ابن عباد، إنما نظرهم إلى الهيئات الفخيمة، من الملابس الحسنة، والمراكب الفارهة، والتزين بالزي الرائع الذي يعظم في نفوس الناس، ويكبر في عين الناظر. وانظر إلى قوله تعالى في حق قارون، لما خرج في موكبه الهائل، وزينته الباهرة، كيف جلب عيون العامة الذين تروقهم الدنيا وزهرتها، وتخدعهم زينتها ونظرها، إذ خرج في زينته، فـ(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، إذ كان نظرهم قاصرا، إذ كان هذا النظر إلى عرض فاني، فكان حسبهم الافتتان بالمحسوسات، وصرفهم جهلهم عن النظر إلى المعاني. ولكن أهل العلم منهم، والتبصر في مآل زينة الدنيا،[علموا أنها]إلى فناء واضمحلال، وأن زخرفها وجمالها آيل إلى الزوال. قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا). الآية [القصص:80].

اما حيث أصبح في هذا الأعصار، في سائر الأقطار والأمصار، أن الناس لا ينظرون إلا إلى مناظر الصوَر، ومن كان على خلاف الهيئة الفخيمة يُهان ويحتقر؛ استحسن العلماء تكبير العمائم، وتطويل الكمائم، واستنبطوا جواز ذلك، كما قال التاج السبكي في"الطبقات" عن أحمد بن عيسى، أحد فقهاء الشافعية، أنه استنبط ذلك من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُوذَيْنَ)، ان ما يفعله العلماء والسادات، من تغيير لباسهم وعمائمهم، أمر حسن، وإن لم يفعله السلف، لأن فيه تمييزا لهم حتى يُعرفوا ويُعمل بأقوالهم. وهو استنباط لطيف، نقله صاحب "روح المعاني".

ـ السؤال الثـــاني:

هل يوجد في الحديث ما يصحّ أن يكون سندا لإحداث هذا العيد، أم لا؟ الجواب: إنا قدمنا ما يشير إلى شيء من ذلك. وقد استخرج السند في ذلك الحافظ ابن حجر، حسبما نقله عنه العلامة الزرقاني في "شرح المواهب"، إذ قال في جواب سؤال: وظهر لي تخريجه على أصل ثابت في "الصحيحين"، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قدم المدينة، فوجد اليهود يصومُون يوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى، ونحن نصومه شكرا. قال: فيستفاد منه فعل الشكر على ما منّ به في يوم معين. وأي نعمة أعظم من بروز نبي الرحمة. والشكر يحصل بأنواع العبادة، كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة. قال الزرقاني: وسبقه إلى ذلك الحافظ ابن رجب. قال السيوطي: وظهر لي تخريجه على وجه آخر. وهو ما رواه البيهقي عن أنس أنه، صلى الله عليه وسلم، عقّ عن نفسه. ولا تعاد العقيقة مرة ثانية، فيحمل على أنه فعله شكرًا؛ فكذلك يستحب لنا إظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات. هـ [شرح المواهب:140/1].

ونحا العارف بالله، أبو عبد الله ابن عباد في هذا، منحى آخر، وهو أن إقامة هذا المولد، وإن شيب بما فيه، في الظاهر، ببعض مخالفة أو شبهة معصية، لا مانع من أن يكون من الأعمال المقبولة المكفرة لسيِّء الأعمال، لما انطوت عليه القلوب في تلك الليلة من حسن النيات. والحسنات يذهبن السيئات. والتنافس في هذا يُرْوَى في الإسرائليات. من ذلك: الرجل الذي عصَى الله مائتي سنة، فلما مات، رماه بنو إسرائل في مزبلة، فأوحى الله إلى سيدنا موسى: أن اغسله وكفنه وصل عليه. فتعجب بنو إسرائيل من ذلك، لأنه أكثرهم

عصيانا، فطلبوا السبب؛ فسأل موسى ربه، فأوحى إليه: إنه عصاني مائتي سنة، إلا أنه فتح يوما "التوراة"، فنظر إلى إسم (محمد) مكتوبا، فقبّله ووضعه على عينيه؛ فشكرتُ له ذلك، فغفرتُ له.

وذكر أيضا قضية أبي لهب إذ رآه سيدنا العباس، بعد أن سأل الله أن يراه في المنام ليسأله عن حاله، فرآه في لظى يلتهب، فسأله عن حاله، فأجابه بأنه في العذاب لا يخفف عنه إلا ليلة الإثنين، ولما سأله عن سبب ذلك، أجابه بأن ذلك لمّا ولدت آمنة سيدنا محمدًا وبشرت بذلك، أعتقتُ وليدة لِي فرحًا منّي به، فأثابني الله بذلك أنْ رفع عني العذاب في كل ليلة الإثنين لذلك. هـ؛ ببعض اختصار في هاتين القصتين، وتعديل في اللفظ.

<u>قال العارف إثر ذلك:</u> فإذا أدركَتْ رحمة الله تعالى كافرًا، قطع عمره في عداوته وإذايته، بسبب فرَحه بولادته؛ فما ظنك بمُؤمن صدّقه في مقالته، ولبّاه في دعوته. جعلنا الله تعالى من أمّتِه برحمته.هـ [ص67].

<u>- السـؤال الثـالث:</u>

ما السبب الداعي للرئيس أبي العباس العزفي، أحد رؤساء سَبْتَة وعلمائهم، في إحداث هذا الاحتفال، وتعضيده بمؤلّف يعرب به عن هذا المقام، الذي يجب الاعتناء به كل عام وعدم الإهمال، وسنّه سُنّة حسنة اتبعه فيها أهل المغرب وملوكه العظام؛ فكان له أجرها وأجر من عمل بها، الذين يُرجى لهم الكرامة بسبب الفرح بصاحب هذا المولد في دار السلام؟.

فهل كان هذا الإحداث تبعا لملك إرْبل، بناحية الموصل، لأنه اتفقت كلمة أهل العلم، من الفقهاء والمؤرخين، أنه السابق إلى الاعتناء بهذا المحفل، وأنه بهذه المنقبة اشتهر ذكره في الآفاق، حتى انحشرت إليه أكابر العلماء والفقهاء وشيوخ الطرق بهذه الحفلة، الذين كان لهم إليها أكبر إقبال وأعظم اشتياق.

وناهيك أن حافظ الأندلس، الذي اخترق الأقطار، وقطع أكباد الإبل في قصد الأمصار الكبار، لطلب حديث المختار، وهو الإمام أبو الخطاب ابن دحية، العلامة الكبير، المشارك في العلوم والمعارف الشهير، حتى اتصل بهذا الملك المظفر، واستحسن له ما يفعله في مولد سيد البشر؛ فشاركه في هذا الموضوع بالتأليف والتحبير، وصنف له"التنوير، في مولد السراج المنير".

والأمر بهذا محتمل غير بعيد، ولكن الاحتمال غير مفيد؛ فالأولى أن يقال إن الإمام العَزَفي قد سنَّ هذه السنة من تلقاء نفسه إبداعا، لأنه بيّن أن له دواعي وأسبابا، إذ بيّن أن

قصده بهذا الاحتفال، صرف الناس وما هم عليه من الضلال، والاستعداد لإظهار السرور بالمآكل والمشارب الحسنة في النيرُوز والمهرجَان اللذين هما من أعياد أهل الكفر والضلال، ويبين لهم أن أحق موسم يجب أن يتلقى بالمسرات والأفراح، هو مولد سيد الأنام الذي انشرحت بطلوع نوره نفوس المؤمنين أي انشراح، وامتلأت أفئدة أهل الضلالة بالأكدار والأتراح.

وقد كنا أشرنا لمقصد العَزفي سابقا، وأنه ليصرف الناس عن تعظيم أعياد الكفار، والاعتناء بعيد مولد سيد الأبرار، وذكرنا قصيدة التلمساني التي نظم بها مضمن مؤلف العَزفي في ذلك.

ثم الآن وقفتُ على تصريح العارف ابن عباد، في"رسائله الكبرى"، إذ قال:

والعَزفي، رحمه الله، كانت له نية صالحة في ذلك الأمر، يُرجى له بها من مولاه جزيل الأجر. وهو وإن كان لم يبلغ كلية غرضه في إبطال أمر النيرُوز والمهْرجان، يعتمد مقصدا تنشرح له صدور أهل الإيمان، باعتبار ما ألف في العادة من الطغيان والعدوان، لأن الناس يصبحون في ذلك اليوم متجملين محتفلين، متشوفين إلى أن يقرع سمعهُم قارع من ذكر اسم نبيهم وحبيبهم، فيلهجون بذلك فرحًا وسرورًا، ويبتهجون به استلذاذا وحبورًا، ويتيمنون بذلك اليوم فيجعلونه ميعادا لمهمات أشغالهم، وختانة أطفالهم، وغير ذلك من أعمالهم. هـ[ص66].

- السؤال الرابـــع: عن التفاضل بين ليلة القدر وليلة المولد:

اعلم أولا؛ أن السلف الصالح، من الصحابة والتابعين ومن انتهج منهاجهم، رضي الله عنهم، كانوا أحرص الناس على اتباع سنته، وموافقة أقواله وأفعاله، حتى كان منهم من يتحرى حتى أفعاله العادية من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، مع ما كانوا عليه من توقيره وتأييده ونصرته، وبذل النفس والنفيس وإيثار نفسه الكريمة على أنفسهم، وحسن الآداب معه في حضرته، من غض أصواتهم، وخفض جناحهم له، حتى كان إذا خرج إليهم، وفيهم أكابرهم، كأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما؛ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره، إلا أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما.

كما كانوا، رضي الله عنهم، يتبركُون بما يصدر عنه، ويجعلونه ذخيرة، تقربا بذلك إلى مولاه؛ فكان لا يتوضأ إلا ابتدرُوا فضلة وضوءه، وتزاحموا إلى السبق على ذلك. ولا تسقط شعرة منه إلا أخذوها، ولا أمرهم بشيء إلا سارعوا إلى امتثاله. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم

عنده، وما يمدون إليه النظر، تعظيما له، إلى غير ذلك مما أخذوه مما أدبهم به القرآن الكريم، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ)، وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) إلخ ما هو مشهور، وفي كتب السيرة النبوية وأوصاف أصحابه مفصل ومنشور.

هذا في حياته. ومثل ذلك بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ فكان السلف الصالح يجعلونه كأنه حاضر عندهم بروحه وجسده، متوكفين من الله أن يمدهم، بالتأدب معه واحترامه، بمدده؛ فقد روى القاضي في"شفائه"، أن أبا جعفر المنصور، أمير المؤمنين، ناظر مالكا، رحمه الله، في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله، عز وجل، أدب قوما فقال: (لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ) الآية، ومَدَحَ قوْمًا فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ) الآية، وذمَّ قومًا فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) الآية، وإن حرمته ميتا كحرمته حيا؛ فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعُو، أم أستقبل رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ولِمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم، عليه السلام، يوم القيامة! بل استقبله واستشفع به فيشفّعَكَ الله، قال الله تعالى:(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ) الآية.[40/2].

وفي"الشفا" أيضا: ومن إعظامه وإكباره، صلى الله عليه وسلم، إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة، ومعاهده وما لمسه، عليه السلام، أو عرف به هـ.

قلت: ومن هذا تعظيم ليلة مولده وليلة إسرائه. ولكن السلف لم يكن معظمهم يلتفت لهذا، وكلهم في أحوالهم كانوا ينشدون:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حُب من سكـــن الدِّيَارَا

وعلى هذا، كان سيدنا عمر ينكر من يتتبع الصلاة في بعض المساجد التي صلى فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ومثل ذلك عن مالك في مسجد قباء، جريا على عادته في سد الذرائع، خوفا من اتخاذ ذلك سنة أو فرضا، كما ذلك مبين في محله.

فالسلف الصالح، من الصحابة وغيرهم، كانوا ينظرون إلى إقامة الفرائض والسنن المقصودة بالذات، ولا ينظرون إلى ما أبدع واستُحسن. ولهذا رووا عن العارف بالله، ابن أبي جمرة، أنه من حين دخل المسجد، ما جلس إلا للصلاة، حتى رحل الركب، ولم يخرج لبقيع ولا

لغيره. ولما خطر له ذلك قال: هذا باب الله تعالى مفتوح للسائلين والمتضرعين، وليس ثمَّ من يُقصد مثله. نقله الخفاجي [شرح الشفا:479/3].

ثم لما اختلط الحابل بالنابل، وصار نظهرهم إلى المحسوسات أكثر من النظر إلى المعاني، وأعرضوا في كثير من أحوالهم عن الأعمال التي يشق المثابرة عليها، وعمارة الأوقات بها، من الصلاة وغيرها، والتعبد الذي يشغلهم عن جمع الدنيا والتمتع بزهرتها وزخرفها؛ أصبحوا يلتمسون التقرب بالمواطن، ويتوكفون الرضى من الله بغير ما شرعه الله لهم من الدين، من السنن والفرائض، ويجهلون أن التقرب إليه، جل وعلا، لا يكون إلا بالطريق المشروع، من السجود والركوع، والتجافي عن المضاجع في ذلك بالخضوع والخشوع.

[اتساع أقطار الإسلام، وتباين المعارف والعادات، وما تولد عن ذلك من مناظرات واختلافات وتعصبات]

أما النظر في هذه المسائل التي لا تعلق لها بالتعبدات، ولا يوثر الجهل بها خللا في العقيدة، لا في الأصول ولا في الفروع؛ فإنها لم تحدث إلا بعد الصدر الأول، إذ دُوِّنت العلوم وصنفت التصانيف، وفتحت أبواب الخلاف، واشتغل الناس بالجدال والمناضلة في المقالات، والتسابق في المناظرات. وذلك لحدوث أسبابها باتساع أقطار الإسلام، واختلاف ألوان سكانها، وتباين مناهجها في معارفها؛ فدخل في الإسلام الفارسي والنبطي، والهندي والصيني، والرومي والقبطي والبربري. وكلّ يبث في الإسلام أخلاق أمته وأصول ملته، وإبداء ما يقدسه من عوائده، وما يألفه في قطره وبلده.

فتولدت من ذلك في هذه الملة أبحاث جديدة، وإيرادات تستدعي تأسيس قواعد يمكن للمسلم أن يناضل بها في المواقف الشديدة. ونشأت من هذا الامتزاج، وتخالف عوائد الأجناس، كثرة تعصبات. منها التعصب للجنسية، ومنها التعصب للأخلاق، ومنها التعصب للآداب، ومنها التعصب للعلوم، ومنها التعصب للأقاليم والبلدان.

وبسبب ذلك وضعت أخبار، واختلقت على النبي، صلى الله عليه وسلم، أحاديث وآثار. وكل ذلك مصنوع، ومكذوب وموضوع، دعا إليه التعصب للجنس والوطن؛ وهذا في غير البقاع المقدسة، كمكة والمدينة وبيت المقدس.

[ما قيل في التفاضل بين المدينة ومكة]

هذا إذا نظرت إلى ما قاله الإمام مالك في مدينة رسول الله، وتفضيلها على مكة، وإتيانه بالأدلة على ذلك، يمكن أن يكون الباعث عليه ما كان يسمعه من بعض أعداء الدين، أو الذين في قلوبهم مرض، من ذمّ هذه المدينة المنورة؛ فأفتى، رحمه الله، فيمن قال: تربة المدينة ردية، بضربه ثلاثين درة، وأمر بحبسه، وكان له قدر، وقال: ما أحوجني إلى ضرب عنقه. تربة دفن فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يزعم أنها غير طيبة!؟

ثم إن الكلام في تفضيلها على مكة، والخلاف بين الإمام والشافعي في ذلك شهير. وفي ذلك يقول خليل: "والأفضل المدينة ثم مكة". وقول مالك هو الذي ذهب إليه سيدنا عمر بن الخطاب، وولده سيدنا عبد الله، رضي الله عنهما. والكلام في ذلك يطول شرحه، ويتفرع في المباحث أصله وفرعه. وقد استوعب المباحث في ذلك صاحب"وفاء الوفاء"، وصدر هذا الفصل بقوله:

"قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة، حتى على الكعبة المنيفة، وأجمعوا بعد على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد، واختلفوا أيهما أفضل. فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، ومالك بن أنس، وأكثر المدنيين، إلى تفضيل المدينة. وأحسن بعضهم فقال: محل الخلاف في غير الكعبة الشريفة، فهي أفضل من المدينة، ما عدا ما ضم الأعضاء الشريفة. نقله القاضي عياض، وكذا القاضي أبو الوليد الباجي". [وفاء الوفا:19/1].

وأنت إذا تأملت، وجدت هذا التفضيل يرجع إلى المعاني لا إلى الحس، بدليل قول العز بن عبد السلام، من أن الأزمان والأماكن كلها متساوية، ويفضلان بما يقع فيهما، لا بصفات قائمة بها، ويرجع تفضيلها إلى ما ينيل الله العباد فيها، وأن التفضيل الذي فيهما، أن الله يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما. ولكن تعقب التقي السبكي ذلك، بأن التفضيل يكون لذلك، وقد يكون لأمر آخر فيهما، وإن لم يكن عمل؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة، وله عند الله من المحبة ولساكنه؛ ما تقصر العقول عن إدراكه. وليس ذلك لمكان غيره، فكيف لا يكون أفضل الأماكن، وليس محل عمل لنا. فهذا معنى غير تضعيف الأعمال فيه. [وفاء الوفا:21/1].

ثم ذكر وجوها أخرى، مما يفيد أن التفضيل للمكان يكون بغير تضعيف الأعمال. وأطال صاحب"الوفاء" في الموضوع، وأطنب في الإتيان بالنقول عن الأئمة الذين حققوا في تبيين الحجج الراجحة في تفضيل المدينة على مكة، التي لا يبقى فيها لقائل ما يقول.

ولهذا أجمل القول في ذلك القاضي عياض في"شفائه" بما شفى، وأتى بعبارته الرائقة الرقيقة وكال في ذلك بالمكيال الأوفى، فأوقف المناضل في ذلك بما أزال الخفا، فقال:

"وجدير لمواطنَ عُمِّرت بالوحي والتنزيل، وتردَّد فيها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتُها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما انتشر؛ مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوَّة، وأين فاض عُبابها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها؛ أن تُعظم عرصاتُها، وتتنسّم نفحاتُها، وتقبَّل ربوعها وجدرانها"، وأنشد:

يا دار خير المرسلين ومن به   هدي الآنام وخص بالآيـات

عندي لأجلك لوعة وصبابـة   وتشـوق متوقـد الجـمَرات

في أبيات أخَر، أنظرها في"الشفاء"[57/2].

وبالجملة؛ فالخلاف بين الأئمة في تفضيل المدينة على مكة والعكس، قديم. وفي"الشفا" ما لفظه، مع شيء من "شرح" الشهاب الخفاجي:

(وهو)، أي تفضيلها عليها، (قول عمر بن الخطاب، ومالك) في إحدى الروايتين عنه، (وأكثر المدنيين)، أي علماؤها لقوله، صلى الله عليه وسلم:"ما بين قبري ومنبري "إلخ ونحوه - أي من الأحاديث - (وذهب أهل مكة) وعلماء (الكوفة، إلى تفضيل مكة) على المدينة. (وهو قول ابن وهب وعطاء، وابن حبيب من أصحاب مالك) في رواية عنه، (وحكاه الساجي) - من أئمة الشافعية - (عن الشافعي)، رضي الله عنه. (وحملوا)،أي المفضلون لمكة،(الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره)،(وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل، واحتجوا)، كما قالوه، (بحديث عبد الله بن الزبير عن النبي، صلى الله عليه وسلم)، الذي أخرجه أحمد وابن حبان (بمثل حديث أبي هريرة، وفيه): "وصلاة في المسجد الحرام، أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة". (وروى قتادة مثله). انظر تمامه في "الشفاء"، و"شرح" الشهاب.[شرح الخفاجي: 584/3].

وعلى هذا؛ فأنت ترى المسألة ذات أقوال وخلاف، لعدم ورود حديث صحيح صريح، يكون نصا في المسألة. واختلاف الأقوال فيها لاختلاف الظواهر التي تمسك بها جانب على الأئمة الذين اشتهر عنهم هذا الخلاف، كمالك والشافعي، اختلفت الرواية عنهما في التفضيل، كما سبق؛ فمالك الذي اشتهر في مذهبه أنه يقول بتفضيله المدينة، وسبق نص الشيخ خليل، الذي هو المعتمد في الفتوى، إذ يقول: والمدينة أفضل، ثم مكة؛ أن له قولا بتفضيل مكة على المدينة، كما في رواية ابن حبيب وغيره عنه، كما تقدم في كلام القاضي عياض. وفي الحطاب إثر لفظ"المختصر": هذا هو المشهور، وقيل مكة أفضل من المدينة.هـ

أما أبو محمد ابن حزم، فإنه جزم بأفضلية مكة على المدينة، ورد ما احتج به أصحاب مالك وظواهر الأحاديث في القول المشهور، إذ قال في"المحلى"، في المسألة 919: ومكة أفضل بلاد الله تعالى، نعني الحرم وحدهُ، وما وقع عليه اسم عرفات فقط، ثم بيت المقدس، نعني المسجد وحده. هذا قول جمهور العلماء، وقال مالك: المدينة أفضل من مكة، واحتج مقلدوه بأخبار ثابتة.[279/7].

وصار يجيب عنها، وأنها لا حجة فيها على التفضيل، وأطال في ذلك. ثم ذكر هو الأحاديث الصحيحة التي احتج بها من يقول بتفضيل مكة.

وكل ما قيل في حجج المالكية، يقال في حججه أيضا؛ لأنه كما قدمنا، لم يرد في ذلك نص حديث صحيح يقوم حجة. ولو صح الحديث بذلك لانتفى الخلاف. والحديث الوارد نصا في التفضيل، هو حديث حكم أهل الحديث بأنه ضعيف لا يصح الاحتجاج به؛ وهو ما رواه الطبراني في"الكبير"، والمفضل الجندي في"فضائل المدينة"، وغيرهما، عن رافع بن خديج، رضي الله عنه، قال: أشهد: سمعت، وفي رواية لسمعت، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول:"المدينة خير من مكة". وبعد أن ذكره السيد السمهودي في"وفائه" قال: وفي إسناده محمد بن عبد الرحمان الرداد، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان يخطئ. وقال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال أبو زرعة: لين، وقال الأزدي: لا يكتب حديثه، وقال ابن عدي: روايته ليست محفوظة؛ ولهذا قال ابن عبد البر: هو حديث ضعيف.هـ[26/1].

ثم بعد هذا، إن أحسن القول في هذين المقامين العظيمين، والبلدين الشريفين: لكل منهما فضائل عظيمة، وخصائص جليلة، فاقا بها بلاد الله كلها، إذ لهما الشرف الأعظم والمقام الأكبر، والأوصاف الجليلة التي لا تحصر، والفضائل والمناقب التي لا يستقصيها

العلم ولو أطنب وأكثر. ذلك الفضل من الله، يخص به من شاء بما شاء، وهو ذو الفضل العظيم.

***

[الرجوع إلى موضوع الاحتفال بالمولد الشريف، والتفاضل بين ليلة المولد وليلة القدر]

وبعد هذا، أعود إلى موضوع الترجمة، فأقول: إن هذا الموضوع، وهو إعظام يوم مولده والاحتفال به، من قبيل تعظيم أسبابه، صلى الله عليه وسلم، كتعظيم مدينته المنورة. وكل ذلك راجع إلى تعظيمه، عليه الصلاة والسلام، لأن المدينة المنورة ما طابت إلا بطيبه، ولا تشرفت إلا بتشريفه. وكذلك ليلة المولد الشريف. وهل هذا التعظيم يستدعي تعظيم هذه الليلة، وتفضيلها على سائر الليالي، حتى على ليلة القدر؟ ففي "المدخل"، من أبيات للشيخ ابن السماط، أنه استثنى من تفضيل ليلة المولد على سائر الليالي، ليلة القدر، إذ قال:

واستثن منها ليلة القدر التي   أثناءها نـزل الكتاب المنـــزل

إلخ.

أما الإمام ابن مرزوق، فإنه جزم بأن ليلة المولد أفضل من ليلة القدر، واحتج لمختاره في كتابه"جنى الجنتين، في فضل الليلتين"، بإحدى وعشرين وجها. ثم بعد سردها، أعقبها بالجواب عن الإيرادات التي يعترض بها على ذلك، ونقل كلامه صاحب"المعيار"، في المجلد الحادي عشر، صح 212، تحت ترجمة (فائدة جليلة)، وصدر الترجمة بقوله: صرح الشيخ الخطيب الحاج الرحال، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن مرزوق، رحمه الله، بإيثار ليلة مولده، عليه السلام، على ليلة القدر. واحتج لمختاره في كتابه"جنى الجنتين، في فضل الليلتين" بإحدى وعشرين وجها، وها أنا أسردها، بعون الله:

الأول: إن الشرف هو العلو والرفعة، وهما نسبتان إضافيتان؛ فشرف كل ليلة بحسب ما شرفت به، وليلة المولد شرفت بولادة خير خلق الله، عز وجل؛ فثبتت بذلك أفضليتها بهذا الاعتبار، إلخ.

وصار يذكر الأوجه والإيرادات والأجوبة عنها.

ثم إن كلام العلامة ابن مرزوق، يفيد آخره أنه أول من طرق هذا الباب، واحتج لتفضيل المولد الشريف وما أحرزه بشرف ذلك المقام، واختص به من السمو الذي يسمو ويعلو على كل جناب. وقد وافقه على ذلك صاحب"المواهب"، واقتبس من احتجاجاته بعضها، فقال:

فإن قلتَ إذا قلنا بأنه، عليه السلام، ولد ليلا، فأيما أفضل، ليلة القدر أو ليلة مولده، عليه السلام؟ أجيب بأن ليلة مولده، عليه السلام، أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها أن ليلة المولد ليلة ظهوره، صلى الله عليه وسلم، وليلة القدر، معطاة له، وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله، أشرف مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاع في ذلك. فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل.

الثاني: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره، صلى الله عليه وسلم. ومن شرفت به ليلة المولد، أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر على الأصح المرتضى؛ فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضل فيها على أمة محمد، صلى الله عليه وسلم. وليلة المولد الشريف وقع التفضل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين؛ فعمت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعا؛ فكانت أفضل هـ.[26/1].

ولكن تعقب هذا الاحتجاج الشارح، أبو عبد الله الزرقاني، بكلام الهيتمي، فقال: وهذا الذي ساقه المصنف وأقره مُتعقب. قال الشهاب الهيتمي: فيه احتمال واستدلال بما لا ينتج المدعى، لأنه، إن أريد أن تلك الليلة، ومثلها من كل سنة إلى يوم القيامة، أفضل من ليلة القدر؛ فهذه الأدلة لا تنتج ذلك، كما هو جلي. وإن أريد عين تلك الليلة؛ فليلة القدر لم تكن موجودة إذ ذاك، وإنما أتى فضلها في الأحاديث الصحيحة على سائر ليالي السنة بعد الولادة بمدة، فلم يكن اجتماعهما حتى يأتي بينهما تفضيل. وتلك انقضت، وهذه باقية إلى اليوم، وقد نص الشارع على أفضليتها، ولم يتعرض لليلة مولده ولا لأمثالها بالتفضيل أصلا. فوجب علينا أن نقتصر على ما جاء عنه، ولا نبتدع شيئا من عند نفوسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه، صلى الله عليه وسلم؛ على أنا، وإن سلمنا أفضلية ليلة مولده، لم يكن له فائدة، إذ لا فائدة في تفضيل الأزمنة إلا بفضل العمل فيها. وأما تفضيل ذات الزمن الذي لا يكون العمل فيه، فليس له كبير فائدة. إلى هنا كلامه. قال الزرقاني: وهو وجيه. هـ [شرح المواهب: 136/1].

ومع هذا، فللمتأمل المنصف النبيه، إذا أحسن الظن، ونظر إلى سعة فضل الله، وما جاء به هذا المولد العظيم من عموم الرحمات، وظهور الكرامات والمعجزات؛ يترجح لديه ما أتى به صاحب "المواهب" من التوجيه. أما الهيتمي في"شرح الهمزية"، فإنه اقتصر على قوله في رد ما احتج به أهل التفضيل. وأظنه يشير إلى ابن مرزوق.

وعلى أنه ولد ليلا قيل: ليلة مولده أفضل من ليلة القدر. واستدل قائله بوجوه كثيرة، كلها مدخولة، كما يعلمه الواقف عليها، إن حقق ودقق.هـ.

قلت: ومن العجيب أن صاحب"المواهب" صدر في كلامه على التفاضل بين الإسراء وليلة القدر، بما يفيد أن الاعتماد في مثل هذا التفضيل على التوقيف والنص من الشارع. ولا نص يوجد فيه، كما ستراه هنالك.

وأما شيخنا الكتاني، صاحب الترجمة؛ فقد جزم بأن ليلة المولد أفضل من ليلة القدر، إذ قال: قال العلماء، رضي الله عنهم، وليلة مولده، صلى الله عليه وسلم، أفضل من ليلة القدر.هـ. والعلم بالحقائق كله لله خالق الخلائق، وهو القاسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، والرافع لبعضهم على بعض درجات في السابق واللاحق.

ـ السؤال الخامس، ليلة الإسراء وليلة القدر، وما قيل في التفاضل بينهما:

اعلم ان الكلام في تفضيل ليلة المولد على ليلة القدر، كأنه مأخوذ من الخلاف الواقع في تفضيل الإسراء على ليلة القدر، لأن اختلاف العلماء في ذلك، على ما يظهر، سابق، وما كُنا فيه لاحق. وذلك أن السؤال عن المسألة وقع في زمن تقي الدين ابن تيمية، رفع إليه في جملة أسئلة، وأجاب عنها بجواب طويل، ونقله عنه تلميذه ابن القيم في"زاد المعاد"، فقال:

وأما السؤال الثاني، فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، وقال آخر: ليلة القدر أفضل. فأيهما المصيب؟ فأجاب:

{ما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، إن أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي، صلى الله عليه وسلم، ونظائرها من كل عام، أفضل لأمة محمد، صلى الله عليه وسلم، من ليلة القدر، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر؛ فهذا باطل، لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاطراد من دين الإسلام. هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينها، فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا على عشرها ولا على عينها. بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة، التي يظن أنها ليلة الإسراء، بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر،

فإنه قد ثبت في "الصحيحين" عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال:"من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه". وفي"الصحيحين" عنه:"تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان". وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر؛ فإنه أنزل فيها القرآن. وإن أراد الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي، صلى الله عليه وسلم، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة؛ فهذا صحيح. وليس إذا أعطى الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه. والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور، ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحي. ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم. ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، لا سيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور، ولا يذكرونها. ولهذا لا يُعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله، صلى الله عليه وسلم، ومع هذا، فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان، بعبادة شرعية} [11/1].

ثم قال: وقد قال بعض الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي، صلى الله عليه وسلم، أفضل من ليلة القدر. وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء؛ فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أفضل له. هـ[زاد المعاد:12/1].

وما ذكره ابن تيمية من الجمع بين الأفضلية، ونسبه لبعض الناس ولم يسمه، ذكره في"المواهب"، ونسبه إلى الشيخ أبي أمامة النقاش. ثم جاء النقاش أثناء كلامه بما يوافق ما لابن تيمية. ولفظ "المواهب": فإن قلت أيما أفضل، ليلة الإسراء أو ليلة القدر؟ فالجواب، كما قاله الشيخ أبو أمامة النقاش: إن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي، صلى الله عليه وسلم، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خير من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم. وأما ليلة الإسراء، فلم يات في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يعينها النبي، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه, ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن، ولا إلى أن تقوم الساعة، فيها شيء. ومن قال فيها شيئا، فإنما

قاله من نفسه، لمرجح ظهر له استئناس به. ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء، ولو تعلق بها نفع للأمة، ولو بذرة، لبينه نبيه لهم، صلى الله عليه وسلم.هـ أي كلام النقاش، بنقل صاحب "المواهب".

وتأمل هذا؛ فإنه يخالف بفحواه تلك الوجوه التي اعتمد عليها في مسألة أفضلية المولد الشريف على ليلة القدر. والله أعلم بما تبديه الألسنة ويكنه الصدر، والله تعالى المرجع في كل أمر.

- السؤال السادس:

تقدم لنا ما في ليلة مولده ويومه من الخلاف، فقيل: لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول. وقد تقدم أن هذا القول ذكره في"إنسان العيون"، قال: وحكي الإجماع عليه. قال: وعليه العمل الآن، أي الأمصار، خصوصا أهل مكة في زيارتهم موضع مولده، صلى الله عليه وسلم، . قال: وكان ذلك في فصل الربيع.

قلت: ومن الموافقات أن هذا العام، وهو سنة [1390]، كان المولد الشريف في هذا الفصل الذي هو أعدل الفصول وأجملها، وفيه تأخذ الأرض زخرفها وتتزين بألوان الأزهار، وتتنزه في جمال خضرتها وحمرتها الأبصار. وإني كنتُ في أيام هذا المولد، مشتغلا بالكتابة في الكتاب الذي سميته:"تجديد المسرّات والأفراح، بذكرى مولد سرّ الموجُودات وروح الأرواح". فكان طلوع هذا البدر الساطع، والنور الذي بتواصل الأنوار المشرق اللامع؛ فازداد الفصل بطلعته نورا، وأذاع في عالم الإسلام بهجة وسرورا، وفي هذا يقول القائل:

يقول لسـان الحـال منـه ... وقول الحق يعـذب للسميع
فوجهي والزمان وشهر وضعي ... ربيـع في ربيـع في ربيع

وقيل: ولد في عشر ليال مضت منه، وصحح. وقيل لسبع عشرة ليلة خلت منه، وقيل لثمان مضت منه. وقال ابن دحية: وهذا لا يصح غيره، وعليه أجمع أهل الحديث وبه جزم ابن عبد البر. وقيل غير ذلك.

وقد قدمنا ذلك، كما قدمنا ما قاله أبو العباس، سيدي أحمد بن مبارك، ناقلا عن شيخه العارف بالله، سيدي عبد العزيز الدباغ، وأنه سأله عن ذلك، فقال:

وسألته، رضي الله عنه، عن يوم ولادته، فإن العلماء اختلفوا فيه، فقيل في ثانيه، وقيل في سابعه، واختاره الأكثرون، وقيل في ثامنه، وقيل في تاسعه، وقيل في ثاني

عشره، فقال رضي الله عنه: إنه ولد، عليه الصلاة والسلام، في سابع ربيع الأول، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، يعني أنه ولد في ليلة السابع منه، كما سبق أنه، عليه السلام، ولد ليلا. هـ [الإبريز:123/1].

وحيث تخالفت هذه الأقوال وتعددت، فما القول الذي يُعتمد عليه في إقامة المولد والاحتفال به؟ الجواب: إن هذه القضية تجري على قواعد الاجتهاد، في تتبع الأقوال وأسانيدها والأصح من رواياتها، ثم يصار إلى الترجيح. وإذا نظرنا في ذلك، وجدنا أن القول بأنه ولد لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، هو الأرجح، لحكاية صاحب"إنسان العيون" الإجماع عليه، وأن العمل عليه، وأيد ذلك بعمل أهل مكة، كما سبق قريبا، وكل مجتهد مصيب، وعضده الإجماع، وأيده اتصال العمل به إلى عصرنا هذا، وإن كان بعض شيوخ زوايا الطرق الصوفية عمل على خلاف ذلك؛ فالطريق الكتانية، اختار شيخها ما قاله سيدي عبد العزيز الدباغ، وشيخ التجانية اختار فيما أظن لثمان عشرة منه، كما رواه ابن أبي شيبة، وحديثه معلول.

وفي "مولدية" شيخنا الكتاني، صاحب الترجمة: واختلف في أي يوم منه، أي ربيع الأول، فقيل: يوم الثامن. قال: وهو الأصح المختار عند أهل الحديث وغيرهم من علماء الأمصار، وانعقد عليه إجماع المؤرخين عامة. قال: وقيل: يوم الثاني عشر، هو قول ابن إسحاق وغيره، ورواه ابن أبي شيبة في "المصنف" عن جابر وابن عباس. وقال بعضهم: إنه المشهور المعمول به عند أهل مكة وغيرهم من الناس. ثم قال: ورجح بعض أهل الكشف أنه ولد في اليوم السابع.

قلت: ويعني شيخنا بأهل الكشف، سيدي عبد العزيز الدباغ، رضي الله عنه، حسبما قدمنا.

***

ملخص ما كتبناه في شأن المولد الشريف:

فلتعلم أننا بنينا هذه"الفهرسة"، التي هي موضوعة في الأصل لبيان تراجم أشياخنا الذين أخذت عنهم ما قدر لنا أخذه من المعارف والعلوم، واقتبسنا منهم أنوار ما فتح الله عليهم من أسرار المتون، وامتازوا به من دقائق الفهوم .

ثم جعلناها مسرحا واسعا، ومعهدا جامعا لكل ما يعنّ من دقائق المسائل، وإطالة الذيول في الاستطرادات التي يستحليها العالم النبيل، ويستقلها كل غمر جاهل.

ومن الاستطرادات اللطيفة هنا؛ ما أثارته لدينا ذكر "مولدية" شيخنا الكتاني، صاحب الترجمة"؛ فدعاني هذا المقام العالي الذرى، الرفيع القدر، وهو المولد الذي طلع فيه على الأمة المحمدية هذا البدر، أن أوسع الكلام، وأن أبلغ القاصد إليه منتهى المرام، وأن أجعله "تقييدا" حافلا، جامعا في هذا الموضوع الشريف، وإن كان لشهرته وتكاثر الكتابة فيه غنيا عن التعريف والتصنيف؛ ولكن للإعادة هنا لطيف معنى، فيه للمحب لهذا الجناب لذة تزيد في قلبه جمالا وحسنا.

وقد رأينا عند الشروع في ذكر المولد الشريف، أن نقدم بين يديه جملة مختصرة مفيدة، فيما يتعلق بنسبه الكريم، وشمائله الرائقة، وذكر خلقه العظيم، ثم ذكر تاريخ مولده وما فيه من الأقوال، ثم ما كان عليه السلف الصالح من التفاتهم في أفراحهم إلى المعاني، وتوجهاتهم في ذلك إلى شكر المنعم الباقي، بأنواع العبادات، وفنون التقربات، دون الاشتغال بالعرض الفاني. وإن المولد الكريم، بإظهار المسرات وعقد الاجتماعات، وعمارة الأوقات بملذات المآكل والتغني بترنم الأصوات، وطرب الآلات؛ أول من أحدث ذلك من أهل المشرق، في آخر القرن السادس وأوائل السابع، هو الملك المظفر، ملك إربل، وتقدم لنا ما في ذلك، بكل ما يتعلق به قبولا ومنعا.

كما أن أول من أحدثه بالمغرب هم بنو العزفي، رؤساء مدينة سبتة، وبينا في ذلك وجه مقصدهم. ثم أصدر ملك بني مرين أمره بإقامة هذا المولد عيدا من أعياد المسلمين، واتخذه الناس كذلك إلى عصرنا هذا. واعتنى ملوك المغرب، كملوك الأندلس، بإقامة حفلة هذا المولد الكريم كل عام، واستعدوا لذلك أتم الاستعداد، وأقاموا بحضراتهم محافل عظيمة، ومجالس بين أيديهم حفيلة كبيرة، استدعوا لها كبار الدولة ونبلاء الأمة، من فقيه وعالم وشريف من كل الأقاليم، وتباهوا في ذلك بتزيين تلك المجالس بأنواع الفرش وأرفع المقاعد.

وقد أربى على الجميع الملك أبو حمو، صاحب تلمسان، وطاول فيما يظهر ملك إربل، حتى تجاوز حد الإسراف. كما سبق وصف ما كان يفعله ملك إربل والملك أبو حمو. وفي مثل ذلك استفتي علماء العصر وفقهاؤه؛ فمنهم من أفتى بالمنع، ومنهم من أجاز، بشرط خلو تلك المحافل من المحرمات، كاختلاط الرجال بالنساء، والضرب بالآلات المحرمة. وقد سبق ذلك

كله مستوفى من كلام ابن الحاج وابن عباد، والترخيص في الغناء ليلة المولد والطرب، بما يغني عن الإعادة.

***

[وصف ما كان عليه الاحتفال بهذا المولد الشريف بحضرة بفـــاس]

لكن بقي علينا ما قاله بعد ذلك العلماء العارفون من أهل الله، وما كانوا يفعلونه في منازلهم ليلة هذا المولد الشريف أو في مساجدهم، مما لم نذكره فنستدركه هنا.

من ذلك ما نقله صاحب"مرآة المحاسن"، إذ قال: وكان الشيخ أبو المحاسن يرخص في السماع للمولد الشريف، فيجتمع لذلك عنده خلق عظيم، ويحضر أهل السماع الذين يحفظون مقطعات الشيخ أبي الحسن الششتُري، وما يجري مجراها، ويحكمُون صناعة تلحينها، دون آلة، ويحكمُون طرق تلحين الميلاديات المعربة الموزونة بأوزان الشعر العربي وما يجري مجراه، والملحونة الموزونة على عَرُوض البلد وغيره، على العادة في ذلك بحضرة فاس. ويشرعون في ذلك بعد صلاة الصبح في أول وقتها؛ فيبدأونها بالميلاديات. فإذا قضوا منها وطرا، أخذوا في الششتريات وما يجري مجراها إلى قرب الزوال. وكان يرى ـ يعني والده سيدي يوسف ـ أنه أعظم أفراح المسلمين وأعيادهم التي للسماع فيها أصل في الشرع أصيل، كما تقرر في محله، وما جرى الرسم به في الآفاق، من الاحتفال به منذ مئين من السنين، وإلحاقه بأعياد المسلمين، مما تولى العلماء، رضي الله عنهم، تمهيد سبيله، وتأييد دليله، بما يشفي صدور قوم مؤمنين.

ثم ذكر ما نقلنا سابقا عن ابن عباد, وكراهة العارف ابن عاشر صيام يومه، وأول من أحدثه بالمغرب، وأن أبا يعقوب المريني هو الذي أصدر أمره بإقامة ليلة المولد في سائر القطر المغربي. وكان ذلك أثناء القرن السادس، كما أسلفنا ذلك مفصلا.

ثم ذكر صاحب"المرآة" بعض ما يؤيد ما أسلفناه من مستند إظهار الفرح في هذا اليوم وغيره من الأعياد، فقال: ومما ينزع به في الفرح بالمولد الشريف، قوله تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)، وقد قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). والفرح في كل أمر بحسبه؛ فيحمل هنا على المتعارف في الأعياد ونحوها. وقد دل حديث الجاريتين على أن العيد وقتُ فرح، وإن من الفرح ما كانتا تصنعانه.هـ [ص129].

قلت: وقد قدمنا من هذا النوع في الاستدلال كثيرا، وبسطنا في ذلك المآخذ الصحيحة الصريحة. وإنما أتيتُ بكلام هذا العارف وعمل والده، تبركا وتنبيها على ما كان يفعله هؤلاء الأئمة الأعلام في هذا المولد الشريف، الذي كانوا يعدونه من أعظم أعياد الإسلام.

ثم قال صاحب"المرآة"، في صفة ما كان يفعله هذا الإمام في الليلة المباركة: وكان الشيخ أبو المحاسن، رضي الله عنه، يطعم في ذلك اليوم العصيدة من سميد القمح، تؤكل بالسمن والعسل، وثريد الدرمك بلحم الغنم، ومع كل قطعة منه صحن من عسل ليؤكل به، وكثيرا ما يزاد معه الروز مطبوخا باللبن الحليب، مأكولا بالسمن والعسل، حتى يعم ذلك الناس. ويحضر خلق من المساكين لا يحصون، فيأكلون ويحملون ما أمكن. يصنع ذلك في اليوم الثاني عشر، كما تقدم ذكره، وفي سابعه أيضا. انظر تمامه [ص129].

هذا وصف ما كان عليه الاحتفال بحضرة فاس في القرن العاشر، ومبدأ القرن الحادي عشر. وفي هذا الوصف كثير من الفوائد؛ أولها أن الشيخ إمام فاس علما وعملا وإرشادا إلى صحيح الطريقة، والجامع بين الشريعة والحقيقة، سيدي يوسف الفاسي؛ كان يعتمد القول بأن ليلة المولد هي ما عليه الجمهور - وبينا لك سابقا وجهة ترجيحه، وأنه اليوم الثاني عشر من ربيع الأنوار - وأن ذلك اليوم يُعد من أعظم أعياد الإسلام، كما أسلفنا، وأنه يفعل فيه ما يفعل في الأعياد الإسلامية، من إظهار السرور وسائر ما يكون في الأفراح، وأنه كان يستحسن سماع الغناء بالأصوات الحسان، دون الآلة المحرمة، وأنه ينشد في ذلك القصائد والمقطعات المتعلقة بهذه الليلة المباركة، وأنه كان يبتدئ الحفلة بعد صلاة الصبح، وأنه كان، رضي الله عنه، يتم الحفلة بإطعام الحاضرين العَصِيدَة المعروفة، بالعسل والسمن، وربما زاد الثريد والأرز. ويكون ذلك الإطعام عاما، بحيث يحضره الفقراء والمساكين، ويأكلون ويأخذون ما يقدرون عليه، وأن ذلك، على ما يفيده التعميم، يكون بمسجده الخاص به قرب داره.

[وصف ليلة المولد بمدينة تطوان]

قلت: وهذا الوصف يطابق في الجملة ما أدركنا عليه الناس في مدينتنا تطوان؛ إلا في ابتداء الحفلة، إذ كان الشأن أن يجتمع الناس في الزاوية الريسونية، تحت إشراف الأشراف من أحفاد صاحب الزاوية، ولي الله سيدي عبد السلام ابن الولي الشهير، والده سيدي علي، وحضور كبراء أصحاب سيدي عبد السلام، أهل المعرفة بفنون الطرب وذوي

الأصوات الحسان، الذين كانوا يحضرون مثل هذه الحفلات مع الشيخ سيدي عبد السلام. ولكن، كان ابتداء حفلة هذه الليلة المباركة بعد صلاة العشاء، فيجتمع لذلك أعيان المدينة ونبلاؤها وفقهاؤها وعلماؤها، من تلقاء أنفسهم دون استدعاء، حتى تمتلئ الزاوية المذكورة.

والناس إذ ذاك في حلة بيضاء بهية، وأحوال شائقة سَنية، والكل خاشع خاضع، فرح مبتهج بمولد هذا البدر الطالع.

ثم يبتدئ أصحاب الولي سيدي عبد السلام، وفيهم العارفون بالموازين التي تطرب السامعين، وترق لها قلوب المحبين المخلصين، فيقع الافتتاح بأول نصاب من "همزية" البوصيري، المُحب الصادق، التي استوعبت سيرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وذكر أخلاقه ومعجزاته قبل مولده وبعده، بلفظ بليغ رائق. فإذا أكملوا النصاب الأول، أفاضوا في ذكر القصائد المديحية، منها قصيدة المُحب الفاني، في محبة هذا الرسول العدناني، سيدي عبد الرحيم البُرعي، نسبة إلى بُرع، قال في"القاموس"،[4/3]:

وبُرع كزُفر، جبل بتِهامة. قال: وقد نسب إليه من المتأخرين الشاعر المفلق عبد الرحيم بن أحمد البرعي، مادح المصطفى، صلى الله عليه وسلم، والموجود في أيدي الناس هو "ديوانه" الصغير، وله مقام عظيم ببلده.هـ [تاج العروس:273/5].

قلت: ولم أقف على ترجمة هذا الإمام المحب للرسول، وما وقفت إلا على ما نقلته عن " شرح القاموس". أما تاريخ حياته، فلم أقف إلا على ما في فهرسة لبيع الكتب، من الفهارس المصرية، وفيها أنه كان من أهل القرن الخامس. والله أعلم.

قلت: والقصيدة المختارة التي كانت تنشد في تلك الليلة في هذه الزاوية، هي الهائية التي هي في الرقة واللطافة والبلاغة ما هيه. ولقد أصاب من اختارها وشرفها بهذه الليلة المباركة، وأبهج في هذه الحفلة الجليلة نفوس من فهم أسرار مجراها ومسراها. ثم إني لا أدري من انتقى هذه القصيدة ذات المزايا العديدة، هل كان هو الشيخ سيدي عبد السلام، وهذا هو الذي[يقتضيه] غرامه بهذه الموضوعات، وإصغاؤه بظاهره وباطنه لهذه المسموعات، أو انتُقي ذلك بعد وفاته من علماء آله وأصحابه؟

والظن الغالب أن يكون المبشر بذلك العالم المحب للشيخ، والملازم لمجلسه، أديب تطوان، سيدي المفضل أفيلال. والعلم لله الكبير المتعال، ومطلعها:

قل للمطي اللّواتي قد طال مسراها   من بعد تقبيل يمناها ويسراهَا

ما ضرها يوم جدّ البين لو وقفت نقص في الحي شكوانا وشكواهَا
لو حملت بعض ما حملت من حُرق ما استعذبت ماءها الصافي ومرعاهَا

إلى أن قال:

حتى إذا ما رأت نور النبي رأت للشمس والبدر أمثالاً وأشباهَا

إلى أن قال:

ذاك البشير النذير المستغاث به سر النبوّة في الدنيا ومعناها
شمس الوجود الذي أنوار مولده ملأن ما بين كنعان و بصراها

ثم صار يعدد بعض كراماته ومعجزاته، وما لاح من إرهاصاته قبل إشراق نور نبوته، وبعد ظهور بهاء طلعته، ثم قال:

هذا محمد المحمود سيرته هذا أبرّ بني الدنيا و أوفاها

وانظر تمامها في ديوانه. [ص77].

ثم تستمر الليلة في إنشاد غيرها من المدائح، وتذيع بمقطعات الأشعار نور شمائله الساطع اللائح، ثم يقع الختم بـ(حضْرَة) الولي الصالح، سيدي محمد بن علي، وهي تعد من أقسام النظم الملحون، التي مطلعها:

أنا سِيدِي عَنْدِي طبيبْ ويَغَالجْنِي بدْوَاهْ

الخ. وقد قدمنا ترجمة هذا الولي وقصيدته في الجزء الأول من "الفهرسة".

ثم بعد ذلك ينتثر عقد الجمع، وأهل المحبة والصدق[تجري]عيون أعينهم بفائض الدمع. ثم تنشر أواني الطعام في وسط الزاوية للفقراء، ويذهب بعض الخاصة إلى دار الشرفاء، التي هي في مقابلة باب الزاوية التي تقع في وسطها.

هذا ما ألفينا عليه العمل في هذه الليلة المباركة. ولم يكن تقام ليلة أخرى في غيرها. إلى أن ظهرت طريقة الشيخ التجاني، رضي الله عنه، ثم بعدها طريقة الشيخ الكتاني، فاشتغلت كل طريقة بليلتها، وخالفت الجماعة التي كانت عليها في صفتها ووقتها.

فصارت التجانية تقيمها لسبع عشرة مضت منه، أو ثمان عشرة، وهما قولان حكاهما أصحاب السيّر.

وصارت الكتانية تقيمها سابع ربيع الأول، بناء على ما رجحه شيخهم، من اتباع ما رجحه العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ، ونقله عن شيخه ابن مبارك من جهة الكشف، وقد قدمنا ذلك.

أما أصحاب مولاي العربي الدرقاوي، وهم الذين يقال لهم (درقاوة)؛ فإن الزاوية الحراقية لم تكن تخص تلك الليلة بشيء من الاجتماعات، ولا تخالف الجماعة في شيء من ذلك، إلى أن كانت هذه الأيام الأخيرة، فصارت تلك الزاوية تقيم هذه الليلة وتحييها بالأذكار، لكن مع مزجها بالمحرم من الأوتار، واختلاط النساء بالرجال، ووقوع فيها، في تلك الليلة، ما لا يجوز بحال، حسبما كانت تبلغنا أخباره، ويجب على أهل العلم والدين إنكاره.

والله يصلح الأحوال، ويلهم هذه الأمة لتُنقذ نفسها من هذه الأوجال والأوحال، وتعتصم بحبل الله المتين الأوثق، وتجتمع على كلمته العليا ولا تفترق. والله الواقي، والموفق للرجوع لاتباع الرسول والارتقاء في نسبته أرقى المراقي، آمين.

***

[مسألة القيام عند ذكـــر ولادته، صلى الله عليه وسلم]

ثم هنا شيء ينبغي التنبيه إليه، وهو أن الشيخ أبا المحاسن لم يكن في عصره يفعل في هذه الليلة عند ذكره مولد النبي الكريم، وقوف الناس احتراما لذكره، كما يفعل في القيام للحي إجلالا له وتعظيما، إذ لم يكن ذلك معمولا به في المغرب، ولم يكن معروفا عندهم.

أما أهل المشرق، فكان ذلك عندهم معمولا به. وإن كان بدعة، فهي مستحسنة. وأصل ذلك ما وقع في مجلس تقي الدين السبكي، واستحسنه أهل العلم المقتدى بهم؛ ففي "السيرة" الحلبية:

{ ومن الفوائد، أنه جرت عادة كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وضعه، صلى الله عليه وسلم، أن يقوموا تعظيما له، صلى الله عليه وسلم. وهذا القيام بدعة لا أصل لها، أي لكن هي بدعة حسنة، لأنه ليس كل بدعة مذمومة، وقد قال سيدنا عمر، رضي الله عنه، في اجتماع الناس لصلاة التراويح: نعمت البدعة. وقد قال العز ابن عبد السلام: إن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة، وذكر من أمثلة كل ما يطول ذكره. ولا ينافي ذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: "إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"، وقوله، صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا، أي شرعنا، ما ليس منه فهو ردّ عليه"؛ لأن هذا عام أريد به خاص. فقد قال إمامنا الشافعي، قدس الله سره: ما أحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا؛ فهو البدعة الضلالة، وما أحدث من الخير، ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة. وقد وجد القيام عند ذكر اسمه، صلى الله عليه وسلم، من عالم الأمة، ومقتدى الأئمة دينا

وورعا، الإمام تقي الدين السبكي، وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره؛ فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره، فأنشد منشد قول الصرصري في مدحه، صلى الله عليه وسلم:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على ورق من خط أحسن من كتبِ

وأن تنهض الأشـراف عند سماعه قياما صفوفا أو جُثيًا على الركبِ

فعند ذلك قام الإمام السبكي، رحمه الله، وجميع من في المجلس، فحصل أنس كبير في ذلك المجلس. ويكفي مثل ذلك في الاقتداء} هـ [إنسان العيون: 90/1].

وقد نقل هذا عن الحلبي، مفتي الشافعية بمكة المشرفة، الشيخ دحلان.

قلت: وكأن الشيخ أبا المحاسن لم يكن بلغه هذا العمل بالمشرق، إذ عصر الحلبي متقارب لعصر أبي المحاسن، وإلا فقد نقل عنه شيخنا عن الشيخ أبي المحاسن أنه قال ليلة المولد لأصحابه: كيف قال صاحب "المولدية"؟، يعني الفشتالي؛ فأنشدوا له:

واجب علينـا أن نفـرح ونـــرقـص فيه ونشطح

ثم إنهم هامُوا وقاموا يشطحون.هـ.

قلت: فلو كان بلغه هذا القيام، تعظيما وابتهاجا بذكر ولادته، أنه المعمول به عند أئمة المشرق، لكان اقتدى بهم في ذلك، والله أعلم.

أما أول من سن فعله بفاس، واتبعه في ذلك من اتبعه من أهل الزوايا بالمغرب، فهو شيخنا الكتاني، رضي الله عنه. ولعل بعض الناس أنكر ذلك الفعل، ولعه احتج بقوله، عليه السلام: "لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم"، وغير ذلك من الأحاديث الواردة في منع القيام للحي؛ فوقع استفتاء كبراء علماء فاس، فأفتى شيخنا، شيخ الشيوخ وإمام الجماعة، أبو العباس، سيدي أحمد ابن الخياط، بإباحة ذلك وعدم المنع، فقال:

{وبعد؛ فإنكار القيام عند ذكر ولادة سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الأمداح النبوية، تعظيما لرسول الله وفرحا به، عليه الصلاة والسلام، على حسب ما العادة جارية بذلك في جميع الحضرات المشرقية، فيما بلغنا، وجرت بذلك العادة فيما قرب في هذه الحضرة الفاسية، صانها الله، فيصلي الحاضرون على النبي، صلى الله عليه وسلم، قائلين بصوت واحد: صلى الله عليك وعلى آلك وسلم، ويقومون على تلك الحالة زمنا يسيرا ويجلسون. واستظهار حرمته هو غير مقبول، بل هو في محل المنع، لإجرائه إياه على القيام للداخل عند من منعه، لا يجري هنا في جنابه، عليه الصلاة والسلام، في حياته

للعصمة، ولا بعد وفاته بالأحرى. على أن القيام للداخل فيه طريقان: طريقة الإمام النووي ومن وافقه، من أنه من الأمر المشروع المندوب إليه في غيره، صلى الله عليه وسلم، وعليها عز الدين بن عبد السلام، لما قام لهم على ذلك. وطريقة صاحب"المدخل" ومن وافقه، وأن أصل القيام للداخل بدعة، وإليها مال صاحب"فتح الباري"، و"إرشاد الساري". نعم؛ على كل من الطريقين يعرض له سائر الأحكام الخمسة. منها ندبه للعلماء والوالدين والرجل الصالح، وما في معنى ذلك، فكيف لجنابه، صلى الله عليه وسلم؟! فأي محل بقي للإنكار؛ مع أنه ثبت أنه، صلى الله عليه وسلم،[قيم له، كما] لغير واحد، صلى الله عليه وسلم، ورضي عنهم. وإن أجاب صاحب "المدخل" عما ورد من ذلك، وقيم له، صلى الله عليه وسلم، وإن نهى عن ذلك تواضعا منه، صلى الله عليه وسلم، وتحذيرا من فعل الأعاجم لملوكها. هذا مع أن شرطه النهي عن المنكر، إن كان، أن يكون مجمعا عليه، كما في الزرقاني عند قول"المختصر" في الجهاد في فروض الكفاية: أو أمر بمعروف، أي أو نهي عن المنكر. وبسط الكلام في ذلك، وسلموه بالسكوت. فأي محل بقي لإنكار القيام عند ذكر ولادته، صلى الله عليه وسلم، والصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم. والله تعالى أعلم. قاله عبيد ربه تعالى أحمدابن الخياط، كان الله له وللمسلمين آمين، والحمد لله رب العالمين}.

***

[إطعام العصيدة يوم المولد الشريف]

قلت: وذكر صاحب "المرآة" أن مما كان يفعله الشيخ أبو المحاسن، أنه كان يطعم يوم هذه الليلة، العصيدة المعروفة بالسمن والعسل، كما سبق. ولكن لم يذكر في"المرآة" سند تخصيص هذا اليوم بهذا النوع من الطعام، ومن عادة صاحب"المرآة" أن يذكر السند في مثل هذه الأمور.

واستعمال هذا الطعام في هذا اليوم المبارك، لم يزل عليه عملنا في مدينة تطوان. وكان قبل هذا التاريخ، يعتنى به غاية الاعتناء، فيهيأ له السميد من القمح، وتعد له المعالق وغيرها في الأسواق وحوانيت البقالة. كذلك تعد الأواني الكبيرة والخوابي وغيرها في كل الأسواق والقاعات بالعسل.

وقد أدركنا أن هذا الطعام في هذا المولد الكريم يستعمل عادة، ويعد من لوازم هذا اليوم المبارك وواجباته، وبه يكون الفطور عند الغني والفقير.

ويظهر أن ذلك كان عاما في سائر مدن المغرب، كما يؤخذ من كلام صاحب"المرآة"، والغالب أن له مستندا. وقد بالغتُ في البحث عن هذا السند، فلم أجد في الآثار إلا ما ذكره مجد الدين ابن الأثير في"النهاية"، في مادة: عصدَ، إذ قال في حديث خولة: "فقربت له عصيدة": هو دقيق يلتّ بالسمن ويطبخ، يقال: عصدت العصيدة وأعصدتها، أي اتخذتها هـ[115/3].

والضمير لا شك في قولها له للنبي، صلى الله عليه وسلم. ولم تبين خولة أي يوم كان. ثم إن خولة هذه، الأقرب أن تكون جاريته، عليه السلام، وهي كما قال في"الاستيعاب":

خولة، خادم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جدة حفص بن سعيد. يروي حديثها حفص هذا عن أمه، عنهما، في تفسير قول الله عز وجل: (وَالضحَى) إلخ. [292/4].

ويحتمل أن تكون خولة هذه بنت قيس، زوج حمزة بن عبد المطلب، وهي التي قالت، كما في"الإصابة": دخل النبي، صلى الله عليه وسلم، على عمه حمزة، فصنعت شيئا فأكلوه. وفي رواية: دخل علي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فصنعت له حريرة. فلما قدمتها إليه، وضع يده فيها، فوجد حرها، فقبضها ثم قال:"يا خولة لا نصبر على حر، ولا نصبر على برد".هـ [293/4].

وهذا أقرب إلى ما قاله ابن الأثير، لإمكان التصحيف في لفظ حريرة. والله أعلم.

ثم إني وقفت، على وجه الاتفاق، على أن استعمال هذا الطعام عادة مألوفة في القطر، يعني الأندلس، وشملَ ذلك المغرب أيام الولادة، في غير مظان المسألة، وذلك في"رقم الحلل" لأمير الأدباء، ووحيد العلماء الشعراء البلغاء، لسان الدين ابن الخطيب، إذ قال عند ذكر ملوك بني حفص بتونس، وجرى ذكر أحد ملوكها، وهو أبو عبد الله ابن الواثق بن المنتصر، المشهور بأبي عصيدة: منسوب إلى طعام، عادة أهل القطر استعماله، لفضل الترغيب فيه زمان الولادة.هـ كلام ابن الخطيب. [ص68].

ثم إني بعد ذلك بحثت في كتب الفقه وغيرها، وإلى الآن لم أجد شيئا يفيد هذا الترغيب. ولكن لسان الدين لسانه صادق، وهو العالم المطلع على الحقائق والرقائق. ولولا اطلاعه على هذا الترغيب، ما خطب به وهو ابن الخطيب. وعسى أن نقف على ذلك، وتنجلي به الغشاوة عن أبصارنا، ويتضح لنا الحق هنالك.

قلت: وهذا الطعام من الأطعمة التي كانت تعد من أطعمة العرب، ولسعة هذه اللغة التي هي أشرف اللغات، إذ هي لغة القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، وفيه آيات بينات أعجزت ببلاغتها وفصاحتها، وحسن أساليبها ولطائف معانيها، عُظماء العرب العرباء، عن المعارضات ولو بأوجز سورة أو أقصر آية؛ فليخسأ اليوم من يقول إن اللغة القرآنية قاصرة لا تفي بالتعبير عن ما أحدث في هذا العصر الجديد الذي أتى بما لا تعرفه العرب، ولا تقدر على شرحه بلغتها ولا يوجد فيها له نظير. وانظر إلى أسماء هذه الأطعمة التي كانت في عاداتها، وانظر إلى أسمائها وتعددها في أنواعها وأصنافها، وجعل لكل نوع إسما خاصا، وفيها إن نطقت بأي لغة شئت، فإنك تجد هذه اللغة أوسع اللغات؛ ففي"فقه اللغة"، في فصل تقسيم أطعمة الدعوات وغيرها، قال:

طعام الضيف القرى، طعام الدعوة المأدُبة. طعام الزائر التحفة. طعام الإملاك الشنْدُخيَّة؛ عن ابن دريد. طعام العرس الوليمة. طعام الولادة الخرس.[إلخ. حسبما سبق ذكره في ترجمة الشيخ ابن الجيلالي في مستهل الجزء الرابع من هذه "الفهرسة"].

ثم قال: فصل في تفصيل أطعمة العرب: جل أطعمة العرب، بل كلها على الفعِيلة، وهي متقاربة الكيفية من الدقيق واللبن والسمن والتمر، كالسخينة واللويقة، والصحيرة والربيكة والبكيلة. السخينة: طعام يتخذُ من الدقيق، دون العصيدة في الرقة، وفوق الحَساء، وإنما يأكلونها في شدّة الدهر، وغلاء السعر، وعجف المال.[ص261]. ثم صار يفصل في ذكر أطعمة العرب على وزن فعيلة، مما يعرفك سَعة لغة العرب.

وأفاد أن العصيدة هي نحو ما يستعمل عندنا؛ لكن لم يخصصها بحال الولادة ولا غيرها. وذكر أن طعام الولادة كان يسمى عندهم الخرس.

وسنعود إلى هذا الموضوع في شأن وضع اللغة العربية وسعة مادتها، وأنها لغة كفيلة بما تحتاج إليه هذه الأمة على طول زمانها وامتداد مدتها؛ في ترجمة شيخنا العلامة الديِّن الخيِّر، سيدي عبد العزيز بناني، إن شاء الله، ومدّ في العمر.

أما المبحث هنا، فهو للبحث عما يعد سند تخصيص يوم المولد الشريف بطعام العصيدة، حسبما هو مستمر إلى زماننا، وقول لسان الدين ابن الخطيب: لفضل الترغيب فيها زمن الولادة.

ومن "عيون الأخبار" لابن قتيبة: عن الأصمعيّ قال: قال مدنيّ: الكُبَادات أربع: العصيدةُ والهريسةُ والحَيْسة والسَّمِيدةُ.هـ [197/3]. والحيْسة والسميدة، قالوا: الحيْسة: الأقط يخلط بالتمر والسمن، والسَّميدة: الحوّارى، وهي لباب الدقيق.

***

وبكل حال فكل ما يفعل في هذا المولد الشريف، من أنواع التعظيم والتكريم، [فغايته] إظهار المسرات، وتكثير المبرات، واستقباله بوجوه مسفرة ضاحكة، وقلوب مبهجة حامدة شاكرة، مستحضرة لمحاسن خلقه وأخلاقه، صلى الله عليه وسلم، ممتلئة بكثرة الثناء على مولانا الكريم، الذي خصنا بطلعة هذا البدر، وإشراق ضيائه ونور هدايته.

فكل من أنكر شيئا مما يتلقى به هذا المولد الأعظم، والموسم الأكبر، من أسباب المسرات؛ من طرب وغناء، وحفلات مزينة بالفرش المرفوعة، والأواني الملأى بأنواع الأطعمة الموضوعة، وابتهاج الخواطر بقراءة قصائد المديح بأصوات مطربة وأغاني عن الآلات المحرمة مدفوعة؛ فلم يصب صوب الصواب، وقيل له: لقد أبعدت النجعة في هذا الباب. أولَم يَلتفتْ إلى إنكاره جمهور الإعلام، وجعلوا إنكاره لمثل هذا من الأخطاء والأوهام؟!.

قال [السخاوي] الإمام المحدث، تلميذ الحافظ ابن حجر: ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار، يعملون المولد، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. قال ابن الجوزي: من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام. [إنسان العيون:91/1].

وقال الإمام أبو شامة الشافعي، وهو شيخ الإمام النووي: ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام، في اليوم الموافق ليوم مولده، صلى الله عليه وسلم، من الصدقات والمعروف، وإظهار الزينة والسرور؛ فإن ذلك، مع ما فيه من الإحسان للفقراء، مشعر بمحبته، صلى الله عليه وسلم، وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكرا لله على ما منّ به من إيجاد رسوله، صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله رحمة للعالمين.هـ بنقل صاحب"إنسان العيون".[90/1].

وقد تقدم نقل هذه النصوص مع ما يماثلها، وأعدنا هذا هنا تأييدا لما قلنا وتثبيتا.

ولنختم هذا "التقييد" الذي سميناه: "تجديد المسرات والأفراح، بذكرى مولد شمس الموجودات وروح الأرواح"، وأدمجناه في هذه "الفهرسة"، الذي دعانا إلى رقم حلله ونشر درره، وجلاء عرائس غرره؛ هو محبة هذا الرسول العظيم الجليل، رجاء أن يقيني الباري بحبه من حر لظى، ويجعلني عند اشتداد الحشر تحت لوائه ذي الظل الظليل. مع ما كان لصاحب الترجمة، وهو شيخنا الكتاني من المحبة الصادقة، والعناية الفائقة، بذكرى هذا المولد الشريف، الذي وضع فيه المولدية المسماة:"إسعاف الراغب الشائق"، حسبما تقدم.

[محبة النبي، صلى الله عليه وسلم، هي الأصل الذي بنى عليه الصوفية طريقتهم]

أما محبته، صلى الله عليه وسلم، فهي من الفروض الواجبة، كما دل عليه القرآن العزيز والحديث النبوي الكريم، ففي"الشفا" للقاضي عياض، في باب لزوم محبته، عليه السلام، إذ قال:

قال الله تعالى: (قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأبْنَاؤُكُمْ وَإخْوَانُكُمْ وَأزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا) الآية؛ فكفى بهذا حضا وتنبيها، ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها وعظم خطرها، واستحقاقه لها، عليه السلام، إذ قرَّع تعالى من كان مآله وولده وأهله أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: (فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ)، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

ثم روى حديث البخاري عن أنس، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".

ثم ذكر عن سيدنا عمر أنه قال للنبي، صلى الله عليه وسلم: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: "لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه"، فقال عمر، رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب، لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "الآن يا عمرُ".

ثم نقل القاضي عن سهل أنه قال: من لم ير ولاية الرسول، صلى الله عليه وسلم، عليه في جميع الأحوال، ويرى نفسه في ملكه، صلى الله عليه وسلم؛ لا يذوق حلاوة

الإيمان، لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.الحديث هـ [16/2].

قلت: وعلى هذا الأصل، بنى أهل الله من الصوفية طريقتهم، كما قال قطب العارفين، ومقصد أهل الله الصالحين، مولانا عبد السلام: {وَلاَ شَيْءَ إلاَّ وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ، إذْ لَوْلاَ الوَاسطةُ لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ المَوْسُوطُ}. وقال العارف الكبير، سيدي محمد البكري المصري، في أبياته الشهيرة:

ما أرسل الرحمان أو يُرسل   من رحمة تصعد أو تـنزل
في ملكوت الله أو ملكـه   من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده   نبيـه مختـاره المرسـل
واسطة لها واصل لهـا   يعلم هـذا كل من يعقل
فلذ به من كل ما ترتجي   فهو شفيـع دائما يقـبل

الأبيات. وقد عقد العارف بالله، التاج ابن عطاء الله، صاحب"الحِكَم" في"لطائف المنن"، فصلا في إثبات أن نبينا، صلى الله عليه وسلم، أفضل الموجودات بإطلاق. واستدل لذلك بآيات وأحاديث، ومن جملة ما في صدر ذلك الفصل، بعد أن ذكر حكمة إرسال الرسل والأنبياء إلى البشر:

{وما زال فلك النبوة والرسالة دائرًا إلى أن عاد الأمر من حيث الابتداء، وختم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، هو السيد الكامل، القائم الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجل في هذه الدار، وفي تلك الدار، على المخلوقات. أعلى المخلوقات منارا، وأتمهم فخارا، دل على ذلك الكتاب المبين، قال الله سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ). ومن رُحم به غيره، فهو أفضل من غيره، والعالم[و]كل موجود، سوى الله تعالى. وأما تفضيله على بني آدم خصوصا، فمن قوله، صلى الله عليه وسلم: "إني سيد بني آدم ولا فخر". وأما تفضيله على آدم، عليه السلام، فمن قوله، صلى الله عليه وسلم:"كنتُ نبيا وآدم بين الماء والطين"، ومن قوله: "آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائي"، وبقوله: "إني أول شافع، وأني أول مشفع، وأنا أول من تنشق الأرض عنه"، وحديث الشفاعة المشهور}.هـ [ص7].

وفي "الفتوحات" في هذا المعنى كلام نفيس طويل الذيل، منه سهل المأخذ، ومنه ما لا يفهمه إلا أهله. ولنأت بجملة منه يمكن فهمها للناظر؛ ففي الباب337:

{قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد الناس يوم القيامة"، وعلل ذلك بكماله وقال:"لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني"، لعموم رسالته وشمول شريعته. فخُص، صلى الله عليه وسلم، بأشياء لم تعط لنبي قبله، وما خُص نبي بشيء إلا وكان لمحمد، صلى الله عليه وسلم؛ فإنه أوتي جوامع الكلم، وقال: "كنت نبيا وآدم بين الطين والماء". وغيره من الأنبياء لم يكن نبيا إلا في حال نبوّته، وزمان رسالته؛ فلنذكر في هذا الباب، منزله ومنزلته؛ فالمنزل يظهر في بساط الحق، ومقعد الصدق، عند التجلي والرؤية، يوم البروز العام الأعظم، فيعلم منزله بالبصر والشهود. وأما منزلته، فهي منزلة في نفس الحق ومرتبة منه. ولا يعلم محمد ذلك إلا بإعلام الله، وله المقام المحمود. وهو فتح باب الشفاعة للملائكة فمن دونهم، وله الأوّلية في الشفاعة، وله الوسيلة. وليس في المنازل أعلى منها، ينالها محمد، صلى الله عليه وسلم، بسؤال أمته جزاء لما نالوه من السعادة به، حيث أبان لهم طريقها، فاتبعوه.} ثم قال بعد كلام طويل:

{واعلم أن الله لما جعل منزلة محمد، صلى الله عليه وسلم، السيادة؛ فكان سيدا، ومن سواه سوقة، علمنا أنه لا يقاوم، فإن السوقة لا تقاوم ملوكها، فله منزل خاص، وللسوقة منزل. ولما أعطي هذه المنزلة، وآدم بين الماء والطين، علمنا أنه الممد لكل إنسان كامل منعوت بناموس إلهيّ أو حكميّ. وأوّل ما ظهر من ذلك في آدم، حيث جعله الله خليفة عن محمد، صلى الله عليه وسلم، فأمده بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد، صلى الله عليه وسلم، فظهر بعلم الأسماء كلها على من اعترض على الله بوجوده ورجح نفسه عليه. ثم توالت الخلائف في الأرض، إلى أن وصل زمان وجود صورة جسمه لإظهار حكم منزلته باجتماع نشأتيه. فلما برز كان كالشمس؛ اندرج في نوره كل نور، فأقرّ من شرائعه التي وجه بها نوّابه ما أقر، ونسخ ما نسخ، وظهرت عنايته بأمته لحضوره وظهوره فيها}. أنظر تمامه.[الفتوحات المكية:141/3].

وهذه الجملة السابقة مفهومة، لا تخالف ما قرره فيها علماء الظاهر، وإلى معناها أشار القاضي عياض في "شفائه"، إذ قال في الفصل السابع من الباب الأول، فيما أخبر الله به في كتابه العزيز من عظيم قدره، وشريف منزلته على الأنبياء، وحظوة رتبته، قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وحِكْمَةٍ) إلى قوله: (مِنَ الشَّاهِدِينَ)، قال أبو الحسن القابسي: استخص الله محمدا، صلى الله عليه وسلم، بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية. قال المفسرون: أخذ الله تعالى الميثاق

بالوحي، فلم يبعث نبيا إلا ذكر له محمدا، صلى الله عليه وسلم، ونعته، وأخذ عليه ميثاقه، إن أدركه، ليُؤمنن به، وقيل: أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم. وقوله تعالى: (ثُمَّ جَاءَكُمْ)، الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد، صلى الله عليه وسلم. قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لم يبعث الله نبيا، من آدم، عليه السلام، فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، صلى الله عليه وسلم؛ لئن بعث، وهو حي، ليُؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك على قومه. ونحوه عن السدي وقتادة، في آي تضمنت فضله، من غير وجه واحد.

ثم قال القاضي، عن قتادة، إن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "كنتُ أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث". وانظر تمام الفصل،[الشفاء، ص22: نسخة خطية].

أما الآية التي صدر بها هذا الفصل، وهي: (وإذْ اخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) فهي أعظم آية أبانت عن تفضيله والتنويه بقدره، وعلو مقامه عند ربه، واصطفائه لتقريبه. قال الخفاجي في "شرح الشفاء"، إثر ذكر القاضي لهذه الآية:

{واعلم أن هذه الآية أجل آية في حقه، صلى الله عليه وسلم. وقد أفردها التقي السبكي برسالة سماها: "التعظيم والمنة، في قوله تعالى: لتؤمنن به ولتنصرنه"، قال فيها: في هذه الآية من التنويه به، صلى الله عليه وسلم، وتعظيم قدره العلي، ما لا يخفى. وفيها مع ذلك على تقدير مجيئه، صلى الله عليه وسلم، في زمانهم، يكون مرسلا إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق، من آدم، عليه الصلاة والسلام، إلى يوم القيامة، ويكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، صلى الله عليه وسلم، ويكون قوله: "وبعثت إلى الناس كافة"، لا يختص بالناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضا. ويتبين بذلك معنى قوله، صلى الله عليه وسلم: "كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد"، وأن من فسره بعلم الله تعالى بأنه سيصير نبيا لم يصل إلى هذا المعنى، لأن علم الله محيط بجميع الأشياء، ووصف النبي، صلى الله عليه وسلم، بالنبوة في ذلك الوقت؛ ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت. ولهذا رأى آدم، عليه الصلاة والسلام، مكتوبا على ساق العرش: محمد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم. فلا بد أن يكون ذلك معنى ثابتا في ذلك الوقت}.

وأطال التقي في هذا المعنى، وأوضحه إيضاحا أظهر معنى الحديث على ما ينبغي. أنظر تمامه في"شرح" الخفاجي. [نسيم الرياض:300/1].

ثم قارنْ بينه وبين ما أشار إليه صاحب "الفتوحات"، من أن الأنبياء والرسل هم خلفاؤه، عليهم الصلاة والسلام؛ تجد المعاني متقاربة، وسيادته، صلى الله عليه وسلم، وعلو منزلته وتقدمه على كافة الخلق، ثابتة. وحقيقته المحمدية كانت ثابتة، بنبوتها ورسالتها، "وآدم بين الروح والجسد".

وإذا ثبت هذا الفضل العظيم، لهذا النبي الكريم، الذي تفضل به عليه ذو الجود والكرم، والفضل الواسع الذي لا يحيط به حد ولا يحصيه قلم؛ فالمحب له القائم بمحبته، والمدمن لذكره، بالصلاة والسلام عليه، في ليله ونهاره؛ هو حامد لله العظيم، على أن جعله من أمة هذا النبي الكريم، ومن أهل ملته.

ومن أطنب في مدحه، وأطال العبارات في إطرائه - لا كإطراء النصارى - وترداد ذكر محاسن شمائله وعلو قدره، وانفراده في شرفه وعلائه، لم يأت في ذلك إلا بما خصه الله به وفضله على العالمين، بمحض جوده وكرمه، ولنقل كما قال البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهمُ   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

فالقيام لذكر ولادة هذا النبي الأعظم، والرسول الأكرم، والصلاة عليه في ذلك، أفرادا أو جمعا؛ لا يعد بدعة قبيحة، بل هي قربة إلى الله صحيحة، لأنها شكر لله على أن أفاض عليه إنعامه، وأتم عليه أفضاله، وجعله نورا، ولهذه الأمة التي كانت بسببه خير أمة، بهجة وسرورا، كما سلف. وكذلك كثرة ذكره الشريف، وترداده باللسان، وإظهار الخشوع والبكاء، شوقا إلى لقائه، فهو ممن أحبه، فيكون معه في الجنة، كما في الحديث.

وعليه، فمن صار يقول: محمد، محمد، ويكرر اسمه الشريف، ثم يقول: مكرم معظم، حبا فيه، وشوقا إليه، وتعظيما لجنابه؛ هو من أدلة محبته، عليه السلام، فيثاب على ذلك؛ ففي "شفاء" القاضي عياض:

{ومن علامات محبة النبي، صلى الله عليه وسلم، كثرة ذكره له؛ فمن أحب شيئا أكثر ذكره، ومنها كثرة شوقه إلى لقاء حبيبه}. قال:

{ومن علاماته، مع كثرة ذكره، تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع إسمه. قال ابن إسحاق التجيبيّ: كان أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، بعده، لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كثير من التابعين، رضي الله عن جميعهم؛ منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقا إليه، ومنهم من يفعله تهيبا وتوقيرا}.هـ [24/2].

وبهذا يعلم أن ما نقله الإمام الحطاب، آخر باب الردة، من"مختصر" الشيخ خليل، عن البلقيني في فتواه من سؤاله عن جماعة يذكرون، وفي أثناء ذكرهم يقولون: محمد، محمد. يكررون الإسم الشريف، ويقولون آخر ذلك: محمد، مكرم، معظم. هل يكون ذلك ذكرا يؤجرُون عليه، وهل فيه إساءة، وهل ورد في ذلك شيء من كتاب أو سنة؟

فأجاب: لم يرد بذلك آية، ولا خبر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا أثر عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن الفقهاء بعدهم، ولا ذلك من الأذكار المشروعة، ولا يؤجرون على ذلك. وهم مبتدعون شيئا قد يقعون به في إساءة الأدب. وأما قوله: محمد محمد، مكرم معظم؛ فهذا ليس كالذي قبله، وهو إخبار بالواقع، ولم يرد فيه ما يقتضي أن يكون مطلوبا. والقياس ما نهى الله عنه في قوله تعالى: (لاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)، وقوله تعالى: (وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)؛ وما طلب من الأدب منهم في حق النبي، صلى الله عليه وسلم، يقتضي النهي عن ذلك هـ. (قلت)، أي قال الإمام الحطاب: قوله: وأما قولهم: محمد محمد، مكرم معظم؛ يعني من غير تكرير للإسم الشريف. وما قاله ظاهر. ومثل هذا قول كثير من العامة: صلوا على محمد هـ.[290/6].

وإن هذا القائل إن أنشأ ذلك عن حب لهذا النبي، وتلذذا بهذا الإسم الشريف، واستجلابا لحبه، والخشوع عند ترديد اسمه؛ فهذا من آثار محبته، يثاب عليها؛ وقد سمعت من كلام القاضي أن ذلك كان من شأن الصحابة والتابعين، فلا معنى لإنكاره.

قلت: والظن أن هذه المسألة كانت جرت بدرس شيخنا الكتاني، صاحب الترجمة، واستروح جوازها مما نقله عن الولي الشهير، العارف الكبير، سيدي عبد المجيد البادسي الريفي، البطفتي الملامتي. وكان أعزب، يسكن بالفندق المنسوب إليه شمال جامع القرويين، المعروف به.

وذلك أنه كان، كما في "الصفوة"، كثير الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، دائم اللهج به وبالصلاة عليه، شديد الكلف به والشغف بمحبته، عظيم المحبة لآل البيت. وكان إذا شرع في الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، يبتدئ فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم، (إنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). يرتب ذلك ترتيبا حسنا، حرفا بعد حرف. ثم يقول: اللهم صل على محمد. ثم يغلبه الوجد فيقول: محمد، محمد. مفردا، ولا يزال يذكره قائما

وقاعدا، وعلى أي حالة كان، ولو في بيت الخلاء، فقيل له: أتذكر في بيت الخلاء؟! فقال: سكنت يا أخي، أي المحبة. والله أعلم. هـ من" صفوة من انتشر، من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"[ص31].

وقد ذكر له كرامات ومناقب، وذكر عنه أنه أخذ عن سيد الوجود دون واسطة. ثم إنه لم يذكر مولده ولا تاريخ وفاته، وإنما ذكر أنه من أهل القرن الحادي عشر.

وبالجملة؛ فهو رجل تعلق بالواسطة العظمى، وملأ باطنه وظاهره بحب المقام الأسمى، وتمسك بالعروة الوثقى، واحتمى بالمقام الأعز الأحمى، واعتصم بحبل ذلك الجناب، واستفتح الباب، للدخول في حضرة الملك الوهاب، الذي منه المبدأ وإليه المنتهى والمآب.

ويقرب من هذا الحال، في طلب الوصال، بالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، في كل الأحوال؛ ما ذكره في "الفتوحات"، في الباب540، في حال قطب كل منزلة:(وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ) الآية،[حسبما سبق نقله بلفظه في الجزء الرابع من هذه "الفهرسة"، عند الكلام على فوائد الشيخ البلغيثي، صفحة الطبع: 184].

وهنا نختم هذا التوئلف الذي أدمجته في ترجمة شيخنا الكتاني، الذي دعا إلى جمعه وتأليفه، وإفاضة القول في إحداث المولد المذكور؛ ما وقفت عليه من مولدية شيخنا المذكور، وأتيت به متتبعا لما يستدعيه المقام، ويقتضيه واجب الاحترام، وتتطلبه مباحثه العذبة التي يشفي منها غليله[و]يحوم حول مواردها المتعطش إلى استماع أخبار سيد الأنام.

***

[عود إلى ترجمة الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني]

وأشرع في تمام ترجمة شيخنا الذي أطلنا الاستطرادات فيها، وما خرجنا في ذلك عما يناسبها إلى ما ينافيها. فأول ما خرجنا إليه مما طال[فيه] تتابع الفصول والأبواب، وخرج في فن المعاني عن حد الإطناب؛ ذكر الحديث وشأنه وتعدد مراحله، من لدن صاحب الرسالة، والناسخ بنور هدايته ظلام أهل الجهالة، إلى عصرنا هذا، وهو القرن الرابع عشر. وذلك أنه قدمنا في افتتاح ترجمة شيخنا، ما كان عليه أولا من الاشتغال بالعلوم الإسلامية ودرسها بجامع القرويين، كما كان شأن العلماء المدرسين به، من الفقه والنحو والأصول ونحوها. ثم

لما آنس تبدل الحال، واستحالت الأحوال، وآل الأمر إلى الاختلال، وتدخل الأجنبي عند تمام الاحتلال؛ آثر الارتحال، ومال إلى غير وطنه وصمم الانتقال، ولسان حاله ينشد المثال:

أقيمُوا بني أمّي صدور مطيكم   فإنّـــي إلى قوم سواكم لأميلُ

وهو في تلك الأحوال معرض عن كل تلك العلوم، مما تحتوي عليه من المنظوم والمفهوم، ومقبل على حديث سيد الأنام، في سائر الأيام، سواء أرتحل أو أقام. وهو كما أشرنا إليه سابقا، يتخذ ذلك وسيلة وتعلقا بكلام هذا الواسطة العظمى، والمقام الأسمى، والحجاب الأعظم، الذي جعله الله، جل وعلا بفضله وجوده، باب الدخول إلى حضرة قربه؛ فمن أتاه منها لا يخيب فيما قصد وأم، إذ التوسل بكلامه، كالتوسل به، صلى الله عليه وسلم.

[قراءة "صحيح" البخاري لتفريج الكرب، وما كانت عليه عادة تطوان في ذلك]

ولهذا اتخذ الأئمة الأعلام، كتاب البخاري وسيلة عند تفاقم النوائب العظام؛ فتنفرج به الكربات، وترفع الملمات ويدرك المرام.

وقد أدركنا الناس ببلدنا أنه مهما ألمت بهم ملمة، من قحط بحبس الأمطار، أو فتنة تعم من صولة الفجار والثوار؛ يدعون إلى المساجد لقراءة "صحيح" البخاري، ويضاف إليه الكثير من الأذكار.

ولقد حضرتُ يوما، وأنا صغير السن، في اجتماع حافل بالزاوية الريسونية، وقد حشر له الناس من علماء وصلحاء وأعيان وغيرهم، لملمة ألمت بالناس.

وكان الشأن أن يرأس الاجتماع قاضي المدينة، وهو الذي يجمع العلماء والعدول وغيرهم، ويوزع عليهم"صحيح" البخاري، إذ كانت بخزانة الكتب التي بالجامع الكبير من ثغر تطوان، نسخة مجزأة لهذا الصدد، فيختم بها "صحيح" البخاري، في جلسة واحدة، إلى أن يقع الختام بحديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمان، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم".

وكان القارئ في هذا الختم، بصوته الحسن وغنته الرقيقة، شيخنا العلامة سيدي محمد بن الأبَّار.

[التوسل بكتاب البخاري عادة قديمة]

ثم إنا كنا نظن هذا التوسل بهذا الكتاب كان من إحداث هذه الأزمنة المتأخرة، حتى وقفت في "طبقات" التاج، في ترجمة ابن دقيق العيد، أن هذه عادة قديمة، إذ كان الناس يلجأون إلى التعلق بهذا الكتاب العظيم المقدار، الجامع لأحاديث النبي المختار، وذلك أنه قال في ذكر كرامات تقي الدين المذكور:

ومن كراماته أنه لما جاءت التتار، ورد مرسوم السلطان إلى القاهرة، بعد خروجه منها، للقائم على أهل مصر أن يجمع العلماء ويقرأوا البخاري. قال الحاكي: فقرأنا البخاري إلى أن بقي ميعاد، وأخرنا لنختمه يوم الجمعة. فلما كان يوم الجمعة، رأينا الشيخ تقي الدين في الجامع، فقال: ما فعلتم ببخاريكم؟ فقلنا: بقي ميعاد أخرناه لنختمه اليوم. قال: انفصل الحال من أمس العصر، وبات المسلمون على كذا. فقلنا: نخبر عنك؟ فقال: نعم. فجاء الخبر بعد أيام بذلك. وذلك في سنة ثمانين، عند دخول التتار البلاد.هـ من الطبقات:[4/6]. وكانت وفاة الشيخ ابن دقيق العيد سنة سبعمائة واثنين، فهو من أهل القرن السابع.

أما علماء المغرب، من المتأخرين وغيرهم، فقد نصوا على هذا الفعل، ففي "أزهار" ابن الحاج ما لفظه: ولم يزل الناس يقصدون قراءته عند الشدائد، فتنفرج كرباتُهم وتظهر عليهم بركاته. قال ابن أبي جمرة في قصيدته السابقة:

كم كشفنا به من كربة عظمتْ وكم طردنا به من حادث هجمَا

وقال بعضهم:

صحيح البخاري واظب على قراءته واروه في المشاهدْ

فذاك المجرّب ترياقهُ لدفع سمُوم أفاعي الشدائدْ

هـ[ص142].

أما التنويه بهذا الكتاب العظيم الأسمى، والكرامة المحمدية العظمى؛ فلا يستصغره إلا من كان في البصر والبصيرة أعمى. ومن كان في قراءته أعمى، فهو في الانتفاع بدرايته أعمى.

وأنا العبد الضعيف البعيد أن أعرّف بهذا الكتاب العظيم، الذي أغنى أئمة الأعلام عن التنويه به والتعريف. هو كتاب إرشاد للفقيه المبتدئ، وإفادة للمحدث المنتهي، إذ يجمع

بين الرواية والدراية؛ فتراجمه تهدي إلى مأخذ النصوص الفقهية، ومتونه تري المحدث الأسانيد الصحيحة الجليلة.

وأنا في خاصة نفسي، أراه هو الكتاب الجامع المانع، الذي يغني من اعتنى به ويفهمه عن ما سواه من المصنفات الحديثية، ويكفي المتطلع إلى الاجتهاد عن بداية المجتهد، ونهاية المقتصد، في بلوغ الأمنية. وفيه قال تاج الدين السبكي في "طبقاته":

علا عن المدح حتى ما يُزانُ به   كأنما المدحُ من مقداره يَضعُ

له الكتاب الذي يتلو الكتاب هدى   هذه السيادة طودًا ليس ينصدعُ

الجامع المانع الدين القويم وسنـــــة الشريعة أن تغتـــالها البـــدعُ

إلخ. والأمر في شأن جلالة الإمام البخاري، وإمامته في الحديث والفقه يطول، ولا يعرف قدره إلا من ألقى السمع إلى كتابه وتأمل، وكان له إلمام بالحديث والفقه وأصوله، وهو مجد غير ملول. وفضل هذه الأمة وظهور معجزات نبيها الفاتح الخاتم لا تحصيه النقول، ولا يزال نوره، عليه الصلاة والسلام، ساطعا في أمته لا تطفئه أفواه الأعداء من الملحدين والضالين، ولو حاولوا التغيير والتحريف بالمقالات التي يغتر بها القاصرون في العقول، بل هو الدين القويم الذي تحميه طائفة قائمة على الحق إلى أن ينقضي هذا العالم ويزول، كما دلت عليها ما صح عنه، عليه السلام، من الأخبار والنقول.

***

المباحث التي تحتوي
عليها ترجمة شيخنا الكتاني

أما ترجمة شيخنا العادية، التي نشرع في إتمامها؛ فمباحثها:

أولا : نسبه.

الثاني: حاله وأوصافه.

الثالث: تلقيه العلوم الظاهرة والباطنة.

الرابع: نشره العلوم، وتبليغه إلى الناس ما يحمله من تلك العلوم، امتثالا لقوله، عليه الصلاة والسلام:"بلغوا عني ولو آية"، والاعتناء بالجمع والتصنيف، وما خلفه من المصنفات، [ثم] وفاته وانتقاله إلى ربه.

وقد أسلفنا شيئا كثيرا مما تضمنته هذه المباحث، ولكن جمعها في هذا الموطن أولى، وإن تكررت، فالمكرر في شأن شيخنا العارف بالله، والقائم على سنة رسوله، أعذب وأحلى.

أما نسبه؛ فهو شريف جليل إدريسي، ذو المجد الأصيل في الشرفين الطيني والديني. والسادات الكتانيون هم من فرع يحيى ابن الإمام محمد ابن مولانا إدريس الأزهر. قال في"الدرر البهية":

{ فمن أبنائه - يعني يحيى - الشرفاء الكتانيون أهل عقبة ابن صوال. قال في"الدر السني" في ترجمتهم: هم من شعَب الأدارسة، الذين آثارهم واضحة غير دارسة. نسبهم أوصل نسب، وسببهم أوثق سبب، وبيتهم بيت مسكنة وكفاف، وتواضع وعفاف. لهم في الناس، على ما هم عليه في أنفسهم من الخمول، تسليم من الكافة لنسبهم الشريف وقبول؛ لا يخفى أمرهم، ولا يجهل قدرهم. وهم من ولد محمد بن إدريس، الخليفة بفاس بعد أبيه، ثم من ولد حفيده يحيى، وكلاهما كان أميرا. [108/2]؛ قلت: وكل ذلك معروف من دولة الأدارسة.

ثم قال صاحب"الدرر": رجوع لهؤلاء الأشراف السادة الكتانيين، فنقول: إن أول من خرج منهم من حضرة فاس، أيام زناتة ومكناسة، هو السيد الجليل، والماجد الحفيل، معدن التبر وينبوع الفضل، أ بو زكرياء، يحيى بن عمران بن عبد الجليل بن يحيى بن يحيى ابن الإمام محمد ابن مولانا إدريس الأزهر. استقر أولا بحجر النسر، ثم انتقل لزواوة، حوز الجزائر، وبايعه أهل تلك النواحي، وتسمى بأمير الناس. وهو أول من دعي بذلك وبالكتاني، لأنه أول من جيش بخيام الكتان، فدعي بالكتاني لهذا السبب. ثم انتقل أبناؤه لشالة أيام عبد المؤمن بن علي الموحدي. ثم بعد انقراض الدولة الموحدية، انتقلوا لمكناسة الزيتون، أوائل الدولة المرينية، في أيام أبي بكر بن عبد الحق، وذلك سنة ست وستين وستمائة، وقيل سنة64. ثم انتقلوا لفاس آخر الدولة المرينية، ثم الوطاسية ، وذلك أواسط المائة العاشرة. وأول قادم منهم على فاس، هو الشريف الجليل، الأجل الأرضى المبجل، سيدي محمد بن قاسم بن عبد الواحد. ثم ذكر صاحب"الدرر" سلسلة نسبه إلى مولانا إدريس. ثم قال: وقد خلف هذا السيد القادم ولدين، وهما: أبو الجمال طاهر، وأبو فارس عبد العزيز. ثم قال: أما السيد الطاهر فلا عقب له، وأما السيد عبد العزيز ففيه البيت والعدد. وكان مجذوبا محبوبا، ذا كرامات وأحوال. وإذا فاض فيه الحال، أخبر بالمغيبات،

وتكلم بكلمات عرفانية. وإذا قوي حاله، دخل بيت نار فرن زقاق البغل، وهو في نهاية الحرارة، فلا يتألم بذلك. وبالجملة، فمناقبه كثيرة جدا. وهذه الشعبة المباركة، قلما تخلو من الخير على تعاقب الأزمان. [109/2].

ثم صار صاحب "الدرر" يبين ما تفرع عن هذه الدوحة اليانعة من الفروع، إلى أن قال في أثناء الفرع ممن تفرع عن سيدي الزمزمي، فقال: وأما الفرع الثاني، وهو السيد الطائع، فكان من الشرفاء المشهورين، والأمجاد المذكورين، ذا جاه ووجاهة، وكرم نفس ونزاهة، وكمال ونباهة. وكان للناس فيه اعتقاد كبير، وهو بذلك جدير. توفي سنة 1264 هـ[119/2].

ثم ذكر ما خلف من الفروع، وهم السيد أبو العلاء إدريس، والسيد أبو حفص عمر، والمجذوب السيد المنتصر. أما السيدان إدريس وعمر، فكانا من العدول المبرزين المشار إليهما بالتعظيم والتبجيل.

وأما السيد المنتصر فقال فيه صاحب"الدرر": كان أولا سالكا. ثم اعتراه جذب وحال غيبته عن حسه. وذكر له الناس كرامات، وخوارق عادات. توفي، رحمه الله، على غير عقب. وأما الأولان فلهما عقب؛ فللفقيه السيد إدريس أنجال كرام، ذوو إجلال واحترام،الأول:

العلامة سيدي جعفر، والد شيخنا سيدي محمد، [وما وصفه به صاحب "الدرر"]:

أبو عبد الله السيد جعفر، فقيه المغرب، والترجمان المعرب، علامة الزمان، وواسطة عقد الأقران، الذي سمح به الدهر، واستنار به وجه العصر، وارث مالك بن دينار في السنن المحمدية، وخليفة مالك بن أنس في المسائل النظرية، ذو الملكة والاتساع، وسديد النظر ومديد الباع، وجودة نظر وكثرة اطلاع، الجازم المرفوع الأقران، والخافض بالإضافة كل مرفوع ذي شأن. إذا قال فحذام، وإذا برز علمه، انخفضت في مراقيها أعلام الأعلام، وإذا رُمت عدّ مفاخره، انكسرت دون عدها الأقلام؛ على ما آتاه الله من مكارم الأخلاق، واستنارة المحيا عند التلاق. ملازم للسنة قائم، لا تأخذه في الله لومة لائم. لا يواجه أحدا بما يكرهه، ولا يحابيه. وبالجملة فهو السري الجليل، العزيز المثيل، أبقى الله جلالته، وطيب أوقاته. له تآليف عديدة، وتقاييد مفيدة. لازم التدريس سنين، ثم أقبل على التأليف والتبيين. انتهت إليه رئاسة الفتوى، مع التواضع وعدم الدعوى؛ فكم فك من عويصة

مدلهمة، وكم كشف بحسن رأيه من غمة، وكم حل من عقد أعجزت الفحول، وكم امتطى من أسنمة صعبة المرقى والوصول. بدا بدره في طالع سعده لامعا، إذ كان بين بحري الحقيقة والشريعة جامعا، فهو البدر الساطع بين الأنجم الزاهرة، والبحر المحتوي على أصناف الجواهر الباهرة، العذب الصافي الزلال، المروي المشوب بخمر حبه المسكر الحلال، الذي طاب الثناء عليه في الحال والاستقبال. حرس الله بهجته ومهجته، وأجل مكانته وحرمته. أخذ عن شيوخ عديدة، كالفقيه الإمام، شيخ الإسلام، سيدي محمد بن عبد الرحمان السجلماسي الحجرتي، والسيد بدر الدين الحمومي، وأقرانهما. وأخذ عنه هو جماعة من طلبة وقتنا. وهو، حفظه الله، أحد أشياخنا، حفظنا الله فيه، ونفعنا بمحبته وعلومه، بمنه وكرمه.هـ[120/2].

[ترجمة الشيخ الفضيلي لشيخنا سيدي محمد بن جعفرالكتاني]

ثم قال صاحب "الدرر": وله أنجال كرام، ذوو مجادة وإعظام، وهم: الفقيه العلامة، أبو عبد الله، سيدي محمد، وله مشاركة في العلوم، مع مروءة ظاهرة، وسريرة طاهرة. سيما الخير عليه بادية، وألسن الخلق بالثناء عليه منادية. بادي الأسرار، لائح الأنوار، سري الهمة، زاهد ورع صالح مصلح، ميمون الطلعة، شامخ الرفعة، تقي زكي، سَني سُنيّ، طاهر القلب، منور الباطن، علم شهير، عزيز النظير. وللناس فيه اعتقاد كبير، وهو، حفظه الله، بذلك جدير.هـ كلام "الدرر"[121/2].

ولله دره، رحمه الله، إذ نسب الفضل إلى أهله، وأعرب بذلك عن الحق في إنصافه وعدله، وما خالف اعتقاد الجماعة في الأصل والفرع من قبل وما بعد، وما قال إلا بالذي علمت سعد.

وما أسفي هنا إلا أني لم أحظ ولم أظفر، بإدراك العلامة سيدي جعفر، فأغترف من هذا البحر الزاخر، من فنون علومه بنفائس اللآلي والجواهر، [حينما] وصلت إلى الحضرة الفاسية،[التي] كانت إذ ذاك جامعها القرويين بأمثال هذا الإمام زاهية.

ولكن حظوتنا بولده، شيخنا صاحب الترجمة، كانت لنا فيها بغية كافية، وعادت علينا، بحضور مجالسه، بالبركة الوافرة الوافية. كما أشرنا إلى ذلك في هذه "الفهرسة" الزاهرة بأنوار من أدركنا من علماء فيها كانت فضائلهم ظاهرة باهرة؛ لأني ما ارتحلت لهذه

الحضرة إلا بعد وفاة العلامة سيدي جعفر بنحو ثلاث سنوات، لأن وفاته كانت سنة 1323، ووصولنا لفاس كان سنة 1326 .

وقد خلف هذا الإمام مؤلفات كثيرة، وقد أثبتها كلها في آخر "فهرسته"، ولما عددها، أنشد على سبيل التواضع:

هذي التآليف من بعض الخطيئات فاشهد علي وأ شهد كل من ياتي
بأنها شقشقــات واتباع هـــوى وفخفخات وعجبٌ بالوريقــات

[ما كان يراه الشيخ جعفر الكتاني بشأن الغناء بآلة الطرب]

قلت: ومن الفوائد عن هذا الإمام أنه كان لا يرى بأسا بسماع الغناء، ولو بآلات الطرب. وكان على الضد من ذلك عصريه الإمام أبو عبد الله جنون، حتى وقع بينهما اختلاف وشقاق وتناف، وألف كل واحد منهما في الموضوع؛ فألف الشيخ جنون:"الزجر والإقماع، في تحريم آلة اللهو والسماع"، وألف سيدي جعفر في الرد عليه وإباحتها: "مواهب الأرب".

وذكر الكل من النصوص ما أدى إليه اجتهاده، وما ترجح لديه به رأيه، ووصلت إليه مقالات أهل العلم واتضحت بها لديه روايته، وبان نقله وإسناده. وكل مجتهد على طريق الحق مصيب؛ فإن لم يكن له أجران، فله في الأجر الواحد أوفر نصيب.

[تنبيه لما فات بشأن السماع في ترجمة سيدي عبد السلام ابن ريسون]

وقد استفدت من هذا فائدة، وهو أني كنت أشبعت الكلام في مسألة السماع، وما قاله فيها - إباحة ومنعا - الأئمة الأعلام، في ترجمة الولي الصالح ابن ريسون سيدي عبد السلام؛ وربما كان يفهم من ذلك، وما وقع للشيخ مع الإمام جنون في الاختلاف هنالك؛ أن الباعث لتأليف الشيخ جنون"الزجر والإقماع"، هو ما شاهده من إقبال الشيخ ابن ريسون على عمارة مجلسه بالسماع وآلاته، معتمدا بجواز ذلك وإباحته.

ولكن الواقع أن السبب في ذلك هو ما وقع بين هذين العالمين الكبيرين، في عصرهما، من الخلاف والشقاق، حتى ألف كل منهما ما ترجح لديه، وساق الكل في ذلك حسبما اقتضاه نظره أحسن مساق. والعلم كله للواحد الخلاق.

***

[رجوع واستدراك في موضوع ختم البخاري]

ثم هنا رجوع إلى ما سبق لنا في شأن ختم صحيح البخاري، لدفع البلايا النازلة، وقراءته بكل خضوع وخشوع؛ وبينا ما ألفينا عليه الحال في بلدنا، وأنه يقرأ في ختمة واحدة، في يوم واحد، وأنه عند الختام يعلن القارئ بصوته الحسن، وتغنيه المستحسن، بالحديث الذي ختم به البخاري، من وقوله، عليه السلام: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمان" إلخ ما قدمنا. فعند قول القارئ: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"، يواصل الحاضرون صوتهم بصوته، ويشرعون في الذكر، ويكررونه نحو المائتين أو أكثر، ثم يقع الختم ببعض سور من القرآن إلخ.

ثم إن الحافظ ابن حجر ذكر وجه ختم البخاري بهذا الحديث، عن شيخه الإمام البلقيني، ما لفظه: {لما كان أصل العصمة، أولا وآخرا، هو توحيد الله، فختم بكتاب التوحيد، وكان آخر الأمور التي يظهر بها المفلح من الخاسر، ثقل الموازين وخفتها، فجعله آخر تراجم الكتاب. فبدأ بحديث:"الأعمال بالنيات"، وذلك في الدنيا، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها ما كان بالنية الخالصة لله تعالى. وفي الحديث الذي ذكره ترغيب وتخفيف، وحث على الذكر المذكور لمحبة الرحمان له، والخفة بالنسبة لما يتعلق بالعمل، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب. وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم؛ وهو أن حب الرب سابق، وذكر العبد وخفة الذكر على لسانه تال. ثم بيّن ما فيهما من الثواب العظيم النافع يوم القيامة.هـ ملخصا من كلام ابن حجر. ثم قال بعد هذا:

(قلت) وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم؛ الحث على إدامة هذا الذكر. وقد تقدم في باب فضل التسبيح من وجه آخر، عن أبي هريرة حديث آخر لفظه: "من قال: سبحان الله وبحمده، في يومه مائة مرة، حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر". وإذا ثبت هذا في قول: "سبحان الله وبحمده" وحدها، فإذا انضمت إليها الكلمة الأخرى، فالذي يظهر أنها تفيد تحصيل الثواب الجزيل المناسب لها، كما أن من قال الكلمة الأولى، وليست له خطايا مثلا، فإنه يحصل له من الثواب ما يوازن ذلك.هـ [فتح الباري:418/13].

وكان ذكر قبل هذا عن ابن بطال أنه قال: هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر، إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال، كالطهارة من الحرام، والمعاصي العظام. فلا تظن أن من أدمن الذكر، وأصر على ما شاءه من شهواته، وانتهك دين الله وحرماته، أنه يلتحق

بالمطهرين المقدسين، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه، ليس معه تقوى ولا عمل صالح.هـ [417/13].

قلت: وقد ذكرنا في "شرح المشيشية" كلاما في هذا الموضوع، وما ورد في ذلك عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وقول الشيخ زروق: إن الأذكار كالترياق للذنوب، تشفي داء المعاصي وتمحوها، بفضل الله وكرمه. فراجع ذلك هنالك، إذ فضل الله واسع، ورحمته تشمل العاصي والطائع، والفضل بيده يؤتيه من يشاء.

***

[الرجوع إلى تتميم ترجمة الشيخ الكتاني]

ولنرجع إلى إتمام ترجمة شيخنا العادية، فأقول: أما حاله، وما أحرزه مقامه وإجلاله، فلقد سبق لنا شيء كثير من أحواله وإقباله على الحضرة الإلهية في أقواله وأفعاله. وقد سمعت آنفا ما قاله العلامة الفضيلي في"درره البهية"، في شأن هذا الإمام الذي يقل نظيره، لجمعه للصفات الحميدة، وقيامه على حفظ الشريعة والعمل بها أحسن قيام.

ولا بد أن نذيل ذلك هنا بما يقتضيه مقامه، ويستدعيه تعظيمه واحترامه، فأقول: إن هذا الإمام جاء من الله على قدر، مسارعا، على صغر سنه، إلى الخيرات في كل ورد وصدر، متقيا لله في كل أحواله، متجافيا عن كل ما لا يليق في أقواله وأعماله، متحليا بصفات سنية، متبعا ما تقتضيه السنة النبوية، متتبعا في سمته وأخلاقه الشمائل المصطفوية، وما كان عليه أصحابه الكرام من الجد والاجتهاد، والتباعد عن كل ما يصد عن ذكر الله، ويخرج عن منهج الرشاد.

وهو مع ذلك عين من أعيان الحضرة الفاسية، وصدر من صدورها، ذوي المقامات السامية. وقد نشأ فيها نشأة صيانة وعفاف، وعفة وعلو همة وقناعة بالكفاف. فأحياه الله حياة طيبة حتى إنه لم يتدنس بانضمام إلى جانب وظيف، ولا كان له إليه أدنى التفات؛ فأكسبته هذه الحال، مع أصالة نسبه وشرف محتده، أن صار معظما عند الخاصة والعامة، محببا عند أهل الصولة والدولة، مسموع الكلمة عندهم، متلقى بالتعظيم والتبجيل في لقياهم؛ تقبل شفاعته، ويرجى، لصلاحه وإعراضه عن الدنيا، أن تقبل من الله عند الشدائد دعوته.

[شفاعة الشيخ لـدى السلطــــان
في عائلة الشريف الكتاني]

وناهيك في ذلك أن المولى عبد الحفيظ، جلالة ملك المغرب، أيام تمكنه من مملكة المغرب، وانبساط نفوذه، وهو إذ ذاك عظيم المقام، والاتصال به فضلا عن معارضته والتعلق به في نقض ما أمضاه من العقد والإبرام، وحكم به على من ناوأه في شؤونه العظام؛ كان شيخنا هو الذي يقتحم مثل هذه الأمور، ويتصل به اتصالا لا يرومه غيره من خاصة أهل دولته الذين لهم عنده ذوو اختصاص واحترام؛ فقد كان هو الفرد الوحيد الذي تمكن من الشفاعة في إطلاق عائلة الشيخ ابن عمه، سيدي محمد الكتاني، في تلك النكبة المبكية، والملمة التي كدرت الخواطر، وعمت أحزانها البوادي والحواضر.

وذلك أنه بعد ما قضى الله في شأن الشيخ الكتاني ما قضى، وانتقل إلى دار البقاء، وأنكر من أنكر ذلك، ورضي من رضي، بقي حرم الشيخ وأهله في السجن منكوبا، وفي ساحة الهوان عن رجاء السلامة من القتل محجوبا. وكان في جملة الحرم الكريم، خاصة أصحابه المخلصين في حب جنابه؛ فقد تقبل الملك مولاي عبد الحفيظ شفاعته في الحرم، وخروجهم من السجن، والعفو عنهم، إجابة لطلب شيخنا، واعتبارا لما له من المقام المحترم عند السلطان. تكلم في المجلس بعض خاصة الخاصة عند السلطان، وكان يشترط أن لا يدخل فلان من أكابر أصحاب الشيخ، وسماه، فامتعض من ذلك شيخنا، وخالف ما يقتضيه الأدب في مجلس السلطان، وخاطب ذلك المعارض بكلام غليظ، وأشار إليه بيده أن اكفف عن الكلام، إذ ليس الكلام معك، وإنما الكلام للسلطان. وأشار إليه بأنه فضولي، إذ ليس بيده حل ولا عقد، أو كلام هذا معناه.

هذا ما تلقيناه من بعض أصدقائنا الذين سمعوا ذلك من شيخنا، صاحب الترجمة. ومن خاف الله، خاف منه كل شيء.

***

[اقتداء الشيخ الكتاني بالنبي،
صلى الله عليه وسلم، في سيرته وأحواله]

وبكل حال؛ فإن هذا الشيخ كان من أهل الفضل والصلاح، وممن يطير إلى أعمال الخير بغير جناح، وينادي برفق ولين كل من لقيه حيَّ على الفلاح. هذا مع تواضع وخفض جناح، وغض الطرف عن كل ما فيه ريبة أو جُناح. حليف الدراسة، زاهد في الرياسة، لا

يُرى إلا في مجلس التعليم، أو في منزله، يلتف إليه للاستفادة منه والتبرك به، وسماع وعظه، الخاصة والعامة؛ إذ كان شأنه أن يكون باب منزله مفتوحا، يدخل إليه من شاء، في الغذاء والعشاء، ومائدة الطعام عند وقت الطعام منصوبة، يأكل من ذلك من دخل. ولا يتكلف لذلك شيئا، ولو خبزا وزيتونا مثلا.

ولقد كنتُ يوما قصدت زيارته، إذ قدم من سفر، أنا وبعض الأصدقاء، فدخلنا الدار دون استئذان، فوجدنا المائدة منصوبة للأكل وهو في وسطها، وكل من دخل يأكل ما وجد، إن بدا له.

قلت: وهذه أخلاق النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ كان شأنه أن يأكل ما وجد، وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف. والضفف، ما كثرت عليه الأيدي، كما هو معروف في شمائله وسيرته، عليه الصلاة والسلام.

وما أظن أن شيخنا كان يخرج في اجتماعه، مع الخاصة والعامة، إلى المذاكرة في أمور الدنيا والتحلي بزهرتها، ومدح الغافلين الذين ألهتهم عن ذكر الله وعن الصلاة؛ بل كان أمره بالعكس من ذلك، وهو ذمها وذم أهلها، وترك الاشتغال بزينتها ولهوها، كما يعرب عنه فعله ومقاله.

وعلى وجه الجملة؛ فإن من تأمل هذا الشيخ وشاهد أحواله، وسمع كلامه وأقواله، يرى أنه [كان] عاملا بالوصاية الجليلة التي أوصى بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الصحابي الجليل سيدنا معاذ بن جبل، إذ قال: أوصاني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا معاذ؛ أوصيك باتقاء الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وإيَّاك أن تسب مسلما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آثما، أو تعصي إماما عادلا، أو تفسد أرضا. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية".هـ.

وعلى وجه الإجمال؛ فالولاية الكبرى، والمنزلة عند الله العظمى، هو اتباع طريق الحق؛ ولا طريق يوصل إليه إلا اتباع سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، في أحواله وأفعاله وأقواله، كما قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)، وهذه هي طريق أهل الشريعة والحقيقة.

وهذه الطريقة هي التي أتى بها النبي، صلى الله عليه وسلم، في النور الذي أنزل الله، وهي العروة الوثقى، والحبل الذي من اعتصم به لا يضل ولا يشقى، (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم)؛ الصراط الذي يوصل من اتبعه إلى النعيم المقيم؛ ففي"الرسالة" عن الصوفي الكبير، أبي حمزة البغدادي، أحد أقران الجنيد: من علم طريق الحق تعالى، سهل عليه سلوكه. ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أحواله وأفعاله وأقواله.هـ.

ومن هذا تعرف مقام شيخنا الكتاني، وما أعطاه الله بهذا الاتباع، من العلو والارتفاع، وانطلاق الألسن عليه بالثناء في كل البقاع، وإجماع كل من رآه وخالطه بأنه الرجل علما وعملا، وزهدا وورعا واتباعا لظاهر الشريعة وتبليغها، وسلوكا في طريق الحقيقة، سلوكا صادقا خالصا من شوائب الدعاوي الكاذبة، جامعا بين الطريقتين دون انحراف، ولا خروج عما بيّن للناس مما نزل إليهم من النور سيد بني عبد مناف.

قلت: وأظن ظنا صادقا أن ابن خفيف ـ أحد أئمة الصوفية ـ لو رأى شيخنا أبا عبد الله الكتاني، لألحقه بالخمسة الذين قال فيهم: اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سلموا لهم حالهم، الحارث بن أسد المحاسبي، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس ابن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق.هـ بنقل صاحب "الرسالة". [ص13].

قلت: وكذا لو أدرك زمانه أبو نعيم الأصبهاني، واطلع على سيرته، لألحقه بـ"حليته". نفعنا الله بشيخنا وأمثاله.

***

[ثلاثة من كبار علماء القرويين
الذين فات المؤلف الاتصال بهم والأخذ عنهم]

وهنا: لما وصلت لحضرة فاس، بقصد الدراسة والأخذ عن أكابر الشيوخ، الذين لهم في المعارف والعلوم والتقوى ثبوت ورسوخ، ألفيت ثلاثة من أركان علماء القرويين؛ منهم من لبى دعوة مولاه، ومنهم من ابتلاه بالمرض الذي ألزمه الفراش، ومنهم من كبر سنه، وشق علي الاتصال به لبعد منزله، وهم: والد شيخنا، سيدي جعفر، وقد تقدمت لنا ترجمته ووفاته، ومنهم العلامة الكبير، والقدوة الشهير، الشريف الجليل سيدي مَحمد القادري، ومنهم العلامة النبيل، والمحقق الجليل، سيدي مَحمد(فتحا) جنون.

أما سيدي جعفر، فقد ترك لنا من شجرته الطيبة فرعا يانعا، وغصنا بأنوار المعارف زاهرا؛ فحظيت بحضور مجالسه الحافلة، وتمتعت بسماع بعض دروسه التي كانت، على قلتها في الزمان، بمعانيها في شهود أنوارها بإدراك المنى كافلة.

***

[وصف مجالس الشيخ محمد بن جعفرالكتاني]

فلقد كنتُ أحضر مجالسه في قراءة "شفاء" القاضي عياض، فكنت أشاهد من منطقه العذب، وإلقائه الذي يخرجه من صميم القلب، ما[يجعلني] أخشع، من تلك العبارة الرائقة، ولِما احتفت به من الأنوار الساطعة وأخضع؛ وأجد في تلك الدروس، من النشاط والأذواق ما أغيب بمعانيها عما كنت أعانيه من المحسوس. ولا أجد ذلك في غيره من المجالس، وإن كان، رضي الله عنه، لا يخرج عما في "الشروح" المعتادة، ولا يخالف في ذلك ما تقرر فيها على مقتضى العادة. ولكن الفتح الرباني، يكسو الألفاظ كسوة المعاني، بنور إلهي لا يُدرك إلا بتقوى الله، التي لا ينطق صاحبها إلا عن الله، ولا يتكلم إلا بالله. ومن كان على هذه الصفة؛ فكلامه كله نور، لأنه في ذلك مأذون له ومأمور،(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ).

وقد كتبتُ في هذا الموضوع لبعض أصدقائنا، وأشرت في ذلك لِما وقع لابن عبد السلام المصري، سلطان العلماء، وهو إمام الظاهر، القائم بالحق والشاهر سلاح علمه على كل من يخالف قواعد الشريعة، لا يخشى في ذلك سطوة الملوك، ولا تهديد ذي صولة قاهر؛ لمَّا سمع كلام العارف بالله، سيدي أبي العباس المرسي، في درسه قال: هذا كلام حديث عهد بربه. وكل هذا راجع إلى قوله تعالى: (اِتَّقُوا اللهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ).

[من كرامات الشيخ الكتاني]

ومن كراماته التي أعدها لي فخرا، وأرجو أن تكون عند الله يوم القيامة ذخرا، أن وفقني الله لنشر ترجمة هذا الإمام، وفتح لي في ذلك من أبواب الرقائق العلمية، والدقائق الجليلة الخفية، وإعانته، جل وعلا، أن كتبتُ في شأن هذا الرجل، الذي هو من معجزات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في العصر الذي أدركناه، وشاهدنا ذلك ببصرنا وبصائرنا؛ مجلدا كبيرا في ذلك، مع ضعف القوة، واعتلال الصحة، واشتغال الفكرة. ولكن الفضل منه، جل وعلا ، وهو المعين على اقتحام كل ما صعب، ولأنه المطلع على كل ما خفي وبان. وما

النصر والفتح إلا منه، ولا القبول إلا بفضله؛ فعلى العبد أن يثابر على التقديس والتسبيح، والحمد والشكر والتفويض إليه في كل أموره ويستريح. وفي صباح هذا اليوم قلتُ:

إنْ حباك الإلــــه بالفتح والنصـــــر، فـواظـب تسبيحه والثنــاءَ
ودع الذنب كلــه كـــل حيـــن واذكـــر الله بكـرة ومسَــاءَ
وذر القـول في سواك ودعـــه أحْسَن الفعل [في الدنا] أم أســاءَ
واترك الخلق في وعيــد ووعـــد نافـذ فعل ربهمْ كيـف شــاءَ

[الشيخ سيدي مَحمد القادري، أحد الثلاثة الذين فات المؤلف الأخذ عنهم]

وأما شيخ فاس، وعالمها الجلي في تحقيقه وتحريره القياس، الشريف الجليل، العالم النبيل، سليل قطب الأقطاب، الصحيح الكرامات دون مشاقق ومباري، مولانا عبد القادر الجيلاني، الذي كنت أسمع من شيخي ابن الأبار فيه عن الإمام أبي عبد الله المسناوي، أنه قال: لم تبلغنا كرامة بالتواتر إلا عن الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني.

ثم هنا أستطرد رؤيا وقعت لي في عمري، وذلك أني كنت نائما في سريري، مستغرقا في النوم، إذ رأيت شخصين دخلا علي في غرفتي التي أنا نائم فيها، أحدهما طويل أسمر اللون، ولبسه لباس شبه لباس أهل البادية، وعليه برنس، كان في نظري أسود، وعلى رأسه قلنسوة مغطاة بذلك البرنس. والآخر عليه لبس أهل الحاضرة، يشبه لباس أهل فاس أوتطوان، فلما دخلا علي، ارتعت لذلك، وصرت ناظرا إليهما؛ فأما الأول فدخل ودنا مني، وجلس على الفراش الموالي للسرير. وأما الآخر، فوقف بالباب شبه الحاجب أو البواب للذي جلس حذائي؛ فأرشدت في ذلك المنام أن الذي جلس حذاءي هو مولاي عبد القادر الجيلاني، فمددت يدي إليه للتبرك به، فصافحني، فقلت له: ادع الله أن يحشرني معكم. فقال لي باللغة الدارجة: إيهْ. وأما الآخر فألهمت أنه سيدي مَحمد بن عيسى.

ولا يخفى ما كان خامرني من الفرح والسرور بالبشارة بأن أكون في زمرة هذا الشيخ، الذي هو بالولاية والكرامات الشائعة مشهور، وانتشار طريقته السنية في كل أقطار المعمور.

***

[الطريقة القادرية،
وشهرة شيخها شرقا وغربا]

وهي أحد الطرق الأربعة التي تجارة أورادها إلى الآن لن تبور؛ ففي "نشر المثاني"، للعلامة القادري، في ترجمة العالم الكبير، ذي الكرامات الظاهرة، فارس السناسن، عن تلميذه أبي العباس اليمني، أنه قال مرارا:

"إن طرق الصوفية الموجودة في هذا الزمان، محصورة في أربع، لا خامس لها، كالمذاهب الأربعة؛ وهي الطريق الغزالية، والقادرية، والرفاعية، والشاذلية".[57/2].

وشهرة مولانا عبد القادر، شرقا وغربا، تغني عن الكتابة في شأنه. وانتساب الشرفاء القادريين إليه، وصراحة نسبتهم إليه، قد أشرقت في الأقطار، إشراق الشمس في رابعة النهار. وهم حسنيو النسب.

وقد ألف في ترجمة هذا الولي الشهير، جماعة من أكابر علماء المغرب، كالإمام القصار، وابن أبي []، والقاضي الحميدي، وجماعة من علماء الفهريين، كصاحب "الأقنوم" وغيره، وسيدي سليمان الحوات.

والجيلاني، نسبة إلى جيلان. قال ياقوت في"معجمه": (جيلان) بالكسر، اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان. قال أبو المنذر، هشام بن محمد: جيلان وموقانُ، إبنا كاشج بن يافث بن نوح، عليه السلام. وليس في جيلان مدينة كبيرة. إنما هي قرى في مروج بين جبال. وينسب إليها: جيلانيّ، وجيليّ. والعجم يقولون: كيلان. وقد فرق قوم، فقيل: إذا نسب إلى البلاد، قيل: جيلانيّ، وإذا نسب إلى رجل منهم، قيل: جيليّ. قال: وقد نسب إليها من لا يُحصى من أهل العلم.[194/3].

ثم ذكر جماعة، ولم يذكر مولانا عبد القادر، مع أنه كان موجودا في تاريخه، لأن مولانا عبد القادر ولد سنة 470، وتوفي سنة561، وياقوت متأخر عن مولانا عبد القادر، إذ توفي سنة 626. ولعله لم يشتهر بهذه النسبة، لأنه سكن بغداد، وبها وفاته، وفيها بنيت روضته.

[كرامات مولانا عبد القادر الجيلاني]

أما ما ظهر على هذا الولي من الكرامات، فهي كثيرة، وفيها قال - كما سبق - الإمام المسناوي، إنه ما وصلت إلينا كرامات بالتواتر إلا عن الشيخ مولانا عبد القادر، ولعله ذكر ذلك في كتابه الذي سماه:"نتيجة التحقيق"، في هذا النسب القادري.

ومما نقلوا عنه في ذلك أنه كان يقول: ليرد عليَّ من الأثقال الكثيرة، لو وُضعت على الجبال لتفسّخت. فإذا كثرت علي الأثقال، وضعت جنبي على الأرض، وتلوتُ:(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا)، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت. قالوا: إنه كان يقول: يا رب، كيف أهدي إليك رُوحي، وقد صح بالبرهان أن الكل لك.

وكان، رضي الله عنه، يتكلم على ثلاثة عشر علما. وكانوا يقرأون عليه في مدرسته درسا في التفسير، ودرسا في الحديث، ودرسا في المذهب، ودرسا في الخلاف. وكانوا يقرأون عليه طرفي النهار: التفسير وعلوم الحديث، والمذهب والخلاف، والأصول والنحو. وكان، رضي الله عنه، يقرأ بالقراءات بعد الظهر. وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنهما. وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق، فتعجبهم أشد الإعجاب؛ فيقولون: سبحان من أنعم عليه. وكان يقول: تراءى لي نور عظيم ملأ الأفق، ثم رأيت فيه صورة تناديني: يا عبد القادر. أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات. فقلت: يا لعين. فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان. ثم خاطبني: يا عبد القادر؛ نجوت مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلتك. ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق. فقلت: لله الفضل. فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد أحللت لك المحرمات.

<u>قلت</u>: وشبه هذا، في التثبت وعدم الاغترار بالخروج عن الشريعة، ما ذكره في"الرسالة"، في ترجمة أبي العباس الروذباري، أنه سئل عمن يسمع الملاهي، ويقول: هي لي حلال، لأني وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال. فقال: نعم؛ قد وصل. ولكن إلى سقر.هـ [ص28].

وفيها، في ترجمة الإمام الجنيد، عن الروذباري، أنه سمع الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة، وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال. وهو عندي عظيمة. والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا؛ فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام، لم أنقص عن أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها.هـ [ص20]. <u>قلت</u>: وهنا ذكرت قول الله في كتابه، فيمن تكلم في المهد، وقد أشارت إليه أمه سيدتنا مريم، إظهارا لمعجزاته: (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًا وَبَرًا بِوَالِدَتِي).

فتأمّله، وردّ به قول كل جاهل وضالّ عن طريق الشريعة المحفوظة من تلاعب كل متساهل، وبطريق الحق جاهل. و"القرءان" هو النور الذي يُهتدى به في ظلمات المجاهل. وهذا تأييد وتذييل لما وقع لمولانا عبد القادر.

ومما وقع له، رضي الله عنه، وظهرت له فيه كرامة، أنه لما اشتهر أمره في الآفاق، اجتمع مائة فقيه، من أذكياء بغداد، يمتحنونه في العلم. فجمع كل واحد له مسائل وجاء إليه. فلما استقر بهم المجلس، أطرق الشيخ، فظهرت من صدره بارقة من نور، فمرت على صدور المائة، فمحت ما في قلوبهم، فبُهتوا واضطربُوا، وصاحُوا صيحة واحدة، ومزقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم. ثم صعد الكرسي، وأجاب الجميع عما كان عندهم؛ فاعترفوا بفضله.

وكرامات هذا الشيخ ومناقبه وأخلاقه، وكلامه في الحقائق، وآدابه في طريق التصوف، كثيرة جدا، وقد ذكر العارف الشعراني في "طبقاته" جملة من ذلك؛ فعليك بمراجعتها.

وإنما أتيتُ بهذه النبذة استنزالاً للرّحمات، التي تنزل بذكر أهل الولايات، والمقربين إلى الله، جل وعلا، بالأعمال الصالحات؛ وإلا فمقام هذا العارف بالله أشهر من أن يُذكر، أو يحتاج إلى تسطير في هذا الدفتر.

***

[ترجمة العلامة السيد مَحمد القادري]

ولنرجع إلى ذكر هذا العلامة القادري، الذي فاتني أن أحظى بحضور مجالسه، وأن أقتبس من نور معارفه، وأن ألتقط من جواهر نفائسه؛ وقد ذكره العلامة الفضيلي في"دُرره"، فقال: الفقيه العلامة، المدرس النفاعة، أبو عبد الله، السيد مَحمد(فتحا). له باع في جميع الفنون، وله تآليف وحواشي وتقييدات مفيدة. مع مروءة ظاهرة، وسريرة طاهرة. تابعٌ للسنة، تاركٌ للبدعة، ملازم لما يقرّبه إلى مولاه ويدنيه منه. عُرض عليه قضاء بعض الثغور أيام السلطان مولانا الحسن، فامتنع منه امتناعا كليا، واستجار بحرم الزاوية الزرهونية، طالبا الإقالة؛ فمن حسن نيته وصفاء طويته، حفظه الله من تلك الورطة، التي كان لغيره فيها غبطة. ولا زال بسمة الحياة، أمتع الله بحياته، ونفع به طلبة وقته، بمنه.هـ[191/2].

زاد صاحب"رياض الجنة": كان ممن انتهت إليهم الرياسة العلمية في وقته. وكان على طريقة مثلى، جاريا على سنن سلفه من متانة الدين، وحسن العقيدة، والعفة والنزاهة ولين العريكة، راضيا بالدون، زاهدا في تلقي الشهادة وتعاطي الإفتاء. دُعي لتولية القضاء

فامتنع، ثم أجبر فساعد ظاهرا. ولما سافر لمحل مأموريته، ومر على الزاوية الزرهونية، احترم بها إلى أن أعفي. متباعدا عن السياسة، مقبلا على شأنه، كثير البسط، حلو الدعابة، مليح الفكاهة، حاد النادرة، يورد من ذلك في دروسه شيئا كثيرا، إلا أنه لم يخل بوقاره، ولا بجلال منصبه، لعظم ديانته.هـ [ص53].

وقد تأخرت وفاته [إلى] سنة1331، بعد رجوعي من الحضرة الفاسية، بنحو ثلاث سنين.

[أخذ المؤلف عن الشيخ بالوجادة]

ومن أعظم الأسف أني ألفيته بقيد الحياة، يلقي الدروس في بعض المساجد القريبة من داره، إذ كان أعجزه الكبر أن يواصل دروسه بجامع القرويين؛ وكنتُ تقاعست عن اقتحام تلك المسافة، مع ما كنت متوجها إليه، مما كان يقتضي عليّ الوقت بتقديمه من الفنون؛ ولكن قدر الله أن فاتني خير كثير، لعدم حضوري تلك الدروس النفيسة.

ولكن يسّر الله أن أخذتُ جملة من تحقيقاته وتحريراته، بواسطة شيخنا البلغيثي، الذي قدمنا ترجمته. وكان من أهم كتبه التي ألفها،"حاشيته" على شرح الشيخ الطيب ابن كيران على توحيد"المرشد المعين". وهي "حاشية" جمع فيها فأوعى، واستوعب فيها مباحث الفن عقلا وسمعا، فكان هذا الكتاب من جمع الجوامع في علم العقائد إحاطة وجمعا. وقد طبع الكتاب في حياته، في مجلدين، وتلقاه الطلبة بغاية الغبطة والإقبال، وتسارع الكل إلى اقتنائه لنسخه واشترائها بسرعة دون تأخر وإهمال.

وفي هذه الحال كان شيخنا [البلغيثي] يقرأ شرح الشيخ الطيب بالمسجد القريب من داره بالنخالين من فاس، وكان يعتني بهذا الدرس، على عادته، غاية الاعتناء، ويأتي في ذلك الدرس بخلاصة "حاشية" شيخه [القادري] هذا، ويلقي مضمن ذلك في درسه. وأظنه أنه كان ذلك دون مزيد مراجعة، لأن شيخنا هذا هو تلميذه الخاص الذي أخرج هذه "الحاشية" من مبيضاتها؛ فكان يستحضر مضمنها بحثا وتدقيقا، قبولا وردًا.

وكان هذا الدرس قائما مقام ما فاتني من حضور مجالسه وأخذي بواسطة شيخنا، ما أسفت لفواته من تلقي فرائد معارفه، وجواهر نفائسه.

ويمكن أن يدخل هذا النوع في الأخذ بالوجـادة؛ وقد ذكروا من أنواعها وجود كتاب بخط مؤلفه، أو ثبت أنه كتابه، كما هنا، ولا سيما والمؤلف حي، وتلميذه الخاص الذي أخرجه من مبيضته هو الناقل عنه أو عن كتابته.

والمسألة عند أهل الحديث فيها خلاف وتفصيل. وقد انفصل الحافظ ابن الصلاح، آخر هذا المبحث، بالجواز، ونسب ذلك إلى جماعة من الصحابة والتابعين، ولفظه: وممن روينا عنه إباحة ذلك أو فعله: عليّ وابنه الحسن، وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص، في جمع آخرين من الصحابة والتابعين. ثم قال: ومن صحيح حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الدال على جواز ذلك، حديث أبي شاة اليمني، التماسه من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يكتب له شيئا سمعه من خطبته عام فتح مكة، وقوله، صلى الله عليه وسلم: "اكتبوا لأبي شاة". أنظر تمامه [علوم الحديث:71].

[كتابه"رفع العتاب والملام"، وتذييل بعض فصوله بمباحث وتعقبات فقهية وأصولية]

كما أني من جملة ما عثرتُ عليه من مؤلفاته المروية عنه، المنشورة بالطبع، مؤلفه الصغير، الذي سماه:"رفع العتاب والملام، عمن قال العمل بالضعيف اختيارا حرام"، وهو على صغر جرمه، كبير في علمه. وقد صدره بمقدمة قال فيها: اعلم أن هنا أسئلة وأجوبة عشرة:

الأول منها: هل المشهور والراجح مترادفان أو متغايران؟ الجواب: إنهما متغايران على التحقيق.

الثاني: إذا تعارض المشهور والراجح، هل يقدم في العمل والفتوى والحكم، المشهور أو الراجح؟ الجواب: إنه يقدم الراجح.

الثالث: هل عمل الإنسان في نفسه اختيارا، أو الفتوى لغيره، والحكم على غيره، بالمشهور أو الراجح، واجب أو راجح؟ الجواب: إنه واجب على الصواب.

الرابع: هل يحرم العمل والفتوى والحكم بالضعيف، من غير ضرورة، أم لا؟ الجواب: إنه يحرم.

الخامس: إذا عمل عوام الناس بالضعيف اختيارا، المرة بعد المرة، حتى صار لهم عادة وعرفا، هل يحرم على الإنسان أن يتبعهم، بأن يفعل مثل فعلهم، أم لا؟ الجواب: إنه يحرم عليه أن يتبعهم.

السادس: إذا عمل عوام الناس بالضعيف اختيارا، هل يجوز للإنسان أن يحضر معهم، أم لا؟ الجواب: إنه يحرم عليه أن يحضر معهم، وإن لم يعمل عملهم.

السابع: إذا عمل الناس بالضعيف، الذي لم يشتد ضعفه في الاختيار، هل يجب على العلماء الإنكار عليهم، أم لا؟ الجواب: إنه لا يجب، وإنما يستحب فقط.

الثامن: هل يجوز، للضرورة، العمل والفتوى والحكم بالضعيف، أم لا؟ الجواب: يجوز العمل به في نفسه، دون الفتوى والحكم.

التاسع: هل يجوز للإنسان في خاصة نفسه أن يعمل بالضعيف، مهما دعته ضرورة، وإن أدى ذلك للعمل به مرارا، أو إنما يعمل به عند الضرورة يوما ما، لأن العمل به مرارا من تتبع الرخص المنهي عنه؟ الجواب: إنه إنما يعمل به يوما ما.

العاشر: هل يجوز للإنسان أن يعتمد على الكتاب والسنة، وعلى مذاهب الصحابة، أم لا؟ الجواب: إنه لا يجوز. هـ [ص3].

قلت: وفي هذه المسألة العاشرة؛ ما لا يخفى من الإجمال في العبارة والإطلاق. وقد كنتُ كتبتُ في هامش هذه النسخة على هذه المسألة، ما لفظه: قوله: أن يعتمد على الكتاب والسنة إلخ، أي لا يجوز للمقلد أن يأخذ منهما الأحكام استقلالا؛ وإلا، فلا يمكن لمسلم أن يخرج على الكتاب والسنة، إذ أقوال المجتهدين إنما هي مأخوذة منهما، وهما الأصل. ولله در أبي حيان إذ يقول في مدح النحو:

هما أصل دين اللهِ من أنت عابدُهْ   به يُعرف القرآن والسنة اللذان

قلت: ولكن، هذا لا يخفى على الشيخ القادري. وسيأتي له تفصيل المسألة بأدلتها ونصوصها في الفصل الذي تكلم فيه على هذه المسألة العاشرة، لأنه، رحمه الله، أفرد كل مسألة، من هذه المسائل العشر، بفصل أفاد فيه وأجاد، وبين ما عليه فقهاء المذهب المتأخرين من الاعتماد.

ثم إنه جعل لهذا التقييد، بعد انفصاله عن بسط الكلام في الفصول العشرة، خاتمة صدرها بما قاله سيدي عبد الرحمان الفاسي بأنه يجب العمل بأقوى القولين في المسألة، والتخيير في المساويين.

ثم بسط القول في ذكر جزئيات من هذه المسألة من أبواب مختلفة؛ ومنها مسألة الخلاف في المذهب في إزالة النجاسة عن ثوب المصلي وبدنه ومكانه، قائلا: فالمشهور فيها الوجوب، والشاذ يقول بالاستحباب، وأن سيدي عبد القادر الفاسي صرح بشذوذه، ولا يعمل به إلا عند الضرورة.

ثم ذكر أن ما رجحه الشيخ الحطاب من أن هذا الخلاف الواقع في هذه المسألة، بين الوجوب والسنية، إنما هو لفظي، وأن الإعادة على من صلى بالنجاسة عمدا واجبة أبدية على كلا القولين، وصوّب ذلك ورد مقابله.

ثم اندرج بذلك لما ذهب إليه الشيخ علي الأجهوري، من أن الأقوال الثلاثة التي هي: الفرضية والسنية والاستحباب، كلها مشهورة في المذهب، وأن من عمل بواحد منها لا إثم عليه، إذ قال:

فرض إزالة النجاسة وقيل ... ندب وقيل سنة خذ يا نبيل
وكلها مشهر في المذهب ... من اقتدى بواحد لم يذنب

ثم أطال في رد كلامه، وجاء في ذلك بنصوص المخالف.

[مسألة إزالة النجاسة عن المصلي، وإفاضة الكلام في مباحثها]

ثم لا بد؛ إذ عرضت لنا هذه المسألة، التي هي إزالة النجاسة عن ثوب المصلي وبدنه ومكانه، وما فيها من الأقوال والاضطراب، وما ذهب إليه كل جانب من أن ما ذهب إليه، نقلا أو فهما، هو الصواب، وجريا على ما سلكناه في هذه"الفهرسة" من إفاضة الكلام، في مثل هذا المقام؛ فإنه علينا أن نأتي بكلام المتقدمين من أهل المذهب، وننقلها من أصولها، إما على طولها، أو بخلاصتها، مع تحري النصوص التي لا بد منها، فأقول:

<u>قال الإمام أبو الوليد الباجي</u>، في"المنتقى"، وهو أقدم كتاب في الفقه المالكي، المتداول بين أهل المذهب، وإن كان هناك ما هو أقدم منه ككتاب القاضي عبد الوهاب، وابن القصار، وإن كان الأصل للكل هو "المدونة الكبرى"؛ إلا أن الأخذ منها يصعب على المتأخر، لانتشاره في أبوابها، واحتياجه إلى مزيد اطلاع ومعرفة واسعة. ولفظ "المنتقى":

{فأما إزالة النجاسة، فإن أصحابنا العراقيين اختلفوا فيما حكوا عن مالك في ذلك؛ فحكى القاضي أبو محمد، في"المعونة" عن مالك في ذلك روايتين: أحدهما أن إزالتها

واجبة وجوب الفرائض؛ فمن صلى بها عامدا ذاكرا، أعاد أبدًا. وهو الذي رواه أبو طاهر عن ابن وهب. والثانية أنها واجبة وجوب السنن، ومعنى ذلك أن من صلى بها عامدا أثم، ولم يعد إلا في الوقت استحبابا. وهذا ظاهر قولي ابن القاسم. وعلى الوجهين جميعا، من صلى بها ناسيا أو غير قادر على إزالتها أجزأته صلاته، ويُستحب له الإعادة في الوقت. وذهب القاضي أبو الحسن إلى أننا إن قلنا: إنها واجبة وجوب الفرائض، أعاد الصلاة أبدا من صلى بها، ناسيا أو عامدا. وإذا قلنا: إنها واجبة وجوب السنن، أعاد الصلاة أبدا من صلاة بها عامدا. ومن صلى بها ناسيا أو مضطرا، أعاد في الوقت استحبابا. وقال القاضي أبو محمد مثل هذا في "شرح الرسالة". وقال في "تلقين المبتدئ": إنها واجبة لا خلاف في ذلك من قوله. وإنما الخلاف في الإزالة: هل هي شرط في صحة الصلاة، أم لا؟. قال الباجي: و هذا هو القول الصحيح عندي، إن شاء الله. وبالله التوفيق}.

ثم صار في"المنتقى" يبين الدليل على وجوب الإزالة من الكتاب، فقال:

{والدليل على وجوب إزالة النجاسة، قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ). ولا خلاف أنه ليست هاهنا طهارة واجبة للثياب غير طهارتها من النجاسة}. ثم صار يؤيد هذا الاستدلال، ورد ما يعارض به المخالف، ثم قال:

{والدليل على ما قلناه من جهة السنة، ما رواه البخاري عن ابن عباس قال: مر النبي، صلى الله عليه وسلم، بقبرين فقال:"إنهما ليعذبان"} إلخ [41/1].

فهذا كلام من أفراد الفقهاء الأندلسيين المالكيين، واضح مفهوم. ومآله يرجع للتوفيق بين القول بالفرضية والسنية، وإنهما في الوجوب سيان، ما عدا في الإعادة، فإن المصلي بالنجاسة عامدا قادرا، على القول الفرضي، يعيد أبدا ولو ناسيا. وأما على القول بالسنية، فإنه يعيد أبدا إذا كان عامدا. أو أما إذا كان ناسيا أو مضطرا؛ فإنما يعيد في الوقت استحبابا.

هذا ما أفاده ولخصه في هذه المسألة، هذا الإمام المالكي، الذي كان أوائل القرن الخامس، وأحد الراحلين للمشرق للرواية والدراية، حتى قال فيه أبو بكر ابن العربي: إنه لم يأت أحد إلى الأندلس بمثل ما أتى به الباجي. وهو رد تيار ابن حزم، الذي كاد أن يمحو مذهب مالك من ذلك القطر.

وفي هذه الحال، كان معتمد أهل الأندلس"الواضحة" لابن حبيب، و"العتبية" للعتبي. وكلا الكتابين كان يعدان من الكتب المعتمدة في الفقه المالكي، وأصلهما"المدونة". وقد شرح "العتبية"الحافظ ابن رشد في"البيان والتحصيل".

أما أهل المغرب؛ فكان أولا مُعتمدهم [كتاب] البرادعي، وهو "اختصار المدونة". ثم لما جاء كتاب أبي عمر ابن الحاجب، آخر المائة السابعة، عكف عليه أهل المغرب، وخصوصا أهل بجاية، لأن كبير شيوخهم، ناصر الدين الزواوي، هو الذي جلبه إلى المغرب، لأنه أخذ عن أصحاب ابن الحاجب بمصر. ومن ثم اهتم أهل المغرب من التونسيين وغيرهم بدراسته وشرحه. فشرحه، من أكابر علمائهم، ابن عبد السلام، وابن راشد، وابن هارون.

وأخيرا جاء خاتمة أئمة المالكية بمصر، الشيخ خليل، فجمع ما قاله هؤلاء، وقبل ما قبل، ورد ما رد في كتابه"التوضيح"، الذي يوجد بمكتبتنا بخط مغربي؛ فأراد أن يلخص المذاهب في مسألة إزالة النجاسة، فذكرها على أنها طرق مروية لا أقوال، فقال:

{وفي إزالة النجاسة ثلاثة طرق: الأولى لابن القصار، و"التلقين" و "الرسالة"، واجبة مطلقا، والخلاف في الإعادة، خلاف في الشرطية. الثانية للجلاب، و"شرح الرسالة"، سنة، والإعادة كتارك السنن. الثالثة للخمي وغيره. ثلاثة أقوال في"المدونة": واجبة مع الذكر والقدرة، لإيجابه الإعادة معهما مطلقا، دون النسيان والعجز، لأمره في الوقت خاصة. وقال في الظهر والعصر إلى الاصفرار. الثاني: واجبة مطلقا، لأن ابن وهب روى: يعيد أبدا وإن كان ناسيا. الثالث سنة، قال أشهب: تستحب إعادته في الوقت، عامدا أو ناسيا.}هـ [ص 16].

قال الشيخ [ابن الحاجب] في شرح كلامه:

{الطريقة الأولى: لا خلاف عندهم في الوجوب. وما وقع من الخلاف في الإعادة، فهو مبني على أنها هل هي واجبة شرطا، أو واجبة ليست بشرط؛ فالإعادة على الشرطية، ونفي الإعادة على عدمها. وما نسبه لـ"الرسالة" ليس كذلك، لأن فيها قولين: قول بالوجوب، وقول بالسنية. والطريق الثانية: لا خلاف عندهم في أنها سنة. وما وقع من الخلاف في الإعادة، مبني على الخلاف في تارك السنن متعمدا. وابن الجلاب، رحمه الله، لم يتعرض في كتابه لنفي خلاف، فلا ينبغي أن يعد قوله طريقة، لجواز أن يكون اقتصر على هذا القول لاختياره. والطريقة الثالثة: ظاهرة التصور، غير أن الشيخ عبد الحميد لا يرضى

بمثل هذا التخريج، لاحتمال أن يكون هذا القائل بالإعادة في الوقت، ولو مع العمد، يرى وجوب زوال النجاسة، ولكن لم يأمر بالإعادة أبدا، مراعاة للخلاف، ولاحتمال أن يكون القائل بالإعادة أبدًا إنما قال بذلك لأن مذهبه أن السنة يلزم فيها ذلك}.

قال في"التوضيح" إثر هذا:

{وزاد ابن رشد قولا رابعا بالاستحباب، قال: وطريقة اللخمي تدل على أن المشهور التفصيل، وقد صرح بذلك غير واحد. وذكر في"البيان" أن المشهور في المذهب، قول ابن القاسم عن مالك، أن رفع النجاسة من الثياب والأبدان سنة لا فريضة؛ فمن صلى بثوب نجس على مذهبه، ناسيا أو جاهلا بنجاسة، أو مضطرا إلى الصلاة فيه، أعاد الصلاة في الوقت هـ. وذكر المازري طريقة رابعة، فإنه قال، بعد ما ذكر كلام القاضي عبد الوهاب، إن إزالة النجاسة فرض: اضطرب الحذاق من أهل المذهب في العبارة على ذلك. والجاري على ألسنتهم في المذاكرات والإطلاقات، أن المذهب على قولين: أحدهما أن غسل النجاسة فرض، والآخر سنة، إطلاقا لهذا القول من غير تقييد. ومن أشياخي من يقول: المذهب على ثلاثة أقوال. فأشار إلى ما ذكره اللخمي. ثم قال: ومن عجيب ما في المسألة، أن القاضي أبا محمد، حكى الاتفاق على تأثيم من تعمد الصلاة بها. والاتفاق على التأثيم، يقتضي الاتفاق على الوجوب، إذ الإثم من خصائص الواجب. قال وسألت بعض أشياخنا عن هذا، فتوقف عن الجواب. وسألت غيره فقال: هو محمول على اختلاف طريقة}.هـ[ص 17].

[تفرع الأقوال، لانعدام النص القاطع، والاختلاف في التأويل]

وبكل حال، فإنك أيها الناظر في هذه النقول التي كتبناها في المسألة هنا،[ترى]أن الاضطراب الواقع فيها بين فقهاء المذهب، من القدماء والمتأخرين، بل ومن المعاصرين، يمنع فيها من التحصيل، ويحول بينه وبين ما يجب عليه فيها التعويل، وذلك لاختلاف الطرق والأقوال. وليس لدى صاحب طريقة أو قول نص صحيح صريح يرفع الاحتمال. ولذلك وصلت الأقوال إلى خمسة، واتسع بذلك المجال.

والخلاصة هنا: أنه لم يرد في وجوب إزالة النجاسة عن ثوب المصلي وبدنه ومكانه، نص صريح، لا من الكتاب ولا من السنة، ولا عن مالك الإمام؛ وكل ما استدل به لذلك هو قابل للتأويل، ولفظه يداخله الاحتمال. وما احتمل واحتمل، سقط به الاستدلال. وأكبر آية في الكتاب العزيز وقع بها الاستدلال، قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)، وقد تقدم لنا عن"المنتقى"

الاستدلال بها على الوجوب، وهي[وإن]كانت بظاهرها تقتضي ذلك، لكن ليست بنص في الوجوب الذي لا يقتضي غيره، كما هو حقيقة النص.

ولهذا اختلف المفسرون في ذلك. قال القاضي أبو بكر ابن العربي في"أحكام القرآن": اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على قولين: أحدهما أنه أراد: نفسك فطهر. والنفس يعبر عنها بالثياب إلخ. الثاني أن المراد به الثياب الملبوسة، فتكون حقيقة. ثم قال في المسألة الثانية: ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز. ثم قال: وإذا حملناها على الثياب المعلومة الظاهرة، فهي تتناول معنيين، أحدهما: تقصير الأذيال. ثم أطال في ذلك، ثم قال: والمعنى الثاني: غسلها من النجاسة، وهو ظاهر منها، صحيح فيها، وقد بينا اختلاف الأقوال في ذلك بصحيح الدلائل.هـ[288/2].

فأنت ترى القاضي في كتابه، الذي خصصه للأحكام الشرعية المأخوذة من القرآن، لم يذكر في الآية فرع إزالة النجاسة، ويجزم بأخذه من الآية الشريفة، لما فيه من الاحتمال، كما أسلفنا. ونحو هذا ما ورد في ذلك من ظواهر الأحاديث. وأشهر ما استدل به لوجوب إزالة النجاسة من الأحاديث، حديث القبرين، الذي تقدم لنا عن الباجي الاستدلال به أيضا من قبيل الظاهر، وليس بنص.

فصارت هذه الأقوال وهذه الروايات، بعد فقد النص القاطع، إلى اجتهاد آراء الفقهاء، وأصبحت مجالا لجولان الفهوم والآراء، وسلوك طريق الترجيحات في الروايات. وكل ذهب إلى ما أداه إليه فهمه، وبلغ إليه علمه، فتفرعت الأقوال، واضطربت في ذلك الترجيحات في الأنقال، وقد كاد أن يقع في الحيرة من يحاول أخذ ما عليه التعويل، بعد صرفه في النظر الزمن الطويل.

ولهذا الاضطراب، حاول العلامة الحطاب، أن يأتي في المسألة بفصل الخطاب، وأن يرد الخلاف إلى اتفاق ويزيل الارتياب؛ فقال عند قول خليل، في "فصل إزالة النجاسة، هل إزالة النجاسة عن ثوب مصل"إلخ، إلى أن قال: "سنة أو واجبة، إن ذكر وقدر أعاد" إلى آخره، في حَلِّ كلامه:

{والمعنى أنه اختلف في حكم إزالة النجاسة، عن ثوب المصلي وبدنه ومكانه، على قولين مشهورين: فقيل إن إزالتها عن ذلك سنة من سنن الصلاة على كل حال، أي سواء ذكرها أم لم يذكرها، وسواء قدر على إزالتها أو لم يقدر. وقيل إنها واجبة مع ذكر النجاسة والقدرة على إزالتها، لوجود ماء مطلق يزيلها به، أو وجود ثوب طاهر، أو القدرة على

الانتقال من المكان النجس إلى مكان طاهر. وأما مع النسيان لها، والعجز عن إزالتها، فليست بواجبة، بل تكون حينئذ سنة، كالقول الأول. هكذا ذكره ابن مرزوق، رحمه الله تعالى، في حل كلام المصنف، وهو المفهوم من كلام ابن رشد الآتي وغيره. وذكر المصنف، رحمه الله تعالى، في"التوضيح" أن ابن رشد شهر القول بالسنية، وأن طريقة اللخمي تدل على أن القول الثاني هو المشهور. قال: وصرح بذلك غير واحد، فلذلك اقتصر في "مختصره" على ذكر هذين القولين}. ثم قال الإمام الحطاب:

" قلت: والذي يظهر من نصوص أهل المذهب أن هذا الخلاف إنما هو خلاف في التعبير على القول الراجح في حكم إزالة النجاسة، ولا ينبني عليه اختلاف في المعنى تظهر فائدته. وذلك أن المعتمد في المذهب أن من صلى بالنجاسة متعمدا عالما بحكمها أو جاهلا، وهو قادر على إزالتها، يعيد صلاته أبدًا. ومن صلى بها ناسيا لها، أو غير عالم بها، أو عاجزا عن إزالتها، يعيد في الوقت، على قول من قال إنها سنة، وقول من قال إنها واجبة مع الذكر والقدرة. يظهر ذلك بذكر كلام ابن رشد، الذي نقل عنه المصنف تشهير القول بالسنية، وذكر كلام من وافقه من الشيوخ على ترجيح القول بالسنية".[131/1]

ثم نقل الشيخ الحطاب كلام ابن رشد وكلام غيره، ونبه على ما وقع لصاحب "التوضيح" في نقل كلام ابن رشد.

<u>وختم الحطاب</u> كلامه الطويل بقوله: وإنما أطلت الكلام في هذا، لأني لم أر من استوفى الكلام عليها، لأن كثيرا من الناس يفرعون على القول بالسنية، الذي ذكره المصنف، عدم إعادة العامد أبدًا. وليس عندي بصحيح، لما علمته، فتأمله.هـ [133/1].

وإنما أمر الشيخ الحطاب بالتأمل في كلامه، لما في النصوص القديمة، التي نقلنا بعضها من كلام "التوضيح" سابقا، ربما يخالف ما رآه من التوفيق.

أما المتأخرون من شراح خليل وغيره، فقد تلقوا كلام الحطاب بالقبول والاستحسان، لما أصلح به بين طائفتين متقابلتين، وأزال بذلك برزخ الخلاف، وبذلك لا يتنازعان ولا يختلفان. فجعل الخلاف بينهما في مجرد التعبير، لا ينبني عليه في المآل، بين القول بالسنية والوجوب، تبديل ولا تغيير.

<u>فنظره هذا حسن جميل</u>، لولا أنه عند تأمل النصوص السابقة، وتطبيقها على هذا الموضوع، تراها متنافرة بعض التنافر لهذا التوفيق. ولهذا لم يعتمده بعض المتأخرين كالشيخ الزرقاني، والعلامة العياشي في"رحلته"، وشيخ الأجاهرة، فيما نقله عنه شيخ

الشيوخ سيدي مَحمد القادري؛ ففي الزرقاني، بعد ما نقل ما قاله الحطاب، وردّ بوجوب الإعادة على الوجوب، وندبها على السنية، كما يفيده الفاكهاني، وبأن الإثم على السنية لاستخفافه بها، كما في ابن مرزوق، لا لتركها، وعلى الوجوب لتركه، وبأن القائل بها يرد، تمسك القائل بالوجوب، فهو معنوي.هـ [39/1].

ولكن رده الشيخ مصطفى، كما في بناني، وسكت عنه الشيخ الرهوني. وتأمله مع ما نقلناه من النصوص عن صاحب "التوضيح"، فإنه في جملتها يفيد على أن الخلاف حقيقي.

[رد ما توهمه أحد الفقهاء في نجاسة الثياب الصوفية المنسوجة ببلاد النصارى]

ولهذا قال العلامة المحقق،[أبو سالم العياشي]،أحد تلامذة إمام المغرب سيدي عبد القادر الفاسي، في "رحلته"، التي هي كتاب علم، لا كتاب رحلة، في رد ما شدَّد به الروداني، من الحكم بنجاسة الملِف، الوارد من بلاد النصارى، بأن الصوف المنسوج به منتوف من الحيوان الحي دُون جز، وأطال الكلام في ذلك، بعد أن نقل كلام شيخ الأجاهرة وشيخ المالكية بمصر، سيدي علي الأجهوري، وجوابه في المسألة، إذ من جملة ما فيه أنه قال:"إن ثبت ذلك، فيخرج على أحد الأقوال في النجاسة من سنة أو استحباب، لعموم البلوى به. فراجعه، أي الروداني، بأن القول بالسنية، مرجعه إلى الوجوب، على ما قال الحطاب وغيره، والقول بالاستحباب، لم يقل أحد بتشهيره، فلا يعول عليه. فأجاب: بأنه قد شُهر أيضا، ومن شهّره الفاكهاني. قال صاحب الترجمة: ولم أر للفاكهاني تشهيرا في ذلك. (قلت)، أي قال أبو سالم: ويمكن البحث في كلام صاحب الترجمة بثلاثة أمور".

فذكر الأمر الأول والثاني، وكلاهما يتعلق برد ما توهمه الروداني في مسألة نجاسة ثوب الصوف الوارد من بلاد النصارى، وتضعيف ما مال إليه. أما الأمر الثالث، وهو المقصود هنا،[فـ] إنه قال:

"سلمنا نتفها، وبقاء أجزاء النجاسة فيها إلى الآن، ولم نلاحظ أيضا ما ذكرناه في بقاء مثلها في الصوف المجزوز بالمشاهدة، فلا يبعد قول الأجهوري، فخرج على القول بعدم وجوب زوال النجاسة لأمور: أحدها أن ما ذكره الحطاب، من كون الخلاف في الوجوب والسنية لفظيا، غير مسلم، لورود ظواهر في جزئيات كثيرة تدل على أن القائل بالسنية، يقول بلوازمها من عدم الإثم، حيث لم يقصد التهاون وصحة الطاعة وغير ذلك.

ثانيها ما ذكره من كون القول بالاستحباب لم يشهره أحد، شهادة على النفي، والمثبت مقدم على النافي، سيما مثل الشيخ في جلالته، وسعة اطلاعه على فروع المذهب التي سلم له فيها المناظر، فإنه لم يبلغنا عن أحد في عصرنا، وما قرب منه، أنه جمع من كُتب المذهب ما جمعه، فلا يبعد أن يكون اطلع على تشهير هذا القول، سيما وقد عزاه، والناقل أمين.
ثالثها سلمنا عدم مشهوريته، فليس ببدع تخريج قول في مسألة عمت بها البلوى، وعسر الاحتراز منها، وجرى في أقطار الأرض العمل بها، من غير نكير، على قول في المذهب صحيح، ليس بمنكر ولا غريب ولا مردود، إلا أنه لم يشتهر كغيره. وكثيرا ما يكون القول المخرج هو المشهور في المذهب، والمخرج عليه ضعيف، فيقولون: هذا مشهور خرج على ضعيف. ومن تدبر فروع المذهب واستقرأها من أماكنها، علم صحة ما ذكرناه.
وشيخنا الأجهوري أمثل من له في زمانه الترجيح في فروع مذهبه والتخريج". هـ [الرحلة: 32/2].

وقد نقل كلام أبي سالم هذا، تلميذه شيخ الطريقة، ومعدن الحقيقة، مربي السالكين، وعمدة المحققين، أبو العباس، سيدي أحمد ابن العارف بالله سيدي مَحمد الناصر، الشهير، وسلمه.

وبالجملة؛ فالقول بالاستحباب وارد عن أئمة المذهب؛ وناهيك ما نقله عنه الشيخ خليل في "توضيحه"، وجعله قولا رابعا في المسألة، وكأنه ساواه بها. ونقله الشيخ الحطاب عن "التوضيح"، ولم يتعرض لتضعيفه ولا شذوذه. وكذلك حكى القول بالندب العلامة ابن ناجي في "شرح الرسالة"، في جملة الأقوال التي فيها، إذ قال:

{اختلف المذهب في إزالة النجاسة على خمسة أقوال: فقيل: إن ذلك واجب، وليس بشرط، وهذان قولان هما اللذان أراد الشيخ بقوله: فقيل إن ذلك فيهما إلخ. كذا فهمه غير واحد، كابن الحاجب. والأقرب أن الشيخ إنما أراد بذينك الوجوب والسنة المؤكدة، كذا فهمه، وعليه حمله ابن هارون. فهذه ثلاثة أقوال، والرابع أنها واجبة مع الذكر والقدرة، ساقطة مع العجز والنسيان. وهو ظاهر "المدونة". وقيل فضيلة، حكاه ابن رشد في"المقدمات". وزعم الشيخ عبد الحق في"تهذيب الطالب"، أن المشهور من المذهب، القول بالسنية، وهو كذلك}.هـ [93/1].

قلت: ولم ينفرد أبو سالم برد ما قاله الحطاب، من أن الخلاف لفظي؛ بل رده أيضا العلامة الخرشي، تبعا لشيخه الأجهوري، إذ قال في قول خليل: {إن ذكر وقدر}: وقيد

الذكر والقدرة في الوجوب، لا في السنة، إذ لا فائدة فيه، لأنه لا ينحط عن مرتبة السنية مع العجز والنسيان. وانظر ثمرة الخلاف والرد على الحطاب، القائل إن الخلاف لفظي، في "شرحنا الكبير".هـ [شرح المختصر:103/1].

وكتب العلامة الصعيدي على كلام الخرشي، ما قاله الحطاب، ثم نقل عن "كبيره" ما لفظه:

"وقال عج، يعني الأجهوري: وقول الحطاب إن الخلاف لفظي، فيه بحث، لأن الإعادة على القول بالوجوب واجبة، وعلى القول بالسنية مستحبة، كما يفيده كلام الفاكهاني". [103/1].

كما أن العلامة السنهوري لم يسلم ما قاله الحطاب، الذي يعبر عنه ببعض، بل ناقشه في ذلك؛ إذ قال في رد القولين بالوجوب والسنية، من حيث إعادة العامد أبدا إلى قول واحد، ونفي الخلاف الحقيقي، وأن الخلاف إنما هو في التعبير، إذ قال، بعد أن قرر لفظ المصنف على ما جرى عليه ابن مرزوق، ما لفظه:

{ويظهر بذلك أن مؤدى القولين واحد، والخلاف لفظي، كما ذكر بعض، لأن المعتمد في المذهب أن المضطر وناسي النجاسة وجاهلها، يعيد في الوقت، ومتعمدها وجاهلها يعيد أبدًا على كلا القولين. وهذا من حيث الرجحان؛ وإلا فلا شك في وجود القول بعدم إعادة العامد على القول بالسنية، كما ذكره في"المعونة"، عن أشهب والباجي، وعبد الحق وابن رشد، من سماع يحيى. لكن لم يشهر هذا القول بخصوصه أحد فيما رأيت، يعني: وإنما ذكره من ذكر على أنه قول في المذهب. يعني: فهو كحكاية ابن رشد القول باستحباب إزالة النجاسة، لا يفيد كونه مشهورا، وإن كان سيأتي في الصلاة قولان مشهوران في تارك سنة عمدا. لكن العمدة في كل مسألة على المنصوص، لا على ما خرج فيها من غيرها. وليست ثمرة الخلاف تأثيم العامد وعدمه، لتصريحه في"المدونة" بإثمه، ولو على السنية، كما مر.هـ}. ومساقه انتهاء كلام الحطاب.

ثم قال السنهوري: (قلت): انظر إنكاره عمدية التخريج. ويظهر من قول عبد الوهاب في"شرح الرسالة"، لا خلاف أنها سنة، والخلاف في الإعادة مبني على الخلاف في الإعادة، لترك السنن عمدا عمديته، وكثيرا ما يترك المنصوص للتخريج.هـ

ثم ذكر أمثلة من ذلك وقعت في أبواب ذكرها في "المختصر". وانظر تمام كلام السنهوري.["تيسيرالملك الجليل، بشرح مختصر خليل،النصف الأول، ص: 115].

والمقصود أنه لم يوافق الحطاب على جعل الخلاف في الوجوب والسنية لفظيا، بل هو حقيقي، كما ذهب إليه غيره عمن أسلفنا. والعلم كله لله.

وبكل حال؛ فهذه المسألة مما اضطربت بها الأقوال، وتعددت فيها الأفهام، وكل قائل أدلى بما أدى إليه فهمه، وما بلغه بعد اطلاعه على المنصوص علمه. وقد أسلفنا أن المسألة لما لم يأت فيها النص الواضح، وضعفت مآخذها ومداركها بالاحتمالات، صارت إلى الاجتهاد الذي من شأنه تعدد الآراء والأقوال.

[كلام ابن رشد على أصل هذه المسألة، وسبب الاختلاف]

ثم بعد كتابة هذا، وقفت على كلام صاحب"البداية"، وهو مضمن ما أسلفناه، ومؤيد غاية التأييد لما فهمناه، إذ قال: {والأصل في هذا الباب: أما من الكتاب، فقوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ). وأما من السنة، فآثار كثيرة ثابتة، منها قوله، عليه الصلاة والسلام: "من توضأ فليستنثر، ومن استجمر فليوتر"، ومنها أمره، صلى الله عليه وسلم، بغسل دم الحيض من الثوب، وأمره بصب ذنوب من ماء على بول الأعرابي، وقوله، عليه الصلاة والسلام، في صاحبي القبر:" إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول"إلخ. واتفق العلماء، لمكان هذه المسموعات، على [أن] إزالة النجاسة مأمور بها في الشرع. واختلفوا: هل ذلك على الوجوب أو على الندب المذكور، وهو الذي يعبر عنه بالسنة، فقال قوم: إن إزالة النجاسات واجبة، وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال قوم: إزالتها سنة مؤكدة، وليست بفرض. وقال قوم: هي فرض مع الذكر، ساقطة مع النسيان. وكلا هذين القولين عن مالك وأصحابه. وسبب اختلافهم في هذه المسألة، راجع إلى ثلاثة أشياء: أحدها قوله تبارك وتعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)، هل هو محمول على الحقيقة، أو محمول على المجاز. والسبب الثاني، تعارض ظواهر الآثار في وجوب ذلك. والسبب الثالث، اختلافهم في الأمر والنهي الوارد لعلة معقولة المعنى، هل تلك العلة المفهومة من ذلك الأمر أو النهي، قرينة تنقل الأمر من الوجوب إلى الندب، والنهي من الحظر إلى الكراهة، أم ليست قرينة، وإنه لا فرق في ذلك بين العبادة المعقولة وغير المعقولة، وإنما صار من صار إلى الفرق في ذلك، لأن الأحكام المعقولة المعاني في الشرع، أكثرها من باب محاسن الأخلاق، أو من باب المصالح، وهذه في الأكثر هي مندوب إليها، فمن حمل قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) على الثياب المحسوسة، قال الطهارة من النجاسة واجبة. ومن

حملها على الكناية عن طهارة القلب، لم ير فيها حجة. وأما الآثار المتعارضة في ذلك}. إلخ ما قدمنا عنه، وعن غيره.

ثم قال: {فمن ذهب في هذه الآثار مذهب ترجيح الظواهر، قال إما بالوجوب، إن رجح ظاهر حديث الوجوب، أو بالندب، إن رجح ظاهر حديثي الندب، أعني الحديثين اللذين يقتضيان أن إزالتها من باب الندب المؤكد. ومن ذهب مذهب الجمع، فمنهم من قال هي فرض مع الذكر والقدرة، ساقطة مع النسيان وعدم القدرة. ومنهم من قال هي فرض مطلقا، وليست من شروط صحة الصلاة، وهو قول رابع في المسألة، وهو ضعيف، لأن النجاسة إنما تزال في الصلاة. وكذلك من فرق بين العبادة المعقولة المعنى، وبين الغير المعقولة. أعني أنه جعل الغير معقولة آكد في باب الوجوب. فرق بين الأمر الوارد في الطهارة من الحدث، وبين الأمر الوارد في الطهارة من النجس، لأن الطهارة من النجس معلوم أن المقصود بها النظافة، وذلك من محاسن الأخلاق. وأما الطهارة من الحدث، فغير معقولة المعنى، مع ما اقترن بذلك من صلاتهم في النعال، مع أنها لا تنفك من أن يوطأ بها النجاسات غالبا، وما أجمعوا عليه من العفو عن اليسير في بعض النجاسات}.هـ كلام "البداية".[58/1]. وآخر كلامه ربما يستفاد منه أنه يرجح القول بالندب وعدم الوجوب. والله أعلم.

[وجوب إزالة النجاسة عند أبي حنيفة والشافعي وأهل الظاهر]

لكن هنا شيء، ربما يضعف القول بعدم الوجوب؛ وذلك أن القول بوجوب إزالة النجاسة للصلاة، لا خلاف فيه عند أبي حنيفة والشافعي وأهل الظاهر. وقد سمعت ما قاله صاحب"البداية" في سنية القول بوجوبها لأبي حنيفة والشافعي.

قلت: وقد اعتمدوا في ذلك بالآية وحملوها على تطهير الثياب حقيقة. قال العلامة الجصاص، الحنفي، في "أحكامه": وقوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) يدل على وجوب تطهير الثياب من النجاسات للصلاة، وأنه لا تجوز الصلاة في الثوب النجس، لأن تطهيرها لا يجب إلا للصلاة.هـ [578/3].

وقال الإمام الفخر، الشافعي: قوله تعالى: (وَثِيابكَ فَطهِّرْ)،اعلم أن تفسير هذه الآية يقع على أربعة أوجه: أحدها أن يترك لفظ الثياب والتطهير على ظاهره. ثم قال: أما الاحتمال الأول، وهو أن يترك لفظ الثياب ولفظ التطهير على حقيقته، فهو أن نقول المراد

منه أنه، عليه الصلاة والسلام، أمر بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار. وعلى هذا التقدير يظهر في الآية ثلاث احتمالات: أحدها: قال الشافعي المقصود منه الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس.هـ المراد.[مفاتيح الغيب:246/8].

وعليه فمذهب الشافعي وجوب إزالة النجاسة عن ثوب المصلي، اعتمادا على هذه الآية.

وأما أهل الظاهر فقال زعيمهم ابن حزم في"المُحلى": 120 مسألة:

{وإزالة النجاسة، وكل ما أمر الله بإزالته، فهو فرض}.هـ [91/1].

فكتب عليه محقق الطبع ومصححه والمحشي عليه، أحد علماء أهل العصر من قضاة مصر الشرعيين، وهو أحمد محمد شاكر، ما لفظه:

"يحتاج هنا إلى البحث في حكم الصلاة، مع وجود النجاسة الحقيقية في الجسد أو الثوب، أصحيحة هي أم باطلة. أما الآيات والأحاديث، فالحق أنها تدل على وجوب التطهر من النجاسات، خلافا لمذهب مالك في أنه سنة. ولكن هل هو شرط في صحة الصلاة؟، والفرق واضح بين الفرض والواجب وبين الشرط. يظهر لنا أن المؤلف ـ يعني به ابن حزم ـ رحمه الله، يميل إلى القول بأنه شرط. وهو ظاهر القول في المذاهب المعروفة. ولكن أين الدليل على الشرطية؟ لم نر إلا أوامر فقط، والأمر للوجوب، لا تخالف فيه. وإنما الشرطية لا تثبت إلا بدليل يدل على أن من صلى وثوبه أو بدنه نجس، فصلاته باطلة. وهذا ما لم نجده قط، بعد التتبع. بل وجدنا الأدلة متضافرة على صحة هذه الصلاة".هـ[المُحلى:92/1].

وفي كلام هذا الكاتب أمور:

منها أنه نسب لمذهب مالك القول بالسنية مطلقا، وفيه ما فيه، كما تقدم تفصيل ذلك في كلامنا.

ومنها أنه جعل الواجب والفرض متقاربين، وأنت تعلم ما في ذلك عند أهل الأصول. وقد تقدم لنا أن حكم إزالة النجاسة، عن ثوب المصلي وبدنه، فيه خلاف وأقوال بلغت إلى خمسة، وخلاصة المشهور منها أنها سنة أو واجبة، غير شرط أو واجبة شرطا، كما هو مذكور في"المختصر" وشروحه. قال العلامة الزرقاني، عند شرحه قول خليل:{شرط الصلاة طهارة حدث وخبث}إلخ، ما لفظه:

"والفرق بين الواجب الشرط، والواجب غير الشرط، أن الواجب الشرط يلزم من عدمه العدم، بخلاف الواجب غير الشرط، كوجوب ترك الحرير، بدليل قوله:{وعصَى وصحَّت"هـ [165/1].

وبهذا تفهم ما في مذهب مالك، وأنه ليس فيه الاتفاق على[السنية]، كما يفيده كلام هذا الكاتب.

هذا ما اطلعنا عليه من المذاهب. أما مذهب الإمام أحمد، فلم أطلع على ما نص عليه أصحابه في ذلك. والغالب أن الإمام أحمد تابع لظواهر الأحاديث، وما أفاده قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)، والله أعلم.

[تفسير الإمام الطبري، وأهل الحقيقة، لقوله تعالى:(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)]

أما إمام المفسرين، وأفراد أئمة الاجتهاد المقلَّدين فيما مضى من السنين؛ فإنه صدّر في "تفسيره" لقوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)، بما عليه الجمهور، من حمل الثياب على المجاز. وروى في ذلك ما عليه مشاهير المفسرين، من تفسير لفظ الثياب، فقال: وقوله: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك لا تلبس ثيابك على معصية، ولا على عذرة. وذكر من قال ذلك، ومنهم سيدنا ابن عباس، إذ قال: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) من الإثم. وعنه: من الذنوب. وعنه: لا تلبس ثيابك من مكسب غير طيب. وعدد في هذا المعنى الروايات. ثم قال: وقال آخرون: بل معنى ذلك: اغسلها بالماء وطهرها من النجاسة. ثم روى عن من قال ذلك. ثم رجح قول ابن عباس ومن ذهب مذهبه، فقال:

والذي قاله ابن عباس وعكرمة وابن زكرياء، قول عليه أكثر السلف من أنه عنى به: جسمك فطهر من الذنوب.هـ[جامع البيان، للطبري: 91/29].

ولم يتعرض هذا الإمام للحكم الفقهي في المسألة. وهذا يعرفك تحري مالك في مذهبه وأصحابه، الجزم بما تفيده الآية الكريمة من الأمر بإزالة النجاسة عن ثوب المصلي، لأنه كان، رضي الله عنه، يتحرى ما عليه الجمهور في أحكامه، وما اعتمد عليه علماء الصحابة وكبار التابعين، في مآخذ الفقه، ومدارك الشريعة الواضحة الدلالة، التي عمل بها واعتمدها حملتها الحافظون لها، المتحرون من أهل الدين،[من]الهادين المهتدين.

وعلى ما حصله إمام المفسرين، اعتمد خاتمة العلماء العاملين، السالكين المرشدين، سيدي عبد الرحمان الثعالبي، إذ قال: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)، قال ابن زيد وجماعة: هو أمر

بتطهير الثياب حقيقة. وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب. وقال الجمهور: هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض. [358/4]. ثم نقل من كلام العرب ما نقله المفسرون القائلون بهذه الأقوال من كلام العرب.

ويعجبني أن أنقل في هذا المقام، ما قاله في هذه الآية، أهل الحقيقة من العارفين الكرام؛ ففي "تفسير" الثعالبي المذكور آنفا، عن أبي الحسن الشاذلي، رضي الله عنه، أنه قال:

{ رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقال: يا علي؛ طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله في كل نفس. فقلت: وما ثيابي يا رسول الله؟ فقال: إن الله كساك حُلة المعرفة، ثم حُلة المحبة، ثم حُلة التوحيد، ثم حُلة الإيمان، ثم حُلة الإسلام؛ فمن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن وحَّد الله لم يشرك به شيئا، ومن آمن بالله أمن من كل شيء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإذا اعتذر إليه قبل عذره. قال: ففهمت حينئذ معنى قوله، عز وجل: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ).هـ من "التنوير" لابن عطاء الله}.[الجواهرالحسان: 359/4].

[خلاصة هذا المبحث]

قلت: فبعد هذا كله؛ إن القول بأن القول بسنية إزالة النجاسة في الصلاة، مساو للقول بالوجوب، لا يخفى ما فيه من جهة النقل عن المتقدمين، ومن جهة اصطلاح أهل الأصول؛ فإن الواجب والفرض عندهم، إما متحدان ومترادفان، وخلاف أبي حنيفة، كما في "جمع الجوامع"، هو لفظي. وعلى أن الخلاف حقيقة، فالفرض عند أبي حنيفة أقوى من الواجب؛ إذ الفرض ما ثبت بقاطع، والواجب ما ثبت بظني، مع ما في ذلك من البحث.

وأما السنة فهي والندب والتطوع والمستحب، مترادفة. وهي مباينة للفرض والواجب. وإنما الفرق بينها من حيث التأكيد وغيره في مذهبنا. والقائلون بالسنية، ولا سيما من المتقدمين الذين يقولون بسنية إزالة النجاسة، عالمون بهذا. ولهذا تارة يعلنون هذا القول بالسنية، وتارة بالندب؛ وممن عبر عن ذلك من أئمة المذهب المتقدمين، الإمام العالم بمواقع الأقوال ومخالفها، إذ عبر عن هذا القول بالندب، وأتى في آخر كلامه بما يفيد تأييده، كما سبق.

أما من جهة الاحتياط، والقول بالأحوط، وما ثبت في أذهان العامة من أن الصلاة بالنجاسة باطلة، مما قاله الحطاب وأيده أهل الفقه من المتأخرين؛ هو حسن جميل يجب اعتماده، عند عدم وجود العذر.

أما مع الاضطرار، فيصار إلى القول بالسنية أو الاستحباب؛ لأن مع الشدة الفرج، وما جعل الله على هذه الأمة في دينها من حرج، والله أعلم.

[مسألة بعض النجاسات
التي يصعب الاحتـــراز منها]

وهنا مسألة كنتُ أستصعبها، وأرى الخروج منها يتعذر أو يتعسر، وهو أن بعض الطلبة كان ذكر لي قديما أنه سألني عما يتطاير حال البول، مثل رؤوس الإبر، وكنت أفتيته بأن مالكا قال: يغسل البول قليله وكثيره. وإني لم أثبت على أني قلت له هذا القول، وإن كان صحيحا.

وقد كنتُ منذ زمان طويل، وأنا أبذل غاية احتياطي، وكثير احترازي، وتنويع الأواني التي يمكن السلامة فيها من الإصابة فيقي ذلك علي. أما ما قاله عني هذا الطالب، فإنه صحيح عن مالك في "المدونة"، ففيها:

{ قلت: أرأيت ما تطاير عليَّ من البول قدر رءوس الإبر، هل تحفظ من مالك فيه شيئا؟ قال: أما هذا بعينه، مثل رءوس الإبر، فلا؛ ولكن قول مالك: يغسل قليل البول وكثيره من الثوب}.هـ [22/1].

قلت: وفي"التوضيح"، من قول ابن الحاجب فيما يُعفى عنه من النجاسات:

{بخلاف البول وغيره. أي فلا يُعفى عن يسيره، وهو ظاهر "المدونة". وحكى في"الإكمال" عن مالك: اغتفار ما تطاير من البول كرءوس الإبر. ثم اغتفاره يحتمل أن يكون عاما في كل يسير من البول، ويحتمل أن يكون عند بوله، لأنه محل الضرورة لتكرره}.هـ [ص18].

<u>ثم ذكر فرعا، تعم به البلوى؛</u> وهو ما تعلق بفم الذباب ونحوه، ثم يقع على المحل، وعلى ثوب الإنسان، إذ قال فيه: وأما يسير البول والعذرة يتعلق بالذباب، ثم يجلس على المحل؛ فيعفى عنه، قاله سند هـ [ص18]. وانظر الحطاب في هذه المسألة، فإنه أفاض القول فيها بالنقول، وبين الراجح المعول عليه.

قلت: وهو قول خليل في "مختصره": {وأثر ذباب من عذرة}. قال الحطاب: {لا مفهوم للتقييد بالعذرة؛ وكأنه قصد التنبيه على أنه إذا أعفي عن العذرة، مع إمكان ظهور ما أصاب منها، فغيرها مما لا يظهر أثره كالبول، أو مما نجاسته محققة}إلخ. [قال]: {والظاهر أن ما كان كالذباب في عدم إمكان التحفظ منه، كالبعوض والنمل ونحوه؛ فحكمه كالذباب. وأما بنات وردان، فالظاهر عدم إلحاقها بذلك،لإمكان التحفظ منها؛ فإن أصاب من أثرها شيء غسل، ولم أره منصوصا. والله تعالى له أعلم}. [150/1].

***

[مسألة العمل والفتوى بالضعيف، وتحرير الإمام الشاطبي القول فيها]

قلت: ومن فوائد شيخ الشيوخ القادري، ما ذكره في الجواب عن المسألة الثامنة، إذ قال: هل يجوز للضرورة العمل والفتوى والحكم بالضعيف أم لا؟ الجواب: إنه يجوز العمل به في نفسه، دون الفتوى والحكم.هـ [رفع العتاب:ص3].

قلت: وهذا القول فيه تفصيل؛ وقد حرر القول في ذلك خاتمة النظار، وعمدة المحافظين على أصول الشريعة وفروعها الأحبار، أبو إسحاق الشاطبي، وبين أن المقلد لا يجوز له أن يتخير في الأقوال، ويأخذ ما دعته إليه شهوته وساعد هواه. ومن ذلك أنه قال: ليس للمقلد أن يتخير في الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت لذلك على المقلد، فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيرا فيهما، كما يخير في خصال الكفارة، فيتبع هواه. قال: وربما استظهر على ذلك بعض المفتين المتأخرين.

ثم ذكر أنه إذا تعارض عند المقلد قولا مفتيين، فالحق أن يقال: ليس بداخل تحت ظاهر الحديث، أي قوله، عليه السلام: "أصحابي كالنجوم" إلخ، لأن كل واحد منهما، أي من المفتيين، تابع لدليل عنده يقتضي ضد ما يقضيه دليل صاحبه، فهما صاحبا دليلين متضادين، فاتباع أحدهما بالهوى، اتباع للهوى. قال: وقد مر ما فيه، فليس إلا الترجيح بالأعلمية وغيرها. وأيضا فالمجتهدان بالنسبة إلى العامة، كالدليلين بالنسبة إلى المجتهد. فكما يجب على المجتهد الترجيح أو التوقف، كذلك المقلد، ولو جاز التشهي والأغراض في مثل هذا المجاز للحاكم، وهو باطل بالإجماع. وأيضا فإن في مسائل الخلاف ضابطا قرآنيا ينفي اتباع الهوى جملة، وهو قوله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)، وهذا المقلد قد تنازع في مسألته مجتهدان، فوجب ردها إلى الله والرسول؛ وهو

الرجوع إلى الأدلة الشرعية، وهو أبعد من اتباع الهوى والشهوة. فاختياره أحد المذهبين بالهوى والشهوة مضاد، للرجوع إلى الله والرسول.

ثم ذكر في الفصل بعد هذا، إذ قال: وقد أدى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء، يفتي قريبه أو صديقه بما لا يفتي به غيره من الأقوال، اتباعا لغرضه وشهوته، أو لغرض ذلك القريب، وذلك الصديق. ولقد وجد هذا في الأزمنة السالفة، فضلا عن زماننا، كما وجد فيه تتبع رخص المذاهب، اتباعا للغرض والشهوة، وذلك فيما لا يتعلق به فصل قضية، وفيما يتعلق به ذلك.

ثم أفاض في القول، وبيان ضلالة من يتبع رخص المذاهب والتخير في الأقوال، دون نظر في الترجيح. ثم ذكر عن كثير من الفقهاء أنه كان يقول علانية أن الذي لصديقي علي، إذا وقعت له حكومة، أن أفتيه بالرواية التي توافقه. ثم نقل عن الباجي تضليل هذا القائل، وشنع عليه. ثم قال عن الباجي: ولو اعتقد هذا القائل أن مثل هذا لا يحل له، ما استجازه، ولو استجازه، لم يعلن به ولا أخبر به عن نفسه. قال: وكثيرا ما يسألني من تقع له مسألة من الأيمان ونحوها، لعل فيها رواية، أو لعل فيها رخصة. وهم يرون أن هذا من الأمور الشائعة الجائزة. ولو كان تكرر عليهم إنكار الفقهاء لمثل هذا، لما طولبوا به، ولا طلبوه مني ولا من سواي. وهذا مما لا خلاف فيه بين المسلمين ممن يعتد به في الإجماع، أنه لا يجوز ولا يسوغ ولا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا بالحق الذي يعتقد أنه حق. رضي بذلك من رضيه، وسخطه من سخطه. وإنما المفتي مخبر عن الله تعالى في حكمه، فكيف يخبر عنه إلا بما يعتقد أنه حكم به وواجبه، والله تعالى يقول: (وَأَنُ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ)، فكيف يجوز لهذا المفتي أن يفتي بما يشتهي، أو يفتي زيدًا بما لا يفتي به عمرًا، لصداقة بينهما أو غير ذلك من الأغراض. ثم قال الشاطبي: هذا ما ذكره، يعني الباجي. وفيه بيان ما تقدم من أن الفقيه لا يحل له أن يتخير بعض الأقوال لمجرد التشهي والأعراض، من غير اجتهاد إلخ.

ثم إن العلامة الشاطبي تتبع هذه المسألة، وبين فروعها، وبين فيها الحق وأبطل الباطل. وموضوع كلامه، فيما قدمنا، أنه مع الفقيه العالم بفروع الفقه وما فيها من الخلاف، وأنه يختار قولا من أقوال من تقدمه، أو رواية عن أهل المذهب المتقدمين، كأشهب، مثلا، أو أصبغ أو ابن وهب أو أماثلهم، فيفتي بقول أو رواية هي مخالفة للمشهور، دون نظر في الترجيح، بل يفتي بها بمقتضى ما اقتضته الشهوة ودعا إليه

الهوى، من مساعدة أمير، أو ملاطفة صديق، أو توسيع حكم ضاق منه صدر قريب، وأنه في ذلك تابع غير مبتدع قولا جديدا، ولا مختلق رواية لا أصل لها.

***

[الإعراض عن نصوص المذهب، والتطاول على من سبقونا بالعلم والإيمان]

أما في عصرنا هذا، فإن الأمر تفاقم، والخطب تعاظم، وأصول الشريعة قد ألغيت، ونصوصها القرآنية وصحيح سنتها قد رميت وراء الظهور، ومحيت سطور حقائقها من صحائف الصدور، وهجرت حدودها، واستهزئ بواجباتها، فضلا عن مندوباتها.

أما النصوص المذهبية، والأحكام الاجتهادية التي مآخذها الكتاب والسنة، التي بذلوا مجهودهم فيها، حتى حررها الأئمة وجعلوها طريقا إلى الجنة؛ فهي عندهم كحديث خرافة، إذ يرى من يدعي الفقه منهم في هذا العصر، وهم عنه بمعزل، أن أفراد هؤلاء المجتهدين كواحد من مطلق الناس، يردون عليه أقواله، ويمزقون مذهبه، ولا يراعون علومه ومقامه؛ فكلامهم مع إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، ككلامهم مع سُوقة مثلهم.

وحسب هذا المدعي الفقه، الحائز لمقام العالمية، أن يكون طالع كتاب ابن حزم - وما فهم كلامه - أو قرأ "نيل الأوطار"، المحيط بالأقوال الموقعة في الأخطاء والأخطار؛ فينقل عنه كلاما يخالف الإمام مالك، أو غيره من أئمة المذاهب، ولا يراعي مثار هذا الخلاف، ولا ما فيه بعد تأمله، فيذيعه ويلقنه العوام الجهال، الذين شأنهم اتباع كل ناعق، ومساعدة كل منحرف عن مهيع الصواب، ويكبر في أعينهم، ويرون أنه أتى بشيء لم يعلمه العلماء السابقون، ولا هؤلاء الفقهاء اللاحقون؛ فيؤدي إلى القول بتجهيل الذين سبقونا بالعلم والإيمان، والمعرفة بصحيح الحديث ومُحكم القرآن.

وهذا الذي يفتيهم في دينهم، بزعمه، لا يعمر مساجد الله، ولا له إلى الله رجوع ولا إنابة، بل لا يبالي بفرائض الصلاة، ولا يتطهر من جنابته. بل مراده إظهار المخالفة، والتفريق بين جماعة الأمة، وصرفهم عن مذهبهم الذي دانت به الأمة منذ المئين من السنين. بل اتخذوا مخالفتهم الضالة، ضررا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، ومساعدة لمن خالف الله ورسوله، (وَلَيَحْلِفُنَّ إن أَرَدْنَا إلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

وهذا شيء أملاه القلم، شفاء لما في الصدور من التألم، مما عرا هذه الأمة من عظيم الألم. ونحن وإن خرجنا في الجملة عن الموضوع، ففيه تذكرة لمن أنصت لهذا المسموع.

ومما ذكر شيخ الشيوخ،[القادري]، في هذا الفصل الثامن، وحرر فيه المقال، ما وقع في عصرنا هذا من الحكم بتحليل المطلقة ثلاثا في كلمة، وصار من الأحكام التي لا ترد.

ولقد كاد أن يكون هذا الشيخ قد استعدّ للداء قبل نزُوله، وسلّ سيوف نضاله ونِبال نصوصه قبل إغارة جيش هذا الضلال وحلُوله. وانظر ذلك في كتابه، وإن كان كلاما في هذا العصر المشئوم لا يُسمع، وحقا أحاط به من الباطل ما لا يُدفع. والرجوع في كل هذا إلى الله المسئول أن ينشر نعمته، ويرحم ملته،(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ).

***

[تقييد العلامة العميري، وهو في معنى معارضة ما شدّد فيه الشيخ القادري]

ثم لنرجع إلى القول بالعمل الضعيف، زيادة لما قاله شيخ الشيوخ، وتذييلا له. وذلك أن الكلام على الفتوى والعمل بالضعيف، وجوازه ومنعه؛ فقد سبق إلى تخصيص الكلام فيه، وكتابة ما في ذلك من أقوال الأئمة من علماء المذهب وغيره، وجعل ذلك في "تقييد" خاص، العلامة العميري، أحد فقهاء القرن الثاني عشر النبلاء، ولعل شيخنا حذا حذوه، مع زيادة تفصيل في بعض ذلك. وقد افتتح هذا "التقييد"(*) بقوله:

"وبعد، فقد كان يمر بنا الكلام غير ما مرة، في حكم العمل بغير المشهور، والفتوى به. وكان بعض من لقيناه من الشيوخ يرسل القول فيه بالمنع على الإطلاق، وهو الذي يظهر من كلام جمهور العلماء. واختار بعض الأئمة الجواز وارتكاب الرخصة فيه للضرورة. وأنا أريد أن أقيد، إن شاء الله، بهذا الموضوع ما وقفت عليه مما يشهد بصحته".

ثم صدر بفتوى شيخ الشيوخ، سيدي عبد القادر الفاسي، فقال:

"سُئل شيخ شيوخنا، سيدي أبو محمد، عبد القادر الفاسي، رحمه الله، عن الحالف بالحرام، إذا أفتى بقول أصبغ بعدم اللزوم، هل يجوز له ذلك أم لا؟ فأجـاب: إن العمل بالمشهور هو الواجب، وارتكاب الرخصة يوما للضرورة سائغ. قال ابن أبي جمرة: وقد كان من لقيناه من الفضلاء الأجلة، يقول: لا يحل لأحد أن يتدين إلا بالمشهور، ولا يفتي إلا به. وتكون فائدة الخلاف إذا وقع أمر وفات، ولم يمكن تلافيه على المشهور، فيخرج إذ ذاك

(*) مخطوطة بخزانة المؤلف، رحمه الله.

على قولة قائل، لأنه أحسن من خرق الإجماع. ولعمري لهذا حسن من الفتوى، لأن به يستعمل جميع الوجوه، فيكون الأخذ أولا بالأكمل في الدين، فإن تعسر عليه الأخذ بالأكمل، رجع إلى الخلاف وأخذ بالتيسير، فيكون بينه وبين الحرام حاجز كبير، لأنه إن تعذر عليه الأخذ بالكمال، وجد لماذا يرجع من غير أن يخرق الإجماع، بخلاف من يأخذ أولا نفسه بالعمل على الرخص، لأنه إن تعذر عليه الأمر في وقت ما، فلا يجد حيلة إلا الوقوع في محرم، وقد قال، عليه السلام:"إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، فمن حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه". وقال الشيخ زروق: وأما تتبع الرخص، فحرام إجماعا، لأنه تلاعب بالدين. وأما تقليد الرخصة يوما ما للضرورة، أو الأخذ بالاحتياط والورع، فلا عتب عليه. هكذا نصوا عليه}.هـ [ص2].

ثم ذكر العميري عن ابن مرزوق ما وقع لابن أبي جميل، إذ قلد قولا غير مشهور في المذهب، لأمر اضطره إليه. ثم وقع له أن زلق في طين فتألم ذراعه، ثم زار سيدي إبراهيم المصمودي، فصدر منه عنده أنين لما كان يجده من ألم السقطة، معتقدا أن ذلك وقع له لمخالفته المشهور، فقال له الشيخ المصمودي: مالك؟ فقال: يا سيدي ذنوبي. فقال له على الفور كشفا: أما من يقلد أصبغ وابن حبيب فلا ذنب عليه. هـ مختصرا من قول العميري.

وأما قول الشيخ زروق: إن تتبع الرخص حرام إجماعا، ومثله ما قاله ابن حزم؛ فقد رده ابن عرفة بقوله: قول ابن حزم: أجمعوا على أن متتبع الرخص فاسق، مردودٌ بما أفتى به المتفق على علمه وصلاحه، عز الدين بن عبد السلام، أنه لا يتعين على العامي إذا قلد إماما في مسألة، أن يقلده في سائر المسائل، مسائل الخلاف، لأن الناس من لدن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب، يسألون فيما يسنح لهم العلماء المختلفين من غير نكير، وسواء اتبع الرخص في ذلك، أو العزائم، لأن من جعل المصيب واحدًا لم يعينه، ومن قال كل مجتهد مصيب ، فلا إنكارهـ. وقال القرافي:

"انعقد الإجماع على أن من أسلم، فله أن يقلد من شاء من العلماء بغير حجر. وأجمع الصحابة أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما، فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، من غير نكير. فمن ادعى رفع هذين الإجماعين، فعليه الدليل. وزاد في "شرح التنقيح": بشرط أن لا يجمع بين الأقوال على صفة تخالف الإجماع، وبشرط أن يعتقد فيمن يقلده الفضل".هـ [تقييد العميري، ص:3].

ثم بين ذلك الجمع الذي يخالف الإجماع بما نقله من "نوازل" سيدي العربي الفاسي، عن ابن عرفة، إذ قال:

"يجوز تقليد المذاهب في النوازل، بشرط أن لا يجمع بينها على صفة تخالف الإجماع، كمن تزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، فإن هذه الصفة لم يقل بصحتها أحد. وبشرط أن لا تصير عادته الخروج عن مذهبه لاتباع الرخص. ثم هذا في حق من يمكنه ذلك من العلماء الذين أخذوا المذاهب عن أهلها، وعرفوا فرعها من أصلها، وفي حق العامة الذين يمكنهم سؤال أهل ذلك، وإفتاؤهم لهم به". هـ[ص:4].

[ما يقع في العصر الحاضر
من الإفتاء للعامة بالأقوال الشاذة]

قلت: وبهذا النص يُعلم تلاعب هؤلاء المتساهلين في عصرنا، ممن له بعض المبادئ الفقهية، مع عدم إتقانها ومعرفة أصولها، وقراءتهم بعض الكتب التي تذكر فيها أقوال أهل الاجتهاد من المتقدمين، وإضافتـ[هم]إليها بعض ترجيحات لا تجري على قواعد الترجيح المحرر في كتب الأصول. ويذيعون تلك الأقوال النادرة الشاذة، والآراء الضعيفة، ويفتون بها العامة، إظهارا لامتيازهم بعلوم لم يعرفها السابقون من أهل الفضل، ولا اللاحقون، وابتغاء إثارة الفتنة بين المقلدين لأهل الاجتهاد المحققين، الذين أجمعت الأمة على تقليدهم منذ أحقاب وأعوام. وكل ذلك ضرار وفسق، وتفريق بين المؤمنين الذين سبقونا بالعلم والدين، وإعانة لمن حارب الله ورسوله من الملحدين. وهم في ذلك يتلاعبون بمقالات الأئمة الهادين المهتدين، الذين لا يخرجون عن مناهج القرآن المبين، وسنة سيد المرسلين. ثم هم مع هذا الضلال، يظهرون أنهم من المصلحين، (وَلَيَحْلِفُنَّ إنَ أرَدْنا إلاَّ الحُسْنَى، وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لكَاذِبُونَ).

وهذه نفثة مصدور، أثارها ما نسمعه ونشاهده من جند الشيطان الغرور، ويتقبلها منهم العامة الذين أضلهم الجهل وأعماهم، وفي قمامة الضلالة والخروج عن الصراط المستقيم رماهم. وبه سبحانه التعلق في السر والعلانية، أن يرشد هذه الأمة المحمدية إلى المناهج القرآنية، واتباع الأوامر الربانية، آمين.

***

ثم لنرجع إلى كلام العلامة العميري،[الذي]نقل فيه بعض الفروع التي قلد فيها الناس الأقوال الضعيفة، وفصل في ذلك كل التفصيل، وبين فيها ما يرخص فيه، ويخرج به صاحبه

عن التأثيم والتضليل؛ فمن ذلك ما نقله عن الشيخ ميارة، مما وقف عليه من جواب عن سؤال وجه إلى شيخين من شيوخ الشياخة، وهما الإمامان الشهيران بفاس، السراج والحميدي، في شأن ما ورد عن الإمام الأبهري، الذي يقول في الحالف الأيمان اللازمة إنه لا شيء عليه إلا الاستغفار، وإن ابن عبد البر قال: إنه لا يجب عليه إلا كفارة يمين. هل تقليدهما في هذا منج مع الله تعالى؟ فأجـــاب الحميدي بأن قال:

"الذي كان يفتي به الإمام ابن سراج عدم اللزوم. واختاره جماعة من المتأخرين، وهو الذي نختاره ونرتضيه، تبعا لهذا الإمام العظيم. وأجاب السراج فقال: ما نقله السائل عن الأبهري وابن عبد البر، صحيح. وقد نقل ذلك عن مالك، رحمه الله. فمن قلد ذلك فهو مخلص؛ فإن من قلد عالما، لقي الله سالما".هـ [ص:4].

ثم قال عن ابن العربي في"العواصم"، إنه قال:

"ينبغي للفقيه المجتهد، إذا جاءه من وقع في أنشوطة من يمين، أن يخلصه بمسألة ظاهرة بين الصحابة والتابعين، إذا رأى أنه إن لم يخلصه بها، وقع في أشد منها، وهو أن يستهين بالمسألة، ويقتحم فيها ما لا يجوز؛ فالأفضل للمفتي أن يفتح بابا ويمشي به على طريق".

ثم ذكر ما يشهد لذلك. ثم قال عن ابن رشد: على قوة الخلاف تقوى مراعاته. ومن "موافقات" الشاطبي: وجدنا ترك الترخص في مواضع، يوقع في مفسدة أو مفاسد يعظم موقعها شرعا.هـ. قال: ونقل أبو عمر بسنده إلى الثوري: العلم: الرخصة من عالم. أما التشديد، فيحكمه كل أحد.هـ. وقد قال الجنيد: ابدأ بالرفق، ولا تبدأ بالعلم؛ فإن الرفق يؤنس، والعلم يوحش، لأنه كما قال أبو بكر لعمر: يا عمر، إن العلم ثقيل، ومع ثقله مُر.[ص:5].

وقد نقل جملة كثيرة من نصوص أهل العلم والتحقيق في الفتوى في هذا الموضوع. ومن ذلك أنه استدل على أن الأقوال الضعيفة في المذهب، تحفظ ليعمل بها عند الضرورة، أو عموم البلوى بها، وتقليد العامة لها، واتصال عملهم بها.

وأخيرا نقل عن إمام مذهب مالك، وشيخ "مدونته" الأعلم الأعظم، سحنون، بواسطة البرزلي، أنه قال: الفتوى بغير المذهب لا ترد، إلا إذا كانت شاذة. قال العميري: وكفى بقول هذا الإمام العظيم حجة، فقد قيل: إنه راهب هذه الأمة.

ثم أطال، رحمه الله، القول في حمل المضطر على الأقوال التي فيها سعة. ثم أخيرا استدل على ذلك بما نقله عن ابن عبد البر، في حديث لابن شهاب:"ما خير رسول الله،

صلى الله عليه وسلم، بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما". قال في معنى هذا الحديث: الأخذ برخص الله، ورخص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والأخذ برخص العلماء، ما لم يكن القول خطأ بينا. قال: وقد تقدم من هذا في حديث حميد، وفي باب زيد بن أسلم. وينبغي للعالم أن يحمل الناس على الرخصة والسعة، ما لم يخف المآثم. قال في"سنن المهتدين"، ورأيت في الباب الذي أحال عليه ما نصه: من خاف على أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، ما لم يخف عليه نبيها، فقد باء من التعسف ما لا يخفى. قال: ولما كان التأسي به على كل حال يحسن، استحال أن يأتي منه، صلى الله عليه وسلم، شيء فيه تخصيص ولم يبينه لأمته.

ثم نقل عن ابن خلف المصراتي، في كتابه "الياقوت الأحمر، في محادثة فقيه توزر"، قضية تدل على جواز العمل بالقول المرجوح للضرورة. ثم نقل عن اللخمي أنه قال: المعروف من القرآن والسنة، أن الضرورات تنقل الأحكام هـ.[ص:6-8].

***

[تنبيه في مسألة
الجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم]

ثم ذكر عن بعض فقهاء تونس، ما يفيد اعتماده القول بجواز جمع الظهر مع العصر، أي جمع تقديم، إذ ذكر عن هذا الفقيه أنه، إذا أراد أن يدخل الحمام وقت الظهر- ومن عادته إن دخل، لا يخرج منه إلا بعد خروج وقت العصر - ترخص في ذلك، وارتكب قول أشهب، بجواز تقديم العصر وجمعها مع الظهر لغير عذر، فيجمع الظهر والعصر جمع تقديم. نقل ذلك ابن مرزوق، عن شيخه ابن عرفة، عن بعض أشياخه. ذكره ابن هلال في الفصل الأول من"نوازله"، وذكر أن النقل عن أشهب صحيح، وأن صاحب"المقدمات" نقله عنه.[ص:9].

قلت: وهذه المسألة قد سلف لنا الكلام عليها في المجلد الثالث، في ترجمة شيخنا الزواقي، في مسألة رجل خال من العلم والمعرفة، ليس له حظ في الفقه ولا ما يقاربه؛ صار يجمع العامة عليه، ويجمع بهم بين الظهر والعصر في الحضر. وكان أهل العلم بمدينة شفشاون قاموا في وجهه بالرد والإنكار، وفي مقدمتهم قاضي الناحية إذ ذاك، الفقيه الخيِّر أمغار، رحمه الله. ورفعت الشكوى لحضرة تطوان، حيث كان هناك الخليفة السلطاني.

وتقدم لنا أن الخليفة رفعها للفقهاء، ومن جملتهم كاتبه، فكتب فيها العلامة الزواقي ما قدمناه مفصلا، مما لا حاجة لإعادته.

وإنما أردت أن أنبه هنا إلى أني أغفلت على أن القول بجواز هذا الجمع، قال به من المالكية أشهب، ونقله عنه ابن هلال، وقال: إن النقل عن أشهب بذلك صحيح، وإن صاحب"المقدمات"، وهو ابن رشد، نقله عنه، ونقل ذلك من المتأخرين ابن عرفة وابن مرزوق. وكان يقلده في ذلك بعض الفقهاء بتونس، كما سبق.

قلت: وقد وقفتُ على هذا النقل في"المنتقى" أيضا، وفي"البداية". ولفظ الباجي في "المنتقى"، بعد ذكره الحديث الذي في "الموطإ"، وذكر ما قاله الجمهور في معناه: وقد تعلق أشهب بظاهره وقال: إن للمقيم رخصة في الجمع بين الصلاتين، لغير عذر مطر ولا مرض، وهو قول محمد بن سيرين.هـ[255/1].

وقال الحفيد ابن رشد في"البداية": وأما الجمع في الحضر، لغير عذر، فإن مالكا، وأكثر الفقهاء، لا يجيزونه. وأجاز ذلك جماعة من أهل الظاهر، وأشهب، من أصحاب مالك. وسبب اختلافهم: اختلافهم في مفهوم حديث ابن عباس؛ فمنهم من تأوله على أنه كان في مطر، كما قال مالك، ومنهم من أخذ بعمومه مطلقا. وقد أخرج مسلم زيادة في حديثه، وهو قوله، عليه الصلاة والسلام: "في غير خوف ولا سفر ولا مطر". وبهذا تمسك أهل الظاهر.هـ [136/1].

وبهذا تعلم أن هذا القول له مستند صحيح. كما قال به الثوري، وأشهب من المالكية، وبعض أهل الظاهر. فعمل ذلك الفقيه التونسي اعتمد على هذا، فيما يظهر.

أما ذلك الذي أراد حمل الناس على هذا الجمع مطلقا، وإظهار ما يؤذن بالقدح في مذهب الجمهور، وتقدم الرد عليه من قاضي ناحية شفشاون، وكتابة شيخنا الزواقي، وأيدنا ذلك فيما مر؛ فهو من قبيل التفريق بين المؤمنين، وإن كان في الحقيقة هو بإيعاز من غيره، وتلقين من شيخ شأنه إظهار علمه، وتخطئة الأئمة الذين سبقونا بالعلم والإيمان، وبرزُوا بتحقيقاتهم وإتقانهم في المعارف والعرفان.

***

[مسألة اختلاف الأقوال، وتقليد القول المرجوح للضرورة]

ثم لنرجع إلى إتمام ما قاله العلامة العميري، إذ قال موصولا بما تقدم: وقال عياض: ما اختلف العلماء في تحليله وتحريمه؛ فلا يقال فيه حرام. ومن "مقدمات" ابن رشد: ما اختلف العلماء في تحليله وتحريمه، فهو مكروه، ومن تركه أجر، ومن فعله لم يأثم. ثم نقل عن أبي عمر، أي ابن عبد البر، بسنده إلى الثوري، قال: إذا رأيت الرجل يعمل بالعمل الذي اختلف فيه، وأنت ترى غيره، فلا تتهمه. وقد أمر المهدي مالكا أن يجمع مذهبه في كتاب يحمل الناس عليه، فقال له مالك: إن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تفرقوا في البلاد، وأخذ أهل كل ناحية عمن وصل إليهم؛ فدع الناس وما هُم عليه. قال في"سنن المهتدين" بعد هذا: وكان سيدي ابن سراج، رحمه الله، يرشح هذا ويقول: إذا ظهر للمرء خلاف ما يظهر لغيره، فيمتنع في ذاته، ولا يحمل الناس على مذهبه، فإنه يُدخل عليهم شغبا في أنفسهم، وحيرة في دينهم هـ [سنن المهتدين: ص12]. ثم تكلم على ما كان يقوله ابن الصلاح في هذا الموضوع، وتخرج إلى القول في تصويب المجتهدين.

ثم نقل العلامة العميري عن العقباني في جواب عن سؤال: إن الفقهاء اختلفوا في هذا الباب على قولين: أحدهما أن اختلاف العلماء، من الصحابة ومن بعدهم من الأئمة، رحمة وسعة. وجائز لمن نظر في اختلاف أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يأخذ بقول من شاء منهم، وكذلك الناظر في أقاويل غيرهم، ما لم يعلم أنه خطأ، فإذا بان له أنه خطأ لمخالفته نص الكتاب أو السنة أو إجماع العلماء؛ لم يسعه اتباعه؛ فإن لم يتبين له ذلك، من هذه الوجوه، جاز له استعمال قوله، وإن لم يعلم صوابه من خطئه، وصار في حيز العامة التي يجوز لها أن تقلد العالم إذا سألته عن شيء، وإن لم تعلم وجهه. [ص14]. وصار يستدل لهذا الموضوع.

وختم العلامة العميري هذا "التقييد" النفيس، الذي صدر من فقيه استفتي وحكم، وخالط العامة والخاصة في أحوالهم وأقوالهم فيما نزل بهم وألم، بما لفظه:

فتلخص من هذه الأنقال، أن من لم يكن شأنه تتبع الرخص، إذا قلد القول المرجوح لضرورة، وجعل هؤلاء الأئمة المتقدم النقل عنهم بينه وبين الله سبحانه، يُرجى له السلامة؛ فإن من قلد عالما، لقي الله سالما.هـ [ص16].

***

ثم إننا أتينا بهذه الجملة المفيدة، المشتملة على نصوص الأئمة الأجلة العديدة، من "تقييد" العلامة العميري، الذي خصه بالرد على من يقول إن العمل بالقول الضعيف والفتوى به لا يجوز، وأيد ذلك بالنصوص الواضحة، وأقوال قدماء الأئمة المالكية الراجحة

وهو في معنى معارضة تأليف شيخ شيوخنا القادري، الذي سماه:"رفع العتاب والملام، عمن قال العمل بالضعيف اختيارا حرام"، كما في "تقييد" العميري من الفوائد الغزيرة، التي جاء فيها بأصول النصوص المنسوبة إلى أهلها من عمد المذهب، التي تنشرح لها صدور الفقهاء، وتصبح بها عيون أفهامهم قريرة. وهي ترجع إلى توسيع ما شدّد فيه شيخ شيوخنا ومقصده في ذلك حسن في سد الذريعة، وإما لتقييد ما اطلع[عليه]في بعض المسائل، مما كان يراه في أهل عصره من سوء النية، ومخالفة أقوالهم لما تنطوي عليه السريرة.

[مسألة جواز العمل بالقول الضعيف، دون الإفتاء به للغير]

فمن ذلك أنه، قال في الفصل الثامن: إنه يجوز للإنسان العمل بالقول الضعيف، عند الضرورة، في نفسه، دون الفتوى لغيره، إلخ. مع أن هذا مخالف لما عليه أئمة الفتوى من المتقدمين والمتأخرين، فقد أسلفنا ذلك عن إمام المذهب، المجتهد النقاد، أبي بكر ابن العربي، وعن ابن رشد واللخمي وابن عبد البر، من المالكية، وعن سلطان العلماء، عز الدين ابن عبد السلام الشافعي؛ ما يفيدك جواز الاقتداء بالضعيف والمرجوح، والتوسيع به على من وقع في ورطة، أو ألجأته الضرورة الخالصة عن التلاعب والتهاون.

وبهذا قال حتى الإمام النظار، والمشدد في هذه الأنظار، فعليك بمراجعة ذلك، والتأمل فيما سبق لنا هنالك. وناهيك في هذا الباب قوله في"الموافقات": {وجدنا ترك الترخيص في مواضع، يوقع في مفسدة أو مفاسد؛ يعظم موقعها شرعا}.هـ. وقد استشهد به العميري، وجعله عمدة في هذا الباب. والله أعلم بالصواب.

[تشدد الشيخ في مسألة الحضور بالأماكن المفروشة بالحرير، ومزينة بالصور، مع وجود الخلاف]

وانظر أيضا ما كتبه في الفصل السادس؛ ما شدّد فيه من حضور الولائم، التي تكون منازلها مفروشة بالحرير، وجعل ستور بيوتها أيضا من الحرير الخالص. وكذلك تعليق الصور التي شأنها أن تكون رقما في ثوب، أو صورًا قائمة في رق.

وكل هذا لا يخفى ما فيه من الخلاف، وصار العمل بهذا القول منذ أحقاب، ولا يخلو منه مجلس وليمة، ولا تتم أفراح أهل الإسلام اليوم، شرقا وغربا، إلا بذلك؛ بل صار الآن إحضار المطربين والمغنين، حتى في الزوايا والمواسم الدينية.

وعليه؛ فلا بُدّ من التماس المخرج من هذه الأمور المختلف فيها، وتقليد من يقول فيها بالتحليل، وإضافتها إلى باب الرخص.

***

وأما قول الشيخ في الفصل الخامس: إذا عمل عوام الناس بالضعيف، إلخ. ففيه ما لا يخفى؛ إذ يرده قول أبي إسحاق في"الموافقات":

"الأولى عندي في كل نازلة يكون لعلماء المذهب فيها قولان، فيعمل الناس على موافقة أحدهما، وإن كان مرجوحا في النظر، ألا يعرض لهم؛ فإنهم إن حملوا على غير ذلك، كان في ذلك تشويش للعامة، وفتح لأبواب الخصام. وربما يخالفني في ذلك غيري، وذلك لا يصدني عن القول به، ولي فيه أسوة".هـ بنقل العلامة العميري.[ص6].

قلت: وهناك نصوص أخرى تشهد لهذا الموضوع.

***

[مسألة الأخذ من الكتاب والسنة، وتذييل ذلك بمبحث في الاجتهاد والاستنباط]

وأما قوله في الفصل العاشر: "إنه لا يجوز الاعتماد على الكتاب والسنة" إلخ. فهي عبارة في ظاهرها قاسية، تفتح الباب لأهل العصر في القدح. وفيها تفصيل يطول، ومن شاء ذلك فعليه بكتب الأصول.

ولكن، من تشوف للتحقيق، وما قاله في ذلك أكابر علماء المذهب، والاطلاع على ما حصلوه في سلوك هذه الطريق،[عليه]أن يراجع ما كتبناه في كتابنا"الأبحاث السامية"، لأني - ولا فخر - لا أظنك أن تجده مجموعا كما جمعناه في كتاب[نا هذا]، والفضل في ذلك لمن إليه المرجع والمآب، وبيده التوفيق لمن قصد الصواب.

ولكن لابدّ من ذكر خلاصة ما هنالك، ليذهب على ضوء نصوصه الراغب في سلوكه في الحق أوضح المسالك، فأقول:

إن فتح باب الاجتهاد لهذه الأمة، هو من الكرامات التي أكرم الله بها هذه الأمة. ولكن لا بد أن يكون مبنيا على أصول الشريعة التي منبعها الكتاب والسنة، والذي لا يكون إلا بعد

فقد النص منهما. وذلك كله سبق له بيانه، كما أتى في حديث معاذ، رضي الله عنه، إذ قال له النبي، صلى الله عليه وسلم:"بماذا تحكم"؟ قال: بكتاب الله، قال:"فإن لم تجده في كتاب الله"؟ قال: فبسنة رسول الله، قال:"فإن لم تجد"؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. وقد أوسعنا الكلام في هذا الموضوع، وبينا مقالة أئمة الإسلام، من فقهاء المذاهب، أنهم في هذه القرون المتأخرة، سدوا باب الاجتهاد، وأوجبوا تقليد المذاهب الأربعة، وأن كل مدع للاجتهاد، بعد ذلك، فهو مردود في دعواه، وأنه متبع في ذلك لهواه؛ إذ دونت المذاهب، وبينت أصولها وفروعها، واتضح الحق، وأبطل الباطل، ولم يبق بعد هذا التفصيل والتحقيق مقالة لقائل.

فالذي يُحاول أن ينشأ مذهبا جديدا، خارجا عن أصول هذه المذاهب، كما فعل ابن حزم قديما ـ وإن كان ابن حزم، كان عالما حافظا للحديث، مطلعا على أقوال العلماء في مواضع الخلاف. لكنه حاول أن ينفرد بنظره، ويخترع مذهبا مخالفا لسائر الأئمة، الذين أجمع الناس على جلالتهم، وبراعتهم في الحديث ومآخذه، العارفين بتفسير القرآن وأسانيده ـ صار هدفا لرمي نبال الانتقاد، ونسبته لسوء الاعتقاد، حتى نبذته الخاصة، ونفرت من كلامه العامة، وأمرت الحكومة الأندلسية بإحراق كتبه وإعدام مؤلفاته، ونفيه من مركز حكومتها. وإن كان مدعيا أن مذهبه ظاهري يقلد فيه الإمام داود، الإمام المشهور، فهو كثيرا ما يخالفه في كثير من المسائل.

والله يرشدنا لما فيه اتباع كتابه الحكيم ومحكم آياته، والمحافظة على سنة نبيه، الذي بعثه الله لهذه الأمة رحمة لها، ومبينا لما في هذا الكتاب من الهدى وبيناته.

وحيث جرى هذا المبحث هنا، الذي جرَّ إليه قول شيخ شيوخنا في عبارته، "أنه لا يجوز الأخذ من الكتاب والسنة والاعتماد عليهما"، الخ؛ وهي عبارة قاسية، وإن كان قصد الشيخ بها أن يرد عامة الجهال من الاعتماد على آياته والإلحاد فيها، بتنزيلها على غير ما دلت عليه، واستدلالهم بها على ما أوحت إليهم به شياطين أهوائهم، وحللوا بها ما أرادوا، وحرمُوا بها ما تنافرت عنه مصالحهم وأغراضهم. وهُم في ذلك كاذبون، ويمحض رأيهم الفائل قائلون، وعلى التلاعب بمحكم آياته متلاهفون، والله تعالى يقول: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمْ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلى اللهِ الكَذِبِ).

وعلى هذا تنزل قوله، صلى الله عليه وسلم: "من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار". وقال أبو بكر الصديق: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن

برأيي. وهذا، وإن كان ينافي ما ورد عن سيدنا علي وغيره، أن الوحي انقطع، ولم يبق إلا ما يؤتيه الله أحد أصفيائه، وأهل العلم من أذكيائه وأتقيائه، لأن الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن مجالا واسعا، ومنبعا متدفقا، وبحرا لفنون المعارف والعلوم جامعا؛ فقد ورد عن سيدنا علي أنه قال: إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن. وقال سيدنا عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن. وقال ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: (وَمَنْ يُوتَ الْحِكْمَةَ فَقَد أوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)، يعني الفهم في القرآن. ولا ريب أن التدبر في القرآن والتفهم فيه، لا بد أن يكون باستخراج ما فيه من المعاني الدقيقة، والحكم الجارية على مناهج الشريعة. وفي هذا المعنى يقول سيدنا علي، رضي الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب.

وهذه الاستخراجات، وهذه الاستنباطات، لا تخلو عن إعمال الفكر الذي يصاحبه معنى الرأي؛ ولكن ليس هذا هو الرأي المنهي عنه، لأن هذا رأي ينتجه التدبر الموافق للدين، المنبني أساسه على نور اليقين. وهي أسرار هذا الكتاب المبين، الذي يلهمه الله العلماء المتقين، وأولياءه العارفين، الذي لأجله أمر الله بتلاوة هذا الذكر الحكيم، فقال: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ)، ولهذا فصلت آياته، فقال تعالى: (حَم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا). وقال علي، كرم الله وجهه: من فهم القرآن، فسر به جمل العلم. قال حجة الإسلام:

" أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم، ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع. وترديد رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ) عشرين مرة، لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها".هـ كله من"الإحياء".[206/1].

ولكن لا بد من ملاحظة ما قاله المحققون، بأن يكون استخراج هذه العلوم، واستنباط هذه الأسرار، جاريا على مناهج الشريعة الغراء، وتابع لما تدل عليه ألفاظ القرآن العربي، الذي جرى على مناهج البلاغة. وانظر تفصيل هذه المآخذ في "الإتقان"، في النوع الخامس والستين في العلوم المستنبطة من القرآن.

[التفسير بالإشارة عند الصوفية، وما فيه]

أما التفسير بالإشارة، الذي اعتنى به جماعة من علماء التصوف، فربما أغرق بعضهم في ذلك، وربما تغالوا حتى صرحوا أنه هو المقصود بالآيات القرآنية، وجعلوا ذلك هو الحق، وهو التفسير الذي ينور القلوب، ونظروا إلى تفسير أهل الظاهر، الذين سلكوا فيه مسلك السلف، من اتباع النقل والجري على ما تقتضيه لغة العرب التي نزل بها القرآن. وهذه الطائفة، إن صرحت بأن ذلك هو مدلول آيات القرآن، وهو المقصود منها؛ فإن هذا خرج عن الصراط المستقيم، وقد حكم عليه أئمتنا بالإلحاد، والخروج بالقرآن عن المراد، وقالوا: إن من اعتقد ذلك فهو كافر؛ فهم من قبيل الفئة الضالة الذين أمالوا القرآن عن ظاهره، وصرفوه عن المعنى المفهوم منه. قال في "العقائد النسفية": والنصوص على ظواهرها، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد.هـ. أي ميل وعدول عن الإسلام.

وأقبح من هؤلاء، ما أشرت إليه من هذه الطائفة العصرية التي تتلاعب بالآيات القرآنية التي تنزلها على أهوائهم الفاسدة، وأغراضها الضالة المضلة. ولقد ذم الإمام الغزالي، حتى على أهل التصوف الذين يخرجون بتأويلاتهم، وما يدعون أنه من مواهب إلهاماتهم، فقال:

"وأما صرف ألفاظ الشارع عن ظواهرها المفهومة، إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا أيضا حرام، وضرره عظيم؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم، لا يوثق به. والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى. وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر. وإنما قصد أصحابنا الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب، ومستلذة له. وبهذا الطريق، توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة، بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم". هـ [الإحياء:33/1].

أما التفسير بالإشارة المقبولة؛ فهي التي تنكشف لأهل التحقيق من أهل التصوف، بعد إقرار النصوص على ظواهرها، وإجرائها على ما ثبت في تفسيرها من الآثار، أو مما دلت عليه من حيث العربية. وتلك الإشارة لا تنافي ما تفيده تلك الظواهر، بل تكون تابعة لمعاني الآيات، لا الآيات تابعة لها، وتكون من قبيل الفهم الذي يؤتيه الله الراسخين من أهل العلوم والمعارف.

ولهذه الإشارات الصحيحة شواهد وردت عن الصحابة وغيرهم، كقول سيدنا عمر، إنه قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية:(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا)، وكان هو يعتبر نفسه بها؛ وإنما نزلت في الكفار، لقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) الآية. ومنها ما نقل عن سهل بن عبد الله في قوله تعالى: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، أي أضدادًا، قال: وأكبر الأنداد، النفس الأمّارة بالسوء؛ إشارة إلى أن النفس داخلة تحت عموم الآية، إذ حتى لو فصل، لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادا، لا صنما ولا شيطانا ولا النفس ولا كذا. قال أبو إسحاق الشاطبي: وهذه الإشارة، بحسب الظاهر، مخالفة لسياق الآية، حيث إنها مسُوقة للنهي عن اتخاذ الأصنام ونحوها، مما كانوا يعبدون، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم. ولكن حيث كان قصد سهل هو الاعتبار، لا نفس تعبير الآية، كان ذلك صحيحا، بمعنى أن الند هو المضاد لهذه، الجاري على مناقضته. والنفس الأمارة هذا شأنها، لأمرها بمراعاة حظوظها، والإعراض عن حقوق خالقها، وهذا معنى نصب الأصنام. ويصحح هذا الاعتبار قوله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)، وهم لم يعبدوهم من دون الله، ولكن ائتمرُوا بأوامرهم، وأطاعوهم في تحليلهم وتحريمهم. هـ["الموافقات" باختصار: 238/3].

وهذا هو النسق الذي يجري عليه أهل الأفهام المستقيمة، والفتوحات الوهبية الربانية، التي أشار إليها باب العلم ومفتاحه، وسراج العرفان ومصباحه، قبلة المقاصد في المعارف والمطالب، سيدنا علي بن أبي طالب، حسبما سبق.

على أني قد أفضت المقال، ووسعت المجال، في هذا المقام، في مقدمة "التفسير" التي صدرت بها الدروس التي ألقيتها في المعهد العالي بتطوان، في دراسة كتاب"الأحكام" لابن العربي، ولخصت القول في ذلك تلخيصا، وخلصت ما في ذلك من القول الحق تخليصا، فليراجع هناك.

ثم خلاصة ما هنا أن التفسير على قسمين:

قسم مرجعه النقل المحض. وهو التفسير بما روي من الآثار والأخبار، عن سيد المرسلين وأصحابه الأبرار، وعمن تلاهم من التابعين واقتبس من معارفهم تلك الأنوار. وعلى هذا جرى إمام المفسرين في "تفسيره"، الذي هو تفسير بكل ثناء ومدح حريّ، أبو

جعفر، محمد بن جرير الطبري، واقتفى أثره من المتأخرين الحافظ، فريد المفسرين في التحقيق والتحرير، عماد الدين، أبو الفداء ابن كثير، وقد قال في أول "تفسيره":

{فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطرق في ذلك،أن يفسر القرآن بالقرآن. فما أجمل في مكان، فإنه قد بسط في موضع آخر؛ فإن أعياك ذلك، فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. بل قد قال الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلاَتَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)، وقال تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى ورَحْمَةً لِقوم يُومِنُونَ)، وقال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). ولهذا قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه"، يعني السنة. والسنة تنزل عليهم بالوحي، كما ينزل القرآن، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن}. ثم قال:

{والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده، فمن السنة، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: "فبم تحكم؟"، قال: بكتاب الله. قال: "فإن لم تجد؟"، قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟"، قال: أجتهد رأيي. فضرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في صدره وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، لما يرضي رسول الله. وهذا الحديث في المسند والسنن، بإسناد جيد}. قال:

"وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبراءهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم". ثم قال ابن كثير:

{ومنهم الحبر البحر، عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، له حيث قال:" اللهم فقهْهُ في الدِّين، وعلمه التأويل"}هـ [3/1].

[التفسير بالإسرائليات]

ثم إن في هذا التفسير بالمأثور كثيرا ما يروي عن أهل الكتاب، وينسب روايته لابن مسعود، وابن عباس، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص. وهذا كان قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما. ولكن حديث هؤلاء عن أهل الكتاب، إن صح، فإنما يروُونه للاستشهاد لا للاعتضاد، ومعتمدهم في ذلك ما فهموه من قوله، عليه السلام: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، وبين المفسرين في هذا اختلاف. ولكن قد قسّم ما يُنقل عنهم الحافظ ابن كثير إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، فهذا صحيح.

ثانيها: ما علمنا كذبه مما في أيدينا.

ثالثها: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

ثم ذكر ابن كثير من ذلك أمثلة، كذكر أسماء أهل الكهف ولون كلبهم وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت إلخ، مما لا طائل تحت معرفته أو جهله. أنظر تمامه [التفسير: 4/1].

قلت: قد عيب على بعض المفسرين في تكثيرهم من هذه النقول عن أهل الكتاب.

[القسم الثاني من التفسير]

أما التفسير بمقتضى مدلول اللغة، وما تقتضيه أساليبها من قواعد الإعراب وقوانين البلاغة، فهو أيضا من مآخذ التفسير، إلا أن ذلك كان في الصدر الأول سليقة، ثم صار بعد ذلك من العلوم التي لا بد من مزاولة تعلمها. وهذا هو الصنف الثاني من التفسير، وفيه قال ابن خلدون:

والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب.[المقدمة: 388].

قلت: وقد بينا ذلك في مقدمة "التفسير". ثم إن الكلام في هذا الموضوع يطول، ويمتد امتدادا لا يمكن الوصول إلى حده في هذه الأبحاث، التي دعانا إلى الكلام فيها ما أشرنا إليه من تجرئ أهل هذا العصر على التلاعب بالآيات القرآنية، وتنزيلها في غير معانيها، واستنادهم بها على أغراضهم الفاسدة.

[من يجوز له تفسير القرآن الكريم]

ثم إن أهل العلم اختلفوا: هل يجوز للعالم، ولو كان متسعا في فنون العربية واصول الفقه وفروعه، والأخبار والآثار، أن يخوض في تفسير القرآن، أو لا يجوز؟ فقيل: إنه لا يجوز له ذلك، إلا أن يستند إلى الرواية عن النبي، صلى الله عليه وسلم. وقال قوم: يجوز ذلك لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاج إليها المفسر. قال في"الإتقان": وهي خمسة عشر علما: اللغة والنحو، والتصريف والاشتقاق، والمعاني والبيان والبديع، وعلم القراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول والقصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة، وهو علم يورثه الله لمن يعمل بما علم، وإليه الإشارة بحديث: "من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم". هذا ما ذكره في"الإتقان"، باختصار[181/2].

ثم قال: {قال ابن أبي الدنيا: وعلوم القرآن، وما استنبط منه، بحر لا ساحل له. قال: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر؛ لا يكون مفسرا إلا بتحصيلها. فمن فسر بدونها، كان مفسرا بالرأي المنهي عنه. وإذا فسر مع حصولها، لم يكن مفسرا بالرأي المنهي عنه. قال: والصحابة والتابعون، كان عندهم علوم العربية بالطبع، لا بالاكتساب، واستفادوا العلوم الأخرى من النبي، صلى الله عليه وسلم}.

[علم الموهبة وأسباب تحصيله]

{ قلت، أي قال الإمام السيوطي: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان؛ وليس كما ظننت من الإشكال. والطريق في تحصيله، ارتكاب الأسباب الموجبة له، من العمل والزهد. قال في "البرهان": اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو هو مصرّ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أوضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله. وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض. (قلت)، أي قال السيوطي: وفي هذا المعنى قوله تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ)، كان سفيان بن عيينة يقول: أنزع عنهم فهم القرآن. أخرجه ابن أبي حاتم}.[الإتقان:181/2].

[تفسير علم الموهبة،
ومنهج أهل العرفان في ذلك]

قلت، أي قال كاتبه: وهذه الموهبة هي الشيء يلهمه الله لأهل العرفان، فتنفتح لهم بها المعاني الخفية على غيرهم من أهل القرآن، ويتكلمون بالإشارات الصحيحة التي يقتبسونها من معانيه، ويستخرجونها من مبانيه، دون مخالفة للأصول، ولا انحراف بها عن الصراط المستقيم، كما أشرنا إلى ذلك سابقا؛ وذلك أنهم مُقِرّون ومعترفون أن كل ما تكلموا به في طريقهم، وترجمت به ألسنتهم عن أذواقهم، فهو من القرآن مقتطف، ومن دوحة أسراره مجني، ومن بحر علومه العذب مغترف.

وممن صرح بهذا، قطب دائرة أهل الإشارات، ومورد فيضان ينابيع العبارات، التي لا يقتحم عقبات مشكلها إلا أهل المقامات، والمعترفون بأن في هذه الأمة محدَّثين يحق التسليم لهم، فيما صدر عنهم، من بث حقائق المعارف التي أتوا بها عمن سواهم مقفلات؛ الشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي؛ إذ قال في"الفتوحات"، في الباب366، في معرفة وزراء المهدي المنتظر، بعد كلام طويل، واستشهاده على كثير من مقالاته في ذلك بالقرآن المجيد، وأحاديث الرسول واستمدادها من بحره المديد، ما لفظه:

" فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي؛ إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه؛ أعطيت مفتاح الفهم فيه، والإمداد منه. وهذا كله حتى لا نخرج عنه، فإنه أرفع ما يمنح، ولا يعرف قدره إلا من ذاقه، وشهد منزلته حالا من نفسه، وكلمه به الحق في سره. فإن الحق إذا كان هو المكلم عبده في سره بارتفاع الوسائط، فإن الفهم يستصحب كلامه منك، فيكون عين الكلام منه عين الفهم منك؛ لا يتأخر عنه. فإن تأخر عنه، فليس هو كلام الله. ومن لم يجد هذا، فليس عنده علم بكلام الله عباده. فإذا كلمه بالحجاب الصوري بلسان نبي، أو من شاء الله من العالم، فقد يصحبه الفهم، وقد يتأخر عنه. هذا هو الفرق بينهما". هـ[334/3].

<u>وهنا ننهي</u> الكلام على ما جرّ إليه القول في بعض المتلاعبين في تفسير "القرآن" الكريم بالرأي الفاسد، وتنزيله على ما يقتضيه غرضه، كما يفعله الملاحدة. ولو زدنا في هذا الموضوع، لامتدت بنا الأصول والفروع، ولم نتفرغ لما سواه من المسائل.

***

[مسألة استعمال الحرير في الفرش واللباس، وما في ذلك من الخلاف]

هذا ومن المسائل التي نقلناها عن شيخ الشيوخ، ما قرره في مسألة افتراش الحرير وجلوس الرجال عليه، وقد شدَّد في ذلك شيخ الشيوخ القادري. ونحن نلم في ذلك بمقالات أهل الحديث والفقه، إذ الشيخ، رحمه الله، ارتكب في الاستدلال على حرمة الجلوس والحضور في المنازل التي افترش فيها الحرير، ونقل عن أئمة من غير مذهب مالك، بل ومن علماء وأئمة صوفية من أهل الورع والتشديد في ذلك، والأخذ بالعزائم، دون ملاحظة الترخص والعمل بالضعيف، حيث تعم به البلوى، ويستمر عادة لا يمكن صرف الناس عنه.

ثم إني أقول: أولا إن هذه المسألة في عصرنا هذا، قد أراحت الفقهاء في كتب فتاويهم فيها، لأن الحرير الذي ورد الكلام فيه، هو الحرير الخالص الحقيقي، لأن المشوب بغيره من قطن أو نحوه، فضلا عما ليس فيه شعرة من الحرير الحقيقي؛ فإن ذلك لا يوجد اليوم، إذ المنسوجات الآن للباس والفرش هي كلها من غير الحرير، بل هي مصنوعة من الثياب من صبار وغيره، أخرجتها الصنعة في صورة الحرير، وبينها في الأصل وبين الحرير بون بعيد. وأما الحرير الحقيقي، فإنه مفقود، وإذا وجد المنسوج الحريري الحقيقي فإنما يوجد في بيوت الملوك وأمثال الملوك. قال العلامة ابن حجر:

(تنبيه) الذي يمنع من الجلوس عليه، هو ما منع من لبسه، وهو ما صنع من حرير صرف، أو كان الحرير فيه أزيد من غيره.هـ [الفتح:226/10].

وعليه، فإذا كانت علة تحريم الحرير لكونه حريرا، فكل ما نسج على صورة الحرير، وأخرج في صورة جميلة من المنسوجات، ربما تكون في الحسن والصنعة أبهج وأرق؛ هو حلال لبسه، والجلوس عليه مطلقا للرجال والنساء، دون قيد.

وإن كانت العلة هو ما فيه من التزيين، والتحلي بحلية لا تليق بأهل المروءة، والتنزه عن التزيِّي بزي ينافي التواضع، والتباعد عن صفة من لا خلاق له، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم، في لباس حلة الديباج: "إنما يلبس هذا من لا خلاق له".

ثم، وقد اختلف العلماء في هذه العلة، ففي "الفتح"، عند كلامه على الحديث الذي رواه البخاري، في ترجمة: (باب لبس الحرير للرجال، وقدر ما يجوز منه)، بعد أن ذكر الخلاف في لباس الحرير، قال عن ابن بطال:

اختلف في الحرير، فقال قوم: يحرم لبسه في كل الأحوال، حتى على النساء. نقل ذلك عن علي وابن عمر وحذيفة وأبي موسى وابن الزبير، ومن التابعين عن الحسن وابن سيرين. وقال قوم: يجوز لبسه مطلقا، وحملوا الأحاديث الواردة في النهي عن لبسه على من لبسه خيلاء، أو على التنزيه. (قلت)، أي قال ابن حجر: وهذا الثاني ساقط، لثبوت الوعيد على لبسه. وأما قول عياض: حمل بعضهم النهي العام في ذلك على الكراهة لا على التحريم؛ فقد تعقبه ابن دقيق العيد فقال: قد قال القاضي عياض، إن الإجماع انعقد بعد ابن الزبير ومن وافقه على تحريم الحرير على الرجال، وإباحته للنساء. ثم ذكر ابن حجر عن ابن دقيق العيد الآثار التي تشهد لما قاله. [فتح الباري:220/10].

قلت: وعلى هذا الإجماع اعتمد الإمام الحطاب، من المالكية، عند شرح قول خليل:{وعصا وصحت، إن لبس حريرا}إلخ؛ فقال: لبس الحرير الخالص حرام على الرجال بالإجماع. قال ابن رشد: أجمع أهل العلم على أن لباس الحرير المصمت الخالص، محرم على الرجال.هـ [504/1]. ثم نقل عن ابن عرفة الحرمة دون ذكر الإجماع. ثم قال ابن حجر:

{واختلف في علة تحريم الحرير على رأيين مشهورين. أحدهما: الفخر والخيلاء. والثاني: لكونه ثوب رفاهية وزينة، فيليق بزي النساء دون شهامة الرجال. ويحتمل علة ثالثة: وهي التشبه بالمشركين. قال: وذكر بعضهم علة أخرى، وهي السرف}. هـ[220/10].

وقد أشرت إلى هذا كله صدر هذا الكلام. وبالجملة؛ فلباس الحرير الصرف، كان فيه خلاف صدر الإسلام وبعده، فيما يظهر من الكلام السابق، على أقوال: الحرمة مطلقا للنساء والرجال، والجواز مطلقا، والكراهة للرجال والنساء. وقد علمت ما في ذلك من كلام ابن حجر، والله أعلم.

أما ما كان من المنسوجات الحريرية التي يخالطها غيرها، وتسمى عندهم بالخز، ففيها أقوال. ففي "شرح" الحطاب عن ابن رشد، وهو، أي الخز، ما كان سداه من حرير، واللحمة من الوبر. قال: وقد اختلف فيه وفيما كان من معناه من الثياب، المحشوة بالقطن والكتان، كالمحررات التي سداها من حرير ولحمتها قطن أو كتان، على أربعة أقوال:

أحدها: أنه من قبيل المباح. وهو قول ابن عباس وجماعة من السلف، منهم ربيعة.

والثاني: أن لباسها غير جائز، ولكن لا يقال فيه حرام. وهو مذهب ابن عمر.

الثالث: أن لباسه مكروه. وهو أظهر الأقوال وأولاها بالصواب، لاختلاف أهل العلم فيه، وتكافؤ الأدلة، فهو من قبيل التشابه. قال: وعلى هذا القول يأتي ما حكى مطرف، من أنه رأى على مالك كساء بريسم كساه إياه هارون الرشيد، إذ لم يكن يلبس ما يعتقد أنه يأثم بلبسه.

الرابع: الفرق بين ثياب الخز وسائر الثياب؛ فيجوز لباس الخز، ولا يجوز لباس ما سواه. وإليه ذهب ابن حبيب، وهو أضعف الأقوال. هـ باختصار في أوله. [مواهب الجليل:504/1].

وأما افتراش الحرير، والجلوس عليه، ففي ذلك أيضا خلاف. ففي "فتح الباري"، عند قول البخاري: (باب افتراش الحرير): وروي عن حذيفة أنه قال: نهانا النبي، صلى الله عليه وسلم، أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه.هـ قال في قوله: وأن نجلس عليه: حجة قوية لمن قال بمنع الجلوس على الحرير، وهو قول الجمهور، خلافا لابن الماجشون والكوفيين وبعض الشافعية. وأجاب بعض الحنفية بأن لفظ نهى ليس صريحا في التحريم، وبعضهم باحتمال أن يكون النهي ورد عن مجموع اللبس والجلوس، لا عن الجلوس بمفرده.

ثم ذكر الرد على ابن بطال، بكون الحديث نصا في تحريم الجلوس. ثم ذكر القول بأن المنع [الذي] ثبت في حق الرجال، ثبت في حق النساء أيضا. ثم ذكر تصحيح الجواز لهن عن النووي. ثم ذكر عن النووي أنه حرم على الرجل أن ينام مع المرأة في فراشها الحريري. ولكن قال: إن المجيز لذلك من المالكية، وجهه بأن المرأة فراش الرجل؛ فكما جاز له أن يفترشها، وعليها الحلي من الذهب والحرير، فكذلك يجوز له أن يجلس وينام معها على فراشها المباح لها.هـ [الفتح:226/10].

وفي المواق: قال ابن العربي: يجوز للمرأة لباسها وفراشها من الحرير والذهب هـ.

وأما الستور التي تعلق في أبواب الغرف والنوافذ، والكسى التي تجعل على الأسرة؛ ففي الحطاب عند قول خليل: وعصى وصحت إلخ: مسألة ستر الحيطان به، لا بأس به. قال ابن رشد، إثر كلامه في البسط: بخلاف ستور الحرير المعلقة في البيوت؛ لا بأس بها، لأنها إنما هي لباس لما سترته من الحيطان.هـ قال الحطاب: فظاهره أنه لا بأس بها على قول ابن الماجشون، وعلى قول الجمهور، فتأمله. ويأتي نحوه عن "النوادر". وذكر صاحب"المدخل" في فصل خروج النساء للمحمل: إن مساند الحرير والبشخانات التي

تعلق على السرير، لا تجوز للرجال ولا للنساء.هـ. وهو غريب. أما النساء فلا وجه لمنعهن منه، لأن ذلك نوع من اللباس. وأما الرجال، فلا شك أن استنادهم إليه لا يجوز. وأما البشخانات المعلقة، فالظاهر أنه يجوز، وأنها داخلة في الستور، كما ذكر ابن رشد. ولو منع ذلك، لمنع دخول الكعبة، لأن سقوفها مكسوة بالحرير. وكسوها بالحرير جائز، بل مندوب. انظر تمامه[مواهب الجليل:504/1].

[الغاية من هذه النقول، والكلام على علة تحريم الحرير]

وقد أتيت بهذا النقل، لما فيه من الفسحة والترخص، وتقليد القول الضعيف عند عموم البلوى وتمكن العادة. وقد بينا سابقا أن هذا الحرير الذي أبيح للنساء، ومنع في حق الرجال، هو مفقود.

نعم؛ بقي هنا ما ذكر في علة تحريم استعمال الحرير ونحوه، هو لكونه حريرا صرفا، وذهبا كذلك، أو لكونه لما فيه من الترفه وإظهار الخيلاء والكبر، ولكونه من اللباس الذي يتزين به النساء، ولكونه لباس أهل الكفر.

فإن كان لكونه حريرا حقيقيا، فقد أراحنا الله اليوم من وجود ذلك في الثياب. وإن كان لغير ذلك، مما ذكرنا؛ فعلة الحرمة موجودة حتى في هذه الثياب المنسوجة بالحرير والذهب المزور.

<u>ولكن حكمهم بالخلاف</u> في الخز والحرير المختلط بالقطن ونحوه، يقتضي جواز هذا المنسوج المزور المخالف لجنسه، لأنه ليس بحرير أصلا، والله أعلم.

<u>وكل ما نقلناه</u>؛ فإنما للتنبيه على ما جاء به شيخنا من التشديد في بعض ما ذكرناه، مع ما اقتضاه المقام في بعض الأقوال، التوسيع على من يراعي الحلال والحرام في دينه، وهو اليوم نادر، بل يمكن أن يحكم عليه بالفقد. فإن الناس أعرضوا عن هذا، وصار من يقول لهم: هذا حلال وهذا حرام، يضحكون عليه ويتغامزون، إذ أصبحنا في جيل، ممن يدعون الإسلام، لا يحرمون ما حرم الله، ولا يدينون دين الحق؛ هذا في حق الرجال. فما بالك في حق النساء؟! ولا يعلمون أن من لا يقول بالتحليل والتحريم، هو إباحي ليس له دين، ولا في حق الشريعة من يقين. والأريب منهم، إذا ألححت عليه في ذلك، يلاطفك بقوله: الله يهديك، هذا جاء به العصر. ومقتضى كلامه أن أمر هذه الشريعة منسوخ، وأنه

أرسل إليهم شيطان الضلالة، فأمرهم باتباع أهوائهم من المجون والمسوخ. والله تعالى المسؤول أن يتداركنا بلطفه، ويهدينا إلى الصراط المستقيم.

***

[مسألة الصور والتماثيل، وما فيها]

هذا، ومما ذكره الشيخ القادري، رحمه الله ورضي عنه، مما يوجب التخلف عن الحضور في الولائم ونحوها؛ الصور المجسمة، التي شأنها أن تنصب في الحيطان وغيرها. وذكر في ذلك ما ذكره الشيخ خليل في (فصل الوليمة) من قوله: كصور على جدار. وذكر خلاصة ما في المسألة المذكورة في قول سيدي علي الأجهوري: ومثال ذي ظل، إلخ.

قلت: وقضية الحكم في ذلك مبين في صحيح البخاري، إذ أطال في ذلك ونوع فيه الأبواب، فقال: باب التصاوير، باب عذاب المصورين يوم القيامة، باب نقض الصور، باب ما وطئ من التصاوير، باب من كره القعود إلى الصور، باب كراهة الصلاة في التصاوير، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، باب من لم يدخل بيتا فيه صورة، باب من لعن المصور، باب من صور صورة. فهذه عشرة أبواب.

وذكر في "الفتح" ما ورد عن الأئمة في تفسير تلك الأحاديث، ويعلم ذلك بمراجعته. وقد ذكر في الباب الأول في الحديث الأول، وهو قوله، عليه السلام: " لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير"، قال: ظاهره العموم. وقيل يستثنى من ذلك الحفظة، لأنهم لا يفارقون الشخص في كل حالة. وبذلك جزم ابن وضاح والخطابي وآخرون. لكن قال القرطبي: كذا قال بعض علمائنا، والظاهر العموم، والتخصيص يعني: الدال على كون الحفظة لا يدخلون، ليس نصا.هـ(قلت)، أي قال ابن حجر: ويؤيده أنه ليس من الجائز أن يطلعهم الله على عمل العبيد، ويسمعهم قوله، وهم بباب الدار التي هو فيها مثلا. ثم قال بعد هذا، بسطا لهذا الإشكال والجواب، وما في المسالة من الخلاف، فقال: واختلف في المراد بالملائكة، فقيل: هم على العموم. وأيده النووي بقصة جبريل الآتي ذكرها، فقيل: ليستثنى الحفظة. ثم ذكر ما هنا، ثم قال: وقيل: من نزل منهم بالرحمة، وقيل: من نزل بالوحي خاصة، كجبريل. قال: ويلزم منه اختصاص النهي بعهد النبي، صلى الله عليه وسلم.

ثم اختلف في هذا العلماء: هل هو في كل صورة حيوان ، سواء كانت مجسمة ولها ظل، أو رقما في ثوب، أو تمثالا في شيء يدوم، كالتماثيل التي في الأحجار ونحوها، أو

فيما لا يدوم، كحلواء مثلا، أو كانت الصور كاملة أو غير كاملة، أو مما يمتهن، أو مما لا يمتهن. وعلى هذا الإمام النووي؛ ففي "فتح الباري": قال النووي، قال العلماء: تصوير صورة الحيوان، حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر، لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد، أي قوله، عليه السلام: "إن أشد الناس عذابا عند الله المصورون". قال: وسواء صنعه لما يمتهن أم لغيره، فصنعه حرام بكل حال، وسواء كان في ثوب أو بساط، أودرهم أو دينار أو فلس، أو إناء أو حائط أو غيرها. فأما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان، فليس بحرام.هـ ثم قال: ويؤيد التعميم فيما له ظل، وفيما لا ظل له، ما أخرجه أحمد. ثم استمر في الاستدلال.

ثم لا يخفى أن ما ذهب إليه النووي، وأيده في"الفتح"، ليس متفقا عليه، لما في الحديث عن زيد، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول:"إلا رقما في ثوب"، ورواه البخاري بعد هذا مفصلا. لكن أراد النووي الجمع بين الأحاديث المطلقة، وبين هذا الحديث المقيد، بقوله:

يجمع بين الأحاديث بأن المراد باستثناء الرقم في الثوب، ما كانت الصورة فيه من غير ذوات الأرواح، كصورة الشجر ونحوها.هـ قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون ذلك قبل النهي، كما يدل عليه حديث أبي هريرة.

وذكر حديث أبي هريرة بعد هذا، قال: ولفظه: "أتاني جبريل فقال: أتيتك البارحة، فلم يمنعني أن أكون دخلت، إلا أنه كان على الباب تماثيل؛ وكان في البيت قرام ستر فيه تماثيل، وكان في البيت كلب؛ فمُر برأس التمثال الذي على باب البيت، يُقطع فيصير كهيئة الشجرة. ومُر بالستر، فليقطع، فليجعل منه وسادتان منبوذتان توطآن، ومُر بالكلب فليخرج". ففعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال ابن حجر:

وفي هذا الحديث ترجيح قول من ذهب إلى أن الصورة التي تمنع الملائكة من دخول المكان، التي تكون فيه باقية على هيئتها، مرتفعة غير ممتهنة. فأما لو كانت ممتهنة أو غير ممتهنة، لكنها غيرت عن هيئتها، إما بقطعها من نصفها أو بقطع رأسها؛ فلا امتناع.هـ [302/10].

ثم أفاد أن مسألة التصوير في الثوب ونحوه، وردت فيه أحاديث. ظاهر حديث زيد بن خالد الجواز، وظاهر حديث عائشة المنع. قال القرطبي: ويجمع بينهما بحمل حديث عائشة على الكراهة، وحمل حديث أبي طلحة على مطلق الجواز، وهو لا ينافي الكراهة. قال ابن

حجر: وهو جمع حسن، لكن الجمع الذي دل عليه حديث أبي هريرة أولى منه. هـ [303/10]. أي وهوالناسخ. قال ابن حجر في باب ما وطئ من التصاوير، في حديث عائشة التي قالت فيه:"قدم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من سفر، وقد سترت بقرام لي " - بكسر القاف وتخفيف الراء، هو ستر فيه رقم ونقش، وقيل ثوب من صوف، ملون بفرش في الهودج، أو يغطى به - "على سهوة لي، فيها تماثيل، فلما رآه هتكه"، أي نزعه. قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ الصور إذا كانت لا ظل لها، وهي مع ذلك مما يوطأ ويداس، أو يمتهن بالاستعمال، كالمخاد والوسائد. قال النووي: وهو قول جمهور العلماء والصحابة والتابعين، وقول الثوري ومالك وأبي حنيفة والشافعي. ولا فرق في ذلك بين ما له ظل، وما لا ظل له؛ فإن كان معلقا على حائط، أو ملبوسا أو عمامة، أو نحو ذلك، مما لا يعد ممتهنا؛ فهو حرام.

ثم نقل ابن حجر، على نقل النووي هذا، مُؤاخذات. ثم قال عن النووي عن بعض السلف: إن الممنوع ما كان له ظل. وأما مالا ظل له، فلا بأس باتخاذه مطلقا، وهو مذهب باطل. ولكن صححه ابن حجر، بما نقله عن القاسم بن محمد بسند صحيح، ولفظه عن ابن عدي: دخلت على القاسم، وهو بأعلى مكة في بيته، فرأيت في بيته حجلة فيها تصاوير القندس والعنقاء. ففي إطلاق كونه مذهبا باطلا نظر. فانظره[299/10].

ثم ذكر بعد في هذا، في باب القعود على الصور، عن ابن العربي، تحصيلا في اتخاذ الصور، أنها، إن كانت ذات أجسام، حرم بالإجماع. وإن كانت رقما، فأربعة أقوال:

الأول: يجوز مطلقا على ظاهر قوله:"إلا رقما في ثوب".

الثاني: المنع مطلقا حتى الرقم.

الثالث: إن كانت الصورة باقية الهيئة، قائمة الشكل، حرم. وإن قطعت الرأس أوتفرقت الأجزاء، جاز. قال: وهذا هو الأصح.

الرابع: إن كان مما يُمتهن جاز، وإن كان معلقا لم يجز. هـ [302/10].

قلت: ولكن هذا الإجماع فيما له ظل، كما قال ابن حجر، في غير لعب البنات، كما سأذكره في (باب من صوَّرصورة) إلخ. وحكى القرطبي في"المُفهم"، في الصور التي لا تتخذ للإبقاء كالفخار قولين، أظهرهما المنع. قال ابن حجر: وهل يلتحق ما يصنع من الحلوى بالفخار، أو بلعب البنات، محل تأمل.هـ [الفتح:300/10].

ومباحث التصوير طويلة، وقد استوعب الكلام عليها شيخنا الكتاني في كتابه:[فيما تنفر منه الملائكة الكرام].

***

[مسألة تماثيل سيدنا داود، عليه السلام]

ومما يلحق بهذا الباب، ما استشكله الحافظ في الباب الأول، في كتاب التصاوير؛ مسألة تماثيل سيدنا داود، عليه الصلاة والسلام، ونزول الملائكة إليه بالوحي، ودخوله في مكانه الذي فيه التماثيل، فقال: وقد استشكل كون الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه التصاوير، مع قوله سبحانه وتعالى، عند ذكر سليمان، عليه السلام: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ)، وقد قال مجاهد: كانت صورا من نحاس. أخرجه الطبري. وقال قتادة: كانت من خشب ومن زجاج. أخرجه عبد الرزاق.

والجواب أن ذلك كان جائزا في تلك الشريعة، وكانوا يعملون أشكال الأنبياء والصالحين منهم على هيأتهم في العبادة، ليتعبدوا كعبادتهم. وقد قال أبو العالية: لم يكن ذلك في شريعتهم حراما. ثم جاء شرعنا بالنهي عنه. ويحتمل أن يقال: إن التماثيل كانت على صورة النقوش لغير ذوات الأرواح. وإذا كان اللفظ محتملا، لم يتعين الحمل على المعنى المشكل.

ثم ذكر ابن حجر حديث "الصحيحين" عن عائشة، رضي الله عنها، في قضية الكنيسة التي كانت بأرض الحبشة، وما فيها من التصاوير، وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "أولئك شرار الخلق عند الله". قال ابن حجر: فإن ذلك يشعر بأنه لو كان جائزا في ذلك الشرع، ما أطلق عليه، صلى الله عليه وسلم، أن الذي فعله شر الخلق. فدل على أن فعل صور الحيوان فعل محدث، أحدثه عباد الصور.هـ [295/10].

قلت: وقد ذكر بعض المفسرين في وصف هذه التماثيل روايات أعرض عن ذكرها المحققون منهم، كابن كثير وغيره. وذكر منها في"الدر المنثور"، ما رواه الحكيم الترمذي في"نوادر الأصول"، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله: (وَتَمَاثِيلَ)، قال: اتخذ سليمان، عليه السلام، تماثيل من نحاس، فقال: يا رب انفخ فيها الروح، فإنها أقوى على الخدمة. فنفخ الله فيها الروح؛ فكانت تخدمه، وكان اسفنديار من بقاياهم.هـ [الدرالمنثور للسيوطي :228/5].

ولكن قال في "روح المعاني" إثره: وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي اعتقاد صحته، وما هو إلا حديث خرافة. قال: وأما ما روي من أنهم عملوا له، عليه السلام، أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد، بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد، أظله النسران بأجنحتهما؛ فأمر غير مستبعد، فإن ذلك يكون بالآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود، فتحرك الذراعين والأجنحة. وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك. قال: وقد اشتهر عمل نحو ذلك عن الفلاسفة. قال: وهومما لا يتم عندهم إلا بواسطة بعض الأوضاع الفلكية.هـ [110/22]، يُشير إلى ما كان مشهورا في القديم بالطلسمات، وهو باب من أبواب السحر الذي انعدم في هذه الأزمان الأخيرة.

[الاختراعات الجديدة]

وتوجه الحكماء اليوم إلى اختراع الآلات العجيبة المتحركة من خواص العناصر، من المعادن المودعة في هذه البسطة التي لا تنحصر، ولا تزال تبدُو لهذا البشر مدى الدهر، كما قاله علماؤنا المطلعون على الأسرار الإلهية التي أودعها الله في هذه الأرض، بمقتضى قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الارْضِ جَمِيعًا مِنْهُ). وقد أشرنا إلى ذلك غير ما مرة، إلى ما قاله العلامة أبو إسحاق الشاطبي، من أن ما وقف عليه البشر في زمانه، وهو القرن الثامن الهجري، إلا النزر اليسير. ولا يزال الله يطلع هذا البشر على تلك الخواص وتنوعها، ويريهم، جل وعلا ، من بدائع آياته، وأسرار حكمته في هذه الآفاق، حتى يُسمع بها آذانا صمًا، ويفتح بها أعينًا عُميًا؛ فيرون القدرة الباهرة، والسطوة في هذا العالم القاهرة، ويتبين لهم أن الحق لله، وأن بيده مقاليد السماوات والأرض، وأنه مبدعهما وما فيهما من حيوان ونبات، ومعادن وأسرار ذلك كله، وهو الذي يبديها إن شاء، ويخفيها إن أراد، إذ هو الفاعل المختار، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة، الكبير المتعال، سواء من أسَرَّ القولَ من خلقه ومن جهر،(وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّلَيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

وعليه؛ فما تراه في هذه الأزمان من الطيران في الهواء، ومحاولة مطاولة الكواكب في السماء، هو بقدرته وتسخير آلاته، وخلق أصوله وإبدائه خواصه. (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، بَدِيعُ السمَاواتِ وَالارْضِ)، وهو الذي يشقها شقا، وينسف جبال أرضها نسفا، ويذرها قاعا صفصفا، وينثر كواكب سمائها نثرا، ويجمع الشمس والقمر، ويقول الإنسان أين المفر.

ثم ليتيقن المؤمن أن ما يظهر في هذه الأرض من العجائب، ويبدو على يد البشر من الغرائب، التي ربما تحير قلوب بعض العقلاء، وتكاد تؤثر في عقيدة بعض الفضلاء؛ ليس من الكرامات ولا المعجزات، ولا هي مما أحدثه البشر بقوته، ولا ابتدعه بنفسه، بل هي بتركيب آلات أرضية أو هوائية أو خواص معدنية.

أما الكرامات والمعجزات، فهي تخالف ذلك تمام المخالفة، إذ هي موجهة من الله، يجعلها حيث شاء ممن اصطفى من عباده، ليست تحت صناعة البشر، في ورد ولا صدر. والله غالب على أمره.

[التلفزيون، ومسألة تحريم الصور]

ومما اخترعته الصناعة، وتتبع الخواص الأرضية والهوائية، هذه الآلة التي تأتي بالصور ناطقة بكلامها الفصيح، من محادثة ودروس علمية، وخطب دينية وسياسية، كما هي عليه، مُظهرة صورة الناطق على ما هي عليه في تحركاتها وسكناتها، وتذيع هذه الصور، ناطقة بما قدمنا، في كل الأقطار، على بعدها من مركزها الأصلي، وهو شيء عجيب.

وأعجب منه أن العامة لم تتأثر بذلك في عقيدتها، وإن افتتن البعض بذلك من الخاصة، وأدى بهم ذلك إلى السخرية بأمور الديانة. ولكن ذلك لا أثر له عند الجمهور، ولا سيما عند خاصة أهل العلم الحقيقي الديني، لأنهم يعلمون أن هذا من الفتن التي تكون في هذا الزمان، وسيظهر ما هو أعجب منها عند ظهور الدجال، ويأجُوج ومأجُوج والدابة. وقد أخبر النبي، صلى الله عليه وسلم، بما يكون في آخر هذه الأمة من الفتن، إجمالا وتفصيلا وإشارة؛ فمن ذلك ما ينطبق تمام الانطباق على هذه العجائب التي تظهر على يد البشر، وتوهم الجاهل أو الغافل أو الملحد، أن هذا شيء كان يجهله النبي، صلى الله عليه وسلم. مع أنه، صلى الله عليه وسلم، عُلم علم الأولين والآخرين، ففي حديث سمرة، حسبما ذكر ابن حجر، ونسب رواية ذلك إلى الطبراني والإمام أحمد، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا عظاما لم تحدثوا بها أنفسكم"، وفي لفظ:" يتفاقم شأنها في أنفسكم، وتسألون هل كان نبيكم ذكر لكم ذكرا" الحديث. وفيه: "وحتى تروا الجبال تزول عن أماكنها". قال ابن حجر: في حديث طويل أصله عند الترمذي.

قلت: ولو عاش رواة هذا الحديث إلى عصرنا، لسجدوا شكرا لله على ما دل عليه هذا الحديث من دلائل النبوة. وقد أسلفنا الكلام في هذا الموضوع في المجلد الثاني بأبسط من هذا.

واتخاذ هذه الآلة المسماة بالتلفزيون في البيوت، وتعمير الأوقات بالاشتغال بالنظر فيها، فتوجه حرمته بالأولى مما سبق من تحريم الصور التي لها ظل. ولكن قد عمت هذه المصيبة، واتخذها في بيته الغني والفقير، واعتنى بشأنها المأمور والأمير، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فقد ضلت عقول الخاصة، فضلا عن العامة، وأصابت هذه الأمة من أنواع الملمات، وأحاطت بها التغيرات في العبادات والعادات، ما أعماها وأصماها، وأضلها في دينها ودنياها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإذ أتينا بنبذة فيما يتعلق بالتصوير، وأطلنا فيها المقال، الذي لا أجد فيما أتيت به من الحكم، من ولي ولا نصير؛ فإنما ساقني إليه ما قاله شيخ الشيوخ، من تحريم الدخول للمحل الذي فيه [الصور المجسمة]، وشرح به قول خليل: أو صور على جدار. وأتى في ذلك بتحصيل أحد شراح خليل، سيدي علي الأجهوري في نظمه الشهير:

وتمثال ذي ظل إذا دام حرمُوا   وما لم يدم أيضا وأصبغ خالفا

[إلخ]. وأنه من الأمور التي تنفر الملائكة الكرام من الدخول لبيت فيه الصور التي لها ظل، وأن شيخنا الكتاني ألف تأليفا خاصا في هذه الأمور التي تنفر الملائكة؛ وذكر منها الصور.

ثم الآن أقول: إن الشيخ القادري، وشيخنا الكتاني، كانا من الذين يخالطون العامة والخاصة، وكان شأنهما، رحمهما الله، أن يحررا القول في ذلك بجلب النقول،[وبيان] الحكم الشرعي لهم، ولسان حالهما يقول:(هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً).

***

[اعتذار المؤلف عن تنوع أبحاث هذه الفهرسة، ومدح الكتاب وفضل الاشتغال بالعلم]

وعُذرًا عذرًا أيها الناظر في هذه "الفهرسة" الجامعة، التي وضعناها محبة في المعارف والعلوم، وتقضية للوقت بذكر ما يرضي الرحمان، الذي علم القرآن، وأنزله نورا وهدى لسيد بني عدنان. وهو الكتاب المقدس الذي فيه علم الأولين والآخرين، وهو ذخيرة لأهل العلم الذي جمع مصالح الدنيا والدين، كما قال تعالى: (مَا فَرَّطْنا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ).

ولهذا ترى هذا العُبيد، مهما صار يحرر الكلام في موضوع، إلا وتفرعت عنه فروع، إذ الحديث شجون، تتفرع منه فنون، ومهما حاولت الفراغ من فن، إلا وعارضتك فنون، لو اتبعها القلم لفني الزمان، وهو لم يستوعب أبحاث فن من الفنون، ويقف وقفة العاجز الحيران.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فينبغي سلوك مسالك الاقتصاد، ويأخذ من كل فن من أحسنه ما يشفي الصادي ويبلغه المراد، ويستغني بمحاسن مباحثه عن القيل والقال، وما يخرج به عن طريق الرشاد، ويبلغه إلى الحق الذي هو أقصى المراد.

ولقد مدح العلماء المتقدمون، وتلاهم في ذلك المتأخرون؛ المصنفات والدفاتر، وإدمان مطالعتها والاستفادة منها للأكابر والأصاغر، إذ هي في الوحشة أنسٌ ولذة معنوية تفوق تلك اللذات التي يتمتع بها المرأ حسا. ولذا حصرها العلماء في المعارف. وأشرفها ما توصل المؤمن إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وفي هذا المعنى، أنشد الحافظ ابن عبد البر، قال: ومما يحفظ قديما:

نعم المؤانس والجليس كتاب   تخلو به إن ملَّك الأصحاب
لا مفشيًا سـرًا ولا متكبرًا   وتفاد منه حكمة و صواب

وأنشد قول القائل:

وألذ ما طلب الفتى بعد التقى   عـلم هناك يزينـه طلبـه
ولكل طـالب لـذة متنـزه   وألذ نــزهـة عالم كتبـه

وقد أسلفنا فيما سبق في هذا المعنى جملة وافرة.

[تقريظ الجاحظ للكتاب]

هذا، وممن أفاض في مدح الكتُب، وأبان عما فيها من الفوائد والفرائد، وجاء بعبارات ممزوجة بجد وهزل، وبفقرات ممتعة بالكلام البليغ الجزل، من المتقدمين؛ عثمان بن بحر الجاحظ، إمام الأدب العربي وخزانة لغاته، ودائرة معارفه الجامع لجده وهزلياته، والمضحك تارة والمبكي أخرى، والجاري ببحر أساليبه العربية الأصيلة، ونكتها العجيبة الغريبة، مما لا يجد الغائص فيه إلا جوهرًا ودرًا، إذ قال:

{فعبت الكتاب، ونعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء ملئ علما، وظرف حُشي ظرفا، وإناء

شحن مزاحا وجدا. إن شئت، كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت، كان أعيا من باقل، وإن شئت، ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت، ألهتك طرائفه، وإن شئت، أشجتك مواعظه. ومن لك بواعظ مُلهٍ، وبزاجر مُغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار}. ثم استمر ينثر درر بلاغته، وينشر في شأن الكتب جواهر براعته.

ثم صار يحتج لتقديم الكتابة على الحفظ، فقال: وقد قال ذو الرّمّة لعيسى بن عمر: اكتب شعري، فالكتاب أحب إليّ من الحفظ، لأن الأعربي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشدها الناس؛ والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلاما بكلام.هـ [حياة الحيوان:19/1].

وقد سبق لنا في هذا الموضوع، في هذه"الفهرسة"، ما فيه بلاغ ومقنع. وأكبر دليل وأصح حجة في ترجيح الكتابة؛ اشتغال السلف الصالح بالكتابة والتصنيف، وعمارة أوقاتهم بالجمع والتأليف، واتبعهم من جاء بعدهم في ذلك.

وكان العالم النبيل، والفقيه الجليل، أهم ما عنده، وألذ ما يقضي فيه وقته، هو لزوم بيته، ومطالعة ما حوته ذخائر خزائنه، فيأخذ منها، ويجمع ما يراه مفرقا فيها، ويلخص ما كان مطولا منها، قصد إفادة من يأتي بعده. ولا يزال هذا شأن العلماء إلى عصرنا، وإن الكتاب هو ضالته المنشودة، وغايته من بث العلم المقصودة.

وهذا أمر معروف غني عن التعريف. ومن شاء استيعاب هذا الموضوع، وما في الكتاب والتأليف من الفوائد، المنظمة على المنهج الأدبي تنظيم قلائد الفرائد؛ فلينظر أوائل كتاب الجاحظ.

***

[مواصلة المؤلف الكلام عن الشيوخ الذين فاته الأخذ عنهم مباشرة]

ثم لنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر ثلاثة من أعلام فاتني الأخذ عنهم: أولهم والد شيخنا، صاحب الترجمة، وهو سيدي جعفر الكتاني، وهذا ألفيته لبّى داعي مولاه. أما الإثنان وهما: شيخ الشيوخ، سيدي مَحمد القادري، فقد ألفيته حيا، لكن تعذر الأخذ عنه، كما قدمنا.

[الشيخ سيدي مَحمد جنون،
وأخذ المؤلف عنه بالإجـازة العامة]

وثاني اثنين: هو الشيخ سيدي مَحمد جُنون، وينطق به الناس بتصغير جنون، فيقولون: كنيون، للفرق بينه وبين الإمام العلامة، مختصر حاشية الشيخ الرهوني على الزرقاني. وليس هذا التصغير للتحقير، بل هو للفرق، ويمكن أن يكون من قبيل قولهم:

ما قلت أخـيَّ من التحقـيـر   بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

وهذا الشيخ إمام في العلوم، علامة في الفنون، له شهرة تامة بالتحقيق، وحسن الدراسة وإتقان التنسيق، حسبما كنت أسمع ذلك متواترا عن بعض أشياخي، وعن رفقاني في الطلب الذين حضروا مجالسه، وشاهدوا إلقاءه وتدريسه.

ومن الأسف أني لما وصلت الحضرة الفاسية، ألفيته منقطعا عن الدراسة، لمرض ألم به ألزمه الفراش نحو خمس سنين، لأنه توفي سنة 1328 هـ، وأنا وصلت لفاس سنة 26. ولكن، إن فاتني التقاط جواهر تحقيقه من فيه، لم يفتني أن أخذت عنه ذلك بواسطة أشياخنا، أو مما خلفه من آثاره الحسنة، كحاشيته الجليلة على شرح سيدي محمد ابن الإمام سيدي عبد القادر الفاسي، لنظم مصطلح الحديث؛ لأني ختمت هذا "الشرح"، من أوله إلى آخره، على شيخنا الحافظ، سيدي عبد الرحمان ابن القرشي.

وكنت ألتقط جواهر تلك"الحاشية" الفريدة التي استوعب فيها قواعد الفن، وجمع ما افترق في غيرها من كل ما رق ويروق لذوق كل مغتبط بالحديث، وبتحقيق ما يعرض في مصطلحه من الأبحاث وتعين.

وقد كنتُ كتبت على ظهر هذه "الحاشية"، عند الختام:

الحمد لله. قد ختمت هذا المصنف على حافظ وقته، العلامة سيدي عبد الرحمان بن القرشي، بحضرة فاس، وذلك يوم الجمعة من شهر شوال عام 1327هـ. ختم الله لنا بالسعادة، وجعلنا من أهل الحسنى والزيادة.هـ.

وعليه؛ أجعل قراءتي هذه "الحاشية" وصلة بيني وبين هذا العلامة المحقق، وأجعله بسببها من شيوخي، إما بالوجادة، وإما بالإجازة العامة. وقد قدمت شيئا من هذا آنفا، في الكلام على شيخ الشيوخ القادري، وأن الوجادة، من باب الأخذ بالإجازة. وقد ذكر الحافظ ابن الصلاح أنواعها، وأوصلها إلى سبع.

ويمكن أن تدخل هذه الإجازة في النوع الثالث مما ذكره، إذ قال: {النوع الثالث من أنواع الإجازة: أن يجيز لغير معين بوصف العموم، مثل أن يقول: أجزت للمسلمين، أو أجزت لكل أحد، أو أجزت لمن أدرك زماني، وما أشبه ذلك}.[علوم الحديث:59].

وعليه، فالمؤلف لهذه"الحاشية"، إنما ألفها لكل مسلم يمكن له فهمها. فلسان مقصده ناطق بأنه أجاز بها إجازة عامة. بل كل مؤلف لكتاب، مقصده صراحة أن يأخذ بما فيه، كل من قرأه أو حصله، أو انتفع بشيء مما فيه.

ولهذا يشترط صحة السند إلى المؤلف الذي ألف هذا الكتاب وغيره من المؤلفات، وإيصالها بمؤلفيها، ومعرفة ترجمة مؤلفيها من عدالة وصدق ونحو ذلك. ولهذا ترى المؤلفين يذكرون أسماءهم في أول كتبهم، كما هو معروف. وانظر أول"شرح" الشيخ الطيب ابن كيران، لتوحيد الإمام ابن عاشر.

***

[الرجوع إلى إتمام ترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني]

وأنا أقول للقارئ الآن: قد أسرفنا في هذه الاستطرادات، وعمرنا بها كثيرا من الأوقات، وخرجنا بها عن الإطالات والإطنابات، حتى يرى ذلك القارئ القليل الذوق، أن هذا شيء خال عن الإفادات، إذ هو من الطويل الممل، الذي ينسي أواخره أوائله، فيقع بذلك في مهامه تضله عن مآخذ تلك الفوائد، وبالجدوى تخل. ولكن أجيبه: إذا سلّم أن أصل المبحث فيه طاعة وخير، واستنزال لنفحات الرحمات، من ذكر الله تعالى بذكر أوليائه وأصفيائه؛ فإنه، جل وعلا، يقبل منه هذا التوجه، ويقبل منه التقرب وعليه يُقبل، ومن أتاه يمشي، أتاه جل وعلا، هرولة، وبلغه بجوده وكرمه أمله، كما في الحديث. وإذا كان خيرًا، فإن السرف فيه والإطناب لا يُعد ضيرًا.

وعليه؛ فلنقطع هذا الشريط الطويل العريض، الذي لا تُحَدّ حدوده المديدة، ولا يغور ماؤه المعين ولا يغيض. وإذ قطعنا هذا الشريط من أوائله أو أواسطه، فأقول: آنَ لي أن أتمّ ترجمة هذا الولي الصالح، شيخنا الهمام، سيدي محمد بن جعفر الكتاني.

الأبواب الرئيسية لهذه الترجمة:

إن الأبواب الرئيسية لترجمة كل فاضل وعالم، تنحصر في ذكر نسبه، وحاله وصفاته، وذكر مشايخه من أهل الظاهر والباطن، وذكر ما كان يقوم به من الدراسة ونشر العلوم، وذكر ما أبقاه بعده من الآثار والمؤلفات، وذكر وفاته وانتقاله من هذه الدار، إلى دار القرار؛ فأقول:

أما نسبه؛ فقد سبق الكلام فيه، وإلحاق ما يناسب ذلك، ومنه ذكر والده، الذي هو أحد شيوخه، وأحد عمد التدريس في المعهد القروي.

وأما حاله؛ فقد تقدم أيضا منه جملة كثيرة في أبحاث متفرقة. وقد أجمل العلامة الفضيلي القول في ذلك بعبارات معربة عن جلالة هذا الإمام، وأشار إلى ما أحرزه هذا الشيخ من شرف وعز وصلاح، وجنوح إلى معالي الأمور، من حسن السيرة، وصفاء السريرة، وحسن ظن بكل من يشار إليه بالفضل والصلاح، وتعلق به، إلى نزاهة وبعد عن كل ما يخل بمحاسن الأخلاق، من لدن نشأته، وطلوع نجم سيادته، حتى أدرك بين العامة والخاصة مقاما عليًا، واكتسب حسن الذكر والثناء العاطر، من البادي والحاضر، وامتلأ حبه في القلوب والخواطر، حتى فقذت مدينة فاس، وهي مجمع الأكابر، وديوان كل مثل سائر؛ مثل هذا الإمام الذي هو السر الظاهر. والله يؤتي فضله من يشاء.

وما تكدرت حاله، واضطرب فكره واشتغل باله، إلا عند تحين الحال، وأحاطت بالمغرب الأوجال، وطاف بأنحائه العدو وجال؛ إذ شدّ مطايا الارتحال، فرارا بدينه، وهاجر في هذا السبيل، لكي يجد عن ضيق الحالة سعة، كما أسلفنا تفصيل ذلك، فراجعه هنالك.

أما آثاره العلمية، ومخلفاته النفيسة؛ فقد ذكرنا بعضها، ومنها، وهو كتاب نفيس مفيد: "سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس"، وقد طبع بالمطبعة الحجرية بفاس في ثلاث مجلدات، وهو كتاب مفيد في بابه، جليل القدر.

ولكن لا حظوا عليه، ولا سيما أهل العصر الجديد، ما فيه من بعض حسن الظن ببعض من يشار إليه بالولاية مع الجذب، مع ارتكابهم أمورا خارجة عن منهج الشريعة، وقبوله ذلك منهم. ولكن ما فعله شيخنا في ذلك؛ فله محامل أهل العصر الجديد لا يقولون بها، لأن غالبهم لا ينظر إلا إلى المحسوسات والظواهر، ولا ينظرون إلى المعاني والأسرار التي ينظر إليها أهل الحقائق.

وقد كان أخيرا أخبرني بعض الطلبة أن هذا الكتاب سيطبع طبعة جديدة، يجرد فيها كل ما خرج عن الظواهر المعقولة. فقلت له: إن فعلوا ذلك أخطأوا، وبدلوا ما وضعه مؤلفه، وهو بما نقل أدرى، وبتخريجه مخارج الطرق الصحيحة أحرى، وأقرب ما يقال في ذلك ما قيل:

فلا تلم السكران في حال سكره   فقد رُفع التكليف في سكرنا عنا

ومسألة الجذب والسلوك، وأهل الشطحات وطرق الملامتية؛ معروفة بين أهل التصوف. وقد كنا ألممنا بشيء من ذلك، وسنزيد تفصيلا في ذلك بعد هذا، إن شاء الله، لأن المقام هنا قد ضاق باتساع المجال، ودخل في باب الملل هذا المساق.

ومن مؤلفاته: "الأزهار العاطرة الأنفاس، بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس"، و"سلوك السبيل الواضح، في بيان أن القبض في الصلاة كلها مشهور وراجح"، وآخر في توهين حديث"كل أمر ذي بال" من الوجهة الصناعية، وآخر في الخصال المكفرة للذنوب، وآخر في الكتب التي يحتاج إليها طالب علم الحديث، وآخر في البيت الكتاني، وآخر في المولد النبوي، وقد ذكرناه سابقا، وبنينا على أصله مسائل ومباحث جليلة في المولد النبوي الشريف، فراجع ذلك في محله، و"التبيان"، و"نظم المتناثر، من الحديث المتواتر"، و"الإعلام فيما يتعلق بالمجانات"، وآخر فيما يتعلق بالحرير، و"شفاء الأسقام، ببيان بعض ما تنفر منه الملائكة الكرام". وجملة هذه المؤلفات تامة؛ بعضها منشور بالطبع. وهناك مؤلفات له، رضي الله عنه، غير تامة؛ إما لم يعثر عليها، وإما لا زالت مبددة في الأوراق.

أما شيوخه؛ فأولهم والده وهو عمدته، و[قرأ] على العلامة ابن جلون وغيره من مشاهير الأعلام.

أما الرواية الحديثية، وأسانيد الطرق الصوفية؛ فقد روى ذلك، وأخذ الطرق عن جماعة من المحدثين، وشيوخ الطرق على اختلاف أسماء طرقها، إذ كان رحمه الله، يحسن الظن بجميع أصحاب الطرق، ويسلم للجميع، ولا يعترض على طريق منها. أما الحديث فقد أجازه والده، والشيخ بناني كلا ، وأبو العباس ابن الحاج، وغيرهم من شيوخ الوقت.

ولما سافر إلى الحجاز لأداء الفريضة، أجازه بمكة جماعة؛ منهم الباعلوي المكي، وأحمد العطاس، وأحمد الخضراوي، وعبد الله القدومي النابلسي الحنبلي، وهؤلاء كلهم بمكة.

وأجازه بالمدينة المشرفة: محمد الميرغني، وابن طاهر، وأحمد البرزنجي، وعبد القادر الشلبي، وغيرهم من علماء المدينة. هذا ما ترجمه به صاحب "رياض الجنة". [ص77].

كما أخذ عن أعلام بدمشق، كبدر الدين المغربي، وعبد الحكيم الأفغاني، ومحمد أمير البيطار، وغيرهم. كما أخذ أيضا بمصر عن أعلامها، كالشربيني، والبشري، والرفاعي، وغيرهم.

أما الطرق الصوفية؛ فقد أخذ جملة مما اشتهر منها في وقته عن شيوخها؛ فأخذ السعدية، والعيدروسية، والخلوتية، والحدادية، والنقشبندية، والدرقاوية ورواها من طرق، عن الشيخ شقورالعلمي، الشهير بشفشاون، عن أبي الحسن العلمي، عن الشيخ الحراق دفين تطوان. وأخذها أيضا عن شيخنا ابن الخياط. وأخذ الناصرية عن أبي العباس الناصري، والتهامية عن سيدي محمد الغياثي، والريسونية عن سيدي عبد السلام ابن ريسون، دفين تطوان في زاويتهم الشهيرة، وهو الذي أسلفنا ترجمته في المجلد الأول. والصادقية عن أبي العباس الصادقي، والكرزازية عن أبي الحسن العلمي.

كما تلقى "دلائل الخيرات" عن ابن الخياط وغيره. وروى أحزابا للحاتمي، والجزولي، وزروق، وكافة الأحزاب في الطريقة التجانية، عن أبي العباس بناني كلا، عن أبي عبد الله بصري المكناسي الشهير، الذي ترجمه العلامة ابن زيدان في"تاريخ مكناس". إلى غير ذلك من الأوراد والأذكار التي كان، رضي الله عنه، يأخذها عن أهلها، تبركا ورجاء التقرب بذكرها إلى الله. وشأنه، رحمه الله، كان مهما سمع بطريق أو شيخ يشار إليه بالخير إلا قصده وزاره إن كان حيا، وزار زاويته أو قبره أو أصحابه، إن كان ميتا أو بعيدا عن بلده، عملا بقول سيدي إبراهيم التازي: زيارة أرباب التقى مرهم يبري، إلخ.

وهذه الحالة هي التي كان عليها أهل الله من خيرة أهل التصوف، في القديم والحديث، وقد أسلفنا شيئا من ذلك.

أما وفاة هذا الشيخ الجامع للمحاسن والفضائل، وأجمع على مدحه والثناء عليه، والاعتقاد فيه، كل من شاهده واستعذب ما له من الشمائل.

والناس أكيس من أن يمدحُوا رجُلا   مـا لمْ يـــروا عنده آثـــار إحسان

فكانت بعد رجوعه من المشرق إلى فاس، في16 رمضان عام خمسة وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية. ودفن بروضة أسلافه، قرب المصلى، ثم نقل إلى عدوة الأندلس، وبنيت عليه زاوية، قدس الله روحه، وبرد بأنوار الرحمات ضريحه، ونفعنا به وبأمثاله من شيوخنا الأعلام، الحاملين رايات ديانة الإسلام، آمين.

[انتهاء ترجمة الشيخ الكتاني، وختام المجلد الخامس من هذه "الفهرسة"]

وهنا انتهت ترجمة شيخنا الكتاني، بلغني الله وإياه ما كان يسعى إلى بلوغه من مقعد صدق عند مليك مقتدر، من منتهى الأماني، آمين. وبها يتم المجلد الخامس من"النعيم المقيم"، جعل الله ما كتبناه في ذلك، وأنضينا فيه ليلنا ونهارنا، من العمل الخالص لوجهه الكريم، آمين.

وكان الفراغ من هذا المجلد الخامس، يوم السبت ثالث شهر رجب الله الفرد، عام 1390هـ. غفر الله ذنبي، وبلغني من رضاه، جل وعلا، ما يتمناه قلبي. آمين.

[ويليه، بعون الله وتوفيقه، المجلد السادس، وفي مستهله بعد التصدير، الكلام على ما ورد في افتتاح الأمور يوم الأربعاء...إلخ].

[وفيما يلي فهرس مواد ومطالب هذا الجزء]

فهرس مواد ومطالب الجزء الخامس من
" النعَّيم المقيم،
في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم "

بيان الموضوع:	رقم الصفحة
- فاتحة المجلد الخامس - قوله تعالى:(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ) الآية، وعجز الإنسان عن الإحاطة بأسرار هذا الكون وتدبيره:	5
- المرحلة السادسة في علم الحديث، حسب تقسيم المؤلف:	9
- الإمام ابن الصلاح، الذي وصف حالة الحديث في القرن السابع :	9
- مفاخرة هذه المرحلة لما قبلها بما امتازت به من حفاظ كبار:	11
- ترجمة الحافظ المنذري:	11
- نكبة التتار وما فعلوه بالمسلمين، وما أعقب ذلك من نكبات:	12
- حرق اليهود للمسجد الأقصى في الوقت الحاضر:	13
- مواصلة ذكر مشاهير الحفاظ: ابن النجار البغدادي - محب الدين الطبري - أبو العباس اللخمي الأندلسي – عز الدين ابن الأثير:	14
- ترجمة الإمام النووي:	15
- الإمام ابن دقيق العيد، أحواله وكراماته وفوائده:	17
- كلام سيدنا علي في احتقار الدنيا، والاقتداء بالأنبياء في ذلك:	20
- شعر للمؤلف في حقارة الدنيا، وفي العزلة والبعد عن الناس:	21
- كلام المؤلف على إطنابه في هذه "الفهرسة"، وتوقع الانتقاد:	22
- كلام ابن دقيق العيد في موضوع الانتقاد والاعتراض:	23
- الرجوع لذكر مشاهير المرحلة السادسة: الإمام الذهبي - الحافظ المزي الدمشقي الحافظ الدمياطي:	24
- أخذ المؤلف الفأل من كتاب "الفتوحات"، وذكر فائدة في اسم الكرم والجود الإلهي:	26
- تفسير معنى آية(مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)، وإيثار باب الرجاء، والدخول من باب الكرم:	27
- الرجوع لإتمام ذكر مشاهير المرحلة السادسة: الحافظ أبو الفتح اليعمري - الحافظ صلاح الدين العلائي – الشيخ تقي الدين السبكي وما قاله في ترجمته ولده التاج، ومسألة مدح النفس:	28
- العجب والإدلال، والآفات التي توجب النهي عن المدح:	31
- القصد من ذكر مناقب العلماء، هو إرشاد الناس للاقتداء بهم، كما فعل التاج السبكي في ترجمة والده:	32
- تأليف الشيخ سيدي العربي الفاسي، في ترجمة والده، وتبريره لذلك:	35
- الاعتبار بقصص القرآن الكريم، والرد به على من ينكر ذكر مناقب العلماء والأولياء:	37
- التعريف بالنفس من أجل المصلحة العامة:	39
- عود لترجمة الشيخ تقي الدين السبكي، وذكر سلسلة الحفاظ :	40
- الرجوع إلى موضوع إعراض العلماء عن الاعتناء بعلوم الحديث، وكلام التاج السبكي على كثرة الأسانيد التي أوردها في كتابه:	43
- العلامة ابن خلدون - ترجمته، و كلامه في انقطاع التخريج في عصره:	44
- كلام المؤلف عن نهجه في هذه "الفهرسة"، ووصفه لحاله، وما طبع عليه من حب لمختلف فنون العلوم:	46
- عود إلى ترجمة الشيخ الكتاني (من شيوخ المؤلف) :	47

47	ـ إنكار آراء بعض أهل العصر المؤدية إلى الإلحاد والطعن في الشريعة ـ الحث على الدعاء للإمام:
49	ـ الرجوع إلى تتميم الكلام على المرحلة السادسة للحديث الشريف، وكلام الإمام الغزالي في التدريج في تعلم العلم الكفائي:
50	ـ المنهج الذي أدرك عليه المؤلف شيوخه بفاس وتطوان في دراسة الحديث:
50	ـ الرجوع إلى كلام الإمام الغزالي بشأن الحديث:
51	ـ مقالة أبي شامة فيما صار إليه الحديث، وفتح باب التصحيح:
51	ـ مقالة ابن الصلاح في سد باب التصحيح، وتعقب كلامه:
54	ـ الكلام على المرحلة السابعة، وهي واسعة، وتزايد تقلص ظل الحديث وعلومه:
55	ـ ختم جلال الدين السيوطي على علمه بسبب انحراف أهل عصره:
56	ـ ترجمة الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي تدارك الله به هذه المرحلة:
58	ـ ترجمة الحافظ العراقي، شيخ ابن حجر:
60	ـ من أهل الحديث أيضا: نور الدين الهيتمي، الإقفهسي، البوصيري، أبو زعة العراقي:
61	ـ وممن يتعين إدراجه في هذه المرحلة أيضا؛ شيخ القراء، الإمام محمد ابن الجزري، وذكر ترجمته:
62	ـ استطراد الكلام على ظهور تيمور لنك المغولي وفساده في الأرض:
63	ـ مواصلة ترجمة الإمام ابن الجزري:
65	ـ ترجمة الحافظ السخاوي:
67	ـ من مفاخر هذه المرحلة؛ الحافظ جلال الدين السيوطي، وما أنكروه عليه في دعواه الاجتهاد، وما في ذلك:
70	ـ تشدد الإمام النووي في منع الاجتهاد، ورد مقالة الإمام السيوطي، ورأي المؤلف في ذلك:
71	ـ من تمام ترجمة الإمام السيوطي، ما ترجمه به الشيخ ابن الخياط:
71	ـ ومما يلحق بترجمة هذا الإمام؛ ما نسب له من التساهل في تقوية الموضوعات بكثرة المخرجين لها من غير نظر إلى الإسناد:
74	ـ ترجمة شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري:
75	ـ ترجمة : الإمام القسطلاني، الحافظ المناوي، العلامة ابن سلطان القاري:
77	ـ كلام المؤلف على مغزى تقسيم مراحل الحديث:
77	ـ مواصلة ذكر مشاهير هذه المرحلة: الإمام محمد الزرقاني ـ الشيخ التاودي بن محمد بن الطالب ابن سودة:
81	ـ وممن يستوجب إلحاق ترجمته بهذه المرحلة، الشيخ مرتضى الزبيدي الحسني، شارح القاموس:
85	ـ انتقاد سلطان المغرب للشيخ في رده الصلة، وشرحه كتاب"الإحياء" للغزالي:
86	ـ مسألة الوزير التركي، أحمد باشا الجزار، وشهادة الشيخ مرتضى له بأنه المهدي المنتظر:
86	ـ دعوى المهدوية بلوى قديمة، وحال الأقطار الإسلامية في عصر الشيخ:
89	ـ تغير حال الشيخ مرتضى وانعزاله وتزهده، ورفضه قبول الصلات والهدايا:
89	ـ مسألة طعن علماء المغرب في كتاب"الإحياء"، وإحراقه أيام المرابطين:
91	ـ طبع كتاب "الإحياء" بالمطبعة الحجرية بفاس، بأمر السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان، وتوزيعه على أهم المدن، وكانت توجد نسخة بخزانة الجامع الكبير بتطوان:
92	ـ ثناء المؤلف على الإمام الغزالي، وإعجابه وانتفاعه بكتابه "الإحياء":
93	ـ التنويه بمقام الشيخ مرتضى وبشرحه للإحياء:
94	ـ الشيخ مرتضى وآثاره العلمية، وتقريظ المؤلف لكتابه"تاج العروس":

ـ ترجمة العلامة الشرقاوي، شيخ الأزهر، وشارح"التجريد الصريح":	96
ـ ترجمة الحافظ الشوكاني، والتنويه بكتابه"نيل الأوطار"، ونقده:	97
ـ الشيخ أحمد بن عبد الرحمان البنا الساعاتي، وترتيبه لمسند الإمام أحمد، والثناء على ما قام به من عمل جليل، مع ذكر جملة من كتابه للتعريف بقدره :	101
ـ العلامة الطهطاوي، وترتيبه لأحاديث الإمام البخاري:	104
ـ وصل المرحلة السابعة والأخيرة للحديث؛ بالشيخ محمد بن جعفرالكتاني:	105
ـ ختم مراحل الحديث وتلخيص ما تقدم ذكره عنها:	106
ـ الانتقال للكلام على المذاهب الفقهية وتحريرالفقه، ومسألة الاجتهاد والتقليد:	108
ـ المذاهب الفقهية المتبعة، ونظم أسماء أربابها:	109
ـ الأئمة المجمع على تقليدهم، وكلام القاضي عياض وابن خلدون، في ذلك:	110
ـ تعذر الاجتهاد لفقد شروطه، وتدوين الفقه وتحرير أصوله:	112
ـ المذهب المالكي وكبار أئمته، وأهم مؤلفاتهم، وجهود الفقهاء في تحصيل ما في الأمهات الفقهية:	113
ـ كتاب "النوادر" لابن أبي زيد القيرواني، وهو من الكتب النادرة، وتوجد نسخة مخطوطة منه بخزانة الجامع الكبير بتطوان:	114
ـ كتاب ابن الحاجب المالكي، وإقبال علماء المغرب عليه:	114
ـ كتاب"التوضيح" للشيخ خليل، وثناء المؤلف عليه، وانتفاعه به أيام الدراسة:	115
ـ سرد أسماء المؤلفات الشهيرة في الفقه المالكي بأقسامها:	116
ـ مختصر الشيخ خليل ومزياه، واهتمام العلماء بشرحه وتيسير فهمه:	116
ـ حاشية الشيخ الرهوني ـ شرح المختصر لأبي علي ابن رحال ـ حاشية الشيخ ابن الخياط :	117
ـ اعتناء الشيخ ابن الخياط بجمع المؤلفات المشهورة في المذهب في تقييد له:	118
ـ ذكر سند الفقه المالكي، نقلا عن الشيخ العياشي، عن الشيخ الثعالبي:	119
ـ غاية المؤلف من ذكر هذا السند: .	123
ـ سند الشيخ ابن الخياط في الفقه، واتصال المؤلف بسنده:	124
ـ إهمال أهل العصر مثل هذه المسائل، وإعراضهم عن الفقه الإسلامي:	125
ـ تعريف الفقه والفقهاء عند الإمام الغزالي:	125
ـ الدولة الأموية في الأندلس، وما كان للفقهاء فيها من مكانة ورفعة:	126
ـ الرجوع إلى موضوع "تقييد" الشيخ الثعالبي، وما تضمنه من ذكر أعلام المذهب المالكي وآثارهم:	126
ـ استحسان المؤلف السند الفقهي الذي اعتمده الشيخ ابن الخياط:	128
ـ سند الشيخ الحطاب في الفقه:	129
ـ أساس دين الإسلام التفقه في قواعده وأحكامه:	130
ـ فقهاء الصحابة الذين كان المرجع إليهم في الفتوى والتعليم:	131
ـ الستة الذين كانوا يفتون على عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، ونظم أسمائهم:	132
ـ حصر الفتوى في خلافة أبي بكر في سبعة من الصحابة:	135
ـ القراء الذين أرسلهم سيدنا عمر إلى الشام: .	136
ـ بقية مشاهير علماء الصحابة الأحداث الذين ذكرهم ابن سعد في "طبقاته":	136
ـ صحيفة عبد الله بن عمرو التي سماها(الصادقة):	139
ـ مشكلة قلة رواية أكابر الصحابة للحديث، وكثرة روايته من الأحداث منهم:	141
ـ التخصص في العلوم وأصله:	144
ـ مواصلة الكلام على جهود علماء المذاهب في الكتابة والتأليف:	146

146	- مذهب الإمام الشافعي وانتشاره وجهود كبار أعلامه:
147	- مسألة تعيين الحق في مذهب واحد، وإفراط التاج السبكي في التعصب لمذهب الشافعي، وما في ذلك:
149	- مسألة الترجيح بين المذاهب:
149	- الحكم بترجيح مذهب مالك، وبيان أوجه الترجيح:
153	- ما قاله الفقيه الزواقي حول سبب عدم طبع كتاب "المدارك" في الشرق:
153	- مواصلة بسط كلام القاضي عياض في مسألة ترجيح مذهب مالك:
154	- رؤيا المؤلف للولي الشيخ سيدي عبد السلام بن ريسون:
154	- الرجوع إلى ذكر أكابر علماء المذاهب الذين اشتغلوا بالفقه والاستنباط:
155	- انتشار المذهب الشافعي في الشرق، وذكر بعض مشاهير أئمته:
158	- ثناء الشيخ ابن الخياط على كتاب"طبقات الشافعية"، وتجريد فوائده:
158	- ترجمة التاج السبكي لأبي حيان التوحيدي الذي تخالفت فيه الآراء:
159	- مواصلة ذكر مشاهير الشافعية الذين ذكرهم التاج السبكي:
160	- عز الدين ابن عبد السلام، ترجمته، ومواقفه، وتصوفه، وجملة وافرة من فوائده، ونصرته للعقيدة الأشعرية وأهل السنة:
171	- مواصلة ذكر مشاهير علماء المذهب الشافعي - مناظرة الشيخ صفي الدين الهندي للشيخ ابن تيمية ومحنة هذا الأخير بالسجن:
172	- استدراك على صاحب"الطبقات" عدم ذكر إسناد الفقه إلى إمامه:
174	- الفقهاء الذين استدرك ذكرهم الحافظ السيوطي بعد عصر صاحب"الطبقات":
176	- المذهب الحنفي وإمامه وأكابر أصحابه:
177	- دعاء سيدنا علي بن أبي طالب لجد أبي حنيفة بالبركة فيه وفي ذريته:
177	- شهرة الإمام في العلم والورع وسعة المال:
178	- امتناعه من ولاية القضاء ومحنته:
179	- سبب امتناع أكابر الأئمة والعلماء من ولاية القضاء:
179	- الرجوع إلى موضوع احتياج الناس إلى الفقه، والنظر إلى جهود أئمة سائر المذاهب بدون تعصب - ذكر بعض مشاهير المذهب الحنفي :
180	- المسألة الفقهية التي وقعت لمحمد بن الحسن مع الإمام مالك:
181	- مناظرة محمد بن الحسن للإمام الشافعي بشأن اعتماد عمل أهل المدينة، وما في ذلك من فوائد:
182	- أبو يوسف، القاضي الشهير، من أصحاب أبي حنيفة، ونبذة من حياته:
183	- أفاضل أصحاب أبي حنيفة - مسألة تأدب أصحاب الأئمة مع شيوخهم رغم إدراكهم مرتبة الاجتهاد، وتفسير معنى مجتهد المذهب:
185	- تراجم بعض مشاهير الحنفية الذين كانوا بمصر:
187	- مذهب الإمام أحمد بن حنبل:
188	- الحافظ عبد الغني المقدسي الحنفي، وذكر بعض مشاهير الفقهاء الحنابلة:
189	- التذكير بموضوع هذه "الفهرسة" والقصد منها: .
189	- ما نشأ عن ترجمة الشيخ الكتاني - شيخ المؤلف - من الكلام على مراحل الحديث والفقه من عهد الصحابة إلى عصرنا الحاضر
192	- عود إلى ترجمة الشيخ الكتاني، ومؤلفاته، والكلام على كتابه"الأزهار العاطرة الأنفاس، بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس":
195	- رؤيا المؤلف في طفولته لمولاي إدريس على هيئة سلطان:
197	- مسألة عدّ معاوية بن يزيد الأموي والمتوكل العباسي من الخلفاء:
199	- استدراك على مؤرخ بغداد عدم ذكر مثالب المتوكل العباسي:

200	- الرجوع إلى ترجمة الشيخ الكتاني، وفرط محبته في الجناب النبوي المحمدي:
200	- الجواب عن قول القائل بأن أهل فاس خرجوا بتعظيمهم للمولى إدريس إلى التشيع:
203	- حديث "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم":
203	- التحذير أيضا من الغلو في تعظيم الأمراء والأئمة والشيوخ:
204	- استمرار أهل الفضل والعلم في التعبير عن تعلقهم ومحبتهم لآل البيت؛ من ذلك قصيدة الفرزدق في مدح علي بن الحسين:
206	- تأليف الشيخ الكتاني في المولد النبوي الشريف:
207	- اعتماد الشيخ الكتاني القول بجواز إقامة المولد النبوي عيدا:
207	- مباحث في المولد النبوي الشريف - نشأة الأعياد في الإسلام - اشتقاق اسم العيد - لم يكن للعرب عيد خاص - أسواق ومواسم العرب:
214	- أعياد أهل الإسلام، وما ألحق بها :
217	- مباحث في يوم عاشوراء، وما قيل في فضله وصومه والاحتفال به إلخ، سماها المؤلف بـ"الجواهر المنثورة، في فضائل يوم عاشوراء، وما يفعل فيه من الخصال المأثورة" :
220	- فتوى الحافظ العراقي ورده على ابن تيمية بشأن يوم عاشوراء:
223	- مواصلة الاستدلال لما يفعل من المباحات في يوم عاشوراء:
224	- ذكر ما يشهد لأصل تلك الخصال التي يتضاعف أجرها في الأزمنة الفاضلة:
232	- زيارة النساء للأضرحة في يوم عاشوراء، ومسألة البخور وما في ذلك:
233	- ختم مباحث عاشوراء، والكلام على دعاء يُدعى به في هذا اليوم لطول العمر:
235	- الرجوع إلى الكلام على المواسم المحدثة - أول ليلة من رجب - ليلة الإسراء والمعراج، وعادة أهل تطوان في ذلك:
236	- تلخيص ما قاله العلماء بشأن ما ورد في فضل رجب:
241	- صلاة الرغائب وما قيل فيها، وتقسيم البدعة:
242	- استدراك بيان الخصال التي تفعل في يوم عاشوراء، ونظم المؤلف لها، وختام مباحث هذا الموضوع :
244	- الرجوع لإتمام الكلام على المواسم المحدثة، وعادة تطوان في الاحتفال بليلة المعراج، وصيام أول خميس من رجب:
245	- مباحث تتعلق بالإسراء والمعراج، والرد على من يقول باستحالته :
252	- المعجزة الصادرة عن الأنبياء من شأنها خرق العوائد:
252	- ملخص ما جاء في في قضيتي الإتيان بعرش بلقيس، وتسخير الريح: .
254	- كلام بعض المفسرين في رد استحالة الإسراء بالجسد:
256	- مسألة الطيران في الوقت الحاضر وما وصلت إليه:
257	- فوائد تتعلق بالسفر بالطائرة لأداء فريضة الحج:
260	- الحج عن طريق البحر وما قيل فيه:
262	- إقبال الناس على قصد البقاع المقدسة، وما يراه المؤلف من الإفتاء لهم بأيسر الأقوال:
262	- بعض فضائل الحج - تعاطي التجارة في الحج - الحج بالمال الحرام:
265	- عود لموضوع المواسم المحدثة، ومسألة الاحتفال بليلة النصف من شعبان:
267	- مباحث في إحداث الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، سماها المؤلف"تجديد المسرات والأفراح، بذكرى مولد شمس الموجودات وروح الأرواح":
268	- التمهيد للموضوع بالكلام على سوء الأحوال في هذا القرن الرابع عشر، ومسألة العزلة عن الناس وما قيل فيها:

- شروع المؤلف في ذكر تقييده بشأن المولد النبوي الشريف - نسبه صلى الله عليه وسلم - أمهاته عليه السلام - تزوج والده بالسيدة آمنة - المولد الكريم - تعيين يومه - الدار التي ولد فيها، صلى الله عليه وسلم:	275
- تلخيص السيرة النبوية للعلامة الدميري - ترجمته:	282
- تلخيص شمائل المصطفي، صلي الله عليه وسلم، من كتاب "الإحياء":	285
- مذاكرة في حديث: "أدبني ربي فأحسن تأديبي":	289
- إحداث الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وكلام العلماء في ذلك:	292
- فتوى الإمام الحفار في انكار إقامة المولد، ومخالفة صاحب "المعيار" لهـذه الفتوى:	293
- فتوى العارف ابن عباد باستحسان إقامة المولد وتأييد ذلك بكلام بعض الفضلاء:	295
- أول من أحدث إقامة المولد الشريف ملك إربل، والكلام على هذه المدينة، وسيرة ملكها وتعسفه في جباية الأموال:	296
- حكم التصرف في أموال الدولة والأموال المغصوبة:	297
- من محاسن الملك المظفر، كونه أول من احتفل بالمولد الشريف، ووصف طريقته في هذا الاحتفال الرسمي:	298
- اتصال الحافظ ابن دحية بمظفر الدين، وتأليفه في المولد الشريف:	300
- إحداث عمل المولد النبوي بالمغرب من طرف الرئيس العزفي السبتي، وتأليفه في ذلك:	302
- نظم العلامة التلمساني في إنكار ترك أهل الإسلام الاحتفال بأعيادهم، والاحتفال بأعياد غيرهم:	303
- اهتمام الناس بأعياد الأجانب كان من دوافع إحداث الاحتفال بالمولد الشريف:	304
- تفسير كلام العلامة ابن الحاج في موضوع هذا الإحداث:	307
- ملخص معنى قصيدة العلامة التلمساني في الإنكار على المسلمين تركهم تعظيم أعيادهم ومواسمهم:	308
- ترسيم الاحتفال ببعض أعياد الفرس أيام الدولة الأموية:	309
- مسألة الاقتداء بالغالب، وتقليد الأجانب:	311
- الرجوع إلى موضوع الاحتفال بالمولد النبوي، واقتداء ملوك المغرب بما أحدثه العزفي صاحب سبتة - وصف الحفل الذي كان يقيمه سلطان تلمسان:	312
- السلطان أبو حمو، وذكر شيء من ترجمته:	317
- مواصلة الكلام على إحداث الاحتفال بالمولد النبوي، وما ذكره الشيخ الكتاني في "مولديته":	320
- إظهار الفرح بأنواع مثيرات للمسرات في الأعياد والأعراس والمواليد وغيرها مباح:	322
- أسئلة ستة بشأن المولد النبوي، والجواب عنها بإفاضة:	324
- السؤال الأول: ما سبب عدم احتفال الصحابة ولا من أتي بعدهم بهذا المولد؟:	325
- السؤال الثاني: هل يوجد في الحديث ما يصح أن يكون سندا لإحداث هذا العيد؟:	327
- السؤال الثالث: ما السبب الداعي للرئيس العزفي لإحداث هذا الاحتفال؟:	328
- السؤال الرابع عن التفاضل بين ليلة القدر وليلة المولد:	329
- اتساع أقطار الإسلام، وتباين المعارف والعادات، وما تولد عن ذلك من مناظرات واختلافات وتعصبات:	331
- ما قيل في التفاضل بين المدينة ومكة:	332
- الرجوع إلي موضوع الاحتفال بليلة المولد والتفاضل بينها وبين ليلة القدر:	335
- السؤال الخامس، ليلة الإسراء وليلة القدر وما قيل في التفاضل بينهما:	337
- السؤال السادس، في شأن الخلاف في ليلة ويوم مولده، صلى الله عليه وسلم:	339
- ملخص ما كتبه المؤلف في المولد النبوي الشريف:	340

342	ـ وصف ما كان عليه الاحتفال بالمولد بحضرة فاس:
343	ـ وصف الاحتفال بليلة المولد بتطوان:
346	ـ مسألة القيام عند ذكر ولادته، صلى الله عليه وسلم، أثناء قراءة المولدية:
348	ـ عادة إطعام العصيدة يوم المولد الشريف، وأصلها وسندها:
352	ـ ختام تقييد المؤلف الذي سماه:"تجديد المسرات والأفراح" إلخ:
352	ـ محبة النبي، صلى الله عليه وسلم، من الفروض الواجبة، وهي الأصل الذي بنى عليه الصوفية طريقتهم:
358	ـ ختام موضوع المولد النبوي الشريف، ومواصلة ترجمة الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني، (شيخ المؤلف):
359	ـ قراءة صحيح البخاري لتفريج الكرب، وما كانت عليه عادة تطوان في ذلك:
360	ـ التوسل بكتاب صحيح البخاري عادة قديمة:
361	ـ المباحث التي تحتوي عليها ترجمة الشيخ الكتاني :
363	ـ ترجمة والده سيدي جعفر :
365	ـ من فوائد سيدي جعفر الكتاني أنه كان لا يرى بأسا بسماع الغناء بآلات الطرب:
365	ـ تأليف الشيخ كنون في تحريم ذلك كان للرد على الشيخ جعفر، لا ما يتوهم من اعتراضه على الشيخ ابن ريسون:.
366	ـ رجوع واستدراك في موضوع ختم صحيح البخاري:
367	ـ مواصلة ترجمة الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني، وشفاعته لدى جلالة السلطان في عائلة الشريف الكتاني:.
368	ـ اقتداء الشيخ الكتاني بالنبي، صلى الله عليه وسلم، في سيرته وأحواله:
370	ـ ثلاثة من كبار شيوخ فاس فات المؤلف الأخذ عنهم:
371	ـ وصف مجالس الشيخ سيدي محمد بن جعفر الكتاني، وما يعده المؤلف من كراماته:
372	ـ أحد الثلاثة الذين فات المؤلف الأخذ عنهم: الشيخ امحمد القادري، سليل القطب مولانا عبد القادر الجيلاني:
373	ـ الطريقة القادرية وشهرة شيخها شرقا وغربا، وذكر كراماته:
375	ـ ترجمة الشيخ سيدي امحمد القادري، والأخذ بالوجادة عنه بواسطة الشيخ سيدي أحمد البلغيثي:
377	ـ كتاب الشيخ القادري: (رفع العتاب والملام، عمن قال العمل بالضعيف اختيارا حرام) وتذييل بعض فصوله بمباحث فقهية وأصولية:
379	ـ مبحث إزالة النجاسة عن المصلي، وما في ذلك من أقوال وردود:
382	ـ تفرع الأقوال في هذه المسألة لعدم وجود النص القاطع، والاختلاف في التأويل:
385	ـ رد ما توهمه أحد الفقهاء في نجاسة الثياب الصوفية المنسوجة ببلاد النصارى:
388	ـ كلام الإمام ابن رشد على أصل هذه المسألة، وسبب الاختلاف فيها:
389	ـ لا خلاف في إزالة النجاسة عند ابي حنيفة والشافعي وأهل الظاهر:
391	ـ كلام الإمام الطبري وأهل الحقيقية في تفسير قوله تعالى: (وثيابكَ فطهّر):
392	ـ خلاصة مبحث إزالة النجاسة:
393	ـ مسألة بعض النجاسات التي يصعب الاحتراز منها:
394	ـ من فوائد الشيخ القادري أيضا مسألة العمل بالضعيف اختيارا، وما في ذلك:
396	ـ إعراض أهل العصر عن نصوص المذهب وتطاول بعضهم على مقام من سبقونا بالعلم والإيمان:
397	ـ "تقييد" العلامة العميري، وهو في معنى الرد على كتاب(رفع العتاب) للشيخ القادري ـ مسألة تتبع الرخص:
399	ـ انتقاد ما يقع في عصرنا من إذاعة بعض الأقوال الشاذة بين عموم الناس:

ـ كلام العلامة العميري في تقليد الأقوال الضعيفة عند الضرورة لما في ذلك من تيسير وسعة على الناس:	399
ـ استدراك في مسألة جمع صلاة الظهر والعصر جمع تقديم:	401
ـ مسألة اختلاف الأقوال بين العلماء، وتقليد القول المرجوح:	403
ـ تعقب كلام الشيخ القادري بجواز العمل بالقول الضعيف دون الفتوى به:	404
ـ تشدد الشيخ في مسألة الحضور بالأماكن المفروشة بالحرير ومزينة بالصور، رغم الخلاف في ذلك، وضرورة تقليد من يقول بتحليل مثل هذه الأمور:	404
ـ مسألة الأخذ من الكتاب والسنة، وتذييلها بمبحث في الاجتهاد والاستنباط:	405
ـ التفسير بالإشارة عند الصوفية، وما فيه:	408
ـ التفسير على قسمين: الأول مرجعه النقل المحض ـ التفسير بالإسرائليات:	409
ـ القسم الثاني من التفسير هو بمقتضى مدلول اللغة:	411
ـ ذكر من يجوز له تفسير القرآن:	412
ـ علم الموهبة، وتفسيره:	412
ـ الرجوع إلى مسألة استعمال الحرير في الفرش واللباس، وما في ذلك من الخلاف:	414
ـ غاية المؤلف من هذه النقول، والكلام على علة تحريم الحرير:	417
ـ مسألة الصور والتماثيل وما فيها:	418
ـ مما استشكل في هذا الباب مسألة تماثيل سيدنا داوود، عليه السلام، والجواب عن ذلك:	421
ـ مسألة الاختراعات الجديدة:	422
ـ التلفزيون، ومسألة تحريم الصور:	423
ـ اعتذار المؤلف عن كثرة أبحاث هذه "الفهرسة"، ومدح الكتاب، وفضل الاشتغال بالعلم:	424
ـ تقريظ الجاحظ للكتاب ومدحه في مؤلفه "حياة الحيوان":	425
ـ إتمام الكلام على شيوخ فاس، الذين فات المؤلف الأخذ عنهم، وذكر ثالثهم الشيخ امحمد جنون، والأخذ عنه بالإجازة العامة:	426
ـ الرجوع للكلام على الأبواب الرئيسية في ترجمة شيخ المؤلف، سيدي محمد بن جعفر الكتاني، والإشارة إلى كتابه"سلوة الأنفاس"، وما انتقد عليه فيه :	428
ـ شيوخه في العلم والحديث والتصوف، وذكر وفاته، وبذلك تمت ترجمته:	430
ـ ختام المجلد الخامس من"النعيم المقيم"، لمؤلفه الفقيه محمد المُرير، رحمه الله:	432

(تمَّ بعون الله وفضله)

****

تخريج وتنسيق: أحمد بن محمد المُرير
غفر الله له ولوالديه
تطوان: 1428هـ 2007 م

(حقوق إعادة الطبع محفوظة لخزانة المؤلف، رحمه الله)

رئيس الجمعية:

السيد محمد بن عبد الخالق الطريس

الرئيس المنتدب:

ذ. عبد السلام الشعشوع

الكاتب العام لمنشورات تطاون أسمير:

أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمي

اللجنة العلمية لمنشورات تطاون أسمير:

وأعضاء النادي:

أ.د. امحمد ابن عبود

أ.د. محمد الشريف

ذ.ة. حسناء داود

ذ.ة. تماضر الخطيب

ذ. عبد العزيز السعود

د. رشيد مصطفى

ذ. عبد الغني الميموني

ذ. عبد القادر الزكاري

ذ. مصطفى الغازي

ذ. محمد ابن عبود

الثمن 80 درهما

العنوان

ساحة 9 أبريل ص.ب. 633 تطوان الهاتف - الفاكس: 039.70.20.25

www.asmir.web.ma E-mail: tetouan.asmir.@caramail.com

أنجز بدعم من وكالة تنمية

عمالات وأقاليم شمال المملكة